العـــرب والبرتغـــال

في التاريخ

٩٣ هـ إلى ١١٣٤هـ

٧١١م إلى ١٧٢٠م

أكثر من ألف سنة من الأحداث بين الأمتين

لم تأتِ في كتابٍ واحدٍ قبل هذا

تأليف

فـــالـــح حنـــظـــل

دكتوراه في الدراسات العربية والإسلامية

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

منشورات المجمع الثقافي

Cultural Foundation Publications

ابوظبي ـ الإمارات العربية المتحدة ـ ص. ب ٢٣٨٠ ـ هاتف : ٢١٥٣٠٠

ABU DHABI - U . A . E . - P .O. BOX : 2380 - TEL. 215300 Cultural Foundation

٩٥٦
فـاع ر
فالح حنظل، ١٩٣٤ –
العرب والبرتغال في التاريخ ٩٢ هـ الى ١١٣٤ هـ – ٧١١ م الى ١٧٢٠ م: اكثر من الف سنة من الاحداث بين الامتين / تاليف فالح حنظل. – ط ١. – ابو ظبي: المجمع الثقافي، ١٩٩٧.
٥٦٠ ص، ٢٤ سم.
ببليوجرافية: ص ٥٣٧ – ٥٤٦.
١ – العالم العربي – تاريخ – الاحتلال البرتغالي. ٢ – دول الخليج العربي – تاريخ – الاحتلال البرتغالي. ٣ – العالم العربي – العلاقات الخارجية – البرتغال. ٤ – البرتغال – العلاقات الخارجية – العالم العربي.
٥ – البرتغال – تاريخ (٧١١ – ١٧٢٠ م). أ – العنوان

تصميم الغلاف: علي الجاك سعيد . التنفيذ الداخلي: عادل يونس


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى ولدي، فنـــــار ...

إلى مَـنْ لم يَختبر بعدُ الحياة

إلى مَن لم تُتح له الفرصة بعدُ لاستقراء أحداث ووقائع التاريخ

لاستخلاص العبر والدروس منها .

إليه وإلى جيله الطالع

أهدي قصة العرب والبرتغال في التاريخ

وهي قصة أول استعمار ظهر في العالم

وكانت نهايته على أيادي العرب

عسى أن يجدوا فيه دروساً وعبراً

شكر وتقدير

لا بد لي من تقديم خالص الشكر والتقدير لكل من ساعدني في تزويدي بالمعلومات التي ساعدتني على كتابة هذا الكتاب وأخص بالشكر منهم السيد ماريو كوريا MARIO CORREIA البرتغالي الجنسية والموظف في شركة أبوظبي للعمليات البترولية البرية الذي قام مشكوراً بترجمة ما احتجت إليه من البرتغالية إلى الإنجليزية ، كما أشكر السيد عبدالمجيد القيسي المستشار في حكومة أبوظبي لمراجعته مسودات الكتاب ، والشيخ مصطفى الدغيدي لقيامه بتصحيح مسوداته لغوياً ، وأشكر أيضاً موظفات القسم البرتغالي في مركز الوثائق والدراسات في أبوظبي . كما أشكر السيد فايز الطيب الذي قام بطبع الكتاب والسيد عادل يونس الذي قام باخراج صفحاته .

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

لم يَدُرْ في خلدي عندما فكرت في الكتابة عن موضوع العرب والبرتغال في التاريخ ، أنني سأُغطِّي فترةً تاريخيةً عُمرها ألف عام .

ذلك أنني عندما باشرت بتأليف كتابي (المفصَّل في تاريخ الامارات العربية المتحدة ١٦٢٤ - ١٩١٠م) ، فإن أول ما أثار اهتمامي هو ما كتبتهُ الدكتوره عائشة السيار في كتابها (الدولة اليعربية في عُمان) حيث أرَّخَت فيه لأيام تلك الدولة العُمانية التي أنهت الوجود البرتغالي في الساحل العربي من الخليج العربي ، والتي ابتدأت قصة تلك الدولة عام ١٦٢٤ ، وهو العام نفسه الذي اخترته بداية لكتابي (المفصَّل في تاريخ الامارات العربية المتحدة) ، حيث فَصَّلتُ فيه على شكل حوليات ما حدث بين الدولة اليعربية والبرتغاليين من أحداث وحروب في عُمان وفي شرقي افريقيا وغيرها من الأماكن ، معتمداً في الغالب على ما ذكره المؤرخون العمانيون من روايات ضعيفة وأساطير تدور حول ذلك الموضوع وغيره ، والتي يظهر فيها عجز كبير في وصف الحوادث بشكل دقيق . ولعل أعجب ما في التاريخ العُماني ، هو أن الفترة البرتغالية الأولى في عُمانَ ، أي الفترة من حوالي عام ١٥٠٠ إلى عام ١٦٠٠ مفقودة بالمرة منْ ثنايا كتبهم رغم أهمية تلك الفترة في تاريخ عُمان .

إلاّ أنَّ ما كتبه العمانيون عن فترة صراعهم الأخير مع البرتغاليين فتح الباب أمامي لمحاولة التعرف إلى الفترة المفقودة في التاريخ العماني والخليجي ، وهي فترة ما قبل عام ١٦٢٤ ، أي منذ أن وطئت أقدام البرتغاليين أول مدينة عُمانية وهي مدينة (قلهات) وكان ذلك في عَام ١٥٠٧م . فَرُحْتُ أحاولُ أن أجمع المصادر والحقائق

والمعلومات والوثائق بشكل زمني عكسي ، أي عكس ما درج عليه كاتبو الحوليات السنوية ، أي أنني اتخذتُ النهاية كبداية ثم رحتُ أتسلق السُلَّم من الأسفل الى الأعلى ، فكانت أولُ مشكلة صادفتني هي أن أهل الخليج العربي - عفا الله عنهم - من عمانيين وبحرينيين وأحسائيين وعراقيين ، لم يتركوا لنا خبراً واحداً يشفي غليل الباحث عن أيام البرتغاليين في تلك الفترة من تاريخ الخليج العربي .

ولما كانت البداية في كتابة التاريخ هي البحث عن الوثائق ، أي أن التاريخ علم وثائقي يعتمد على الوثائق التي تركها الأولون من بقايا مادية ومدونات تاريخية ، إذا عَثَرَ عليها الباحث قام بتدقيقها وتمحيصها وتسجيلها وتحديد زمنها ، لذلك فقد رحتُ أبحث عن المصادر عند الأمم الأخرى ، وكان بديهياً أن ينصرف ذهني إلى الاعتماد على وثائق البرتغاليين أنفسهم باعتبارهم أصحاب القسم الثاني من القصة . إلا أنني اكتشفت أن المصادر الموجودة في مركز الوثائق في أبوظبي في عام ١٩٨٠ كانت قليلة وكلها مكتوبة باللغة البرتغالية ، ولم يكن يوجد آنذاك من يترجمها إلى العربية .

إلا أن ذلك الأمر لم يفت من عزيمتي ، لأنني وجدت بعض ما أحتاجُ إليه من مصادر جيدة عند المؤرخين اليمنيين والمصريين ، ذلك أن أرض اليمن شهدت مصادمات عنيفة بين اليمنيين والبرتغاليين ، كما أن الجيوش المصرية على العهدين المملوكي والعثماني ، خرجت من مصر وقاتلت البرتغاليين في سواحل الهند والمحيط الهندي .

لكن ما كان ينقص تلك المصادر ، أنها كانت مُشَتَّتة وغير منسقة ، فصار لزاماً عليَّ أن أقوم بتمحيصها وأعيد تأليف وتركيب الحقائق المبعثرة هنا وهناك ، وأقارنها بما تمكنت من الحصول عليه من مصادر أخرى ، لأنتهي إلى مرحلة اعتبرتها في وقتها مرحلة نهائية لكتابة موضوع تاريخي أطلقتُ عليه اسم (الغزو البرتغالي للبلاد العربية للفترة من ١٥٠٠ إلى ١٧٠٠م) وقصدتُ في موضوعه بحث التواجد البرتغالي في أرض الخليج العربي وقصة الحروب التي خاضها اليمنيون والمصريون وأهل البحرين والأحساء ثم الأتراك العثمانيون والفرس الصفويون وآخرهم العمانيون ضد البرتغاليين .

وفي عام ١٩٨٥ سنحت لي الفرصة أن أزور البرتغال ، فقضيتُ ثلاثة أيام متتالية في مركز الوثائق والأرشيف ، وهناك اكتشفتُ أن ما كتبتهُ عن فترة المائتي عام من العلاقات العربية – البرتغالية ، لا يعدو أقَلّ من ثُلث الحقبة التاريخية الأصلية للعلاقات بين الشعبين ، وأن هناك فترة ثانية في تلك العلاقات تسبق الفترة التي غطيتها ، وهي فترة العلاقات المغربية – البرتغالية ، والتي حدثت أيام النشوء والصعود البرتغالي ، فإن المغرب العربي كان أول الدول العربية التي صارت سواحلها الغربية مسرحاً للتواجد البرتغالي لمدة مائة عام تقريباً قبل أن تصبح سواحل عُمان والخليج العربي مسرحاً لتواجدهم أيضاً ، وكانت تلك الفترة ، أي الفترة الثانية تمتدُ من عام ١٢٥٠م تقريباً أي عندما غادر آخر عربي أرض البرتغال إلى حوالي عام ١٥٠٠م عندما وصلت سفن البرتغاليين إلى سواحل عُمان والخليج ، وهي فترة تعجُّ بالكثير من الأحداث المغربية – البرتغالية .

ولم ينته الأمر عندي باكتشافي المرحلة الثانية من عمر العلاقات العربية – البرتغالية ، ذلك أن هناك مرحلة أولى ، وهي مرحلة مهمة جداً كانت ناقصةً عندي في البحث ، وهي مرحلة أيام العرب في أرض البرتغال ، وتقارب الخمسمائة عام ، ابتدأت في عام ٧١٤م وانتهت في عام ١٢٥٠م تقريباً .

وهكذا فعندما انتهيتُ إلى ما انتهيتُ إليه ، وجدتُ نفسي مُلزماً بالبحث والتنقيب والكتابة عن حقبة تاريخية عمرها ألف عام ، لم يستطع المؤرخون أن يكتبوا عنها إلا النزر اليسير ، كما لم يوليها الكثير من الباحثين أهمية خاصة ، لذلك فإنها لم تُكتبْ في كتاب واحد يشمل القصة كلها بشكلٍ كاملٍ وشاملٍ لمعرفة تفاصيل ما حدث بين الأمتين خلال ألف عام .

ولكي أوجز أهمية الموضوع الذي أنا بصدده ، فإن حقائق تاريخية كبرى قد ظهرت أمامي بعد أن أكملت دراسته وهي :

١ : إن العرب دخلوا (إشبونة) أي لشبونة عاصمة البرتغال في يومنا هذا ، في السنة الثالثة من فتحهم الأندلس أي حوالي عام ٧١٤م ، وكان فتحُ البرتغال قد تم

على يد القائد عبدالعزيز بن موسى بن نصير .

٢ : إن العرب عندما دخلوا أرض البرتغال ، لم يكن للبرتغال وجودٌ سياسي أو كيانٌ مستقلٌ موحدٌ آنذاك ، لذلك فقد أطلق العرب على أرض البرتغال اسم (الغرب) أي غرب الأندلس ، وبقي هذا الاسم قائماً إلى يومنا هذا ، حيث يُطلقُ البرتغاليون اسم (الغرف ALGIRAVE) على جنوب البرتغال .

٣ : إن تأسيس دولة البرتغال وظهورها على الخريطة والمسرح العالمي كدولة ، قد تم عندما تمكن البرتغاليون بمساعدة الحملة الصليبية الثانية من انتزاع (لشبونه) عاصمة البرتغال من يد العرب عام ١١٥٠م تقريباً ، وما أعقب ذلك من تتويج الملك دون أفونسو هنريك كأول ملك برتغالي ، وقام هذا بإعلان مملكة (بورتس كالا) التي صارت فيما بعد (PORTUCALIS) أي بوابة غاليسيا ، واتخذ شعار دولته وهو الدرع المصفح الذي يعلوه التاج وتحيط به خمس دوائر تمثل خمسة قادة عرب قتلهم البرتغاليون في معركة (قرق) .

٤ : إن العرب بقوا في (الغرب) أي جنوب البرتغال للفترة من سقوط لشبونه في حوالي عام ١١٥٠م ، إلى مغادرة آخر عربي لأرض البرتغال عام ١٢٥٠م ، وكانت تلك سنوات مقارعة باسلة ، حاول فيها المغرب العربي إنقاذ ما يمكن إنقاذه من ممتلكات عربية في أسبانيا والبرتغال ، إلا أن محاولاته باءت بالفشل بل كانت على حساب قوته واستقلاله .

٥ : إن فترة العنفوان البرتغالي الأول ، أي فترة النشوء والكشوفات البحرية والتي أدت بالبرتغال إلى أن تصبح أول دولة استعمارية في العالم حسب المفهوم الاستعماري الحديث . تلك الفترة تمت في مراحلها الأولى على حساب السواحل والموانىء الغربية في المغرب العربي ، بل إن تاريخ المغرب العربي ولفترة امتدت مائتي عام تقريباً ، لم يكن إلا تاريخ مقارعة الشعب العربي المغربي للاستعمار البرتغالي في تلك السواحل .

٦ : إن البرتغال وإسبانيا وصلتا إلى أوج عظمتهما السياسية كدولتين استعماريتين في حوالي عام ١٥٧٠م يتحكمان في شؤون الشعوب . إلا أن بداية النهاية للبرتغال كدولة عالمية كبرى قد تم على يد العرب أيضاً ، وذلك عندما تمكنت الدولة المغربية السعدية بقيادة السلطان المعتصم بالله عبدالمالك ، من إبادة جيش برتغالي وأوربي مكون من خمسين ألف جندي يقودهم الملك (سيباستيان) ملك البرتغال ، فأهلكوه وأهلكوا جيشه عام ١٥٧٨م ، فاستغلت اسبانيا الفرصة وقامت باحتلال البرتغال ، فصارت البرتغالُ مُستَعْمَرةً بعد أن كانت مُستَعْمِرةً .

كما تمكنت فيما بعد الدولة العُمانية اليعربية من طردهم من مسقط عام ١٦٥٠ ، ثم إنهاء وجودهم بشكلٍ تام في أية بقعة عربية حوالي عام ١٧٢٠م .

وهكذا توضحت الصورة أمامي ، بأنني يجب أن أغطي ألف عام من التاريخ ، فكان علي أن أحيط بكل ما كُتِبَ عن الموضوع أو حوله ، وهو أمر ليس بالسهل ، فالحقائق والمعلومات غير منسقةَ ، والثغرات التاريخية غير مسدودة ، والمؤرخون كتبوا كلٌ حسب هواه ، ونقلوا روايات بين ضعيفة إلى مخالفة للحقيقة إلى مبالغ فيها إلى صحيحة وصادقة ، علماً بأن عدد المراجع يزداد ويقل حسب طبيعة البحث التاريخي والحقبة الزمنية ، لذلك فإنني وإن كنتُ قد بدأتُ بمراجع قليلة إلا أنني تمكنتُ بعد فترة مضنية من العمل الدؤوب والبحث العلمي الجاد من أن أحصل على مراجع كثيرة . لكن تلك المراجع كانت مكتوبة بعدة لغات كالبرتغالية والاسبانية والانجليزية والتركية والفارسية والهندية والعربية ، فاعتمدت أولاً على المصادر العربية ثم الانجليزية ثم التركية وهي اللغات التي أجيدها ، ولما كانت المصادر البرتغالية تعتبر أغنى المصادر التي تبحث عن الفترتين الثانية والثالثة من هذا الكتاب فإنني والحمدلله تمكنت من العثور على مترجمين برتغاليين ساعدوني على قدر الإمكان في ترجمة الكثير مما احتجته إلى الانجليزية ، إلى أن انتهيت إلى قرار بأن مُعظم من كتب من الانجليز عن المنطقة قد نقلوا نقلاً حرفياً عن أشهر الكتب والمراجع البرتغالية ، بحيث قررتُ

الاعتماد على كتابين انجليزيين هما :

1. HISTORUY OF THE DISCOVER AND CONQUEST OF INDIA BY THE PRTUGUES, CPT JOHN STEVAS, LONDON 1695 .

2. THE PORTUGUESE IN INDIA, F.C. DANVERS, LONDON 1895.

واعتمدت أكثر على الكتاب الثاني بعد أن أشبعتُ الكُتُبَ البرتغالية بحثاً وتمحيصاً كمصدر نهائي لغربلة وتحليل ومقابلة ما فيها بما جاء في اللغات الأخرى خاصة عن الفترة من عام ١٥٠٠م إلى ١٧٠٠م ، وهي الفترة الثالثة .

وبما أن معظم أحداث التاريخ ليست أحداثاً فردية ولا تقع بفعل عشوائي أو اعتباطي ، وإنما تقعُ بفعل البشر الذين تُسيطر على أفعالهم وأعمالهم قواعد ونواميس تدفع بهم بعضاً ببعض ، فتقوم دولٌ وتموت أخرى حسب سنة الله تعالى .

لذلك فإن منهج البحث الذي اتبعته في كتابي هذا ، هو أن أُقَسِّمَ تلك الفترة الطويلة من التاريخ إلى أدوار وعصور وحقب زمنية طول كل حقبة يتماشى مع الحدث . ولما كان المؤرخون قد درجوا على أن يقسموا التاريخ إلى تاريخ سياسي واقتصادي واجتماعي ، الخ ، فإن ما غَلَبَ على طريقتي في سرد الأحداث هو الطابع السياسي ، أي سرد الأحداث السياسية كالحروب وأخبار الملوك والحكومات والاحزاب والانقلابات ، وهو أمر لا بد منه لأن واقع التاريخ البشري يُثبت أن هناك ترابطاً وتفاعلاً ما بين الأحداث السياسية والدوافع الإنسانية الأخرى كالمعتقدات الدينية والاقتصادية والمعيشية ، الخ ، والتي لم أهملها عند سردي للأحداث بل بينتها بكل وضوح ، إلاَّ أنني لم أشأ أن أثقل على القارىء وهو يخوض غمار ألف سنة من الأحداث السياسية بأن أُكثر عليه النصوص التي تحمل وجهات النظر المختلفة أو المتعارضة ، كما أنني لم أُكثر من الهوامش كما يفعل بعض الكتاب الذين يحشون نصف صفحاتهم بهوامش تجعل القارئ لا يدري أين يُديرُ عينيه وأي السطور يقرأ ، كما بذلتُ جهدي أن أُراعي وحدة الموضوع وأن أتجنب الخوض بكثرة فيما حدث بين البرتغاليين وغير العرب ، اللهم إلاَّ بالقدر الذي يَخُصُّ العرب ، فلم أتوسع بالبحث عن البرتغاليين والهنود أو

البرتغاليين والأفارقة ، لكنني توسعت فيما حدث بينهم وبين الفرس والأتراك العثمانيين لما بين هذين الشعبين من الوقائع التي حدثت في أرض العرب من صلة وثيقة ، وبذلك فقد تجنبتُ الحديث عن الموضوعات المتباعدة أو المتنافرة التي تطيلَ الموضوع أكثر ، لذلك فقد وقع كتابي هذا في تسعة وثلاثين فصلاً ، كل فصل يمثل وحدة متناسقة ومتجانسة ومتسلسلة في مادتها بحيث أن موضوعاتها المتّتالية والمترابطة تمهد لفصلٍ آخر يعتمد في فهم مادته عليه .

وأخيراً ، فإن التاريخ سجل حياة الأمم ، وواجب المؤرخ تدوين أحداث تلك الحياة في تسلسلها وتعاقبها ، والتاريخ أيضاً دراسة الحاضر عن طريق الماضي فهو لذلك يجب أن يُدرسَ لأجل أن نصلَ إلى تفهُّم أحسن للواقع ، وبدراسته نحصل على إضاءة جيدة لمجريات الأمور واطلاعٍ واضحٍ لمختلف النظريات والأفكار التي كوَّنت وسيَّرت ركب الأحداث .

وما أحوجنا نحن العرب في يومنا هذا ونحن نقف حائرين أمام مشاكلنا السياسية لا نعرف كيف نعالجها خاصة مشكلتنا مع الصهيونية ، أن ندرسَ ما فعلهُ أجدادنا حين أنشب الاستعمار البرتغالي والبريطاني والفرنسي مخالبه في أجسامهم ، وأن نتعظ من دروس التاريخ ، وأن نتجنب أخطاء الماضي ، ولعل أكبر أخطائنا نحن العرب في يومنا هذا ، هي أخطاء أجدادنا نفسها عندما كانوا يقفون مشتتين غير متحدين أمام مشاكلهم السياسية .

إن تفهمنا لمشاكل عصرنا الحالي يمكن فهمُها بطريقة أفضل حين مقارنتها بحالات مشابهة وقعت في الماضي . فالتاريخ مدوَّنةُ الماضي لجلاء الحاضر ، وما أكثرها من حالات مشابهة في هذا الكتاب . ومن تاريخ الصراع العربي البرتغالي نتعلم منه أن الحياة تنافس واختيار للأحسن . ففي الصراع من أجل البقاء نجد أن بعض القوى تتغلب والأخرى تفشل حسب سنَّة أن من كان مع الله كان الله معه .

وهكذا انتهى الاستعمار البرتغالي وانتهى الاستعمار الانجليزي وكذلك الفرنسي

وغداً ينتهي الاستعمار الصهيوني ، في الوطن العربي بعون الله عز وجل متمثلين بما جاء بسورة الروم في التنزيل العزيز قوله تعالى في الآية رقم (٩) :

« أَوَلَمْ يَسيروا في الأرض فَيَنظُروا كيف كان عاقبةُ الذينَ منْ قَبْلهم كانوا أشدَّ منهُمْ قوةً وأثاروا الارضَ وعَمَروهَا أكثرَ مما عَمَرُوها ، وجاءَتهُمْ رُسُلهُم بالَبينات فما كانَ اللهُ ليَظلمَهُم ولكن كانوا أنفُسَهم يَظْلمون » صدق الله العظيم .

المؤلف

فالح زكي حنظل
دكتوراه في الدراسات العربية والاسلامية

٣ – جمادى الآخرة – ١٤١٧هـ
١٤ – تشرين أول – ١٩٩٦م

1

الفصل الأول

الفتح العربي للبرتغال

يقوم تاريخ الفتح العربي للبرتغال ، وكما ترويه المصادر العربية ، على مجموعة من الأخبار التي تنقصها الإحاطة والشمول ويحيط بها الغموض في أغلب الأحيان ، بحيث يتكلّف المؤرخ جهداً كبيراً ، لتثبيت وقائع ذلك الفتح وما يليه من تحقيق وتأريخ أيام العرب هناك ، وسير ملوكهم وحكامهم ودولهم وإماراتهم ، منذ نشأتها حتى سقوطها ، بتفصيلٍ يروي ظمأ الباحث والمؤرخ .

كما أن المصادر الاسبانية والبرتغالية ، لم تذكر لنا تفاصيل ذات فائدة عن تلك الفترة من تاريخ شبه الجزيرة الآيبيرية (إسبانيا والبرتغال) ، إلا أنه يمكن تحديد تاريخ الفتح العربي للبرتغال منذ البداية إلى خروج العرب من (لشبونه) العاصمة بحوالي أربعمائة عام (٧١٤م - ١١٥٠م) ، ومنذ خروجهم من (لشبونة) إلى أن غادر آخر عربي أرض البرتغال مائة عام آخر (١١٥٠-١٢٥٠) فتكون مدة التواجد العربي في أرض البرتغال خمسمائة عام . ولكي نتتبع مراحل الفتح العربي للبرتغال ، لا بد من العودة إلى الفتح العربي الأول لشبه الجزيرة الآيبيرية ، وإلقاء بعض الضوء عليه ، والحديث عنه باختصار .

كانت آيبيريا (إسبانيا - والبرتغال) قبل الفتح الإسلامي تحت حكم القوط الغربيين (VISIFOTHS) ، الذين استبدوا وطغوا في البلاد مما دفع بأحد قادة الجيش واسمه

(رودريكو RODRIGO) ويسميه العرب (لوذريق) إلى القيام بالاستيلاء على السلطة وعزل الملك (WITIZA) ويسميه العرب (غيطشة) عن الحكم ، لكن أتباع (غيطشة) هذا لم يقبلوا بذلك فقاموا بالاتصال بحاكم المغرب الإسلامي القائد موسى بن نصير لغرض مساعدتهم على استعادة السلطة من (رودريكو) .

ولما كان موسى بن نصير ومن معه قد أرسوا كلمة الإسلام في الشمال الأفريقي ، فقد كانت الخطوة الطبيعية التالية لهم هي فتح الأندلس ، وذلك لتأمين الحدود الإسلامية ونشر الدعوة هناك ، لذلك فإنه ومن المرجح أن يكون موسى بن نصير قد استغل ذلك الموقف السياسي في أيبيريا لصالحه فبدأ استشارته مع الخليفة الوليد بن عبدالملك في دمشق للقيام بهذا العمل الكبير .

وقد ترددت القيادة الإسلامية من دمشق في القيام بمثل هذا العمل ، لكن موسى أقنع الوليد بالأمر ، فلما اقتنع هذا باشر موسى الاتصال بالقائد (يوليان JULIAN) ، وكان هذا يعمل أيضاً ضد نظام رودريكو الجديد ، فوافق على أن يضع نفسه في خدمة قوات العرب . وقبل أن تقوم الحملة ضد إسبانيا ، كان موسى بن نصير قد أرسل قوة استطلاعية مكونة من أربعمائة من المشاة ومائة من الفرسان بقيادة طريف بن مالك الملقب بأبي زرعة ، واجتازت هذه القوة المضيق من مدينة سبته وهي محملة على سفن (يوليان) ، ونزلت قرب جزيرة (بالوما) التي صار اسمها (جزيرة طريف TARIF) الآن ، وعندما عاد طريف إلى المغرب قدم معلومات عسكرية مفيدة إلى موسى بن نصير ساعدته على وضع خطة الإنزال .

أكمل موسى بن نصير خطة حشد الجيش ، فصار لديه سبعة آلاف جندي مسلم واختار طارق بن زياد والي طنجة قائداً للجيش ، وفي الخامس من شهر رمضان من عام ٩٣هـ الموافق لشهر نيسان من عام ٧١١م أي بعد سنة من حملة طريف عبر طارق وجيشه من مدينة سبته بسفن عربية ، ومعه سفن إيليان أيضاً[١] ، ونزل الجيش في

(١) الدكتور عبدالرحمن الحجي - التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة - ص٤٧ .

جنوب إسبانيا على جبل صخري اسمه (MONS CALPE) عرف فيما بعد باسم جبل طارق (GIBRALTAR) ، وعندما تصدت حاميات الملك (رودريكو) لجيش طارق ، أنزل بهم هزيمة ، ثم كتب إلى موسى يطلب نجدة ، فأرسل له موسى جيشاً بقيادة طريف بن مالك فأصبح جيش طارق اثني عشر ألف محارب وقيل أيضاً ثمانية عشر ألف جندي من قريش وبقية العرب ووجوه الناس[٢] أما الملك رودريكو فقد حشد جيشاً يتراوح عدده ما بين أربعين إلى مئة ألف مقاتل ، والتقى الجيشان في يوم الأحد ٢٨/ رمضان/ ٩٣هـ أي حوالي أيار من عام ٧١١م في كورة شذونه SIDUNIA في سهل الفرنتيره FRONTERA ، حيث ألقى طارق خطبته الشهيرة وأحرق سفنه ، ثم أنزل هزيمة بجيش رودريكو .

ولما اكتمل ذلك النصر لطارق اندفعت جيوشه مستثمرة الفوز نحو الشمال فسقطت مدن جنوب إسبانيا (الأندلس) الواحدة تلو الأخرى مثل مدن (استجه ECIJA) و (اشبيله SIVILLA) و (قرطبة CORDOBA) و(غرناطةGRANADA) وغيرها من مدن الجنوب وترك فيها بعض الحاميات فيما اندفع هو والقسم الاكبر من جيشه مخترقاً وسط إسبانيا وقلبها إلى أن وصل إلى مدينة (طليطله TOLIEDO) وفتحها واستمر بالاندفاع شمالاً إلى أن وصل إلى مدينة (المائدة) المجاورة لمدينة (مَجْريطْ) التي هي مدريد عاصمة إسبانيا في يومنا هذا ، وإزاء اندفاع طارق بجيشه وتوغله في مسافات شاسعة في قلب إسبانيا ، فقد طالت خطوط مواصلاته ، وضعفت حامياته في المدن الجنوبية التي فتحها ، فعادت وسقطت بيد الأسبان ، ولأسباب أخرى قد يطول شرحها في هذا المختصر فقد قرر موسى بن نصير والي الشمال الأفريقي أن يلحق بالأندلس وبجيش طارق على رأس جيش يقوده بنفسه لنجدة طارق واستعادة المدن التي خسرها وتأمين خطوط مواصلاته وفتح أجزاء أخرى من الأندلس وبقية أرجاء شبه الجزيرة الآيبيرية .

(٢) الدكتور عبدالعزيز سالم - تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس - ص ٩٤ .

موسى بن نصير يفتح البرتغال

بعد أن قرر موسى القيام بغزو الأندلس ، رتّب أموره في عاصمته القيروان واستخلف ولده عبدالله نائباً عنه في حكم شمال أفريقيا ، وعبر إلى الأندلس مع ولديه عبدالعزيز وعبد الأعلى على رأس جيش قوامه ثمانية عشر ألف مقاتل وكان ذلك في نهاية عام ٩٣هـ - حزيران ٧١٢م وعندما اكتمل العبور تحشد الجيش في الجزيرة الخضراء لغرض إعادة التنظيم وهناك وزع موسى الرايات على ألوية جيشه فكانت عشرين راية ، ثم بنى مسجداً في المكان الذي وزع فيه الرايات وأسماه مسجد الرايات .[٣]

ثم اندفع نحو مدينة (شذونه) فأعاد فتحها واتجه شمالاً نحو (قرمونه) ففتحها ثم أعاد فتح مدينة (اشبيليه) التي هرب منها قائد الحامية وجيشه إلى مدينة (باجه) البرتغالية ثم اتجه موسى بجيشه غرباً فوصل إلى مدينة (لبله NIBLA) المتاخمة لحدود البرتغال ففتحها وبذلك أصبح جيشه على حدود البرتغال وقريباً من أول مدينة برتغالية وهي (باجه BEJA) ، وعلى كل حال فإن المصادر التاريخية العربية لم تزودنا بمعلومات تفصيلية عن فتح (باجه) البرتغالية ، ومتى كان ذلك ، وهل أن موسى بن نصير هو فاتح (باجه) أم أن ابنه عبدالعزيز هو الذي فتحها .

لقد اتفقت كل المصادر على أن موسى بن نصير اندفع بألوية جيشه شمالاً بعد أن حرر معظم مدن الجنوب أي الأندلس واتخذ من مدينة (اشبيلية) قاعدة وعاصمة له ، وأنه في شهر آب من عام ٧١٣م التقى بطارق بن زياد في مدينة (طليطله) وهناك التقيا بالملك رودريكو فأنزلا به هزيمة وقضيا عليه في معركة (وادي يرباط) في أيلول من العام نفسه .

ثم لم تلبث تلك الجيوش العربية أن اندفعت إلى شمال إسبانيا من مناطق (سرقسطه ZARAGOZA) إلى (برشلونه BARCELONA) إلى الحدود الاسبانية -

---

(٣) الدكتور عبدالرحمن الحجي - المصدر نفسه ص ٦٩ .

الفرنسية إلى (جليقة GALICIA) على المحيط الأطلسي في أقصى الشمال الغربي لإسبانيا ، ولكن دون إحكام سيطرة تامة هناك .

ثم كان استدعاء الخليفة الأموي لموسى وطارق بالعودة إلى دمشق فلم يكن بدٌّ من العودة فتوقفت عمليات الفتح في إسبانيا .

بداية عهد الولاة في الأندلس

عبدالعزيز بن موسى بن نصير يُكمل فتح غرب الأندلس أي البرتغال

عاد موسى بن نصير من شمال إسبانيا وأقام في اشبيلية لترتيب أمور الأندلس وأحوالها وعَيّن ابنَهُ عبدالعزيز والياً على الأندلس ، فيما قفل هو وطارق عائدين إلى دمشق فغادرا أرض إسبانيا في عام ٩٥هـ - ٧١٤ م .

استلم عبدالعزيز بن موسى بن نصير زمام الأمر في الأندلس ، وعلى عهده بدأت قصة الفتح العربي الغامضة للبرتغال ، إذ يسود بعض الاعتقاد أن فتح مدينة (باجة) البرتغالية تم على يد عبدالعزيز بينما كان موسى وطارق يفتحان شمال إسبانيا .

وعلى كل حال فإن وصول العرب إلى مدينة (باجة BEJA) البرتغالية ، فتح الباب أمام جيوش عبدالعزيز أن تتوغل هناك .

لكن العرب لم يعرفوا أنهم كانوا في داخل أرض البرتغال كما هي عليه في يومنا هذا ، كما أن اسم البرتغال لم يكن وارداً آنذاك في قاموس اللغة الأسبانية أو البرتغالية ، ذلك أن اسم البرتغال ظهر عام ١٠٩٥م عندما استقل كونت هنري أوف بورغندي بالبرتغال عن الأسبان فصار اسم القطر البرتغال .

لذلك فإن العرب أطلقوا على المناطق التي تم فتحها في جنوب البرتغال اسم (الغرب) باعتبارها تقع غرب الأندلس وغرب العاصمة اشبيلية ولا زال جنوب البرتغال يسمى (ALGIRAVE) إلى يومنا هذا ، ثم إن العرب لما توغلوا شمالاً في أرض البرتغال واحتلوا العاصمة (أشبونه أي لشبونة LISBOA) في يومنا هذا واندفعوا شمالاً

إلى وادي نهر (دويره RIO DOURO) ، فإنهم أطلقوا اسم الثغر الأدنى على الجزء الأكبر من برتغال اليوم ، أما الاسم الأكثر شيوعاً فهو الغرب أي غرب الأندلس ، إلا أن العرب توقفوا في فتوحاتهم هناك عند نهر التاجه الذي يسميه الإسبان والبرتغاليون (TEJO) ، وهو النهر الذي يشطر إسبانيا والبرتغال إلى شطرين ويمر من منتصفهما تقريباً . ويورد الدكتور عبدالعزيز سالم في كتابه تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس خبر ذلك الفتح مذكوراً باقتضاب في (الرسالة الشريفية) . وقد جاء فيها :

« فلم يبقَ في الأندلس بلدة دخلها المسلمون بأسيافهم وتصير ملكاً لهم إلا قَسَّم موسى بن نصير أراضيها ، ما عدا ثلاثة بلدان هي شنترين (SANTAREM في البرتغال) وقلنبرية (COIMBRA في البرتغال أيضاً) (وشيّه) في الشرق » .

وعلى كل حال فإن (باجه BEJA) تم فتحها عام ٧١٣م ، على يد عبدالعزيز ، وأن مدينة (يابره EVORA) التي تقع في شمالها قد تم فتحها عام ٧١٤م ثم تبعتها مدينة (شنترين SANTAREM) التي تقع قرب العاصمة لشبونه ، ثم استطاع عبدالعزيز التقدم شمالاً إلى مدينة (قلمريه COIMBRA) وذلك لملاقاة بعض الحاميات والوحدات العربية التي تُركت في شمالي إسبانيا .

أما المصادر البرتغالية المتوفرة لدينا فقد وصفت ذلك الفتح باقتضاب أيضاً وذكرت أنه في سنة ٧١٣م نظَّم السُكّان المسيحيون في (باجه) جنوب البرتغال حملةً لمساعدة أهالي (أشبيليه) المتمردين ضد العرب وساروا نحو المدينة ، وانضمت اليهم جموع من مدينة (لبله) الاسبانية ، إلاأن موسى بن نصير استطاع سحق العصيان ، واندفع بجيشه شمالاً نحو مدينة (ماردة) الاسبانية وفتحها في ٣٠/ حزيران/ ٧١٣م ومن هناك أرسل موسى ولده عبدالعزيز ليؤدب المدن العاصية ويفتحها فقام عبدالعزيز بفتح مدينة (لبله) الاسبانية ومدينة (باجة) البرتغالية وربما مدينة أخرى تقع اليوم في جنوب البرتغال اسمها (ESTOMBRA) .

ثم قرر عبدالعزيز أن يتقدم شمالاً فسقطت مدينة (يابره EVORA) بيده في ١٤/ آذار/ ٧١٥م واستولى في الشهر نفسه على مدينة (IDANHA-a-VELHA) ، وفي ٢٨/ نيسان استسلمت مدينة (ALCACAR DE-SAL) (يسميها العرب قصر أبي دانس) ، أما لشبونه فقد سقطت ومعها مدينة (قلمرية COIMBRA) في سنة ٧١٦م .

وتذكر لنا المصادر نفسها أن عبدالعزيز قد ذهب قبل اغتياله إلى أقصى الشمال وغزا مدينة (بوردو OPORTO) ومدينة (براغا BRAGA) إلى أن دخل إلى داخل (GALICIA) في أقصى الشمال الاسباني التي يسميها العرب (جليقة) .[٤]

هذا ، ولم تترك لنا المصادر التاريخية العربية ولا الأجنبية أخباراً وحوادث أخرى جرت في البرتغال طيلة عهد الولاة في الأندلس والذي امتد من عام ٩٥هـ إلى ١٣٨هـ أي من ٧١٤م إلى ٧٥٥م ، حيث بدأ عهد الإمارة هناك .

(٤) ف .ج . فيلوزو : THE PROBLEM OF ARABIC - ISLAMIC INFLUENCE IN PORTUGUESE CIVILIZATION

2

الفصل الثاني

البرتغال في عهد الإمارة بالأندلس

من ١٣٨هـ إلى ٤٠٠هـ المصادف ٧٥٥م إلى ١٠٠٩م

يعتبر دخول عبدالرحمن الداخل إلى قرطبة واستلامه مقاليد الأمر هناك وهروب آخر حاكم عربي في عهد الولاة وهو يوسف الفهري ، بداية لعهد الإمارة في الأندلس ونهاية لعهد الولاة فيها والذي استمر لمدة ٤٢ سنة تقريباً . وكما حصل في عهد الولاة من شحَّة في المصادر التاريخية التي تبحث بالتفصيل عن أيام العرب في البرتغال ، فــإَن المصادر التاريخية شَحَّت أيضاً بتزويدنا بمعلومات تُرضي بحثنا التاريخي وتشفي شوقنا لمعرفة أيام العرب هناك خلال فترة عهد الإمارة الـذي استمر لـمـدة تقدر بمئتين وخمسين عـــاماً تقريباً ، اللهُمَّ الا في قضيتين مُهمتين وهما : قضية ظهور الدعوة العباسية في مدينة (باجـه) ، وقضية هجمات (النورماند VIKINGS) المتعددة على مدينة (لشبونة) التي كانت بيد العرب يومذاك .

فبالنسبة لقضية الدعوة إلى العباسيين في الأندلس ، يحدثنا الرواة العرب أنه في عام ١٤٦هـ . أي بعد ثماني سنوات من تمكن عبدالرحمن الداخل من الحكم في الأندلس ، وعندما كان الخليفة أبو جعفر المنصور يحكم الدولة العباسية من بغداد ، فإن الأندلس كانت قد أعلنت نفسها دولة أموية لا علاقة لها بالنظام العباسي في بغداد ، مما دفع بأبي جعفر المنصور أن يعمل لضم هذا الجزء من ممالك العرب آنذاك

إلى مُلك الدولة العباسية ، فأجرى اتصالاً مع العلاء بن مغيث الجذامي قائد الجند في مدينة (باجه) يحثه على إعلان العصيان ضد (قرطبة) ونظام عبدالرحمن الداخل . ثم أن العلاء التقى ببعض أعوان الخليفة العباسي في المغرب العربي وأجرى محادثات معهم بهذا الصدد ووافق على طلب المنصور ، فلما تم ذلك أعلن العصيان في (باجه) ورفع شعار بني العباس أي الراية السوداء ودعا إليهم ، فلما بلغ أمره إلى عبدالرحمن الداخل وهو في قرطبة خرج إليه بجيشه والتقى به في قرية مجاورة لإشبيلية اسمها (الكرم) وهناك دارت الدوائر على العلاء وانهزم جيشه وقُتلَ في المعركة وانتهت بموته تلك الفتنة .

أما قضية هجمات النورمنديين أي الـ(VIKINGS) على مدينة لشبونه ، فإنهم قاموا بعدة هجمات كانت أولها عام (٢٢٩هـ-٨٤٤م) وآخرها عام (٣٦٠هـ- ٩٧١م) فقد حدث الهجوم الأول في أوائل شهر ذي الحجة ٢٩٩هـ اكتسح فيه النورمانديون لشبونه وتمكنوا من الوصول إلى قرطبه ثم اقفلوا عائدين . والنورمانديون هم الذين أطلق العرب في الأندلس عليهم اسم (المجوس) ، وهم شعب يرجع إلى أصل جرماني ، عُرف عنه شدة ولعه بالقتال والحرب وشدة بأسه وقسوته فقد ظهرت مراكبهم فجأة أمام مدينة (أشبونه) أي (لشبونة) الحالية ، وبوغت حاكم المدينة العربي واسمه وهب الله بن حزم ، بهم ، فلم يستطع أن يجمع قواته لصدهم فاقتحموا المدينة واستباحوها لعدة أيام ثم اندفعوا نحو مُدُنْ (لبله) و(قادس) و(شذونه) و(باجه) ثم دخلوا (اشبيليه) فاستباحوها لمدة سبعة أيام ، وتقدموا نحو (قرطبة) وحاصروها ، بينما راحت وحداتهم الموجودة في المدن التي فتحوها تقتل الرجال وتسبي النساء ، إلى أن خرج لهم جيشٌ عربي بقيادة (نصر الخصي) وهو أحد قادة الأمير عبدالرحمن الثاني ، وتمكن من إنزال هزيمة بهم وقتل اكثر من خمسمائة رجلٍ منهم فتراجعوا إلى (لشبونه) وهناك ركبوا البحر عائدين من حيث أتوا ، واستمرت تلك الفتنة نحو مائة يوم[1] .

(١) عبدالرحمن علي الحجي – المصدر نفسه ص ٢٢٩ نقلاً عن كتاب (ترصيع الأخبار وتنويع الآثار) وكذلك الدكتور أمين توفيق الطيبي – دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس – ص ٢٢٢ .

وفي عام ٢٤٥هـ - ٨٥٩م وردت إشارة في المصدر التاريخي نفسه عن محاولة ثانية قام بها النورمانديون للهجوم على جنوب البرتغال إلا أن المحاولة فشلت ، وعلى أثر فشلها فإن ملك الدانمارك (هوريك HORIC) أرسل إلى عبدالرحمن يطلب منه عقد صلح ، فاختار عبدالرحمن رجلاً من أهالي مدينة (شلب SILVES) ، اسمه يحيى بن حكم البكري الحياني ويعرف باسم الغزال أيضاً ، لاجراء تلك المفاوضات نيابة عنه .

وإزاء ما تردد من شدة بطش هؤلاء النورمانديين وعدم الاعتماد على معاهدات الصلح التي تعقد معهم ، فإن حكام الأندلس قاموا بتأسيس أسطول قوي ليجوب مياه البرتغال للدفاع عن تخومها ومدنها الساحلية ، كما أنهم ربطوا (الغرب) البرتغالي ، بمدينة اشبيليه ، فأصبحت اشبيليه عاصمة لتلك المقاطعات البرتغاليه ، وظهر اسم مدينة وميناء (شنت مريه الغرب) أو (سانت ماريا) الذي يقع في السواحل الجنوبية البرتغالية وهو غير مدينة (شنت مريه الشرق) التي تتبع قرطبة ، فكانت (شنت مريه الغرب) وميناء (قصر أبي دانس ALCACER DOSAL) ومدينة أشبونه أي لشبونه قواعد بحرية للأسطول العربي .

ويذكر لنا المؤرخون العرب أنه في عام ٢٤٧هـ - ٨٦١م حاول النورمنديون الهجوم ثانية على الأندلس فيقولون :

« وفي تلك السنة كان خروج المجوس إلى الأندلس ، فلم يكن لهم في هذه الكرَّة من الانبساط في البحر والإضرار بأهل السواحل ما جرت به عادتهم ، ولم يجدوا في السواحل مطمعاً لشدة ضبطها ولاقوا مع ذلك من البحر هولاً أعطب لهم من مراكبهم أربعة عشر مركباً بناحية (البحيرة) فنكبوا عن حائط الأندلس وأسرعوا إلى الانصراف إلى بلدهم . »(٢) .

وعندما تولى الخليفة عبدالرحمن الثالث (٣٠٠هـ إلى ٣٥٠هـ - ٩١٢م إلى

---

(٢) عبدالرحمن علي الحجي - المصدر نفسه - ص ٢٣٩ .

ويقول إبن حزم الأندلسي : إن بني دامس بن عوسجه من المصامدة كانوا أصحاب مدينة (قلبيرة) وإلى جدهم ينسب قصر أبي دانس .

٩٦٢م) الحُكم ، وأعلن الخلافة في الأندلس وتسمى باسم الناصر لدين الله ، فإن أحداثاً جديدة استجدت على الوضع العام في إسبانيا ، ذلك هو ظهور التكتلات السياسية والعسكرية القوية بين الإسبان المناهضين للعرب في منطقة (جليقه GALI-CIA) التي تقع شمالي نهر دويرة في أقصى الشمال الغربي من إسبانيا ، وكانت تضم معها شمال البرتغال أيضاً ، فكانت مدينة (شنت ياقُب) أو (SANTIAGO DE CONPOSTELA) أي مدينة (القديس يعقوب) مركزاً لكافة التجمعات التي تريد إخراج العرب من البلاد ، ففيها قبر القديس يعقوب الذي يشكل محجاً يحج اليه المسيحيون من كافة أرجاء العالم ، فصارت المدينة مركزاً لدعاة الحرب ضد العرب . وراح الخطباء من كافة الدول الأوربية المسيحية يتبارون في حث الناس على قتال العرب وإخراجهم من الأندلس لذلك فقد شهدت المناطق الشمالية من البرتغال معارك عديدة بين العرب من جهة والاسبان والبرتغال المتحالفين من جهة اخرى ، ولعل أشهرها معركة (الخندق) التي جرت على نهر دويره بين القوات الاوربيه المتحالفه بقيادة الملك روميرو الثاني (RAMIRO II) ملك ليون وبين القوات العربية بقيادة الخليفة الناصر لدين الله وكان ذلك في عام ٩٣٩م ، وفي تلك المعركة كان الدافع الديني المسيحي لدى الأوربيين شديداً لدرجة أنهم تصوروا أن القديس يعقوب ظهر وسط المعركة راكباً حصاناً أبيض ومرتديا درعه وسيفه وقاد المعركة بنفسه . وفي أعوام ٩٥٣ - ٩٥٥م كانت أحواز الأشبونة قد تعرضت لغارة من قبل (أردونو الثالث) ملك ليون ، إلا أن المسلمين أوقعوا به هزيمة .

وعندما توفى الخليفة عبدالرحمن الثالث (الناصر لدين الله) خلفه في الحكم الخليفة الحكم الثاني (المستنصر بالله) الذي حكم من عام ٣٥٠ إلى ٣٦٦هـ أي ٩٦١ إلى ٩٧٦م وعلى أيامه حدث هجوم آخر على البرتغال ففي بداية شهر رجب ٣٥٥هـ ٢٣ حزيران - يونيو ٩٦٦م ورد خبرٌ من ميناء قصر أبي دانس (ALCACER DO SAL) الواقع جنوب لشبونه يقول :

« جرت أحداث اعتركت فيها البحرية الأندلسية التي نمت وقويت منذ زمن بقيادة أمير البحر عبدالرحمن بن رماحس ، فردّوا وقد أُعطبت بعض مراكبهم » .

وفي منتصف رجب ورد كتاب من قصر أبي دانس إلى المستنصر بالله يذكر فيه ظهور أسطول المجوس ببحر الغرب بقرب هذا المكان واضطراب أهل الساحل كله لذلك ، وكانوا في ثمانية وعشرين مركباً ، ثم ترادفت الكتب من تلك السواحل عن أخبارهم ، وأنهم قد أضروا بها ووصلوا إلى بسيط (أشبونه) ، فخرج اليهم المسلمون ودارت بينهم حرب ، استشهدَ فيها من المسلمين وقتل فيها من الكافرين ، وخرج أسطول (إشبيلية) فاقتحموا عليهم بوادي (شلب) وحطموا عدةً من مراكبهم واستنقذوا من كان فيها من المسلمين وقتلو جملة من المشركين وانهزموا إثر ذلك خاسرين . ويرد أيضاً اسم قائد بحري اندلسي هو خشخاش بن سعيد بن أسود ويلقب (خشخاش البحري) في التصدي لمراكب المجوس ، حتى استشهد[٣] .

أما ابن خلدون فيجعل ظهور (المجوس) سنه ٣٥٤هـ فيقول : « وظهرت في هذه السنة مراكب المجوس في البحر الكبير ، وأفسدوا بسائط (أشبونة) وناشبهُم الناس القتل فرجعوا إلى مراكبهم ، وأخرج الحكمُ ، القادة لاحتراس السواحل ، وأمر قائد البحر عبدالرحمن بن رماحيس بتعجيل حركة الاسطول ، ثم وردت أخبار بأن العساكر نالت منهم في كل جبهة من السواحل »[٤] .

وبعد خمس سنوات من التاريخ أعلاه هاجم الـ(VIKING) أو المجوس الأردمانيون مَرَّة أخرى في بداية رمضان ٣٦٠هـ أول صيف ٩٧١م فيذكر المؤرخون العرب ما يلي :

« وفي صدر رمضان منها وقع الإرجاف بتحرك المجوس الأردمانيين لعنهم الله وظهورهم في البحر الشمالي ورووْمهم سواحل الأندلس الغربية على عادتهم ، فانزعج السلطان لما سيق له من خبر ، وعهد إلى عبدالرحمن بن رماحس قائد البحر

(٣) الدكتور عبدالرحمن الحجي - المصدر نفسه - ص ٣٠٩ عن البيان المغرب وكذلك الدكتور الطيبي - المصدر نفسه - ص ٢٢٣ .
(٤) ابن خلدون - العبر ج٤/ ٣١٤ .

وهو في قرطبة بالتأهب للركوب لناحية (الغرب) فنفَّذ بأمره يوم الاثنين لست خَلَون من شهر رمضان وتمكن من ردهم خائبين » .

ثم عاد المجوس الأردمانيون لمهاجمة سواحل الأندلس الغربية (أي سواحل البرتغال) وكان ذلك في بداية سنة ٣٦١هـ أي نهاية ٩٧١م فردّهُم منتصراً إلى قرطبة من مدافعته ورَدَّ لهم لينهي خبر ذلك إلى الخليفة الحكم المستنصر ويداوله في مهماته .

« وفي ليلة الجمعة لليلتين خلتا من صفر احتل الوزير القائد غالب بن عبدالرحمن بمحلة (فحص السرادق) قافلاً من غزاته إلى (ساحل الغرب) التي تجوّل فيها وأشرف على المجوس الأردمانيين الجائشين في هذه السنة ، فاستركب اليه الجيوش يوم السبت بعده ، من قصر قرطبة في التعبئة المنتظمة بالعُدد الفخمة ، إلى أن وصل قصر قرطبة والخليفة يومئذ مقيم به ، فتوصل إليه وقعد بينَ يديه ملياً ومفاوضاً له ومُسائلاً عن حركاته وتقلباته في غزاته التي كفى الله فيها المسلمين القتال وكان الله قوياً عزيزاً »[(٥)]

وفي مصدر آخر :

« وفي يوم الثلاثاء لخمس خَلَوْنَ من ذي القعدة منها احتل مدينة الزهراء صاحب الخيل زياد بن أفلح وصاحبُ الشُرطة العليا هشام بن محمد ، قافلين من غزاتهما إلى (ساحل الغرب) لتتبع أخبار المجوس الاردمانيين - أهلكهم الله - المتوقعين بالناحية فتوصلا إلى أمير المؤمنين وأنبآه بما قضيا في وجههما ، وحيث بلغا من قصدهما وأنهما انتهيا إلى مدينة شنترين (أي مدينة SANTAREM البرتغاليه) قاصية ذلك الصقع ، وتظاهرت لديهما الأنباءُ الصحيحةُ بأن الأردمانيين - لعنهم الله - نكصوا عن الإقدام على المسلمين عند تسمعهم بخبر الدلوف إليهم والاستعداد لهم براً وبحراً ، فانقلبوا على وجوههم وجدّوا في نكوصهم وأن الجواسيس الذين أُرسلوا لامتحان أخبارهم عادوا إليها بعد بلوغهم (شنت ياقب) من قاصية بلد العدو ، ولم يختلف عليهم في فرارهم بفضل الله تعالى ومنته »[(٦)] .

(٥) الدكتور عبدالرحمن الحجي - المصدر نفسه - ص ٣١٠ .

(٦) الدكتور عبدالرحمن الحجي - المصدر نفسه - ص ٣١٢ .

هذا ولم تسعفنا أخبار الرواة والمؤرخين العرب بأكثر مما مر ذكره عن أخبار (الغرب) أي البرتغال على زمن وعهد الإمارة في الأندلس والذي استمر لمدة تقارب مئتي عام كان أبرز أحداثه هو إعلان الخلافة هناك على زمن عبدالرحمن الثالث وظهور قرطبة العاصمة مركزاً من مراكز العلم والثقافة وجهاد ملوك وخلفاء ذلك العهد في الفتوحات والانتاج الفكري والعمراني والعلاقات مع الدول الاسلامية وغير الاسلامية ودفاعهم عن التخوم الغربية أي البرتغال ضد هجمات النورمانديين إلى أن انتهت الخلافة ، وبعدها قامت في إسبانيا ممالك ودويلات مستقلة يحكم كلاً منها أمير مستقل فكان ذلك بداية (عهد الطوائف) هناك .

3

الفصل الثالث

البرتغال على عهد الطوائف في الأندلس

٤٠٠هـ إلى ٤٨٤هـ المصادف ١٠٠٩م إلى ١٠٩١م

كان آخر من تولى المُلك والإمارة في الأندلس على عهد الولاة هو هشام بن الحكم الثاني الملقب بالمؤيد بالله وكان صبياً في الحادية عشر من عمره ، ولم يكن باستطاعته النهوض بأمور الدولة ورعاية شؤون الأمة ، مما دفع بوزيره محمد بن أبي عامر المعروف باسم الحاجب المنصور أن يأخذ السلطة لنفسه وأن يحكم باسم هشام ، مما جعل بعض المؤرخين يطلقون اسم عهد بني عامر على تلك الفترة التي استمرت مدة عشرين عاماً تقريباً . وعندما مات محمد بن أبي عامر حكم بعده ابنه عبدالملك الملقب (المظفر) ، ثم ابنه الآخر عبدالرحمن (شنجول) وبمقتل الآخير انتهت الخلافة في الأندلس .

وبذهاب الخلافة وانتهاء حُكم أُسرة بني عامر ، فإن عهد الطوائف في الأندلس يكون قد ابتدأ ، ويكون ذلك أيضاً بدايةً لعهد تصدُّع ذلك البناء الشامخ ، فقامت الممالك والدويلات المستقلة في الأندلس يحكم كلاً منها أمير أو ملك ، فتقسمت الأندلس إلى ست مناطق رئيسية تضم كلٌ منها إمارة أو أكثر ، حتى بلغت أحياناً عشرين إمارة تربع على عروشها حكام اقتسموا ألقاب الخلافة ، فتلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمظفر وأمثالها وساروا بأمتهم نحو الخراب[١] .

(١) عبدالرحمن الحجي – المصدر نفسه – ص ٣٢٤ .

وفي ذلك قال الشاعر أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني :

مما يُزهِّدُني في أرض أندلس أسماءُ معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكةٍ في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسدِ

فصارت في الأندلس الممالك العربية التالية :

مملكة سرقسطه ويحكمها بنو هود - مملكة قرطبة ويحكمها بنو جمهور - مملكة طُلَيْطِلَة ويحكمها بنو ذنّون - مملكة بطليوس يحكمها بنو الأفطس - مملكة بلنسية يحكمها عدد من العوائل - مملكة غرناطة ويحكمها بنو زيزي - مملكة أشبيليه ويحكمها بنو عبّاد .

والذي يهمنا في التقسيم أعلاه هو أمر مملكتي بطليوس وأشبيلية ، حيث يُفهمُ مما أورده المؤرخون العرب - على قلّة الاخبار وشحتها كالعادة - أن (الغرب) أي البرتغال حكمها بنو الأفطس ملوك (بطليوس) أولاً ، ثم لمّا ظَهَرَ المعتمد بن العباد ملك اشبيلية القوي ضم جنوب البرتغال إلى مُلكه فصار غرب الأندلس أي البرتغال تابعاً لمملكة أشبيلية ولربما اقتسمت المملكتان العربيتان البرتغال ، فصار شماله تابعاً لمملكة بطليوس وجنوبه لمملكة أشبيلية .

أما العاصمة (بطليوس) فهي المدينة الاسبانية المسماة (BADAJOZ) التي تقع على حدود البرتغال الحالية مع إسبانيا وفي وسطها مقابل العاصمة (لشبونه) تقريباً . هذه المملكة تولى أمرها رجل يسمى مسلمة بن الأفطس ، لم تذكر لنا المراجع العربية خبراً مهماً عنه ، ثم تولى أمرها ابنه أحمد ولا خبر عنه أيضاً ثم تولى أمرها ابنه أبو محمد عبدالله المنصور ، ثم سيف الدولة أبو بكر محمد المظفر ، فلما مات المظفر ، ترك ولدين الأول هو يحيى الذي صار والياً لمدينة بطليوس ، والثاني هو عُمر الذي تولى أمر (يابره) و(الاشبونه) ، فلما توفي يحيى ، انفرد عمر بالأمر ، فصعد إلى دست الحكم وصار اسمه أبو محمد عمر الملقب بالمتوكل على الله ويعرف أيضاً باسم عمر بن الأفطس ، وقد تولى الحكم عام ٤٦٠هـ - ١٠٦٧م وحكم لمدة ربع قرن تقريباً أي

إلى عام ٤٨٧هـ - ١٠٩٤م تقريباً وعلى زمانه امتد حكمه إلى طليطله حتى سقوطها بيد الملك (أدفونش) أو (الفونسو السادس) ، وعاصر المتوكل أيام المعتمد بن عباد ملك اشبيليه وكان أحد العناصر الفعاله في طلب النجدة من ملك المغرب ، يوسف بن تاشفين لإنقاذ الأندلس من أيدي القوات الأوربية .

ومن الإشارات التاريخية القليلة المتيسرة لدينا عن أيام بني الأفطس في البرتغال هو ما فعله الملك المتوكل من دعوة لجمع شمل العرب والمسلمين واتحاد ملوك الطوائف في الأندلس لمواجهة الخطر الأوربي هناك . فبعد أن سقطت طليطله نظّم حملة سياسية لهذا الغرض فكان من أشهر الدعاة الفقيه سليمان بن خلف وشهرته أبوالوليد الباجي الذي طاف البلاد داعياً إلى الوحدة الاسلامية تجاه الخطر ، وكان من دعاة الوحدة أيضاً الفقيه أبو عمر يوسف عبدالبر الذي تولى القضاء في مدينة (شنترين) ومدينة (الإشبونة) أيام ملكها المظفر بن الأفطس وهو والد المتوكل حكم من عام ٤١٣هـ - ٤٣٧هـ أي ١٠٢٢م - ١٠٤٥م . وخبر الملك المظفر هذا هو الخبر الصغير الوحيد الذي تركه لنا الرواة العرب عن أيام بني الأفطس في (أشبونة) أي لشبونة عاصمة البرتغال اليوم[٢] .

وفي رواية أخرى عن مدينة (أشبونة) أنه كان هناك والياً للمدينة أسمه (سابور) وذلك على عهد الخليفة الحكم الثاني المستنصر بالله (٩٦١م - ٩٧٦م) فلما أنقضى حكم الإمارة في الأندلس ، انفصل سابور في أشبونة وغربي الأندلس واستعان بعبدالله بن محمد بن مسلمة المعروف بابن الأفطس . وبعد وفاة سابور قام ابن الأفطس بأمر ولدي سابور ، ثم استأثر بالحكم في مدينة (بطليوس) دونهما وارتحل الاخوان إلى مدينة (الأشبونة) حيث تولى أمرها أحدهم وهو عبدالعزيز بن سابور ، ثم خلفه أخوه عبدالملك وكان عاجزاً فاتصل أهل الأشبونة سراً بابن الأفطس ليبعث اليهم بوال من عنده فوجه اليهم ابنه محمداً ولم يشعر عبدالمالك إلا والبلد قد امتلأ بالعسكر فأستسلم وخرج من الأشبونه واستقر بقرطبة[٣] .

---

(٢) الحجي - المصدر نفسه .

(٣) الدكتور الطيبي - المصدر نفسه - ص ٢٢٨ .

أما مملكة أشبيلية فتأتي في مقدمة دول الطوائف من حيث سعتها وتفوقها السياسي ، وكان لها شأن في أحداث فترة الطوائف وخاصة في غربي الأندلس حيث تقوم هذه المملكة .

وقد حكمت أسرة بني العبَّاد اشبيلية وبرز نجمها عقب ذهاب الخلافة فنشأ صدر بيت بني العباد ومؤسس مجدهم اسماعيل بن محمد بن عبّاد اللخمي المعروف باسم أبي الوليد ، حيث تعاقب على الحكم بعده ذو الوزارتين أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عبّاد ، ثم ابنه أبو عمرو عبّاد بن محمد الملقب بالمعتضد والذي بذل جهوداً كبيرةً في ضم إمارات غربي الأندلس إلى مملكة أشبيلية .

توفي المعتضد سنة ٤٦١هـ - ١٠٦٩م بعد ولاية استمرت ثمانية وعشرين عاماً وخلفه ابنه أبو القاسم محمد بن عبَّاد الملقب (المعتمد على الله) . وقد وصف المؤرخون (المعتمد) بأنه من الملوك الفضلاء الشجعان العقلاء ولد في مدينة (شلب SILVES) وهي في البرتغال اليوم .

كما تذكر لنا صفحات التاريخ أن مُدنَ (باجه) و (شلب) كان يحكمها (بنو مُزَيْن) التابعون لبني عبَّاد حكام مملكة اشبيلية وفي بعض المصادر البرتغالية أن البرتغال آنذاك كانت مُقَسَمةٌ إلى قسمين وهما منطقة (شلب SILVES) تحت حكم بني العباد ومنطقة (سانتا ماريا دوغاردي أوسنوبا OSSONOBA) وهذه تعود إلى إمارة لشبونه ولعلها كانت تحت حكم بني الأفطس(٤) .

وعلى أيام المعتمد بن عباد ملك أشبيليه والمتوكل عمر بن محمد ملك بطليوس سقطت مملكةُ طليطله بيد الملك الاسباني (الفونسو السادس) ويسميه العرب أدفونش بن فردلند وذلك في محرم سنة ٤٧٨هـ - ١٠٨٥م ، فأيقظ هذا الحادث وأمثاله من قبله ، المُعتمد والمتوكل وبقية أُمراء الطوائف من أحلامهم وأدركوا خطورة الأوربيين

---

(٤) المصدر : الكتابان البرتغاليان التاليان :

A'DESCOBERTA DE PORTUGAL. P. 45 .

HISTORIA CONCISA DE PORTUGAL P.105 .

وأطماعهم وآثارهم على دينهم وأمتهم ، فطلبوا العون من الملك يوسف بن تاشفين ملك مملكة المرابطين في المغرب فاستجاب لطلبهم فكان دخوله إلى الأندلس بداية لعهد المرابطين هناك .

أما مملكة أشبيلية فتأتي في مقدمة دول الطوائف من حيث سعتها وتفوقها السياسي ، وكان لها شأن في أحداث فترة الطوائف وخاصة في غربي الأندلس حيث تقوم هذه المملكة .

وقد حكمت أسرة بني العبَّاد اشبيلية وبرز نجمها عقب ذهاب الخلافة فنشأ صدر بيت بني العباد ومؤسس مجدهم اسماعيل بن محمد بن عبّاد اللخمي المعروف باسم أبي الوليد ، حيث تعاقب على الحكم بعده ذو الوزارتين أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عبّاد ، ثم ابنه أبو عمرو عبّاد بن محمد الملقب بالمعتضد والذي بذل جهوداً كبيرةً في ضم إمارات غربي الأندلس إلى مملكة أشبيلية .

توفي المعتضد سنة ٤٦١هـ - ١٠٦٩م بعد ولاية استمرت ثمانية وعشرين عاماً وخلفه ابنه أبو القاسم محمد بن عَبَّاد الملقب (المعتمد على الله) . وقد وصف المؤرخون (المعتمد) بأنه من الملوك الفضلاء الشجعان العقلاء ولد في مدينة (شلب SILVES) وهي في البرتغال اليوم .

كما تذكر لنا صفحات التاريخ أن مُدنَ (باجه) و (شلب) كان يحكمها (بنو مُزَيْن) التابعون لبني عَبَّاد حكام مملكة اشبيلية وفي بعض المصادر البرتغالية أن البرتغال آنذاك كانت مُقَسَمةٌ إلى قسمين وهما منطقة (شلب SILVES) تحت حكم بني العباد ومنطقة (سانتا ماريا دوغاردي أوسنوبا OSSONOBA) وهذه تعود إلى إمارة لشبونه ولعلها كانت تحت حكم بني الأفطس[٤] .

وعلى أيام المعتمد بن عباد ملك أشبيليه والمتوكل عمر بن محمد ملك بطليوس سقطت مملكةُ طليطله بيد الملك الاسباني (الفونسو السادس) ويسميه العرب أدفونش بن فردلند وذلك في محرم سنة ٤٧٨هـ - ١٠٨٥م ، فأيقظ هذا الحادث وأمثاله من قبله ، المُعتمد والمتوكل وبقية أُمراء الطوائف من أحلامهم وأدركوا خطورة الأوربيين

---

(٤) المصدر : الكتابان البرتغاليان التاليان :

A'DESCOBERTA DE PORTUGAL. P. 45 .

HISTORIA CONCISA DE PORTUGAL P.105 .

وأطماعهم وآثارهم على دينهم وأمتهم ، فطلبوا العون من الملك يوسف بن تاشفين ملك مملكة المرابطين في المغرب فاستجاب لطلبهم فكان دخوله إلى الأندلس بداية لعهد المرابطين هناك .

4

الفصل الرابع

حكام إسبانيا النصرانية في الشمال أيام الطوائف

لا بد وقبل الحديث عن عهد المرابطين في الأندلس وجهادهم في إسبانيا والبرتغال ، من الحديث عن سلطات إسبانيا والبرتغال قبل دخول المرابطين من مراكش إلى هناك ، إذ جرى اتحاد ممالك إسبانيا في الشمال في عصر تنازُع الطوائف وفُرقتها في الأندلس . ففي حوالي عام ١٠٠٠ الميلادي ظهر على المسرح السياسي والعسكري الاسباني الملك (سانجو غارسيا الثالث SANCHO GARCES III) ويسميه العرب (شانجه بن غرسيا) ، وعندما مات هذا الملك في حوالي عام ١٠٣٥م ترك أربعة أولاد وهم : غارسيا ملك نباره ، ورودمير ملك أرغون ، وفردناند ملك قشتالة وليون ، وابن اسمه كونزالو كان صغيراً في السن .

كان فردناند أقوى الإخوة إذ استطاع الاستحواذ على ملكهم ، وكانت فترة ملوكيته حوالي ثلاثين عاماً ١٠٣٥ - ١٠٦٥م كما كانت له اليد الطولى في مهاجمة الأراضي الأندلسية حيث عاث في الأنحاء الشمالية لمملكة طليطلة وكذلك في بعض ممالك اشبيلية ، وفي سنة ١٠٦٤م احتل مدينة (قلمرية GOMBRA) البرتغالية ، وانتزعها من بني الأفطس .

وقبل وفاته قسم مملكته بين أولاده الثلاثة ، فوضع سانجو ولده الكبير حاكماً على قشتاله وابنــه الفونس حاكماً على ليــون وابنــهُ الثالث غارسيا حاكمــاً على (جُليقة GALICIA) وشمال البرتغال . فلما مــات في عام ١٠٦٥ تنـــازع الأولاد علـى السلطــة والعرش وانتهى الصراع بانتصار الفونس على اخوته فأصبح ملكاً على قشتاله وليون وجليقة وشمال البرتغال ، وصار اسمه الملك الفونسو السادس ويسميه العرب (الفُنش) وحكم حوالي سبعة وثلاثين عاماً أي من عام ٤٦٥هـ إلى ٥٠٢هـ - ١٠٧٢م إلى ١١٠٩م وراح يعد العدة لقتال العرب واحتلال طليطلة حتى تمكن من احتلالها في شهر محرم ٤٧٨هـ ، مايو ١٠٨٥م وقضى على ملكها القادر بالله يحى بن اسماعيل بن ذي النون ، ووقف بعض ملوك الطوائف جامدين لا يتحركون ، اللّهُم إلا حاكم بطليوس الذي كان يحكم البرتغال أيضاً وهو المتوكل على الله عمر بن محمد الأفطس الذي حاول انقاذ المدينة لكنه فشل لغدر وخيانة القادر بالله نفسه .

وقد شكل احتلال الاسبان لمملكة طليطله التي كانت قلب الأندلس ، شطر بلاد المسلمين إلى شطرين وتمزيق شملهم ، وقد عَبَّر عن ذلك الشاعر الطليطلي أبو محمد عبدالله بن فرج بن عزنون المعروف بابن العسال بقوله :

شدوا رواحلكم يا أهل أندلس ... فما المقام بها إلا من الغلطِ
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ... ثوب الجزيرة منسولاً من الوسطِ

وهكذا شمخ الفونس بأنفه وشن غاراته على المدن والقرى المجاورة لطليطلة فحاز على ثمانين قرية منها ، وتهافت الأمراء العرب الضعاف مثل حسام الدين بن رزين ملك مدينة (شنتمريه) يحملون الهدايا إليه[1] . مما دفع بألفونس هذا أن يَطْلُق على نفسه لقباً عربياً هو (الامبراطور ذي الملتين) أي الإسلامية والنصرانية . كما منح نفسه لقباً إسبانياً هو : (IMPRATEUR TOTIUS HISPANIAE) وقام بتعزيز جيشه بقوات من

---

(١) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، تحقيق الدكتور أحمد مختار عبادي - ص ٨٨ .

الملك (فيليب الأول) ملك فرنسا ، وكذلك من (دوق أوف بورغنـدي DUKE OF BURGUNDY) وقد قام الفونس هذا وقبل وفاته بتزويج ابنته تيريـزا إلـى (الكونت هنري أوف بورغندي) ، ومنحه حكم مقاطعتي (OPOROT) و(COMBRA) التي حصل عليها من العرب وصار لقب هنري هذا : (كونت بورتو كالينسو CONT PORTOGA-LENSIS) وهو لقب مأخوذ من مدينه اسمهـا (PORTUS CALA) تقع على مصب نهر دورو ويسمى اليوم نهر (OPROTO) وأن هذه المدينة هي التي أعطت فيما بعد اسم البرتغال كما هو عليه الآن .[٢]

---

(2) F.C. DANVERS - THE PORTUGUESE IN ININDIA VOL (1) P: 13

5

الفصل الخامس

البرتغال في عهد دولة المرابطين في الأندلس

٤٨٤هـ إلى ٥٢٠هـ المصادف ١٠٩٢م إلى ١١٣٤م

استفحل خطر الفونسو السادس على دويلات الطوائف بعد أن ذاق حلاوة الانتصار على المسلمين في طليطلة ، فعزم على فتح مدن الأندلس كلها حتى أنه لما عَرَضَ عليه رعيته أن يلبس تاج الامبراطور على عادة أسلافه القوط ، أرجأهم في ذلك حتى يستولى على دار المسلمين في قرطبة . ثم عمد إلى استذلال ملوك الطوائف بفرض الإتاوات والجزية عليهم ، وبدأ بالمعتمد بن عباد ملك اشبيليه وكبير ملوك الطوائف ، فطلب منه تسليم بعض حصونه وأعماله إلى رُسُله وكتب اليه رسالة استهلها بقوله : « من الامبراطور ذي الملتين الملك المفضل الأدفنَشَ ابن شانجه إلى المعتمد بالله . . الخ» ، فهلع المعتمد ولاحت له طوالع المصير المروع الذي سينحدر إليه إذا لم تتداركه يد العناية بعون أو نجدة من الخارج . ويبدو أن الملك المتوكل عمر بن الأفطس صاحب بطليوس والبرتغال كان يشعر بالقلق نفسه ، فأراد أن يكون صفاً واحداً مع ملوك الطوائف في وجه الخطر المتزايد ، وكان قد سبق له أن أرسل القاضي أبا الوليد الباجي إلى أمراء الطوائف يدعوهم إلى الوحدة ، وفي رواية أن الملك المتوكل هذا كان أول ملوك الطوائف الذين كتبوا إلى الملك يوسف بن تاشفين ملك مملكة المرابطين في المغرب يطلب منه نجدة المسلمين في الأندلس .

لكن الروايات اتفقت فيما بعد على أن الملكين المعتمد بن عباد والمتوكل عمر بن

الأفطس هما اللذان تبنّيا ونفذا خطة الاستعانة بدولة المرابطين التي كانت قائمة في مراكش وملكها يوسف بن تاشفين لتخليص البلاد من الفوضى السياسية ومن تهديد الفونس . فطلب المعتمد من صديقة المتوكل ومن الأمير عبدالله بن حبّوس الصنهاجي ملك غرناطة ، أن يرسل كل واحد منهم موفداً عنه ليجتمعوا به ، فلما اجتمعوا أكدوا قرار الاستعانة بدولة المغرب ، وأُشير خلال الاجتماع إلى التخوف من نتائج ذلك فأجاب المعتمد قائلاً : (رعي الجمال خيرٌ من رعي الخنازير) أي أن أكون مأكولاً ليوسف بن تاشفين أسيراً عنده أرعى الجمال ، خيرٌ من عبدٍ لالفونس أرعى خنازيره .

وعلى هذا الأساس ، سافر المعتمد إلى المغرب والتقى بيوسف بن تاشفين وطلب منه النصرة والنجدة ضد القوى الإسبانية المتفوقة آنذاك في الأندلس ، فاستشار يوسف بن تاشفين الفقهاء والأعيان في أمر نجدة الأندلس ، فوافقوه على ذلك فاستنفر قواته للجهاد واجتمع له نحو سبعة آلاف فارس وأكثر من المشاة ، وأمرهم بالعبور نحو الأندلس لنجدتها فعبرت أولاً قوة الفرسان بقيادة داود بن عائشة ، وآخرها موكب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وكان ذلك في منتصف ربيع الأول ٤٧٩ هـ ٣٠ حزيران ١٠٨٦م[١] .

وعندما اجتاز المرابطون المغاربة البحر إلى الجزيرة الخضراء تلقاهم المعتمد أحسن لقاء وانضمت قواته إليهم واتخذ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من أشبيليه عاصمة المعتمد قاعدة له وأقام بها ثلاثة أيام ، ثم ارتحل إلى بطليوس عاصمة المتوكل بن الأفطس الذي فتح معسكرات جيشه لهم .

أما الملك افونسو السادس فسرعان ما وصلته النجدات من ملوك النصارى من جليقة وليون وبسكونيه وقشتاله وغيرها واندفعت تلك الجيوش نحو بطليوس حيث تتجحفل الجيوش الإسلامية هناك .

(١) الدكتور السيد عبدالعزيز سالم - تاريخ المغرب الكبير - ص ٧٢٢ .

وفي منطقة اسمها (الزلاقة) وتسمى باللاتينية (SACRALIAS) وقع الالتحام وقامت المعركة الكبرى الحاسمة ، ودارت الدوائر على الجيوش الإسبانية وجُرح الفونس جرحاً بالغاً ، ففر على جنح الظلام ولاذت فلول الجيوش الأخرى منهزمة ومنسحبة نحو طليطلة ، وهكذا محت قوات المغرب العار الذي لحق بملوك الأندلس من مذلة الفونسو السادس لهم .

وقبل عودة يوسف بن تاشقين إلى مملكته في المغرب جمع رؤساء الأندلس ونصحَهُمْ ووعظهُمْ وأمرهم بالاتفاق والاتحاد ، وترك فرقة من جيشه قوامها ثلاثة آلاف مقاتل تحت تصرف المعتمد بن عباد[٢] .

لكن موقعه (الزلاقة) لم تكن إلا صدمةً أصابت الفونسو موقتاً ، ثم أخذ يستفيق منها وتمكن بعد عام واحد من إعادة تنظيم قواته ، فنقل ميدان نشاطه إلى شرقي الأندلس ، بعيداً عن مملكتي اشبيليه وبطليوس في الغرب وفي البرتغال ، لذلك فقد ساء حال الشرق ، خاصة بعد أن صالح الفونس قائده (السيد الكنبيطور) الذي شهر سيفه لقتال العرب ، فدارت معارك شديدة بين الطرفين خسر فيها العرب مواقع كثيرة في شرقي الأندلس ، مما دفع بالملك المعتمد بن عباد إلى أن يطلب النجدة ثانية من ملك المرابطين في المغرب يوسف بن تاشفين ، فأنجده هذا وعبر إلى الأندلس مرة ثانية لقتال الفونس وكان ذلك في عام ٤٨١ هـ ، إلا أن الأمر لم يستتب بعدها فقد ساءت أحوال ملوك الطوائف مرة أخرى وعادوا إلى خلافاتهم بل تعاونوا مع القائد الإسباني (السيد الكنبيطور) ، وارتد قسم من المسلمين عن الاسلام وانتهى الأمر بهم أن قاموا ببيع المسلم الاسير بخبزة وقدح خمر ورطل لحم سمك ، ومن لم يفد نفسه قُطِعَ لسانهُ وفُقِئت أجفانُهُ وسُلِّطت عليه الكلاب الضارية[٣] .

لذلك فقد ترددت الكتب والفتاوى من فقهاء الأندلس وعلمائه إلى يوسف بن

---

(٢) تاريخ الأندلس لابن كردبوس – ص ٩٤ .

(٣) تاريخ الأندلس لابن كردبوس – ص ١٠٤ .

تاشفين ، أن ينقذ البلاد من الفوضى السياسية التي أوجدها ملوك الطوائف .

لذلك عزم ابن تاشفين عزماً صادقاً على استئصال شأفة ملوك الطوائف والإطاحة بعروشهم ، فعبر إلى الأندلس للمرة الثالثة في سنة ٤٨٣هـ - ١٠٩٠م ، وهو ينوي هذه المرة القضاء على دول الطوائف وتوحيد كلمة الأندلس وتأليف جبهة مغربية - أندلسية لمواجهة خطر افونسو السادس المتزايد .

وعندما وصل إلى الأندلس قام أولاً بعزل الملك عبدالله الزيزي ملك غرناطة ، ثم أرسل بعدها أربعة جيوش مرابطيه لمحاصرة ملوك الطوائف في بلادهم ، فحوصرت البلدان وسقطت اشبيلية ووقع المعتمد بن عباد أسيراً بيدهم فكُبل بالحديد وأُرسل سجيناً إلى مراكش وبقي في السجن إلى أن مات .

أما الملك المتوكل على الله عمر بن مظفر بن الأفطس حاكم بطليوس والبرتغال فقد اتهم بالاتصال مع العدو وقام أمير الجيوش المغربية الأمير سير بن أبي بكر بإعدامه ، وكان ذلك في عام ٤٨٨هـ - ١٠٩٤م وأعدم معه ولديه الفضل والعباس ، فقال فيهم وزيرهم الشاعر أبو محمد عبدالمجيد بن عبدون :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور

وفي خبر آخر عن قصة إعدام المتوكل ، أنه بعد أن قضى المرابطون على بني عباد ، استوحش المتوكل وخاف على نفسه فحالف الفونس وتنازل له عن ثلاث مدن مهمة هي إشبونه وشنترين وشنتمرية الغرب ، مما دفع بالأمير سير أن يوجه جيوشه إلى بطليوس وألقى القبض على المتوكل وولديه وأعدمهم في عيد الأضحى ٤٨٧هـ - ١٠٩٤م ، ثم تابع تقدمه نحو أشبونه وكانت بها حامية بقيادة ريمون البرجوني صهر الفونس واستطاع بعد قتال عنيف أن يسترد الثغر وفتح كذلك شنترين وكان ذلك في العام نفسه[٤] . وبإعدام المتوكل على الله وانتهاء سلطة بني الأفطس على بطليوس

(٤) د . سعدون عباس نصر الله - دولة المرابطين - ص ١٣٤ .

ومدن البرتغال فإن السيادة على المنطقة أُعطيت للأمير سير بن أبي بكر اللمتوني ، الذي اتخذ من اشبيلية مقراً له بينما راحت قواته تقاتل الملك الفونس السادس وتنزل به الهزائم الواحدة تلو الأخرى واستطاع في عام ٥٠٤هـ - ١١١١م أن يستعيد المدن البرتغالية شنترين ويابره ولشبونة التي كانت قد سقطت لفترة بيد الأعداء وأن يعيد ضمها إلى منطقة بطليوس كما كانت على عهد بني الأفطس فكان ذلك بداية لعهد المرابطين في الأندلس والبرتغال .

وعندما توفى ملك المغرب يوسف بن تاشفين عام ٥٠٠هـ - ١١٠٦م . خلفه ابنه علي بن يوسف ، وكانت دولة المرابطين إذ ذاك في أوجها ، فقد ترك يوسف بن تاشفين لابنه امبراطورية كبرى تمتد من المغرب إلى الأندلس شمالاً ، وقد صرف الملك الجديد علي بن يوسف الجزء الأعظم من وقته في متابعة شؤون الأندلس ، ثم لم يلبث أن مات عام ٥٣٣هـ فخلفه ابنه تاشفين في الحكم ، لكن أيام تاشفين كانت قصيرة فمات عام ٥٣٩هـ . فكان في موته بداية النهاية لدولة المرابطين في المغرب والأندلس ، لتقوم مقامها دولة الموحدين هناك .

وعلى كل حال فلقد امتازت دولة المرابطين وخاصة في أيامها الأولى بجهادها في الأندلس وقتالها للجيوش الأوربية والإسبانية من ممالك قطالونيا وأرغون وقشتاله وشمال البرتغال ، خاصة معركة (أقليش) التي وقعت في شهر شوال سنة ٥٠١هـ وفيها قتل الامير الصغير (سانشو) ابن الفونس السادس وأُمُهُ مسلمة اسمها (زايدة) كانت زوجة المأمون بن المعتمد بن عباد وقعت أسيرة بيد أفونسو السادس وانجب منها ابنه (سانجو) هذا الذي قتل وعمره خمس عشرة سنة ، وقد بلغ الحزن بوالده أفونسو السادس أن مات بعده بثلاثة أشهر فدفن في قشتاله(٥) .

أما بالنسبة للتنظيمات التي كانت عليها دولة شمال البرتغال النصرانية فكما قلنا في الفصل الرابع ، إن الملك أفونسوا السادس قام بتزويج ابنته تيريزا من

(٥) تاريخ الاندلس لابن الكردبوس - ص ١١٤ .

الكونت (هنري أوف بورغندي) ويسمى بالبرتغالية (أنريكو دي بورغونيا ENRIQUE DE BORGONA) لذا صارت تسميته عند العرب (الرنك) .

شارك (الرنك) هذا في عدة معارك ضد قوات دولة المرابطين مع بقية الجيوش الإسبانية ، وعندما مات في مايو من عام ١١١٤م خَلَفه ابنه (دون أفونسو هنريك) وهو الملك الذي سيقدر له أن ينتزع البرتغال بصورة نهائية من المسلمين وأن يوحد شمالها بجنوبها وأن يطلَق عليها اسم البرتغال .

أما دولة المرابطين فلم تعش أطول من عام ١١٤٧م ، فقد سارت سراعاً على سنة الادوار التي سارت فيها الممالك قبلها ، دور نشاط حربي ، يتلوه تكاسل وفوضى يؤديان إلى التضعضع فالسقوط ، وكان أبناؤها البربر قد ألفوا شظف البداوة فما أن تم انتقالهم إلى ربوع الترف في مراكش والأندلس حتى سادت عليهم رذائل المدينة فاعتورهم الوهن وتدهور حال جيشهم في الأندلس وخاصة بعد أن راح تآلف دول الشمال الإسبانية يسدد الضربات العنيفة لهم ، كما أن قيام ثورة (الموحدين) في داخل المغرب ، اضطرهم إلى صرف قسم كبير من جهودهم للقضاء عليها ، ولما طالبوا أهل الأندلس بمعونتهم ، تنكر لهم هؤلاء وتحولوا عنهم وطردوا في نهاية الأمر ولاتهم عليهم ، بل تحالفوا في بعض الأحيان مع الإسبان ضدهم ، وهكذا سقطت دولة المرابطين في المغرب والأندلس ، لتقوم مقامها دولة الموحدين هناك .

6

الفصل السادس

نظرة سريعة على أحوال المشرق الإسلامي

* قيام الممالك البويهية والسلجوقية والأتابكية على هيكل الخلافة العباسية.
* الحملة الصليبية الأولى وسقوط القدس عام ١٠٩٩م.
* الحملة الصليبية الثانية تساعد على انتزاع (الشبونة) من العرب وتمنح البرتغال استقلالها التام

قبل أن نتحدث عن موضوع البرتغال على عهد دولة الموحدين المغربية وأيامها وجهادها في الأندلس، لابد أن نلقي نظرة سريعة على أحوال العالم العربي والإسلامي في الشرق يومذاك، ذلك أن عهد الموحدين سيشهد قيام دولة البرتغال المستقلة، ثم قيام تلك الدولة المستقلة بقتال العرب بكل شراسة وضراوة وبسط نفوذها الكامل على منطقة (الغرب)، أي غرب الأندلس وجنوب البرتغال وإنهاء كل أثر عربي أو إسلامي هناك، وقد تم لهم ذلك بعد تعاونهم مع الحملات العسكرية الصليبية التي كانت تأتي من أوربا بحراً فتمر بسواحل البرتغال وتنزل هناك لتقاتل العرب قبل ذهابها إلى السواحل العربية في سوريا ولبنان، وقد أدت تلك الانتصارات العسكرية إلى نهاية دولة الموحدين في الأندلس والبرتغال وكذلك نهايتها في المغرب العربي وراحت المؤشرات التاريخية تسير بعدها بسرعة نحو نهاية العرب في الأندلس بصورة كلية .

فإذا عدنا ببصرنا نحو الدولة العباسية يومذاك لوجدنا أنها كانت تسير في طريق

التردي والتمزق فقد انكسر جناحا النسر العباسي في الشرق والغرب ، وصار قلبه هدفاً لنبال الدخلاء من الفرس والترك . وقد ابتدأت المشاكل على زمن الخليفة المقتدر العباسي عندما ظهر في عام ٩٠٩م عبيدالله الفاطمي مؤسس الدولة الفاطمية في مصر وشمالي أفريقيا ، وظهر عبدالرحمن الثالث الأموي في حوالي عام ٩٣٠م في الأندلس ، وأعلن كل منهما الخلافة واحقيته فيها وفي شعارها وألقابها ، بحيث شاهد العالم الإسلامي في تلك الحقبة ثلاثة خلفاء رسميين في آن واحد .

وفي عام ٩٤٥م طرأ على الخلافة في بغداد ما هو أشد وأدهى ، ذلك حينما مَنَحَ الخليفة العباسي المستكفي لَقَبَ (أمير الأمراء) إلى القائد أحمد بن بويه ، فصار ذلك التاريخ بداية لوقوع الخلافة العباسية تحت نفوذ أسياد من الفُرس هم البويهيون

وقد امتدت السيطرة البويهية على الخلافة العباسية إلى حوالي عام ١٠٥٥م ، وفي تلك الفترة تردت الخلافة إلى أحط دركات الذل وأصبح أمير المؤمنين العباسي العوبة في يد (أمير الأمراء) الفارسي البويهي .

إلا أن أمر الخلافة العباسية تغير نسبياً عند ظهور القوة الاسلامية الأخرى على مسرح التاريخ ، وهم السلاجقة الأتراك . فقد ظهر هؤلاء من بلاد ما وراء النهر قرب (بخارى) أي بلاد تركستان الواقعة فيما بعد (نهر جيحون – OXUS) ، وقد باشر هؤلاء السلاجقة منذ عام ٤٢٠هـ – ١٠٢٩م تقريباً باجتياح الجزء الشمالي والشرقي من بلاد فارس ، وفي حوالي عام ١٠٣٩م تمكن القائد السلجوقي (طغرل بك) من احتلال مدينة (مرو) عاصمة خراسان ومن هناك راح يكاتب الخليفة العباسي في بغداد القائم بأمر الله ويعده بتخليص العراق من سطوة الفرس البويهيين ، وهكذا تمكن طغرل بك من دخول بغداد بعد أن أنزل هزائم كبرى بالبويهيين واحتل عاصمتهم في فارس ودخل بغداد في ٢٥/ ذي القعدة/ ٤٤٧هـ الموافق ديسمبر ١٠٥٥م .

وفي بغداد التقى بالخليفة القائم ، فمد له القائم يده وقام طغرل بك بتقبيلها ، فشكره

القائم ومنحه لقب (ملك المشرق والمغرب) ثم صار لقب طغر بك ومن حكم بعده من أمراء السلاجقة (السلطان) ، فكان ذلك بداية عصر جديد دخلت فيه الخلافة العباسية في حماية الاتراك السلاجقة الذين وهبوا الخلافة ببغداد حياة جديدة بعد أن دب اليها التداعي والانهيار .

وعلى عهد السلطان السلجوقي ملك شاه بن ألب أرسلان بن طغرل بك حدث أمر مهم جداً ، ذلك أنه في حوالي عام ١٠٧١م تمكن هذا السلطان من الدخول إلى القدس وانتزاعها من يد الدولة الفاطمية التي كانت آنذاك قد تساهلت مع الامبراطورية البيزنطية في أمر رعاية الاماكن المقدسة المسيحية ، فأثار هذا العمل قلق واضطراب الأوساط المسيحية العالمية إذ اعتبرتهم تلك الأوساط متعصبين إسلاميين أكثر قسوة على المسيحيين من الفاطميين .

ومما زاد الطين بله أنه وفي العام نفسه استطاع السلاجقة إنزال هزيمة ساحقة بالامبراطور البيزنطي اليوناني الموجود في تركيا ، ففقد البيزنطيون كل أسيا الصغرى (تركيا) تقريباً وامتدت أملاك السلاجقة الأتراك حتى وصلت بحر مرمره ، مما دفع بالامبراطور (ميخائيل السابع) امبراطور القسطنطينية أن يرسل رسالة في عام ١٠٧٥م إلى البابا (جريجوري السابع) يطلب المساعدة ، إلاّ أن البابا المذكور لم يستطع تلبية طلب الامبراطور .

لكن عام ١٠٩٥م شهد تحولاً جديداً وخطيراً في مسار الأحداث ، ذلك عندما كرر الامبراطور البيزنطي (الكسيوس) توسلاته بالبابا (إيريان الثاني) أن يوقف الزحف الاسلامي ، فاستجاب البابا لذلك ، وفي ٢٦/ نوفمبر/ ١٠٩٥م ألقى خطابه الشهير الذي دعا فيه إلى مساعدة اليونانيين البيزنطيين وقال : « إنه ينبغي تجهيز المسيحيين في حملة كبرى لقهر المسلمين لمن يبغي الحصول على التوبة الكاملة من الله ، لأنه هكذا أراد الله » .

وهكذا بادر الألوف من الأوربيين وفي نوبة حماس متدفق إلى اتخاذ الصليب شعاراً لهم وأمر البابا أن يتولى قيادة الحملة (أسقف باي PUY) وأعطاه منصب نائب البابا باعتبار أن الحملة يجب أن يقودها أحد رجال الدين ، فتم حشد خمسة جيوش صليبية اجتازت أوربا وتجمعت في القسطنطينية في ربيع عام ١٠٩٧م ثم اجتازت البوسفور وتوغلت داخل تركيا ووصلت إلى أنطاكية وفتحتها في عام ١٠٩٨م وبذلك خلا الطريق إلى القدس ، فسقطت القدس في ١٥/ ٦/ ١٠٩٩م .

وعلى إثر ذلك فقد قامت المملكة اللاتينية المسيحية في بيت المقدس وقامت إلى جوارها إمارة الرها المسيحية أيضاً والتي كان يحكمها أولاد وأحفاد بلدوين دي برغ .

وفي عام ١١٠٠م قدمت جيوش صليبية جديدة أرادت توجيه ضربة قاضية للمسلمين بالاستيلاء على بغداد ، لكنهم لم يستطيعوا إلا تثبيت أقدامهم في المدن السورية واللبنانية الساحلية مثل طرابلس وصيدا وبيروت ، حيث صارت هذه المدن موانىء للقوات الصليبية المحمولة بحراً والتي كان يقودها ملك النرويج (سيجورد SIGURD THE SORALAFARI) وهو الذي كان قبلها يقاتل المسلمين في الأندلس ، لذلك فقد تفاقم شر الصليبيين في سوريا وفلسطين ولبنان غير أنه لا الخليفة العباسي ولا السلطان السلجوقي أبدوا اهتماماً جدياً بهذا الأمر في أوله .

وجاء الفرج عندما ظهر (الأتابكة) على مسرح التاريخ الاسلامي ، والأتابكة أصلاً هم ضباط ومراتب القوات المسلحة في عهد السلاجقة فقد كانوا يختارونهم من المماليك الأتراك وينشئونهم نشأة عسكرية خالصة في بلاط الخليفة أو السلطان ، وقد عُرف هؤلاء المماليك الأتراك بالشجاعة وشدة البأس فصار السلاجقة يسندون إليهم حكم الولايات ، ولكن سرعان ما أخذ هؤلاء المماليك بالتمرد على سادتهم السلجوقيين وأخذوا يحلون محلهم في حكم الولايات . وهكذا أخذ الضعف يدب في جسم الدولة السلجوقية فتفككت امبراطوريتهم وانتقل نفوذهم إلى المماليك الذين أصبحوا أوصياء أو (أتابكة) على السلاطين السلاجقة .

وعلى هذا النحو قامت أسرة أتابكية في دمشق أسسها (طغكيتن) وأسرة أخرى في شمال شرقي سوريا هي أُسرة (الأراتقة)، على أن أعظم الاتابكة وأشهرهم كانوا أتابكة الموصل في العراق، وأعظم ملوكهم هو عماد الدين زنكي الذي حكم منذ سنة ١١٢٧م، ثم ضم اليه حلب وحران ونصيبين، وفي عام ١١٣٥م استولى على حصون الصليبيين في شرقي إمارة أنطاكية، ثم كانت أعظم أعماله وهي سقوط مملكة الرها المسيحية بيده عام ١١٤٤م، وهو الحدث الذي يعتبر نقطة تحول في تاريخ الحروب الصليبية في الشرق، وكذلك نقطة تحول في تاريخ العرب في البرتغال في الغرب .

وبعد سنتين من سقوط الرها مات عماد الدين زنكي، فخلفه في الحكم ابنه نور الدين زنكي وكان (البابا يوجين الثاني) قد بلغه نباء سقوط الرها فقام بارسال منشور بابوي إلى ملك فرنسا (لويس السابع) يحثه على القيام بواجبه باعتبار أن فرنسا كانت الموطن الطبيعي للصليبية يومذاك، فاتفق هذا مع ملك المانيا (كونراد الثالث) ومع الإمبراطور (مانويل كومنين) إمبراطور بيزنطه ونادوا بالتطوع لحملة صليبية ثانية .

استجاب لذلك النداء الألوف من المتطوعين الأوربيين من مختلف الجنسيات والقوميات وعندما اجتمعوا للحركة قرروا تقسيم الجيوش إلى قسمين هما : الجيوش البرية والجيوش البحرية، وكانت الجيوش البرية بقيادة ملكي فرنسا والمانيا، وكان عليها أن تسلك الطريق البري نفسه الذي سلكته جيوش الحملة الصليبية الأولى، أي من أوربا مروراً بتركيا ثم البلاد العربية، أما الجيوش البحرية فكان عليها أن تغادر موانئها على المحيط ثم تدور حول شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا والبرتغال) ثم تمر من مضيق جبل طارق فالبحر المتوسط ثم إلى الموانيء العربية في سوريا ولبنان وفلسطين حيث تلتقي بالجيوش البرية هناك .

والذي يهمنا من أمر الحملة الصليبية الثانية هذه هو موضوع الجيوش البحرية، فقد تشكلت هذه الجيوش من متطوعين انجليز وألمان ونورمنديين وفلامنك وفايكنكز

وغيرهم وقد بلغ عددهم اكثر من أربعة عشر ألف مقاتل ، اقلعوا بحراً ووصلوا سواحل البرتغال في أوائل عام ١١٤٧م ، حيث رست سفنهم في مصب نهر التاج ، وهناك التقى بهم الملك البرتغالي دون أفونسو هنريك (DOM AFFONSO HENRIQUES) وتمكن من اقناعهم بمساعدته عسكرياً لاقتحام لشبونه وانتزاعها من يد العرب فوافقوا على ذلك وسرعان ما تم التنسيق بين الطرفين ووضعت خطة مشتركة للجيشين البرتغالي والصليبي فشنا هجوماً مشتركاً كاسحاً على (لشبونه) وانتزعوها من العرب في ٢٥/٦/١١٤٨م .

وقد ساعد هذا الانتصار على تثبيت استقلال البرتغال ليس من العرب فقط ، ولكن من الإسبان أيضاً ، فاتخذوا من (لشبونه) عاصمة للمملكة البرتغالية وفتحوا موانئها أمام السفن الصليبية القادمة من أوربا ، واستفادوا مرة أخرى من حملة صليبية ثالثة توقفت هناك وأنزلوا مقاتليها واستولوا على مدينة (شلب) ، كما سنبين ذلك بالتفصيل في فصل لاحق[1] .

وينقل لنا الدكتور أمين توفيق الطيبي في كتابه (دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس) ، وصفاً عن سقوط (لشبونه) استقاه من رسالة بعث بها راهب انجليزي شارك في الحملة . والرسالة محفوظة في كلية كوربوس كريستي بجامعة كمبردج بانكلتره جاء فيها : إن الاسطول الصليبي كان متكوناً من ١٦٤ مركباً تحمل نحو ١٣٫٠٠٠ رجل ، أبحروا من ميناء دارتموث على ساحل انجلتره الجنوبي في مايو ١١٤٧م ، وكان هؤلاء الصليبيون من ثلاث جماعات ، انجليز وألمان وفلمنك (من شمال بلجيكا) وعند وصول الحملة إلى ميناء (أبورتو) للتزود بالمؤن رحب بهم اسقف المدينة ودعاهم لمساعدة الملك (افونسو هنريك) في مهاجمة لشبونة وانتزاعها من أيدي المسلمين ، وتم الاتفاق بين أفونسو وزعماء الصليبيين على أن تؤول كل الغنائم

(١) الحرب الصليبية – أرنست بيكر – تعريب السيد باز العريبي – ص ٧٥ .
وكذلك . DANVERS: THE PORTUGUESE IN INDIA VOL (1) P-15
وفي مصدر آخر أن المدينة صمدت سبعة عشر يوماً ، وسقطت يوم ٢٧/ جمادي الأول / ٥٤٢هـ

في المدينة للصليبيين وحدهم وكذلك فدية الاسرى ، وعرض أفونسو عليهم أراضي لمن يرغب منهم الاستقرار في الأراضي المفتوحة .

وقبل أن يبدأ الهجوم أوفد (أفونسو هنريك) إثنين من كبار رجال الدين للطلب إلى والي لشبونة وقاضيها تسليم المدينة ، وقد خاطب رئيس اساقفة (براجا) قاضي لشبونة الذي كان مع رجاله فوق السور طالباً منهم الرحيل والتخلي عن البلاد لأهلها ، قائلاً إن العرب قد استولوا على المدينة عن طريق الخداع .

فأجابه القاضي قائلاً :

« كم من مرة جئتم إلى هنا مع حجاجكم وأعلاجكم لإخراجنا . . ؟ هل أنتم غير قانعين بما لديكم ، أو هل ثمة مشكلات في دياركم تدفعكم إلي التحرك المستمر . .؟ أحسب أن هذه المدينة كانت في وقت من الأوقات ملكاً لكم ، ولكنها الآن ملكنا ، وقد تؤول اليكم في وقت ما في مستقبل الأيام ، إلا أن ذلك رهن بمشيئة الله ، فبمشيئته تعالى احتفظنا بالمدينة ولَن تخرج من أيدينا إلا بمشيئة الله تعالى فقط ، إنصرفوا ، فلن تدخلوا المدينة إلا بحد السيف ، اصنعوا ما تشاؤون ، أما نحن فسنعمل ما يشاؤه الله تعالى » .

بدأت العمليات الحربية في اليوم التالي ، وتمكن الصليبيون الانجليز باستعمالهم المقاليع من إبعاد المسلمين عن الربض الغربي إلى داخل المدينة المسوّرة حيث صمد المدافعون لهم وخيّم المهاجمون في مقبرة المدينة .

وفي اليوم التالي قام المسلمون بهجوم مضاد لمحاولة استرداد الربض الغربي ولكن بدون جدوى ، وأبدت المدينة مقاومةً طَويلةً ونصب المهاجمون المنجنيقات إلا أن المدافعين أحرقوها وأحرقوا برجاً خشبياً أقامه الانجليز .

وشرع الألمان في حفر خمسة أنفاق لكنهم طردوا منها ، وبعد مُضي ستة أسابيع أخذت عزيمة المهاجمين في الفتور وأخذ المدافعون يسخرون منهم من فوق أسوار

المدينة ويعيّرونهم . وفي إحدى الليالي شاهد المهاجمون زورقاً صغيراً في البحر متجهاً نحو مدينة (بلمالة) فهاجموه وفر من فيه وعثر المهاجمون في الزورق على رسائل بعثها المدافعون العرب إلى ابن وزير المنتزي الحاكم العربي في مدينة (يابره) يطلبون منه النجدة لأن أوضاعهم صارت سيئة بعد طول الحصار ، وبعد بضعة أيام تمكن الصليبيون من إلقاء القبض على رجل عُرف أنه رسولٌ من ابن وزير يحمل رسالةً إلى أهالي لشبونه يعتذر فيها عن مساعدتهم بحجة أنه في هدنة مع هنريكو .

ومع إخفاق كل محاولات الصليبيين لعمل نقب في السور وقصف المدينة بالعرادات والمنجنيقات ، إلا أن أحوال المسلمين صارت تسوء أيضاً لنقص المؤن ، وحاول الألمان والفلمنك وضع لغم طويل تحت السور وأشعلوا فيه النيران في ١٦/ اكتوبر/ ١١٤٧م ، إلا أن المدافعين احتلّوا النقب الذي أحدثه الانفجار ، وبعد ذلك بثلاثة أيام أتم الانجليز بناء برج خشبي ارتفاعه ثمانون قدماً وأدنوه من السور المطل على ضفة النهر ، ونشب حولَه قتال عنيف وحاول المسلمون إضرام النار فيه دون جدوى ، وبعد ثلاثة أيام من القتال بالأيدي ، أُدنيُ البرجُ من السور وأُنزلت من أعلاهُ قنطرة متحركة فوق حافة السور ، وعندئذ طلب المسلمون الهدنة فتم الاتفاقُ على وقف الهجوم وإعطاءُ أهل المدينة ليلةً واحدةً للتداول فيما إذا كانوا يريدون الاستسلام وتسليم الرهائن (لهنريكو) ، إلا أن ذلك لم يرق للصليبيين فهموا بالفتك بالرهائن والأسرى ، لذلك رفض المسلمون التفاوض إلا مع هنريكو .

إلا أن ذلك لم يمنع الألمان والفلمنك من الهجوم على المدينة فاقتحموها من ثغرة عملوها في السور فسقطت المدينة يوم ٢٤/ اكتوبر/ ١١٤٧م ، بعد حصار دام سبعةَ عشر اسبوعاً ، ومع أنه سُمح للمسلمين بمغادرة المدينة ، إلا أنها نُهبت وقتلَ الكثير من أهلها ، بمن فيهم أسقف النصارى المستعربين وانهال سيل المستوطنين النصارى على لشبونة وشنترين بعد جلاء معظم سكانها المسلمين عنها ، ونُصّب أحد الصليبيين واسمه (جلبرت GILBERT) من مدينة هاستنجر بانجلتره أسقفاً للاشبونة(٢)

(٢) الدكتور الطيبي – المصدر نفسه – الصفحات ٢٣٦ – ٢٤٠ .

7

الفصل السابع

البرتغال في عهد دولة الموحدين في الأندلس

٥٤٠هـ إلى ٦٢٠هـ المصادف ١١٤٥م إلى ١٢٢٥م

بدأت دولة المرابطين تضعف في أواخر أيامها نتيجة لطول وعنف الصراع مع الإسبان والبرتغاليين ومن يعاونهم من الدول الأوربية الأخرى ، وقد كان لضعف معنويات أمراء الدولة وقادة جيوشها وضعف الروح الإسلامية العالية التي كانت عندهم ، أن ظهرت بينهم بعض الأفكار الدينية المعتمة التي تكدر صفاء العقيدة الإسلامية وتخالف الفهم الإسلامي السليم ، لذلك فقد قامت جماعة دينية تُسمي نفسها (الموحدون) بالدعوة إلى الفهم النقي للإسلام والعودة بالمسلمين إلى القرآن والسنة وتجديد قوى الأمة على هذه الأسس[١] .

كان أول زعيم للموحدين هو أبو عبدالله المهدي محمد بن تومرت المولود عام ٤٨٥هـ - ١٠٩٢م في بلدة السوس في مراكش ، وقد كبر وترعرع في أحضان العلم والفقه والسياسة ، ثم لم يلبث أن أسس في أول شبابه مدرسة علمية دينية صار يدخلها الألوف من الناس يستمعون إلى منطقه وحجته ، وفي تلك المدرسة التقى بزميله وصاحبه في الجهاد عبدالمؤمن بن علي الكومي ، فاتفق الإثنان على الدعوة إلى العلم والإيمان الصحيح ونبذ البُدع ، ثم لم يلبث ابن تومرت أن صرح بالعُصمة لنفسه وتلقب بلقب (المهدي) ودعا إلى إسقاط حكومة المرابطين .

---

(١) عبدالرحمن الحجي - المصدر نفسه - ص ٤٥٦ .

إلا أن (المهدي) توفى عام ٥٢٧هـ - ١١٣٢م ، فبايع الناس زميله في الجهاد عبدالمؤمن بن علي الكومي زعيماً للموحدين ، فقام هذا بتنظيم نفسه وجماعته على شكل كوادر قتالية مسلحة ، وباشر بقتال قوات الحكومة المرابطية واستولى على مدينة فاس ، وبعدها دخل العاصمة مراكش فاتحاً وألقى القبض على اسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين آخر ملوك المرابطين وقتله ، فبايعه الناس أميراً للدولة الجديدة ، دولة الموحدين في المغرب التي صارت مراكش عاصمة لها وكان ذلك في عام ٥٤٠هـ - ١١٤٥م ، أي قبل ثلاث سنوات من سقوط (لشبونه) بيد البرتغاليين وظهور دولة البرتغال المستقلة على صفحات التاريخ الأندلسي والعالمي(٢) .

ولكي نحصر بحثنا بأيام الموحدين في البرتغال بشكل خاص والأندلس بشكل عام ، لا بد من عودة إلى الوراء قليلاً لندقق في المصادر البرتغالية عن قصة تأسيس دولة البرتغال والتي وقعت في أواخر أيام المرابطين وأوائل أيام الموحدين .

ذكرنا في أخبار الفصل الخامس من هذا الكتاب ، كيف أن الملك الإسباني (أفونسو السادس AFFONSO VI) احتل طليطله وراحت جيوشه تقاتل المسلمين في كل مكان ، وكيف أن هذا الملك قام بتزويج ابنته (تريزا) إلى (الكونت هنري أوف بورغندي CPUNT HENRY OF BURGONDY) ، وكان ذلك في عام ١٠٩٥م . وبناءً على ذلك فقد قام بمنحه مقاطعتي (أويروتو ORERTO) و (كومبيرا COIMBAR) وهذه الأخيرة تعرف عند العرب باسم (قلمريه) وكذلك (قلنبيره) ، وكلتا المدينتين تقعان في شمال البرتغال ، وكانتا قبل هذا التاريخ بيد العرب إلا أن الملك أفونسو السادس استطاع أن ينتزعها منهم ، ويقدمها إلى زوج ابنته ويمنحه لقب (كونت أوف بورتوكالينس COUNT OF PORTOCALENSIS) فقام هذا الملك بتطوير إسم مملكته إلى (البرتغال) وهو الاسم الذي استمده أصلاً من اسم مدينة (بورتس كالا POR-TUS CALA) ثم صار اسمها (أوبورتو OPORTO) وبعدها تحول الإسم إلى (PORTU-

(٢) الدكتور حسن ابراهيم حسن - تاريخ الإسلام - ج٤ ص ٢٢١ ، وكذلك الدكتور السيد عبدالعزيز سالم - المغرب الكبير - ص٧٨٦ .

(CALIS أي بوابة غاليسية ، إذ هي معبر غاليسية إلى الجنوب وتقع على مصب نهر (دورو DOURO) .

وهكذا ظهر اسم البرتغال إلى الوجود . كما قام هذا الملك باتخاذ مدينة(كومرياس GUIMARAES) عاصمة له ، وهي مدينة تقع إلى الشمال من وادي نهر (دويره RIO DOURO) أي شمال البرتغال في يومنا هذا وشمال ما كان يسمى بالثغر الأدنى أيام الأندلس . وتذكر المصادر البرتغالية أن هذا الكونت عُرف بكثرة قتاله ضد العرب ، لكن تفاصيل أيامه ومعاركه غير معروفة بصورة دقيقة للبرتغاليين أنفسهم(٣) .

في أوائل شهر مايو من عام ١١١٤ مات الكونت هنري أوف بورغندي هذا فخلفه في الحكم ابنه (دون أفونسو هنريك DOM AFFONSO HENRIQUES) وهو معروف في الرواية الإسلامية باسم (صاحب قُلُمْريه) ويسمى أيضاً (ابن الريق) وكذلك (ابن الرنك)(٤) .

وتذكر المصادر البرتغالية أن هذا الرجل أنزل هزيمة كبرى بالعرب يوم ٢٥/ تموز/ ١١٣٩ في معركة اسمها (OURIQUE) حيث قُتل في تلك المعركة خمسة ملوك عرب ، فصار تاريخ تلك المعركة ومكان وقوعها ذكرى لتأسيس مملكة البرتغال ، وأن شعار دولة البرتغال وهو الدرع المصفح الذي يعلو التاج وبداخله توجد خمس دوائر سوداء تمثل الملوك الخمسة العرب الذين قتلوا في تلك المعركة(٥) .

أما المصادر العربية المتوفرة لدينا فلا تحدثنا عن معركة بهذا الحجم فَقَدَ فيها العرب خمسة ملوك وقعت عام ١١٣٩م وهو ما يوافق عام ٥٣٤ الهجري تقريباً ، اللّهم إلا المعركة التي قُتل فيها أمير الموحدين أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن ، الذي استشهد وهو يحاول استرجاع مدينة (شنترين) البرتغالية من الملك أفونسو نفسه وكان ذلك في ٧/ رجب/ ٥٨٠هـ وهو ما يوافق عام ١١٨٤م ، أي بفارق أربعين عاماً عن تاريخ

---

(٣) DANVERS - المصدر نفسه - ص ١٤ .
(٤) الحجي - المصدر نفسه - ص ٤٦٠ .
(٥) DANVERS - نفس المصدر والصفحه نفسها .

المعركة التي ذكرتها المصادر البرتغالية ، كما لا نتصور أن تكون تلك المعركة هي معركة (الأرك) ، فتلك حدثت عام ٥٩١هـ - ١١٩٥م . وعلى كل حال فقد تمكن أفونسو هنريك هذا من الاستيلاء على مدينة (شنترين SANTAREM) التي لا تبعد كثيراً عن لشبونه ، وكان ذلك في ١٥/ ٣/ ١١٤٧م ، وبذلك استطاع أن يحصل على نصف مساحة البرتغال تقريباً ، كما أن موقع المدينة على خطوط المواصلات المؤدية إلى الشمال جعلته يُحكمُ السيطرة على شمال البرتغال ، مما دفعه إلى إعلان نفسه ملكاً على البرتغال ، وفي الوقت نفسه أعلن استقلاله عن الحكومة الإسبانية ، وبارك له البابا الكسندر الثالث ذلك[٦] .

وبعد عام من سقوط (شنترين) تمكن هذا الملك من احتلال مدينة (لشبونه) وميناء (قصر أبي دانس ALCACER DOSAL) وذلك بعد أن عاونه جيش من الصليبيين الذين كانوا في طريقهم من أوربا إلى الشرق لمقاتلة الأمير نور الدين زنكي واستعادة إمارة الرها المسيحية من المسلمين ، كما ذكرنا ذلك في تفاصيل الفصل السابق ، فكان سقوط لشبونه بيد الملك أفونسو في الفترة الزمنية نفسها التي صعد فيها إلى سدة الحكم الأمير عبدالمؤمن بن علي أول حاكم لدولة الموحدين في المغرب .

وجّه الأمير الموحدي نظره إلى الأندلس ، وكان الناس فيها قد أعلنوا الثورات ضد المرابطين ، وخطبو للموحدين في المساجد ، مما رَغَّب عبدالمؤمن أن يرسل جيشاً من مراكش إلى الأندلس لإخضاع الأمراء المرابطين هناك فأمر بتشكيل ثلاثة جيوش عبرت إلى الساحل الأندلسي في شعبان ٥٤١هـ - ١١٤٧م وراحوا يهاجمون مدن الأندلس ومدن (الغرب) أي جنوب البرتغال أيضاً ، فسقطت مدن (لبله) و (شلب)و (باجه) و (بطليوس) ثم دخلت (أشبيليه) في طاعتهم أيضاً ، أما (قرطبة) فقد دخلت في طاعة الموحدين عام ٥٤٣هـ . وفي سنة ٥٤٩هـ تغلّب الموحدون على (غرناطة) بعد أن خرج منها ميمون بن بدر اللتموني ، وبعد أن تم كل هذا عبر عبدالمؤمن بنفسه إلى

---

(٦) المصدر السابق والصفحه نفسها .

الأندلس وأمر باحكام السيطرة على مدن بطليوس وباجه ويابره ، وبذلك تمت له السيطرة الكاملة هناك وكان ذلك في عام ٥٥٦هـ - ١١٦٠م تقريباً . ثم انصرف لتوحيد المغرب العربي فأحكم سيطرته على الجزائر ، ثم تونس وبعض أجزاء طرابلس الغرب في ليبيا أيضاً ، وهكذا تم له إخضاع المغرب العربي كله وضمه إلى دولته ، فأصبحت دولة الموحدين تمتد من طرابلس شرقاً إلى مراكش غرباً وصعوداً إلى الأندلس وأجزاء من البرتغال .

انتقل الخليفة عبدالمؤمن إلى رحمة الله في ٢٧/ جمادي الآخر/ ٥٥٨هـ - ١١٦٢م ودُفن في (تينملل) بجوار قبر صديقه في الجهاد المهدي أبو عبدالله محمد بن تومرت(٧) .

فخلفه ابنه الأكبر محمد ، وبايعه الناس وتولى الخلافة ٤٥ يوماً ، ثم عُزل منها لإمور أُخذت عليه ، فأجمعت آراء شيوخ الموحدين على مبايعة أبي يعقوب يوسف وهو ابن عبدالمؤمن الآخر وكان والياً على اشبيلية في الأندلس ، درس على الكثير من علماء الأندلس في اللغة والنحو والقرآن وكان محباً للجهاد في سبيل الله ، فجاز إلى الأندلس مرتين ، مرة في سنه ٥٦٦هـ للنظر في ضبط الثغور واصلاح حال البلاد ، ثم جاز مَرَّة أخرى عام ٥٧٩هـ - ١١٨٣م لمحاربة البرتغاليين .

ففي عام ١١٧٠م تقريباً بلغ أبا يعقوب أن (فرناند) ملك منطقة (ليون) راح يغزو المناطق المسلمة المجاورة له ، كما بلغه أن الملك (ابن الريق) أو (أفونسو هنريك) ملك البرتغال راح يوسع حدوده الجنوبية والشرقية على حساب أملاك المسلمين في غربي الأندلس وأنه احتل مدينة (يابره EVORA) وحاصر مدينة (بطليوس BADAJOZ) . فقام ابو يعقوب بتشكيل جيش بقيادة الشيخ ابو حفص وأمره بمقاتلة الملك البرتغالي وفك الحصار عن مدينة بطليوس ، فلما وصل الجيش المغربي إلى إشبيلية بلغه أن أهل بطليوس هزموا البرتغاليين ، فعدل عن متابعة السير إلى هناك .

---

(٧) الدكتور السيد عبدالعزيز سالم - المغرب الكبير - ص ٧٩٦ .

غير أن الأحوال لم تلبث أن ساءت في الأندلس من جديد ، بسبب هجمات الإسبان والبرتغاليين ، وكانت مملكة البرتغال أشد هذه الممالك وطأة على بلاد المسلمين ، فعزم أبو يعقوب الجواز إلى الأندلس للمرة الثانية على أن يبدأ هذه المرة بقتال البرتغاليين وكان ذلك في عام ٥٧٩هـ - ١١٨٣م ، فزحف بجيشه نحو مدينة (شنترين SANTAREM) البرتغالية وحاصرها حصاراً شديداً ودمر مزارعها وخرّب مروجها وشن الغارات على نواحيها ، لكن الملك البرتغالي أفونسو هنريك كان قد تأهب لذلك الحصار فملأها بالأقوات والسلاح ، لذلك فقد استعصت على الجيش المغربي ، وكان موسم الشتاء على الأبواب ، فخاف المسلمون هجوم البرد وخافوا فيضان نهر تاجه فلا يستطيون عبوره وينقطع عنهم المدد فأشاروا على الخليفة بالرجوع إلى اشبيليه .

ولما كان الخليفة أبو يعقوب قد يئس من فتح مدينة (شنترين) قرر أن يهاجم مدينة (لشبونه) العاصمة البرتغالية نفسها وعندما قرر الرحيل حدث هرج في أوساط جيشه أدى إلى حدوث كارثة قاتله فيه ، فبعض المصادر العربية تقول إن البرتغاليين استطاعوا أن يستميلوا إليهم فريقاً من الجيش الموحدي فقد أعلنوا ليلاً أن أبا يعقوب قد ارتحل عائداً إلى المغرب فأوقعوا بذلك الاضطراب في الجيش الموحدي ، وأخذ الجند يفرون من المعركة ، ولما تأكد البرتغاليون أن جند الموحدين قد انفضوا عن قائدهم شنوا هجوماً ساحقاً على معسكر الخليفة نفسه .

ورواية أخرى تقول إنه لما أصدر الخليفة أوامره بالحركة نحو لشبونه ، قام بعض رجاله بتقويض الأخبية والخيام على عجل فأحدث ذلك هرجاً في معسكر المسلمين وعبر أكثر الجنود المسلمين نهر التاجه ولم يبقَ إلا نفرٌ قليلٌ من العسكر في معسكر الخليفة نفسه ، فلما رأي البرتغاليون ذلك وشاهدوا رحيل معظم الجيش أغاروا على معسكره وقتلوا جملة من قادة جيشه وأصيب الخليفة بسهم مسموم كما أُصيب بعدة طعنات في جسمه ، ولما شعر الجنود بخدعة البرتغاليين عادوا مسرعين إلى المعسكر

للدفاع عن قائدهم وتراجع البرتغاليون إلى وراء اسوار مدينة شنترين ، بينما حمل الجنود خليفتهم الجريح على محفة حيث مات بعد ليلتين من هذه المعركة وذلك في ٧/ رجب/ ٥٨٠هـ - ١١٨٤م ودفن بجوار أبيه عبدالمؤمن(٨) .

وهكذا قُتِلَ الخليفة المغربي أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن ، بسيوف برتغاليه ، فقام المسلمون بانتخاب ابنه أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن ، خليفة لهم ، وصار لقبه (المنصور) .

أما على صعيد الأحداث في البرتغال ، ففي سنة ١١٨٥م ، أي بعد سنة من استشهاد أبو يعقوب ، مات ملك البرتغال أفونسو هنريك فخلفه على عرش البرتغال ابنه الملك (سانجو الأول DOM SANCHO I) .

قام سانجو الأول بتوطيد مُلك أبيه الذي امتد إلى منتصف البرتغال الحالية تقريباً ، أي أن جنوب البرتغال ، أو منطقة (الغرب) التي كانت لا تزال بيد العرب ، راح يضع الخطط لانتزاعها منهم وتمكن بالفعل من انتزاع قسمٍ منها فصار لقبه (مُجَدَّدُ بناء المدن) وكذلك لقب (والد الوطن)(٩) .

أما الخليفة (المنصور) فقد واجه كثيراً من المهام الصعبة في المغرب والأندلس معاً ، ففي بداية عهده انتهز (بنو غانية) فرصة وفاة أبيه وخرج أميرهم علي بن اسحاق عليه وأعلن الثورة ، وثارت تونس وبعض أجزاء شمال أفريقيا ، فقاتلهم المنصور قتالاً شديداً ، أما في البرتغال ، فقد قام الملك سانجو الأول بوضع الخطط اللازمة لضرب العرب في جنوب البرتغال ، وكانت خططه تقوم على أساس فتح ميناء العاصمة لشبونه للسفن الأوربية التي كانت تحمل الجيوش الصليبية لقتال المسلمين في الأراضي العربية ، ويتم الاتفاق معها على معاونته في قتال العرب .

---

(٨) عبدالعزيز سالم - المصدر نفسه - ص ٨٠١ ، وكذلك الدكتور حسن ابراهيم حسن - تاريخ الإسلام - ج ٤ ص ٢٢٣ .

(٩) DANVERS - المصدر نفسه - ص ١٥ .

وفي عام ١١٨٩ وصلت إلى ميناء لشبونه السفن التي كانت تحمل الجيش البريطاني الذاهب لقتال صلاح الدين الأيوبي في فلسطين ، ذلك أنه لما تمكن صلاح الدين الأيوبي من استرداد بيت المقدس في معركة (حطين) عام ١١٨٧ ، بادرت البابوية بارسال المنشورات إلى سائر أنحاء أوربا تدعو إلى حملة صليبية ثالثة ، فاستجاب لها ملوك أوربا الثلاثة الكبار في المانيا وفرنسا وانجلتره ، وقرر ملكا فرنسا وانجلتره وهما فليب اغسطس ملك فرنسا وهنري الثامن ملك انجلتره أن يقلعا بحراً باسطولين متفرقين ليلتقيا بالجيش الألماني الراجل ويجتمع الكل في عكـــا(١٠) .

والذي يهمنا من أمر هذه الحملة ، هو أن الأسطول البريطاني الذي كان يحمل مقاتلين أنجليز وعدداً آخر من المغامرين الأوربيين . توقف في لشبونه ، فكانت هذه فرصة ذهبية للملك البرتغالي سانجو الأول ، للتعاون مع الأنجليز لانتزاع مدينة (شلب) من العرب .

وافق الانجليز على ذلك وسرعان ما اندفعت حشودهم المتعاونة مع البرتغاليين وهاجموا مدينة (شلب) وحاصروها ، وحاولوا القيام بمحاولات عديدة لاقتحامها إلا أنها فشلت كلها ، إلى أن قاموا بقطع المياه عن المدينة فاضطرت إلى الاستسلام ودخلت القوات البرتغالية البريطانية إليها ، وطلب القائد البريطاني من الملك سانجو أن يسمح له بقتل كل العرب في المدينة ، لكن سانجو رفض ذلك وسمح له بنهب وسلب المدينة وكان ذلك في عام ٥٨٥هـ - ١١٨٩م(١١) .

فلما بلغ أمر ذلك النصر البرتغالي مسامع الخليفة المنصور ، أمر بتشكيل جيش يقوده بنفسه ويعبر به إلى الأندلس ليقاتل البرتغاليين ويسترجع مدينة (شلب) وبقية المدن التي احتلوها .

وهكذا عبر إلى الأندلس بتاريخ ٣/ ربيع الأول/ ٥٨٥هـ ، أي في السنة الميلادية نفسها . وتنفرد المصادر العربية فقط بذكر ما حدث عند عبـــور المنصـــور ، فتذكـــر

(١٠) أرنست باركر - المصدر نفسه - ص ٨٦ .

(١١) DANVERS - المصدر نفسه - ص ١٥ ، وكذلك الحجي - المصدر نفسه - ص ٤٦٣ .

أنـــه تعاون مع واليه الموجود في قرطبـــة وهو محمد بن يوسف وهاجـم الإثنـان مُـــدن (باجـــه BEGA) و (يابـــره EVORA) و (شلـــب SILVES) و (قصـــر أبـــي دانـــس ALCACER DO SAL) واستعادوها من البرتغاليين ، أي أنهم عادوا فأحكموا أمرهم على جنوب البرتغال أي منطقة (الغرب ALGARVE) ، ثم عاد بعدها المنصور إلى اشبيليه ليشرف من هناك على تنظيمات الأندلس المدنية والعسكرية ، ثم توجه عائداً إلى مراكش في السنة نفسها .

أدت انتصارات المنصور هذه إلى أن يقوم صلاح الدين الأيوبي بإرسال بعثة إلى مراكش للتفاهم مع الملك المغربي حول وضع خطط لتعاون عسكري مشترك لقتال القوى الصليبية الأوربية التي كانت تهاجم كلا البلدين ، لكن المنصور ، ورغم انتصاراته الباهرة التي أحرزها ضد الجيوش البرتغالية وغيرها إلا أنه لم يستطع تلبية طلب صلاح الدين ، ذلك أن انتصاراته أثارت حسد الأعداء الداخليين وعلى رأسهم بنو غانية ، فأعلنوا العصيان ثانية في مدينة طرابلس الغرب وامتدت ثورتهم إلى تونس ، فقرر الخليفة المنصور الخروج بنفسه لمقاتلة بني غانية ومن معهم .

وصلت أنباء خروج الخليفة المغربي وجيشه إلى تونس لقتال الخارجين عن طاعته هناك إلى مسامع الملك الإسباني أفونسو الثامن ملك قشتاله ، فأمر هذا الملك بحشد الجيوش من جميع أرجاء إسبانيا والبرتغال مع متطوعين صليبيين ، وهاجموا في يوم واحد المدن الأندلسية وطوقوا أشبيليه عاصمة الموحدين في الأندلس .

كان الخليفه المنصور في منطقة (المنصورة) عندما بلغته أنباء الحرب في الأندلس ، فقرر وقف قتال بني غانيه والجواز إلى الأندلس لمقاتلة أفونسو الثامن ، وأمر بحشد جيش جديد لهذا الغرض فاجتمع له الألوف من قبائل العرب والبربر وزناته ومصموده كما التحق بمقره عدد كبير من أشياخ الموحدين والفقهاء والزهاد ، وعبر هذا الجيش إلى الأندلس في ٢٠/ جمادي الآخر/ ١١٩٤م .

وهناك وفي منطقة اسمها (الأرك) تقع قرب قرطبة على حدود مملكة قشتاله

الإسبانيه التقى جيش المنصور بجيوش أفونسو الثامن ودارت معركة كبرى بين الطرفين حمل فيها المسلمون على جيوش أفونسو حملة كبرى وكان الخليفة المنصور يمشي منفرداً بين رجاله يحثهم على الحرب والقتال .

فانهزم جيش قشتاله وأحكمت فيهم سيوف الموحدين ، وقُتل من كتائب (سانت ياغو) أو القديس يعقوب وهي كتائب دينية متطرفة تعود لمنطقة جليقة ، قُتلَ من هؤلاء ثلاثة أساقفة ونحو ١٧ قساً وعدد كبير من الفرسان . أما جيش البرتغَال فقد كان بقياده (كنزالو فيجاس) وكان اسم وحدات ذلك الجيش ، (كتائب يابره EVORA) فقد حلّت بهم هزيمة منكرة وقتل القائد البرتغالي وتمزقت جيوشه وكتائبه . وهكذا حلّت الهزيمة بأفونسو الثامن وجيوشه ، وعاد المنصور إلى اشبيلية ظافراً فأكمل بناء الجامع الكبير وقفل عائداً إلى مراكش ، وكانت معركة (الأرك) هذه آخر المعارك العظيمة التي انتصر فيها العرب على جيوش إسبانيا والبرتغال ، إذ انتقل الخليفة المغربي أبو يوسف يعقوب (المنصور) إلى رحمة الله في مراكش في ٢٢/ ربيع الأول/ ٥٩٥هـ الموافق عام ١١٩٨م ، وخلفه على العرش ابنه أبو عبدالله محمد الملقب بالناصر لدين الله .

تولى الناصر لدين الله الحكم في المغرب وقد واجهته في أول خلافته مشكلات كثيرة أهمها ثورة بني غانية ، فقد استطاع يحيى بن اسحاق بن غانية احتلال تونس ، هذا بالإضافة إلى ثورات قامت هنا وهناك في المغرب نفسه مما أجبر الخليفة الناصر لدين الله أن ينصرف في أوائل أيام حكمه إلى قتال الخارجين عليه من العرب والبربر . أما أفونسو الثامن ، فلم ينس هزيمة الموحدين له في (الأرك) إذ تذكر بعض المصادر العربية أنه لما حلّت به الهزيمة حلق شعر رأسه ونكس صليبه وركب حماراً بدلاً من الحصان ، وأقسم أن لا يركب فرساً ولا ينام على فراش حتى ينتصر على العرب ، فأخذ يسعى جاهداً منه سنه ١٢٠٨ للتوفيق بين ملوك إسبانيا المسيحية والبرتغال وتوحيدهم وأرسل الوفود إلى فرنسا وألمانيا وإيطاليا داعياً اياهم لمحاربة العرب .

وكان البابا (أنوسان الثالث) يعد العدة لحملة صليبية خامسة غرضها مقاتلة الملك

العادل شقيق صلاح الدين الأيوبي في مصر ، فلما علم بأمر الملك افونسو الثامن في إسبانيا ، بعث إلى أساقفة جنوب فرنسا أمراً بأن يعلنوا النفير العام لرعايهم وأن يسيروا بأنفسهم لمؤازرة ملك قشتاله ، وأنه يمنح كل من يلبي هذه الدعوة الغفران التـام(١٢) .

ويقول المؤرخون العرب : « إن ملك قشتاله بث القسيسين والرهبان من البرتقال إلى القسطنطينيه العظمى ينادون في البلاد ، فجاء عُبَّادُ الصليب من كل فج عميق ومكان سحيق وأقبلوا إليه إقبال الليل والنهار من رؤوس الجبال وأسياف البحار » .

وهكذاً وقبل أن ينتهي عام ٦٠٨هـ - ١٢١٢م ، اجتمعت في طليطله عاصمة قشتاله جموع هائلة من جيوش أوربية ومتطوعي الحملة الصليبية الخامسة ، وتم تنظيم تلك الجيوش وتعبئتها على الشكل التالي :

الجيش الأول : بقيادة الفونسو الثامن ومعه جيش البرتغال بقيادة الأمير بدرو وجيش سانت ياغو وجيوش أخرى .

الجيش الثاني : جيش منطقة (أرغون) و (نافار) و (ليون) بقيادة الملك بدرو الثاني .

الجيش الثالث :مكونٌ من مئة ألف مقاتل من وحدات صليبية أوربية مختلفة بقيادة قائد من قشتاله هو (دون ليبجو لوبث) وعدد من الاساقفة والرهبان .

وفي شهر صفر من عام ٦٠٩هـ ، أي شهر يوليو تموز عام ١٢١٢م التقى الطرفان في مكان يسمى (لاس نافاس دي تولوسا LAS NAVAS DE TOLOSA) ويسمى مؤرخو العرب هذا الموقع (العقاب) نسبة إلى حصن أموي قائم بالقرب من ذلك المكان ، وفي ١٥/ صفر اشتبك الجيشان في قتال عنيف ، وكان الخليفة الناصر لدين الله يشرف على المعركة وهو على رأس ربوة تُطل على الميدان ، وسرعان ما انجلى الموقف عن سيطرة الأوربين على المعركة ، فانتهت بهزيمة ساحقة للمسلمين إذ تمكنت الجيوش الأوربية من القضاء عليهم فهربوا تاركين وراءهم الألوف من القتلى ، ولم يبق أمام

---

(١٢) الدكتور عبدالعزيز السيد سالم - المصدر نفسه - ص ٨١٢ ، وكذلك الدكتور حسن ابراهيم حسن - المصدر نفسه - ص ٢٢٧ .

الخليفة الناصر لدين الله سوى الفرار أيضاً ، فغادر إلى اشبيلية ومنها إلى مراكش وهو في أشد الحزن لهذه الهزيمة واحتجب في قصره بقية سنه ٦٠٩هـ حيث توفى هماً وحزناً في ٤/ شعبان/ ٦١٠هـ أي بعد سبعة أشهر من هزيمته في (العقاب) .

وهكذا انتهت واقعة العقاب ، وهي الواقعة المشؤومة التي لم يقم للمسلمين بعدها قائمة تحمد ولم تستقر الأندلس بعد العثرة ، فأضحت الأندلس الإسلامية لقمة سائغة لفاتحيها الجدد وتقاسمها الأمراء النصارى وصغار أمراء المسلمين ، ومنها مملكة (غرناطه) التي قامت في عام ١٢٣٨م ، وانتهت كلياً عام ١٤٩٢م ، حيث انتهى معها آخر أثر عربي وإسلامي في جزيرة إيبيريا أي إسبانيا والبرتغال .

كما أن تاريخ وفاة الناصر لدين الله سجل بداية لانهيار دولة الموحدين ، فسادت الفوضى الإدارية ، وتفككت وحدة قبائل الموحدين واشتدت حركة (بني غانية) حيث بعثرت قوى الموحدين واستهلكتها ، فسقطت حكومة الموحدين عندما صعد إلى عرش المملكة الخليفة أبو العلاء ادريس الذي أطاحت به القوه السياسية الجديده وهي قوه (بني مرين) الذين احتلوا مراكش وألقوا القبض عليه وقتلوه ، وكان ذلك نهاية دولة الموحدين وقيام الدولة المرينية أي دولة بني مرين في المغرب في عام ٦٦٧هـ .

أما على الصعيد البرتغالي ، فقد ترك لنا المؤرخون هناك أسماء معارك عديده خاضوها ضد العرب في (الغرب) أي جنوب البرتغال ، ووضعوا معركة العقاب على أنها أهم المكاسب التي حصلوا عليها وتكلمو عن معركة اسمها (UCLES) وأخرى اسمها (SALADO) حيث قالوا إنها كانت معارك خسرها العرب في الجنوب البرتغالي .

وينفرد الدكتور عبدالرحمن الحجي بذكر معركة تلت معركة العقاب شاركت فيها قوات الحملة الصليبية الخامسة ، خسر العرب فيها ميناء قصر أبي دانس ، وحدثت عام

١٢١٧ حينما هاجم (الفونس الثالث) ملك البرتغال بمساعدة أسطول ألماني كان متجهاً نحو مصر لمقاتلة المصريين فحاصروا ميناء قصر أبي دانس (ALCACER DO SAL) الواقع على مسافة ٩٠ ميلاً جنوب لشبونه ، وبعد مقاومة وقتال مرير أبداه أهل المدينة اقتحم البرتغاليون والصليبيون المدينة وقتلوا ألآلاف من سكانها فكانت تلك المعركة من الكوارث المنذرة بنهاية العرب في الأندلس[١٣] .

أما المصادر البرتغالية المتوفرة لدينا ، فتختصر الاحداث وتقول إنه لما مات الملك البرتغالي الملك (أفونسو الثالث AFFONSO III) في عام ١١٧٩ تولى العرش ابنه (دون دينز DOM DINIZ) الذي يعتبر عهده نهاية لكافة الحروب مع العرب حيث تم تحرير البلاد بكاملها وأصبحت البرتغال بلداً مستقلاً كاملاً ، ويذكرون اسم القائد البرتغالي (PAIO PERES CORREIA) ويعتبرونه (فاتح الغرب) ويضعون تاريخياً لذلك وهو عام ١٢٥٠م .

فإذا أخذنا بهذا التاريخ أي عام ١٢٥٠م كنهاية لحكم العرب للبرتغال ، فتكون أيام العرب هناك من ٧١٤م إلى ١٢٥٠م أي أكثر من خمسمائة عام[١٤] .

وهكذا انتهى حكم العرب في البرتغال وخسروها كليه في الفترة الزمنية نفسها التي سقطت فيها بغداد عاصمة الخلافة العباسية بيد المغول عام ١٢٥٨م ، فكانت تلك هي نهاية أيام العرب في البرتغال لتبدأ بعدها قصة جديدة وهي أيام البرتغال في أرض العرب .

---

(١٣) الحجي – المصدر نفسه ، نقلاً عن إبن الأبار في الحلة السيراء .

(١٤) DANVERS – المصدر نفسه – ص ١٦ .

8

الفصل الثامن

أثر الحضارة العربية الإسلامية على البرتغال

كان الفينيقيون ومن بعدهم القرطاجينيون قد استقروا في شبه الجزيرة الأيبيرية ، وأغلقوا مضيق هرقل (مضيق جبل طارق فيما بعد) . إلا أن الرومان هاجموا القرطاجنيين عام ٢٠٢ق .م وأنزلوا بهم هزيمة وشكلوا ولاية جديدة اسمها (هسبانيا) كانت تشمل منطقة (لوزيتانا) أي البرتغال في يومنا هذا والتي ينتمي سكانها إلى الجنس الكلتي . وفي عام ١٣٧ ق .م احتل الرومان مدينة اسمها (OLISSIPO OLISIPONIA) هي لشبونه الحاليه واتخذوها مقراً إدارياً .

وفي القرن الخامس الميلادي قدم جماعة من البرابرة الألمان وتمكنوا من السيطرة على منطقة البرتغال ، إلا أنه في عام ٥٤٩م قام الامبراطور البيزنطي JUSTINIAN باحتلال جنوب إسبانيا (الاندلوسيا) وجنوب البرتغال الحالية أيضاً

واستمر الحال كذلك إلى الفتح العربي الإسلامي للبرتغال أي منذ أوائل القرن الثامن الميلادي وانتهى إلى ما بعد حوالي خمسة قرون كما بيناه في الفصول السابقة ، ولقد كان تداخل المسلمين العرب بأهل إيبيريا ومنهم البرتغاليون مستمراً ، ولم يقتصر هذا التداخل والاحتكاك على فترات الحرب فقط ، بل شمل فترات السلم أيضاً ، فعندما يتصل شعبان أحدهما بالآخر ، فإن الشعب صاحب الحضارة الأرقى هو الذي يؤثر على الآخر ، وهكذا كانت الحالة بالنسبة للعرب في إسبانيا والبرتغال .

وقد حاول البرتغاليون بعد سقوط لشبونه أن يمحوا الأثر العربي هناك ، خاصة بعد أن صارت المدينة عاصمة للبرتغال على عهد الملك أفونسو الثالث ، إلا أن الأثر النفسي والعلمي العربي لا زال هناك ، خاصة في أسماء المواقع الجغرافية العربية الأصل حيث تكثر بشكل واضح في الجنوب .

ففي لشبونه ما زال الحيُ الشرقيُ منها يحمل اسمه العربي (ALFAMA) وهذه التسمية البرتغالية محرفةٌ عن اسمه العربي (الحَمَّه) . وقد ورد وصف (الأشبونه) في كتب الأدب والتراجم ، فقد قيل إن أبا بكر بن محمد بن ادريس الفرابي العالوسي ألّف كتاباً عن مسقط رأسه الأشبونه اسمه (الدُرر المكنونه في أخبار أشبونه) ، وقيل أيضاً إن كتاباً اسمه (المُغرب في حُلي المغرب) لابن سعيد أفرد فيه فصلاً بعنوان : (كتاب الرياض المصونه في حُلي مملكة أشبونه) وفصلاً آخر بعنوان (كتاب الغره الميمونه في حُلي مدينة أشبونه)[١] .

هذا وقد أفاض الجغرافيون في الحديث عن الأشبونه ، فيقول ياقوت الحموي في معجم البلدان :

أُشبُونه : بالضم ثم السكون ثم ضم الباء الموحدة . متصلة (بشنترين) ، قريبة من البحر المحيط ، يوجد على ساحلها العنبر الفائق . قال ابن حوقل : هي على مصب نهر شنترين إلى البحر ، قال : ومن فم النهر وهو المعدن إلى أشبونة إلى شنتره يومان وينتسب إليها جماعة منهم أبو إسحاق ابراهيم بن خلف بن عبدالكريم بن سعيد المصمودي من البربر ويعرف بالزاهد الأشبوني[٢] .

وفي كتاب (الروض المعطار) لمحمد عبدالمنعم الحميري :

أُشبُونة : بضم الهمزة وسكون الشين المعجمة وضم الباء المنقوطة بواحدة ، بعدها واو ساكنة ونون وهاء تأنيث ، قال البكري : ومدينة أشبونه بغربي باجه وهي مدينة

---

(١) الدكتور الطيبي – المصدر نفسه – ص ٢٣٠ .

(٢) ياقوت الحموي – معجم البلدان – ص ١٦٣ .

قديمة على سيف البحر تتكسر الأمواج على سورها ، وسورها رائق البنيان بديع الشأن ، وبابها الغربي قد عُقدت عليه حنايا على عمد من رخام متقنة على حجارة من رخام ، ولها باب غربي أيضا يعرف بباب الخوخة ، مشرفٌ على مَرج فسيح يشقه جدولا ماء يصبان في البحر ، ولها باب قبلي يسمى باب البحر ، تدخلُ أمواج البحر فيه عند مَدَّه وترتفع في سوره ثلاثة أقدام ، وباب شرقي أيضاً يعرف بباب الحَمَّه ، والحَمَّةُ على مَقربة منه ، ومن البحر بماءين : ماء حار وماء بارد فإذا مد البحر واراهُما ، وباب شرقي يُعرفُ بباب المضيق وكذلك باب المقبرة[٣] .

وقد أفاض المصنفون الجغرافيون المسلمون في الحديث عن ثروة الأشبونه البرية والبحرية والمعدنية ، فأحمد الرازي (القرن العاشر الميلادي) يتحدث عن وفرة أسماكها وصيدها البري ، كما يتحدث عن جودة عسلها وعن جمع التبر من الساحل المقابل لها وعن جودة عنبرها الذي يلفظه البحر عند ساحلها ويقول إن الأشبونة تتصل بأحواز مدينة شنترين ، ولها خصلة بانت في طيب الثمرات وأماكن الصيد في البر والبحر ، وبُزاتُها أحسن البُزات ، وفي جبالها شورة العسل ، وهو الأبيض الخالص يشبه السكر في المذاق ، ولها معدن من التبر الخالص غزير المادة ، ويوجد في ساحل الأشبونه العنبر الفائق المتناهي كثيراً ، وهو يفوق كُلَّ عنبرٍ ولا يشبهُه إلا الهندي[٤] .

وفي كتاب الروض المعطار أيضاً أن البساتين تكثر في إقليم الأشبونة المشهور بخصب التربة ووفرة المياه ، ومدينة شنترة على مقربة من الأشبونة .

أما الإدريسي صاحب (نزهة المشتاق) فيتحدث عن تبر الأشبونة وحنطتها فيقول : وعلى ضفة النهر (تاجه) من جنوبه قبالة مدينة لشبونه يوجد حصن المعدن (ALMADA) وسُمّي بذلك لأنه عند هيجان البحر يقذف هناك بالذهب والتبر ، فإذا كان زمن الشتاء قصد إلى هذا الحصن أهل تلك البلاد ، فيخدمون المعادن الذي به إلى

(٣) تاريخ الأندلس لابن كردبوس – حاشية المحقق د . أحمد مختار العبادي – ص ١٦٣ .

(٤) النص العربي لكتاب الرازي مفقود ومترجم إلى البرتغاليه ، وقد عُثر عليه أخيراً في نص كتاب اسمه (فرحة الأنفس) لابن غالب – الدكتور الطيبي – المصدر نفسه – ص ٢٢٥ .

انقضاء الشتاء ، وهو من عجائب الأرض ، وقد رأيناه عياناً . ويذكر أهل لشبونه أن الحنطة تزرع (بفحص بلاطه) وهي منطقة ما بين شنترين ولشبونه ، فتقيم في الأرض أربعين يوماً فتُحصَدُ ، وأن الكيل الواحد منها يعطي مائة كيل وربما زاد ونقص .

وقد حدثنا الادريسي عن قصة الفتيه المغررين أو (المغرَّبين ؟) وهم فتيه ركبوا بحر الظلمات ليكتشفوا مجاهله ومعرفة نهايته فيقول ما موجزه : إن من مدينة لشبونه كان خروج المغررين في ركوب بحر الظلمات ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتهاؤه ولهم بمدينة لشبونة موضع قرب الحمه درب منسوب اليهم يعرف بدرب المغررين ، وذلك انهم اجتمعوا ثمانيةَ رجال كلهم ابناءُ عم فأنشأوا مركباً حمالاً ، وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر ، ثم دخلوا البحر في أول (طاروس) أي هبوب الريح الشرقية فَجَروا فيه نحواً من أحدَ عشرَ يوماً فوصلوا بحراً غليظ الموج كدر الروائح كثير التروش (الصخور) قليل الضوء ، فأيقنوا بالتلف فردوا قلاعهم في اليد الأخرى ، وجَرْوا في البحر ناحية الجنوب اثني عشر يوماً فخرجوا إلى جزيرة الغنم ، وساروا مع الجنوب اثني عشر يوماً إلى أن لاحت لهم جزيرة ، ومن هذه الجزيرة نقلوا إلى مدينة على ضفة البحر حيث سُجنوا هناك مدة ثلاثة أيام ثم مثلوا أمام الملك فطمأنهم ، ويبدو أن الملك قرر إبعادهم ، إذ حُملوا في مركب معصوبي الأعين وأنزلوا بعد رحلة استغرقت ثلاثة أيام على ساحل المغرب عند بلدة (أسفي) وهناك علموا من بعض الأهالي أن بينهم وبين بلدة الأشبونه مسيرة شهريـــن .

هذا ويرى الباحثون الجغرافيون الآن ، أن محاولة المغررين هؤلاء كانت الخطوة الأولى لحركة الكشوف البحرية البرتغالية منذ أن كانت المدينة تحت السيادة العربية ، كما تسنى للبرتغاليين إحراز ما اكتشفوه في القرنين الخامس عشر والسادس عشر بفضل اقتباسهم طريقة بناء مراكب العرب التقليدية في غرب الأندلس .

وقد أنجبت الأشبونة عدداً من الشعراء والأدباء والفقهاء أشهرهم أبو زيد عبدالرحمن بن مَقَانا الأشبوني وكذلك الشيخ أبو الحسن علي بن اسماعيل القرشي

الفهري الأشبوني وكان يعرف باسم (الطيطل) وهو ممن نظم الدُرَّ المفضل لا سيما في الزهد .

ويبدو أن الأشبونه كانت مقصد الأدباء في غربي الأندلس فابن بسام صاحب كتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) يذكر أكثر من مرة أنه قصد الأشبونة لملاقاة أُدبائها والوافدين عليها ، فعند الحديث عن الأديب أبي جعفّر بن الدودين البلنسي يقول ابن بسام : « هو أحد من لاقيتهُ وشافهتهُ وأملى عليّ نظمَهُ ونثرَهُ بالأشبونة سنه سبع وسبعين وأربعمائة . » ويتحدث ابن بسام عن الأديب ابي عامر بن الأصيلي من سرقسطه فيقول : « وهبط إلى الأشبونة أيام كوني بها وزرتهُ ونزلتُ عليه في منزله أول التقائي به في لُمّة من أهل الأدب . » ويبدو أن نزاعاً عائلياً قد حدث في مدينة الأشبونة في أواخر القّرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي بين أسرتين كبيرتين فيها ، وهما آل أخطل ، وأسرة الفقيه ابن ابراهيم الفهري ذهب ضحيته الوزير الفقيه أبو عبدالله محمد بن ابراهيم الذي كثيراً ما يثنى عليه ابن بسام ويتفجع لمقتله فيقول : « وكان الوزير الفقيه سويداء قلب ذلك الإقليم ومجلسُه بالأشبونة مرمى جمار المنثور والمنظوم ، هو المقتول المظلوم هناك رفع اللهُ درجتَهُ وقَتَلَ قَتَلَتَهُ ، ولما كُسفت ذلك النير المشرق ، أنطلقت أيدي الدهماء ، إذ عدموا من كان يفيض عليهم أنوار الآراء ويستنزل بها ما أمتنع بآراء سديدة الأنحاء وسياسيات لطيفة من شدة ولين وحركة وسكون . »

ولأبي عامر الأصيلي من سرقسطه في الوزير الفقيه قصيدة يقول فيها :

تجنّـبـتُ فـي أشـبـونـة آل أخـطـلِ	وأمّـلتُ ركني في الخطوب ومعقلي
إلـيك ابن ابـراهـيـم أدى بـنا الـهـوى	ومـن عـرف الأطـوار حـاد عن الأهـولِ
غـدرتم فـكـان الـغـدرُ مـنـكم سـجيّـةً	فتـى الـعـلـم والمجـدِ التـليـدِ المؤثَّـلِ

ومن مشاهير شعراء الأشبونة محمد بن سوار الأشبوني . ومن فقهائها عبدالرحمن

بن عبدالله ، وكان يروي عن الإمام مالك بن أنس[٥] .

ويعد سقوط الأشبونة ، وإجلاء معظم المسلمين عنها ، تم تحويل مسجدها الجامع إلى كنيسة ، ويقال إن كاتدرائية لشبونة اليوم تقوم على أطلال المسجد الجامع وما زال الحيُّ الشرقيُ من لشبونة يحمل اسمه العربي (ALFAMA) أي الحَمَّه علاوة على وجود حصون وقصور ومساجد عربية كثيرة لاتزال قائمة إلى يومنا هذا هناك .

أما مدينة (شنترين SANTAREM) فيرد ذكرها عند ياقوت الحموي في معجم البلدان فيقول :

شنترين : كلمتان مركبتان من (شنت) كلمة و(رين) كلمة ، وهي مدينة متصلة بأعمال (باجه) في غربي الأندلس ، ثم غربي قرطبة ، وتقع على نهر (تاجه) قريب من انصبابه في البحر المحيط ، وهي حصينة بينها وبين قرطبة خمسة عشر يوماً ، وبينها وبين باجة أربعة أيام .

وإلى مدينة شنترين ينتسب أبو الحسن علي بن بسام التغلبي الشنتريني صاحب كتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) ، وفي شنترين أيضاً ظهر أديب آخر اسمه علي بن جعفر بن علي السعدي الصقلي الشنتريني ، صاحب كتاب (الدرة الخطيرة في شعراء الجزيرة) .

أما ابن بسام صاحب كتاب (الذخيرة) ، فيبدو أنه كتبه بعد أن برح مسقط رأسه (شنترين) عام ١٠٩٣ أي بعد سقوطها بيد الفونس وقبل أن يستردها المرابطون إذ يقول في مقدمة كتابه :

« وعلم الله تعالى أن هذا الكتاب لم يصدر إلا عن صدر مكلوم الأجناء وفكر خامد الذكاء ، لانتباذي من شنترين قاصية الغرب . . . الخ »

ويورد ياقوت الحموي في معجم البلدان خبر مدينة (شنتره SINTRA) وهي غير شنترين فيقول :

(٥) نقلاً عن الدكتور الطيبي – المصدر نفسه – ص ٢٢٦ إلى ٢٣٢ .

شَنْتَره : بالفتح ثم السكون ، مدينة من أعمال لشبونه في الأندلس ، قيل إن فيها تفاحاً دور كل تفاحة ثلاثة أشبار والله أعلم ، ملكها الإفرنج سنة ٥٤٣هـ ، وقد نسب اليها قوم من أهل العلم .

وقد أورد ياقوت أيضاً ذكر مدينة (يابُره EVORA) فقال عنها : بلدةٌ في غربي الأندلس يُنسَبُ اليها أبو بكر عبدالله بن طلحة بن محمد بن عبدالله اليابري الأندلسي ، مات بمكة سنة ٥٢٣هـ .

وأورد ياقوت خبر مدينة (قلمريه COIMBRA) فيقول : قُلُمريه : بضم أوله وثانيه وكسر الراء ، مدينة بالأندلس هي اليوم بيد الإفرنج خذلهم الله .

ويحدثنا ياقوت عن مدينة (شلب SILVES) فيقول : شلْب : بكسر أوله وسكون ثانيه وآخره باء موحدة ، وهي مدينة بغربي الأندلس ، بينها وبين (باجه) ثلاثة أيام ، وتقع غربي قرطبه ، وهي قاعدة ولاية أشكونيا ، وبينها وبين قرطبة عشرة أيام للفارس ، وقد بلغني أنه ليس بالأندلس بعد اشبيليه مثلها ، وسمعت ممن قال : قَلَّ أن ترى من أهلها من لا يقولُ شعراً ولا يتعاطى الأدب ولو مررت بفلاحٍ خلف فدانه وسألته عن الشعر ، قرض من ساعته ، وينسب اليها جماعة منهم محمد بن ابراهيم بن غالب بن عبدالغافر بن سعيد العامري .

وقد تولى أمر مدينة شلب المعتمد بن عباد الذي ولد في مدينة (باجه) ولما يتجاوز الثالثة عشر من عمره ، فأصبحت شلب مقر عامل اقليم الغرب وفي شلب كان المعتمد قد تعرف على شاعر كبير هو أبو بكر محمد بن عمار . وفي مدينة شلب أيضاً التقى المعتمد بفتاة حسناء اسمها اعتماد هام في حبها واتخذ لقبه من حروف اسمها وفيها قال :

أغانية الشخص عن ناظري وحاضرةٌ في صميم الفؤادِ
عليك السلام بقدر الشجون ودمع الشؤون وقدر السهادِ
دسست اسمك الحلو في طيه وألّفتُ فيكِ روح اعتمادِ

وقد غادر المعتمد شلب وصار ملكاً في اشبيلية عام ٤٦١هـ - ١٠٦٩م .

أما بالنسبة لإسهام الحضارة العربية والاسلامية في الثقافة البرتغالية ، فقد كان أثرها رائعاً كتأثيرها في الثقافة الأندلسية بصورة عامة ، وإذا كان الباحثون العرب والبرتغاليون ، لم يكتبوا كثيراً عن هذا التأثير فحسبهم أن البرتغال كانت من ضمن الأندلس آنذاك ، وكل ما يقال ويكتب عن التأثير العربي في الأندلس الإسبانية ، يُقال عن الغرب البرتغالية أيضاً .

فمما لا شك فيه أن للعرب أثراً رائعاً في التاريخ الفكري والعلمي للعصور الوسطى الأوربية ، فقد كانت الشعوب العربية منذ منتصف القرن الثامن حتى أوائل القرن الثالث عشر الحَمَلة الرئيسيين لمشعل الثقافة والمدنية في العالم فكانت الثقافة العربية الطريق الذي سَهَّلَ السبيل لبزوغ عصر النهضة في أوربا ، والذي ساهمت فيه (أيبيريا العربية) إسهاماً هاماً .

فعند دخول العرب إلى إسبانيا ، لم يكن بين كل ألف إسباني من يعرف القراءة والكتابة باللاتينية ، إلا إسباني واحد ، لذلك فقد هرع الإسبان المضطهدون (MOCARABES) إلى الدخول في الإسلام والاختلاط بالعرب والانكباب على العلوم العربية والاسلامية ينهلون منها ، حتى أنه عندما سقطت لشبونه بيد البرتغاليين ، كان اكثر من نصف سكانها من الإسبان المسلمين . لذلك فقد قام هؤلاء الإسبان المستعربون الذين تثقفوا بالثقافة العربية ، واطلعوا على آداب لغتها ، فأدخلوا الكثير من المفردات العربية إلى الإسبانية والبرتغالية .

فاللغة البرتغالية تضم الفاظاً عربية كثيرة أغلبها يمس موضوع التنظيمات الحكومية والقانون وفن البناء وغيرها .

وأمامي الآن كتاب اسمه : VESTIGIOS DA LINGUA ARABICA EM PORTUGAL لمؤلفه JOAO DESOUSA وقد حققه ونشره البرفسور (DE. A. FARINHA. DE. CAR-VALHO) . هذا الكتاب يحتوي على مئات الألفاظ االعربية الأصل التي

دخلت في البرتغالية . ويظهر هذا التأثير على لغة المؤسسات البرتغالية في يومنا هذا فدخلت ألفاظ القائد (ALCAIDE) و الفارس وهي رتبة الملازم في الجيش البرتغالي (ALFERES) والعديل (ADAIL) وهي رتبة أيضاً والميراني أي أمير البحر (ALMIRANTE) والطلائع وهي الوحدات العسكرية (ATALAIA) وكذلك الوزير (ALVAZIR) والمشرف (ALMOXARIFE) وغيرها من مئات الألفـــاظ .

ويُذكرُ أن مكتبة الحكم الثاني التي حوت على ألوف الكتب العربية والموجودة اليوم في متحف الاسكوريال في مدريد ، قد اقتبس منها البرتغاليون علوم التجارة والفلسفة والثقافة وأهمها موضوع القانون الجنائي وقانون المواريث البرتغالي فيكاد يكون القانون الجنائي البرتغالي في العصور الوسطى عربياً في مواصفاته ، ويُظهرُ قانون المواريث التأثير الكبير للتشريع القرآني على الحياة القديمة للسكان ، وكانَ التقليد أن تُحمى المرأة المرضعة والمربية لابن سيدها وقد أطلقوا عليها اسم (أمه) أو (AMAH) وكان لهؤلاء المربيات تأثير كثير في التقاليد والفلكلور البرتغالي ، فقد كُنّ يغنين القصص الشعرية الرومانسية التي ما هي في الحقيقة إلا ذكريات ماضية للقصيدة العربية ، إما في المحتوى أو في الإيقاع[٦] .

كما أن الأساطير البرتغالية وتسمى (LENDA) لا زالت إلى يومنا هذا تتحدث عن الفتيات العربيات الجميلات ، اللواتي كُنَّ يظهرن من عيون الماء العذبة ومجاري المياه في الوديان فينشدن الأغاني الحلوة وبذلك يسحرن ويستهوين قلوب الشبان البرتغاليين ، فصار اسم أغلب الفتيات البرتغاليات فاطمه FATIMA ويظهر تأثير العلوم الأخرى ، خاصة في العمارة والبناء واضحاً على اللغة البرتغالية ، فالكتب البرتغالية تعترف أن العرب علموهم بناء السدود (ACUDE) . وبناء الأبنية المرتفعة واستعمال الدروج والسلالم التي تتحمل الضغط العالي ، وعلموهم بناء الطواحين ونواعير الماء ، حتى خياطة الملابس ، فصار الخياط يسمى (ALFAYAT) وعلموهم طبخ الثريد

---

(٦) ف . ج. فيلوز – أثر الحضارة العربية الإسلامية على البرتغال .

فصار يسمى (ACORDA)[٧] .

وهكذا فنحن نأمل أن يزداد في كل يوم عدد الباحثين العرب والبرتغاليين للكشف عن الأثر الثقافي المهم الذي تركه العرب في البرتغال .

(٧) نقلاً عن كتاب برتغالي اسمه : A'DESCAB ERTA DE PORTGAL .

٩

الفصل التاسع

* سقوط دولة الموحدين في المغرب وقيام دولة بني مرين هناك.
* دولة بني مرين تواجه صعوبات سياسية في المغرب وتسير نحو الضعف فيما تتعاظم قوة البرتغال.
* البرتغال تحتل ميناء (سبته) المغربي في ١٤١٥/٨/٢١م لتتخذ منه قاعدة انطلاق نحو فتوحاتها في أفريقيا والشرق.
* نظرة على أحوال مملكة البرتغال في عهدها الأول وتعاقب الملوك فيها ثم ظهور الملك (دون جوان) الأول ملكاً من أسرة (أفيز) عام ١٣٨٥.
* ظهور اسم الأمير هنري الملاح على صفحات التاريخ البرتغالي.

إنتهى حكم العرب في البرتغال حوالي عام ١٢٥٠م كما رأينا ذلك في الفصل السابع من الكتاب، إلا أن ذلك التاريخ لا يعني نهاية العرب في إسبانيا أيضاً، فعلى الرغم من الضعف العام الذي أصاب الوجود العربي هناك ودلالة المؤشرات السياسية على أن أيام العرب أوشكت على الأفول، فإن العرب بقوا هناك في إمارة صغيرة في أقصى جنوب الاندلس، هي إمارة غرناطة والتي لم تسقط بيد الإسبان إلا في عام ٨٩٧هـ- ١٤٩٢م.

إلا أنه وبقدر ما يتعلق الأمر بالعلاقات العربية - البرتغالية، والتي هي موضوع كتابنا هذا، فإن العلاقات البرتغالية - المغربية انقطعت تقريباً منذ أن خسر العرب معركة

العقاب التي وقعت بين الطرفين عام ١٢١٢م ، وكانت نتيجتها اندفاع البرتغال نحو استثمار الفوز بالاستقلال التام عن الحكم العربي ، فيما تهاوت مملكة الموحدين في المغرب إلى أن سقطت بيد بني مرين في حوالي عام ١٢٦٩م ، فقامت دولة بني مرين في المغرب ، وحكمت حوالي مئتي عام وهي الفترة الزمنية التي بدأت فيها قوة البرتغال بالتعاظم وقوة المغرب بالهبوط والنزول ، فكانت آخر أيامها سيئة إلى درجة كبيرة ، لكثرة الاعداء الداخليين ، وتعدد مراكز القوى ، فلم تتمكن السلطة في فاس من صيانة الأمن والدفاع عن البلاد ، مما دفع بدولة البرتغال الناشئة والمتعاونة مع إسبانيا إلى أن ترسل أساطيلها وتحتل مدينة (سبته) المغربية عام ١٤١٥م ، فكان ذلك بداية لسقوط دولة بني مرين وقيام دولة بني وطاس في المغرب .

* * *

قامت دولة بني مرين في حوالي عام ١٢٦٩ وسط ظروف عصيبة ، لذلك فإن تاريخها مضطرب ومليءٌ بمشاكلها الخاصه مع بقايا علاقات وروابط بمملكة غرناطة العربية في جنوب إسبانيا ، الأمر الذي جعل من رجالها قادة سياسيين وليسوا عسكريين ، استطاعوا أن يفاوضوا في أحرج الأوقات وأصعب الحالات ، فهي عكس الدولة التي سبقتها أي دولة الموحدين . فدولة الموحدين قامت على أسسٍ عسكرية دفعتها إلى إرسال جيوشها خارج حدودها للقتال في إسبانيا والبرتغال .

ولكن بصورة عامة فإن هزيمة العرب عام ١٢١٢ ، وانهيار دولة الموحدين أضعف المغرب عسكرياً ، بحيث انصرفت الدولة المرينية إلى الدبلوماسية الهادئة في معالجة أمورها السياسية ، فنرى لرجالها جولات في ميدان السياسة مع ممالك قشتاله وأراغون في إسبانيا ومملكة غرناطة العربية ومملكة البرتغال الحديثة ، علاوة على علاقاتهم بممالك مصر والشام والحجاز وفرنسا وانجلتره وأخيراً مع الدولة العثمانية في فجر ظهورها[١] .

---

(١) الدكتور عبدالهادي التازي – الموجز في تاريخ العلاقات الدولية للمملكة المغربية – ص ٦١ .

عُرف من ملوكها الأوائل السلطان يعقوب بن عبدالحق المعروف باسم أبو يوسف ، وكانت لهذا الرجل صولات دبلوماسية مع ملوك الإمارات الإسبانية وملك غرناطة العربية ، إلا أن علاقاته مع الأخير لم تكن على ما يرام ، إذ يبدو من دراسة بعض صفحات التاريخ ، أن ملك غرناطة كان أحياناً يُراسلُ السلطان المغربي في طلب العون منه للوقوف أمام المد الإسباني لكن السلطان لم يكن في موقف يساعده على أن يمد يد النجده له ، مقابل ذلك فإن ملك غرناطه ، وبمساعدة مَن ملك قشتاله الإسباني ، تمكن من احتلال ميناء (سبته) المغربي ، إلا أن السلطان تمكن من استعادته عام ١٢٧٤م .

وتتلاحق أمامنا أسماء سلسلة من سلاطين الدولة المرينية وسط تدوين تاريخي مضطرب وغير دقيق للأحداث ، فيظهر لنا في عام ١٢٨٦م اسم السلطان يوسف بن يعقوب بن عبدالحق ، المعروف باسم أبو يعقوب يوسف ، والسلطان أبو ثابت ، ثم تتلاحق سلسله أخرى من أسماء لملوك مثل أبو الربيع وأبو سعيد وأبو الحسن ، وأبو فارس ، وأبو عنان ، وأبو سالم ً .الخ ً، تعرضت فيه المغرب على أيامهم المحشورة حشراً بشكلٍ مرتبك في صفحات التاريخ لعلاقات سيئة مع مملكة غرناطة في الأندلس ، حيث كانت تلك المملكة تعمل على إسقاطً دولة بني مرين . هذا علاوة على تعرض هذه الدولة إلى مزاحمة سياسية من (الدولة الحفصيّة) التي كانت قائمة في تونس مما اضطر بعض الملوك المرينيين إلى التنازل لذكر اسماء ملوك تونس الحفصيين على المنابر في المغرب ، وفي حالات أخرى توطدت أواصر القربى بين بني مرين في المغرب وبني حفص في تونس ، بزواج الأمير علي المريني بالأميرة فاطمة الحفصيه ، مما جعل الدولة الحفصية تتدخل كثيراً في الشؤون الداخلية للمغرب ، خاصة على زمن السلطان عبدالحق بن أبي سعيد المريني ، مما دفع ببعض المؤرخين إلى اعتبار أن المغرب سقط بيد الدولة الحفصية .

إلا أن هذه الدولة تعرضت إلى هزة كبرى عندما تمكنت قوات برتغالية من احتلال

مدينة سبته المغربية ، فعلى عهد السلطان أبو سعيد عثمان المريني وبعد صراعٍ سياسي بالغٍ مع جميع المنافسين له ، أصيبت الدولة بالضعف من جراء التجزئة الداخلية وعدم تمكّن السلطان من إدارة الشؤون العامة بسبب انشغاله بالحرب ضد أخيه مولاي يعقوب ، وتعرض البلاد لنكبات طبيعيه كالطاعون والمجاعة ، كل هذا أدى إلى استئساد دولة البرتغال وهي الدولة الناشئة الطامحه في التوسع والسيطره والساعية لاكتشاف منابع الثروات والخيرات في العالم ونشر المسيحية في أرجاء الأرض ، فدفعها إلى أن تتطلع إلى موقع مدينة (سبته) المغربية الاستراتيجي المشرف على طرق المواصلات التجارية البحرية بين جنوب أوربا ومضيق جبل طارق والمشرف على سواحل الاطلسي والذي يشكل قاعدة عسكرية متقدمة مثالية للإنطلاق نحو سواحل أفريقيا الغربية . كل هذا حفزها إلى أن تقوم بتجهيز حملة عسكرية بحرية مكونة من أسطول مؤلف من ٢٢٠ سفينة على ظهرها حوالي ٥٠,٠٠٠ مقاتل من البرتغال وبريطانّيا والمانّيا وفرنسا ، أبحرت بسرية تامة من البرتغال يوم ٢٥/ ٧/ ١٤١٥م ، ووصلت إلى ميناء سبته المغربي يوم ٢١/ ٨/ ١٤١٥م ، وتمكنت من احتلاله[٢] .

أدى احتلال سبته إلى ظهور فجر جديد في تاريخ البرتغال ، وتاريخ أسرة (آفيس) الحاكمة هناك وهو فجر سياسة التوسع البرتغالية نحو السواحل العربية المغربية ، ثم الغزو البرتغالي للبلاد العربية والأسلامية ، وقد شكلت (سبته) قاعدة لانطلاقهم نحو سواحل أفريقيا الغربية ، فأحكموا قبضتهم هناك وعينوا حاكماً للمدينة هو : DOM PEDRO DE MENESES ، وقبل أن نستمر بقصة ما حدث بعد الغزوة البرتغالية للمغرب واحتلال (سبته) لا بد من معرفة كيف كانت الأحوال في البرتغال ، وما هي الظروف التي مرّت بها هذه الدولة ، ودرجات التطور والرقي التي اعتلتها والتي مكنتها من إرسال قواتها لتحتل موقعاً في المغرب تمهيداً لاحتلال مواقع استراتيجية أخرى في مناطق أخرى لتكون أول وأكبر دولة استعمارية في العالم .

---

(٢) الدكتور ابراهيم شحاته حسن – واقعة وادي المخازن في تاريخ المغرب ص ٣٨ وكذلك الدكتور عبدالكريم كريم المغرب في عهد الدولة السعديه – ص ٦ .

* * *

قلنا في الفصل السابع من هذا الكتاب ، إن عهد الملك البرتغالي أفونسو الثالث AF-FONSO III ، شهد نهاية العرب في البرتغال ، وقد انصرف هذا الملك بعد ذلك إلى تثبيت قواعد مملكته وتحصين حدودها ووضع الركائز السياسية لها وتحديد علاقاته بجارته إسبانيا ، وكانت سياسته الخارجية تعتمد على تقوية علاقاته ببريطانيا ، وهي الدولة التي ساعدت البرتغال ضد العرب ، كما أنه عمل على تشجيع الزواج بين الشعبين ، وقد توفى عام ١٢٧٩م فخلفه ابنه (دون دنيز DOM DINIS) الذي سار على نهج والده في تقوية علاقاته السياسية مع بريطانيا ، وارتبط بصداقة مع الملك (أدوارد الأول) ملك بريطانيا فعقد معه معاهدة تجارية عام ١٢٩٤ . وفي عام ١٣١١ اتفق مع الملك (أدوارد الثاني) على تشكيل وحدات عسكرية خاصة أطلق عليها اسم (وحدات فرسان العاصفة المدوّية KNIGHTS TEHPLARS) وقام الاثنان بتدريب هذه القوات على كافة أساليب القتال العسكرية فخلقوا منها وحدات مقاتله كفؤة ، فلما اكتمل لهما هذا الأمر رفعا النبأ إلى البابا (كليمنت الخامس CLEMENT V) فبارك لهما هذا الفعل ، مما دفع بالملك البرتغالي أن يعلن أن مملكته تقوم على أساس (إرادة المسيح) ، وأن مملكة البرتغال هي مملكة (العاصفة المدوّية) ، وعلى هذا الأساس أيضاً أصدر أوامره بتشكيل إسطول حربي برتغالي أسند قيادته إلى الاميرال (مانويل بيسانا) .

فلما مات هذا الملك ، خلفه في الحكم الملك (دون بيدرو الأول DOM PEDRO I) الذي راح يقوي النزعة العسكرية ويثبت اركان الدولة القوية ، متعاوناً مع الملك أدوراد الثالث ملك بريطانيا في تدريب قواته العسكرية ، وفي عام ١٣٥٣ تم عقد معاهدة سياسية وتجارية جديدة بين البلدين .

وعندما حل عام ١٣٦٧ مات الملك دون بيدرو الأول فخلفه على عرش البرتغال ابنه الملك (فرديناند FERDINAND) الذي استمر على اتباع النهج السياسي نفسه في

التعاون الوثيق مع بريطانيا وراح يتعاون مع مملكة (قشتاله) الإسبانيه أيضاً ، فصار لمملكة قشتاله نفوذ داخل مملكته بحيث إنه عندما توفى ولم يكن له ولدٌ يخلفه ، فإن حكومة (قشتاله) الإسبانيه أوفدت وصياً على عرشه من قبلها اسمه (ليونورا LEONO-RA) ، فقوبل هذا العمل باستياء شعبي عام في البرتغال واعتبروه تدخلاً سافراً من حكومة (قشتاله) الإسبانية في الشؤون الداخليه البرتغالية ، وانه فاتحة لوقوع البرتغال بيد إسبانيا .

لذلك فقد قامت الهيئات والمؤسسات الوطنيه البرتغالية بإصدار قرار بتاريخ ١٦/ ١٢/ ١٣٨٣ بانتخاب (دون جوان) عميد أسرة (أفيز AVIZ) وهو أيضاً إبن غير شرعي للملك دون بيدرو الأول ، ليكون وصياً على العرش وحامياً للبرتغال ، فقام هذا بطرد بعض القوات القشتاليه من مواضعها في البرتغال ، وبذلك حقق نصراً عسكرياً وصار بطلاً شعبياً ، مما دفع بشعب البرتغال إلى اختياره ملكاً عليهم ، وتم عقد اجتماع شعبي كبير في مدينة (قلمريه CPMBRA) وتم تنصيبه ملكاً على البرتغال وكان ذلك بتاريخ ٦/ / ٤/ ١٣٨٥ ، فصار اسمه (الملك دون جوان الأول) ، ويلفظ بالبرتغالية (دوم جواو) ويكتب بالبرتغالية (DOM JOAO) .

اعتبرت مملكة قشتاله الإسبانية انتخاب (دون جوان) أو (دوم جواو) تحدياً لسلطتها ، فأرسلت قطعات عسكرية احتلت بعض مناطق البرتغال ، فقام الملك البرتغالي بطلب النجدة من الحكومة البريطانية ، وأرسلت له جيشاً محملاً على ثلاث سفن رست في جبل طارق أنزلت قواتها هناك في ١٤/ ٨/ ١٣٨٥ والتقت بقوات قشتاله وأنزلت بها هزيمة ، وإزاء تلك المعاونة البريطانية قام الملك البرتغالي بعقد معاهدة مع بريطانيا بتاريخ ٩/ ٥/ ١٣٨٦ اتفق فيها الطرفان على أن تبقى المملكتان متحدتان وصديقتان إلى الأبد ، وقد عزز الملك البرتغالي تلك المعاهدة بزواجه من الأميره البريطانية (فيليبا أوف لانكستر PHILIPPA OF LANCASTER) ، ابنة دوق لانكستر أخو الملك هنري الرابع . وقد عاش (دون جوان) طويلاً ، واتسمت سياسته

بالاحتفاظ بصداقـة بريطانيا ، وإقامة سلام مع حكومة قشتالـه فيمـا بعـد . وعلى عهـد الملك البريطـاني (هـنري الرابع) ، تم منحه وسـام ربطـه الساق البريطاني (ORDER OF THE CARTER) ومنحه أيضاً لقب (فـارس القـديـس جـورج) ، فاتخـذ مـن شعار القديس جورج وهو حيوان (الدراكون) شعاراً لدولته ، كما صار نداء (يا قديس جورج) بمثابة النشيد الوطني الذي يلهب الحماس ويدعو إلى الحرب والفتح . وعلى زمن الملك البريطاني هنري الخامس ، طلب نجدة عسكرية بريطانية لمساعدته في احتلال (سبته) المغربية فأوفدت له بريطانيا حملة بحرية عسكرية مكونة من جنود بريطانيين ومتطوعين ألمان وفرنسيين ، وقد تبرع أحد أثرياء الإنجليز بأربع سفن محملة بالمؤنه والطعام للحملة ، فلما وصلت الحملة إلى لشبونه قام الملك البرتغالي بإرسال أولاده الثلاثه (دون بيدرو) و (دون دورات) و (دون هنري) على رؤوس قطعاته البرتغاليه للمشاركة في الحرب ضد العرب . وهكذا تم حشد خمسين الف مقاتل أوروبي هاجموا مدينة (سبته) واحتلوها كما بينا سابقاً . وكان من نتائج ذلك النصر البرتغالي ، أن قام الملك دون جوان بمنح ولده دون بيدرو لقب (دوق كمبيرا) ، ومنح ولده هنري لقب (دوق فيسو) وكذلك لقب (السيد المنفذ لأوامر المسيح MASTER OF THE ORDER OF CHIRIST) ، كما منحه مقاطعة (الغرب) فصار حاكماً لها ، وهكذا ارتبط النصر البرتغالي في سبته باسم الأمير هنري الذي صار فيما بعد الأمير هنري الملاح[٣] .

(٣) DANVERS .. - المصدر نفسه ، والبحث مترجم من الصفحات ١٦ ، ١٧ ، ١٨ .

10

الفصل العاشر

* نظرة على التجارة الهندية – الأوربية وطرق النقل البحرية آنذاك.
* أهمية تجارة التوابل.
* الأمير هنري الملاح يؤسس معهداً علمياً للاكتشافات البحرية والأمير بدرو يقوم بسفرة إلى دول المشرق الاسلامية.
* هنري الملاح يستمر في حركة الاستكشافات على الساحل الأفريقي الغربي.
* هنري الملاح يشارك مع حملة عسكرية برتغاليه لاحتلال ميناء القصر الصغير المغربي.
* وفاة هنري الملاح بتاريخ ١٣/١١/١٦٤٠.

شكَّلَ النصر الذي حققه الأمير هنري بن الملك دون جوان في احتلاله مدينة سبته المغربية شهرة كبيرة له راح صداها يدوي في جميع أنحاء أوربا بحيث وصلته دعوات من ملوك انجلتره والمانيا وقشتاله الإسبانيه، يعرضون عليه منصب قيادة جيوشهم، كما أن البابا بارك له لقب (السيد المنفذ لإرادة المسيح)، مما دفعه إلى أن يتمسك بهذا اللقب لينفذ الإرادة التي اعتبرها أمراً ربانياً لنشر المسيحيه وكذلك لاكتشاف مناطق العالم التي لم تُكتشفُ بعد، وأهمها الطريق البحري المؤدي رأساً إلى الهند المركز الأول في العالم يومذاك لتجارة التوابل والعطور، إذ كانت تلك المواد غالية الثمن وتقاس بالذهب، وكانت عبارة (أغلى من الفلفل) عبارة شائعة للتعبير عن أية موجة غلاء فاحشٍ لسلعةٍ من السلع، حتى صار الناس ينظرون إلى الفلفل نظرتهم اليوم إلى

العملة الصعبة .

قبل أن نخوض في موضوع مغامرات هذا الأمير البحرية واكتشافاته في أفريقيا ، لا بد من إلقاء نظرة على موضوع التجارة الهندية - الأوربية وسوق البضائع الهنديه الذي كان يلقى رواجاً لا مثيل له في أوربا في ذلك الزمن .

يرجع تاريخ الاتجار بالتوابل بين الشرق والغرب إلى عهود سحيقة في التاريخ ، فعندما اكتسح الاسكندر المقدوني الشرق الاوسط وتوغل في بلاد الهند لمس عن يقين الفوائد المجتناة من تجارة التوابل فوضع مشروعاً لطريق تجاري بحري وبري يمر بالخليج العربي فوادي الرافدين فسوريا أو تركيا ليصل إلى موانىء أوربا . ولما مات الاسكندر وأصبح بطليموس ملكاً لمصر أحيا مشروعاً تجارياً آخر لجلب تجارة الهند إلى أوربا على أن يمر الطريق البحري من الهند فالمحيط الهندي ثم البحر الأحمر . وتحقيقاً لتوصيل المراكب إلى البحر الابيض أمر بشق ترعة تصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط إلا أنه فشل في تحقيق ذلك الأمر فأهمله ، إلا أنّه أفلح في جعل مدينة الاسكندرية مركزاً لتجارة التوابل وتوزيعها إلى اوربا ، حتى أطلق الناس على الاسكندرية لقب (باب التوابل) .

ويقال إن عدد السفن التي كانت تحمل تجارة الهند والشرق الاوسط إلى مصر فأوربا كانت حوالي (١٢٠) سفينة سنوياً ، رغم أن السفرة الواحدة إلى بلاد الهند جيئة وذهاباً كانت تستغرق سنتين ، لكن الحموله الواحدة كانت كفيلة بجعل التاجر الذي يقوم بهذه الصفقة رجلاً ثرياً ، لذلك فقد أصبحت مصر المحتكر الأول للتجارة الهندية ، أما المحتكر الثاني فهي الدول التي تقع على الخليج العربي ووادي الرافدين ، ثم سواحل سوريا ولبنان ، واستمرت تلك الكيفية والوضعية منذ زمن الاسكندر إلى عهد الاستكشافات البرتغالية الذي هو موضوع هذا الفصل .

إذن كان هناك طريقان بحريان يربطان الهند بأوربا .

الأول : طريق المحيط الهندي ، فالبحر الأحمر ، حيث تتوقف السفن في خليج السويس (كما هو اسمه الآن) لتفرغ حمولتها ويعاد تحميلها على ظهور الركائب إلى ميناء الاسكندرية حيث تفرغ ليعاد تصديرها ببيعها للسفن الأوربية الراسية هناك والتابعة لتجار أوربا .

الثاني : طريق المحيط الهندي فالخليج العربي فنهر الفرات إلى داخل حدود سوريا حيث تُفرغُ الحمولة هناك ليعاد تحميلها على ظهور الركائب إلى الموانيء الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ، حيث توجد سفن التجار الأوربيين لشرائها وبيعها في أسواق أوربا .

وكان الاعتقاد السائد في بلاد الغرب أن (جنة عدن) هي مصدر التوابل والعطور والاحجار الكريمة وأن هذه السلع ترد إلى مختلف الديار على أربعة انهار عظيمة هي السند ودجلة والفرات والنيل . كما أن التجار العرب كانوا المحتكرين الرئيسين لهذه التجارة المربحة ، حيث كان الرخاء النسبي سائداً في أقطار الشرق الأوسط ومجتمعاته إذا ما قيس بالوضع الاقتصادي المسيطر على الاقطار الغربية . لذلك فقد كانت مصر المملوكية آنذاك المركز الأول لهذه التجارة التي تصدرها إلى مملكة البندقية في إيطاليا أو إلى الاتحاد التجاري في هولندا الذي تم تشكيله لغرض تنظيم هذه العمليات التي تستنزف الذهب من أوربا لتنقله إلى الشرق .

كل ذلك دفع بالأمير البرتغالي هنري إلى القيام بمحاولاته لاستكشاف طرق بحرية جديدة قد توصله إلى مصدر الثروة في العالم ، أي الهند ، فلم يكن أمامه إلا القيام بمغامرة الابحار والسير على طول الساحل الأفريقي الغربي ، عسى أن يوصله إلى مكان ما ، وعسى أن يكون هذا المكان هو الهند .

ولد الأمير هنري (DOM HENRIQUE) عام ١٣٩٤ ، وهو ابن الملك البرتغالي (دون جوان الأول)وأمه الأميرة البريطانية (فيليبا) وكان ملك بريطانيا هنري الرابع خاله ،

وكما كان له أخوان هُما (دون دورات) (ودون بيدرو) ، ولغرض القيام برحلاته قرب الشاطىء الأفريقي الغربي راح يجمع المعلومات من البحارة العرب الذين كانوا يبحرون بين الساحلين ، لذلك فقد افتتح مقراً له في مدينة (ساكرا SA-GRA) في منطقة الغرب أي جنوب البرتغال أطلق عليه اسم المركز البحري الحربي (NAVAL ARSENAL) ، إلا أنه استبدله فيما بعد إلى اسم قصر ابن الملك (VILLA DE INFANT) حيث حوله إلى معهد لدراسة علوم الفلك والفضاء والرياضيات والعلوم البحرية ، لغرض القيام برحلات بحرية ناجحة في المستقبل .

ولم يكن دون بيدرو الأخ أقل منه رغبة في المغامرة وفي اكتشاف الهند ودول الشرق الأوسط ، إلا أنه كان يفضل السفر براً ، لذلك فقد قرر في عام ١٤١٦ ، أي بعد سنتين من احتلال (سبته) ، أن يقوم بهذه الرحلة إلى دول المشرق الاسلاميه ، وتمكن من زيارة استانبول ، ثم القدس وبعدها بغداد ، حيث قابَلَ حاكم المدينة (GREAT SUL-TAN OF BABYLONIA) وبعد ذلك قفل عائداً إلى فلسطين ومنها أبحر إلى روما وقابل البابا (مارتين الخامس) . وفي بلاطه شرح للبابا ما شاهده ، فبارك له عمله ، وأوصاه القيام بسفرة إلى أوربا لمقابلة ملوكها وشرح أبعاد رحلته لهم ، فقام بمقابلة ملوك هنغاريا والدانمارك والبندقية ثم انجلتره حيث استقبله الملك هنري الخامس بحفاوة وترحيب ومنحه لقب (فارس ربطة الساق) ، وبعدها عاد إلى البرتغال في عام ١٤٢٨ أي بعد غياب استمر إثني عشر عاماً .

أما على صعيد نشاطات الأمير هنري ، فإنه وإلى حوالي عام ١٤٢٠ لم يستطع أن يتقدم لأكثر من منطقة رأس نون CAPE NON . وفي عام ١٤٣٤ تم لهُ اكتشاف رأس بوجادور CAPE BOJADOR ، وفي عام ١٤٤١ أرسل رسالة إلى البابا يخبره باكتشافاته وأنه يقوم بعملية التبشير هناك بين الشعوب غير المسيحية الأفريقية (INFIDEL NA-TEVCS) وأنه يطلب منه أن تكون كافة الأراضي المكتشفه مستعمرات للملك البرتغال ، مؤكداً له أن الرسالة الإلهية التي يحملها توجب عليه أن يُدخلَ هذه الشعوب بدين المسيحية ، وأن هذه الغاية أي التبشير هي المقصد الرئيسي لاكتشافاته .

بارك البابا تلك الخطة والاكتشافات ، وارتفعت شهرة الأمير هنري في البرتغال وأوربا ، مما دفع بأخيه (دون بيدرو) الذي كان ولياً للعهد أن يصدر مرسوماً يمنع فيه أي برتغالي أن يبحر إلى المناطق المكتشفه حديثاً إلا بعد موافقة الأمير هنري .

وهكذا اندفع الأمير بحماس شديد ، نحو الإسراع في الفتوحات ، فراح يجلب الافارقة إلى لشبونة ليدخلهم في المسيحية من جهة ، وليحصل منهم على أكبر قدر من المعلومات عن الساحل الأفريقي ، كما أن توغله في أفريقيا أوصله إلى مناجم الذهب هناك فنقله إلى البرتغال .

وفي عام ١٤٤٣ تمكن من الوصول إلى (لاكوس) واجتمع بالتجار هناك ، وأمرهم بعدم التعامل مع أي تاجر عربي أو مسلم وساعدهم على القيام بمذبحة قتلوا فيها عدداً من التجار العرب وأسروا مائة وخمسين منهم ، ثم قام ببناء قلعة لتكون مقراً للأعمال التجارية بين أفريقيا والبرتغال ، بينما امتدت الاستكشافات إلى جنوب السنغال .

وفي ٢٣ اكتوبر ١٤٥٨ شارك الأمير هنري الملاح في حملة عسكرية مكونة من ٢٥ ألف رجل حملهم أسطولٌ مكونٌ من ٢٨٠ سفينه هاجموا ميناء ومدينة القصرَ الصغير المغربية واحتلوها ، إلا أنه لم يعش طويلاً بعد ذلك إذ توفى في ١٣/ ١١/ ١٤٦٠ ، ودُفن في كنيسة القديسة ماري في لاكوس ، ثم نُقِل الجثمان بعدها إلى سانتا ماريا حيث يرقد هناك[1] .

(١) DINVER – المصدر نفسه – والفصل مترجم من الصفحات ١٩ إلى ٢٣ .

11

الفصل الحادي عشر

* حملة برتغالية تخرج لاحتلال مدينة (طنجه) المغربية في ١٤٣٦/٩/١٣ إلا أن قوات الوزير أبو زكريا الوطاسي تصدها .
* مشاكل داخليه في المغرب العربي .
* سقوط (القسطنطينيه) بيد السلطان العثماني محمد الفاتح .
* مقتل ملك المغرب السلطان عبدالحق بن أبي سعيد المريني، وقيام سلطنة مولاي محمد علي الإدريسي .
* محاولات برتغاليه جديدة لاحتلال طنجةَ في أعوام ١٤٦٨ و ١٤٦٩ .
* سقوط مدن (أصيلا) و (طنجه) المغربية بيد القوات البرتغالية في شهر أيلول من عام ١٤٧١م .
* الوزير محمد الشيخ بن أبي زكريا الوطاسي يطيح بالحاكم الإدريسي ويدخل فاس عام ١٤٧٢، فيكون ذلك العام بداية لقيام الدولة الوطاسية في المغرب العربي .

شكَّلَ سقوط مدينة (سبته) المغربية ، بداية لضعف سياسي شمل المغرب العربي على حساب تعاظم القوتين الاستعماريتين يومذاك وهما اسبانيا والبرتغال .

ولما كان المغرب بموقعه الجغرافي أقرب نقطة إلى الدولتين ويمتلك سواحل طويلة على المحيط الأطلسي ، فقد اتجهت إليه أنظار إسبانيا والبرتغال ، وأخذا يعملان على احتلال المدن الواقعة على سواحله الغربية ، والتي تشكل محطات توقف لسير سفن الاستكشاف والتبشير المتجهة نحو سواحل افريقيا الغربية .

لذلك فقد كانت أهمية الشمال الأفريقي عامة والمغرب العربي خاصة بالغة باعتبارهما الباب الموصل إلى استكشافات جديدة خاصة في أفريقيا التي تسيطر على الطرق الموصلة من الهند إلى أوربا ، وأن وجود أية قوة اسلامية قوية هناك يخلق تهديداً خطيراً لهاتين الدولتين ، لذلك فقد اندفعوا نحو تلك الفتوحات ، يساعدهم على ذلك الاوضاع السياسية المتردية للدوله العربية المشتتة في شمالي أفريقيا ، حيث انقسم الشمال الأفريقي إلى ثلاث ممالك هي : مملكة الحفصيين في تونس ومملكة بني زيان في الجزائر ومملكة بني مرين في المغرب .

كما أدى سقوط سبته بيد البرتغاليين عام ١٤١٥ إلى بداية تقلص نفوذ دولة بني مرين ثم انهيارها ، إذ إن ذلك الحدث أظهر عجز السلطان أبو سعيد المريني ، لذلك استاء الشعب من تلك الخسارة ، فقامت ثورة في البلاد عام ١٤٢٠ ، قُتل فيها السلطان أبو سعيد المريني وتولى الحكم ابنه القاصر عبدالحق بن أبي سعيد المريني ، ولما كان عبدالحق قاصراً وقليل الخبرة ، فقد أختار الشعب أبو زكريا الوطاسي والي مدينة (سلا) كي يكون وصياً على العرش وأن يشغل منصب الوزير الذي يعادل منصب رئيس الوزراء في يومنا هذا ، علماً بأن أسرة الوطاسي تتصل بنسب القرابة مع أسرة المرين الحاكمة في المغرب .

استهل أبو زكريا الوطاسي مهامه الوزارية فأعلن الجهاد ضد الغزاة البرتغاليين ، وسارع بتشكيل حملة عسكرية قادها بنفسه وهاجم المعسكر البرتغالي في سبته بغية استرداد المدنية ، إلا أن هجومه فشل بسبب شدة المقاومة البرتغالية ، وبسبب عدم تهيؤ الجيش المغربي واستعداده للقتال بشكل كامل . إلا أن عام ١٤٣٧ شهد حدثاً مهماً في العلاقات المغربية البرتغالية عندما وافق الملك دون جوان الأول ، وبدفع وإلحاح من ابنه الأمير هنري الملاح بضرورة إيجاد موطئ قدم آخر في السواحل المغربية الغربية يساعده على اتمام عمليات الاستكشاف من جهة ، ومن جهة أخرى يقف أمام محاولات اسبانيا الرامية إلى نفس أهداف البرتغال ، خاصة بعد أن قامت اسبانيا باحتلال (جزر

الكناري) وجزيرة ماديرا ، إذ إن هذه الجزر تقع مقابل الساحل المغربي ويمكن أن تشكل مواقع عسكرية يُمكن الحركة منها باتجاه المغرب وسواحل أفريقيا الغربية ، مما يشكل خطراً على طموح البرتغال في الحصول على مغانم ومكاسب من تلك المكتشفات ، وكان هدف الأمير هنري الملاح هو مدينة (طنجة) المغربية وهي أيضاً ميناء يجاور بموقعه ميناء سبته ويشكل قاعدة وحافة في الالتفاف نحو السواحل الغربية .

أمر الملك دون جوان الأول بتجهيز حملة مكونة من ثمانية آلاف جندي وصلت إلى طنجة في ١٣/ ٩/ ١٤٣٦ ، إلا أن الوزير أبو زكرياً الوطاسي كان متهيأً لصدها فتقدم على رأس جيشه ، وأوقف الزحف البرتغالي وأجبر قوات العدو على التقهقر ، فكانت كارثة على الجيش البرتغالي وقع خلالها الأمير دون فرناندو الابن الاصغر للملك دون جوان أسيراً بيد القوات المغربية ، فيما أطبقت القوات المغربية على القوات البرتغالية وحاصرتها ، وقد استمر الحصار مدة شهر واحد ثم وافق الوزير أبو زكريا الوطاسي على انسحاب القوات المغربية ، لقاء انسحاب القوات البرتغالية التام من مدينة سبته أيضاً ، على أن يبقى الأمير فرناندو أسيراً في المغرب ولا يفرج عنه إلا بعد الانسحاب التام من جميع الأراضي المغربية ، وعلى هذا الأساس جرى انسحاب القوات التي كانت محاصرةً ، ولم يُنفذ الملك دون جوان وعده بالانسحاب من سبته ، لذلك فقد بقي ابنه دون فرناندوا أسيراً في المغرب إلى أن مات هناك(١) .

أدى انتصار الوزير أبي زكريا الوطاسي في معركة طنجة إلى ارتفاع اسمه ومنزلته الشعبيه ، إلا أنه اغتيل بظروف غامضه في عام ١٤٤٨ ، وقد أدى اغتياله إلى هزة سياسية عنيفة تعرض لها العرش المغربي ، وظهر المغرب العربي وكأنه منقسم إلى قسمين وموزع بين قوة العرش التي يمثلها السلطان عبدالحق بن أبي سعيد المريني وقوة الوزارة التي تُمثلها الأسرة الوطاسية ، لذلك فلم يكن أمام السلطان إلا أن يأمر بالتنكيل بوجهاء وأعلام الأسرة الوطاسيه ، فأصدر أمراً بأعدامهم في عام ١٤٥٧ ، فأُعدمَ من

(١) د . ابراهيم شحاته حسن – المصدر نفسه – ص ٣٧-٣٨ .

أُعدمْ ، وهربَ من هربْ وتمكن محمد الشيخ وهو ابن الوزير أبي زكريا الوطاسي من الهروب والاختفاء في مدينة (أصيلا) واتخاذها قاعدةً لدعوته لإسقاط الدولة المرينية

إلا أن القضاء على نفوذ الأسرة الوطاسية لم ينه مشاكل السلطان عبدالحق المريني إذ تراكمت عليه مشاكل أخرى بين داخلية وخارجيه ، مثل مشكلة تدخل الدولة الحفصية التونسية في شؤون مملكته مما اضطره على الموافقة على أن يشاركوه في السلطة وراح الخطباء في الجوامع يخطبون باسم الدولة الحفصية التونسية .

وعلى الصعيد الداخلي ، قامت ثورة في البلاد عندما علم الشعب أن عبدالحق قد اتخذ وزيراً يهودياً ، وكذلك عندما ظهرت إشاعة أنه دس السم للشيخ محمد بن سليمان الجزولي شيخ الطريقة الجزولية الصوفية وقتله .

وفي تلك الأثناء وقع في المشرق العربي حدثٌ عظيم هز أوربا المسيحية هزاً عندما تمكن السلطان العثماني محمد الفاتح من احتلال (القسطنطينية) وأطلق عليها اسم (استانبول) واتخذها عاصمة لموقعها الاستراتيجي بين أوربا وآسيا ، فكان خوف البابا أن يمتد نفوذ هذه الدولة المسلمة فيهدد الدول المسيحية ، فراح يحث كلاً من اسبانيا والبرتغال على الاتفاق والتفاهم في سبيل انتشار أوسع في العالم ، لذلك فقد بارك قيام البرتغال بتجهيز حمله عام ١٤٥٨ ، التي قادها هنري الملاح واحتلال مدينة القصر الصغير المجاوره لمدينة سبته كما مر بنا تفصيل ذلك الحادث في الفصل العاشر من الكتاب .

لقد أدى سقوط مدينة القصر الصغير إلى تقوية القاعدة العسكرية البرتغالية في سبته ، فصارتا قاعدتين عسكريتين متقدمتين للهجوم على مدينة طنجةَ الاستراتيجيه المهمه ، ولم يتمكن البرتغاليون من الهجوم إلا في عام ١٤٦٤ ، إلا أن الهجوم البرتغالي فشل في احتلال المدينة بسبب الدفاع القوي الذي دافعت المدينة به عن نفسها ، غير أن ذلك النصر لم يعوض للشعب خسارته لسبته والقصر الصغير ، والذي اعتبر أن الدولة المرينية مسؤولة عنه ، لذلك فقد قامت ثورة جديدة في البلاد يقودها

أشراف مدينة فاس ، ويتزعمها مولاي محمد بن علي الإدريسي ومعه الشريف أبي فارس الورياكلي ، والزعيم عمر السياف أحد دعاة الحركة الصوفية الجزولية ، ومعهم أبو الحجاج بن منصور بن زيان الوطاسي ، وقد تمكنت هذه الحركة من اغتيال السلطان عبدالحق بن أبي سعيد المريني عام ١٤٦٥م وإعلان سلطنة مولاي محمد علي الإدريسي .

إلا أن أمور المغرب لم تستتب بمقتل السلطان المريني ونهاية دولته ، ذلك أن مولاي محمد علي الإدريسي لم يستطع أن يحكم قبضته على أمور البلاد ، إذ سرعان ما نفس عليه ، محمد بن الشيخ أبي زكريا الوطاسي وهو الذي كان قد اتخذ من مدينة أصيلا مركزاً لمقاومة حكم الدولة المرينية ، فنشبت حروب بين الطرفين استغلها الملك البرتغالي أفونسو الخامس ، فجرد حملة أخرى في عام ١٤٦٨ لاحتلال طنجةَ ، وثالثه عام ١٤٦٩ ، حاولت أيضاً احتلال مدينة (أنفا) إلا أنها كلها منيت بالفشل الذريع ، وبذلك صارت طنجةَ على حد قول أحد المؤرخين البرتغالين : مقبرة نبلاء البرتغال[٢] .

إلا أن حدثاً خطيراً وقع عام ١٤٧١م عندما أتم الملك أفونسو الخامس حشد قوة عسكرية ضخمه مكونه من ٤٧٤ سفينة محملة بثلاثين ألف جندي توجهت يومَ ٢٤/ ٩/ ١٤٧١ نحو مدينة (أصيلا) مقر الثائر محمد الشيخ الوطاسي واحتلتها فجأة .

وبما أن أصيلا تقع جنوب طنجةَ على المحيط ، فإن مدينة طنجةَ وقعت في كماشة بين القوات البرتغالية الموجودة في الشمال في مدن سبته والقصر الصغير وبين الاحتلال الجديد في الجنوب لأصيلا . لذلك فقد هربت حامية المدينة ، وهرب معها السكان أيضاً وبذلك فقد دخلتها القوات البرتغالية بعد خمسة أيام من سقوط أصيلا .

---

(٢) د . ابراهيم شحاته حسن – المصدر نفسه – ص ٣٩

هنا اختلفت الأنباء عن سبب سقوط هذه المدن الاستراتيجية المهمه ، فمن قائل إن محمد الشيخ الوطاسي ، تنازل عن أصيلا للبرتغاليين لقاء مساعدتهم له في الانتصار على الشريف الإدريسي[٣] ومن قائل إن محمد الشيخ رفع شعار الجهاد ضد البرتغاليين والدفاع عن الوطن ، وبهذا الشعار فإنه جمع الأنصار حوله ، خاصة الذين يتذكرون مآثر والده العسكرية وقتاله ضد البرتغاليين لكنه لم يستطع أن يحقق نصراً ، وهكذا وبعد سنتين من سقوط أصيلا وطنجة ، وبعد معارك داميه بين محمد الشيخ الوطاسي ومولاي محمد علي الإدريسي ، تمكن الوطاسي من الانتصار ودخل (فاس) فاتحاً عام ١٤٧٢ وبذلك قامت الدولة الوطاسية في المغرب وانتهى شبح الدولة المرينيه من تاريخ المغرب العربي ليبدأ تاريخ الدولة الوطاسيّه بقيادة محمد الشيخ بن أبي زكريا الوطاسي ثم أولاده من بعده إلى سقوط هذه الدولة على يد الدولة السعديه بعد حوالي نصف قرن ، وقد بدأ منذ أول تأسيس الدولة الوطاسيه بوادر التوسع البرتغالي إلى أقصاه في سواحل المغرب المطلة على المحيط الأطلسي[٤] .

ومن البديهي أن احتلال البرتغال لهذه الأجزاء ، قد عزز من وضعيتها في شمال المغرب فقويت أماني الملك أفونسو الخامس لاحتلال مواضع أكثر على الساحل ، خاصة عندما مات هنري الملاح عام ١٤٦٠ ، واكتشف ابن اخيه (الملك أفونسو الخامس) في مكتبته خارطة ثمينة جداً ، كان عمه قد أتم رسمها مستنداً إلى خارطه تعود إلى مملكة (فينسيا) أي البندقية في إيطاليا ، ووضع لها عنواناً هو : (VENETIAN FRA MOURO OF CAMALADOLESE OF SAN MIGUAL DE MURANO) وتُظهر هذه الخريطه بكل وضوح أن الساحل الغربي لأفريقيا ينتهي في نقطة اسمها بالايطاليه رأس الشيطان (CAVO DI DIAVB) حيث يلتفُ الساحل بعدها نحو الأجزاء الشرقية من الساحل الأفريقي ، فتظهر دولة (سوفاله) أي الموزمبيق ، وتظهر الزنجبار أيضاً ، وكانت المعلومات الموجودة على هذه الخريطه قد تم الحصول عليها من العرب .

(٣) دكتور عبدالهادي التازي – الموجز في تاريخ العلاقات المغربية الدولية – ص ٨٢ .

(٤) الدكتور ابراهيم شحاته حسن – المصدر نفسه – ص ٥٠ وكذلك الدكتور كريم – المصدر نفسه – ص ٢٩ .

وقد أدى اكتشاف تلك الخارطة إلى فرح الملك البرتغالي ، خاصة إذا علمنا بأنها أظهرت نقطة (رأس الشيطان) التي هي رأس الرجاء الصالح ، قبل ستة وعشرين عاماً من تمكن البرتغاليين الإلتفاف حولها ، لذلك فقد اندفع الملك أفونسو بحماس أكبر للوصول إلى رأس الشيطان هذا الذي سيأخذه إلى سواحل شرقي افريقيا وربما بعدها إلى الهند .

وهكذا وفي عام ١٤٦٢ ، أمر الملك بتجهيز سفينتين حربيتين من نوع (كارافيل CARAVEL) بقيادة القبطان (بيدرو دي سنترا) وأمره أن يتجه جنوباً على طول الساحل الافريقي ، فلم يستطع هذا القبطان من الوصول إلى أبعد من سيراليون ، فأمرهُ الملك حينذاك بتنظيم عملية الاستيلاء على تجارة العاج في ذلك البلد .

وفي عام ١٤٧١ تمكنت السفن البرتغاليه من اجتياز خط الاستواء من الشمال إلى الجنوب ، وبذلك تمكن المكتشف البرتغالي (فيرنا كومز) من الوصول إلى منطقة أسماها رأس القديسه كاترين ، على بعد درجتين بحريتين من خط الاعتدال الجنوبي(٥) .

(٥) DINVERS – المصدر نفسه – ص ٢٤ .

12

الفصل الثاني عشر

* تنافس برتغالي – إسباني للحصول على مستعمرات في المغرب العربي ونشوب الحرب بينهما.
* إسبانيا تحتل موقعاً لها في جنوب المغرب العربي.
* وفـاة ملك البرتغـال أفونسو الخامس وولاية ابنه(دون جوان الثاني DOM JOAO II) المعروف باسم يوحنا الثاني عام ١٤٨١.
* البرتغاليون يصلون إلى رأس الرجاء الصالح عام ١٤٨٧م.
* بعثة برية برتغالية تصل إلى البلاد العربية والهند بقيادة (دي كوفيلها) و(دي بافيا).
* سقوط مدن (أزمورا) و (أسفي) و (العرائش) بيد القوات البرتغاليه، ومدن (مليله) و (بادس) بيد القوات الإسبانية.
* كرستوفر كولومبس يصل أمريكا.
* سقوط مملكة غرناطه العربيه بيد الإسبان عام ١٤٩٢ ونهاية الحكم العربي هناك.
* اتفاقية (تورد سيلاس TORDESILLAS) بين إسبانيا والبرتغال لاقتسام العالم ١٤٩٤/٦/٧م.
* الملك مانويل الأول يعتلي عرش البرتغال عام ١٤٩٥م.
* فاسكو دي غاما يصل إلى الهند عام ١٤٩٨م.
* قصة البحار العربي أحمد بن ماجد.

في السنوات الممتدة من نهاية القرن الخامس عشر إلى مطلع القرن السادس عشر كان البرتغاليون قد نجحوا في استكشافاتهم ومشاريعهم البحرية والتجارية، ولم يعد توسعهم في المغرب يمكن أن ينفصل عن الأهداف السياسية والاقتصادية لهذا

المشروع ، أو الظاهرة الاستعمارية عموماً ، خاصة في العلاقات المغربية – الآيبيرية التي اتسمت بالعداء التاريخي ، وآثار حركة الاسترداد الإسباني في إسبانيا . كل هذه أججت نار الحماس البرتغالي إلى اكتشاف المزيد من غرب افريقيا حيث موارد الذهب والرقيق والطريق المؤدي بالنهاية إلى أعظم ثروة في العالم وهي ثروة الهند .

إلا أن التوسع البرتغالي على الساحل الغربي للمغرب وأفريقيا كان مصحوباً بتنافس إسباني ، وبدا هذا التنافس واضحاً منذ الحركات العسكرية الأولى للبرتغال واحتلالها مواقع في المغرب خاصة بعد سقوط طنجةَ وأصيلا بيدهم ، وظهور إشاعة أن السلطان محمد الشيخ الوطاسي دشن أيامه الأولى باتفاق للسلام مع أفونسو الخامس ملك البرتغال[1] .

فإسبانيا في تلك السنوات كانت قد أتمت وحدتها السياسية بعد مدة طويلة من المنازعات والمنافسات الداخلية ، إلى أن تحققت بصورة تامة عام ١٤٦٩م بزواج فردناند ملك أرغون من ايزابيلا ملكة قشتاله عام ١٤٦٩م ، وبذلك أصبحت إسبانيا خاضعة لسلطة سياسية واحدة . وبسب دوافع مختلفة قامت تنازع البرتغال على المنطقة المغربية التي تقع جنوب مدنية (أسفي) على المحيط ، وبسببها ولأسباب سياسية أخرى اشتعلت الحرب بين الطرفين .

استغل الملك محمد الشيخ الوطاسي ذلك النزاع فعقد اتفاقاً مع الإسبان كي يساعدوه في الهجوم على سبته لاسترجاعها فوافق الإسبان على ذلك وتشكلت حملة مشتركة بين الطرفين هاجمت الحامية البرتغالية في عام ١٤٧٦م إلا أن الهجوم فشل ولم يتمكن أي من الطرفين اقتحام المدينة ، لكن إسبانيا لم تترك ذلك الفشل يمر دون استثمار لبعض الفوز ، فأصدرت تعليماتها إلى قواتها الموجودة في جزر الكناري أن تحتل موقعاً لها في الساحل المغربي الجنوبي في منطقة (وادي دون) ، وقاموا ببناء قلعة عسكرية هناك باسم (سانتا كروز)[2] .

(١) الدكتور التازي – المصدر نفسه – ص ٨٢ .

(٢) د . عبدالكريم كريم – المصدر نفسه – ص ٣٠ .

وقد توقفت حركات الاستكشاف البرتغالية عام ١٤٨٠ تقريباً بسبب المشاكل التي أثارتها إسبانيا بوجهها من جهة ، ومن جهة ثانية أن الملك أفونسو الخامس البرتغالي أعلن عن مطالبته بعرش مملكة قشتاله عام ١٤٧٥ وبذلك عرض عرش إيزابيلا المتحد مع عرش مملكة الأراغون للخطر ، واحتدم النزاع بين إسبانيا والبرتغال واستمر إلى عام ١٤٧٩ عندما أعلن أفونسو الخامس تخليه عن إدعائه بالحقوق في قشتاله ، فتم عقد اجتماع لهذا الغرض في مدينة طليطله في ٦/ ٣/ ١٤٨٠ ، تنازل فيه الملك البرتغالي عن ادعاءاته السابقة ، وتنازل عن مطالبته بجزر الكناري أيضاً مقابل تنازل الإسبان له عن غينيا والأراضي التي ستُكتشفُ فيما بعد وراء غينيا ووراء جزر الكناري أيضاً ، وإطلاق اليد للبرتغاليين في غزو مملكة فاس ، أي المغرب العربي .

وفي عام ١٤٨١ توفي الملك البرتغالي أفونسو الخامس ، وتولى العرش بعده الملك (دون جوان الثاني DOM JOAO II) المعروف في بعض المصادر العربية باسم الملك يوحنا الثاني(٣) .

لم يكن هذا الملك أقل حماساً من والده في الاستمرار بالاندفاع جنوباً على الساحل الافريقي الغربي ، فعندما اعتلى العرش كانت السفن البرتغالية قد وصلت إلى دولة (مالي) الحالية ، وكانت مالي آنذاك مملكة يحكمها ملك مسلم هو محمد الأول ، ويعرف باسم (مانسا مالي) ، وكان هذا الملك يعاني من صراعات داخلية كثيرة في مملكته ، فلما وصل البرتغاليون إلى هناك استضافهم وطلب مساعدة حكومة البرتغال في توطيد الأمن في مملكته ، وعندما عادت السفن إلى البرتغال قدم القادة البرتغاليون تقريراً إلى الملك عن تلك الدولة ، وعن علاقاتها بدولة المغرب العربي ، وكذلك عن نشاط التجار العرب هناك ، فوافق الملك على أن يساعد ملك مالي على تثبيت حكمه لقاء استغلال واحتكار تجارة بلاده ، فأمر ببناء قاعدة عسكرية برتغالية في العاصمة (سونجو) ومركزاً تجارياً لهذا الغرض(٤) .

واستمر دون جوان بنشاطاته الاستكشافيه الأخرى بأن أمر اثنين من أتباعه ، وهما

(٣) DANVERS المصدر نفسه – ص ٢٤

(٤) الدكتور ابراهيم علي الطرخان – دولة مالي الإسلامية – ص ١١٤ .

الأب (أنطونيو دي لزبو) والسيد (بيدرو دي مونتاريو) بمهمة السفر إلى القدس ، لغرض جمع معلومات عن طرق الملاحة البحرية العربية ، وأسس التجارة العربية مع جمهورية البندقية التي كانت هي والعرب المحتكرين الرئيسيين لتجارة التوابل الهنديه ، وقد تمكن هذان الموفدان من الوصول إلى القدس ، إلا أنهما عادا بدون أن يحققا مُهمتهما بشكل جيد ، معتذرين بأن جهلهما اللغة العربية منعهما من الحصول على معلومات مفيدة .

وفي عام ١٤٨٦م أوفد الملك بعثتين ، الأولى بعثة بحرية بقيادة (بارثو لومو دي دياز BARTHOLOMEO DE DIAZ) والثانية بعثة برية من رجلين هما (جون بيريس دي كوفيلها) و (أفونسو دي بافيا) وكلا الرجلين يجيدان اللغة العربية ، وكانت مهمة البعثتين محاولة اكتشاف أكبر ما يمكن اكتشافه من طرق برية أو بحرية موصلة إلى الهند ، وكذلك معرفة موقع مملكة (القديس يوحنا PREST JOHN) وهي الحبشة في يومنا هذا ، تلك المملكة التي دارت حولها الكثير من الأساطير والخرافات في أوربا كونها مملكةً مسيحيةً تقع في افريقيا محاطة بدول إسلامية ، وقد كان الملك البرتغالي متلهفاً للوصول إلى تلك المملكة لغرض معرفة موقعها ، وفيما إذا كان لديها سواحل بحرية توصله إلى الهند ، وهل تمتلك زراعة التوابل .

وكانت أحسن مفاجأة للملك عندما تمكن البحار (بارثولو ميودي ديـــاز) من الوصول إلى نهايـــة الساحـــل الغربـــي لأفريقيا وسط عواصف وبحر هائج الموج واستطاع أن يدور بسفنه حول الرأس الذي كان اسمه (رأس الشيطان) كما هو في خريطة الأمير هنري الملاح ، وأدرك أنه قد غيّر اتجاه المسير الآن ، وهـــا هـــو ينظر إلى البحر الذي قد يوصله إلى الهند والشرق ، فأقفل راجعاً إلى لشبونه ، وقابل الملك دون جوان الثاني وأخبره باكتشافه العظيم وقال له : إن هذا الرأس الافريقي هو رأس العواصف فأجابه الملك قائلاً : بل هو رأس الرجاء الصالح (CAPE OF GOOD HOPE) وكان ذلك في ديسمبر من عام ١٤٨٧ ، بعد رحلة استغرقت ستة عشر شهراً وسبعة

عشر يوماً[٥] .

أما (دي كوفيلها) و (دي بافيا) فقد غادرا لشبونه يوم ٧/ ٥/ ١٤٨٧ ، واتجها بحراً نحو مدينة (نابولي) الإيطالية ثم إلى جزيرة رودس ، ومنها إلى الاسكندرية ، ثم إلى القاهرة ، حيث تظاهرا هناك بأنهما تاجران يرغبان الذهاب إلى الشرق ، والتقيا بتجار عرب كانوا يريدون الذهاب إلى عدن فقررا السفر معهم وحصلا منهم على تفاصيل عمليات التفريغ والشحن وأنواع السفن وأسماء التجار والشركات العربية والهندية التي تحتكر تجارة التوابل الهنديه بين الهند والبلاد العربية خاصة مصر ومملكة البندقية الأوربيه وثبّتا مكان ومصدر التوابل الهنديه في ميناء (كالي كوت) في الهند .

ثم ركبا سفينة أخذتهما إلى ميناء (سواكن) في السودان ومن سواكن وصلا إلى ميناء عدن في اليمن . وفي عدن قررا أن يفترقا على أن يذهب (دي كوفيلها) إلى الهند و(دي بافيا) إلى مملكة القديس يوحنا أي الحبشه ، كما اتفقا على أن يلتقيا ثانية في القاهرة للعودة سوية إلى لشبونه . ومن عدن استقل (دي كوفيلها) سفينة يملكها أحد التجار العرب كانت متوجهةً إلى مدينة (كونانور) الهنديه على ساحل (المالابار) ، وبعد رحلة بحرية وصل إلى الهند حيث توقفت السفينه في مدن (كونانور) و(كالي كات) و(گوا) وكلها تقع في ساحل (المالابار) ، وشاهد هناك المخازن مملوءة بأكداس من التوابل من مختلف الأنواع والأصناف ، وحصل على قائمة أسعار بيعها من الموانىء الهنديه ، وقارنها بأسعار بيعها في أسواق أوربا ، فكانت الفروق كبيرة بحيث دلت على أن الاسراع في الحصول على هذه المنتجات من مواردها الأصليه ، وبيعها في الاسواق الأوربيه ، سيدر أرباحاً هائلة على البرتغال .

وعندما أكمل دراساته ومعلوماته عن الموضوع ، ركب سفينة لتعود به إلى عدن ، ولما توقفت السفينة في جزيرة هرمز ، نزل هناك وحصل على معلومات عن أهمية الجزيرة وموقعها المسيطر على مدخل الخليج وعن تجار التوابل والطرق البحرية المؤديه

(٥) DANVERS المصدر نفسه – ص ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١

إلى البلاد الواقعه على الخليج العربي ، وعن طريقة وصول البضائع الهنديه إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط عن طريق الخليج العربي ، ثُم غادر هرمز متجهاً إلى عدن .

وفي عدن حصل على معلومات جديدة عن الساحل الشرقي لأفريقيا وموقع (سوفاله) و (جزر القمر) ، أي الموزمبيق ومدغشقر . ومن عدن أبحر ثانية متجهاً نحو باب المندب فالبحر الأحمر ، وتوقف في ميناء (زيلع) الصومالي ، ومنه تمكن من الوصول إلى القاهرة ، حيث توقف هناك في انتظار زميله (دي بيفا) .

وبعد أيام من وصوله إلى القاهرة ، وصل إليه رجلان برتغاليان عَرَّفا انفسهما له بأنهما (رابي ابراهام) من مدينة (باجه) وآخر اسمه (جوزيف) من بلدة (ليماكو) ، واخبراه أن (دي بيفا) قد مات ، وأنه عندما علم الملك بذلك كلفهما بمهمة الاتصال به ، فسافرا إلى الشرق ووصلا بغداد ومنها إلى فارس ، ثم إلى جزيرة هرمز ، وإنهما يحملان رسالة من الملك إليه ، وكانت الرسالة أن يُعطي كافة المعلومات التي لديه عن الرحلة إلى الرجلين ، وأن يتوجه بنفسه إلى الحبشة لاتمام المهمة .

وهكذا أعطى كل المعلومات التي يعرفها إلى جوزيف ، وقرر أن يأخذ معه ابراهام إلى الحبشة . فسافر جوزيف بالمعلومات إلى الملك . أما دي كوفلهام وابراهام فقد قررا الذهاب إلى هرمز أولاً للحصول على معلومات أكثر عن الجزيرة ذات الموقع الاستراتيجي الهام في السيطرة مستقبلاً على تجارة الهند ، وقد تمكنا من الوصول إلى هرمز وأنجزا المهمة هناك ثم عادا إلى عدن ، ومن عدن أبحرا إلى الحبشة ، وفي الحبشة قابلا ملكها وشرحا له أهداف الرحلة ، فرحب بهما ، كما أعطاهما هدية ثمينة هي تاج ذهبي مطعم بالفضة وقال « إن هذه الهدية من الولد لوالده ، وإنني الولد والوالد هو ملك البرتغال ، وإنني أطلب منه معونةً وجيشاً لكي أقاتل به المسلمين ، واسترجع منهم بيت المقدس » .

وبعد ذلك فإن دي كوفيلها سَلَّم التاج والرسالة إلى ابراهام وأخبره أن يوصلها إلى ملك البرتغال ، أما هو فقد فضل العيش في الحبشة ، فاستقر فيها وتزوج من حبشية ومات بعد ثلاثة وثلاثين عاماً(٦) .

أما بالنسبة للعلاقات المغربية - البرتغالية ، فإن بعض المصادر التي لدينا تفيد أن مدن (أزمور) و (أسفي) كانتا قد سقطتا بيد القوات البرتغالية منذ أن تولى الملك دون جوان الثاني الحكم عام ١٤٨١ ، وأنه قد أحكم قبضته هناك ، واتخذ من مدينة (أسفي) محطة تجارية بين غانا والبرتغال . كما تشير بذلك رسالة بعثها هذا الملك إلى أهالي المدينة مؤرخة في سنه ١٤٨٨ ، استهلها بقوله : (من دون جوان بنعمة الله سلطان البرتغال والغربيين المحيطين بالبحرية وصاحب كناوة الذهبين . . الخ) . يؤكد فيها رضاه عنهم ويطلب منهم رفع الأعلام البرتغالية وتأدية يمين الطاعة ، على أن يرسلوا له كل شهر ٣٠٠ مثقال ذهباً ، أو قيمتها مع إقامة دار للتجارة في المدينة التي سيستقر فيها التجار البرتغاليون .

أما أهالي مدينة (أزمور) فقد بعثوا للملك البرتغالي رسالة يعربون فيها عن طاعتهم وخضوعهم لحمايته ويؤكدون له الجزية السنوية وهي (عشرة آلاف شابل) كما يخبرونه بأنهم لن يأخذوا من المراكب البرتغالية ضرائب وكذا التجار البرتغاليون الذين سيتاجرون معهم ، وكعربون على طاعتهم فقد رفعوا الأعلام البرتغالية على بيوتهم ، ويرجون من الملك البرتغالي أن يخبر ملوك النصارى أن لا تتعرض سفنهم لمراكبهم في البحر(٧) .

إلا أن ذلك لا يعني أن المقاومة العربية قد انتهت في المغرب ، إذ تذكر لنا بعض المصادر خبر معركة عظيمة وقعت بين الطرفين في منطقة (وادي اللوكوس) قرب مدينة (العرائش) ، غير أن تفاصيل الأحداث وكيف دارت المعركة ، لم تذكرها المصادر البرتغالية ولا المغربية بشكل دقيق ، إذ يُفهم أن محاولة إنزال بحرية برتغاليةً

---

(٦) DANVERS المصدر نفسه - ص ٣١ ، ٣٢ .

(٧) النص التفصيلي للرسالة في كتاب الدكتور ابراهيم شحاته حسن - ص ٤٠ ، والدكتور عبدالكريم كريم - المصدر نفسه - ص ١٥ .

جرت على جزيرة اسمها (مليحه) تقع مقابل مصب نهر يجري في الوادي ، ثم تقدمت السفن البرتغالية داخل النهر الذي يجري في الوادي ، فلما علم السلطان محمد الشيخ الوطاسي بذلك أسرع بقواته إلى هناك ووصل إلى مصب النهر وقام بسده بالحجارة ، وبذلك حاصر القوات البرتغالية في الوادي ، وانتهى الأمر بعقد هدنة انسحبت على أثرها القوات الغازية بعد تخريب قلعة لهم كانت هناك باسم (قلعة كراسيوسا) .

إلا أن مصدراً آخر لدينا يقول إن مدينة (العرائش) المغربية التي تقع على مصب وادي الكوس قد سقطت هذا العام بيد البرتغاليين[8] .

وفي أواسط أفريقيا تمكن رحالة ومستكشف برتغالي اسمه (دي فيرو) من الوصول إلى (نيجيريا) واستطاع الدخول إلى العاصمة (بنين) وهناك قابل الملك وشرح له مهمته بصفته ممثلاً لملك البرتغال وتمكن من عقد اتفاقيه تجارية لتبادل البضائع بين البلدين ، واستخدام ميناء المدينة لرسو السفن وكذلك وافق ملك نيجيريا على السماح للبرتغاليين أن يرسلوا مبشرين دينيين للتبشير بالمسيحية هناك[9] .

وقبل أن يموت الملك البرتغالي يوحنا الثاني ، فإن التنافس بين إسبانيا والبرتغال كان على أوجه ، وظل التنافس قائماً إلى أن وصلت إسبانيا جزر البحر الكاريبي على يد البحار الجنوي (كريستوفر كولومبس) في اكتوبر ١٤٩٢ ، وهو العام نفسه الذي سقطت فيه (غرناطة) المملكة العربية الأخيرة في الأندلس في إسبانيا ، فكان ذلك نهايةً لكل أثرٍ عربي في إسبانيا وشبه جزيرة آيبيريا .

وفي ٧/ يونيو/ ١٤٩٤ عقدت الدولتان إسبانيا والبرتغال اتفاقيتهما الشهيرة (توردسيلاس TORDESILLAS) لتقسيم أقاليم ما وراء البحار غير المكتشفة بينهما ، على أن يكون ذلك التقسيم بجعل المستعمرات الشرقية المكتشفة من نصيب البرتغال ، والمستعمرات الغربية من نصيب إسبانيا على مدى خطوط الطول من مسافة ٣٦٠

(٨) الدكتور ابراهيم شحاته – المصدر نفسه ص ٨٢ وكذلك د . عبدالكريم كريم – المصدر نفسه – ص ٣١ .

(٩) آدم عبدالله الألوري – موجز تاريخ نيجريا – ص ٤٥ .

مرحلة غربي جزر الرأس الأخضر ، أما بالنسبة للتقسيمات الاستعمارية للبلدين في شمال افريقيا ، فطبقاً لإتفاقية سابقة كان قد تم عقدها فإن التوسع الإسباني سيبقى في دول الجزائر وتونس وليبيا ، أما التوسع الاستعماري البرتغالي فسيكون غرباً ، أي من خط طول ٢ شرقاً إلى الغرب .

وقد لاحظنا كيف كانت التحركات العسكرية لكلا البلدين ، فإلى التاريخ أعلاه كانت موانيء (مليله) و (بادس) المغربيتان اللتان تقعان على ساحل البحر الأبيض المتوسط بيد الإسبان وكذلك منطقة سانتا كروز في الجنوب الغربي على المحيط الأطلسي بيدهم أيضاً ، أما بقية الموانيء المغربية المطلة على المحيط فقد كانت بيد البرتغال . وقد بارك وصادق على هذا الاتفاق البابا إسكندر السادس .

وفي ٢٥/ اكتوبر/ ١٤٩٥ مات الملك البرتغالي يوحنا الثاني (DOM JOAO II) وخلفه في الحكم ابنه (الملك مانويل KING MANOEL) (١٤٩٥-١٥٢١) ، الذي كان يحترق شوقاً للوصول بحراً إلى الهند ، فقام بدراسة كافة التقارير التي أعدتها البعثات الاستكشافية عن الطريق البحري الذي يلف حول رأس الرجاء الصالح ، كما درس تقارير الموفدين الذين سبق أن وصلوا عن طريق البر إلى البلاد العربية والهند ، فزاد ذلك من قناعته بأن الطريق إلى الهند يمكن الوصول اليه بحراً إذا ما تم الالتفاف حول سواحل أفريقيا والوصول إلى مداخل البحر الأحمر ، وقد أكد له مستشاره اليهودي ابراهام زاكوت الأهمية الاقتصادية للوصول إلى الهند ، وهي احتكار تجارة التوابل والبضائع الهنديه ، وأن احتكار البرتغال لهذه التجارة سيضعف مركز مصر ، ويجعلها عاجزة عن أية قدرة عسكرية ، كما أن الوصول إلى مملكة القديس جون أي الحبشه سيساعد على إحكام السيطرة على الساحل الافريقي الشرقي ونشر المسيحية هناك .

اختار الملك مانويل قائداً للرحلة البحريه وهو (فاسكودي غاما VASCO DA GAMA ابن (استافودي غاما) الذي كان يشغل منصب مدير حسابات القصور الملكية ، وكانت سفينة القيادة (سانت جبرائيل) بقيادة (فاسكو دي غاما) نفسه ،

والسفينة الثانية (سانت ميشيل) بقيادة (باولو دي غاما) أخو فاسكو ، والسفينة الثالثة (بيريو) بقيادة (نيكولا كويلهو) ، وتراوحت حمولات السفن ما بين ١٢٠ طناً إلى خمسين طناً ، لذلك فقد تم تخصيص ١٦٠ رجلاً لهذه الرحلة . وكانت سفينة القيادة مجهزةٌ بعشرين مدفعاً ، إلا أن الملك أمر بمضاعفة عدد المدافع وطلقاتها ، كما أمر أن يُرفَعَ على ساريتها علم البرتغال الذي يحمل شعار الملك ، وقد رُسم على أشرعة المقدمة والمؤخرة شعار الصليب ، وتم شحن السفن بالذهب والهدايا وعدد من الافارقة ليكونوا مترجمين في الرحلة ، كما التحقت سفينة رابعة بالحملة اسمها (أوساريو) ، وأقلعت الحملة في يوم ٢/ ٦/ ١٤٩٧ وتمكنت من الالتفاف حول رأس الرجاء الصالح بعد ثلاثة أشهر تقريباً[١٠] .

وقد واجهت الرحلة مصاعب كثيرة ، فأوشك بعض البحارة على إعلان العصيان والعودة إلى لشبونه ، وفي الطريق أصيبت السفينة التي يقودها (نيكولا كويلهو) بعطب شديد ، مما جعلها تتأخر عن إتمام الرحلة ، ولكن بقية السفن بقيادة دي غاما تمكنت من إكمال رحلتها بعد أن انتقل اليها قبطان وبحارة السفينة العاجزة ، وفي أوائل عام ١٤٩٨ وصلت السفن إلى مدينة (ملندي MELIND) وهي مدينة تقع على ساحل البحر في دولة (كينيا) في يومنا هذا وهناك علم (دي غاما) أنه يواجه البحر الذي سيأخذه إلى الهند . ولكن كيف يصلُ إلى هناك ، وما هو الطريق البحري الذي يجب عليه أن يسلكه ؟ . . هذا ما كان يجهلهُ .

قبل أن ندخل في تفاصيل ما فعله دي غاما أثناء وجوده في (ملندي) وقصة إبحاره منها ووصوله إلى الهند وقصة الدليل الذي أوصله إلى هناك ، لا بد أن نتطرق بالحديث عن ما فعله عندما وصل إلى الموزمبيق وممباسه والوحشية والعنف اللذان اتسمت بهما تصرفاته وطباعه ، وهي السمة التي لازمت البرتغاليين في كل تصرفاتهم مع الشعوب والأمم التي استعمروها خلال فترة حياتهم كأمة مُستَعمِرة ، إذ يذكر لنا أحد المؤرخين الانجليز وهو (فنسنت جونز) في كتابـــه (الإبحار في البحَرَ الهندي) قائلاً :[١١]

---

(١٠) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٤٥ .

(11) SAIL THE INDIAN SEA - VINCENT JONES P. 64.

إنه عندما تمكن دي غاما وسفنه من الالتفاف حول رأس الرجاء الصالح ، ووصل إلى الموزمبيق ، فإن أهالي البلاد تجمعوا على الساحل وأظهروا لهم لقاءً حاراً ظناً منهم أنهم أتراك (يقصد مماليك دولة مصر) ، إلا أنهم أصيبوا بخيبة أمل عندما شاهدوا الصلبان مرسومة على أشرعة السفن وعلى الاعلام التي ترفرف على صواريها .

وفي اليوم التالي قام حاكم البلاد بزيارة إلى السفينة (سانت جبرائيل) ، فاستقبله دي غاما بحفاوة ودعاه إلى تناول طعام الغداء وتكلم معه بواسطة مترجمه (فرنان مارتين) الذي تعلم العربية في المغرب فعلم منه أن تجارة الذهب قليلة هناك ، وأن معظم المتاجرين بها هم العرب والمسلمون ، كما علم أن مملكة القديس جون (الحبشه) ليست بعيدة عن الموزمبيق ويمكن الوصول اليها براً أيضاً .

وفي اليوم التالي وصل إلى السفينة هندیان ، قالا إنهما مسيحيان ، حيث راحا يؤديان الصلاة المسيحية أمام الصليب ، وأخبرا دي غاما أنهما مستعدان للإدلاء بأية معلومات يحتاج اليها ، واتفق دي غاما معهما على أن يلاقياه في اليوم التالي ، إلا أنهما لم يحضرا إليه فعلم أن المسلمين اعتقلوهما ، لذلك فقد أمر بجلب بحارين مُسلمين من الساحل ، فلما جيء بهما ، أخبرهما أنه يرغب أن يشتغلا معه ويدلاه الطريق إلى الحبشة لقاء (ثلاثين كراون ذهب) لكل واحد أي حوالي (١٣٠ غرام) ، وأمر أن يبقى أحد البحارين في السفينة كرهينة ، وأن يُسمح للآخر بالنزول إلى المدينة لإخبار أهله ، إلا أن هذا البحار وحالما نزل إلى المدينة ذهب إلى الحاكم وشرح له ما حدث ، ثم هرب مختفياً ، ولما لم يعد في مساء اليوم التالي أمر دي غاما ستة قوارب مسلحة أن تذهب إلى المدينة للتفتيش عنه ، وعندما وصلت القوارب إلى الساحل شاهد البرتغاليون صفاً من الأهالي المسلحين يقفون على الساحل وقد بدا عليهم الاستعداد للقتال فعادت القوارب مسرعة إلى السفن ، وأخبر بحارتها دي غاما بما حدث على الساحل ، فأمر دي غاما أخاه (بولو) أن يضع سفينته في وضع يمكنها من إطلاق النار على الساحل ، على أن تسندها السفينة (بيريو) ، ثم أطلقت السُفن نيرانها

على حشود الأفارقة المتجمعين على الساحل ، ففرقت جمعهُم .

وفي صباح اليوم التالي رفعوا الأشرعة وانتقلوا إلى مكان يبعد ثماني كيلومترات تقريباً عن الأول ، وكان ذلك في يوم الأربعاء ١٤/ مارس/ ١٤٩٨ .

ونظراً لعدم ملاءمة الريح للإبحار شمالاً ، فإن دي غاما قرر البقاء هناك لعدة أيام ، حيث وصله موفد من الحاكم يعرض عليه اقتراحاً بالمصالحة ، كما أنه حصل على دليل مسلم موزمبيقي وافق أن يذهب معه كدليل في الرحلة .

إلا أن ما حدث في صباح اليوم التالي هو أن عدداً من الأهالي تجمعوا على الساحل للتطلع على السفن ، فاعتبر دي غاما هذا الفعل عدائياً ، وأمر سفنه بفتح النار عليهم ، وفي اليوم التالي ، جهز بعض رجاله للنزول إلى الساحل ، إلا أن الأهالي رشقوهم بالحجارة ، فأمر بقصف المدينة لمدة ثلاث ساعات ثم أرسل على الدليل المسلم الذي كان قد وضعه في السجن وأمر بربطه على عمود في السفينة تحت الشمس المحرقة ، إلى أن تشقق جلده وتفطر وخرج الدم منه ، فأمر بفك وثاقه وجلبه وأجبره أن يعترف على مكان القصر الملكي وخُطَط الأهالي للهجوم . ثم أمر بشحن سفنه بالطعام والماء ، وفي يوم ٢٩/ ٣/ ١٤٩٨ أقلع شمالاً إلى أن وصل إلى مدينة (كيلوا KILWA) الواقعة في دولة تانزانيا في يومنا هذا ، فحسبها جزءاً من مملكة الحبشة ، ثم وصل إلى مدينة (ممباسه) التي تقع خلف جزيرة زنجبار بتاريخ ٦/ ٤/ ١٤٩٨ .

وفي ممباسه لاحظ البرتغاليون أن المدينة قد استعدت للقائهم بشكل سلمي ، حيث رفع الأهالي الأعلام على المباني والسفن وراحوا يقرعون الطبول ، وبعد ساعتين من الوصول جاء إليهم مركبٌ من نوع (داو) محملٌ بهدايا من ملك ممباسه ، نقلها إلى دي غاما أربعة من الهنود المسيحين ، ووجهوا إليه الدعوة لزيارة الملك ، وبالمقابل أمر دي غاما أربعة من رجاله بالذهاب إلى الملك وإخباره أن دي غاما يريد السلام والصداقة ، واستمرت تلك العلاقة الجيدة لمدة يومين . وفجأة هبت عاصفة دفعت بسفينة القيادة البرتغالية إلى أن تصطدم بأرض رملية ، وفيما كان دي غاما وبحارته منشغلين

بتخليص السفينة من القاع التي غرزت فيها فإن الدليل المسلم الموزمبيقي وزميل له كان قد حضر بنفسه إلى السفينة لزيارة صديقه فسجنه دي غاما حاولا الهرب من السفينة البرتغالية إلى سفينة عربية ملاصقة لها ، إلا أنهما لم يتمكنا من ذلك ، فألقي القبض عليهما وأمر دي غاما بربطهما بالحبال ثم أمر بتعذيبهما بسكب زيت الزيتون الملتهب على جسميهما العاريين ، حيث يُبَاشَرُ بالسكب على الظهر ثم الصدر ثم البطن ثم الاعضاء التناسلية ، ثم قاموا بكسر كتف الأول ، فلما علموا بأنه يوشك أن يموت ألقوه في البحر ، أما الثاني فقد مات في صباح اليوم التالي وألقوا بجثته في البحر أيضاً .[٢]

فلما علم (ملك ممباسة) بذلك الأمر ، وكان قد وصل إلى علمه أيضاً ما فعله البرتغاليون في الموزمبيق ، قرر أن يقاتلهم ويطردهم من البلاد ، وفي مساء ذلك اليوم جهز جماعة من مقاتليه وأمرهم بالذهاب سباحة إلى السفن البرتغالية وقطع الأسلاك والحبال التي تربط السكّان أي عجلة القيادة بالدفة ثم قطع حبال المرساة ، وبذلك فإن السفن البرتغالية ستندفع بفعل التيارات المائية ولا يمكن السيطرة عليها ، وبعد منتصف الليل إندفعت جموع المقاتلين من أهالي ممباسة وهم يسبحون في الماء إلى السفن البرتغالية ، وانقسموا إلى مجموعتين ذهبت الأولى إلى السفينة (بيريو) ، والثانية إلى السفينة (سانت روفائيل) ، إلا أن حرس السفينة (بيريو) شعروا بالمهاجمين فانطلقت صيحات الإنذار من أفواه البرتغاليين : « اقتلوا هؤلاء الكلاب فإن إلهنا سيمنعهم من تحقيق النصر لأنهم كُفاّر . » وفتحوا عليهم النار وأبادوهم جميعاً . وهكذا فشلت خطة ملك ممباسة .

وفي ١٣/ ٤ ، قرر دي غاما أن يغادر ممباسه متجهاً نحو الشمال ، إلا أنه اكتشف أنه بحاجة إلى دليل يدله على الطريق البحري ، وبينما هو كذلك إذ به يشاهد من بعيد (سمبوّقاً) أي سفينة صغيرة تحمل بعض الأهالي ، فأمر مسلحيه باللحاق بهم

(١٢) VINCENT JONES - المصدر نفسه - ص ٦٥ .

واعتقالهم ، ولما تم لمسلحيه ذلك جيء بهم إليه فوجدهم سبعة عشر راكباً من بينهم أحد وجهاء مدينة ممباسه ومعه زوجته ، فأخبره دي غاما أن يدله على الطريق إلى الهند ، إلاّ أن الممباسي أخبره بأنه سيأخذه إلى مدينة (ملندي) ، حيث توجد في مرسى ميناء المدينة سفناً كثيرة تعود إلى هنود مسيحيين من منطقة (كامباي) الهنديه ، وأنه سيتمكن ولا شك من الحصول على دليل من هناك .

ولما وصل دي غاما إلى (ملندي) التي تقع في كينيا في يومنا هذا ، طلب من الوجيه الممباسي أن يذهب إلى حاكم المدينة ويبلغه تحياته ورغبته في السلام ، وأن ما يحتاجه هو دليل بحري يدله على الطريق إلى الهند .

فلما عاد الممباسي بعد المقابلة كان معه اثنان من رجال الحاكم ومعهم هدايا ، واخبراه بأن الحاكم يرغب بالتعاون وأنه مستعد لمنحه الدليل الذي سيوصله إلى الهند ، فأجابهم دي غاما بأنه مسرور لهذا الجواب ، وأنه سيدخل بسفنه إلى ميناء المدينة غداً .

وفي اليوم التالي خرج حاكم ملندي لاستقبال سفن دي غاما وعُزِفَت الموسيقى وقُرِعت الطبول ابتهاجاً ، وصعد حاكم ملندي إلى سفينة دي غاما حال وصولها ورحب به ودعاه إلى النزول ضيفاً عنده في بيته ، وفي صباح اليوم الثاني أعاد دي غاما الزيارة للحاكم ولكنه أبقى في السفينه موفد الحاكم وهو ولي العهد كرهينة لحين عودته من الزيارة .

وانتهت الزيارة الودية وعاد دي غاما إلى السفينة فشاهد جمعاً من الهنود يقفون على الساحل في انتظاره فعلم منهم بأنهم هنود مسيحيون يرغبون بأداء الصلاة في سفينته ، فسمح لهم بالصعود ، وهناك راحوا يؤدون الصلاة أمام صور السيد المسيح (ع) والسيدة العذراء والصليب . ثم تعالت هتافاتهم : « المسيح . . المسيح » ، وعرضوا عليه أن يساعدوه في مهمته ، وحذروه من التعامل مع المسلمين فدعاهم دي غاما إلى وليمة عشاء في مساء اليوم نفسه وأطلقت مدافع السفن نيرانها ابتهاجاً بالحفل .

وبعد يومين من الوصول ، وعندما كان دي غاما متلهفاً للحصول على الدليل البحر الذي سيدله على طريق الهند ولما لم يَبدُ تجاوب من حاكم بلدة ملندي ، فإنه أرسل أحد رجاله لمقابلة ولي العهد الذي كان عنده في السفينة سابقاً ، فاستجاب ولي العهد وأرسل له رجلاً كهلاً ومعه بعض المرافقين على ظهر سفينة (داو) ، وصعد الرجل ومرافقوه إلى السفينه (سانت جبرائيل) . فاستقبله دي غاما ومعه زمرة المستكشفين المغامرين من البرتغاليين وهم يقفون أمام الرجل الذي يمثل عشرات السنين من التجربة والخبرة في علوم البحر ، تلك التجربة والخبرة التي تمثل أيضاً تجارة العالم الكبرى ، والتي آن الأوان للبرتغاليين أن يستثمروها وأن يدمروا كل الدول المستثمرة وكل التجار الذين طالما استفادوا من تلك التجارة ومن الطرق البحرية المؤدية من الشرق إلى الغرب(١٣) .

فمن كان هذا الدليل البحري ، الذي أوصل دي غاما إلى الهند ، وبذلك قلب كل الموازين السياسية التي كانت سائدةً في العالم آنذاك ، وجعل من البرتغال أكبر دولة استعمارية عرفها العالم لمدة قرن من الزمان تقريباً ؟

إن كل المصادر البرتغالية تقول إن الدليل البحري لفاسكو دي غاما ، رجلٌ هندي من منطقة (كُجُرات) أو (جُوزورات) الهنديه (GUJERATI) القريبة من بومباي اسمه (ماليمو كانا) ويكتب بالبرتغالية (MALEMO CANA) وقد تلفظ كانا الأخيرة (-CANA QUA)(١٤) أما بالنسبة لجنسيته فقالوا عنه إنه (مورو) وتكتب بالبرتغالية (MOURO) ويعنون بها المسلم وكذلك العربي المغربي أو العربي بصورة عامه وهم في الغالب يخلطون بين تلك المعاني ، فحددوا جنسيته بأنه (MOURO GUAZARAT) أي مورو من منطقة كجرات الهنديه ، كما أن أقدم كتاب انجليزي مترجم عن البرتغاليه في عام ١٦٩٥م وعنوانه : HISTORY OF THE DISCOVERY OF INDIA ومؤلفه رجل اسمه (MANUEL DE FARIAY SOUFA)

---

(١٣) VINCENT JONES – المصدر نفسه ص ٦٨

(14) COSTA BROCHODE-OPILOTO ARABE DE VASCO DA GAMA. LISBOA 1959.

ومترجمه إلى الانجليزيه(CAPT. JOHN PAULS) يقول عن الدليل ، إنه (مورو) من كنجرات الهنديه واسمه (ماليمو كانا) ، وعن هؤلاء نقل وكتب كُل من أرّخ لوصول فاسكو دي غاما إلى الهند ، وذكر شيئاً عن هوية الدليل الذي دلّهُ على الطريق .

أما العرب فقد ذكروا أن الذي أوصل دي غاما إلى الهند هو البحار العربي أحمد بن ماجد . وقد ورد هذا الخبر في مصدر عربي واحد ، هو كتاب (البرق اليماني في الفتح العثماني) لمؤلفه المؤرخ ، قطب الدين النهروالي إذ قال ، في الفصل الثاني من الكتاب تحت عنوان (في ذكر انتقال الدولة باليمن من بني طاهر إلى الأمير حسين من الجراكسه) ما يلي :

« وقع في أول القرن العاشر ، من الفوادح والنوادر دخول الفرتقال اللعين ، من طائفة الفرنج الملاعين إلى ديار الهند ، وكانت طائفة منهم يركبون من زقاق سبته في البحر ويلجون في الظلمات ويمرون بموضع قريب من جبال القمر ، بضم القاف وسكون الميم جمع أقمر ، أي أبيض وهي مادة أصل بحر النيل ، ويصلون إلى المشرف ويمرون بموضع قريب من الساحل ، في مضيق أحد جانبه جبل والجانب الثاني بحر الظلمات في مكان كثير الموج لا تستقر به سفائنهم وتنكسر ولا ينجو منهم أحد ، واستمروا على ذلكَ مدة وهم يهلكون في ذلك المكان ، ولا يخلص من طائفتهم أحد إلى بحر الهند ، إلى أن خلص منهم غراب[١٥] إلى الهند ، فلا زالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر ، إلى أن دلهم شخص ماهر يقال له أحمد بن ماجد ، صاحبه كبير الإفرنج وكان يقال له (إلى ملندي) وعاشره في السكر ، فعلمه الطريق في حال سكره وقال لهم : لا تقربوا الساحل من ذلك المكان ، وتوغلوا في البحر ثم عودوا ، فلا تنالكم الأمواج ، فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم ، فكثروا في بحر الهند ، وبنوا في (كوّه) في بلاد (الدكن) قلعة يسمونها (كوتا) ثم أخذوا (هرموز) وتقوّوا هناك ، وصارت الإمدادات تترادف عليهم من البرتغال ، فصاروا

---

(١٥) الغراب : تسمية لنوع من السفن .

يقطعون الطريق على المسلمين أسراً ونهباً ، ويأخذون كل سفينة غصباً ، إلى أن كثر ضررهم على المسلمين ، وعم أذاهم على المسافرين »[١٦] .

كان ذلك هو المصدر العربي الوحيد عن أحمد بن ماجد وفاسكودي غاما وقصة الوصول البرتغالي إلى الهند .

فكيف انتقلت قصة ابن ماجد إلى المؤرخين الأوربيين . . ؟

هذا الكتاب أي (البرق اليماني) عثر عليه أحد عُلماء اللغة العربية من فرنسا وهو (البروفسور ديفيد لوباس PROFESSOR DAVID LOPES) فقام في عام ١٨٩٢ بترجمة النص الذي ورد فيه اسم ابن ماجد في الكتاب المذكور ، إلا أن هذا الاكتشاف لم يثر اهتمام أحد من الأوربيين آنذاك .

وفي عام ١٩١٣ قام عالم فرنسي آخر هو (جبرائيل فيراند G. FERRAND'S) بدراسة خارطة بحرية قديمة تعود إلى أمير البحر التركي (علي شلبي) ، ويسمى أيضاً سيدي علي ريس وكذلك علي بن حسين وهو الذي قاتل البرتغاليين في الخليج العربي عام ١٥٥٨م ، وقد ألف كتاباً اسمه المحيط ترجم فيه أراجيز أحمد بن ماجد ، وقد استسلم علي شلبي للبرتغاليين عام ١٥٨٨ عندما كان يقاتلهم في (ممباسه) ، فكانت هذه الخارطة من جملة الاشياء التي استولى عليها البرتغاليون ، وهي تعتبر إحدى العجائب لدقتها في وصف تعاريج الساحل الأفريقي الغربي ، فظهر لفيراند أن الخارطة مرفقة بمخطوطات تعود إلى عدد من البحارة العرب ، منهم أحمد بن ماجد .

فتح ذلك الاكتشاف أمام (فيراند) مجال البحث والتنقيب عن هوية ابن ماجد فحقق ما كتبه وذكره البروفسور لوباس نقلاً عن البرق اليماني . وفي الوقت نفسه اكتشف البروفسور الروسي جوموفسكي (T. A. CHUMO VSKY) مخطوطات عربية في

(١٦) قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكي – البرق اليماني في الفتح العثماني – ص ١٨ .

قسم معهد الدراسات الشرقية التابع للمجمع العلمي السوفيتي في (لينغراد) تعود إلى أحمد بن ماجد فقام بترجمتها إلى الروسية ، ثم أعاد ترجمتها إلى العربية الاستاذ محمد منير مرسي ، وبعد ذلك فقد صدرت عدة كتب بمختلف اللغات عن أحمد بن ماجد وعن قصة (ماليمو كانا) ، وأخضعت رواية النهروالي للبحث والتدقيق والتحقيق في موضوع هل أن (ماليمو كانا) هو (أحمد بن ماجد) أم أنهما شخصان مختلفان ، كما قام العلماء بترجمة كتب ومؤلفات أحمد بن ماجد ونفوا عنه تهمة (السُكْرْ) التي ذكرها عنه النهروالي وعَدّوه من كبار علماء الفلك والطبيعة والجغرافية[١٧] .

* * *

إن الدراسات التي قمنا بها للبحث عن هوية أحمد بن ماجد تقول إنه من مدينة اسمها (جُلْفار) كانت تقع قرب مدينة (رأس الخيمة) في إمارة رأس الخيمة في دولة الإمارات العربية المتحدة في يومنا هذا ، ولم يعد لها أثرٌ ظاهرٌ الآن ، إلا أنها مذكورة في الكثير من المصادر العربية خاصة كتب التاريخ العُماني ، حيث كانت مركزاً وميناءً لنزول جيوش الدولتين الأموية والعباسية للقضاء على الثورات العُمانية المختلفة للاستقلال بعُمان عن حكم دمشق أو بغداد ، إلا أن هذه المدينة انتهت فجأة من الوجود ، ولم يعد لها ذكرٌ بل حَلّت محلها بلدة اسمها (الصير) ثُم صار اسمها (صير القواسم) ، وأخيراً (رأس الخيمة) التي كانت عاصمة إمارة القواسم في الخليج العربي منذ بداية القرن السابع عشر الميلادي ، وما تبقى الآن من ذكر لابن ماجد هناك ، هو تلٌ يقع في منطقة (الندود) أي التلال الموجودة بالقرب من بلدة رأس الخيمة وتحت أحد هذه التلال يعتقدُ الناس أنه يوجد ركام منزل أحمد بن ماجد .

ترك أحمد بن ماجد عدة مخطوطات هي عبارة عن قصائد على شكل (أراجيز) لا تخضع لقافية واحدة ، وهذه الأراجيز مُبعثرة الآن بين متاحف روسيا وفرنسا ولندن

(١٧) محمد منير مرسي – ثلاث أزهار في معرفة البحار – ص ٧٧ .

والقاهرة ودمشق ، وهي :

١ : كتاب حاوية الاختصار في أصول علم البحار ويحتوي على :

أ)

أرجوزة تحفة القضاة

ب)

أرجوزة بر العرب في خليج فارس

ج)

أرجوزة فلكية عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب

د)

أرجوزة وصف الطريق البحري والبري إلى مكة المكرمة

هـ)

القصيدة الذهبية وهي قصيدة بائية تعالج موضوع الرياح

و)

أرجوزة الفايقه في قياس الضفدع

ز)

أرجوزة القسمة على انجم بنات نعسش

٢ : كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد وينقسم إلى اثني عشر فصلاً ، كل فصل منها يسمى فائدة .

٣ : الأرجوزة (السُفالية) ، وهي أرجوزة تقع في (٧٠٠) بيت شعر ، ومعنى (السُفالية) أي بلاد (سُوفاله) أي الموزمبيق ، وأهمية هذه الأرجوزة ، أن ابن ماجد يؤرخ فيها لوصول البرتغاليين إلى الهند ، كما أنه يعترف ضمناً بأنه دلَّهَمُ على الطريق .

٤ : الأرجوزة المعلقيه

٥ : الأرجوزة التائية

٦ : الأرجوزة المعربة

٧ : أرجوزة كنز المعالمه

٨ : أرجوزة (نتخات) بر الهند

٩ : أرجوزة ميمية الإبدال

١٠ : الأرجوزة المخمسة

ومن الأرجوزة (السفالية) نقتطف الأبيات التالية التي قد تلقي ضوءاً على الموضوع :

الحمد لله الذي أنشأ الملا ... من عدمٍ جَلّ تعالى وعلا
قد كلت الألسن عن أوصافه ... وكم نرى في البحر من الطافه

إلى أن يقول :

وإن ترد من كِلوة سُفالة ... فديرة البر بلا مُحالة(١)
أهلها إسلامٌ تحت الكُفرا ... وحولها شعبٌ طويلٌ بُررا
نزلوا بها الإفرنج علق الموسم ... في عيد ميكال بالتوهم(٢)
قام عليهم موج تلك الرؤوس ... في سُفالة بقى معكوس(٣)
وانقلبت أدقالهم في الماء ... والسفن فوق الماء يا خائي(٤)
غرقى يرون بعضهم لبعض ... وكن عارفاً موسم تلك الأرض
وجا لكاليكوت خذ ذي الفايده ... لعام تسعماية وست وزايده(٥)
وباع فيها واشترى وحكما ... والسامري برطله وظلما(٦)
وسار فيها مُبغضُ الاسلامِ ... والناس في خوفٍ واهتمامِ
وخبرني ما حمله الفرنجي ... من جانب السودان شط اللجي
وهو الذي قهر المغاربة ... وأندلس في حكمه مناسبه
وآخر الافرنج للشمالِ ... جزر كثيرةُ وهم لهم موالي
تجييز عامين كاملين ... فيها ومالوا الهند باليقينِ
واشتروا البيوت ثم سكنوا ... وصاحبو وللسوامر ركنوا(٧)
ورجعوا من هندهم للزنج ... في هذه الطريق الافرنج
والناس تضرب فيهم الظنونا ... ذا حاكمٌ أو سارقٌ أو مجنونا

فيقصدون البر ذاك الحين ... بر الحبش يرسون بالتمكين
ويدخلون هناك في الجبال ... ويكتبون أوراقاً بالأحوال
لكل من يأتي من أرض الهند ... وذا المكان فافهم برشد
وكل جزر جاء اليها ورمى ... رجاله فيها وفيها حكما
وصفتهم حقاً وهذا جُهدي ... ولست أدري ما يكون بعدي

إلى أن يقول :

عَرَّفتها حتى بقى رُبَّانها ... يسالني عنها وعن شُعبانها
فشرحته يا صاحبي والعدّه ... عن الذي رواه لي وعدّه
فقالت الإفرنج بالتحقيق ... إنا كشفناها على الطريق
وسوف تزداد بهذي الطرق ... من الافرنج معرفة وحذق
وخصني والي البلاد بالسفر ... من دون غيري بالهدى والظفر
فقد ركنوا لي والنبي الهادي ... وتركوا من عاين البلاد
فادعوا لي في الموت والحياة ... من الإله غافر الزلات
وصلى الإله في ضياء وسحر ... على النبي المصطفى خير البشر
ما دارت النعوش في الأقطاب ... واهتدت السفن بالسحاب

شرح الكلمات والمعاني :

١ : كلوه وسُفاله : كلوه مدينة تقع في تنزانيا الآن وسُفاله الموزمبيق .

٢ : عيد ميكال : من أعياد النصارى وهو عيد القديس ميخائيل .

٣ : سُفاله : الموزمبيق كما قلنا .

٤ : الأدقال : جمع دقل أي سارية السفينة التي يستند اليها الشراع .

٥ : كاليكوت : مدينة في الهند وتكتب قاليقوط أيضاً وهي أول ميناء وصل إليه دي غاما ، كما سنرى في التفاصيل فيما بعد .

٦ : السامري : لقب مالك كاليكوت ويكتب بالانجليزية (ZAMORIN) .

٧ : السوامر : جمع سامري ، كما هو مشروح في أعلاه .

وينفرد المؤرخ (دينفرز) في مصدره بذكر خبر تاجر مسلم أرسله ملك ملندي مع دي غاما إلى الهند وقد كتب اسمه (DAVANE) ويلقب (TAIBO) ، ولعل أصل هذا الاسم هو (الطيب) وقال عنه ، إنه تاجر كبير يعرف كيف يتعامل مع الهنود . أما بالنسبة للفظة (ماليمو كانا) ، وهي اسم الدليل البحري ، فقد قيل في تعريفها إنها مقسومة إلى قسيمن (ماليمو) أي المعلم أو العالم ، و(كانا) لفظة هندية تعني الفلك ، فالمعنى العام يكون ، (عالم الفلك) ، على كل حال ، فإن قصة الدليل البحري الذي أوصل دي غاما إلى الهند لا زالت غامضة إلى الآن ولم يُبَتُ فيها بشكل نهائي(١٨) .



عندما تمت استعدادات الرحيل ، أمر دي غاما سفنه بالإقلاع متجهاً صوب الهند ، وفي يوم ٦/ ٨/ ١٤٩٨ وصلت السفن البرتغاليه إلى مكان قريب من بلدة (كاليكوت) الهنديه ، وهي بلدة تقع في مقاطعة (كيرالا) على ساحل (المالابار) في جنوب الهند .

كانت بلدة (كالي كوت) الهنديه ، من أهم الموانىء التجارية التي يتم منها شحن وتصدير التوابل والبضائع الهنديه ، وشاهد دي غاما أن ميناء المدينة يعج بسفن عربية كثيرة ، أغلبها مصرية .

وعندما استشار دي غاما التاجر دافاني (DAVANE) أعلمه برغبته النزول إلى المدينة لمقابلة حاكمها ، نصحه دافاني بالتريث وعدم النزول إلا بعد الحصول على عدد من الرهائن الهنود ووضعهم في السفينة خوفاً من حدوث مالا يُحمد عقباه ، ثم تطوع (دافاني) بأن يذهب بنفسه لمقابلة حاكم المدينة .

كان حاكم المدينة يُعرف باسم (السامري) وهو هندي مسلم ، وكذلك كان أغلب

(١٨) لمزيد من التفاصيل راجع كتاب ابراهيم خوري - أحمد بن ماجد منظر الملاحة الفلكية في المحيط الهندي - منشورات مركز الدراسات والوثائق في الديوان الأميري برأس الخيمة .

سكان كاليكوت ، وفي لقاء دافاني بالسامري ، أخبره السامري بأنه يرغب بمعرفة هوية هؤلاء الناس الغرباء وسبب وجودهم في الميناء ، فقام دافاني بشرح الموضوع للسامري ، إلا أن السامري لم يعطه جواباً شافياً فعاد دافاني إلى السفينة وأخبر دي غاما بعدم رغبة السامري بالتعاون معه .

وبعد ثلاثة أيام وصل مبعوث من السامري إلى دي غاما يطلب منه مغادرة الميناء ، إلا أن دي غاما أصر على مقابلة السامري ، فشكل وفداً آخر من (دافاني) و(خوانونيس) وهو برتغالي يجيد العربية و (نيكولا كويلهو) ومعهم اثنا عشر رجلاً مسلحاً .

وهنا ثار أهالي مدينة كاليكوت عندما شاهدوا الوفد متجهاً نحو قصر الملك ، وذهبوا إلى قاضي المدينة وأخبروه بوجوب الضغط على الحاكم أن لا يقبل التعامل مع هؤلاء الناس ، فقام السامري بحجز الوفد ، ثم أمر بإغلاق الميناء بوجه السفن البرتغالية وعدم التعامل معهم .

فلما علم دي غاما بأمر اعتقال أعضاء البعثة ثارت ثائرته ، فنزل ومعه عدد من المسلحين البرتغاليين إلى رصيف الميناء ، وهناك كانت ثلة من جنود السامري بانتظارهم فاعتقلوهم ووضعوهم في السجن ، إلا أن تهديداً وصل من السفن البرتغالية يأمر السامري باطلاق سراح دي غاما ، وإلا فإن السفن البرتغالية ستقوم بتدمير المدينة بمدافعها ، لذلك فقد أمر السامري بإطلاق سراح المحتجزين وأمر بجلب دي غاما أمامه واعتذر له عما صدر منه ، بينما وجه دي غاما تهديداً للسامري بأن عمله هذا سوف لن يمر بدون انتقام وعقاب .

ولما عاد إلى سفينته اجتمع بضباطه وأخبرهم بما حدث ، إلا أنه لم يقدم على عمل انتقامي بل بالعكس فقد راح يجمع المعلومات التجاريه والاقتصاديه عن المدينة وأحوالها وهو الأساس الذي قامت من أجله الرحلة ، ثم أبحر من هناك متجهاً نحو

مدينة كنانور .

وفي حوالي شهر نوفمبر ، وصلت سفنه إلى مدينة (كنانور CANANOR) الهندية ، وهناك وافق حاكم المدينة على مقابلته ، وعقد معاهدة تجاريه معه .

ومن (كنانور) اتجهت السفن البرتغالية جنوباً حتى وصلت مدينة (كوا COA) وهناك التقى بحاكمها المسمى (سابايو SABAYO) . وفي خلال كل تلك الرحلات كان دي غاما يجمع المعلومات الدقيقة عن أسعار البضائع الهندية ، خاصة التوابل ومصادرها ومخازنها وكيفية شحنها وأسماء التجار الذين يتعاملون بها ، والسفن التي تنقلها وأجور الشحن والنقل وكل ما يخص تجارة الهند التي كان العرب يسيطرون عليها سيطرة تامة خاصة تُجار مصر ، بحيث اقتنع بأنه لن تتمكن البرتغال من احتكار هذه التجارة إلا بعد القضاء على نفوذ الدول العربية التي تتعامل بها .

وعندما انتهت هذه المهمة ، قرر العودة إلى لشبونه ، وفي يوم ٨/ ١/ ١٤٩٩ وصل ثانية إلى مدينة (ملندي) على الساحل الأفريقي وغادرها يوم ٢٠/ ١/ ١٤٩٩ ووصل إلى لشبونه عاصمة البرتغال يوم ١٨/ ٩/ ١٤٩٩ وهناك استقبله الملك مانويل وجماهير الشعب استقبال الأبطال الفاتحين ، وفي الاجتماعات العديدة التي عقدها الملك مع دي غاما ، أطلع الملك على كافة التقارير الاقتصادية والعسكرية وفرح بها وراح يضع الخطط اللازمة للإطاحة بالنفوذ العربي ، فيما أطلق على نفسه لقب : (سيد الملاحة والتجارة مع الحبشه وبلاد العرب وفارس والهند والصين)[١٩] .

LORD OF CONQUEST NAVAGATION AND COMMERCE OF ETHIOPIA, ARABIA, PERSIA, AND CHINA.

(١٩) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٦٤-٦٥ ، وكذلك السير أرنولد ولسون - الخليج العربي - ص ٢٠٧ .

13

الفصل الثالث عشر

* حملة بيدرو الفاريز غابريال (PEDRO ALVAREZ GABRAL) في ١٥٠٠/٣/٩م تكتشف البرازيل بالصدفة .
* حملة (جوان دي نوفا JOAO DE NOVA) في ١٥٠١/٤/١م
* حملة (فاسكو دي غاما) الثانية في ١٥٠٢/٣/٢٥م
* الحملة الرابعة بتاريخ ١٥٠٣/٤/١٤ مكونة من :

١ : مجموعة أفونسو البوكيرك

٢ : مجموعة فرانسيسكو البوكيرك

٣ : مجموعة أنطونيو دي سالدانا

* الحملة الخامسة بقيادة (لوبوسوريش دي البركاريا LOPO SOARES DE ALBERGARIA) بتاريخ ١٥٠٤/٤/٢٢م.

لم يترك الملك مانويل الفرصة تفلت من يده دون استثمار الفوز استثماراً سريعاً للحصول على أكبر احتكار تجاري في أوربا لتجارة الهند ، وذلك بعد أن تم له اكتشاف الطريق البحري المؤدي رأساً من أوربا إلى الهند دون المرور بالممرين المائيين العربيين وهما البحر الأحمر والخليج العربي .

فأمر بإقامة صلوات الشكر في كل كنائس الدولة على هذا النصر ، ثم أمر بتجهيز حملة جديدة للذهاب إلى (كالي كوت) لتأسيس مركز تجاري برتغالي هناك .

ولعلمه بأن الدول العربية والإسلامية التي كانت تستثمر تلك التجارة والتي على

رأسها مصر ، لن تسكت على ذلك ، فقد راح يضعُ الخطط العسكرية لاستعمال القوة ضد العرب والمسلمين لتحقيق التفوق العسكري البحري في بحار العالم المختلفه ، وأهمها المحيط الهندي وبحر العرب والبحر الأحمر والخليج العربي .

وهكذا فقد أصدر أوامره للقائد (بيدرو الفاريز غابريال PEDRO ALVAREZ GABRAL لتجهيز حملة بحرية عسكرية مكونة من ثلاث عشرة سفينة حربية مسلحة بمدفعية قوية ، وعلى متنها الف ومئتا بحار وجندي مقاتل ، وكان معه من القباطنة (بارثولوميو دياز) مكتشف رأس الرجاء الصالح ، وعددٌ آخر من الضباط والتجار والقسس والرهبان ، على أن يكون واجبُ الحملة الذهاب إلى الهند وفتح مركز تجاري في ساحل (المالابار) هناك ، والعودة بأكبر ما يمكن حمله من توابل وتجارة الهند .

غادرت الحملة ميناء (بيليم) البرتغالي يوم ٩/ مارس/ ١٥٠٠ ، وفي يوم ٢٢/ مارس صادفت عواصف هائجة أجبرت إحدى سفنها على العودة إلى لشبونه ، أما بقية الأسطول فقد استمر بالابحار على طول الشاطىء الافريقي ، إلا أن الرياح الهائجة أبعدته رويداً رويداً عن الساحل ، ثم لم يلبث أن ضاع وسط أمواج البحر العاتية وتغير اتجاه السير كلياً عنده بحيث انتهى الأمر بالسفن إلى أن تصل البرازيل في أمريكا الجنوبية ، وكان ذلك في ٢٤/ ٤/ ١٥٠٠ ، وقد أطلق غابريال اسم (فيراكروز VERA CRUS) على المنطقة المكتشفة ثم صار الاسم (SONTA CROZ) ثم تحول إلى البرازيل .

وعندما قرر غابريل العودة إلى أفريقيا ، أبحر عائداً يوم ٢/ ٥ وأمر إحدى سفنه بالتوجه إلى لشبونه لإخبار الملك عن هذا الاكتشاف الجديد ، فباركه الملك وفرح به وأرسل على الفور حملة جديدة لاحتلال البرازيل فيما استمر غابريال بالاتجاه نحو أفريقيا وسط عواصف هائلة بحيث لم يتمكن من الالتفاف حول رأس الرجاء الصالح إلا بست سفن وصل بها إلى بلدة سوفاله في الموزمبيق يوم ١٦/ ٧ ، ثم وصل بلدة ملندي في كينيا يوم ٢/ ٨ ، وأخيراً وصل إلى مدينة كالي كوت الهندية يوم

٣٠/ ٨/ ١٥٠٠ أي بعد ستة أشهر تقريباً من مغادرته ساحل البرتغال[١] .

كان ساحل الهند الشرقي مقسماً سياسياً إلى ثلاث مقاطعات كبيرة هي ، مقاطعة (كُجُرات) وتقع في الشمال ويحكمها ملك مسلم هو مظفر شاه بن محمود بن أحمد شاه ، ثم مقاطعة (مدراس) وتقع فيها مدينة (كَوا) ويحكمها الملك عادل شاه ، والاسم هذا هو لقب كل ملوك (كَوا) حيث يعرفون باسم عادل شاه ، أي الملك العادل ، أما المنطقة الثالثة فهي ساحل (المالابار) في مقاطعة (كيرالا) في الجنوب ، وهناك كانت تتحكم ثلاث زعامات هي :

١ : حاكم مدينة (كالي كوت) المعروف باسم السامري وهو مسلم .

٢ : حاكم مدينة (كوشن COCHIN) .

٣ : حاكم مدينة (كنانور CANANOR) .

وصل غابريال إلى (كالي كوت) وطلب مقابلة الملك السامري وتمكن من عقد معاهدة سلام معه وموافقته على قيام البرتغاليين بفتح مركز تجاري (FACTORY) هناك ، إلا أن الهنود المسلمين وقفوا ضد إنشاء هذا المركز بل راحوا يمنعون السفن التجارية من التحميل من الميناء ، فلما اشتكى غابريال إلى السامري ، ولم يسمع منه رداً مشجعاً قام بفتح نيران مدافعه على جملة السفن العربية الموجودة في الميناء وأحرق اثنتين منها بما فيهما من بحارة عرب[٢] .

وفي يوم ١٧/ ١٢/ ١٥٠٠ قام مسلمو المدينة بشن هجوم على المركز البرتغالي المؤقت الذي تم تأسيسه وقتلوا فيه مديره (آيرسل كوريا) ومعه كل البرتغاليين والهنود المتعاملين معهم ثم قاموا بحرق المكان ، وإزاء ذلك أصدر غابريال أوامره إلى سفنه بفتح النار على المدينة فقصفها لمدة يومين متتالين ، ثم غادر الميناء .

(١) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٦٦ .

(2) A. D. FORTADA - GOA - P 55

وفي الطريق التقى بسفينتين عربيتين قام بحرقهما في وسط البحر ، ثم وصل إلى مدينة (كوشن) الهنديه وهناك التقى بمسيحي عربي من سوريا عرض عليه خدماته كترجمان مع ملك المدينة ، فوافق غبريال على ذلك ونجحت المحادثات مع ملك كوشن في الحصول على امتياز احتكار تجارة التوابل ، وقد شارك تجار المدينة اليهود في انجاح المحادثات وساعدوهم على بناء قلعة وكنيسه ومركز تجاري ، وعيّن غابريال مديراً للمركز وهو (كونزالس باريوسا) وحصل أيضاً على معلومات مفيدة عن التجارة المصرية مع حكومة البندقية الأوربية . وفي المساء قام مسلمو المدينة بحرق المركز التجاري سراً لكن رجاله تمكنوا من إخماد النار ، ثم لم تلبث أن وصلت إلى غابريال دعوات من حكام مدن (كنانور) و (كولان) وغيرها من المقاطعات التي كانت تكن العداء للملك (كالي كوت) تدعوه لزيارتهم وعقد صفقات تجارية معهم ، ثم غادر ساحل الهند عائداً إلى لشبونه فوصلها يوم ٢١/ ٧/ ١٥٠١ ، وهناك قابله الملك مانويل فرحاً مسروراً بنتائج رحلته ، خاصة عندما أفرغت سفنه حمولاتها من كل ما تشتهيه أوربا من توابل وعطور وبضائع هندية اشتراها غابريال بأسعار غاية في الرخص ، بحيث إن بيعها في أوربا سيدر على البرتغال الأرباح الخيالة التي طالما حلمت بها[٣] .

كان ملك البرتغال ، وعندما لم يسمع من غابريال لمدة طويلة قد قرر إرسال حملة ثانية إلى الهند عهد بقيادتها إلى القبطان (جوان دي نوفا JOAO DE NOVA) ومعه أربع سفن حربية للتوجه إلى الهند ، كما أصدر مرسوماً إلى كافة التجار البرتغاليين يذكر لهم فيه أن من يرغب بالمغامرة والسفر إلى الهند لجلب البضائع من هناك باسمه ، فإن عليه أن يعطي للحكومة البرتغالية ربع البضاعة المستوردة والموجودة على ظهر سفينته .

وفي يوم ١٠/ ٤/ ١٥٠١ غادرت حملة دي نوفا لشبونه ووصلت إلى الهند في شهر

(٣) DANVERS – المصدر نفسه – ص ٧٠ .

تموز من نفس العام حيث التقت هناك بممثل المركز التجاري في كنانور الذي أخبرهم بعدم الذهاب إلى (كالي كوت) لأنها غير أمينة بل التوجه إلى مدينة (كوشن) .

وفي الطريق إلى كوشن عَلمَ دي نوفا أن اسطولاً يعود إلى ملك (كالي كوت) يحرس المدينة ، فهاجمه وأغرَق خمس سفن تابعة له ، ثم وصل إلى كوشن حيث جرى إستقبال له وتم شحن سفنه بكميات كبيرة من التوابل والبضائع الهنديه عاد بها إلى لشبونة .

ومن الجدير بالذكر أن جمهورية البندقية وهي الدولة الأوربية المحتكرة الأساسية لتجارة التوابل هناك قد بلغتها المعلومات عن نجاح الجهود البرتغالية في الوصول إلى الهند ، وأن السفن البرتغالية عادت إلى لشبونه محملةً بالتوابل الهنديه ، لكن رد الفعل لم يكن إيجابياً ، حيث اعتقد أهل البندقية أن هذه الرحلات قد تخفقُ في المستقبل أو لربما لم يكونوا يدركون خطرها على تجارتهم بعد .

أما مصر التي كانت تعتمد كثيراً على هذه التجارة ، فهي تقوم بنقل البضائع من موانيء السويس في البحر الأحمر ، إلى ميناء الإسكندرية في المتوسط ، فتبيعها هناك إلى تجار البندقية بأرباحٍ تدعم اقتصادها القومي كثيراً ، فقد كانت هي الأخرى غير آخذة الموضوع جدياً .

كما أن اليمن التي كانت تسيطر على مدخل البحر الأحمر بحيث يشكل ميناء عدن مركزاً لتجمع السفن التجارية القادمة والمغادرة من وإلى الهند ، ويستفيد التجار العرب والهنود المقيمون في اليمن كثيراً من هذه التجارة أيضاً ، فلم تكن عارفةً بما يخبِّئهُ القدر لها ، فقد كانت هي ومصر غارقتين في مشاكل سياسية وانقسامات داخلية كثيرة ، وهو الموضوع الذي سنعرض له بالتفصيل في فصلٍ قـادم .

وفي لشبونه ، أثارت الأخبار التي نقلها إلى الملك قائد الحملة البرتغالية الثانية (جوان دي نوفا) عن مقاومة مسلمي الهند في (كالي كوت) والمتعاونين مع العرب ، للوجود

البرتغالي هناك ، وعن نفوذ حكومة مصر وسيطرتها الكاملة على الحركة التجارية هناك ، فاقتنع الملك بأنه لا بد من القيام بإجراء عسكري يحسم أمر القضاء على الاحتكار العربي - الاسلامي لتلك التجارة ، وكسر شوكة الهنود المسلمين في (كالي كوت) فأمر بتجهيز حملة ثالثة لهذا الغرض وقد اختار قائداً لها ، هو (فاسكو دي غاما) المكتشف الأول لطريق الهند ، فصارت هذه الحملة تعرف باسم حملة فاسكو دي غاما الثانية .

تكونت الحملة من عشرين سفينة ، مقسمة إلى عشر سفن ذات حمولات ثقيلة لشحن المواد التجارية ، وخمس سفن مقاتلة من نوع (كارافيل CARAVELS) مجهزة بمدفعية ثقيلة ، عَهَدَ دي غاما بقيادتها إلى قريبه (أستافو دي غاما) وخمس سفن أخرى مقاتلة من نوع (الفرقاطة) ، وكان عدد مقاتلي الحملة (٨٠٠) جندي مسلحينً تسليحاً حديثاً ، غادرت ميناء لشبونه يوم ٢٥/ مارس/ ١٥٠٢م ، وبعد رحلة بحرية وصلت إلى (سوفاله) أي الموزمبيق فأسس دي غاما مركزاً تجارياً هناك ، وتم تعيين (كونزالوا بيكسو) مديراً للمركز . وفي مدينة (كيلوا) خرج الأمير ابراهيم نائب الملك هناك لاستقباله ، فأبلغه دي غاما أن يقبل بحكم البرتغال لبلاده كرهاً أو طوعاً فلما رفض الأمير ، قام باعتقاله وقصف المدينة بعدة طلقات من مدفعيته ، ثم أخبره بعزمه على حرق المدينة مما أجبر الأمير أن يوافق على طلباته وأن يفتح مركزاً تجارياً برتغالياً هناك ، وأن يدفع جزية سنوية مقدارها ألف جنيه وكمية من الذهب والاحجار الكريمة إلى دولة البرتغال[٤] .

وفي (ملندي) جرى استقبال حار لدي غاما ، وتم تجديد معاهدة الصداقة هناك . وفي يوم ١٨/٨/ ١٥٠٢ أبحر متجهاً نحو الهند ، فوصل أولاً إلى ميناء (دابول DABUL) ، وهناك تصدى له أسطول كاليكوت بقيادة القائد الهندي (خوجا قاسم) فالتحم الاسطولان إلا أن الغلبة كانت للبرتغاليين ، فدمروا الاسطول الهندي ، واحتجزوا سفينة كانت تحمل نساءً هنديات ، ولما تم لهم هذا الأمر اتجهوا نحو

(٤) سبنسر ترمنجهام - الإسلام في شرقي أفريقيا - ترجمة محمد عاطف النواوي - ص ١٤ .

(كنانور) حيث كان (كونزالس باريوسا) مدير المركز التجاري البرتغالي في انتظارهم هنـاك .

قام فاسكودي غاما بشحن سفن النقل بحمولتها من التوابل والبضائع الهنديه ، وعيَّنَ القائد (فنسنت سودرا VINCENT SODRA) قائداً عسكرياً في المدينة وترك معه الثمنمائة جندي والسفن الكارافيل المقاتلة ، وأمر بالقيام بمراقبة السواحل الهنديه وإغراق وحرق أية سفينة تعود إلى كاليكوت أو سفينة تعود إلى (مكة) ، (وهو تعبير يقصد به البرتغاليون سُفن المسلمين أو العرب بصورة عامة ، وليس سفن مكة المكرمة على وجه التخصيص) ، ثم غادر الهند بحمولته الكبيرة من التوابل ووصل إلى لشبونه في الأول من سبتمبر أيلول ١٥٠٣ .

كان رد الفعل الهندي على ذلك العمل أن قام السامري ملك (كالي كوت) بحشد أسطول لغرض ضرب الحكام الهنود المتعاونين مع البرتغاليين خاصة حكام (كوشن) و (كونانور) ، وعندما علم القائد البرتغالي (فنسنت سودرا) بأمر ذلك الحشد ونيته توجه باسطوله إلى مدينة (كوشن) للدفاع عنها . وفي كوشن المدينة ، أوكل (سودرا) أمر حمايتها إلى القائد (دياكو فرناندس كوريا) ، أما هو فقد أخذ معه بعض السفن وقرر الذهاب إلى مدخل البحر الأحمر لاستطلاع ومقاتلة السفن التجارية العربية واصطيادها هناك ، وعندما وصل إلى ساحل مدينة (كمباي) الهنديه ، شاهد وهو في البحر سفينتين عربيتين ، فأوقفهما واستولى على حمولتهما وأحرقهما بركابهما الأحياء .

ثم أبحر متجهاً نحو السواحل العربية ، فوصل جزر كوريا موريا التابعة لدولة عُمان ، إلا أن العدالة الإلهية كانت له بالمرصاد هناك ، إذ ما إن غادر الجزر بسفنه حتى هبت ريحٌ صرصر عاصفة قلبت سفنه وأهلكته هو وأسطوله(٥) .

وعندما وصلت أنباء غرق القائد البرتغالي ، تم تعيين خَلَفهُ (الفارو دي أتيدا -ALVA

(٥) DINVERS - المصدر نفسه - ص ٩٤ .

RO DE ATAIDA) بدلاً عنه ، فيما راح السامري ملك كاليكوت يحشد جيشاً قوامه خمسون ألف مقاتل ، تمكن بعد مدة من شن هجوم على (كوشن) وأنزل هزيمة بحاكمها وكذلك بالحامية البرتغالية الموجودة هناك وأجبرها على التراجع والانسحاب نحو (كنانور) فيما أرسل البرتغاليون سفينة إلى البرتغال أخبرت الملك بما حصل هناك ، فقرر الملك أن يرسل حملةً رابعةً إلى الهند .

تكونت الحملة الرابعة من تسع مدمرات حربية مقسمة إلى ثلاث مجموعات ، كل مجموعة من ثلاث سفن كما يلي :

١ : المجموعة الأولى بقيادة أفونسو دي البوكيرك AFFONSO DE ALBU-QUERQUE .

٢ : المجموعة الثانية بقيادة فرانسيسكو دي البوكيرك FRANCISCO DE ALBU-QUERQUE .

٣ : المجموعة الثالثة بقيادة أنطونيو دي سالدانا ANTONIO DE SALDANHA

وأعطيت الأوامر للمجموعتين الأولى والثانية بالتوجه إلى الهند ومساعدة حامية مدينة كوشن والقضاء على تحركات السامري هناك ، أما المجموعة الثالثة فكان واجبها أن تمسك مدخل باب المندب في البحر الأحمر ، لغرض اصطياد ومقاتلة السفن التي تنقل البضائع الهنديه إلى مصر .

وفي منتصف شهرأبريل من عام ١٥٠٣ غادرت هذه المجموعات المياه البرتغالية ووصلت المجموعتان الأولى والثانية إلى الهند ، والتقوا هناك بأسطول (السامري) وأنزلوا به هزائم كثيرة لم تخل من عنف عجيب خاصة في معاملة البرتغاليين للأسرى الهنود وذلك بحرقهم أحياء ، وانتهت الحرب بإجبار السامري على عقد معاهدة مع أفونسو دي البوكيرك مكونة من أربع نقاط أهمها أن يوقف التعامل التجاري مع العرب ، ثم قاموا بتشييد قلعة عسكرية برتغالية ، وقاعدة للأسطول الحربي في مدينة

(كوشن) ، وتم تعيين القائد (دورات باشيكو) قائداً للبحرية والجيش (وأنطونيو دي سا) مديراً للمركز التجاري والقس (بيدرو رودريك) قيماً على كنيسة (سيدة الرحمة) وهي مركز التبشير المسيحي هناك .

ولما انتهت مهمة المجموعتين الأولى والثانية أقفلتا عائدتين فوصلت مجموعة أفونسو دي البوكيرك إلى لشبونه في نهاية شهر تموز من عام ١٥٠٤ ، أما المجموعة الثانية ، أي مجموعة فرانسيسكو دي البوكيرك فحالما غادرت ميناء (كنونور) الهندي وصارت وسط المحيط الهندي فاجأتها ريح عاتية ، أغرقتها جميعاً ، فهلك فرنسيسكو دي البوكيرك وسفنه ولم يرجع إلى لشبونه أبداً .

أما سفن المجموعة الثالثة بقيادة أنطونيو دي سالدانا ، فقد واجهت أولى مشاكلها على الساحل الأفريقي الغربي إذ أغرقت العواصف إحدى السفن هناك ، ولما وصل سالدانا إلى (ملندي) أعاد تنظيم نفسه وجدد المعاهدة التجارية المعقودة بين الطرفين ، ثم توجه نحو القرن الأفريقي ليوجد لنفسه قاعدة في زنجبار تتصدى للسفن العربية ، إلا أن ملك زنجبار خرج له بعشرين مركباً والتحم به ، غير أنه لم يقدر عليه وقتل ابن الملك في هذه الحملة ، فقام دي سالدانا باجباره على عقد معاهدة صلح ودفع جزية سنوية للبرتغال فيما راحت سفنه توقف السفن العربية والهنديه وتحرقها بركابها الأحيـــاء .

وكانت خامس الحملات العسكرية التي أوفدها الملك إلى الهند بقيادة (لوبو سوريش دي البركاريا LOPO SOARES DE ALBERGARIA غادرت لشبونه في ٢٢/ ٤/ ١٥٠٤ ، حيث التقى قائدها أولاً بسالدانا الذي كان يترصد للسفن الاسلامية في مدخل البحر الأحمر ، واطلّعَ منه على مجرى الأحوال هناك ، ثم توجه إلى الهند ووصل إلى مدينة (كوشن) وقام بجرد مساكن ومخازن من دخل المسيحية من الهنود ولما تم له ذلك أمر جنوده بنهب وحرق مساكن المسلمين وتمكنت سفنه من إلقاء القبض على سبع عشرة سفينة تحمل تجاراً مصريين ويمانيين ، فأمر باغراقها بركابها ثم

قام بتقوية الحامية البرتغالية هناك وملأ مخازن سفنه بالتوابل وأقفل عائداً إلى لشبونه ووصلها يوم ٢٠/ ٧/ ١٥٠٦ [٦] .

وفي ذلك الوقت أحست الدول العربية خاصة مصر باقتراب الكارثة الاقتصادية التي تهدد بلدانهم ، كما شعرت جمهورية البندقية المتعاملة مع مصر بأن شمس تجارتها أوشكت على المغيب ، فأجرت الدولتان اتصالات سياسية ودبلوماسية لتطويق نتائج الموضوع ، ولما فشلتا سياسياً قررت مصر إعلان الحرب على البرتغال ومساعدة ملك اليمن الذي تعرضت سواحله إلى اعتداءات برتغالية وكذلك مساعدة ملك (كالي كوت) المسلم في حربه ضد البرتغاليين في الهند ، وهذا ما سنفصله في فصلٍ قادم .

(٦) DANVERS - المصدر نفسه - الصفحات من ٩٥ إلى ١١٦ ، إذ يؤكد هذا المؤرخ في صفحات عديدة من الكتاب قصة حرق الاحياء من المسلمين الذين يقعون أسرى بيد القوات البرتغالية .

14

الفصل الرابع عشر

* نظرة على الأحوال السياسية في مصر، تولي السلطان المملوكي قانصوه الغوري الحكم عام ١٥٠٠م.
* مفاوضات مصرية مع حكومة البندقية للحد من النشاط التجاري البرتغالي.
* السلطان قانصوه الغوري يرسل تهديداً إلى البابا يوليوس الثاني.
* نظرة على الأحوال السياسية في اليمن، الدولة الطاهرية تحكم اليمن بشماله وجنوبه تحت عرش الملك عامر بن عبدالوهاب الطاهري.
* الإمام شرف الدين يحيى بن شمس الدين الزيدي، يدعو إلى المذهب الزيدي والاستقلال في اليمن الشمالي.
* عودة إلى الأحوال السياسية في المغرب العربي، والعلاقات المغربية البرتغالية.
* اعتلاء السلطان محمد بن محمد بن الشيخ الوطاسي، المعروف باسم (محمد البرتغالي) عرش المغرب عام ١٥٠٠م.
* ظهور حركة محمد بن القائم السعدي وهي حركة دينية سياسية في المغرب عُرفت باسم الدعوة (السعدية) تدعو إلى قتال البرتغاليين وإسقاط الحكومة الوطاسية.
* إسبانيا تحتل ميناء (المرسى الكبير) الجزائري ومدينة (غصاصه) المغربية عام ١٥٠٦م.

أدى اتساعُ نشاط البرتغاليين في الهند وسيطرتهم على مصادر تجارة التوابل والسلع الشرقية، إلى حجب وصول هذه السلع بكميات كبيرة إلى مصر والشام، مما جعل مصر تواجه ظروفاً صعبة هي وزميلتها في الشراكة في تجارة التوابل الهندية، دولة

البندقية الإيطالية في أوربا . وقبل أن نخوض في مجريات الأمور بين الدولتين من جهة وبينهما وبين دولة البرتغال وبقية دول أوربا من جهة أخرى ، لا بد أن نلقي الضوء على الوضعية السياسية التي كانت مصر عليها إبان تلك الفترة .

* * *

شهدت مصر في عام ٩٠٦ الهجري ١٥٠٠ - ١٥٠١م ، تولي السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه بن يبردي الغوري المعروف باسم (قانصوه الغوري) السلطة هناك ، وهو الملك السادس والأربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو أيضاً الملك العشرون من ملوك الشراكسة لدولة المماليك البرجيه في مصر .

ومن الجدير بالذكر أن دولة المماليك قامت في مصر إثر سقوط دولة صلاح الدين الأيوبي هناك عام ١٢٥٠م فقامت على أنقاضها دولة المماليك البحرية من ١٢٥٠ إلى ١٣٨٢م ، ثم دولة المماليك البُرجيه من ١٣٨٢ إلى ١٥١٧م ، والتي كان آخر ملوكها قانصوه الغوري .

والملك الأشرف قانصوه الغوري شركسي الأصل من مماليك الملك الناصر محمد قايتباي ، وكان قد انخرط في سلك الجندية فقاتل في حلب ثم صار والياً على طرطوس ثم والياً على ملطيه وكلها في سوريا[1] .

وكان صعوده إلى السلطة يوم كانت مصر متخمةً بالمشاكل والخلافات الداخلية بين المماليك الشراكسة والطوائف الأخرى مثل الأتراك والمصريين والمغاربة ، مما أدى إلى تولي خمسة سلاطين الحكم خلال خمس سنوات ، وكان سادسهم هو السلطان قانصوه الغوري فكانت فترة حكمه من عام ١٥٠١ إلى عام ١٥١٧ وبنهايته انتهت دولة المماليك في مصر ، لتقوم مكانها الدولة العثمانية هناك .

وقد ورث قانصوه الغوري عن أسلافه تجارة (الترانزيت) الهندية العربية التي كانوا

(١) ابن إياس - بدائع الزهور في وقائع الدهور - ص ٣ .

يقومون بها منذ أمد بعيد ، إلا أن نجاح البرتغاليين في الوصول إلى الهند بحراً بطريق رأس الرجاء الصالح وتثبيت أقدامهم في موانىء ساحل الهند الغربي والتدهور العسكري الهندي ومباشرة البرتغاليين بتدمير الأساطيل المصرية التجارية ، أظهر شبح المستقبل الاقتصادي الغامض لمصر في الأفق .

ففي عام ١٥٠٢م ، وعندما أصبحت البرتغال وسيطة التجارة بين الشرق والغرب باشرت بإغراق أوربا بالسلع الهندية بأسعار رخيصه ، وطاف البرتغاليون بأسواق أوربا لاستمالة شركاتها وعملائها لأسواق لشبونه التي هي أرخص من الأسواق العربية ومن سوق البندقية ، كل هذا جعل تجار أوربا يرتادون أسواق لشبونه ويهملون اتصالهم بأسواق مصر والشام . ففي عام ١٥٠٢ عادت السفن الأوربية التي كانت في بيروت بأربع بالات من الفلفل فقط ، ولم تجد سفينتان من خمس سفن في الأسكندرية ما تحمله إلّا بمشقة كبيرة .

وبينما كانت الأمور تجري على ذلك النحو وصل إلى البندقية وفد برتغالي عرض على حكومتها وهيئة التجار فيها تسهيلات لحصولهم على حاجتهم من التوابل والسلع الشرقية من أسواق لشبونه ، على أن يقوم البنادقة بتوزيعها بأنفسهم في أسواق أوربا ، بدلاً من إصرارهم على ارتياد أسواق مصر المرتفعة الأسعار والتي بدأ ينضب معينها ، لكن كبرياء البندقية وعظمتها آنذاك منعاها من الاستجابة لهذا النداء حتى لا توقع بنفسها صك تبعيتها التجارية للبرتغال ، ولكنها في الوقت نفسه لم تغفل عن خطط البرتغاليين ومشاريعهم التجارية ومعرفة أسرار الطريق البحري الذي تسلكه سفنهم(٢) .

ولدى عودة المبعوثين من لشبونه قررت البندقية أنه لا بد من عمل حاسم يرد لها اعتبارها التجاري ويبقيها التاجر الأول لتوابل الهند وأكبر دولة تجارية أوربيـــة ، فقررت الحكومة إرسال سفارة فـــي العام نفسه برآسة (بنديتو سانودو BENEDETTO

(٢) دكتور نعيم زكي فهمي – طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب – ص ٧١ .

SANOUDO) إلى البلاط المملوكي في مصر لمقابلة السلطان الغوري ليوضح له الأخطار التي ستتعرض لها مصالح البلدين من جراء وصول البرتغاليين إلى الهند . وفي الاجتماعات التي عقدها رئيس البعثة مع السلطان تبين له أن السلطات المصرية قد أحست بخطورة الموقف والأوضاع السائدة في مدخل البحر الأحمر ، واقترح السلطان الغوري أن تقوم جمهورية البندقية بإرسال المساعدات اللازمة له ، للقيام بضرب السفن البرتغالية في البحر العربي والمحيط الهندي وفسح المجال للسفن العربية لممارسة نشاطها كالسابق ، لكن هذا الطلب رفضته حكومة البندقية متعللة بأن أي تعاون عسكري بين أي بلد أوربي وبلد مسلم سيؤدي إلى اتهام البابوية لذلك البلد الأوربي بالخيانة ، واقترحوا بدلاً من ذلك نقطتين هُما :

١ : أن يقوم السلطان الغوري بإجراء الاتصالات اللازمة مع الحكام الهنود في المقاطعات الاسلامية ومطالبتهم بعدم التعامل مع البرتغاليين ومقاومتهم إن أمكن .

٢ : أن يقوم السلطان بتخفيض أسعار التوابل التي تصل إلى بلاده لتتمكن البندقية من مضاربة الأسعار البرتغالية(٣) .

إلا أن تفاقم اعتداءات البرتغاليين على السفن المصرية واليمانية والعربية الأخرى ، وإنزالهم الهزائم بالهنود المسلمين ، جعلت السلطان الغوري يقتنع بأن مصالحه وتجارته وهيبته أمام العالم أصبحت مهددة ، وقد تأكد له هذا بصورة عملية عندما أرسل أسطولاً تجارياً إلى ساحل (المالابار) الهندي لجلب الكميات المعتادة من التوابل ولكن هذه السفن لم تستطع الوصول كلها إلى مصر بسبب تعرض البرتغاليين لها ، وما عاد منها كان فارغاً . وقد نقل له ركاب السفن حقائق الوضع المتردي هناك .

إلا أن السلطان الغوري وإلى عام ١٥٠٤م لم يكن في وضع يسمح له بمقاتلة البرتغاليين بسبب سوء أوضاعه الداخلية سواءً في مصر أو الشام ، لذلك قرر استخدام

(٣) الدكتور محمد عبدالعال أحمد - البرتغاليون في البحر الأحمر - ص ٩٨ .

الدبلوماسية في معالجة هذا الأمر فأرسل بعثة برئاسة الأسقف (ماوروس دي سان برنادينو) رئيس دير جبل صهيون ببيت المقدس ومعه راهبان ليتوجهوا إلى بابا روما وملوك وأمراء أوربا للوقوف على الأحوال السياسية وإقناع البابا على حث البرتغاليين لوقف أعمالهم العدوانية وبعكسه فسيجد السلطان نفسه مضطراً إلى اغلاق كنيسة القيامه ومنع الحجاج المسيحيين من دخول بيت المقدس . وقد سافر الأسقف إلى روما وقابل (البابا يوليوس الثاني) الذي ما إن سمع تهديدات سلطان مصر حتى هلع للخبر ، فأرسل موفدين بابويين إلى ملكي إسبانيا والبرتغال لينقلوا لهما التهديد المصري[٤] .

وكان رد فعل الملك مانويل ملك البرتغال فورياً إذ إنه أرسل إلى البابا يطمئنه بألاّ يقلق لتلك التهديدات وأنه قرر هذه المرة القضاء قضاءً مبرماً على أية قوة عربية أو إسلامية تقف في وجهه ، وأنه سيحتل ساحل الهند الشرقي احتلالاً كاملاً ، كما سيحتل جنوب الجزيرة العربية خاصة ميناء عدن اليماني ، ليتمكن من غلق مضيق باب المندب والبحر الأحمر ، كما سيحتل هرمز وما جاورها ليتمكن أيضاً من غلق الخليج العربي .

وبالفعل فقد نفذ الملك مانويل تهديداته فأمر بإعداد حملة جديدة بقيادة (دون فرانسيسكو دي الميادا DOM FRANCISO DE ALMEIDA) ليكون قائداً لها وليشغل منصب نائب الملك في الهند[٥] .

ولم تكن مصيبة منع التوابل المصيبة الوحيدة التي نزلت بمصر ، ذلك أن مياه البحر الأبيض المتوسط شهدت معارك بين السفن المصرية وسفن قراصنة رودوس ، الذين كانوا يتصيدون السفن المصرية وينهبونها في قبرص ، كما أن العلاقات بين مصر والبندقية تأزمت بسبب الارتباك الذي ساد العلاقات التجارية بينهما ، وفشلت كل

(٤) DANVERS – المصدر نفسه – ص ١١٦ ، وكذلك الدكتور محمد عبدالعال أحمد – المصدر نفسه – ص ٨٩ ، والدكتور نعيم زكي فهمي – المصدر نفسه – ص ٨٧ .

(٥) DANVERS – المصدر نفسه – ص ١١٨ .

الجهود الدبلوماسية التي حاولها الغوري ، وفشلت كذلك كل خططه لإفساد العلاقات التي نشأت بين البرتغاليين وأمراء (كانانور) و (كوشن) الهنود ، لذلك لم يبق أمامهُ إلا الحل العسكري ، وهو الأمر الذي لم يكن يستطيع القيام به في عام ١٥٠٥م أي عام الإعداد للحملة البرتغالية الجديدة ، ذلك أن الجيش المصري كان منشغلاً بالقتال في جبهتين ، واحدة في الكرك في الاردن ، والثانية في ينبع في الحجاز لمقاومة بعض الحركات الانفصالية هناك .

وسنترك أمر الحملة البرتغالية الجديدة إلى الفصل القادم لنلقي الضوء على الأحوال السياسية في أرجاء الوطن العربي الأخرى التي يهددها الغزو البرتغالي ، خاصة اليمن المهددة بسقوط عدن ، والمغرب العربي المبتلي بالاحتلال البرتغالي لسواحله الغربية .

* * *

فكيف كان الوضع في اليمن يومذاك . . ؟

كانت الدولة القائمة في اليمن تعرف باسم الدولة الطاهرية ، ويتزعمها السلطان عامر بن عبدالوهاب بن عامر بن طاهر ، الذي ورث العرش عن والده ثم جده السلطان عامر بن طاهر ، مؤسس الدولة الطاهرية عام ١٤٥٤م ، والذي انتزع السلطة من الدولة الرسولية التي كانت قائمة في اليمن قبل الدولة الطاهرية . ولم تكن اليمن يومذاك منقسمة إلى يمنين ، شمالي وجنوبي ، إلا أن أيام السلطان عامر بن عبدالوهاب الطاهري الأولى شهدت بوادر ذلك الانقسام بالنزاع السياسي الذي يقوده الثائر الزيدي الإمام شرف الدين يحيى بن شمس الدين والذي يدعو إلى حركة دينية تتمسك بمذهب الإمام زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنهم جميعاً ، وقد اتخذ شرف الدين من مدينة (صنعاء) قاعدة لتحركاته فيما كانت جيوش السلطان تطوق المدينة وتقاتل قوات الإمام الزيدي الثائر ، مما دفع باليمن الذي كان متحداً بشقيه الشمالي والجنوبي إلى أن يسير في الطريق الذي تُشَمُ منه رائحة الانفصال والانقسام ، فقد أوشك الإمام الزيدي الثائر أن يستقل بصنعاء ، وذلك في

حوالي عام ١٥٠٠م تقريباً عندما أنزل هزيمةً بجيش السلطان ، إلا أن السلطان تمكن في شهر أغسطس من عام ١٥٠٤م من إنزال هزيمة بقوات الإمام وألقى القبض عليه ونفاه إلى مدينة (تعز) ووضعَهُ تحت الحراسة هناك .

كانت مدينة عدن عاصمة الدولة الطاهرية اليمانية آنذاك ، ولعدن موقع بحري ممتاز في السيطرة على حركة السفن التجارية المبحرة من الهند إلى مصر وبالعكس ، فهي تسيطر على مدخل البحر الأحمر من مضيق باب المندب ، لذلك فقد كانت على علاقات طيبة مع مصر كما ارتبطت بعلاقات تجارية مع تجار البضائع الهندية أيضاً وكذلك مع حكام الإمارات المسلمة في الهند ، كما ارتبطت بعلاقات مماثلة مع دولة عُمان المجاورة ودولة هرمز التي كانت تتحكم بمدخل الخليج العربي .

وقد تعرضت المدينة لدخول عدد من الجواسيس والمغامرين البرتغاليين إليها للتجسس على حركة السفن التجارية في مينائها . فقد شهد عام ١٥٠٣م حادثة غريبة هي وصول مغامر برتغالي هو (لودفيكو دي بارثيما LUDVICO DE BARTHEMA) إلى عدن ، فأُلقي القبض عليه وسيقَ إلى قصر السلطان وسُجنَ هناك ، وبعد أيام وصل إلى عدن خمسون مسلماً هربوا سباحةً من السفن التي وقعت بيد البرتغاليين ، وعندما علم هؤلاء بوجود برتغالي مسجون في قصر السلطان ، هجموا على السجن لقتله ، إلا أن الحرس أنقَذه .

وبعد شهرين تقريباً سيق البرتغالي لمقابلة السلطان الذي كان منهمكاً في استعراض الجيش الذي سيرسله لمقاتلة الإمام الزيدي في صنعاء ، فلاحظ بارتيما أن تعداد الجيش كان ثلاثة آلاف جندي ، وعلم أن جيش اليمن يبلغ تعداده الكلي حوالي ثمانين ألفاً ، معظمهم من الأفارقة مسلحين برماح وسيوف قصيرة عريضة ، كما يحمل كل منهم مقلاعاً لقذف الحجر يلفه فوق رأسه ، وكانوا يرتدون ثياباً من نسيج أحمر فوقها سترة قطنية تقيهم ضربات الأعداء . وعندما قابل بارثيما السلطان ، إدعى أنه مسلم ، فلما طلب منه السلطان أداء الشهادة ارتج ، فحكم عليه بالسجن مدى الحياة ، إلا أنه تمكن

من الهرب من السجن بعد أن تظاهر بالمرض فهرب إلى الحبشه ومنها إلى الهند ، فوصلها عام ١٥٠٥ وقام برسم خارطة جغرافية لخط الملاحة من لشبونه إلى الهند وخارطة لشبه جزيرة العرب[٦] .

وعلى العموم فإن المصادر التاريخية اليمانية ، لم تذكر لنا خبراً عن البرتغاليين ، اللّهُم الا في حادثة (ابن ماجد) ، واستمر الحال كذلك إلى حوالي عام ١٥٠٦ فذكروا اخبار حملة (فرانسيسكو دي الميادا) وهي الحملة البرتغالية التي سنتطرق إلى تفاصيلها في فصلٍ قادم .

* * *

أما على صعيد العلاقات البرتغالية - المغربية فقد شهد عام ١٥٠٠م اعتلاء السلطان محمد بن محمد بن الشيخ الوطاسي عرش المغرب بعد وفاة والده . والسلطان هذا معروف أيضاً بلقب (البرتقالي) فيذكر اسمهُ على محمد البرتقالي وكذلك البرتغالي .

وقد شهدت أيامه ظهور بدايات الحركة السياسية المعارضة وهي (الحركة السعدية) نسبة إلى زعيمها محمد بن القائم السعدي .

والحركة السعدية هذه امتدادٌ للطريقة الشاذلية - الجزولية التي كانت ترى في احتلال البرتغاليين والإسبان للسواحل المغربية انتقاصاً من سيادة الدولة الوطاسية والنظام الحاكم في المغرب ، حيث إن المراكز والقلاع البرتغالية الممتدة ما بين طنجه إلى أكادير والتي تشرف على الطريق التجاري البحري المؤدي إلى الهند ، أقام بها البرتغاليون معسكرات وقواعد بحرية لتموين أسطولهم وجعلوا منها نقاط استناد لاكتساح البلاد ، ولما كان الأهالي في المناطق الساحلية قد دأبوا على التعامل مع الأجانب في مراكز الاحتلال فقد ساد النفوذ البرتغالي في تلك المناطق ، لذلك فإن نواة الثورة السعدية قامت ضد الاحتلال وضد التجزئة في البلاد ، واعتبرت أن

(٦) جاكلين بيري - اكتشاف جزيرة العرب - ص ٥١ .

(٧) عبدالكريم كريم - المصدر نفسه - ص ٢٢ .

الرجوع للإسلام هو الطريق الذي سينقذ الوطن ، فبنوا تحركهم السياسي على أساسٍ فكري ديني[٧] .

ولم يكن البلاء الذي حل في المغرب مقتصراً على تحرشات البرتغال ، بل زادت عليه إسبانيا أيضاً باحتلالها مدينة (ماسا) ثم الانسحاب عنها ، إلا أن الإسبان تمكنوا في عام ١٥٠٥م من احتلال مدينة (المرسى الكبير) الجزائرية ، وأقاموا هناك معسكراً وقلعة وسوقاً تجارياً ، ومن مدينة المرسى الكبير الجزائرية ، هاجموا مدينة (غصاصة) المغربية واحتلوها عام ١٥٠٦ فيما وقفت قوات السلطان محمد بن محمد بن الشيخ الوطاسي عاجزة عن القيام بأي عملٍ عسكري ضد تلك القوات الغازية .

(٧) عبدالكريم كريم – المصدر نفسه – ص ٢٢ .

15

الفصل الخامس عشر

* حملة دون فرانسيسكو دي الميادا DOM FRANCISCO DE ALMEDA في ١٥٠٥/٣/٢٥، وإعلان منصب أول نائب للملك في الهند.
* الحملة المصرية الأولى إلى الهند بقيادة الأمير حسين الكردي.
* انتصار الحملة المصرية في معركة (شول CHAUL) ومصرع القائد البرتغالي لورنزو ابن نائب الملك فرانسيسكو دي الميادا.

بحلول عام ١٥٠٥م، أخذت البرتغال تجني الحاصل الطيب من وصولها إلى الهند وتمكنت من احتكار أغلب التجارة الهندية، بحيث أصبحت موانيء ساحل (المليبار) الهندي تعج بحركة التعامل التجاري مع البرتغاليين، مما دفع بالملك مانويل إلى أن يقرر القيام باحتلال ساحل (المليبار) بصورة نهائية وتعيين نائب عنه هناك يحمل لقب نائب ملك البرتغال لكي يصبح للوجود البرتغالي صفة سياسية دائمة ويصبح نائب الملك هذا مسؤولاً مسؤولية رسمية عن القضاء على أي احتكار آخر لأي دولة عربية في تجارة الهند، خاصة دولة مصر التي راح سلطانها يهدد بشن الحرب الانتقامية، وكذلك القضاء على الحركات العسكرية التي كان يقوم بها الحكام الهنود المسلمون الذين يرغبون في إدامة التعاون مع مصر، ولا يريدون الرضوخ للبرتغاليين، كما يقوم نائب الملك بضرب الدويلات الافريقية الواقعة على الساحل الشرقي إن هي حاولت التعاون مع المصريين، وكذلك مراقبة حركة السفن العربية في مضيق باب المندب.

لذلك قرر الملك البرتغالي إرسال حملة عسكرية جديدة من نوعها بقيادة

(فرانسيسكو دي الميادا DOM FRANCISCO DE ALMEDA) الذي سيكون قائداً للحملة ، ونائباً للملك في الهند أيضاً .

وقد تكونت الحملة من (٢٢) سفينة ، إحدى عشرة منها للشحن يكون واجبها تحميل التوابل والبضائع الهندية والعودة بها ، وإحدى عشرة سفينة قتال على ظهرها ألف وخمسمائة جندي ، غادرت البرتغال يوم ٢٥/ ٣/ ١٥٠٥ .

وصل (الميادا) إلى مدينة كيلوا في أفريقيا والتقى بالأمير ابراهيم نائب الملك هناك الذي كرر خضوعه لملك البرتغال ، وفي يوم ٨/ ٨/ ١٥٠٥ كان الميادا يقف أمام ممباسة ، وعندما لاحظ أن المدينة قد أقفلت ميناءها ، أمر بانزال كتيبة مكونة من (٥٥٠) جندي اقتحمت المدينة واستباحتها ثم أحرقتها وسفنها .

وفي ١٣/ ٩ وصل إلى الهند وتوقف في ميناء (انجديف ANJEDIVA) وهناك عَلمَ بأن ثمة عصيان ضد تحميل السفن البرتغالية وقع في مدينة (أنور ONOR) فأرسل ابنه لَقمعه وهناك أصيب ابنهُ بجرح فأمره بإحراق المدينة ، ثم أمرهُ بالتوجه نحو مدينة (كينانور) وبناء كنيسة هناك باسم (سانت أنجيلو) .

وأخيراً استقر المقام به في مدينة (كوشن COCHIN) الهندية فاتخذها عاصمة له وأعلن عن منصبه كنائب لملك البرتغال ، فكان أولَ نائب للملك هناك ، وبعد فترة جهز حملة بحرية بقيادة ولده لورنزو وأمر بالتوجه إلى أفريقيا والقيام بإحكام السيطرة على مضيق باب المندب وبناء قلاع وقواعد بحرية برتغالية على طول الساحل الشرقي ، على أن يكون مركز القيادة البحرية البرتغالية في رأس القرن الأفريقي في الصومال[1] .

وإزاء ما حصل في الهند من موقف سياسي جديد بوجود نائب لملك البرتغال هناك ، فقد اهتزت الأوساط السياسيةً المسلمة في الهند ، خاصة تلك التي كانت تتعامل بتجارة التوابل مع مصر ، فراح (السامري) ملك كالي كوت يبعث بالرسائل

(١) DANVERS - المصدر نفسه ص ١١٨-١١٩ .

الواحدة تلو الأخرى إلى سلطان مصر ، السلطان قانصوه الغوري ، يطلب منه إرسال نجدة إليه لمقاتلة البرتغاليين ، ومن جهة أخرى راح يعقد المحالفات العسكرية مع ملك (كنانور) ويهاجمان بين الفينة والفينة السفن البرتغالية أو القلاع البرتغالية ، وانضم اليهم فيما بعد السلطان مظفر شاه بن محمد شاه سلطان ولاية (الكُجُرات) الهندية .

وكان من جملة الخطوات التي اتبعها السامري ، هي الاتصال بحكام (مَلَقَا) عاصمة الملايو وحكام سومطره لغرض بيع توابله إليهم بدلاً من التعامل رأساً مع البرتغاليين ، بينما كانت قوات لورنزو إبن دي الميادا نائب الملك تقوم باقتحام وحرق المدن الهندية التي تخرج عن طاعة البرتغاليين وإيقاف وحرق سفن الملك السامري ملك كاليكوت ، وهكذا بقي التحالف الهندي المسلم في انتظار النجدة والإنقاذ من مصر .

* * *

فكيف كانت الأوضاع السياسية في مصر ؟

عندما كانت رسائل ملوك الهند تنهال على السلطان قانصوه الغوري تطلب النجدة منه ، لم يستطع الغوري تلبيتها فوراً بسبب انشغال جيشه في القتال على جبهتين داخليتين ، واحدة في الكرك في الاردن والثانية في ينبع في الحجاز ، وذلك لمقاومة بعض تحركات الانفصاليين هناك . ولكن شدة التهديدات البرتغالية بغلق مضيق باب المندب بوجه السفن المصرية واقتراب انهيار التجارة المصرية بصورة عامة ، وفقدان سمعة مصر كدولة تجارية من الطراز الأول إضافة إلى توالي الرسائل من الهند في طلب النجدة ، أدت بالسلطان الغوري إلى أن يأمر (باش العسكر) أي قائد الجيش وهو الأمير حسين الكردي أن يجهز حملة للذهاب إلى الهند وقتال البرتغاليين وتدميرهم هناك .

وفي حوالي الربع الأخير من عام ١٥٠٥م تشكلت الحملة بقيادة الأمير حسين الكردي الذي يُعرف على قلّة باسم حسين المشرف أيضاً وتكوّنت من الوحدات والكتائب التالية :

١ : كتيبة المماليك السلطانية .

٢ : كتيبة الرماة من جنود أتراك وأفارقة .

٣ : كتيبة (أولاد ناس) ولعلهم أبناء البلد من المصريين أو المغرب المتطوعين للحرب .

٤ : القوة البحرية المكونة من جنود البحارة ومعظمهم من المغاربة بقيادة (باش المغاربة) الخواجه نور الدين علي المسلاتي المغربي .

٥ : أُلحقت بالقوة وحدة مهندسين وبنائين ونجارين وحدادين وعمال ، وكانت مهمة هذه الوحدة أن تقوم بتقوية أسوار الموانىء التي تمر بها ، خاصة مدينة جدّه التي من المحتمل أن يهاجمها البرتغاليون .

وفي الأول من شهر جمادي الآخر من عام ٩١١هـ الموافق لعام ١٥٠٥م قام السلطان قانصوه الغوري ، باستعراض قواته وأمر بدفع رواتبهم لمدة أربعة أشهر مقدماً ، كما أمر بمنح جنود كتيبة المماليك السلطانية مبلغ عشرين ديناراً لكل جندي .

وفي يوم الإثنين ٦/ جمادي الآخر/ ٩١١هـ - ١٥٠٥م غادرت العساكر مدينة القاهرة إلى السويس ، حيث كانت القوة البحرية بقيادة الخواجه نور الدين في انتظارهم ، فركبوا البحر متجهين نحو أهدافهم[٢] .

وصلت الحملة المصرية إلى ميناء ينبع الحجازي ، الذي يعتصم فيه الأمير يحيى بن سبيع ، وكان هذا قد أعلن انفصاله عن حكم الدولة المملوكية في مصر ، فلما سمع بوصول الأسطول المصري خرج لمقاتلته ، إلا أن الأمير حسين الكردي تمكن من دحره ، وتمكنت القوات المصرية من اقتحام مدينة ينبع وتخريب ممتلكات الحاكم ابن

---

(٢) ابن أياس - بدائع الزهور في وقائع الدهور - الصفحات ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ .

سبيع وترك حامية صغيرة فيها ، ثم توجهت إلى مدينة جدة ، وأرست سفنها هناك ونزل الأمير حسين الكردي إلى المدينة ، وأمر بالمباشرة ببناء سور للمدينة كي يحميها من جانب البحر ، وكذلك بناء بعض الحصون والقلاع والدفاعات البحرية اللازمة ، وعندما انتهى من ذلك توجه إلى ساحل السودان وتوقف في ميناء سواكن ، وأمر بتحصينه وجعله مهيئاً كقاعده بحرية لقتال السفن البرتغالية إن هي تورطت بالدخول إلى البحر الأحمر ، خاصة بعد أن وصلته معلومات تفيد أن أسطولاً برتغالياً مكوناً من عشرين سفينة حربية شوهد في مداخل البحر الأحمر عدة مرات(٣) .

وبعد أن تم للأمير حسين تحصين البحر الأحمر ، اتجه نحو مضيق باب المندب فوصل أولاً إلى بلدة جازان حيث تزود بالماء والطعام ، ثم وصل إلى جزيرة كمران الاستراتيجية التي تقع قرب الساحل اليماني وتسيطر بموقعها على مدخل البحر الأحمر ، ثم توقف بعدها في بلدة المتينة ثم بلدة مخا ، ثم اجتاز مضيق باب المندب ووصل إلى عدن في شهر شوال وقيل أيضاً في شهر محرم من عام ٩١٣هـ ، وهذا التاريخ يوافق المصادر البرتغالية التي ذكرت أن حملة حسين الكردي كانت عام ١٥٠٧م .

وتذكر المصادر اليمانية أن القوة المصرية كانت محملة على ثلاث سفن ضخمة (واحدتها تسمى غراب) وثلاث سُفن أصغر منها (واحدتها تسمى برشه) . وفي ميناء المدينة وقف حاكم عدن الأمير مرجان الظافري ممثلاً لسلطان اليمن السلطان عامر بن عبدالوهاب الطاهري الذي لم يتمكن من حضور الاستقبال لانشغاله في قتال الإمام الزيدي الثائر شرف الدين يحيى بن شمس الدين الذي تمكن في أواخر العام المنصرم من إعلان انفصاله عن الدولة الطاهرية وإعلان إمامة زيدية في مدينة حجة ، ولَقَّب نفسه بلقب المتوكل على الله .

وفي ميناء عدن ترجل قائد القوة المصرية الأمير حسين الكردي ورحب به الأمير

(٣) ابن أياس – المصدر نفسه – ص ٩٦ .

مرجان الظافري والي المدينة ، وتم عقد عدة اجتماعات بين الأميرين اشتكى الأمير الظافري فيها من تحركات القوات البرتغالية المكثفة على سواحل اليمن ، وبعدها شرح القائد المصري مهمته للأمير الظافري ، وهي ذهابه إلى الهند لمقاتلة البرتغاليين هناك فتحمس الأمير لذلك ، وأقام ضيافة عظيمة للقوة المصرية وفتح لهم أبواب مستودعاته لشحن سفنهم بالطعام والمؤن ، ونزل جنود القوة للاستراحة في منطقة جبل حقات وتوافد جمع غفير من أهالي المدينة للسلام والترحيب بالقوة المصرية .

وينقل لنا المؤرخون اليمانيون خبراً مؤسفاً وقع أثناء وجود الجنود المصريين في مدينة عدن ، ذلك أن منادياً من بينهم نادى في أوساط الناس بأنهم في أمان الله وأمان السلطان قانصوه الغوري فأثار ذلك حفيظة الأمير الظافري ، لكن الحادث مر بسلام ولم تكن له نتائج سيئة على العلاقات المصرية اليمانية ، وبعدها غادر الأسطول المصري ميناء عدن متجهاً إلى الهند(٤) .

* * *

قبل أن ندخل في تفاصيل معارك البحرية المصرية في الهند ، لا بد من ذكر خبر حملة برتغالية صغيرة بقيادة (تريستو دي كونها TRISTAO DA CUNHA) كانت تقاتل مع قوات نائب الملك (فرانسيسكو دي الميادا) وابنه (لورنزو) ، ولما أنهت واجبها ، عادت إلى البرتغال ، ويبدو أن هذه الحملة علمت بنباء وصول البحرية المصرية أو حركتها نحو الهند لقتال البرتغاليين لأن الملك مانويل أمر فوراً بتشكيل حملة كبرى لمقاتلة كل العرب والمسلمين ، أودع قيادتها إلى (دي كونها) نفسه يعاونه القائد الشهير (أفونسو دي البوكيرك) ، وقد غادرت الحملة المذكورة ميناء لشبونه يوم ١٨/ ٤/ ١٥٠٦ ، وسنفصّل أمر تلك الحملة الكبرى في الفصل القادم إن شاء الله .

وصلت القوات العسكرية المصرية إلى السواحل الهندية في عام ٩١٤هـ وهو ما

---

(٤) بامخرمه – قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر – ص ١٠١ ، وكذلك يحيى بن الحسين – غاية الأماني في أخبار القطر اليماني .

يوافق عام ١٥٠٧م ، ويوافق أيضاً قول المؤرخين البرتغاليين الذين قالوا إن عدد سفن الاسطول المصري كان اثنتي عشرة سفينة وعدد جنوده ألف وخمسمائة جندي(٥) وتذكر المصادر البرتغالية أيضاً أن الحملة هاجمت بلدة (أيودا IODA) ثم توجهت نحو بلدة (ديو DIU) وهناك التقت بالحكام الهنود المسلمين الناقمين على البرتغاليين فاجتمع الأمير حسين الكردي بالسلطان (مظفر شاه) حاكم منطقة (كُجُرات) ، كما اجتمع بالأمير (مالك عزيز) حاكم مدينة (ديو) ، وانضم إليهم الملك السامري ملك (كالي كات) ، كما انضم إليهم ملوك وأمراء مناطق (بيجابور) و (أحمد نيجايات) وغيرها من المناطق المسلمة ، والتحقت بهم قوة بحرية هندية بقيادة الأمير (تمرباي) .

وقد تم الاتفاق على أن تكون مدينة (ديو) قاعدة للأسطول المصري ومقراً للقيادة المصرية - الهندية المشتركة ، كما تم الاتفاق أيضاً على تحديد موعد للقيام بالتعرض لطرد القوات البرتغالية من السواحل الهندية .

بلغت أنباء وصول البحرية المصرية إلى السواحل الهندية إلى مسامع نائب الملك البرتغالي (دي الميادا) فهلع لها وأمر ابنه لورنزو بقيادة اسطول مكون من ثمان سفن والخروج به إلى البحر للدفاع عن مدن (كنانور) و (كوشن) ، إلا أن لورنزو اندفع أكثر من ذلك إذ ذهب إلى ميناء (شول CHAUL) ليهاجم المصريين من هناك ، لكن خبر حركته وصل إلى مسامع الأمير حسين كردي فهرع باسطوله نحو المدينة ، وعلم أن الاسطول البرتغالي موجود داخل الميناء ، فقرر حصاره وتدميره هناك ، إلا أن البرتغاليين شعروا به فوجهوا نيران مدافعهم نحو السفن المصرية وأوقفوا تقدمها ، واستمر التراشق بنيران المدفعية إلى الليل .

وفي الصباح قرر (لورنزو) أن يكسر الحصار الذي ضربه عليه المصريون ، فأمر سفينتين من نوع (غالي GALLEYS) أن تحاولا اقتحام صفوف السفن المصرية وأن تكسرا الطوق ، فاندفعت السفينتان البرتغاليتان وتصدى لهما المصريون الذين قفزوا

---

(٥) DANVERS - المصدر نفسه ص ١٢٩ ، وكذلك كتاب - تحفة المجاهدين في بعض احوال البرتغاليين للفقيه الشيخ زين الدين - ص ٤٠ .

اليهما ، وتسلقوا السطح وحدث اشتباك بالسيوف والسلاح الأبيض ، وفي هذه الأثناء وصلت قوة بحرية يقودها الأمير (مالك عزيز) حاكم بلدة (ديو) الهندية ، فأمر (لورنزو) كل سفنه برفع الأشرعة والخروج من الميناء لمقاتلة المسلمين ، واستمر الاشتباك بنيران المدفعية إلى مساء اليوم ، حيث توقف الطرفان عن القتال .

وفي المساء عقد قادة السفن البرتغالية اجتماعاً مع لورنزو طلبوا منه المباشرة بعقد محادثات هدنة مع المسلمين ، إلا أن لورنزو رفض ذلك وقرر العودة إلى القتال في صبيحة اليوم التالي .

وفي صباح اليوم التالي خرج بسفينته على رأس قطعاته فتصدى له مالك عزيز والأمير حسين الكردي وأجبراه على التراجع نحو مصب أحد الأنهار فغرزت سفينته هناك ثم مالت إلى أحد جوانبها وبذلك فقدت قابليتها على الحركة ، فأحاطت بها سفن القائدين المصري والهندي ، وهنا أصابت قذيفة مدفع فخذ لورنزو وحطمته ، فأمر رجاله بربطه بالحبال على سارية السفينة لكيلا يقع وراح يصرخ بهم حاثاً إياهم على القتال ، وبعد قليل أصابته قذيفة مدفع ثانية حطمت عموده الفقري وأهلكته .

وهنا اندفع المقاتلون المصريون والهنود إلى ظهر سفينة قيادة العدو وأعملوا السيف برقاب من فيها ولم ينجُ منهم إلا تسعة عشر برتغالياً رموا بأنفسهم في البحر وأنقذتهم السفن الأخرى ، فلما تأكد لقوات المسلمين مصرع لورنزو سمحوا للسفن البرتغالية بترك الميناء ، فعادت هذه السفن إلى (كوشن) وأخبروا فرانسيسكو دي الميادا بنبأ مصرع ابنه لورنزو والهزيمة التي لحقت بهم ، فيما عادت السفن المصرية والسفن الهندية إلى بلدة (ديو) ثانية ، ومن هناك أرسلوا الأمير الهندي تمر باي ليتجول بأسطوله مقابل السواحل الهندية لمقاتلة السفن البرتغالية[٦] .

وفي شهر شعبان وصلت إلى القاهرة أنباء انتصارات القوات المصرية على القوات البرتغالية ، فسر السلطان لذلك الخبر وأمر باقامة الأفراح ودقت الطبول في القاهرة لمدة ثلاثة أيام[٧] .

---

(٦) DANVERS - المصدر نفسه ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٧) ابن أياس - المصدر نفسه - ص ١٤٢ .

وفي بلدة (شول) حيث مقر نائب الملك البرتغالي المفجوع بمصرع ولده ، كانت القوات البرتغالية شبه مشلولة ، إذ لم يكن هناك أمل في انقاذها من قبضة المصريين والهنود المسلمين ، إلاّ وصول الحملة البرتغالية الكبرى التي أمر الملك مانويل بإرسالها لتحطيم قوة العرب والمسلمين بشكل نهائي والتي كان يقود أحد أساطيلها القائد البرتغالي المشهور (أفونسو دي البوكيركً AFFONSO DE ALBUQUERQE) وهي الحملة التي سنتطرق لها بالتفصيل في فصلٍ لاحق .

16

الفصل السادس عشر

* الأوضاع السياسية في اليمن قبل الحملة البرتغالية الكبرى .
* الأوضاع السياسية في عُمان قبل الحملة البرتغالية الكبرى .
* الأوضاع السياسية في إيران قبل الحملة البرتغالية الكبرى .

في يوم ٨/ ٥/ ١٥٠٦ غادرت ميناء لشبونه حملة عسكرية برتغالية كبيرة بقيادة قائدين هما : (تريستو دي كونها TRISTAO DE CUNHA) و (أفونسو دي البوكيرك AFFONSO DE ALBUQUERQUE) وقد تكونت من (١٦) سفينة حربية ، واجبها إنهاء السيطرة العربية والإسلامية على تجارة الهند ، وذلك باحتلال الموانيء العربية والإسلامية ، وإغلاق الممرين المائيين العربيين وهما البحر الأحمر والخليج العربي .

قبل أن نخوض بتفاصيل تلك الحمله ومجريات الأمور فيها لا بد أن نتوقف برهة لنعطي صورةً واضحةً عن الأحوال السياسية في البلدان العربية والإسلامية التي تعرضت لها تلك الحملة بالقتال والحرب واحتلال الأراضي والمدن وإعدام الأسرى وحرقهم وجدع أنوفهم وآذانهم إلى غير ذلك من مظاهر الوحشية والقسوة التي اتسم بها قادة الحملة ، خاصة (أفونسو دي البوكيرك) الذي يعود إليه الفضل في تثبيت قواعد الاستعمار الأوربي في الشرق الأوسط والهند وكانت تلك الدول العربية والإسلامية هي : اليمن وعُمان ومملكة هرمز التابعة لسلطة الشاه اسماعيل الصفوي في إيران .

فكيف صار الوضع السياسي في اليمن عما تركناه في فصلٍ سابقٍ . . ؟

لقد كان حاكم اليمن السلطان عامر بن عبدالوهاب الطاهري قوياً طموحاً ويعتبر من أبرز شخصيات الأسرة الطاهرية ، وقد امتد حكمه تسعة وعشرين عاماً ، عمل فيها كثيراً على تثبيت أقدامه في اليمن الجنوبية والسواحل البحرية غير أنه عانى كثيراً من الصدام مع الأئمة الزيدية في اليمن الشمالية الذين كانوا لا يعترفون به أصلاً ويرون أنهم أحق بالسلطة منه ، وقد بدأ الصدام بين عامر والأئمة الزيديين منذ عام ٩٠٢هـ-١٤٩٦م ، وقد سقطت صنعاء بيد الزيديين عدة مرات ، ثم تمكن السلطان من انتزاعها منهم ، وكان أخطر ما واجهه من مشاكل هو إعلان الإمام المتوكل على الله شرف الدين يحيى بن شمس الدين إمامته في مدينة (حجة) في ١٠/ حمادي الأول/ ٩١٢هـ أي ديسمبر سنة ١٥٠٦م وهو العام نفسه الذي قامت فيه الحملة البرتغالية الكبرى[١] .

وهكذا ففي الفترة التي كان البرتغاليون فيها يهددون السواحل اليمانية ، وقواتهم موجودة على أبواب عدن ، كان السلطان يضطر كثيراً إلى إرسال الحملات إلى جهات اليمن المختلفة وخاصة إلى الشمال لتدعيم نفوذه هناك . ورغم ذلك ففي عهده ارتفع شأن مدينة عدن إذ قصدها التجار من كل مكان واستقروا بها ، حتى قيل إن أغلب سكانها كانوا من المصريين والمغاربة والأحباش والفرس وأهالي ساحل أفريقيا الشرقي ، وقام السلطان باعادة بناء سورها الضخم المكون من سورين وله ستة أبواب ، كما اهتم ببناء دار (الفرضة) أي الميناء والجمارك لتحصيل الرسوم على البضائع الهندية ، وأقام العديد من المخازن والأسواق التي تعج بالبضائع الهندية ، وكثيراً ما كان يتوجه إلى عدن في موسم الرياح الموسمية ليشرف بنفسه على خروج القوافل البحريه إلى الهند[٢] .

ولكن وبمرور الزمن أصاب الضرر بلاده وتجارته نتيجة الحصار البرتغالي للسفن العربية والإسلامية ، وفقدت عدن الكثير من عوائدها الجمركية ، بل أصبحت مهددة

---

(١) الدكتور السيد مصطفى سالم – الفتح العثماني الأول لليمن – ص ٣٩ نقلاً عن عيسى ابن لطف الله – مخطوطة روح الروح .

(٢) الدكتور السيد مصطفى سالم – المصدر نفسه – ص ٤٣ .

باجتياحها من قبل البرتغاليين باعتبارها تشكل بوابة البحر الأحمر الذي يمكن غلقه بالسيطرة عليها ، لذلك فعلى الرغم من انشغاله بحروبه الداخلية ، إلا أن هذا لم يمنعه من قتال البرتغاليين عام ٩١٢هـ - ١٥٠٦م ، وهو العام نفسه الذي قامت به الحملة البرتغالية الكبرى ، إذ يذكر لنا المؤرخون اليمانيون في أخبار ذلك العام ما يلي :

« وفي هذه السنة قويت شوكة المفسدين وقطاع طرق المسلمين في البحر بطريق الهند وهرموز ، وكان أعظمهم ضرراً طائفة الافرنج ، فإنهم فعلوا بالمسلمين الأفاعيل ، وأخذوا كل سفينة غصباً ، واستحلوا دماء المسلمين ، وأموالهم ونساءهم وأولادهم ، وفعلوا المنكر عياناً ، واستمروا على ذلك زماناً ، فبعث أهل مدينة عدن الخبر لمولانا السلطان فورد أمره الشريف بالتجهيز عليهم ، وبذل الأموال العظيمة لمن يتوجه إليهم ، فوجه اليهم من مدينة عدن أربعة عشر مركباً ما بين كبير وصغير وفيها من المسلمين فوق ستمائة وتوجه معهم الفقيه إسماعيل الحرواني والشيخ عثمان العمودي وجماعة من طلبة العلم للجهاد في سبيل الله ، وكان خروجهم من عدن في البحر يوم الخميس السابع والعشرين من شهر شوال ، واستمر القنوت عليهم في الصلوات الخمس ، وفي خطبة يوم الجمعة بمدينة زبيد وعدن وغيرها»[٣] .

هذه الحملة لم يرد ذكرها عند المؤرخين البرتغاليين ، كما أن المؤرخين اليمانيين لم يتركوا لنا خبراً آخر عنها ، ومن المرجح أن تكون قد عادت أدراجها إلى عدن ، لأنها ستكون فريسة سهلة أمام الحملة البرتغالية الكبرى . وقد عجز السلطان عامر بعد ذلك عن إرسال حملة أخرى إلى البحر وذلك لضعف إمكانياته الحربية والمادية والانشطار السياسي الذي يوشك أن يقسم اليمن إلى قسمين ، يمن شمالي يدين بالمذهب الزيدي ، ويمن جنوبي يدين بالمذهب الشافعي .

* * *

(٣) ابن الديبع الشيباني الزبيدي - الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار زبيد - تحقيق د . محمد عيسى صالحيه - ص ٢٠٣ . وكذلك كتاب (قلادة النحر) للفقيه الطيب بامخرمه - نشرها د . محمد عبدالعال أحمد في كتابه (البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية للسيطرة عليه) ص ٩٩ .

ومن الممالك العربية الأخرى التي تعرضت للغزو والدمار البرتغالي ، كانت مملكة عُمان . فلقد شهدت مُدُنها الساحلية الواقعة على بحر عُمان مذابح بشعة ارتكبها (البوكيرك) وسقطت عاصمتها (صُحار) بأيديهم وارتكبوا مجزرة أخرى في مسقط ، ولم يكن الوضع السياسي في عُمان بأحسن من الوضع في اليمن بل كان أتعس منه بمرات عديدة ، بدليل أنه ما من مؤرخ عُماني واحد ترك لنا خبراً ولو صغيراً عن وصول البرتغاليين إلى سواحل عُمان والمذابح التي ارتكبوها هناك وسقوط المدن الساحلية الواحدة تلو الأخرى بأيديهم ، إذ كان التمزق السياسي في هذا القطر العربي على أشده في تلك الأعوام . ويقف المرء حائراً وهو يقرأ ما كتبوه في تاريخهم عن حشد من الأسماء والمناصب والألقاب التي تولت الحكم في عُمان ، وعن كثرة الحروب الأهلية والاغتيالات السياسية وسقوط الملوك والأئمة ، فإذا أخذنا سقوط بلدة وميناء (قلهات) العُماني بيد (ألبوكيرك) في أوائل عام ١٥٠٧م ، نموذجاً ، فإنهم لم يوردوا أي خبر عن ذلك الحادث ، واستمر التاريخ العُماني ساكتاً عن ذكر البرتغاليين إلى حوالي عام ١٠٢٤هـ أي عام ١٦١٥م ، أي بعد أكثر من مائة عام ، عندما نقلوا خبراً عن اقتتال لعدد من أمراء المقاطعات المتنازعين على السلطة . ووسط فوضى الأسماء والألقَاب والأحداث ، يبرز اسم الأمير عمير بن حمير الذي لجأ إلى (النصارى) فأجاروه وأعانوه على خصومه ، وبديهي أن المقصود بالنصارى هنا ، البرتغاليون(٤) . ولم يتسنَّ للمؤرخين العمانيين ، ذكر أخبار البرتغاليين في البلاد ، إلا بعد قيام الدولة اليعربية هناك التي أسسها ناصر بن مرشد اليعربي عام ١٦٢٤م ، وهي الدولة التي سَيُقَدَّرُ لها أن تقوم بإنهاء النفوذ البرتغالي ليس في عُمان فحسب ولكن في الخليج العربي وشرقي أفريقيا أيضاً ، وهو ما سنتطرق له في فصول هذا الكتاب اللاحقة .

فإذا أخذنا بما ذكره المؤرخون العمانيون عن أخبار ملوكهم ، فإن نزول البرتغاليين

(٤) سرحان بن سعيد الأزكوي العماني - تاريخ عُمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة - تحقيق عبدالمجيد القيسي - ص ٩١

إلى سواحل عُمان واحتلالهم المدن ، كان على أيام الإمام محمد بن اسماعيل الإسماعيلي الذي تولى الحكم عام ٩٠٦هـ-١٥٠٠م وتوفى عام ٩٤٢هـ-١٥٣٥م ، وخلفه في الحكم ولده بركات بن محمد بن اسماعيل ، وعلى زمانه ازداد تشتت الكلمة وتفرقت الأمة وضعفت الدولة ووهنت قوتها ، فصار المُلكُ موزعاً في أيدي زعماء القبائل والطوائف من جماعة النباهنه وآل عمير وآل هلال ، ولما مات بركات بن محمد آل المُلك من بعده لبني نبهان ورؤساء القبائل[٥] . ثم تستمر فوضى الأسماء والزعامات وأنباء المعارك والحروب الأهلية العُمانية طيلة التواجد البرتغالي على الساحل العُماني .

وعلى كل حال فإن المصادر البرتغالية التي لدينا ، تقول إن معظم ساحل عُمان كان يدين بالولاء إلى حكام من بني جابر ، ويذكر المؤرخ السالمي أن بني جابر هُم الجبور ومنهم آل هلال ، كما يذكر المؤرخون البرتغاليون أن دولة هرمز التابعة للمملكة الصفوية في إيران كان لها نفوذ على المدن الساحلية العُمانية ، وشواطيء الساحل الغربي في الخليج في منطقة البحرين وكذلك مدينة البصرة في العراق .

* * *

فكيف كان الوضع السياسي في إيران آنذاك . . ؟

عاصر قدوم البرتغاليين إلى الخليج العربي وجود الدولة الصفوية في إيران وبلوغها درجة عظيمة من القوة وتوسعها على حساب دويلات عديدة في المنطقة بلغ جذوته في السيطرة على العراق عام ١٥٠٨م على يد الشاه إسماعيل الصفوي ، فكان من المتوقع أن تتصدى هذه الدولة للغزو البرتغالي الذي انتزع منها جزيرة هرمز ذات الموقع الاستراتيجي الخطير في الخليج العربي ، لكن الدولة الصفوية في تلك الفترة أي فترة أوج عظمتها في عهد الشاه اسماعيل الصفوي ، لم تكترث لذلك بل إن الشاه تنازل عن هرمز وتعاون مع البرتغاليين في سبيل أن يخلو له الجو لاحتلال العراق وقتال

(٥) المصدر السابق نفسه ص ٧٦ . وكذلك أبو محمد عبدالله بن حميد بن سلوم السالمي - كتاب تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان - ص ٢٧١ .

الدولة العثمانية التي كانت ترى أن التوسع الصفوي في العراق يهدد مصالحها فيه ، فصارت أرض العراق مسرحاً للصراع الإيراني - العثماني .

تأسست الدولة الصفوية في مستهل القرن السادس عشر ، وينتسب الصفويون إلى جدهم الأكبر الشيخ صفي الدين الأردبيلي (١٢٥٣-١٣٣٤م) الذي كانت شهرته قد ذاعت باعتباره ولياً من الأولياء ، اعتنق المذهب الشيعي الإثني عشري ودعا إلى التصوف والتف حوله مريدون كثيرون ، وبمرور الزمن تحولت تلك الحركة الدينية البحتة إلى حركة سياسية قوية خاصة عندما انتقلت زعامتها إلى الشيخ اسماعيل الذي احتل تبريز عام ٩٠٧هـ/ ١٥٠١-١٥٠٢م وأعلن قيام الدولة الصفوية في إيران وصار لقبه الشاه اسماعيل الصفوي . ثم احتل أصفهان وشيراز ، واتسع نفوذه إلى جنوب تركيا فسيطر على ديار بكر ، ثم تقدم نحو العراق فقضى على دولة (آق قوينلو) ، وتمكن القائد الصفوي لالا حسين من احتلال بغداد ، فدخلها الشاه عباس وأسند الحكم إلى خادم بك طاليش وجعله أميراً على الديوان ولقبه بلقب خليفة الخلفاء(٦) . كان ذلك في نفس السنة التي كانت فيها الحملة البرتغالية الكبرى قد احتلت هرمز التابعة لإيران .

* * *

أما البصرة فقد كانت تشكل مركز تجارة الهند في رأس الخليج ، والتي تتصل براً بتجارة الصين وإيران والهند ، فصارت المكان الذي تتجمع به البضائع الواردة من الهند أو غيرها من الأماكن ثم يعاد تحميلها على القوافل التي تسلك طريق البر ، أو يعاد تحميلها على سفن أصغر تستطيع أن تمخر في نهر الفرات لتصل إلى داخل العراق فسوريا ثم إلى نقطة قريبة من البحر المتوسط ، حيث تنقل إلى هناك بواسطة الركائب .

فعندما سقطت بغداد بيد الصفويين ، كانت البصرة قد وقعت بقبضة (المشعشعين) الذين كان ينازعهم عليها الشيخ عيسى بن محمد الأعمى من قبيلة آل غزى المنسوبة

(٦) مصطفى عقيل الخطيب - التنافس الدولي في الخليج العربي - ص ٢١ . وكذلك د . عماد أحمد الجواهري - العراق والتوسع الصفوي - مجلة الخليج والجزيرة العربية العدد (٢٠) ص ٦٥ .

لعشائر المنتفق ، وقد عُرف من حكام (المشعشع) السيد محسن بن السيد محمد المشعشعي ، الذي لم يهنأ بسيطرته على البصرة طويلاً فقد أصيب بكارثة عندما حاول الشاه اسماعيل الصفوي القضاء على نفوذ المشعشعين هناك ، فوقعت المدينة بقبضة القبائل مجدداً ، وتأسست في البصرة حكومة محلية ما زال الكثير من تنظيماتها يكتنفه الغموض ، غير أنه من المعروف في المصادر التاريخية أن (آل عليان) وهم من قبائل المنتفق أيضاً ، تولوا إمارة تلك الحكومة التي والت الحكم الصفوي في إيران(٧) .
ومن البديهي أن سيطرة البرتغاليين على جزيرة هرمز في مدخل الخليج العربي وتحكمهم في هذا الممر ، كان له أسوأ الأثر على البصرة بحيث لم تشهد طوال تاريخها عهداً انحسرت فيه تجارتها كالعهد الذي شهدته خلال النصف الأول من القرن السادس عشر .

* * *

والآن كيف كان الوضع السياسي في جزيرة هرمز قبل سقوطها بيد البرتغاليين ، وهي الجزيرة التي تسيطر على مدخل الخليج ، لذلك فقد شكّلت هدفاً استراتيجياً مهماً للحملة البرتغالية الكبرى .

لم تكن (هرمز) الجزيرة ، معروفة بأهميتها السياسية أو الاقتصادية بحسب موقعها الجغرافي إلى حوالي عام ١٣٠٠م ، إذ كانت إلى ذلك التاريخ مدينة تقع على الساحل الفارسي بالقرب من ميناء (ميناب) حالياً ، وكانت (ميناب) تقوم مقام هرمز الجزيرة في سيطرتها على مدخل الخليج العربي ، وقد زار تلك المدينة الرحالة (ماركوبولو فقال عنها إنها ميناء لتصدير منتجات كرمان والمناطق المجاورة لها إلى الهند والبصرة والساحل العربي من الخليج وفارس . ولم تعمر تلك المدينة طويلاً إذ هاجمها التتر فأمر حاكمها (شهاب الدين) سكانها الانتقال إلى جزيرة تقع في مواجهة مدينة هرمز اسمها (جرون) ، فانتقل اليها الناس وأطلقوا عليها اسم المدينة التي جاءوا منها فصار

(٧) د . عماد أحمد الجواهري – الدور التاريخي للبصرة على الخليج العربي – مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية – العدد ١٣ ص ٨٣ .

اسم الجزيرة (هرمز) .

ويُنْقَلُ عن المؤرخين الإيرانيين أن حكام الجزيرة من أصل عربي ، وأن مؤسسها هو (محمد درهم كوب) وهو شيخ عربي جاء إلى فارس واستقر هناك كما قيل إن ملوكاً عرب من (آل قيصر) أصلهم من عُمان ارتحلوا إلى ساحل فارس الشرقي وحكموا هناك ، فكانت مدينة هرمز عاصمتهم .

وجزيرة هرمز ، جزيرة بيضاوية الشكل تقع في مدخل الخليج العربي على بعد (١٨كم) من الساحل الفارسي في الجنوب الشرقي من بندر عباس ، أرضها غير صالحة للزراعة بسبب ملوحة المياه وندرتها ، ويبلغ عدد سكانها حوالي أربعين ألف نسمة من المسلمين ، وبها عدد من الهندوس واليهود والمسيحيين وهم في الأغلب تجار ، حيث يشتغل السكان بتجارة السلع الهندية أو السلع الواردة من الصين والشرق الأقصى ، لذلك فقد عُرف سكانها بالثراء والترف وارتفاع مستوى المعيشة ، وقد امتد نفوذ تلك المملكة إلى البحرين والقطيف وسواحل عُمان والبصرة وقد ذكر الرحالة البرتغاليون الذين زاروها قبل أن يحتلها أفونسو البوكيرك ،أنه كان في مينائها حوالي (٣٠٠) سفينة تجارية ، ويقيم فيها (٤٠٠) تاجر من الذين يتعاملون مع الهند ومصر ، يرتدون الملابس الحريرية الثمينة ويلبسون الذهب والفضة . لذلك فليس غريباً أن تشكل هذه الجزيرة هدفاً استراتيجياً مهماً للحملة البرتغالية الكبرى(٨) .

* * *

وما دمنا قد تسلسلنا في إعطاء فكرة عن الصُوَر السياسية في المنطقة التي ستكون مسرحاً للحركات العسكرية لتلك الحملة ، فلا بدَ أن نقف قليلاً في جزيرة (سُقطره) التي تقع في مواجهة البر اليماني وهي من توابع اليمن الجنوبية ، حيث وقعت هذه الجزيرة بقبضة البرتغاليين لأهمية موقعها المقابل لعدن ولمدخل البحر الأحمر في باب المندب ، فتذكر المصادر العربية أن الجزيرة كانت بيد حاكم من أهل (المهرة) في اليمن

(٨) مصطفى عقيل الخطيب – المصدر نفسه ص ١٩ .

الجنوبية اسمه السلطان عامر بن طوعري بن عفرير المهري ، وأنه قاتل البرتغاليين واستشهد في معركة مع مائتين وسبعة عشر من رجال المهرة[٩] . كما يذكر البحار العربي ابن ماجد في إحدى أراجيزه أن بعض سكان الجزيرة هم من (أهماج النصارى) ، ولعله يقصد (النصارى الأحباش) ، كما تؤكد المصادر البرتغالية وجود النصارى فيها .

***

تلك كانت الصورة السياسية للدول العربية والإسلامية التي ستكون هدفاً للحملة البرتغالية الكبرى ، والتي سنذكر احداثها في الفصل القادم . وهي الحملة التي ستثبت النفوذ البرتغالي في الهندوعمان وهرمز وأماكن أخرى وتجعل من البرتغال دولة استعمارية من الدرجة الأولى تتقاسم العالم مع الدولة لاستعمارية الكبرى الأخرى وهي إسبانيا .

(٩) محمد عبدالقادر بامطرف – الشهداء السبعة – ص ٥٩ .

17

الفصل السابع عشر[1]

* سقوط سقطرة .
* حرق سفن جزر كوريا موريا العُمانية .
* سقوط مدينة قلهات العُمانية .
* مذبحة في مدينة قريات العُمانية .
* مذبحة في مسقط .
* استسلام صحار .
* مذبحة في خورفكان .
* معركة هرمز .
* أفونسو البوكيرك يعود فيرتكب مجزرة في مدينة قلهات
* البوكيرك يصبح نائباً للملك في الهند .

أناط الملك البرتغالي أمر الحملة البرتغالية الكبرى إلى (تريستودي كونها TRISTAO DE CONHA) على أن يعاونه (أفونسو دي البوكيرك AFFONSO DE AL BUQUERQUE) وكانت أوامر الملك إلى (دي كونها) أن يحتل أولاً جزيرة سقطره ، ويبني فيها قلعة عسكرية وأن يقوم بحماية المسيحيين الموجودين هناك ، كما يجب عليه إقامة مستودع وقاعدة بحرية ليتمكن الأسطول البرتغالي من إستخدامها والخروج منها لمقاتلة السفن المصرية والعربية وكذلك لغلق مضيق باب المندب .

(١) مواد هذا الفصل مترجمة حرفياً عن ما جاء في الفصل السادس من كتاب DANVERS . وكذلك عن ما جاء في كتاب برتغالي اسمه COMENTARIOS DO GRAND AFFONS DEALBUQUERQUE القسم الأول ، الفصول XXVII - XXIV - XXII.

فإذا تم بناء القلعة والقاعدة البحرية ، فعليه أن يأخذ قسماً من السفن ويذهب إلى الهند لمساعدة نائب الملك في القضاء على القوة المصرية المتواجدة هناك على أن يبقى (البوكيرك) ومعه ست سفن حربية وأربعمائة مقاتل في سقطره ليقوم من هناك باحتلال عدن واحتلال جدة والقضاء على كل أثر للتجارة العربية - الهندية .

كما استلم البوكيرك ، بصفة خاصة أمراً سرياً من الملك مانويل يعلمه فيه أنه وفي حالة نجاحه في مأموريته فإنه وبعد ثلاث سنوات سيُسَنَّمُهُ منصب نائب الملك في الهند بدلاً من (فرانسيسكو دي الميادا) ، وهو الأمر الذي ألهب حماس البوكيرك ليقوم بمغامراته العسكرية الخطيرة ، وجعله لا يعبأ بتعليمات (دي الميادا) إليه ، ولا يهتم بالشكوى التي قدمها بصفته نائباً للملك في الهند إلى الملك عن عدم إطاعة البوكيرك لأوامره ، وقد أدى خروجه على أوامر نائب الملك إلى حدوث محاولات تمرد وعصيان ضده ، إلا أنه سحق كل معارضيه وانتصر في معظم معاركه وأطلق على نفسه لقب (العظيم) وصار نائباً للملك في الهند ، كما سنرى تفاصيل ذلك في الصفحات اللاحقة . وعلى كُلٍ فقد تشكلت الحملة من السفن التالية :

	اسم السفينة	اسم القائد
١)	ESPIRITO SANCTO اسبيرتو سانكتو	TRISTAO DE GUNHA تريستو دي كونها
٢)	SANT VINCENT سانت فنسنت	ALVARO TELLES BARETO الفارو تيلايس باريتو
٣)	LUZ لـــــوز	JOAO GOMES DE ABREU جوان غومز دي آبرو
٤)	LEITOA NOV ليتوا نوفا	LEONEL COUTINHO ليونيل كوتنهو
٥)	FLOR DE LAMAR فلور دي لامار	JOAO DE NOVA جوان دي نوفا
٦)	RAY GRAND ري غراند	MANOEL TELLES BARRETO مانويل تيلاس باريتو
	RAY PEQUENO	AFFONSO LOPES DA COSTA

	ري بيكينو	أفونسو لوباز داكوستا
٧)	SANT GEORGE سانت جورج (مركب أحمال)	FRANCISCO DE TAVORA فرانسسكو دي تافورا
٨)	ESPRIITO SANCTO اسبيريتو سانكتو	ANTONIO DO CAMPO أنطونيو دو كامبو
٩)		

١٠) السفينة كيرن (GERNE) وهي بقيادة البوكيرك نفسه يعاونه الضباط التالية اسماؤهم :

روي بيريرا	ROY PEREIRA
روي دياز بيريرا	ROY DIAS PEREIRA
جوب كيمادو الفارو	JOB QUEIMADO ALVARO
فرناندوس جوا دا فيجا	FERNAN JOAODA VIEGA
تريستو رويز	TRISTO ROIZE

وعدد آخر من الضباط قادة السفن بحيث بلغ مجموع السفن ست عشرة سفينة .

ومن المفيد أن نذكر أن هذه السفن يُطلقُ عليها البرتغاليون اسم (كارافيلCARAVIL) وهي مدمرات على درجة كبيرة من الدقة في الصنع تمتاز بحجمها المتوسط وكثرة أشرعتها التي تُعطيها دفعاً سريعاً أثناء الحركة والمطاردة علاوة على تفوقها بالمدفعية من ناحية عيار القنبلة وعدد المدافع الموجودة على ظهرها . وهذه السفن يطلق عليها المؤرخون العرب اسم (الغراب) و (البرشة) أيضاً .

أما تسليح الجنود البرتغاليين ،فإن البندقية لم تكن معروفة يومذاك ، لذلك فقد كان الجنود مُدَرَّعين تدريعاً كاملاً من قمة الرأس إلى أخمص القدم ، ويحملون بأيديهم السيوف وأسلحة الاقتحام المكونة من الرماح الطويلة الضخمة التي يستعملها جنديان ، وكذلك سلاح (القُلّة) الحديدية الضخمة المسننة المربوطة بالسلسلة الحديدية التي تُحطم دروع وتروس الخصم ، علاوة على (مدافع الهاون) وهي مدافع صغيرة الحجم وعيارها صغير يمكن أن يستعملها جندي واحد إلاّ أنها شديدة الفتك في عمليات الهجوم .

وبديهي أن هذا النمط من الأسلحة ، لم يكن مما يتيسر وجوده لدى العرب أو المسلمين يومذاك مما أعطى للبرتغاليين تفوقاً ملحوظاً في السلاح والعدة العسكرية ، علاوة على حسن التنظيم وارتفاع المعنويات والقيادة الجيدة ، وهي أمور كان يفتقر إليها العرب كثيراً أيضاً .

وقد غادر دي كونها ومجموعة السفن ميناء لشبونة يوم ١٨/ ٤/ ١٥٠٦ ، وفي اليوم التالي أعقبه البوكيرك ومعه المجموعة الباقية من السفن .

وبعد أن تمكنوا من الالتفاف حول رأس الرجاء الصالح توقفوا في الموزمبيق بسبب سوء الأحوال الجوية ، إلاّ أن البوكيرك توقف بسفنه أمام بلدة صغيرة هناك ونزل إلى الشاطىء ومعه مفرزة من الجنود وألقو القبض على قارب به عدد من سكان البلدة ، فأخذهم أصحاب القارب إلى البلدة وجمعوا المسلمين فيها ، ثم أمر البوكيرك بإعدامهم جميعاً بلا ذنب ولا جريمة ارتكبوها ، ثم أمر بحرق البلدة وغادرها ، فكانت هذه العملية أولى العمليّات الوحشية اللاإنسانية التي اتسم بها هذا القائد في قتاله ضد العرب والمسلمين .

ولم يكن دي كونها أحسن منه في ذلك . فقد دخل بلدة اسمها (لولانكاناLULANGANA) وكانت تُعرفُ بأنها تتبادل التجارة مع مدن ملندي وممباسة فهاجم قصر الحاكم ، ثم أمر بجمع كافة العرب والمسلمين الموجودين في المدينة وضرب أعناقهم بالسيف ، ثم أمر جنوده بنهب المدينة . وتوجه بعدها نحو بلدة اسمها (زادا ZADA) .

وكانت العواصف وارتطام السفن بالصخور قد أغرقت سفينة (روي بيريرا) التابعة لقوة البوكيرك كما أن السفينة (فلور دي لامار) أُصيبت بعطب تطلب اصلاحها ، ثم توجه الاسطول نحو بلدة (ملندي) فاستقبلهم الملك هناك بالترحاب . وطلب البوكيرك من ملك ملندي أن يعطيه أدلاء يعرفون ساحل بلاد العرب وجزيرة هرمز ،

وأخبره أنه ينوي احتلالهما ، فأعطاه الملك ثلاثة من أدلائه الذين يعرفون الموانيء العربية ويعرفون حكامها أيضاً .

ثم غادر الاسطول (ملندي) وتوجه نحو بلدة (أنكوشا ANGOXA) وكان حاكمها رجلاً مسلماً ، فلما شاهد سكان المدينة الأسطول البرتغالي في البحر ، جمعوا ما يمكن جمعه وهربوا من المدينة ، ولما دخلها دي كونها أمر بنهبها وحرقها ، واحترق فيها بعض السكان من الشيوخ الذين لم يتمكنوا من الهرب .

ثم غادرها ووصل بأسطوله إلى بلدة (بارابو BARABO) وأهلها مسلمون وعرب عرفوا بتجارتهم مع منطقة (كمباي) في الهند . فلما وصلها ، كان الأهالي قد تجمعوا في الساحل ، فيما اعتبره دي كونها تحدياً له ، فأمر سرية من جيشه بالتهيؤ للنزول إلى الساحل وقتال الأهالي هناك ، إلاّ أنه شاهد زورقاً قادماً إليه وبه شخصان من أهالي المدينة ، فأمر أن يصعدا إليه فقالا له إنهما موفدان من حاكم المدينة الذي يود التعرف على أسباب وجودهم ، فأجابهم قائلاً إنه يُمثل ملك البرتغال وإنه يحمل أوامر منه بتدمير أية مملكة تقف أمام رغباته وقتل أي حاكم يحاول الوقوف بوجهه ، لذلك فإنه يطلب من حاكم البلدة أن يقدم فروض الطاعة لملك البرتغال .

وبعد يومين أرسل حاكم (بارابو) وفداً ثانياً لمقابلة دي كونها ، وأخبره رئيس الوفد أن الحاكم يطلب مهلة ليستطلع رأي أهالي البلدة .

فما كان من دي كونها إلا أن أمر بربط رقبة الموفد بحبل مربوط إلى طلقة مدفع ، وأخبره بأنه سيطلق المدفع ويرسله إلى الحاكم بهذه الصورة ، ما لم يعترف له بحقيقة نوايا الحاكم ، فاعترف الموفد بأن حاكم البلدة ينوي أن يهاجم عندما تهب العواصف المتوقع هبوبها خلال أيام قلائل ، فأمر دي كونها بتجهيز قوة عسكرية تهاجم البلدة ، وسرعان ما نزلت قوارب الإنزال البرتغالية ووصلت إلى الساحل ، فاشتبك معها المدافعون وتمكنوا من قتل عدد من الجنود وجرح الضابط (انطونيو دي سا) ، إلا أن المدافعين تراجعوا إلى داخل المدينة ، فلما دخلها الجنود البرتغاليون ، كانت النسوة

المسلمات يشاركن في القتال برمي الاحجار عليهم من سقوف منازلهن ، إلاّ أن المقاومة فشلت ، فهرب من هرب ، أما باقي أهل البلدة فقد لجؤوا إلى مسجد المدينة .

وهنا كان دي كونها ، وأفونسو البوكيرك قد نزلا من السفن وتوجها نحو البلدة ، ولما وصلا إليها علم دي كونها بأمر اللاجئين الموجودين في المسجد ، فأمر باعدامهم جميعاً داخل المسجد ، فأُعْدِمُوا .

وعندما كان دي كونها يتجول في المدينة أصيب بسهم في فخذه فحمله البوكيرك قائلاً له ، أنت الآن فارس ، وبعد ذلك قام دي كونها بتوزيع الأوسمة على الضباط الذين شاركوا في القتال ومنهم ابنه (نونادي كونها) ، ثم أمر بحرق المدينة وغادرها متجهاً إلى جزيرة سقطره .

وعلى مشارف الجزيرة ألقى الأسطول البرتغالي مراسيه ، وشاهد دي كونها قلعة كبيرة مسورة تسويراً جيداً ، مبنية في الميناء لحماية البلدة ، فأمر ضابطين من ضباطه بالتوجه بقارب نحوها وإنذار الحاكم هناك بالاستسلام ، وإلاّ فإنه سيدخلها لن يترك عربياً حياً فيها .

لكن حاكم البلدة طرد الضابطين البرتغاليين ، فلما عادا إلى الاسطول أمر دي كونها الجيش بالنزول إلى الجزيرة واحتلالها ، وكان يقود الوحدات التابعة له بنفسه ، بينما كان ألبوكيرك يقود وحداته أيضاً . (ونحن لا نعرف من كان حاكم الجزيرة إلاّ من مصدر المؤرخ اليماني محمد عبدالقادر بامطرف في كتابه الشهداء السبعة الذي يقول إنه كان السلطان عامر بن طوعري بن عفرير وإن القلعة قد بناها (المهرة) هناك منذ عام ١٤٨٨م .) وقد اشتبكت قوة (البوكيرك) بمعركة دارت رحاها يداً بيد مع المدافعين من أهالي سقطره ، وانتهت بمصرع الحاكم ورجاله ، فيما تراجع بقية المدافعين إلى القلعة واعتصموا بها ، إلاّ أن البوكيرك أمر رجاله بمهاجمتها فهاجموها ، وأثناء الهجوم انهال حجر ضخم على رأس البوكيرك طرحه أرضاً ، إلاّ أنه لم يقتله لأنه لم يلبث أن وقف

على قدميه ثانية وتمكنت بعض الوحدات من جنوده من كسر باب القلعة والدخول اليها ، ثم تدفق الجند البرتغالي إلى الداخل ، فيما تراجع المدافعون إلى داخل أبراج القلعة ، أما قوة (دي كونها) فقد تمكنت أيضاً من دحر المقاومة السقطرية وهرب المدافعون إلى الجبال ، فالتحق دي كونها بالبوكيرك وشددا زخم الهجوم على الأبراج فتقاتل الطرفان لعدة ساعات وانتهت المعركة باقتحام القلعة من قبل البرتغاليين وقتلوا كل من كان فيها من المدافعين .

وفي صباح اليوم التالي توجه (دي كونها) نحو مسجد المدينة فأمر بنصب الصلبان عليه وتحويله إلى كنيسة أطلق عليها اسم كنيسة (سيدة النصر OUR LADY OF THE VICTORY) وأقام الأب القس (أنطونيو دي لوريرو) قداساً هناك ثم اجتمع بمسيحي الجزيرة وأعلن لهم بأنهم الآن في حماية التاج البرتغالي ففرحوا بذلك .

وبعدها أمر بالمباشرة ببناء القاعدة البحرية هناك ، وأطلق عليها اسم (سانت ميشيل) ، ولما انتهى منها أصدر أمراً بتعيين (أفونسو دي نورونها AFFONS DE NORONHA) قائداً للقاعدة ، ولما تم له كل ذلك أعطى لأفونسو البوكيرك ست سفن كاملة العدة والعدد ليقاتل بها السفن المصرية والعربية التي تدخل أو تخرج من البحر الأحمر ، أما هو فقد أبحر بسفنه إلى الهند يوم ١٠/٨/١٥٠٧ ، لمعاونة قوات نائب الملك هناك .

وفي اليوم نفسه قام البوكيرك بمصاحبة ثلاث سفن حربية بالخروج إلى البحر لاستطلاع مدينة عدن ومدخل البحر الأحمر ثم عاد إلى سقطره وقد اتخذ قراراً جديداً ، وهو أن احتلال مدخل الخليج العربي وجزيرة هرمز يشكل هدفاً استراتيجياً أهم في هذه المرحلة من احتلال عدن أو قصف جدة بالمدافع ، وأن إيجاد قواعد عسكرية برتغالية متقدمة وقريبة إلى الهند وتقع في مدخل الخليج العربي ، سيؤدي ولا شك إلى نتائج عسكرية أحسن من احتلال البحر الأحمر في هذه المرحلة ، وعلى

ذلك فقد ترك الضابط (دي نورونها) في قاعدة (سانت ميشيل) في سقطره بينما توجه باسطوله نحو السواحل العربية القريبة من مدخل الخليج لاحتلالها واحتلال هرمز أيضاً .

وهكذا ففي يوم ١٤/ ٨/ ١٥٠٧ كانت السفن البرتغالية تقف بمواجهة جزر (كوريا موريا) التابعة لمملكة عُمان وكانت هذه الجزر محاطة بممرات صخرية ضيقة عبرها البوكيرك بحذر ، إلى أن وصل إلى منطقة (رأس الحد) العُمانية ، وهناك شاهد أربعين سفينة تعود إلى مملكة هرمز ، فأسرها وأحرقها .

وبعد أن تم له هذا اتجه نحو مدينة (قَـلْـهَـاتْ) العُمانية التي تقع بين رأس الحد ومدينة مسقط والتي كانت آنذاك ميناءً مهماً للسفن التجارية العربية الهندية وكانت تحت حماية ملك هرمز . وعندما نزل البوكيرك إلى المدينة ، وجد أن أهلها لا يرغبون بالمقاومة والقتال ، وأخبروه بأنهم مستعدون للتعاون معه ولو خالف هذ أمر حاكم هرمز .

وفي يوم ٢٢/ ٨ غادر (قَـلْـهَـاتْ) متجهاً نحو البلدة العُمانية الثانية (قَـرْيَـاتْ) ، فوصلها وألقى مراسيه في البحر ، ومن سطح سفينته لاحظ أن أهالي المدينة قد قاموا بتحصينها بالحجارة والصخور من جانب البحر ، وشاهد أربعة مدافع منصوبة هناك ويكمن خلفها عدد كبير من الرجال ، فقرر قتالهم وتدمير البلدة ، فأرسل أولاً وفداً ليفاوض السكان ، إلا أن الأهالي منعوهم من النزول فعادوا إلى السفن . وهنا أصدر البوكيرك أوامره برمي المدينة بالمدافع ، وعلى إثر ذلك القصف رد أهل المدينة بقصف مقابل واستمر الرمي بالمدفعية بين الطرفين إلى الليل ، وفي الليل أمر البوكيرك عدداً من مقاتليه بالنزول بالقوارب واحتلال موضع متقدم على جزيرة صغيرة تقع قرب الساحل مقابل المدينة ، وتمكنت هذه القوة المستترة بالظلام من احتلال هذا الموقع ، وفي صباح اليوم التالي وبعد القصف المدفعي البرتغالي للمدينة ، نزلوا وحدث الاشتباك بين الطرفين ، تمكنت فيه القوة البرتغالية من إنزال هزيمة بالعُمانيين ، فدخل

البوكيرك المدينة وقتل كل من فيها من رجال ونساء وأطفال وأمر برفع العلم البرتغالي على مسجد المدينة ، ثم أمر بنهبها فنُهبتْ وشُحنَت المسروقات إلى السفن البرتغالية ، فلما تم له ذلك أمر بحرق المدينة بما فيها الجامعَ حتى أزالها من الوجود . وكان خلال المعركة قد حصل على بعض أسرى الحرب فأمر بقطع أنوفهم وآذانهم وأركبهم مركباً أمرهم أن يذهبوا به إلى جزيرة هرمز ليطلع الناس هناك على نتائج من يحاول أن يقف بوجه البرتغاليين ، ثم أمر بجرد الأسلحة التي حصل عليها من العرب فكانت خمسة وعشرين مدفعاً وأعداداً كثيرة من السهام والقسي والرماح ، وعندما كان متوجهاً نحو البحر شاهد ثمانية وثلاثين سفينة في الميناء فأمر بحرقها جميعاً ، ثم غادر المكان متجهاً نحو مدينة مسقط .

لم تكن مسقط حين وصلها البوكيرك عاصمة لعُمان ، إذ كانت مدينة صُحار هي العاصمة ، لكن مسقط كانت من أهم المدن والموانيء العُمانية بسبب موقعها الجغرافي على خليج عُمان فهي محطة توقف ضرورية لكل السفن المبحرة بين الهند والبلاد العربية سواء عن طريق جنوب الجزيرة العربية فباب المندب ثم البحر الأحمر ، أم عن طريق الخليج العربي . وعندما ألقى البوكيرك مراسيه أمام المدينة ، حيث وصلها ظهراً وبعد أربعة أيام من مذبحة قريات ، شاهد مركباً صغيراً يتقدم نحو سفينته فلما وصل إليها علم أن موفدين يمثلان حاكم مسقط يرغبان بالصعود والتحدث إليه ، فسمح لهما بذلك ولما صعدا إلى ظهر المركب قالا لألبوكيرك إن حاكم مسقط قد سمع بما حصل في قريات وإنه لا ينوي القتال بل يرغب بإجراء مفاوضات ، فأجابهم البوكيرك أن يقولا لحاكم مسقط أن يتقدم بكتاب يُعلن فيه طاعته وخضوعه لملك البرتغال وأن عليهما أن يعودا بالجواب غداً ، وعندما عاد العربيان إلى مسقط ، أمر البوكيرك وحدةً من وحداته بالتقدم نحو ساحل مسقط لإجراء استطلاعٍ ميداني للمدينة ، فذهبت وحدة الاستطلاع ولما عادت أخبرته أن المدينة يحيط بها سورٌ خشبي ارتفاعه حوالي عشرين ذراعاً مسنوداً بالصخور وخلفه أسوار خشبية أخرى مسنودة

أيضاً بحيث يصل عرض الأسوار إلى عشرة أذرع ، كما أن مدخل ميناء المدينة مكون من خور ماء ضحل لا يمكن الدخول اليه إلاّ ليلاً عند المد وهو أيضاً مُحَصَّنٌ بحائطين مبنيين بين جبلين يمكن للمدافعين عن المدينة إغلاقه بالصخر والأحجار .

وفي صباح اليوم التالي عاد موفدا حاكم مسقط ليقابلا البوكيرك وأخبراه أن حاكم مسقط وافق على عقد صُلح بدون قيد أو شرط ، فطلب منهما الانتظار قليلاً ريثما يعقد اجتماعاً مع ضباطه . وبعد الاجتماع قال لهما أن ينقلا إلى حاكم مسقط شروطاً جديدة وهي أن يقوم بدفع جزية إلى ملك البرتغال تساوي الضريبة التي كان يدفعها سنوياً إلى ملك هرمز ، وأن عليه أن يقوم بتجهيز الأسطول البرتغالي والقاعدة الحربية البرتغالية المزمع تشييدها هناك بالطعام والماء بصورة مستمرة ، وأنه إذا وافق على ذلك فستكون المدينة في حماية القوات البرتغالية لتساعده في الدفاع عنها ، وبعكسه فسوف يقوم بتدميرها .

ثم أمر عدداً من ضباطه بقيادة القائد (أنطونيو دي كامبو) أن يرافقوا العُمانيين وأن يذهبوا لمقابلة حاكم المدينة وأن يُجبروه على عقد معاهدة الاستسلام .

فذهب الوفد البرتغالي برفقة العُمانيين ولما عادوا ، أخبروا البوكيرك بأن المعاهدة سيتم التوقيع عليها غداً ، فيما تبعتهم زوارق محملة بالماء والطعام هدية من حاكم المدينة إلى أسطول البوكيرك . وفي صباح اليوم التالي وإلى المساء تقريباً فإن موفدي حاكم المدينة لم يحضرا وبيدهما معاهدة الاستسلام ، كما أن زوارق جلب الطعام من الشاطيء قد توقفت ، وبدا وكأن المدينة قد أغلقت أبوابها ، فقرر البوكيرك أن يتقدم إلى الساحل بنفسه للاستطلاع عن كثب عما يجري في مسقط ، ولما حل الظلام وصل بمركب صغير إلى مدخل الخور المؤدي إلى ميناء المدينة وهناك التقى بسفينة من نوع (البتيل) تخرج من الميناء فهاجمها وأسر ركابها ونقلهم إلى سفينته واستفسر منهم عن الأوضاع داخل مسقط فأخبروه أن المدينة مستعدةٌ للقتال لأن أحد زعماء (بني جابر) من حكام المنطقة قد وصل اليها ليلاً مع عدد من المقاتلين واجتمع بحاكم المدينة

واتفق الاثنان على عدم الاستسلام والقيام بقتال القوة البرتغالية الغازية .

اعتبر البوكيرك تلك المعلومات التي حصل عليها بمثابة إعلان حرب من حاكم مسقط فاجتمع بضباطه ليلاً لتنفيذ خطة الهجوم صباحاً ، وقبل أن يدخل الاجتماع أمر أن تتهيأ إحدى الوحدات بقيادة الضابط (دنيس فرناندس DINIS FER-NANDOZ) وأن تحاول الوصول إلى الشاطيء للحصول على معلومات أكثر ، لكن المدافعين من أهل مسقط شعروا بوصولها فهاجموها وجرحوا عدداً من جنودها وأجبروها على التراجع إلى السفن .

وفي الاجتماع كانت خطة البوكيرك أن يهاجم بمحورين ورتلين ، محورٌ بقيادته بنفسه ومحورٌ آخر بقيادة الضباط (أفونسو لوباز) و(أنطونيو دي كومبا) و(مانويل تالاس) على أن يمهد للهجوم بقصف مدفعي للمدينة تقوم به السفن من البحر فإذا وصل المشاة إلى شاطيء البحر ، فإن علامة الهجوم ستكون قرع الطبول من الوحدة التي يقودها البوكيرك .

وفي صباح اليوم التالي باشرت مدفعية الأسطول بقصف دفاعات مسقط ونزلت الوحدات المهاجمة فكانت وحدة البوكيرك على الجناح الأيسر للمدينة ووحدات بقية الضباط على الجناح الأيمن ، وعندما قُرعت الطبول باشروا الهجوم ، كانت السرية التي يقودها أفونسو لوباز قد تسلحت بمدافع هاون ، وهي مدافع صغيرة الحجم ذات عيار صغير تصلح لقصف المواقع القريبة ، وعندما وصلت هذه الوحدة إلى الأسوار الخشبية للمدينة فتحت نيران مدافعها إلا أن طلقات المدافع لم تؤثر على سور المدينة ، فيما راح المدافعون عن مسقط يرشقون المهاجمين بالسهام وحجار المنجنيق ونيران المدافع فأُصيب القائد أفونسو لوباز بجرحٍ وقُتل خمسة جنود برتغاليين وتم إخلاء القائد إلى الخلف وتوقف هجوم محور اليمين البرتغالي .

أما محور اليسار بقيادة البوكيرك ، فبعد أن واجه مقاومة عنيفة من المدافعين ، تمكن من فتح ثغرة في سور المدينة واقتحمها وأجبر المدافعين على الانسحاب ، وقد أدى

انسحاب العرب أمام البوكيرك إلى انسحاب القوة العربية التي كانت تدافع أمام محور هجوم اليسار البرتغالي أيضاً . وكانت خطة البوكيرك تقضي أنه في حالة اختراق دفاعات مسقط ، فعلى الرتلين المهاجمين أن يتوحدا برتل واحد يدخل شوارع المدينة ويقاتل من فيها ، لكن رتل اليمين البرتغالي وعندما شاهدَ تراجعَ العرب طاردهم في أزقة المدينة ، إلا أن المدافعين تمكنوا من شن هجوم مقابل على هذا الرتل وقتلوا وجرحوا أعداداً منه وأجبروه على التراجع إلى الخلف فعادوا ليلتحقوا بقوة البوكيرك التي كانت لا تزال تقاتل عند أسوار المدينة ، فقابلهم البوكيرك بغضب لانكسارهم وتراجعهم بسبب مخالفتهم تعليماته التي كانت تنص على الالتحاق به عند القيام باختراق سور مسقط .

أُعيد تنظيم القوة المهاجمة وتم تضميد جرح أفونسو لوباز وعهد إلى وحدته ووحدة الضابط فرانسيسكو تافورا أن تقوما بالدخول إلى أزقة المدينة وشوارعها وقتال العرب هناك على أن تتبعهما بقية السرايا بقيادة البوكيرك . وفي أزقة المدينة اقتحم المدرعون والمسلحون بالرماح الطويلة تلك الأزقة إلا أن هذه الرماح ونظراً لطولها وضخامتها فقد أعاقت تقدمهم ، مما سهل على المدافعين الموجودين فوق أسطح منازل المدينة رميهم بالسهام والحجارة الثقيلة ، إلاّ أن مقاومة المدافعين ابتدأت بالاضمحلال نتيجة التفوق بالسلاح والعدة التي كان عليها الجيش البرتغالي ، خاصة وحدات الجنود المدرعين ووحدات الجنود حاملي القُلَّة الحديدية التي تحطم الدروع ، ووحدات الجنود الذين يستعملون مدافع الهاون الصغيرة ذات الفتك الشديد في الاشتباك القريب . وتعترف المصادر البرتغالية أن معركة ضارية نشبت داخل المدينة بين المدافعين من بني جابر والمهاجمين ، إلاّ أن النصر كان في النهاية للبرتغاليين ، حيث انسحب المقاتلون إلى الجبال والشعاب المحيطة بالمدينة وبقيت المدينة خالية إلاّ من النساء والأطفال والشيوخ ، فقامت قوات أنطونيو دي كومبا بحصرهم فيما راحت قوات جوادي نوفا تفتك بالأحياء ، فقتلت أعداداً كبيرة من نساء المدينة وأطفالها ، ولما انتهى جوادي نوفا

من تلك المجزرة خرج إلى خارج المدينة حيث شاهد رتلاً آخر من المدنيين من الأطفال والنساء والشيوخ فأبادهم عن بكرة أبيهم .

تمكنت قوات البوكيرك من احتلال مقر حاكم المدينة ، وعندما جيء به للتحقيق تبين أنه من أهالي هرمز وقد تقلد منصبه بأمر من ملك هرمز ، فأمر البوكيرك بخلع ملابسه ثم أمر بقطع أعضائه التناسلية وإعدامه أمام أعوانه . ولما وصلت اليه أخبار بأن المدافعين العرب قد التجأوا إلى الجبال وأن أعداداً من أهالي المدينة لا زالوا في السهول والشعاب ، أمر الضابط فرانسيسكو دي تافورا أن يذهب اليهم ويعيدهم إلى المدينة ، فتمكن تافورا من جمع عدد منهم ، جُلبوا أمام البوكيرك فصفهم صفاً واحداً وضرب أعناقهم ، وأبقى على عدد منهم أمر بجدع أنوفهم وآذانهم وأركبهم سفينة ليذهبوا بها إلى بقية مدن عُمان وهرمز حتى يطّلع الناس عليهم هناك .

ولما انتهى من ذلك باشر بعمليات استثمار الفوز ، فدفع بعض قطعاته لتأخذ مواضع دفاعية خارج المدينة تحسباً من هجمات مضادة قد يقوم بها العرب ، وباشرت قطعات أخرى بهدم المواضع الدفاعية وأسوار المدينة والبيوت التي قد تشكل عائقاً أمام تحرك البرتغاليين ، وبقي البوكيرك في المدينة ثمانية أيام نهبها نهباً كاملاً ، ونقل كل ما فيها من طعام وأحواض ماء عذب إلى سفنه . وعندما كان أحد الجنود يقوم بتفتيش أحد الدور ، اكتشف أن أهل الدار قد قاموا بخزن الطعام بغرفة أغلقوا بابها بالطابوق فبدا وكأنه حائط ، فلما بلغ هذا الخبر إلى البوكيرك أمر بتهديم كل بيوت المدينة بحثاً عن الطعام المخبأ فيها ، فاكتُشفَتْ كميات من الذهب تعود إلى نساء مسقط ، كما تم شحن ثلاثين مدفعاً صالحاً للاستعمال إلى السفن ، ثم أمر بإحضار أحد الأسرى من الشيوخ العرب الذي قال إنه على علاقة جيدة بأمير بني جابر وأخبره أن يذهب إلى الجبال ويخبر الأمير أن يقوم بدفع مبلغ عشرة آلاف أشرفي (XERAFINS) ذهب[٢] لقاء عدم حرق مسقط ، فلما لم يعد الشيخ العربي أمر البوكيرك بحرق المدينة وابتدأ بالمسجد الجامع الكبير حيث قام الجنود بتقويض أعمدته مما جعل السقف يهبط عليهم فاعتقد

(٢) يذكر اسم النقد الأشرفي هذا خطأ في بعض المصادر العربية على أنه (سيرافين) وهو ترجمة صوتيه للفظة (XERDFINS) .

البوكيرك أنهم ماتوا جميعاً ولكنهم لم يصابوا بسوء وقاموا بحرقه ، ثم أحرقوا المدينة كلها .

كتب البوكيرك في مذكراته قائلاً :

« إن مدينة مسقط مدينة كبيرة ، ونفوسها كثيرة وبها آبار مياه كثيرة ونخيل وأشجار ، وأن المدينة يحكمها وال ومندوب عن حكومة هرمز ، أما المنطقة التي تحيط بها فيحكمها بنو جابر (BENJABAR) ، وأن سلطة بني جابر هذه تمتد من مسقط إلى منطقة ظُفار حيث حدود مملكة عدن ، كما أن سلطة بني جابر تمتد إلى البحرين وساحل القطيف حيث يحكمون هناك باسم ملك هرمز » .

ثم غادر البوكيرك مدينة مسقط المنكوبة متجهاً نحو المدينة التي لا تبعد عنها كثيراً وهي مدينة (صُحار) وكانت صُحار قد وصلتها أنباء الفاجعة التي حلت بمسقط ، وعندما وصلها لاحظ أن المدينة محصنة تحصيناً جيداً ، وقدّر لَوّ أن المدينة تريد الدفاع عن نفسها لاحتاج إلى قوة أكبر للهجوم عليها ، إلاّ أن حاكم المدينة عرض الاستسلام ، وقد ورد اسمه في المصادر البرتغالية (السيد ALCAYDE) ، كما وافق هذا الحاكم على إبقاء حامية برتغالية في المدينة وأن يقوم بدفع كافة نفقاتها . ثم أبحر البوكيرك على طول الشاطىء متجهاً نحو بلدة خورفكان .

وخورفكان ميناء يقع على ساحل بحر عُمان ، وهو اليوم يعود إلى إمارة الشارقة في دولة الإمارات العربية المتحدة ، والميناء على شكل خور مائي أي لسان مائي داخل البر محاط بجبال على شكل فكين . وفي اليوم الثاني من اقلاع اسطول البوكيرك شاهد عن بُعد قارباً من نوع (السمبوك) فأمر أحد قواربه بمطاردته وإلقاء القبض على من فيه ، إلا أن القارب تمكن من الهرب والاختفاء ، ثم استمر الاسطول بالسير على طول الساحل إلى أن لاحت لهم معالم بلدة تقع عليه ، فسأل البوكيرك الأدلاء الذين كانوا معه عن اسم المدينة فقالوا له إنها خورفكان وتكتب (ORFACAO) بالبرتغالية .

وما إن بدت طلائع الأسطول الغازي هناك ، حتى دب الرعب في ميناء المدينة إذ لاحظ البوكيرك أن سفناً عديدة قد تركت الميناء على عجل هاربةً من المعركة المتوقع نشوبها هناك فأمر سفنه بالقاء مراسيها بعيداً عن الميناء ، فيما نزل هو وجملةٌ من مقاتليه إلى قارب مسلح صغير ، اقترب به قليلاً من الساحل ليستطلع ما يجري هناك ، فشاهد جمعاً غفيراً من سكان المدينة وقد وقفوا بكامل أسلحتهم على الشاطىء ، كما شاهد أعداداً من الفُرسان ومن راكبي الجمال ، فقدّر الموقف هناك بأن المدينة تنوي الدفاع عن نفسها وأن رجالها مستعدون للقتال .

عاد البوكيرك إلى سفنه واجتمع بضباطه وأخبرهم بما شاهد على ساحل المدينة ، وأخبرهم أيضاً بأنه سيمهُل أهلها يوماً واحداً عسى أن يغيروا رأيهم ويرسلوا من يفاوضه على الاستسلام ، فإن لم يحدث هذا فسوف يهاجم المدينة صباحاً . وعندما كان يضع خطة الهجوم مع أركان حربه كانت سُفُنُهُ ترصُدُ تحركات أهالي خورفكان على الساحل فشاهدوا أعداداً من المقاتلين وقد تجمعوا قريباً من الشاطىء وراحوا ينشدون أهازيج وأناشيد الحرب والحماسة فيما بدا وكأن بعضهم اتجه نحو بعض القوارب الموجوده في الميناء ليستقلها ويذهب لقتال البرتغاليين وهم في سفنهم ، كما أن أعداد الفرسان وراكبي الجمال قد ازدادت أيضاً ، وبدا واضحاً أن المدينة مستعدة للقتال .

استغرق اجتماع البوكيرك بضباطه ليلاً إلى حوالي الساعة الثالثة صباحاً ، وكانت خطة الهجوم تقوم على أن يُمَهِّدَ لها بقصف مدفعي من السفن ، وأن تنقسم القوة المهاجمة إلى رتلين ، رتل بقيادة البوكيرك نفسه ورتل بقيادة الضباط (فرانسيسكو دي تافورا) و(أفونسو لوباز) و(جوان دي نوفا) .

بدأ الهجوم في الساعات المبكرة من الفجر بقصف مدفعي كثيف أعقبه نزول الرتل الذي يقوده البوكيرك يعاونه الضابط (أنطونيو دي نوّرونها) الذي اندفعت سراياه إلى الأمام وراحت تستخدم مدافع الهاون في تحطيم الدفاعات الخشبية والحجرية التي

وضعها أهالي خورفكان على ساحل البحر ، وتمكنت تلك المدافع من تحطيم تلك الدفاعات واندفعت من خلالها السرية التي يقودها دي نورونها ، وفوجيء العرب المدافعون بالجنود المدرعين وحاملي القُلّة الحديدية وحاملي الرماح الطويلة وهم يخترقون صفوفهم ، فتراجعوا إلى الخلف واعتصموا في منازل المدينة حيث راحوا يرشقون العدو بالسهام من فوق سطوح منازلهم ، وقد أُصيب عدد من المهاجمين مما أجبر دي نورونها إلى إصدار أوامره إلى وحدته بالتوقف عند الحافات الأمامية للمنازل القريبة من الساحل ، إلا أن البوكيرك قام بقيادة بقية الرتل بنفسه والتحق بدي نورونها صارخاً برجاله أن يدخلوا المدينة ، فحدث هياج عظيم عند البرتغاليين واندفعوا داخل أزقة المدينة وقتلوا أعداداً كثيرة من المدافعين .

أما قوة الرتل الثاني فقد كانت تهاجم من الجانب الثاني للمدينة وفعلت مدافع الهاون التي أحسنوا استخدامها ، نفس فعلها في عمليات هجوم الرتل الأول وأجبرت المدافعين على الانسحاب ، فاندفعت السرية التي يقودها (أفونسو لوباز) وكانت في المقدمة ثم تبعتها السرية التي يقودها (انطونيو دي كومبو) الى داخل المدينة وفي داخل أزقة المدينة واجهت هذه القوة مقاومة عربية شديدة فحدث اشتباك بالسلاح الأبيض .

وأخيراً تمكنت سرية (فرانسيسكو تافورا) من إجراء خرق للمقاومين الذين كانوا يرشقونهم بالحجارة وتمكنت من الوصول إلى قلب المدينة مستفيدة من أشجار النخيل لتسترها من أحجار العرب التي كانوا يلقونها عليهم ، إلا أن البوكيرك أمر دي تافورا بالعودة إلى الرتل الثاني ومساعدة بقية الوحدات المشتبكة بقتال عنيف مع المدافعين من أهل خورفكان .

وهنا لاحظ البوكيرك أن أهالي المدينة باشروا بإخلائها وأن قافلة مكونة من الرجال والنساء الذين بدا عليهم الرعب والتعب يهربون بدون نظام ، فطلب من انطونيو دي نورونها أن يجمع ثمانين رجلاً وأن يسرع باللحاق بهؤلاء الناس ويقتلهم جميعاً ،

فهرع دي نورنها وراء القافلة التي صارت قريبة من الجبال التي تُحيط بالمدينة وقبل أن يصل إليها ، بوغت بهجوم معاكس قام به الفرسان العرب المسلحون بالقسي والنشاب وصدوه وأعادوه إلى الخلف فهرع البوكيرك بقوته لنجدة دي نورونها وحدث قتال عنيف مع قوة الفرسان العرب خارج البلدة وقرب الجبال المحيطة بها . وهنا انتبه البوكيرك إلى أن وحداته قد تباعدت ، كما ابتعد الرتل الأول عن الرتل الثاني وقدر أن الموقف ليس بصالحه ، فأصدر أوامره إلى كافة الوحدات بالعودة والتجحفل ثانية داخل حدود مدينة خورفكان التي كانت قد أُخليت من المدافعين الذين انسحبوا إلى الجبال والتحقوا بقوة الفرسان هناك .

وفي داخل المدينة اجتمع البوكيرك بقادة الوحدات وألقى فيهم كلمة تشجيعية واصفاً إياهم بأنهم أولاد وأحفاد مقاتلين عظام ، ثم أمر بجمع الغنائم من المنطقة التي يحتلها من المدينة فراح الجنود ينقلون ما يحصلون عليه إلى السفن البرتغالية ، فيما راحت بقية الوحدات تعزز مواضعها الدفاعية داخل المدينة .

وبينما هُم على هذه الحالة ، قام العرب بشن هجوم معاكس مفاجيء كبدوا سرية انطونيو دي كومبو خسائر كبيرة فأمر البوكيرك بانزال خمسة مدافع ثقيلة العيار من السفن إلى الشاطىء ، ولما وصلت تلك المدافع راحت تصب نيرانها على المدافعين العرب الذين كانوا يعتصمون بالجبال ، إلا أن هجوماً عربياً معاكساً آخر شنه المدافعون وحدث اشتباك كبير بين كل القوات البرتغالية والعربية إلى أن حل الظلام فتوقف الطرفان عن القتال .

وفي صباح اليوم الثاني شاهد البوكيرك ثلاثة من العرب على ظهور الخيل وقد رفعوا علماً أبيض ، ولما وصلوا اليه أخبروه أن القائد العربي في الجبال يطلب وقف الحرب وأنه مستعد لاجراء المفاوضات ، فوافق على ذلك ، إلا أن المفاوضين العرب لم يعودوا .

أثار ذلك جنون البوكيرك فأمر بجلب الأسرى واختار الشبان الأصحاء منهم ليقوموا بنقل كل ما يجدونه في المدينة من طعام ونقود وذهب وماء إلى السفن البرتغالية ، وأن يُستخدموا فيما بعد للتجذيف بالمجاذيف ، أما الشيوخ وبقية الأسرى فقد أمر بجدع أنوفهم وأذانهم وأطلق سراحهم .

وبعد ذلك جاء أحد ضباطه المسمى (نونا فازدي كاستيلو برانكو) ومعه رجل عربي كبير السن تبدو عليه علامات الوجاهة والوقار ، فطلب البوكيرك من الرجل أن يذكر اسمه ومن هو ، فأجابه الشيخ العربي أنه واحد من ثلاثة أمراء هم حكام المنطقة وأن الحاكمين الآخرين قد هربا أما هو فلم يتمكن من ذلك ، ثم سأله البوكيرك عن موقع هرمز فوصف له الشيخ مكان الجزيرة بالتفصيل كما شرح له تاريخ المدينة فأعجب البوكيرك بعلم هذا الشيخ ومعرفته ، كما أن الشيخ أخبره بأنه قد قرأ عن (الاسكندر المقدوني) الذي حكم العالم ، وهو يعتقد أن البرتغاليين سيتمكنون من حُكم العالم مثل المقدوني ، فازداد إعجاب البوكيرك بالرجل وطلب منه أن يُحدثه أكثر عن الاسكندر ، ثم قام الشيخ العربي بإهدائه كتاباً مكتوباً باللغة الفارسية ومغلفاً بغلاف من القطيفة وقال له إن هذا هو كتاب الاسكندر ، فأخذه البوكيرك منه ، وطلب الاحتفاظ بالشيخ ليكون مستشاراً له في رحلته إلى هرمز ، وعندما حل الظلام استغلت بعض سفن منطقة الكجرات الهندية وبعض السفن الإيرانية التي كانت ترسو في خورفكان الفرصة فهربت من الميناء .

وفي صباح اليوم التالي وعندما تأكد البوكيرك من أن المدينة قد نُهبت تماماً ، أصدر أمراً بحرقها ، فقام الجنود بحرقها وإزالتها من الوجود ، فلما تم لهم ذلك عادوا إلى سفنهم وأقاموا احتفالاً عظيماً بمناسبة ذلك النصر .

كتب البوكيرك في مذكراته واصفاً خورفكان فقال :

« إن خورفكان قرية كبيرة وهي تابعة لمملكة هرمز ، بيوتها واسعة وجميلة ، وأنها

محصنة تحصيناً جيداً من ناحية البحر ، ويعيش فيها عدد من تجار منطقة (الكجرات) في الهند . والمدينة تحدها الجبال العالية من الخلف أما من ناحية البحر ، فهناك حائط أقامه الأهالي للدفاع عنها علاوة على وجود بعض الجزر القريبة من الساحل والتي تجعل من الصعب على السفن الوصول اليها ، وفي المدينة يوجد عدد من المزارع يُزرعُ فيها البرتقال والليمون والتين والنخيل والخضروات الأخرى وبها عدد من الآبار ونظام ريهًا جيد ، وفي تلك الحقول يوجد عدد من إسطبلات الخيل وفي الميناء ترسو أعداد من زوارق الصيد التي يستعملها الأهالي ، كما تنتشرُ شباك الصيد هناك ، أما حكام المدينة فهم بنو جابر (BEN JABAR) » .

ثم أبحر الأسطول البرتغالي تاركاً المياه الإقليمية العُمانية ومتجهاً نحو هرمز .

ونود أن نقول هنا إن تفاصيل تلك المذابح والمجازر وأساليب التعذيب والتشويه التي قام بها البرتغاليون تجاه مسلمي افريقيا وعرب عُمان ، لم يتطرق اليها المؤرخون المسلمون والعُمانيون ، ومن العجيب كما قلنا ، أنه عندما وقعت تلك الحروب الضروس بين العُمانيين والبرتغاليين فإن التاريخ العُماني صمت صمتاً كاملاً عنها ، فهي قد وقعت على عهد الإمام محمد بن اسماعيل ٩٠٦هـ - ٩٤٢هـ أو ما يوافق ١٥٠٠م - ١٥٣٥م . وكل ما ذكره المؤرخون العُمانيون عن أيام ذلك الإمام جُملة اجتهادات فقهية ، اجتهد بها عُلماء الدين من رجال ذلك العصر في مدحه .

توقفت سفن البوكيرك أمام جزيرة هرمز ، ويذكر لنا المؤرخون البرتغاليون أرقاماً مبالغاً فيها عن القوة التي جهزها ملك الجزيرة للدفاع عن جزيرته فذكروا أن القوة المدافعة كانت مكّونة من عدة سفن حمولة كل واحدة ألف طن أرسلها حاكم منطقة (كامباي) الهندي وعدد آخر من السفن حمولة ستمائة طن أرسلها أمراء المنطقة الهنود علاوة على مائتي سفينة صغيرة كانت موجودة في الميناء ، أما تعداد الجيش المقاتل فيقدر بين خمسة عشر ألفاً إلى عشرين ألف مقاتل .

وكان البوكيرك قد أرسل جاسوساً إلى الجزيرة ، جاء إليه بالمعلومات السابقة ، مما ترك أثراً سيئاً في معنويات الضباط البرتغاليين الذين قدروا أن كثرة المدافعين عن الجزيرة قد يسبب كارثة لهم فظهرت عليهم علامات عدم الاطمئنان عن الوضع العسكري . وتذكر المصادر البرتغالية أيضاً أن أول مرة ظهرت فيها بادرة استنكار من الضباط على الطريقة التي يتعامل بها البوكيرك مع هذه الحرب عندما حاول جوا دي نوفا بعد مذبحة مسقط التفاهم مع البوكيرك حول تلك المجزرة ، إلا أن البوكيرك لم يكترث له وقيل إن دي نوفا حاول الهرب بسفينته إلى الهند ليلتحق بالاسطول البرتغالي هناك .

وافق البوكيرك بصورة مبدئية على أن يرسل موفداً منه إلى ملك هرمز يُخيّره بين الحرب والسلام ، فعاد الموفد ومعه موفدٌ من الملك هو (خوجا ابراهيم COJA ABRAHEM) الذي أخبر البوكيرك أن ملك هرمز يريد أن يعرف سبب وجوده وماذا يريد ؟ فأجابه البوكيرك قائلاً : إن ملك البرتغال أرسله إلى هنا ليقوم بخدمة التاج البرتغالي ، وإن على ملك هرمز أن يعلن تبعيته وخضوعه للملك البرتغالي ، وبعكسه فإنه سيقوم بتحطيم الأسطول الهرمزي وتدمير الجزيرة تدميراً كاملاً . فلما سمع الخوجا كلام البوكيرك أقفل عائداً الى الجزيرة .

أثار رد البوكيرك العنيف هذا حفيظة الضباط البرتغاليين الذين كانوا يرغبون أن يكون كلامه أكثر دبلوماسية . أما ملك هرمز فقد أرسل خوجا ابراهيم ثانية إلى البوكيرك قائلاً إنه يرغب بالسلام ولكنه يريد أن يعرف سبب تدميره للمدن العُمانية التي كانت تحت سيطرته ، وإنه الآن يعقد اجتماعاً مع أعيان الدولة لبحث موضوع السلام .

اعتبر البوكيرك جواب ملك هرمز تحدياً له وطلب اجتماعاً مع قادته الذين اعترضوا عليه قائلين إن احتلال جزيرة هرمز لم يكن من ضمن الخطة البرتغالية للحملة وإنه يجب التفاهم سلمياً مع ملك هرمز ، إلا أن البوكيرك لم يعبأ باعتراض ضباطه ، بل

أرسل إنذاراً نهائياً إلى ملك هرمز قال فيه إنه ومنذ ثلاثة أيام وهو ينتظر جواباً نهائياً بخضوعه لملك البرتغال ، لذلك فإنه سيقوم باحتلال المدينة قسراً .

ثم أصدر أمراً إلى قادة السفن وضباط الوحدات أعلمهم فيه أن الهجوم سيكون غداً صباحاً وشرح لهم الخطة ، وانصرف الضباط إلى سفنهم واقتربوا بها قليلاً من الشاطىء ووضعوها بشكلٍ يساعد على استخدام المدفعية الموجودة فيها لقصف هرمز .

وفي الساعة السابعة من صباح اليوم التالي فتحت السُفن البرتغالية نيرانها على تجمعات السفن الموجودة في الميناء وسرعان ما ردت السفن على النيران البرتغالية ، ثم صارت السفن الهرمزية تخرج الواحدة تلو الأخرى لتقاتل البرتغاليين ، إلا أنها سرعان ما تذهب طعماً سهلاً أمام تفوق المدفعية البرتغالية واستمر الاشتباك على هذا النحو إلى الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم تم خلاله تدمير معظم أسطول هرمز ، فامتلأ البحر بالرؤوس البشرية التي تحاول النجاة سباحة ، إلا أن رجال القوارب البرتغالية الخفيفة كانوا لهم بالمرصاد ، ثم أمر البوكيرك سريتين من سراياه بالنزول إلى البر فقامت السريتان بتحطيم المقاومة الأرضية ثم باشرتا باشعال النيران في الدور المجاورة لساحل البحر .

وبعد ذلك شاهد البرتغاليون الأعلام البيضاء ترتفع على أسطح المنازل ، فتوقفوا عن القتال ثم جاء وفد من المدينة يطلب مقابلة البوكيرك فقابلهم وهو في سفينته ووافق على عقد معاهدة صلح مع خوجا عطار ملك هرمز (COJA ATAR) تضمنت أن يقوم بدفع أتاوة سنوية لملك البرتغال ، وأن تفتح الجزيرة ميناءها أمام التجارة البرتغالية بدون دفع رسوم جمركية . وقد تم التوقيع على المعاهدة في شهر أيلول / سبتمبر من عام ١٥٠٧م وتمت كتابتها باللغتين العربية والفارسية ، وفي يوم الأثنين

الموافق ١٠/ ١٠/ ١٥٠٧م قامت القوات البرتغالية باستعراض في شوارع المدينة وهي ترفع علمها المصنوع من الحرير الأبيض وقد رُسم عليه الصليب الأحمر ، ثم تم رفع هذا العلم على سارية قصر ملك هرمز دليل خضوعه واستسلامه .

وفي يوم ٢٤/ ١٠/ ١٥٠٧م أمر البوكيرك ببناء قلعة لتكون قاعدة للأسطول البرتغالي الذي سيعمل في الخليج أطلق عليها إسم : (NOSSA SENHORA DA VICTORIA) أي : سيدة النصر ، ثُم قام بتعيين المدعو (بيرو فاز دي أورتا) وكيلاً للمركز التجاري المزمع فتحه هناك .

وبينما كان هذا العمل قائماً على قدم وساق ، جاء (الريس نور الدين) وهو من أقطاب حكومة هرمز وقابل البوكيرك وقال له إن موفداً من الشاه إسماعيل الصفوي حاكم إيران قد وصل إلى هرمز ، وإنه يطالب بالضريبة السنوية التي كانت تدفعها الجزيرة له ، فقال له البوكيرك أن ينقل إلى الشاه اسماعيل بأن الجزيرة تعود الآن إلى الملك دون مانويل ملك البرتغال ، وإنه لن يرسل إلى الشاه نقوداً بل سيرميه بطلقات من مدافعه .

وفي شهر يناير كانون الثاني ١٥٠٨م تم الانتهاء من بناء أبراج القاعدة البرتغالية البحرية في هرمز ، وفي الاجتماع الذي عقده البوكيرك مع قادة الوحدات لمناقشة الموقف وخطة الحركات المقبلة ، ثار نقاش حاد بينه وبين القادة حول جدوى البقاء في هرمز وجدوى بناء قلعة فيها ، حيث اعتقد الضباط بأن الجهود العسكرية التي صُرفت إلى الآن كان يجب أن تكون في الهند لأنها مصدر التجارة الأصلي ، والهدف الرئيسي للحملة . ثم تطور النقاش إلى انسحاب قادة الوحدات إلى سفنهم وهناك اجتمعوا فيما بينهم ووجهوا رسالة إلى البوكيرك حول هذا الموضوع وقعها الجميع ما عدا جواو دي نوفا ولما وصلت الرسالة إلى البوكيرك مزقها ، ثم تطور الأمر إلى ما يشبه العصيان حيث بقي الضباط في سفنهم وأعلن جنود المدفعية في السفن أن البوكيرك حرمهم من حصصهم من غنائم الحرب لذلك فإنهم لا يطيعون أوامره ، وحاول البوكيرك من

جانبه اقالة فرانسسكو دي تافورا من منصبه ولكن بدون جدوى .

بلغت أنباء عصيان ضباط البوكيرك إلى مسامع خوجا عطار حاكم هرمز ، فاستغل الفرصة وأصدر أمراً بايقاف العمل في بناء القلعة البرتغالية ، بل تجرأ أكثر حين وصل إليه أربعة جنود برتغاليين طلبوا اللجوء عنده ، فأرسل موفده ريس نور الدين إلى البوكيرك يبلغه أنه يرغب بأن يغادر الاسطول البرتغالي المياه الإقليمية في هرمز .

عاد البوكيرك فاجتمع بضباطه وبعد نقاش حاد أصر فيه الضباط على عدم جدوى القتال في هرمز ، وأنه يجب الذهاب إلى الهند لتعزيز قوة نائب الملك هناك أو العودة إلى سُقُطره وقتال السفن العربية في باب المندب ، إلا أن نهاية النقاش كانت في صالح البوكيرك ، فتم الاتفاق على أن يقوم الأسطول بقصف هرمز .

وفي صباح اليوم التالي فتحت سفن الأسطول البرتغالي نيران مدافعها الثقيلة على المدينة وراحت تهدم الدور وقام البوكيرك بفرض الحصار على المدينة ، ولم يكتف بهذا بل أمر سرية من سراياه أن تنزل إلى الساحل وأن تذهب إلى آبار المياه التي تزود البلدة بالماء وتحصل على أكبر كمية من الماء العذب ثم تقوم بقتل حراس الآبار وإلقاء جثثهم فيها ، فقامت السرية بإنجاز الواجب المذكور . فلما تفاقهم الأمر في هرمز ، بعث خوجا عطار رسالة إلى البوكيرك يطلب اليه أن يُجري صلحاً جديداً ، لكن البوكيرك رفض هذا الطلب ورد عليه بالقيام بقصف جديد للمدينة .

وفي شهر شباط اكتشف البوكيرك أن هناك آبار ماء عذب في جزيرة (القسم) المجاورة لهرمز فأرسل سفينة إلى هناك لتجلب الماء العذب ، فشاهدت هذه السفينة أن الجزيرة تحرسها قوات كثيرة ، وأن أهالي هرمز يشربون الماء من آبارها ، فأمر البوكيرك ضباطه (أفونسو لوباز) و(مانويل تالاس) و(أنطونيو دي كومبا) أن يخرجوا بسفنهم لقتال القوة الموجودة في جزيرة القسم . ولكن ما إن خرجت هذه السفن وابتعدت عن أنظار البوكيرك حتى غيرت اتجاهها وهربت نحو الهند .

فلما اكتشف البوكيرك ذلك انفجر غيضاً وقام بإرسال رسالة إلى نائب الملك في الهند بواسطة إحدى السفن التابعة لهرمز يخبره فيها بموضوع الضباط الهاربين من الخدمة ومجريات الحوادث في هرمز ، ثم قرر بعدها أن يعود إلى سقطره بعد أن لم يبقَ معه من السفن إلا سفينتا الضابطين فرانسسكو تافورا وجوا دي نوفا ، وعندما وصلت هاتان السفينتان إلى مدينة صُحار العُمانية اكتشف البوكيرك أن السفينة (فلوردي لامار) التي يقودها جوا دي نوفا قد هربت أيضاً إلى الهند إلا أنه تابع السفر . وفي خليج عدن التقى بسفينة عربية محملة بالبضائع التجارية فأوقفها وقتل ركابها وأحرقها في البحر ، ثم وصل إلى سقطره حيث قام بطلب النجدات من الوحدات البرتغالية الموجودة في (ملندي) في الساحل الأفريقي ، فأرسلوا قوة إليه وأعاد تنظيم قيادات السفن كما أجرى صيانة عامة عليها وأبحر ثانية من سقطره في ١٥/ ٨/ ١٥٠٨م متجهاً نحو هرمز .

وصلت السفن البرتغالية إلى ميناء قلهات العُماني ، وهناك اكتشف البوكيرك أن ريس نورالدين وهو أحد أركان نظام هرمز موجود في المدينة ومعه خمسمائة مقاتل مستعدون لقتاله ومنعه من التوقف هناك ، إلا أن البوكيرك لم يترك دقيقة واحدة تمر ، إذ سرعان ما راح يقصف المدينة ثم نزلت قطعاته والتقت بالمدافعين عنها وحدث اشتباك عنيف في أزقتها وانتهت المعركة باندحار العرب ، وقام البوكيرك بتنفيذ التقليد الوحشي لنهاية معاركه وانتصاره بأن قام بقطع أنوف وآذان الأسرى واتجه ثانية نحو هرمز .

وصل البوكيرك إلى هرمز والقى مراسيه على بُعد من المدينة وعلم أن خوجا عطار يواجه مشكلة مع بعض المنشقين عليه ، فعرض عليه معاونته ، إلا أن خوجا عطار أرسل رسالة إلى البوكيرك قائلاً إنه لا يريد معاونته وإنه يجب أن يغادر هرمز فوراً لأنه استلم رسالة من نائب الملك البرتغالي في الهند يعتذر له عما فعله البوكيرك وأنه ليس في نية الحكومة البرتغالية احتلال هرمز .

استلم البوكيرك جواب حاكم هرمز فاستشاط غضباً وأرسل جواباً إلى الحاكم قائلاً له إنه لا يعترف بوجود نائب للملك في الهند ، وإنه يجب عليه وفي خلال ثمانية أيام القيام بدفع خمسة عشر الف أشرفي ذهب وهي الضريبة السابقة التي وافق على دفعها إلى ملك البرتغال . وبعد ثمانية أيام ولما لم يرد جواب من حاكم هرمز قرر البوكيرك محاصرة الجزيرة .

وخلال الحصار علم البوكيرك أن أسطولاً إيرانياً كبيراً قد أرسله الشاه إسماعيل الصفوي لنجدة هرمز قد وصل إلى جُلْفار (الإسم القديم لمدينة رأس الخيمة ، الواقعة الآن في إمارة رأس الخيمة في دولة الإمارات العربية المتحدة) إلا أن البوكيرك كان أسرع من الأسطول الإيراني إذ سرعان ما نصب له كميناً في البحر وأوقع به هزيمة كبرى .

وصلت أنباء هزيمة الاسطول الإيراني إلى الشاه الذي كان متورطاً بحرب مع الدولة العثمانية ، فقرر أن يُهادن البرتغال وأن يتنازل لهم عن هرمز وما يريدون في الخليج العربي لقاء مساعدته في حربه ضد الأتراك ، وعلى هذا الأساس أرسل وفداً ليقابل ويفاوض البوكيرك الموجود في هرمز ، إلا أن البوكيرك كان قد أمر سفنه بفك الحصار عن هرمز والاقلاع نحو الهند ، حيث وصلها في شهر نوفمبر تشرين الثاني عام ١٥٠٨م .

ولا بد أن نشير هنا إلى خبر يفيد أن البحرين قد قامت بدور للدفاع عن هرمز ضد البرتغاليين إذ يقول أحد المؤرخين وهو الاستاذ أحمد العناني نقلاً عن مقال الجمعية الملكية الآسيوية ما يلي :

« لقد أرسلت البحرين أسطولاً عليه إمداد من الرجال والمؤن إلى ميدان المعركة في هرمز ، لكن البرتغاليين تحصنوا لهذه القوة وكمنوا لها في جزيرة (القسم) وقد تمكنوا بعد قتال مرير من إغراق السفن البحرينية وعلى الأثر دار قتال بحري عنيف جداً بين المهاجمين والمدافعين عن هرمز وانتصر البرتغاليون رغم قلة عددهم وأمكن التوصل

لنصوص معاهدة بين هرمز والبرتغاليين سمح بموجبها للبرتغاليين بناء قلعة لهم ، ولكن البوكيوك اضطر لمغادرة تلك الأراضي والتوجه عائداً إلى الهند بسبب تمرد ضباطه عليه[٣] .

وصل البوكيرك إلى مدينة (كنانور) الهندية حيث مقر نائب الملك البرتغالي فرانسيسكو دي الميادا ، وذلك بعد سنتين وثمانية أشهر قضاهم في البحر يقاتل العرب والمسلمين ، وهناك التقى بنائب الملك وكان معه الضباط الذين انشقوا عليه في هرمز وهربو إلى الهند ، ولم يبدُ على البوكيرك أنه كان مهتماً أو مكترثاً لوجودهم هناك ، لأنه كان معتمداً على وعد الملك مانويل له بأنه سيصبح نائباً للملك في الهند بعد ثلاث سنوات من تركه لشبونه .

وقبل أن ندخل في تفاصيل ما حدث بين نائب الملك والبوكيرك لا بد أن نتطرق إلى ما حدث في الهند عندما انشق ضباط البوكيرك عنه وهربوا إلى الهند ، فعندما وصلوا إلى هناك رفعوا مذكرة إلى نائب الملك شرحوا فيها أسباب تركهم البوكيرك وطلبوا رفعها إلى الملك ، وتتلخص المذكرة في أن البوكيرك قد خالف الأوامر المعطاة اليه باتخاذ جزيرة سقطرة قاعدة للأسطول البرتغالي ليتحكم منها في السيطرة على التجارة العربية واحتلال مكة[٤] ، إلا أنه خالف تلك الأوامر وترك سقطرة وقضى وقته يقاتل في سواحل عُمان وهرمز ، وأنه لا مبرر لاحتلال هرمز أو بناء قاعدة بحرية هناك ، كما أنه كان من الممكن تفادي الخسائر التي لحقت بالبرتغاليين نتيجة تلك الحروب التي لم يكن مُخططاً لها ، كما اتهم الضباط البوكيرك بأنه تصرف وتلاعب بالأموال التي حصل عليها من هرمز . فقام نائب الملك برفع مذكرة الضباط إلى الملك البرتغالي .

وعندما وصل البوكيرك إلى الهند ، لم يذهب لمقابلة دي الميادا رأساً ، بل أرسل اليه سكرتيره ليخبره بأن البوكيرك موجود الآن في الهند وأنه يحمل أمراً من الملك مانويل

---

(٣) أحمد العناني – البرتغاليون في البحرين وحولها – مقال منشور في مجلة الوثيقة – العدد الثالث – السنة الثانية – ص ٩٠ .

(٤) إن تعبير احتلال (مكة) ظهر كثيراً في المصنفات البرتغالية وفي كثير من الأحوال يقصدون به (العرب والمسلمين) كهدف عام فهم خلطوا كثيراً بين الأمم الاسلامية التي قاتلتهم فصارت كلمة (مكة) تعني الهدف الأكبر لهم وهو تحطيم أية قوة عربية أو إسلامية .

بتسليم السلطة له فعليه ترك الهند والعودة إلى البرتغال .

صعق الميادا لهذا التصرف الصلف من البوكيرك وطلب الاطلاع على أمر الملك فأطلعه السكرتير عليه ، فأجابه دي الميادا بأنه غير مستعد الآن لترك الهند لسببين : الأول هو أنه قد أكمل ستعداداته الحربية لشن حملة على القوة المصرية التي يقودها الأمير حسين الكردي والموجودة في بلدة (ديو) للقضاء عليها ، فهو لم يَنْسَ بعد مصرع ولده لورنزو ، ولا بد من الانتقام . أما السبب الثاني ، فهو أنه قد أرسل تقريراً إلى الملك يتضمن خمس شكاوى عن تصرفات البوكيرك ، وهو الآن ينتظر جواب الملك ، لذلك فإنه لن ينفذ طلب البوكيرك ولن يغادر الهند .

أما تقريره إلى الملك فقد تضمن الشكاوى التالية :

الشكوى الأولى : إن البوكيرك يتصرف بدون محاسب أو رقيب في الهند وهو لا يقابل نائب الملك وإنه قد استقر في بلدة أخرى .

والشكوى الثانية : إن البوكيرك قد ترك واجبه الرسمي في البقاء في سقطره وقضى كل وقته في هرمز ومدخل الخليج العربي ، وإنه موجود الآن في الهند بدون سبب واضح .

أما الشكوى الثالثة : إنه حاصر هرمز وقتل أهلها في الوقت الذي كان يمكن فيه التفاهم مع (خوجا عطار) سلمياً أو مع شاه إيران الذي يرغب بالتحالف معهم ضد الدولة العثمانية .

والشكوى الرابعة : تأكيدٌ للشكوى الثالثة بأن البوكيرك لم يقم بواجب التفاهم مع خوجا عطار .

أما الشكوى الخامسة : فقد كانت اتهامات لألبوكيرك بأسر بعض التجار العرب والإيرانيين والدخول معهم في صفقات مالية مشبوهة .

وقد وصلت نسخة من شكوى الميادا إلى البوكيرك فقام هذا بإرسال جواب إلى الملك عن النقاط الخمس التي أثارها دي الميادا طالباً المثول معه أمام الملك لإجراء محاكمة علنية للاثنين .

أما فرانسيسكو دي الميادا فقد كان قد أكمل استعداداته لمنازلة الأسطول المصري المملوكي الموجود بقيادة الأمير حسين الكردي في ميناء (ديو) ، وتشكلت القوة البرتغالية من تسع عشرة مدمرة حربية على ظهرها (١٦٠٠) جندي وبحار منهم (٤٠٠) جندي هندي مالاباري ، وقد أبحر الاسطول ووصل أولاً إلى (انجديفا) ثم إلى (دابول) حيث وصلها في ٣٠ ديسمبر/ كانون أول وهاجمها فور وصوله واحتلها ونهبها ثم أمر بحرقها ، وفي يوم ٥/ ١/ ١٥٠٩م غادر المدينة وكلما شاهد سفينة هندية في طريقه استوقفها ليحصل على معلومات عن قوة المسلمين ثم يحرقها إلى أن وصل إلى بلدة (ديو DIU) حيث مقر الأسطول المصري وبقية أساطيل الأمراء المسلمين ، وكان ذلك في ٢/ ٢/ ١٥٠٩م .

وفي مدينة (ديو) كان الأمير حسين الكردي قد اجتمع بمالك عزيز حاكم المدينة الهندي ، وكانت تقديرات البرتغاليين أن قوة المسلمين البحرية لا تقل عن مائتي سفينة ، لذلك قرر (الميادا) أن يهاجم في صباح اليوم التالي .

وفي حوالي الساعة التاسعة صباحاً تقدمت السفن البرتغالية نحو المدينة ، فخرج اليها الأمير حسين الكردي ومعه جملة الأسطول المصري المملوكي وحدث اشتباك بين الطرفين بالمدفعية استمر طيلة النهار ، ثم شاهد الميادا أن سفينة الأمير حسين قد اتجهت نحو الشاطىء وعلم بأن الأمير قد أصيب بجرح فأمر وحداته باستثمار الفوز ، وراح يهاجم بشدة وكلما استولى على سفينة مصرية نزع عنها علم السلطان قانصوه الغوري وعلم الأمير حسين وأمر بحرقها .

كان مالك عزيز قد بقي في مدينة (ديو) مع قطعاته لغرض الدفاع عنها إذا ما أُصيب

الأسطول المصري بهزيمة ، فتوقف الميادا في مدخل الميناء وأجهز على بقية السفن الموجودة فيه ، ثم أرسل رسالة إلى مالك عزيز يخبره بأنه لا ينوي احتلال المدينة ، وأن الغاية من حملته هذه هي لتحطيم الأسطول المصري الذي قد تحطم الآن بالفعل ، وأنه يرغب بإعادة كافة الأسرى البرتغاليين الموجودين في المدينة ، فوافق مالك عزيز على ذلك وأطلق سراح الأسرى البرتغاليين وعاد الميادا إلى مقره منتصراً في بلدة كوشن في ٨/ ٣/ ١٥٠٩م .

أما القائد المصري المملوكي الأمير حسين الكردي فقد هرب إلى جهة مجهولة ، وهرب كذلك البحارة المصريون الذين نجوا من القتل في المعركة إلى منطقة (بيجابور) وغيرها من مناطق الأمراء المسلمين حيث منحوهم الحماية ووعدوهم بإعادتهم إلى مصر .

وفي شهر صفر/ ربيع الأول وصلت أنباء انكسار الأمير حسين الكردي إلى القاهرة ، فزادت من مشاكل السلطان قانصوه الغوري ومتاعبه حيث كان يصد هجمات على سواحله الشمالية يقوم بها فرسان القديس يوحنا ، كما كان يواجه صعوبات اقتصادية جمة نتيجة للانهيار الاقتصادي الذي تعرضت له مصر بعد انهيار التجارة العربية – الهندية من جهة والتجارة المصرية مع حكومة البندقية وأوربا من جهة أخرى(٥) .

وصل الميادا إلى كوشن وقد امتلأ زهواً بانتصاره وقرر مقابلة البوكيرك الذي لم يخرج للقتال ، وإخباره بأنه قرر عدم التنازل له عن منصب نائب الملك ، وقد أدى العناد بين الطرفين إلى أن يصدر الميادا أمراً باعتقال البوكيرك ، كما أصدر البوكيرك أمراً مماثلاً ، باعتقال الميادا وأوشك الموقف في الهند أن يتأزم وأن يدور في غير صالح البرتغاليين ولم ينقذ الوضع هناك إلا وصول (فرناندو كوتينهو) من لشبونه وهو يحمل أمراً ملكياً بإعفاء دي الميادا من منصبه وتعيين أفونسو دي البوكيرك نائباً للملك هناك .

(٥) ابن إياس – المصدر نفسه ص ١٥٦ . وكذلك تحفة المجاهدين – ص ٤١ .

وفي يوم الأحد ٥/ ١١/ ١٥٠٩م أعلن البوكيرك نفسه ويشكل رسمي نائباً للملك دون مانويل وحمل لقب : (CAPTAIN - GENERAL AND GOVERNOR OF INDIA) .

وهكذا صعد هذا القائد الذي قارب السبعين من عمره ، ذو اللحية الحمراء الكثيفة التي تصل إلى محزمه تقريباً إلى هذا المنصب الذي طالما حلم به ، ليُشيِّدَ أركان الأمبراطورية البرتغالية على مبادىء من القوة والدم والنار وقهر الشعوب ، وليحقق حلمه الذي داعبه كونه خليفة الاسكندر المقدوني فاتح الهند . فقام منذ أيامه الأولى بتدمير ما تبقى من الأسطول المصري ، وهاجم جيش الملك السامري في كاليكوت واشتبك معه في معركة كبيرة أسفرت عن مصرع (دون فرناندو كوتنهو) وهو موفد الملك الذي جاء بأمر تعيينه وأصيب البوكيرك بجرح في كتفه وانتهت المعركة بتدمير (كالي كوت) وحرق مساجدها . وفي عام ١٥١٠م أنتقل إلى مقره الجديد وهو مدينة (گوا GOA) الهندية على ساحل (المالابار) جنوب الهند واتخذها عاصمة له .

وبذلك فقد أصبحت البرتغال في مقدمة الدول الاستعمارية في العالم ، وتقاسمت هي واسبانيا العالم ، وعندما ثارت الخلافات بينهما تدخل البابا وقرر تقسيم العالم بينهما حسب معاهدة (TORDESILLAS) .

إلا أن الخلافات ثارت ثانية بين الأمتين الأوربيتين بسبب المنافسة على سواحل بلاد المغرب المطلة على المحيط الأطلسي وسواحله المطلة على البحر الأبيض المتوسط أيضاً ولم ينته النزاعُ بين الأمتين إلا بعد أن مزقوا المغرب العربي بينهم بالتوقيع على معاهدة (سنترا SINTRA) عام ١٥٠٩م ، والتي وضعت حداً للنزاع والخلافات على أساس اقتسام مناطق النفوذ في المغرب العربي ، وهو الموضوع الذي سنتطرق اليه في الفصل القادم .

18

الفصل الثامن عشر

* المغرب على عهد السلطان محمد بن محمد الشيخ الوطاسي المعروف باسم محمد البرتغالي
* معاهدة (سنترا – SINTRA) عام ١٥٠٩ لاقتسام سواحل المغرب والجزائر.
* تفاقم الوضع السياسي في المغرب وقيام نواة الحركة السعدية في بلاد السوس.
* اوضاع اقتصادية وسياسية متردية تسود مصر.
* مصر تتهيأ لحملة عسكرية بحرية ثانية تذهب إلى الهند لقتال البرتغاليين.

قلنا في الفصل الرابع عشر إن عام ١٥٠٠م شهد تولي السلطان محمد بن محمد الشيخ الوطاسي المعروف أيضاً باسم (محمد البرتقالي) و(محمد البرتغالي) كذلك عرش المغرب، وكانت العاصمة (فاس) آنذاك. فقد صعد هذا السلطان إلى سدة الحكم في مملكة تنهش سواحلها كُلٌ من اسبانيا والبرتغال، وتنهش جسمها خلافات سياسية وانقسامات داخلية، وقد تميز حكم هذا السلطان في أيامه الأولى بمحاولات للغزو والجهاد ضد المحتلين خاصة ضد البرتغاليين، فقد ظهر وكأن البلاد مقبلة على عهد جديد، خصوصاً وقد حاول هذا السلطان الحصول على مساعدات من كل من سلطان مصر والسلطان العثماني وذلك لغرض توحيد القوى بين الملوك المسلمين، لكن هذه المحاولات فشلت. ومما زاد الأوضاع سوءاً في البلاد هو أن احتلال البرتغال والاسبان للثغور المغربية ساهم في خنق التجارة المغربية الخارجية والداخلية، إلا أن السلطان لم يتوان عن القيام ببعض أعمال الجهاد رغم الامكانيات القليلة الموجودة لديه[١].

---

(١) د. عبدالكريم كريم – المصدر نفسه – ص ٤٨.

فكانت المدن والثغور البحرية التي سقطت بيد الأمتين الأوربيتين كما يلي :

الإسبان : احتلو مدن (مليله) و(بنيون دي فليس) وتقعان على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وقد حاولوا في عام ١٥٠٥ إحتلال بلدة (ماسا) على المحيط الأطلسي ، كما حاولوا احتلال (أغادير) أو (أكادير) في العام نفسه ، إلا أن البرتغاليين منعوهم من ذلك بل قاموا بتحريض السكان العرب لقتالهم ، ثم احتلوا مدينة (غصاصه) وبقيت (سانتا كروز) في الجنوب بأيديهم ، ولم يكتفوا بالمغرب بل قاموا في عام ١٥٠٥م باحتلال مدينة (المرسى الكبير) الجزائرية ، كما قاموا في عام ١٥٠٩م باحتلال مدينة (وهران) الجزائرية أيضاً ، فقد هاجمها القائد الاسباني (بدرو نفارو) المعروف باسم بطرس النصارى في ١٧/ ٥/ ١٥٠٩م وقتل فيها أربعة آلاف عربي وأسر ثمانية آلاف ، ثم احتلوا مدينة (بجايا) وبعدها (عنابا) وكلها في الجزائر .

أما البرتغاليون ، فكانوا قد احتلوا المدن والموانىء المغربية التالية :

سبته - القصر الصغير - طنجه - أصيلا - العرائش -المعمورة - أنفا - أزمور - مزكان - آسفي - كوز - قصر لوريال - أغادير - ماسا .

وهي مدن وموانىء تقع كلها على ساحل المحيط الأطلسي ، وبعضها تقع مقابل مضيق جبل طارق ، ولا يوجد للاسبان مواقع في أرض المغرب تطل على المحيط الأطلسي إلا مدن سلا وسانتا كروز .

ولم يظهر التقسيم أعلاه واضحاً إلا بعد أن وقّعَتْ الدولتان معاهدة (سنترا SINTRA) في شهر سبتمبر من عام ١٥٠٩م ، وهي المعاهدة التي أطلقت يد الاسبان في السواحل المغربية الواقعة بين (بادس غماره) حتى (غصاصه) و(مليله) ، مقابل اعترافهم بنفوذ البرتغال من (بادس غماره) حتى رأس (بوجادور) .

وقد جعلت هذه المعاهدة معظم سواحل المغرب الشمالية والغربية تخضع للأمتين الاستعماريتين اللتين تناهبتا العالم يومذاك .

وبالنسبة للبرتغاليين فقد كان يهمهم بالدرجة الأولى إتمام فرض سيطرتهم على السواحل الغربية والجنوبية للمغرب العربي إذ أن السفن الذاهبة إلى الهند لا بد أن تمر بها ، علاوة على اتخاذها قواعد للانطلاق نحو المناطق الجنوبية الداخلية في بلاد المغرب ، ولهذا فقد توجهوا نحو بلاد (دكاله) و(الشياظما) وما جاورها ، بحيث تمكنوا هُم والاسبان من وضع أياديهم على تجارة تلك البلدان واستفادوا من خيرات البلاد ببيعها الى بقية الدول الأوروبية .

ومن تلك المراكز أيضاً انطلقت القوات البرتغالية والاسبانية لتستحوذ على البوادي المجاورة ، خاصة حول مدن أسفي وأزمور داخل سهول عبده ودكاله الغنية بالحبوب والمتصلة تجارياً بفاس ومراكش . وكانت المستعمرات البرتغالية على الشواطيء المغربية عبارة عن حصون عسكرية ومراكز تجارية ، وقد أقام البرتغاليون في كل مركز وكالة يستقر بها وكيل وكاتب ، وقام الوكلاء بمهام تجارية وعسكرية بآن واحد ، فكانوا يقومون بتجنيد القوات لتقوية المستعمرات وجمع الذهب والفضة والحاصلات والمؤن لتموين تلك المراكز .

وجبى البرتغاليون الضرائب على محاصيل القمح والشعير والعسل والمواشي والنقود ، واختلفت المقادير المؤداة من قرية إلى أخرى ومن قبيلة لأخرى ، وكان مقدار ما يجبيه البرتغاليون من الضرائب في المنطقة الواقعة ما بين أسفي وأزمور يتجاوز (١٦٠٠٠) حمل جملٍ من الحبوب سنوياً مما كان يحرم قبائل المنطقة من المواد الأساسية لتغذيتهم ، وفرضت السلطات البرتغالية مكوساً على السلع الداخلة إلى المدن والأسواق التي تراقبها كما تهافت البرتغاليون على العبيد والأسرى وقنص الرجال الأفارقة انطلاقاً من الثغور المحتلة .

ويوضح نص تاريخي مغربي إحدى عمليات النهب البرتغالي في المغرب فيقـــول :

« انطلقوا ليلاً ليصبحوا بالقرب من أزور (قرية قرب أكادير) واختفوا بضفاف النهر في انتظار طلوع الشمس وخروج قطعان الماشية للرعي بالبادية المجاورة للقرية ، ثم

أسرعوا نحو الأبواب المفتوحة وقتلوا كثيراً من سكان القرية وسيطروا على كل ما فيها فأخذوا معهم كثيراً من الشبان والشابات ومن قطعان الماشية ومن البضائع على اختلاف أنواعها كالزرابي والأثواب المختلفة والأسلحة والخيل المسرجة وحيوانات الجر والبغال وغيرها من الحيوانات الأخرى ومن القمح والشعير والتمر واللوز وعدة أصناف من الفواكة وجدوا بعضها محملاً على ظهور الجمال ، وحول مساحة من الأرض يتسعُ شعاعها ستة أميال من أكادير ، ولم تبق قرية ولا دار ولا أي مسكنٍ في أعلى الجبل أو أسفله إلا وتعرض للنهب أو تمت السيطرة عليه .»(٢)

كل ذلك زاد في ضعف البلاد ، وقوّى الفتن الداخلية واضطربت الحياة الاقتصادية ، وعند بعض القبائل فقد هبطت المعنويات وراحوا يتعاونون مع البرتغاليين في سبيل الحصول على مكاسب وقد أرسل أهالي مدينة (أسفي) رسالة إلى الملك البرتغالي (مانويل الأول) يطلبون منه أن يعين عاملاً جديداً عليهم ويخبرونه بتعسف عامله وبما يقوم به الجنود البرتغاليون من فوضى وتخريب مما أضعف التجارة ، ويختمون رسالتهم بأن يطلبوا من الملك البرتغالي أن يولي عاملاً جديداً يستطيع أن يصلح ذات البين بين سكان أسفي والقبائل المحيطة بها لتزدهر البلاد .

أما أهالي مدينة (ماسه) فقد أرسلوا رسالة إلى الملك مانويل أيضاً مستهلة بالعبارة التالية : « يصل ليد السلطان العادل سلطان البرين وأقاليم الهندي دون مانويل . »

وبعد السلام يخبرونه بالسرور الذي اعتراهُم عندما علموا أن الملك البرتغالي سيقيم ببلدهم حامية برتغالية ويذكرونه بتفانيهم في طاعته ، ثم يوجهون انتباه الملك البرتغالي إلى أن سفنهم التجارية تتعرض للنهب في البحر مما جعل الناس يضحكون عليهم مع أنهم تحت حماية التاج البرتغالي ويرجونه النظر في أمرهم وأن يرد اليهم حقوقهم التي نُهبت وأن يأمر البرتغاليين بالكف عن أذيتهم(٣) .

---

(٢) تاريخ العصر الحديث – الاحتلال الأيبري للثغور المغربية – من مطبوعات وزارة التربية الوطنية – المملكة المغربية ص ٩٤ .

(٣) د . عبدالكريم كريم – المصدر نفسه – ص ١٥٠ .

إذن فالوضعية السياسية في المغرب قد ضعفت جداً وصار السلطان محمد (البرتغالي) الوطاسي لا يكاد يسيطر إلا بصعوبة على البلاد ، بل إن السلطة الوطاسية لم تكن موجودة بصورة رسمية إلا في القسم الشمالي من البلاد المعروف وقتئذ باسم (مملكة فاس) الممتدة من نهر أم الربيع إلى طنجه ، فانتشرت الفوضى وتجزأ المغربُ إلى وحدات سياسية شبه مستقلة ، ولكن شعور الأمة بضرورة الجهاد والقتال ضد البرتغاليين ، دفعت بالمخلصين من الدعاة والأئمة على حث الناس وبذل النفس والنفيس للدفاع عن الوطن وإعلاء كلمة الاسلام ، وفي هذا الصدد نورد هنا قصيدة للشيخ محمد بن عبدالرحمن بن يجبش التازي يحرض الناس على قتال البرتغاليين ويصف الأوضاع السياسية هناك قائلاً :

ولم أستطع صبراً وكيف يصح لي	وقد هُتِكَتْ من ديننا كل حُرمة
وشاركنا الأعداء في قطر غربنا	وقد أخذوا جل البلاد البهية
وقد أُرعبت تلك السواحل منهمُ	وصاروا يؤدون الخراج كجزية
فقصة أصيلا عرفتهم جميعاً	وما فعل الأعداء من شر غدرة
وأضحت على الاسلام تبكي رسومها	كذي سكنٍ صار في أرض غربة
مساجدها تبكي على فقد أهلها	كأن لم يكن فيها مُرَدَّدُ سورة
مجالس أهل العلم يا صاح بُدِّلت	بتلبيس رهبانٍ وكلامُ الأقبيَّة
فلو أبصرتْ عيناك حال خروجهم	بكيت الدما من بعد إنقاذ عبرة
فكيف يطيب العيش بعد لعاقلٍ	وكيف تلذ النفس بعد لشهوة

وقال الشيخ الإمام الهبطي في أرجوزةٍ :

إن الجهـاد أكـبـر المـعـين عـلـيـه تـنـبـنـي أمـورُ الـديـنِ
كـانـت تـبـاع الـنـفـس دون ريـبِ بـلـذةٍ عـظـيـمـةٍ فـي الـقـلـبِ(٤)

لقد كان للدفع الديني الإسلامي وتشكيل الزوايا الدينية خاصة الزوايا الشاذلية والزوايا الجزولية تأثير عظيم على دفع الناس للجهاد ضد البرتغاليين ، فهذه الزوايا الدينية راحت تدعو إلى اصلاح مزدوج للدين والدنيا ما دام الحكم الوطاسي في فاس غير قادر على الدفاع عن الثغور بل وحتى التحالف مع الأعداء ، كما سنرى ذلك في فصول لاحقه ، وكان نواة أهم حركة سياسية دينية دعت إلى الخروج على حكم الوطاسيين هي حركة (السعديين) التي ظهرت في إقليم (السوس) في جنوب البلاد المغربية ، وهو الأقليم الذي كان أكثر أقاليم البلاد تعرضاً للحملات البرتغالية والاسبانية المتوالية والتي انتهت إلى إقامة مراكز نفوذ واحتلال هناك .

فقد أثارت تلك الحملات ردّ فعلٍ قوي عند أهالي السوس ، خاصة إذا عرفنا أن بلاد السوس كانت المقر الأول للطريقةً (الجزَولية) التي عمت شهرتها كل بلاد المغرب . لذلك فقد أجمع شيوخ الزوايا وشيوخ القبائل السوسيَّة على ضرورة مبايعة إمامٍ وشيخٍ ليقوم بأمرها فقاموا بمبايعة الإمام الشيخ محمد بن مبارك فشكلوا وفداً ذهبَ إلى بلاد (أقا) حيث يوجد الشيخ محمد بن مبارك وبايعوه ليقوم بأعمال الجهاد ، إلا أن الشيخ اعتذر عن ذلك ودلهم على زعيم آخر هو المولى محمد بن عبدالرحمن أحد أشراف (تاكما دارات) ببلاد (درعد) المشهور بالتقوى وأعمال الجهاد والمرابطة ، وقام الشيخ محمد بن مبارك بمقابلة الشيخ محمد بن عبدالرحمن ، فلبى محمد بن عبدالرحمن دعوة الوفد واستجاب لرغبتهم ، ودعا إلى اجتماعٍ عام في قرية (تدسي) حيث ألقى هناك خطبة بلسان البربر استعرض فيها أوضاعَ البلاد وما آل اليه أمر الناس ، ثم تحدث عن المهام التي يجب عليه أن يقوم بها في الداخل والخارج وقال إنه سيعمل على إصلاح القطر وإنصاف المظلوم وقبض واجب الزكاة والعشور ، والذي

(٤) د . عبدالكريم كريم – المصدر نفسه – ص ٢٨ .

يفضل أن يصرفه على الجهاد . وتذكر مخطوطة قديمة ما يلي :

« لما بايعه الناس من أهل السوس ورأى قلّة ما بيده مع أن المُلك لا يقوم إلا بالمال ، احتال بأن أمَرَ أهل السوس أن يأتوه ببيضة لكل واحد . فاجتمع منه من ذلك البيض آلاف لا تحصى لأن الناس استهونوا أمر البيضة ، فلما اجتمع عنده البيض أمر أن كُل من أتى ببيضة ، يأتي بدلها درهماً ، ففعلوا فاجتمع له من ذلك مال وفير فأصلح به شأنه وقوى به جيشه .»(٥)

كما اشترط على أن تقوم كل قبيلة من القبائل التي ارتضت ببيعته بتقديم عشرة رجال من رجالها مجهزين بكامل السلاح والعتاد لعلمه بأن الأمر لا يتطلب البيعة وجمع المال فقط ، فاجتمع له خمسمائة مقاتل شكل بهم نواة الجيش .

ثم أطلق على نفسه اسم (محمد القائم بأمر الله) ، ويعرف أيضاً باسم (أبو عبدالله القائم) ، إلا أنه لم يعلن نفسه ملكاً بل أعلن البيعة لولده المولى أحمد ، فصار أحمد هذا يُعرف بملك السوس ويُلَقَّبُ أيضاً (أحمد الأعرج) . وهكذا اقتسم الوالد مع ولده السلطتين السياسية والدينية ، فصار الوالد المرشد والقائد الروحي للدولة (القائم بأمر الله) وصار ابنه (ملك السوس أحمد الاعرج) المسؤول الذي يقوم بعمليات الجهاد ضد الغزاة .

وهنا يجب أن نذكر أن المؤرخين اختلفوا في ذكر أي الزعامتين كانت أكثر فعالية ، الوالد أم ابنه . إلا أن المهم هو أن هذه الاحداث تمت خلال الأشهر الأخيرة من عام ١٥١٠م وهي السنة التي يجب اتخاذها البداية العملية لتأسيس الدولة السعدية في المغرب .

أما لقب (السعدي) فقد ظهر مؤخراً لأنهم كانوا يُعرفون بالشرفاء والشرفاء السعديون أيضاً ، لأن المغاربة (سعدوا) في عهدهم وأصبحوا ينعمون بالأمن والاطمئنان . علماً بأن محمد بن عبدالرحمن القائم بأمر الله ينتهي نسبه إلى محمد

---

(٥) تاريخ العصر الحديث - المصدر نفسه - ص ١٠٥ .

(النفس الزكية) بن عبدالله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم جميعاً . وهكذا شهد عام ١٥١٠م انقسام المغرب إلى مملكتين كبيرتين هما :

الأولى : مملكة فاس في الشمال ويحكمها السلطان محمد بن محمد الشيخ الوطاسي الملقب بالبرتغالي وعاصمته فاس ، وهي المملكة التي كانت تمثل السيادة الرسمية في البلاد .

والثانية : مملكة السوس في الجنوب ويحكمها القائم بالله وولده ملك السوس أحمد الملقب أحمد الأعرج .

وبين المملكتين توجد مملكة صغيرة هي مملكة مراكش حيث استولى عليها أمراء (هناته) وكان ملكهم مولاي الناصر أبو علي الهناتي يخضع عملياً لسلطان فاس .

وهناك أيضاً إمارة صغيرةٌ تسمى إمارة (دبدوب) في شرق المغرب ، كان قد التجأ اليها أمير من بقايا دولة بني مرين هو محمد بن أحمد ، وظل حكام المدينة يعرفون باسم (ملوك بني مرين) إلا أنهم كانوا ضعفاء ، إذ تمكنت الدولة السعدية من القضاء عليهم عندما قضت على الدولة الوطاسية فيما بعد(٦) .

هكذا كان أمر المغرب العربي ، عندما كانت البرتغال تقف في الصف الأول كأعظم امبراطورية في العالم يمتد مُلكها من البرازيل في أمريكا إلى أفريقيا ثم آسيا حيث يقف عند حدود الصين تقريباً .

إلا أن نعمة الصبر التي وهبها الله إلى الأفراد والأمم والشعوب ونعمة الإيمان به ، أوجدت في عام ١٥١٠م بوادر قيام الدولة السعدية في المغرب ، وهي الدولة التي سيقدّر لها أن تقوم بأخطر دور في تاريخ العالم آنذاك ، إذ ستصطدم بدولة البرتغال العُظمى وتَقتُلَ ملكها وتسحقَ جيشها ودولتها وتسقطها من مقام دولة مُستعمرة إلى مقامِ دولة مُستَعْمَرة ، أي من السيادة إلى العبودية ، كما سنرى ذلك في تفصيلات

(٦) د . عبدالكريم كريم - المصدر نفسه - ص ٣٣ .

الفصول اللاحقة إن شاء الله .

* * *

والآن نعود إلى مصر لنرى ماذا كان موقف السلطان قانصوه الغوري بعد هزيمة القائد حسين الكردي في معركة (ديو DIO) عام ١٥٠٩م .

لقد هزت تلك الهزيمة السلطان المصري فقد رأي أن احتياطه من الأموال والسلاح يتناقص بالتدريج ، في الوقت الذي تزداد فيه قوة البرتغاليين في الهند وتتسع أملاكهم وتنشط تجارتهم ، لذلك لم ير أمامه وسيلة إلا التقدم بطلب العون العسكري من الدول الإسلامية مثل تركيا وإيران . ويورد لنا ابن إياس في مصدره[٧] أن السلطان الغوري أوفد موفداً إلى حكام الإمارات الإسلامية في الهند هو (الطواشي بشير) يخبرهم بوجوب الصمود بوجه البرتغاليين وكذلك يطلب من الأمير (تمرباي) أمير الأسطول الهندي القيام بمقابلة الشاه اسماعيل الصفوي ، شاه إيران لوضع خطة التعاون ضد البرتغاليين . إلا أنه لا يوجد لدينا خبر عن المفاوضات التي جرت بين تمرباي والشاه الإيراني وفي الأغلب أنها كانت فاشله ، حيث إن الشاه كان متجهاً للتعاون مع البرتغاليين الذين يحتلون جزءاً من مملكته في الجنوب ، مقابل معاونتهم له في قتاله ضد خصمه العنيد الدولة العثمانية في تركيا .

أما بالنسبة إلى طلب السلطان المصري العون العسكري من الدولة العثمانية فقد كان أقرب إلى المعقول وإلى التنفيذ ، خاصة وأن السلطان العثماني يومذاك وهو (بايزيد الثاني ١٤٨١-١٥١٢) كان منهمكاً في قتال الاسبان في شمال أفريقيا ، ومهاجمة قواعدهم على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وهو الواجب الذي كان يقوم به أمير البحر التركي الشهير خير الدين باربروس ، كما أن السلطان العثماني كان يعتبر نفسه حامياً للأماكن الإسلامية المقدسة التي أصبح التواجد البرتغالي في البحر الأحمر يهددها الآن ، لذلك فقد وافق على مساعدة مصر ، فأوفد لها ثلاثمائة مدفع وأربعين

(٧) ابن إياس - المصدر نفسه - ص ١٨٤ .

قنطار بارود وثلاثين ألف سهم ، ونحاس وحديد وحبال ومراسي ، كما أرسل لها عدداً من البحارة العثمانيين لتدريب الأسطول المملوكي وإعادة تنظيمه[٨] . وفي الوقت نفسه قبض السلطان على عدد كبير من تجار البندقية وأرسلهم إلى سجون القاهرة وأوصى الحراس بأن يوحوا إليهم بأن حريتهم مرهونة بدعوة جمهوريتهم لمساعدة السلطان حربياً في الهند ، ولما بلغ البندقية ما حدث أرسلت تبدي استعدادها لمعاونة السلطان حربياً ، بل واستعدادها لمد الهنود بالسلاح لطرد البرتغاليين ، لكن موقفها الحرج في العالم المسيحي منعها من تقديم هذه المعونة سراً أو علناً[٩] . وفي أثناء ذلك حدث ما لم يكن في الحسبان ، فقد وصلت إلى الاسكندرية خمس سفن فرنسية محملة بأثواب الحرير والصوف والسلع الأوربية الأخرى ، وبعد أن انتهى التجار من بيع ما معهم من سلع ، شحنوها بالسلع المصرية لغرض بيعها في أسواق أوربا إلا أن السفن وقعت في كمين نصبه لها فرسان القديس يوحنا في رودس وأسروها ، وكان من جملة ما غنمه الفرسان أربعين ألف (فوكات) بضاعة مصرية . ولما بلغ السلطان المصري ذلك ، اعتقد أن قباطنة السفن الفرنسية دبروا هذه المؤامرة ، فأمر بالقاء القبض على جميع رعايا فرنسا ووضعهم في سجون القاهرة ، وفي ثورة غضبه اعتقل (فليب دي بترايس) قنصل فرنسا ، كما اعتقل ترجمانه الخاص (تغري بردي) متهماً إياه بالتعاون مع الأعداء في البحر الأبيض المتوسط[١٠] .

ولم يكد يفرغ من تلك الإجراءات حتى وقع بكارثة أشد وأنكى ذلك أنه كان قد بعث إلى ميناء الإسكندرونه ثمانية عشر سفينة بقيادة الامير محمد بك لكي تجلب أخشاباً من هناك لبناء أسطول بحري جديد إلا أن سفن الفرسان رصدتها ثم أحاطت بها ودارت بين الطرفين معركة في ١٠/ أغسطس/ ١٥١٠م - ١٤/ ربيع أول/ ٩١٦هـ انتهت بمصرع الأمير محمد بك وغرق عدة سفن وأسر بعضها وتاهت بعضها في البحر ولم تصل إلى الاسكندرية إلا ست سفن خاوية . وكانت هذه الكارثة تفوق طاقة

---

(٨) ابن إياس - المصدر والصفحة نفسها .

(٩) د . نعيم زكي فهمي - المصدر نفسه - ص ٩٢ .

(١٠) د . نعيم زكي فهمي - المصدر نفسه - ص ٩٣ .

سلطان مصر ، فأمر بإلقاء القبض على رهبان كنيسة القيامة وجلبهم مخفورين وقال لهم : « اكتبوا إلى ملوك الافرنج أن يردوا ما أخذوا من المراكب ، وإن لم يردوا ذلك فسأهدم كنيسة القيامة وأشنق الرهبان»[١١] .

وقام كذلك بالتحفظ على جميع السفن الأجنبية في موانىء مصر والشام واعتقل عدداً من التجار الأجانب الذين كان يعتقد أن لهم ضلعاً في نقل المعلومات والتجسس على مصر .

وقد حاول بعد ذلك وبكل الوسائل الدبلوماسية والسياسية أن يوقف مصر على رجليها ثانية في الأوساط المالية والسياسية والاقتصادية ، وذلك ببناء علاقات جديدة مع فرنسا ، وإعادة تنظيم علاقاته مع جمهورية البندقية ، وتشجيع التجار الأوربيين لارتياد أسواق القاهرة والشام ، وكذلك محاولته التفاهم مع فرسان القديس يوحنا في رودس ، إلا أن كل تلك الأمور لم توقف التدهور الذي كانت مصر قد وقعت فيه نتيجة للحصار العسكري الذي فرضه عليها البرتغاليون في الهند وفي باب المندب ، والحصار الذي فرضه عليها فرسان رودس في البحر الأبيض المتوسط ، وانصراف جمهورية البندقية كلياً عنها ، إذ أنها راحت في تلك الأيام تفاوض شاه إيران ، لإحياء الطريق البحري الذي يمر عبر الخليج العربي إلى البحر الأبيض المتوسط ، لذا لم يبقَ أمام حاكم مصر من وسيلة إلا الحرب ، وتدمير القوات البرتغالية الموجودة في الهند ، وإعادة الوضع على ما كان عليه سابقاً ، فقام بالإعداد لحملة بحرية عسكرية ثانية كي تذهب إلى الهند وتنهي البرتغاليين حيثما تجدهم .

(١١) د . نعيم زكي فهمي – المصدر نفسه – ص ٩٤ ، وكذلك إبن إياس – المصدر نفسه – ص١٨٥ .

19

الفصل التاسع عشر

* قوة مصرية تظهر فجأة وتحتل مدينة (كَوا).
* القوة المصرية تحاصر البوكيرك لمدة عشرة شهور تقريباً.
* انهيار القوة المصرية وهروب قائدها.
* البوكيرك يدخل (كَوا) ثانية في ١٥١٠/١١/٢٥ ويرتكب مجزرة بحق المسلمين.
* البوكيرك يتهيأ لحملة كبرى لاحتلال عدن والحجاز وتدمير مصر.

قلنا في فصل سابق إن أفونسو دي البوكيرك قد أصبح نائباً لملك البرتغال في الهند يوم ٥/ ١١/ ١٥٠٩م، واتخذ من مدينة (كَوا GOA) عاصمة له، كما قام بتدمير مدينة (كاليكوت) الهندية وأزالها من الوجود تقريباً، وقد أصيب بجرح خلال تلك المعارك وما أن شُفي منه حتى راح يضع الخطط للدخول إلى البحر الأحمر وقتال العرب والمسلمين هناك، ذلك أنه وفي أثناء انشغاله في معاركه في الهند، وصلته أنباء عن حدوث اضطرابات في سقطرة وسواحل الخليج العربي لم تذكر عنها المصادر العربية شيئاً، وقد جاء في المصادر البرتغالية أن ضابطاً اسمه (فاسكو دي سلفيرا) يشغل منصب قائد قاعدة سقطره واجه موقفاً عصيباً خلال معاركه ضد السفن المصرية واليمانية فأرسل يطلب نجدة من البرتغال. وفي البرتغال طلبوا منه أن يطلب النجدة من (ديورات دي ليموس) القائد البرتغالي المسؤول عن الساحل العربي، إلا أن (دي ليموس) لم يستطع أن ينجده كما لم يتمكن البوكيرك من نجدته أيضاً لانشغاله في حرب (كالي كوت). ولكن حالما انتهت تلك الحرب فإن البوكيرك أرسل إلى دي

وفيما هم كذلك وصلت معلوماتٌ جديدةٌ أن جيشاً هندياً كبيراً قد وصل إلى المدينة لنجدة (عادل خان) ، فأمر البوكيرك بجلب الأسرى المسلمين فكانوا مائة وخمسين أسيراً وأمر بضرب أعناقهم ، فقتلوا جميعاً ، ثم أمر وحداته بالانسحاب نحو السفن فتحركوا يوم ٢٠/ ٥/ ١٥١٠م .

إلا أن الانسحاب لم يتم فقد اكتشف البوكيرك أن طريق الخروج من الميناء إلى البحر ، قد تم سده بواسطة الحجارة الضخمة التي تمكن المسلمون من نقلها إلى هناك في الليل عند انشغال الوحدات بالقتال ، ولما اعترض ضباط البوكيرك على استحالة تمكنهم من الخروج ، سخر منهم ، وأمر السفينة (سانت جوا) أن ترفع أشرعتها وتنطلق بأقصى سرعتها خارج الميناء ، فلما فعلت السفينة ذلك ارتطمت بالصخور وتحطمت شر تحطيم ، لكن البرتغاليين تمكنوا من إنقاذ طاقمها ومدافعها ، لذلك فقد أصبح البوكيرك الآن مطوقاً بجيوش المسلمين من البر والحجارة من البحر .

ثم قام بمحاولة أخرى للخروج إلى البحر ، فأمر سرية من سراياه أودع قيادتها إلى الضابط (انطونيو نورونها) أن يبحروا على زوارق صغيرة ليتمكنوا من الخروج ، إلا أن أسطول عادل خان تصدى لتلك القوة وجرت معركة بين الاثنين انتهت بمقتل (نورونها) وانسحاب البرتغاليين إلى السفن ثانية .

ولما طال الحصار ظهر الضجر على الجنود والضباط البرتغاليين ثانية ، واكتشف البوكيرك أن أحد رجاله المسمى (راي دياز) كان على اتصال بالمسلمين ، فأمر بإعدامه على سارية السفينة (فلور دي روسا) ، ولم يبق أمامه حلّ إلا القيام بهجومٍ أرضيٍ ثانٍ على (گوا) .

ولغرض التنفيذ أمر سفنه بالوصول إلى قرب مصب النهر الذي يغذي المدينة بالماء ، وهناك لاحظوا أن المصريين قد أقاموا ستائر ترابية وخنادق أخفوا فيها مدافعهم ، فقرر البوكيرك أن يهاجم من تلك المنطقة ، وراح في الوقت نفسه يحرض الأمير الهندي (تيموجا) أن يحشد جيشه براً .

ولم يتمكن البوكيرك من الهجوم إلا في ٢٥/ ١١/ ١٥١٠م ، بعد أن وضع خطة عسكرية محكمة وجرت معركة حامية الوطيس بين الطرفين ، كانت نتيجتها في صالح البرتغاليين ، إذ تشتت شمل الجيوش الإسلامية وهرب (عادل خان) ومعه القائد المصري أيضاً .

دخل البوكيرك المدينة فأمر بنهبها أولاً ، ثم جاء بالنساء المسلمات والأولاد المسلمين فأمر بقطع رقابهم جميعاً حيث قرر أن يقطع نسل المسلمين وجيلهم من الهند كلها ، ثم جاء بالرجال المسلمين من الهنود وأمر بوضعهم في مسجد المدينة ثم قام بحرقهم احياء هناك وحرق المسجد معهم .

وفي يوم ٢٢/ ١٢/ ١٥١٠م بعث برسالة إلى ملك البرتغال قال فيها : «إن سقوط (كوا) يعتبر انتصاراً كبيراً للبرتغال وإن سفن البرتغال التي كانت محاصرة في (كنانور) قد أفرج عنها وهي الآن في طريقها إلى البرتغال محملة بالتوابل ، وإنه قد تم قتل ثلاثمائة من المصريين في المعركة ، وإن ستة آلاف مسلم هندي قد تم القضاء عليهم ، كما أن أسطولاً كاملاً قد تم القضاء عليه وأسره ، أما النساء المسلمات الهنديات فقد وزعهن على جنوده إذا رغب أحدهم بالزواج من واحدة منهن ، وأنه بعث إليه بنماذج من المدافع المصرية ، والخيول العربية ، وأن (گوا) سيعاد بناؤها لتكون العاصمة البرتغالية في الهند .»

شكّل سقوط (گوا) انهياراً عاماً في معنويات حكام الهند على الساحل الغربي فاستسلم معظم الحكام والملوك المسلمين هناك ، كما قام البوكيرك بارسال سفن مسلحة وعتاد إلى القاعدة العسكرية في سقطرة ، كما أرسل سفناً إلى هرمز للحصول على الضَّريبةِ والأتاوة التي فرضها على (خوجا عطار) هناك .

وفي (گوا) أقام احتفالاً بمناسبة النصر وذلك بأن جلب الهنود غير المسلمين الذين كانوا يتعاونون مع المسلمين أثناء الحصار ، وأمر بختانهم بصورة علنية باعتبارهم مسلمين وجرى ذلك وسط جو من السخرية والضحك ، ثم وراح يعد العدة لاحتلال

مدينة (ملقا) في الملايو ، حيث علم أن تجارها يتبادلون السلع مع التجار العرب والمسلمين .

وقد تم لألبوكيرك احتلال (ملقا) ، إلا أنه وقع حادث لم يكن في حسبانه ، ذلك أن (عادل خان) حاكم (گوا) حصل على معونة عسكرية جيدة من (بولاد خان) وتمكن من مهاجمة (گوا) وأنزل هزيمة بالقائد البرتغالي (رودريكو رابيلو) وتمكنت قواته من احتلال ضواحي المدينة فأقفل البوكيرك عائداً ووصل إلى (كوشن) والتقى بأسطول برتغالي كان قد وصل حديثاً من البرتغال بقيادة القائدين (كارسيا دي نورونها) و(جورجي ديميلو) ، كما وجد أن المدينة غارقة بالإشاعات عن الاستعدادات الكبيرة التي يقوم بها سلطان مصر لإرسال حملة بحرية عسكرية أخرى لقتال البرتغاليين في الهند ، بل لقد بلغ الأمر أنه استلم معلومات أن الاسطول المصري قد وصل بالفعل إلى المياه الاقليمية في الهند فتحرك يوم ١٠/ ٩/ ١٥١٢م وخرج على رأس القوة الجديدة يجوب بحر الهند ، ولكنه اكتشف أن الأمر كان مجرد إشاعه وأنه لا يوجد أثر للمصريين .[٢]

لذلك فقد توجه بكل السفن الموجودة لديه نحو (گوا) وحطم القوة التي احتلت ضواحيها ودخلها فاتحاً للمرة الثانية ، وراح يعد العدة للقيام بحملة بحرية يحتل فيها عدن والبحر الأحمر وكتب رسالة إلى ملك البرتغال بتاريخ ٣٠/ ١٠/ ١٥١٢م جاء فيها :

« إنه قد وصلته معلومات من عدن أن سلطان مصر يراسل حاكم عدن لغرض منحه قاعدة بحرية هناك يستخدمها لمهاجمة السفن البرتغالية ، وإن هذه المعلومات وصلت إليه من ثلاثة يهود وصلوا تواً إلى (گوا) من القاهرة كما أن سلطان مصر استلم مساعدات مالية وعدداً كبيراً من السهام والأقواس ، وإن الشعار السائد الآن في

(٢) DANVERS – المصدر نفسه – والكلام مترجم بالتفصيل عن الفصل السابع ، وأهمية هذا الفصل أن معارك بقية القوة المصرية التي اعتقد المؤرخون المصريون أنها أبيدت عام ١٥٠٩ ، عادت فظهرت في هذا الفصل وقاتلت بالبسالة التي ذكرناها وانتهت باستشهاد كل رجالها ما عدا القائد الذي من المحتمل أن يكون الأمير حسين الكردي نفسه .

القاهرة هو أن هذه السهام ستقتل البوكيرك وسيرسل السلطان معها (حنوط) لتحنيط جثته ، لذلك فإنه يرى ضرورة القيام فوراً باحتلال مضيق باب المندب » .

وفي الرسالة الجوابية التي أرسلها الملك إليه ، لم يبين موافقته الفورية على الحملة ، إلا أنه أخبره أن معلومات قد وصلت إليه أيضاً تفيد أن المصريين لا زالوا يتاجرون مع الهند وأنهم يستخدمون القوارب الصغيرة التي تدفع بالمجداف لنقل البضائع من الهند إلى مصر .

وعندما كان البوكيرك يتهيأ لحملة البحر الأحمر كما صار اسمها حينذاك وصل الى مدينة (دابول) الهندية السفير (ماتيوس) ، وهو سفير حبشي أرسلته الأمبراطورة الحبشية (هيلينا) مع رسالة ليقدمها إلى الملك مانويل ملك البرتغال ، وعندما قابله البوكيرك في (گوا) أطلعه السفير على الرسالة التي تريدها الملكة الحبشية أن تصل إلى ملك البرتغال ، كما نقل له رسالة شفهية من الملكة تفيد بأن الحبشة مستعدة لتقديم المعونات العسكرية اللازمة لتهديم بيت مكة (يقصد الكعبة المشرفة) وتحطيم قوات سلطان مصر ، وأن موانيء بلادها مفتوحة لاستخدام الأسطول البرتغالي دائماً ، ثم قدم له الموفد قطعة خشبية قال إنها مأخوذة من خشبة الصليب الأصلي الذي صُلب عليه المسيح وقال إنها هدية إلى ملك البرتغال .

ثم غادر (ماتيوس) الهند وذهب إلى البرتغال ، فاستقبله الملك هناك استقبال السفراء وأجرى مباحثات معه وعندما غادر البلاد رافقه (رودريكو دي ليما) سفيراً للبرتغال في الحبشه ، بينما عاد ماثيوس إلى الهند حيث بقي فيها .

وفي آخر رسالة بعثها البوكيرك إلى ملك البرتغال قال فيها :

« إن أكبر الشرور التي تواجهها (گوا) هي الأراجيف والإشاعات المستمرة التي يطلقها الهنود ، بأن الاتراك قادمون ، وإن هذه الإشاعات تسبب قلقاً واضطراباً هنا ، لذلك فإنني التمس موافقة جلالتكم ، أن أذهب إلى البحر الأحمر ، لنؤكد لهؤلاء

الناس عدم وجود مخلوقات اسمها روم .»[٣]

وبعد ذلك لم يبق أمام البوكيرك إلا أن يضع الخطط النهائية لحملته الكبرى الثانية ضد البلاد العربية لاحتلال عدن والحجاز ومصر ، خاصة بعد المعلومات التي وصلت اليه عن التعاون الجديد بين سلطان مصر قانصوه الغوري وملك اليمن عامر بن عبدالوهاب وهو التعاون الذي أشار اليه المؤرخون اليمانيون باقتضاب في حوادث عام ٩١٦هـ عندما أرسل سلطان مصر وفداً برئاسة زين الدين المحتسب والطواشي بشير إلى اليمن فأجرى ملك اليمن استقبالات فخمة لهم وطاف بهم في جميع البلاد[٤] .

(٣) المقصود بكلمة (روم) هنا أي الأتراك ، ويقصد البوكيرك بهذه اللفظة حكومة المماليك الأتراك التي كانت تحكم مصر آنذاك بزعامة السلطان المملوكي قانصوه الغوري .

(٤) عبدالرحمن بن علي الديبع – الفضل المزيد على بغية المستفيد – تحقيق يوسف شلحد – ص٣٢٢ .

20

الفصل العشرون

* خطة جهنمية يضعها البوكيرك للسيطرة على العالم الاسلامي.
* حملة برتغالية لاحتلال عدن والحجاز.
* أمير عدن مرجان الظافري ينزل هزيمة بالبوكيرك.
* البوكيرك يتوجه إلى الحجاز لتنفيذ غرضه الخبيث بمهاجمة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم.
* البوكيرك يهلك في شهر ديسمبر ١٥١٥.
* دون لوبو سوريز يصبح نائباً للملك في الهند.

تفتق ذهن أفونسو دي البوكيرك عن خطة جهنمية ينفذ فيها غرضه الخبيث في السيطرة على العالم الإسلامي وذلك بعد السيطرة على عدن ، بأن يدخل بسفنه إلى البحر الأحمر وينزل في ميناء (يَنْبُعْ) ثم يشُن غارة بفرسانه المدرعين على المدينة المنوَّرة ويدخل إلى الحرم الشريف ويقوم بنبش الرفات الطاهر للرسول صلى الله عليه وسلم ونهب ترابه والعودة به إلى السفن ، فإذا تم له هذا قايضه بكنيسة القيامة بالقدس ثم يدعو مليون متطوع أوربي ليأتوا إلى الحبشة . وهناك ومن منابع نهر النيل يقومون بتحويل مجرى النهر ليصب في البحر الأحمر وبذلك تموت مصر والسودان عطشاً وجوعاً[١] .

وقبل أن يقوم البوكيرك بتحركه نحو هدفه قام بتعيين (بيرو ماسكارينا) حاكماً

(١) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٢٧١ .

(لكوا) ونائباً عنه وعيَّن (جورجي دي البوكيرك) حاكماً (لكوشن) . أما الحملة فقد تكونت من عشرين سفينة حربية ، وكان أُمراء وقادة الوحدات والسفن كل من :

كارسيا دي نورونها ، بيرو دي البوكيرك ، لوبوفازي دي سامبويا ، كارسيا دي سوزا ، جوا فيدالكو ، جورجي دي سلفيرا ، جوا دي ليما ، مانويل دي لاكاردا ، ديكو فرنادس دي بيجا ، سيمو دي أندريا ، آيرس دي سلفا ، دورات دي ميلو ، كونزالا بيريرا ، فيرنا كومز دي ليموس ، بيرو دي كاسترو ، روي كاتوفا ، جيرونيمو دي سوزا ، سيمو فالهو ، انطونيو رابوسو ، جوا كومز .

وقد بلغ تعداد القوة (١٧٠٠) جندي برتغالي و(٨٣٠) جندي هندي مالاباري وكوشيني .

وقبل أن يتحرك الأسطول اجتمع البوكيرك بالقادة وأخبرهم بأن الهدف الأول سيكون احتلال (عدن) ، وبعدها يتم تنفيذ بقية الخطط بالتتابع ، ثم أصدر أوامره بالحركة أولاً إلى الرأس الأفريقي في الصومال . وفي يوم ٨/ ٢/ ١٥١٣م أقلع الاسطول البرتغالي متجهاً نحو بلاد العرب ، وقد فرض البوكيرك الكتمان والسرية التامة لحركته حتى أنه أمر بايقاف حركة السفن التجارية ، لكي لا ينكشف أمر حركة الأسطول ويفقد عنصر المباغتة .

وصل الأسطول إلى القرن الأفريقي ، وبعد أن تزود بالماء والطعام اتجه نحو جزيرة سقطره واستقبله سكانها المسيحيون ، فقدم لهم هدايا ، ثم أمر وحدة من وحداته أن تدخل المدينة وتهدم بيوت العرب فيها ، وقد صادفته رياح شديدة أخرت حركته بضعة أيام ، وأخيراً غادر سقطره ، ووصل إلى عدن مساء يوم ٢٤/ ٣/ ١٥١٣م ، حيث ألقت سفنه مراسيها خارج الميناء .

كان أهل عدن قد علموا بوصول الأسطول البرتغالي ، إذ تذكر المصادر اليمانية أن أهل وادي (أَبْـيَـنْ) وهو وادٍ يقع إلى الشرق من عدن على ساحل البحر العربي

شاهدوا الأسطول البرتغالي فهالهم المنظر وعلموا أن البرتغاليين سيهاجمون عدن فجهزوا زورقاً سريعاً أوفدوا فيه جماعة من عندهم تمكنوا من الوصول إلى عدن في منتصف الليل ، وتوجهوا إلى الأمير مرجان الظافري حاكم المدينة وأخبروه بأمر القوة البرتغالية المتوجهة إليه ، وقال هؤلاء المؤرخون إن ذلك كان بتاريخ ١٦/ محرم/ ٩١٩هـ[٢] .

وعندما علم الناس بذلك ساد الفزع والاضطراب في المدينة وهرع ربابنة السفن يلتمسون من الأمير أن يسمح لهم بإفراغ حمولة سفنهم والهرب من عدن ، لكن الأمير منعهم من ذلك ، وكانت خطته الإبقاء على السفن التجارية راسية في الميناء لتشكل حاجزاً يعيق تقدم السفن البرتغالية واقترابها من ساحل المدينة . وقد لاحظ البوكيرك عندما وصل إلى عدن ليلاً ، أن الأهالي قد أوقدوا النيران على قمم التلال والجبال المحيطة بالمدينة لكي يشاهدوا تحركات العدو .

وفي الصباح شاهد أهل مدينة (عدن) السفن البرتغالية وقالوا إنها كانت ثماني عشرة سفينة ، وقد حاول الأمير مرجان الظافري أول الأمر أن يأخذ المبادرة بيده فيشن هجوماً على العدو ، لكن بعض أعوانه لم يوافقوا على ذلك ، لذلك فقد أصدر أوامره بعدم الحركة وعدم إطلاق نيران المدافع عليهم لحين انجلاء الموقف ، ولما كان ذلك اليوم يوم الجمعة ، فقد قام الخطباء في المساجد بدعوة الناس إلى الصبر والقيام بتحصين المدينة والجهاد[٣] .

وقد انصرم يوم الجمعة كله بدون أن يقوم البوكيرك بالهجوم لأنه كان منهمكاً في استطلاع المدينة وخطوطها الدفاعية والسفن الموجودة في الميناء ، وفي صباح السبت أصدر أوامره إلى إحدى سفنه أن تدخل الميناء وتستطلع السفن الموجودة هناك ، فتقدمت السفينة ودخلت الميناء بحذر وتأكدت أن السفن اليمانية الموجودة فيه خالية

(٢) المؤرخ اليماني بامخرمه – مخطوطة قلادة النحر – تحقيق الدكتور محمد عبدالعال أحمد في كتابه – البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية للسيطرة عليه – ص ١١١ ، وعدد آخر من الكتب علماً بأن عام ٩١٩هـ يوافق عام ١٥١٣م .

(٣) ابن الديبع – المصدر نفسه – ص ٣٤٥ .

من البحارة ، فاشارت إلى بقية السفن بالتقدم نحو المدينة ، فاقتربت السفن أكثر . ويذكر المؤرخون اليمانيون أن الأسطول البرتغالي قام بإطلاق نيران مدافعه على المدينة ، مما أجبر الأمير مرجان الظافري أن يرسل وفداً يحمل هدايا إلى البوكيرك وأن يسأله عن سبب وجوده في عدن[٤] .

وتذكر المصادر البرتغالية أن الوفد حينما وصل إلى البوكيرك وقابله سأله عن سبب وجوده في عدن وماذا يريد . . ؟ فأجابهم البوكيرك بأنه قائد جيوش الملك مانويل ، وأنه في طريقه إلى جده لمقاتلة المصريين ، فإذا لم يجدهم فإنه سيتوجه إلى السويس لتحطيم الأسطول المصري هناك ، وأنه لا يقبل هدايا الحاكم إلا بعد توقيع معاهدة سلام ، وأن على الأمير مرجان أن يقبل بالخضوع إلى ملك البرتغال ، وأن يصدر أوامره بفتح أبواب سور عدن ليدخلها الجنود البرتغاليون ويستعرضون فيها وأعلامهم ترفرف فوق رؤوسهم ، وبعكسه فسوف يقوم بتحطيم السفن الموجودة في الميناء ويقتحم المدينة قسراً[٥] .

استلم الأمير مرجان الظافري تلك الرسالة المتغطرسة من البوكيرك ، وأيقن أنه لا مفر من الحرب ، فأراد أن يكسب الوقت لتنظيم قواته ، فأمر بإعادة ترتيب وضع المدافع والمنجنيقات ، بحيث تصب قذائفها على طرق التقرب المحتملة للعدو ، وأرسل وفداً ثانياً إلى البوكيرك يخبره بأنه والي المدينة التي تعود إلى ملك البلاد ، وأنه بدون موافقة الملك لا يستطيع أن يفتح أبواب المدينة ، واقترح أيضاً أن يقابله على الساحل للتفاوض شخصياً معه ، إلا أن البوكيرك رفض هذا العرض وأصر على أن تفتح المدينة أبوابها . ولما لم يسمع جواباً من الأمير مرجان ، قرر مهاجمة المدينة ، فأرسل أولاً قوة سيطرت على كل الزوارق من نوع (السمبوك والزعايم) الموجودة في الميناء وسحبتها إلى السفن البرتغالية ليستخدمها الجنود الغزاة كقوارب إنزال تصل بهم إلى الشاطيء .

وفي فجر يوم السبت الموافق ٢٦/ ٣/ ١٥١٣م باشرت قوات البوكيرك بالنزول إلى

(٤) بامخرمة - المصدر نفسه - ص ١١٤ .

(٥) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٢٦٦ وكذلك بامخرمة - المصدر نفسه - ص ١١٤ .

الشاطيء على أن يكون الهجوم على ثلاثة محاور بثلاثة أرتال ، واهدافها هي مناطق (شرشره) و(الشيخ) و(قمعان)[٦] . ورغم أن الانزال جرى أولاً بالقوارب الخفيفة ، إلا أن تلك القوارب اضطرت إلى الوقوف على بعد رمية سهم من الشاطيء وترجل منها الجنود ، وابتل بارود مدافع الهاون الصغيرة التي كانت معهم ، وكان أكبر الأرتال المهاجمة هو رتل الضابط (كارسيا دي نورونها) حيث كان قوام قواته من المشاة المدرعين ، وكان عليه أن يهاجم أسوار المدينة من جناحها الأيسر ، حيث توجد أقوى الدفاعات هناك ، كما توجد فيها بوابة المدينة الرئيسية ، ففتح البرتغاليون نيران مدافعهم على الباب ، لكنهم فوجئوا بأن المدافعين قد بنوا حائطاً حجرياً خلفها يمنع تحطيمها ، فقام الجنود بوضع الأدراج الخشبية المخصصة لتسلق الأسوار للصعود إلى أعلى السور ، وتمكنوا بعد قتال مع المدافعين من تسلق السور ووصلوا إلى سطحه ورفعوا العلم البرتغالي هناك[٧] .

أما الرتل الثاني فقد كان بقيادة (البوكيرك) نفسه وكان واجبه الهجوم من جهة اليمين ، واندفع جنود هذا الرتل وبأيديهم سلالم التسلق ووضعوها على جدار السور وراحوا يتسلقونها إلا أن الأدراج لم تتحمل ثقلهم فتحطمت تحت أرجلهم ، فجلبوا الأدراج التي استعملها الرتل الأول في الصعود ليصعدوا عليها ، إلا أن هذه الأدراج تكسرت أيضاً ، وفي تلك الأثناء وعندما كان القائد (كارسيا دي نورونها) في أعلى سور المدينة يقاتل هناك ، أصيب بجرح ، ولكن بعض جنوده تمكنوا من الوصول إلى أسفل السور من ناحية المدينة ، إلا أن المدافعين اليمانيين أطلقوا عليهم السهام والحجارة وأجبروهم على العودة من حيث أتوا .

أما رتل الهجوم البرتغالي الثالث الذي كان بقيادة (جوا فيدالكو) فقد صار في موقع متوسط بين رتلي دي نورونها والبوكيرك وكانت قوة الرتل الثالث هذا مجهزة بسلالم تستطيع حمل ستة رجال مرة واحدة ، ولكن هذه السلالم لم تستطع أيضاً تحمل الثقل

(٦) المصادر السابقة والصفحات نفسها .

(٧) ابن الديبع – ص ٣٤٥ .

فتكسرت تحت أقدام الجنود ، وهكذا بقي رتل (دي نورونها) وحده فوق السور ، أما الرتلان الآخران فقد بقيا على الأرض وراح قسم من هذه القوة يهاجم قوة يمانية موجودة في حصن الخضراء وهو حصن على قمة جبل ، لكن المدافعين اليمانيين أمطروهم بوابل من قذائف المنجنيقات وصدوهم .

وهنا أصدر (دي نورونها) أوامره إلى وحدته الموجودة فوق السور بالنزول إلى الطرف الآخر منه أي إلى المدينة ، فاندفعت حشود الجنود البرتغاليين إلى أدراج السور ونزلوا إلى الأرض واندفعوا بشكل جنوني خلال الأزقة والدروب متجهين نحو سوق المدينة الذي يقع في وسطها ، وقد حاولت قوات الأمير مرجان صدهم إلا أنها فشلت في ذلك فراحت تتراجع إلى الخلف ، واضطر الأمير مرجان أن ينقل مركز قيادته إلى قلعة دار السعادة ، وهي قلعة عسكرية حصينة بناها السلاطين الأيوبيون عندما حكموا اليمن في العهد الأيوبي هناك ، أما السكان فقد سادهم الرعب والفزع فتركوا دورهم ، وازدحمت الطرق بالسابلة الهاربين أمام الجنود البرتغاليين .

وفي قلعة السعادة اجتمع الأمير مرجان برجاله ، وأبلغهم بخطورة الموقف واحتمال انسحابه إلى خارج المدينة والاعتصام بالجبال ، إلا أن اثنين من رجاله وهما ابن مافرس وابن المهيري اعترضا على ذلك ، وأصرا على أن يقوم الأمير بهجوم معاكس يطرد به القوات البرتغالية خارج أسوار المدينة . فقام الأمير وتقلد سلاحه وامتطى فرسه وخرج على رأس مقاتليه لقتال البرتغاليين الموجودين داخل مدينة عدن ، فشاهدته جموع الشعب الفارة من المدينة وهدأ روعهم والتحقوا بركبه وقد عادت اليهم معنوياتهم وحماسهم . وبالقرب من سور المدينة التقى الأمير وجيشه بالجيش البرتغالي والتحم بهم واشتد الضرب والطعن وراحت فلول المعتدين تتراجع في الشوارع والأزقة وقتل الضابط البرتغالي (جورجي دي سلفيرا) وتزاحم الجند البرتغاليون بالقرب من السور فتكدست جموعهم واليمانيون وراءهم ، واعتلى قسم من البرتغاليين السور ثانية وألقوا بأنفسهم من أعلاه إلى الأرض وعليهم دروعهم وزرودهم الحديدية فهلكوا ، ثم

إن مجموعة منهم حوصرت بين سورين متجاورين من أسوار المدينة ، فأمر الأمير أن يؤتى بقصب وأخشاب ألقيت عليهم ثم رموهم بالنيران فهلكوا حرقاً . وهنا أصدر البوكيرك أوامره بانسحاب كل القوة الموجودة في داخل المدينة ، فأنسحبت وكانت آخر السرايا هي سرية الضابط (غارسيا دي سوزا) التي هاجمها اليمانيون وقتلوا الضابط وأبادوا السرية .

وفي خارج أسوار البلدة تكدس البرتغاليون قرب الساحل حيث توجد الزوارق ليستقلوها عائدين إلى سفنهم ، إلا أن مدفعية الأمير مرجان التي كانت موجودة على قمة جبل الصيرة باشرت بإطلاق قذائفها عليهم وأهلكت عدداً آخر منهم ، ثم انسحب البوكيرك عائداً بجيشه المنكسر إلى السفن ثانية .

وفي اليوم الثاني أصدر البوكيرك أوامره إلى رتل (كارسيا دي نورونها) أن ينزل إلى الساحل ويهاجم المدافع التي كانت موجودة على جبل الصيرة في القلعة هناك ، فأنزل دي نورونها مدفعية السفن الثقيلة معه ، واشتبك مع مدفعية الصيرة بقتال وتمكن من تدمير القلعة وقتل عدد من اليمانيين الموجودين فيها ، ولما أيقن البوكيرك أنه غير قادر على اقتحام المدينة ، أمر دي نورونها الموجود في الساحل أن يفتح نيران مدافعه الثقيلة على داخل المدينة ، واستمر القصف البرتغالي لعدن مدة يومين ، فيما راحت مدفعية السفن البرتغالية تفتك وتدمر السفن العربية الراسية في الميناء ، ثم قام البرتغاليون بإشعال النار فيها وأحرقوها ، وبعدها أمر البوكيرك قطعاته بالكف عن إطلاق النيران والعودة إلى السفن لدخول البحر الأحمر لتنفيذ الخطة الإجرامية الشيطانية الثانية(٨) .

تحرك البوكيرك متوجهاً بسفنه نحو باب المندب ، وقبل أن يلج من المضيق ، أرسل سفينة استطلاع على متنها عشرون برتغالياً ومترجماً يهودياً لتكشف له طريق الولوج إلى داخل البحر ، وعندما أتمت السفينة مهمتها عادت إليه ، فأمر سفنه بالتوجه نحو

---

(٨) DANVERS – المصدر نفسه – ص ٢٦٨ وكذلك (بامخرمه) المصدر نفسه – ص ١٢٠ ، وابن الديبع – المصدر نفسه – ص ٣٤٥ ، وينقل لنا الدكتور محمد عبدالعال أحمد ، خبراً منقولاً عن كتاب يماني اسمه تاريخ النور السافر أن القائد البرتغالي (عين البقر) أي البوكيرك قد قتل في تلك المعركة .

باب المندب . وعندما اجتاز الباب وعلم بأنه دخل في مياه البحر الأحمر أمر برفع كافة الأعلام وأن تطلق كل السفن طلقة مدفع احتفالاً بدخول أول برتغالي إلى البحر الأحمر ، ثم توقف برهة على ساحل اليمن الشمالي .

وفي صباح اليوم الثاني وبدلالة دليل عربي ألقوا القبض عليه رفعت السفن أشرعتها متجهة شمالاً إلى أن حل الظلام فأمر البوكيرك بالجنوح إلى الساحل اليماني لقضاء الليل ، وهناك اكتشف وجود أربع سفن صومالية محملة ببضائع إلى جدة ومكة فأمر بحجزها ، وتمكن بعض بحارتها من القفز إلى الماء والهرب ، أما من لم يسعفه الحظ ووقع بيده فقد أمر بقطع أيديهم وآذانهم وأنوفهم وأنزلهم على هذه الصورة إلى الساحل .

ويذكر المؤرخون اليمانيون أن سفن البرتغاليين مرت بموانيء (مخا) و(المتينه) و(الحديدة) ، ولم ينزلوا في تلك المدن إذ كان أهلها وعسكر سلطان اليمن عامر بن عبدالوهاب الطاهري مستعدين لهم .

وأخيراً وصل البوكيرك بسفنه إلى جزيرة (كَـمَـرانْ) . وهي جزيرة تقع إلى الشمال من مدينة الحُديدة ولا تبعد كثيراً عن البر اليماني ، وبعد أن ألقى مراسيه هناك دخلها وقام بإعدام زعيمين من زعماء القبائل هُما الشريف محمد بن عبدالعزيز بن سفيان وعبدالله بن محمد العصين ، ثم قام بقتل عدد آخر من الأسرى العرب[٩] .

وفي جزيرة كَـمَرانْ راح يضعُ اللمسات النهائية لخطته الجهنمية ، وهي التوجه أولاً إلى ميناء (ينبع) في الحجاز والإغارة من هناك على قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الواجب الأول ، وبعده يقوم بتنفيذ الواجب الثاني وهو مقايضة كنيسة القيامة ، وتحويل مجرى نهر النيل .

وفي كمران وعند وصول الأسطول الغازي اليها ابتدأ الجو يتغير فتكاثفت في السماء

(٩) بامخرمة - المصدر نفسه - ص ١٢١ ، وكذلك ابن الديبع - المصدر نفسه - ص ٣٤٥ .

الغيوم ، وراحت الرياح تهب عاصفةً بوجه السفن المعتدية ، ومثلما فعل ربُك بأصحاب الفيل ، فقد فعل هذه المرة بالبوكيرك وجيشه إذ كلما رفعوا أشرعتهم للتوجه بسفنهم نحو تنفيذ غرضهم الخبيث ، كلما هبت ريح صرصر عاتية بوجوههم دفعتهم وأعادتهم ثانية إلى الجزيرة خائبين . واستمرت هذه الحالة مدة كانت فيها الرياح والعواصف تقاتل البوكيرك وتدفع بسفنه بعيداً عن منزل الوحي وقبلة المسلمين .

وفي ليلة اشتدت عواصفها ظهرت معجزة إذ شاهد البوكيرك وجنوده ناراً في السماء تحول شكلها إلى شكل الصليب ، ثم سار هذا اللهب فوق السفن البرتغالية وتوقف فوق الساحل الأفريقي باتجاه موقع الحبشة ، فتصايح الضباط والقادة من الدهشة وأيقنوا أنها معجزة من السماء ، وأن السماء ستحرقهم بالنار إن هم توجهوا نحو تنفيذ غرضهم الأثيم ، وأن السماء تنصحهم بالتوجه نحو بلد مسيحي هو الحبشة . وقد أيقن البوكيرك بهذا أيضاً لأن الأيام الأخيرة لبقائه في الجزيرة شاهدت مصرع وهلاك عدد كبير من جنوده بحمى وأمراض خبيثة أنزلها الله بهم ، فأيقن أنه وجنوده هالكون لا محالة ، فأصدر أوامره بعودة السفن إلى خارج باب المندب وإلغاء الفكرة الجهنمية المجرمة التي كانت تدور في خلده(١٠) .

وفي يوم ١٥/ ٧/ ١٥١٣م غادر البوكيرك جزيرة كمران وكان يقف بين الفينة والأخرى في سواحل اليمن الشمالية وجزرها لغرض الاستطلاع وجمع المعلومات وكان ينصب صليباً ضخماً على الأرض ويكتب عليه (جزيرة الصليب المؤمن) (ILHA DA VERA CRUZE) حيثما يحل وينزل . كما كان يقوم بارسال بعض سفنه إلى

---

(١٠) هذه القصة وهذه المعجزة السماوية في الدفاع عن المقدسات الاسلامية والتي تكررت عام ١٥١٣م بعد أن كانت قبلها حادثة عام الفيل التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، ذكرها البرتغاليون والأنجليز في المصادر التالية :

(أ) كتاب برتغالي عنوانه AFONSO DE ALBUQUERQUE OSONHO DA INDIA

والمؤلف Dr. JOSE FRANCISCO DOS SANTOS : ص ٢٧٨ .

(ب) كتاب انجليزي اسمه HISTORY OF DISCOVERY AND CONQUEST OF INDIA

لمؤلف اسباني اسمه مانويل دي فارسيا سوسا وترجمه للانجليزيه الكابتن جون ستيفانز عام ١٦٩٥ القسم الثاني - الصفحات ١٩٠ إلى ١٩٤ .

الساحل الأفريقي للاستطلاع . وقد أرسل سفينتين بقيادة الضباط (روي كاتوفا) و(جوا كومز) إلى ميناء (زيلع) الصومالي حيث قابلا حاكم المدينة وطلبا منه أن يتعاون مع البرتغاليين فلما رفض قاموا بقصف المدينة وحرقها . كما كان البوكيرك يقوم بين الفينة والفينة بإرسال رسائل إلى سلطان اليمن بواسطة الأسرى الذين يقبض عليهم في الموانيء التي يقف فيها وهو يتوعده فيها بالويل والثبور . ويذكر لنا المؤرخون اليمانيون أن أهل اليمن الشمالي كانوا متحمسين لقتال البرتغاليين ومنازلتهم في البحر ، وأنهم كانوا يطلبون أن يأذن لهم السلطان عامر بالهجوم عليهم ، خاصة عندما كانوا في (كَـمَرانْ) ، إلا أن السلطان لم يكن راغباً بذلك . فيقول (بامخرمة) في مصدره : « فأقاموا في جزيرة كمران من أوائل صفر إلى نصف جمادي الأولى ، والناس تأكل بعضها بعضاً من الغيظ ، يريدون من السلطان الإذن في قتالهم فلم يساعدهم على ذلك . »

ويذكر بامخرمة أيضاً أن امتناع السلطان عامر بن عبدالوهاب الطاهري عن مقاتلة البرتغاليين قد سبب نقمةً عليه ستظهر آثارها فيما بعد ، أي في الحملة المصرية الثانية التي ستأتي إلى اليمن في عام ١٥١٥-١٥١٦م ، كما سنرى ذلك في التفاصيل[١١]

وهكذا خرج البوكيرك من مضيق باب المندب وهو يحترق ألماً لفشله في تحقيق خطته الخبيثة ، وكذلك لانكساره العسكري في عدن ، فقرر أن يهاجم عدن ثانية ويحتلها مهما كلّف الأمر ، وفي يوم الجمعة ١٨/ جمادي الأول/ ٩١٩هـ أي ٢٢/ ٧/ ١٥١٣م كانت سفن البوكيرك تقف ثانية في البحر مقابل المدينة .

وفي عدن كان الأمير مرجان الظافري حاكم المدينة قد اتخذ كل تحوطات الأمان والاستعدادات اللازمة لمنازلة البوكيرك وجيشه ثانية ، وقد لاحظ البوكيرك أن هناك عدداً من السفن الضخمة تقف في ميناء المدينة لحراستها ، كما لاحظ أن قلعة الصيرة قد تم تحصينها جيداً وأن هناك أعداداً من المقاتلين قد اعتصموا فيها .

---

(١١) بامخرمة - المصدر نفسه - ص ١٢٣ .

أمر البوكيرك القائد (كارسيا دي نورونها) أن يجهز وحدته وأن ينزل إلى الشاطيء لمهاجمة حصن الصيرة المنيع ، وعندما باشر هذا بالهجوم أمر البوكيرك مدفعية السفن أن تصب نيرانها على داخل المدينة ، فأصابت طلقات المدافع سوق المدينة وبعض دورها وهدمتها ، أما سرية نورونها الموجودة على الساحل فقد تصدى لها المدافعون العرب وأنزلوا بها هزيمة أجبرتها على التراجع إلى السفن . وتذكر المصادر اليمانية أن عدد السفن المهاجمة كانت ست عشرة سفينة ، وأنه لم يكتمل النصاب إلا بعد عودة السفينتين اللتين هاجمتا (زيلع) في الصومال وحينذاك فرح المهاجمون وراحوا يطلقون نيران مدافعهم ابتهاجاً حيث قاموا بالهجوم بعدها .

وتذكر المصادر البرتغالية أنه بعد فشل سرية (دي نورونها) في تحقيق نصرها في قلعة الصيرة وهزيمتها على الساحل أمام المدافعين اليمانيين ، فإن البوكيرك جمع ضباطه ليناقش خطة هجوم جديدة على المدينة ، فبين له الضباط أن المدينة محصنة تحصيناً جيداً ، وأن المدافع والمنجنيقات المنصوبة على قلعة الصيرة والجبال سوف تفتك بهم فتكاً ذريعاً ، لذلك فإنهم يرون أنه لا موجب للخسائر الفادحة التي يمكن أن تلحق بهم ، فأخبرهم البوكيرك بأنه في حالة عدم التمكن من تحقيق نصر باحتلال عدن ، فعلى الأقل يجب حرق السفن الموجودة في الميناء ، ولما لم يجد صدىً وحماساً لكلامه عند الضباط ، أمر بتجهيز سرية مكونة من مائة جندي ليقودها بنفسه ويقوم بحرق السفن اليمانية الموجودة في الميناء ، وبالفعل فقد تم له ذلك وقام بتدمير السفن هناك[١٢] .

ويؤيد ذلك القول المؤرخون اليمانيون ويخالفونه في نتائجه إذ ورد في كتاب الفضل المزيد ما يلي :

« ولما وصل أصحابهم من (زيلع) استعدوا للحرب وأحرقوا ما جاورهم من المراكب التي بالساحل ، وكانت قدر عشرين مركباً ، نزلوا ليلاً في السنابيق والبحر حينئذ عار ،

(١٢) DANVERS – المصدر نفسه – ص ٢٧٦ .

وقد استعد لهم أهل عدن بسلاحهم ورتبوه في الساحل ، فنزلوا من سنابيقهم إلى العراء رجال ، مستعدون للحرب بالسلاح وغيره ، وقد كان أهل جبل صيرة ، لما رأوهم متأهبين للنزول أعلموا أهل عدن بذلك فلما نزلوا إلى الساحل ثار عليهم المسلمون من كل جانب ، وضربت المدافع من البلد ومن مراكبهم وكانت ضجة عظيمة وفتنة قوية فنصر الله المسلمين وقُتل مقدمهم الكبير وسبعة رجال منهم ، وجرح منهم جمعٌ وأمسك المسلمون عن لحاقهم إلى البحر خوفاً من امتلاء البحر بعد أن حازوا ثلاثة من قتلى الإفرنج فجزوا رؤوسهم وأخذوا سلبهم ورجع الإفرنج بالجرحى منهم إلى مراكبهم فمات أكثرهم .

فلما كان اليوم الثاني ألزمهم مقدمهم بالنزول فلم يفعلوا ، فخوفهم من (البردغان) فلم يؤثر فيهم ذلك وانقطع رجاؤهم عن المدينة وعن تحريق باقي الخشب الذي في الساحل ، وكانت مدافع المسلمين كل يوم تتلف لهم (برشتين) أو ثلاثة ، فارتفعوا بعد ذلك إلى حيث لا تصلهم مدافع المسلمين ، وضربت عليهم العرادة من الصيرة فأضرت بهم ضرراً عظيماً وأخرجتهم من البندر كرهاً فأقاموا بعد ذلك ثلاثة أيام في عيد لهم كما قيل ثم توجهوا إلى طريق الهند مكسورين مخذولين مذمومين مدحورين ، أول يومٍ من جمادي الآخرة ، لا قابلهم الله بخير ولا كتب لهم سلامة .»[١٣]

أما المصادر البرتغالية فتقول إنه بعد وصول السفينتين البرتغاليتين من (زيلع) إلى اسطول البوكيرك ، فإنه ولسبب غير معروف قرر صرف النظر عن احتلال عدن وأمر أسطوله بالتحرك نحو الهند ، فغادر الأسطول يوم ٤/ ٨/ ١٥١٣م المياه العدنية متجهاً نحو الهند[١٤] ، وهكذا أصيب البوكيرك بخيبة أمل ثانية لانكساره أمام عرب اليمن في عدن وعاد إلى الهند وهو يجر أذيال الهزيمة ، إلا أن الفائدة الوحيدة التي حصل عليها من جراء مغامرته تلك هو أن حصل على أكبر قدر من المعلومات عن البحر الأحمر .

(١٣) ابن الديبع – المصدر نفسه – ص ٣٤٨ .

(١٤) DANVERS – المصدر نفسه – ص ٢٧٦ .

كان أول ما فعله عند وصوله إلى الهند هو أنه أمر بتشييد وإقامة قلاع عسكرية حصينة لتكون قواعد بحرية وبرية لجيوش البرتغال ، تتمكن بواسطتها من صد وقتال أية قوة مصرية أو إسلامية تحاول أن تنال من سيادة البرتغال أو سلطتها في مستعمراتها .

وفي يوم ٣٠/ ١١/ ١٥١٣م ، أرسل البوكيرك رسالة إلى الملك البرتغالي يقول له فيها إنه وبعد الانتهاء من تشييد قلعتي كاليكوت وديو ، فإنه ينوي الذهاب إلى البحر الأحمر ثانية والبقاء هناك طيلة مدة هبوب الرياح الموسمية لغرض تدمير كل السفن العربية التي تمر من باب المندب ، وإنه إذا ما أتم هذا فسوف يأمر ثلاثة سفن بالرسو بشكل دائم في أحد الموانيء هناك لتقوم بواجب تدمير أية سفينة جديدة قد تظهر ، وقال أيضاً إن احتلال عدن يجب أن يتم ، وإنه لا بد من بناء قاعدة بحرية وقلعة في ميناء (مصوّع) وإنه لا يمكن أن تدخل السفن البرتغالية إلى داخل البحر الأحمر للقيام بعمليات عسكرية هناك إلا بعد أن يتم بناء القلعتين .

وفي مدينة (كنانور) الهندية حيث كان البوكيرك قد اتخذها مقراً له فإن معلومات جديدة وصلت إليه عن نشاطات العرب والمسلمين ، إذ أرسل له حاكم (ديو) البرتغالي خبراً عن وصول (قاضي القاهرة) موفداً من سلطان مصر للتنسيق مع عادل خان ، كما وصلت إليه أنباء عن تواجد مصري في عدن ثانية ، كما وصلت إليه معلومات من جزيرة هرمز مفادها أن (خوجا عطار) قد توفي وهو الرجل الذي كان يمانع التسليم للبرتغاليين . فكان ما فعله البوكيرك هو أنه أصدر أمره إلى ابن أخيه الضابط (بيرو دي البوكيرك PERO DE ALBUQUERQUE) أن يجهز أربع سفن حربية يتوجه بها إلى القرن الأفريقي (رأس كردفان) ومنها إلى عدن للحصول على أكبر قدر من المعلومات عما يجري في اليمن ، وبعد ذلك عليه أن يذهب إلى هرمز ليرى ماذا يحدث هناك ويحصل على الضريبة المفروضة على ملكها ، ثم يحاول أن يتوغل قليلاً في داخل مياه الخليج العربي للحصول على معلومات عن المنطقة ثم العودة إلى الهند

ثانية .

وبينما كانت الاستعدادات تجري لتلك الحملة ، أرسل البوكيرك رسالة ثانية إلى الملك البرتغالي يخبره فيها بألاّ يصدق التقارير الكاذبة والإشاعات المغرضة التي يرسلها إليه خصومه والتي تتحدث عن إخفاقه في احتلال عدن والتوغل في البحر الأحمر .

وبصورة عامة فإن رسالته هذه كانت تبريراً لفشله العسكري ومحاولة إسكات الأصوات المعتدلة في البلاط البرتغالي التي كانت ترى في مغامراته العسكرية خسارة للبرتغال في الأخلاق على الأقل .

وفي تلك الأثناء طرق سمع البوكيرك أن موفداً من الشاه إسماعيل الصفوي قد وصل إلى الهند ، وأنه موجود عند عادل خان وأن الغرض من وجوده هو مقابلة البوكيرك لكي يرسل معه رسولاً يفاوض الشاه ، كما علم بأن هذا الموفد كان قد قابل عدداً من حكام المقاطعات الهندية لكي يدخل معهم في حلفٍ واحدٍ يقوي به مركزه أمام خصم إيران ، الدولة العثمانية .

اختار البوكيرك موفده لمقابلة الشاه وهو (ميكيل فيريرا MIGUEL FERREIRA) وأرسل معه صورة له بالحجم الطبيعي وهدايا إلى الشاه ، والتقى (فيريرا) بالشاه في العاصمة تبريز ، حيث أعد الشاه استقبالاً فخماً للموفد البرتغالي ، وكان مع موفد البوكيرك موفدٌ آخر هو رسول لعادل خان الذي لم يعره أحدٌ من الناس هناك اهتماماً ، وقد عقد الشاه عدة اجتماعات مع (فيريرا) ، إذ كان متلهفاً لمعرفة الكثير عن مملكة البرتغال ، وكذلك عن مستعمراتهم الموجودة في الهند وعن قوة الأسطول البرتغالي الموجود هناك ، وهي الأمور التي طالما سمع بها ونقلها إليه الزوار الذين زاروا الهند ، وأعرب الشاه للموفد بأنه مستعد للتعاون مع البرتغاليين لتحطيم وتدمير كلٍ من السلطان الأعظم ومكة(١٥) .

(١٥) هذا التعبير ورد عند DANVERS في المصدر نفسه ص.٢٨٩ بالصيغة الانجليزية التالية :

ALL THIS INTERESTED SHEIKH ISMAEL WHO EXPRESSED TO MIGUEL FERRIERA HIS CREAT DESIRE FOR THE DESTRUCTION OF THE CRAND SOLDAN AND THE HOUSE OF MECCA, EVEN =OFF ERING TO DEVOTE HIS OWN PERSON AND ESTATE TOWARDS THE ACCOMPLISUMENT OF THIS PURPOSE.

ومن البديهي أن الشاه اسماعيل يقصد بالتعبير أعلاه وحسبما نقله على تلك الصيغة فيريرا إلى البوكيرك ، أنه مستعد للتعاون مع البرتغاليين لحرب قوات السلطان المصري المملوكي قانصوه الغوري وانتزاع سلطته الموجودة في الحجاز والبحر الأحمر ومكة المكرمة .

وعندما عاد فيريرا إلى الهند أرسل الشاه إسماعيل معه هدايا من الحرير الفاخر والملابس والخيول ، ولما وصل إلى هرمز استقبله هناك ملك هرمز ووزيره ريس نور الدين ، وعندما كان في هرمز في انتظار الريح المناسبة التي ستأخذ سفينته إلى الهند فوجيء الجميع بوصول أفونسو البوكيرك إلى هناك .

وقبل أن نتطرق بالبحث عما فعله البوكيرك في هرمز ، يجب أن نعود قليلاً إلى الوراء عندما ترك (بيرو البوكيرك) الهند متجهاً نحو سقطره للحصول على معلومات عن تحركات الجيش والبحرية المصرية في عدن . ففي خلال رحلته البحرية التقى عدة مرات بسفن عربية قام بإيقافها وإحراقها أو تدميرها ، ثم اتجه نحو القاعدة البرتغالية الموجودة في سقطره حيث راح يقوم من هناك باصطياد السفن العربية وإحراقها أو تدميرها ، وهي الحوادث التي أرخ لها المؤرخون اليمانيون باقتضاب .

وفي حوالي شهر مايو - مايس من عام ١٥١٤م ترك سقطره واتجه نحو هرمز ووصلها فكان في استقباله الملك توران شاه ووزير اسمه حكيم علي ، وفي اليوم التالي أرسل بيرو وفداً يمثله ومعهم مترجم يهودي وبيده رسالة من عمه البوكيرك ، يقول فيها إنه علم بموت الملك سيف الدين الذي هو شقيق الملك الحالي توران شاه ، وأنه يرغب أن يجدد الملك الجديد الاتفاقيات والمعاهدة التي عقدها سلفه مع البوكيرك ، وان البوكيرك يطالب بالجزية والضريبة السنوية التي لم تُدفع منذ سنتين ، وإنه يتوقع أن تفتح مخازن القلعة البرتغالية أبوابها ثانية للبضائع البرتغالية ، وأن يتمتع البرتغاليون الموجودون في هرمز بالأمان والحماية .

فأجابه الملك توران شاه أن وضع القلعة البرتغالية داخل المدينة يُثيرُ الناس ، ويود لو

قاموا ببناء مستودعات قرب البحر ، كما أخبره بأنه أرسل إلى ملك البرتغال لؤلؤاً وهدايا ، وادعى أنه لا يملك نقوداً تكفي لدفع الضريبة المتأخرة ويطلب إعفاءه منها . أما بالنسبة لموضوع تجديد المعاهدة فإنه موافق على ذلك . وبعد مناقشات طلب بيرو إعطاءه مستشفى المدينة أو مسجدها ليكون مخزناً للبضائع ، فلما اعترض الملك على ذلك احتل بيرو عدداً من البيوت وحوّلها إلى مخازن ودائرة جمارك ، وأصر على أن يقوم ملك هرمز بدفع الضريبة . وفي يوم ٧/ تموز/ ١٥١٤م أقلع بسفنه من هرمزاً ماراً بالمضيق ومتجهاً نحو البحرين .

كانت الغاية من إبحار (بيرو البوكيرك) إلى البحرين استطلاعية واستكشافية للساحل العربي من الخليج ، أي ضبط مواقع الجزر والموانيء والمدن المهمة والبلدان التي تقع على ذلك الساحل إلى نقطة أو منطقة اسمها (LULUTEM) ولعل المقصود بهذا الاسم مناطق اللؤلؤ المحيطة بالبحرين ، لأنه لم يتعدَ البحرين في رحلته الاستكشافية هذه ، وعندما وصل إلى البحرين ، بقي فيها مدة قصيرة ثم غادرها إلى منطقة أخرى هي أحد الرؤوس البحرية التي لم يُذكر إسمها واضحاً ، وهناك التقى بأسطول فارسي يقوده قائد اسمه (الأمير بوزاك MIRBUZACA) وكان هذا القائد قد القى القبض على عشرين سفينة وقارب خفيف (طراد TERRADES) تعود إلى مملكة هرمز وحجزها فأمره بيرو أن يطلق سراحها وعاد بها إلى هرمز ووصلها في ٦/ ٨/ ١٥١٤م وأعاد القوارب إلى ملكها الذي فرح بعودتها .

وفي هرمز أصر بيرو على أن يقوم ملكها بدفع الضريبة المالية مهما كلف الأمر وبدت في لهجته علامات التهديد ، فقام ملك هرمز بدفع عشرة آلاف (أشرفي XERAPHINS) وهو نقد وعملة تعادل بالذهب عيار ٢٣٫٢٥ قيراطاً ووزنها ٢٫٥٦ أو ٢٫٥٧ قيراطاً . معتذراً بعدم إمكانه دفع أكثر من هذا المبلغ إذ أن تجارته أصيبت بالضمور نتيجة عدم خروج التجار من الجزيرة خوفاً من السفن البرتغالية . ثم أصدر بيرو أمراً إلى ملك هرمز محذراً إياه من التعاون مع الشاه إسماعيل الصفوي الذي لا بد

وأنه يرغب بإعادة هرمز إلى سلطته ومحذراً إياه أيضاً من استقبال أية قوات مسلحة إيرانية وعدم السماح بمرور أية تجارة عربية إلى الهند ما عدا تجارة الخيول التي يجب أن ترسل فوراً إلى (كوا) . وهكذا غادر بيرو هرمز عائداً إلى (كوا) فوصلها يوم ٢٨/ ٩/ ١٥١٤م . وهناك التقى بعمه فأخبره بما حدث قائلاً له إن الجزيرة كانت حتماً موالية للشاه اسماعيل وإنه أعادها إلى طاعته الآن ، ثم سلمه النقود التي حصل عليها ففرح بها البوكيرك كثيراً ذلك أن خزانته كانت قد أفلست إثر عملياته الفاشلة ضد العرب .

وبعد ذلك قرر البوكيرك أن يذهب بنفسه إلى هرمز لتوطيد أركان السيطرة البرتغالية هناك والقضاء على أي نفوذ محتمل للشاه اسماعيل ، وبعدها يقوم مرة ثانية بمهاجمة (مضيق مكة) أي البحر الأحمر لينفذ الغرض الخبيث السابق ، فقام أولاً بتثبيت أوضاعه في المنطقة وذلك بإجبار الحكام المسلمين أمثال (عادل خان) على تثبيت أُسس معاهدة السلام التي أجبرهم على توقيعها ، وقام بجمع الأموال من الحكام الهندوس الموالين له ، ثم أمر باستدعاء بعض قطع الأسطول البرتغالي المنتشرة في الساحل الهندي لتنضم إلى أسطوله في (كوا) علاوة على أن تقوم كل قاعدة بحرية برتغالية بإرسال عدد من جنودها إلى هناك أيضاً ، ثم قام باجراء تعيينات جديدة للمناطق البرتغالية في مالاقا وكوشن وكوا ، وفي يوم ٢٠/ ١٠/ ١٥١٤ أرسل رسالة إلى الملك مانويل يخبره عن الأوضاع في البحر الأحمر ويقول فيها :

« إن عدن يجب أن نحتلها ونسلمها لرجال قواتنا المسلحة ، ففي المدينة يوجد ميناء جيد ، يمكن استخدامه بصورة جيدة من قبل سفننا ، ولعل الماء قليل فيها ، لكن هناك آبار مياه عذبة في منطقة قريبة من المدينة وسنقوم باحتلالها ، ولكي يتم احتلال عدن فإنني احتاج إلى ٤٠٠٠ أو ٥٠٠٠ جندي . إن جزيرة (الصيرة) تشكل هدفاً تعبوياً مهماً ، وإن احتلالها يعني سقوط عدن ، وسأقوم بالهجوم أولاً على ميناء يقع خلف الصيرة وأهاجم من هناك المدينة . إن آخر الأنباء التي وصلتني من عدن تفيد بأن أسوار

المدينة قد تمت تعليتها وتقويتها وأنهم استلموا أعداداً كثيرة من المدافع الهندية من (مالك عزيز) حاكم بلدة (ديو) الهندية ، الذي يُظهر لي المودة ويعتقد أنه يخدعني وأنني لا أعرف بتحركاته . أما بالنسبة لبناء قلعة وقاعدة بحرية في مدخل البحر الأحمر ، فهذا أمر لا يمكن تنفيذه ، لعدم وجود المياه العذبة هناك ، علماً بأن عدن تقع على مسافة ثلاثة أيام من مدخل البحر الأحمر ، لذلك يمكن استخدامها قاعدة لذلك الغرض . وبالنسبة لمناطق (بربره) و(زيلع) فإنني اقترح على جلالتكم أن لا توقعوا معاهدات تجارية معهم ، بل يجب احتلالها وإجبار حكامها الخضوع لجلالتكم ودفع الضريبة السنوية ، أما بالنسبة لجزيرة كمران فقد وصل إلى علمي أن سلطان القاهرة أو حاكم عدن قد أقاما قلعة وقاعدة بحرية هناك ، إلا أن هذا لا يهم حيث يوجد إلى الشمال من كمران جزيرة اسمها (فَرَسانْ) وهي أقرب إلى جدة من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الماء العذب متوفر فيها بكثرة وفيها موانيء طبيعية أيضاً ، كما توجد منطقة أخرى قريبة (دهلك) يوجد بها ماء عذب . إنني سوف أتوقف أولاً في (مصوّع) لغرض إعادة التنظيم إذ إنها ميناء تجاري كبير يعود إلى الحبشة فإذا تم لي إعادة التنظيم والتحشد هناك فسأقوم بمهاجمة جدة ثم مكة ثم السويس ، وبما أنه يوجد في الحبشة خيول جيدة فسأقوم بتنظيم وحدة فرسان مكونة من خمسمائة فارس برتغالي أقودهم بنفسي وأهاجم جدة ، ثم أهاجم مكة وأحرقها وأجعلها رماداً .»

وفي يوم ٢٥/ ١٠/ ١٥١٤م أرسل رسالة ثانية جاء فيها :

« إن السلاح الذي وصلني من لشبونه لم يكن جيداً ، مما دفع ببعض الضباط البرتغاليين إلى أن يتاجروا به ويبيعوه إلى الجنود ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنني وبعد أن أصل إلى (مصوّع) في الحبشة فسأقوم فوراً باحتلال جزيرة دهلك لأرى كيف أعالج موضوع الهجوم على جدة ، هذا ما لم يستوقفني أمر معالجة تجارة هرمز ، ولكنني أود أن أوكد لجلالتكم أن حملة البحر الأحمر مربحة حتماً آخذين بنظر الاعتبار أنه لا زالت هناك تجارة توابل قائمة بين الهند ومصر ، أما بعد تقوية العلاقات

مع الحبشة وتدمير مكة فإنني سأتوجه إلى السويس لتدمير أسطول سلطان مصر ، إن خطتي للعمليات العسكرية بصورة عامة تتلخص بأنني سأرسل مقدمة القوة من أسطولي العامل في الهند من سُفُن (الكرافيل) و(الكالي) لتوقف في جزر كوريا موريا ومنطقة ظفار (في دولة عُمان في يومنا هذا) لتبقى هناك انتظاراً لتحول الرياح باتجاه عدن وكذلك لاصطياد السفن العربية التي قد تمر من هناك ، ثم بعون الله تتوجه هذه السفن إلى عدن وتبقى في انتظاري هناك في عرض البحر ، أما أنا فسأتوجه أولاً إلى سقطره لغرض التموين والإعداد ، ثم ألحق بالسفن الموجودة في مياه عدن حيث سأرى ما يمكن عمله هناك حتى ولو اقتصر الأمر على حرق السفن العربية كلها .»

إلا أن البوكيرك سرعان ما غيّر رأيه بالنسبة لحملة البحر الأحمر وقرر احتلال هرمز احتلالاً كاملاً كمرحلة أولى من مراحل تحركاته العسكرية وأرسل إلى ملك البرتغال رسالة بتاريخ ٢٧/ ١١/ ١٥١٤م هذا نصها :

« لقد استجدت أمور جديدة في الهند تتطلب معالجة جديدة وحذرة ، لذلك فإنني سأذكر لك باختصار الأسباب التي دفعتني لتغيير خططي بالنسبة لحملة البحر الأحمر . ذلك أن قلة البضائع المخزونة الآن في مستودعات جلالتكم في الهند ، واحتمال أن الحملة ستحتاج إلى استهلاك كميات كبيرة منها ، علاوة على أن الحملة قد تستغرق موسم الشتاء كله ، آخذين بنظر الاعتبار احتمال عدم دفع الرواتب لأفرادها ، كل هذا جعلني أفكر بالذهاب إلى هرمز لغرض التزود بالطعام والمؤن الكافية ، وإنني بعون الله متمكن من احتلالها بشكل تام ، ناهيك عن ظهور التجارة الجديدة التي تتاجر بها هرمز وهي تجارة الخيول التي لا يمكن إغفالها ، فإذا تم احتلالها كلياً استطعنا احتكار هذه التجارة أيضاً . وأود أن ألفت انتباه جلالتكم إلى أن تجارة التوابل لا زالت إلى الآن قائمة بين هرمز والعرب ، ولا زالت كميات كبيرة منها تذهب إلى البحر الأحمر ، لذلك أرجو أن تسمح لي بالقيام باحتلال هرمز أولاً ، وبعد ذلك سوف أتمكن وبعدد قليل من السفن من احتلال البحر الأحمر . لقد لاحظتُ أن

جلالتكم لا ترغبون بتدمير مدن الهند وأود أن أؤكد لجلالتكم بأن هذا الأمر لم يكن في نيتي أبداً .»(١٦)

وقبل أن يتحرك البوكيرك نحو أهدافه فإنه ناقش موضوع أي الهدفين يجب احتلاله أولاً ، أهو عدن أم هرمز . .؟ إذ كان من رأي الملك البرتغالي أنه يجب احتلال عدن وإقامة قلعة برتغالية هناك أولاً . وقد شارك في المناقشات ، المدعو (نيكولا دي فيريرا) السفير البرتغالي في هرمز ، وكان قد عاد لتوه من لشبونه ، وقد أوضح هذا السفير أن حاكم هرمز رجُلٌ من أصل فارسي وله سبعة أو ثمانية أقرباء من ذوي النفوذ هناك وإنهم مستعدون لتنفيذ أي أمر يصدره هذا الحاكم ولو كان اغتيال ملك هرمز نفسه ، كما حدث للملك السابق سلفه وأن هذا الرجل يمكن أن يُسلِّم هرمز إلى شاه إيران ، فإذا حصل هذا فلسوف يكون من الصعب استعادتها ثانية .

وهكذا فقد رسخ قرار البوكيرك بوجوب احتلال هرمز أولاً . ولعله في هذا القرار قد استراح نسبياً حيث إن هزيمته في العام الماضي أمام دفاعات عدن المجيدة ، واخفاقه في البحر الأحمر لا زالتا ماثلتين أمام عينيه . وعلى كل حال فقد أقلع متجهاً نحو هرمز بتاريخ ٢١/ ٢/ ١٥١٥م .

تألفت الحملة من ست وعشرين سفينة على ظهرها ألف وخمسمائة جندي برتغالي وسبعمائة جندي هندي ، وكان عدد القادة الذين يقودون الوحدات المقاتلة خمسة وعشرين قائداً .

وفي يوم ٢٥/ ٣/ ١٥١٥م وصل إلى بلدة (قريات) العُمانية ، ثم أبحر إلى (مسقط) حيث ألقى مراسيه هناك لغرض إعادة تموين سفنه بالماء والطعام وللاستماع إلى الأنباء والحصول على معلومات عما يجري في هرمز .

كانت الأنباء التي وصلت اليه من هرمز تفيد أن المدعو (ريس حميد) وهو فارسي

(١٦) DANVERS – المصدر نفسه – الصفحات ٣٠٥ إلى ٣٠٩ .

وقريب للريس نور الدين الوزير الهرمزي قد تمكن من احتلال القلعة البرتغالية وتمكن من اعتقال الملك والريس نور الدين ، وإنه يسيطر على المدينة بخمسمائة مقاتل فارسي ، لذلك فقد قرر البوكيرك التوجه فوراً نحو هرمز ، فأرسل قسماً من سفنه لتحوط الجزيرة من الخلف لكي تقطع الإمدادات عنها من البر الفارسي ، وعندما وصلها أمر سفنه بفتح نيران مدافعها كلها مرة واحدة على المدينة ، مما أدى إلى انهيار مقاومة (ريس حميد) فقام باطلاق سراح ملك هرمز والريس نور الدين وأعلن استسلامه ، ثم ارتفع العلم البرتغالي ثانية على قصر الملك فيما فتحت السفن البرتغالية أفواه مدافعها تحية لهذا الانتصار السهل وكان ذلك يوم ١/ ٤/ ١٥١٥م .

ثم قام البوكيرك باتخاذ القلعة مقراً له ، وأمر بجلب كل المشتغلين في البلاط وجعلهم يقسمون يمين الولاء والطاعة للملك الهرمزي ومعاونه الريس نورالدين . وعندما كان على تلك الحال وصل موفدٌ من الشاه اسماعيل الصفوي يحمل رسالة إليه ، فأجرى له البوكيرك استقبالاً مرعباً حيث عرض أمامه كل وحداته العسكرية وسط قرع الطبول وإطلاق نيران المدافع ، وقد استمرت المحادثات بين البوكيرك وموفد الشاه يومين ، أعرب فيهما الموفد عن رغبة الشاه في إقامة حلف صداقة وتعاون مع ملك البرتغال ، وأنه مستعد لمنح البوكيرك أية مقاطعة في إيران ليحكمها ، ثم قام الموفد الإيراني بطرح أربع نقاط اقترحها الشاه وهي :

١: إن الضرائب المفروضة على التجار الفرس الذين يبيعون بضائعهم في هرمز، يجب أن يتسلمها الشاه .

٢: أن يسمح لسفن رعاياه بالتنقل إلى السواحل العربية في مناطق البحرين والقطيف .

٣: أن يقوم البوكيرك بمساعدة قوات الشاه باحتلال ميناء (جوادر) الذي تحت سلطة (ملك مكران) وأن يعيده إلى سلطة الشاه .

٤: أن يسمح للشاه بفتح مركز تجاري فارسي في الهند، وكذلك مركز تجاري في

هرمز أيضاً .

وقد أجاب البوكيرك قائلاً إن النقاط الأربع لا يمكن البت فيها فوراً لخطورتها ، وإنه سيرد عليها بعد حين[١٧] .

وبعد ذلك قرر أن يُنهي الثائر الريس حميد فاستدرجه إلى لقاء معه ثم أمر باغتياله فقتله (بيرو البوكيرك) وزمرة معه ، ثم قام ملك هرمز الضعيف بإعلان خضوعه وولائه لملك البرتغال . وقد حدثت محاولة مقاومة من أنصارالثائر المقتول إلا أن البوكيرك قام بإحباطها فوراً ، كما أمر بمنع أي إيراني أو هرمزي من حمل السلاح عدا حراس الملك ، كما قام بإعادة تنظيم تجارة هرمز مع الهند وضبطها على أسس جديدة .

ومن الجدير بالذكر أن أسطولاً فارسياً يعود إلى الشاه بقيادة (ابراهيم بيك) كان موجوداً طيلة تلك المدة في هرمز وكان يعاون البوكيرك في إتمام سيطرته على الجزيرة ، فلما تم لالبوكيرك السيطرة التامة عليها ، انسحب (ابراهيم بيك) بأسطوله نحو السواحل الإيرانية .

أما البوكيرك فقد أشرف على إتمام بناء القلعة والقاعدة البحرية حيث وصلت اليه معلومات أكيدة عن تحركات بحرية مصرية تتجه نحو الهند لقتاله . كما وصلت تلك المعلومات إلى مسامع موفد شاه إيران الذي كان في هرمز إلى ذلك الوقت ، فطلب من البوكيرك أن يُسرع بالرد على مقترحات الشاه ليأخذها إليه ، إذ إن الموقف خطير ، فقام البوكيرك بإرسال جواب إلى الشاه جاء فيه أنه يأسف لعدم موافقته على دفع عوائد هرمز الجمركية ، لأن هذه العوائد سيقوم ملك هرمز بدفعها إلى ملك البرتغال وذلك لتقوية دفاعات الجزيرة .

أما بالنسبة للنقطة الثانية فقد وافق البوكيرك على طلب الشاه بنقل رعاياه إلى الساحل العربي ، بشرط أن يقوم الشاه بإعطاء الضمانات الكافية لملك هرمز بعدم

(١٧) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٣١٤ .

ارتكاب رعاياه جرائم أو مخالفات في هرمز أو في جزيرة البحرين .

أما بالنسبة للنقطة الثالثة ، أي المساعدة العسكرية البرتغالية للشاه ضد ملك مكران البلوشي فإنه يوافق عليها بشرط أن لا يتخذ من ميناء (جوادر) مركزاً تجارياً للبضائع الفارسية المخصصة لهرمز ، وبالنسبة للنقطة الرابعة ، وهي فتح مركز تجاري إيراني في الهند وهرمز فإنه يوافق على ذلك شريطة أن يكون هذا المركز في (كَوا) في الهند ، كما يجب أن يؤخذ بنظر الاعتبار أن أية بضاعة فارسية توجد في أي ميناء في الهند عدا المركز التجاري المزمع فتحه في (كَوا) فسوف يتم حجزها ومصادرتها .

حمل جواب البوكيرك موفده المدعو (فيرنا كومز دي لوماس) وحمل معه هدايا ثمينة إلى الشاه ، كما أخذ معه الرسالة التالية :

إلى الشيخ اسماعيل أقوى ملوك المسلمين

أنا أفونسو دي البوكيرك حاكم الهند والقائد العام والنائب عن ملك البرتغال ، أرجو أن تعلم بأنني عندما قمت باحتلال (كَوا) فإنني وجدت هناك سفيراً لك ، وقد رحبتُ به وعاملته معاملة تليق بسفير ملك عظيم مثلك ، وحسب علمي فان ملك البرتغال سيسره أن يرتبط بمعاهدة صداقة مع جلالتكم . لقد أرسلت لكم السفير (دي لوماس) الذي سيشرح لجلالتكم أُسس وأساليب القتال التي نتبعها في حروبنا ، مما يظهر لك قوة مملكتنا في البر والبحر وكيف تمكنا من قهر المسلمين في أي مكان وأي زمان التقينا بهم . وسوف تعرف أيضاً كيف تمكنا من الاستيلاء على هرمز تنفيذاً لأوامر سيدي جلالة الملك ، وإنني حينما تستتب الأمور هناك فسأقوم بزيارة لموانيء مملكة جلالتكم . إن قوتي التي أستمدها من جلالة الملك قد مكنتني من تدمير أسطول السلطان ، لقد قهرت أمير البحر وأسطوله في (ديو) ولقد قمت بمصادرة الأسطول ، أما البحارة فلقد أمرت باعدامهم فيما بعد في (كوا) ، كما سيخبرك عن ذلك بالتفصيل السفير الذي أرسلته إليكم .

لقد علمت أن السلطان عدوٌ لكم وأنه يشن حرباً ضدكم فإذا رغبتم جلالتكم بمساعدتنا فسوف أنفذ لكم هذا الطلب وأقهر خصمكم أينما كان ومتى ما كان ، فإن أردتم مهاجمة السلطان براً فإنني أستطيع أن أساعدكم بحراً ، وتأكد أنه سوف يمكن الاستيلاء على القاهرة والقطر كله بجهود قليلة ، فإذا وافقتم جلالتكم على الدخول في حلف معي ووافقتم على حشد جيوشكم وسوقها لاحتلال القاهرة ، فإن جلالة ملك البرتّغال سوف يسوق كل قطعاته ويحشدها لتحرير القدس والأراضي المجاورة لها ، وبهذا فإن قوات السلطان سوف تقاتل بجبهتين وتضعف في كليهما . لذلك أرجو من جلالتكم إخباري عن المكان الذي ترغبون فيه أن يتحشد الأسطول البرتغالي لتنفيذ الخطة أعلاه .»[١٨]

هنا يجب أن نتوقف قليلاً مع رسالة البوكيرك إلى الشاه إسماعيل الصفوي ، إذ إن البوكيرك قد خلط فيها ما بين (سلطان تركيا) الذي كان يضمر العداء للشاه الفارسي و(سلطان مصر) الذي كان يهمه كسب جانب الشاه الفارسي لأنه كان مهدداً من سلطان تركيا بالقضاء على مملكة المماليك في مصر ، وهو الأمر الذي سيظهر لنا بجلاء في صفحات الفصول القادمة . لذلك فإن البوكيرك قد حسب أن (السلطان) هو سلطان مصر ، وأن (الترك) هُم مماليك مصر . والمماليك لا عداوة لهم مع الشاه ، الذي كان آنذاك يواجه قوات السلطنة العثمانية الجبارة التي تنازعه على السلطة الدينية والسياسية خاصة في العراق ، كما كانت تنازع سلطان مصر قانصوه الغوري السلطة السياسية في مصر والشام والحجاز وبقية ممتلكات دولة المماليك البحرية في مصر .

وفي يوم ١٠/٨/ ١٥١٥م ، غادر موفد البوكيرك هرمز حاملاً الرسالة إلى الشاه الصفوي فوصل أولاً إلى ميناء (كامبرون) أي بندر عباس فاستقبله (ابراهيم بيك) قائد الأسطول الفارسي هناك وسافر معه براً لمقابلة شاه العجم .

---

(١٨) DANVERS – المصدر نفسه – ص ٣١٩ إلى ٣٢١ .

وفي يوم ٢٢/ ٩/ ١٥١٥م أرسل البوكيرك رسالة إلى الملك البرتغالي شرح له فيها ما فعله في هرمز ، وكيف ولماذا غير خطته في احتلال هرمز قبل عدن ، قائلاً إن هرمز لا زالت تشكل مركزاً مهماً لتجارة التوابل التي تنقل من الهند إلى هرمز ثم إلى البصرة ومنها إلى دمشق ، أو بواسطة الطريق البري عبر فارس ، فلذلك تكون أهميتها أكبر من عدن .

وقال أيضاً إنه يريد مساعدة عسكرية برتغالية تصل اليه لمهاجمة عدن واحتلالها ، فإذا لم تصل اليه فسوف يضطر للبقاء في هرمز وإرسال سفنه إلى سقطره لاصطياد السفن العربية هناك وتدميرها ، وقال إنه وصلته عدة وفود من أمراء المقاطعات الفارسية يعرضون له الولاء والطاعة ، وإنه يوجد الآن اسطول فارسي في منطقة (رأس الـ RAXEL) وهذا الاسطول يقوم بمساعدة هرمز بتقديم الحاصلات الزراعية والخيول لها ، وإنه على علاقة طيبة معه ، وإن القائد الفارسي يطلب مساعدته لاحتلال جزر ومناطق مجاورة . لذلك قرر البقاء في هرمز لحين وصول النجدة العسكرية البرتغالية له ليقوم بالهجوم على عدن في موسم الربيع القادم .

وهنا ابتدأ البوكيرك يحس بأعراض مرض شديد يأكل جسمه ، حتى وجد نفسه غير قادر على مغادرة داره ومسكنه في هرمز ، مما دفعه إلى الاعتقاد بأنه هالك لا محالة ، ففي يوم ٢٢/ ١٠ دعا إلى اجتماع القادة العسكريين في منزله وأخبرهم بما يشعر به من مرض كما جعلهم يقسمون بعدم الخيانة وبإطاعة من سيكون خلفاً له ، ثم قام بتعيين قريبه (بيرو البوكيرك) حاكماً على هرمز .

وفي يوم الخميس ٨/ ١١/ ١٥١٥م غادر هرمز على ظهر السفينة (فلور دي روسا) وهو في أشد حالات المرض ، وعندما وصلت سفينته إلى ميناء قلهات العُماني التقى بمركب جاء من الهند وهو يحمل أسلحة ومعدات للقوات البرتغالية في هرمز ، وكان مع القبطان رسالة موجهة إليه فلما فتحها وجد أن فيها تعليمات من لشبونه بوصول اثني عشر سفينة حربية بقيادة (لوبو سوريز LOPO SOARES) الذي

سيستلم منصب قائد القوات المسلحة في الهند ، ومعه عدد آخر من الضباط بمناصب أمراء وقادة القلاع والقواعد العسكرية هناك ، كما وجد أن هناك رسالة خاصة له من سفير الشاه يعرض عليه أن يدخل في خدمة الشاه بصفة شخصية ، ووجد رسالة ثالثة أرسلها (لوبو سوريز) إلى قائد قلعة هرمز يخبره فيها باستلامه السلطة العسكرية .

وهنا شعر البوكيرك بخيبة أمل عظيمة أضافت آلاماً على آلامه السابقة في إخفاقه في احتلال عدن ، إذ كان يعتبر عدن واحدة من ثلاثة أهداف كبرى يجب احتلالها وهي (مالاقا) و(هرمز) و(عدن) ، ولقد تمكن من احتلال الهدفين الأول والثاني أما الثالث فقد فشل في تحقيقه .

وكانت الطامة الكبرى عليه يوم علم أن (لوبو سوريز) موجود في الهند ليتسلم منصب نائب الملك بدلاً منه وعلم أن أعداءه في البلاط البرتغالي نجحوا في إثارة الملك ضده . وفي ساعة من ساعات اليأس رفع يديه إلى السماء وهتف صائحاً : «يا للسمعةُ السيئة للرجال المحيطين بالملك ويا للسُمعةُ السيئة للملك المُحاط بهؤلاء الرجال» . وفي المركب كتب وصيته وطلب فيها أن يدفن في كتدرائية (كوا) وأن تُنقل عظامه بعد أن يبلى لحم جسده إلى البرتغال .

وفي يوم ٦/ ١٢/ ١٥١٥م كتب الرسالة النهائية إلى ملك البرتغال جاء فيها :

« إن هذه الرسالة ستصل إلى جلالتكم وهي مكتوبة بيد غير يدي ، لأنني حينما أكتب ينتابني الشهاق الذي هو علامة الموت ، يوجد معي ابن لي سيرثُ مني إرثي القليل ، إن الوقائع التي وقعت في الهند ستتحدث عن نفسها وكذلك ستتحدث عني أنا . إنني سأترك مقام الرئاسة في الهند بأمر جلالتكم ، والأمر الوحيد الذي يجب تنفيذه بعدي هو إغلاق المضيق (يقصد باب المندب) . إنني ابتهل إلى جلالتكم أن تتذكروا كل ما فعلته إلى الهند ، وأن تجعلوا ولدي فخوراً بي .»

وصل البوكيرك إلى (گوا) يوم ١٥/ ١٢/ ١٥١٥م ، حيث اجتمع بنائب الملك

الجديد وفي فجر يوم الأحد وقبل الشروق بساعة واحدة اشتد عليه المرض بشكل خطير فأسلم الروح لبارئها وهلك عن عمرٍ يقدر بثلاثة وسبعين عاماً[١٩] .

ويعترف كل من كتب عن هذا الرجل من المؤرخين أن البوكيرك (العظيم) فتح البلدان والممالك ونظم تجارة الهند واحتكرها وجعل من البرتغال دولة كبرى تتصدر الزعامة الاستعمارية في العالم وأنه قد تأثر بكتاب حصل عليه حينما احتل (خورفكان) ، وكان ذلك الكتاب مكتوباً بالفارسية وفيه قصة الإسكندر المقدوني في الشرق ، وقد قرأه وتأثر بالإسكندر وحاول أن يكون مثله ، إلا أن أسوأ ما فيه كان معاملته الوحشية القاسية للعرب والمسلمين . لقد كان البوكيرك مسيحياً متعصباً لمسيحيته ، فصب جام غضبه على العرب والمسلمين بقتلهم وتخريب ديارهم ، كما قامت فلسفته على أن القوة والعنف والمظاهر العسكرية العنيفة هي السبيل الوحيد للسيطرة على العرب والمسلمين .

تلك كانت قصة البوكيرك مع العرب والمسلمين وهي مأخوذة في أغلب وقائعها من المصادر الغربية التي تنفرد بالحديث المفصّل الدقيق عن سائر وقائع الغزو البرتغالي الذي وفد إلى بلاد العرب كما يفد الطاعون ، ولم يكن حديثهم عن الدين والانتصار للصليب إلا ورقة التوت الساترة لعورات الطمع والنهب والسلب عندهم . أما بالنسبة لأحداثِ هرمز فإنه مما لا مجال للشك فيه هو أن الشاه الصفوي كان يتخذ من هرمز ورقة رابحة للتفاوض مع البرتغاليين لرفع مستوى الحلف فيما بينهم ضد الأتراك وضد العرب في البحرين وساحل القطيف وغيرهم من سكان المنطقة ، وذلك في وقت كان فيه البوكيرك يتحرق غيظاً لتحقيق نتائج رنانة يمكن أن يُرضي بها لشبونه ويسكّت هناك حجج المنتقدين لسياسته .

كما أنه ومع الأسف البالغ أن وقوع تلك الجرائم البربرية في مدن وأقطار المسلمين لم

---

(١٩) DANVERS - المصدر نفسه الصفحات ٣٢٢ إلى ٣٢٦ .

يكن رادعاً لردع المتهارشين على زعامات تلك المدن والمناطق والمقاطعات ، فإن سكوت الإمامة في عُمان عن كل ما حصل في خورفكان ومسقط وغيرها ناتج عن اليأس من إمكان المواجهة مع البرتغاليين ، فكان السكوت عن جرائمهم تعبيراً عن حالة التدهور والانحلال ، وهي أحوال ظلت تأخذ أبعادها إلى أن أفضت إلى قيام دولة اليعاربة هناك في بداية القرن التالي وهي الدولة التي سيقدَّر لها أن تحطم الاستعمار البرتغالي في الخليج العربي كما سنرى ذلك في الفصول اللاحقة[٢٠] .

كما أن حالة التدهور والانحلال شملت اليمن ومصر . وتقاتلت الدولتان المسلمتان تركيا وإيران تنازعاً على النفوذ . وفي المغرب العربي حيث تركناها في فصل سابق بقيت مقسمة إلى مملكتين كبيرتين ومملكتين صغيرتين يُعَشعشُ الاستعمار البرتغاليَ عليهم جميعاً ، إلى أن قدَّر الله للمغرب أن تقوم فيه الدولة السعدية وهي الدولة التي سيكتب لها أن تحطم الاستعمار البرتغالي وتقضي عليه قضاءً نهائياً .

وتلك الأحداث سنفصلها في مكانها في فصول قادمة إن شاء الله .

(٢٠) مقتطفات من مقال - البرتغاليون في البحرين وما حولها - للأستاذ أحمد العناني - مجلة الوثيقة البحرانية - العدد الثالث - السنة الثانية .

21

الفصل الحادي والعشرون

* الأمير حسين الكردي يصل مصر ويتسلم منصب قائد الحملة المصرية الثانية .
* ٢٤/أغسطس/١٥١٤ معركة (جالدران) وسقوط العاصمة الايرانية تبريز بيد السلطان العثماني سليم ياووز.
* الحملة المصرية الثانية تصل إلى اليمن وتخرج عن واجبها لقتال البرتغاليين وتدخل في معارك دامية مع سلطان اليمن.
* ٢٤/أغسطس/١٥١٦، معركة (مرج دابق) بين السلطان سليم ياووز وسلطان مصر قانصوه الغوري ومصرع الأخير في المعركة .
* حملة نائب الملك البرتغالي (لوبو سوريز) إلى عدن وعقده معاهدة سلام مع حاكم المدينة الأمير مرجان الظافري.

توقفنا في الفصل الثامن عشر من هذا الكتاب عند موضوع التهيؤ للحملة البحرية المصرية الثانية التي كان يعد لها سلطان مصر قانصوه الغوري ، لتذهب لقتال البرتغاليين في قواعدهم في البلاد العربية والهند .

وقد اكتملت فكرة الإعداد للحملة عندما وصل إلى مصر فجأة الأمير حسين الكردي القائد العام للحملة المصرية الأولى التي اندحرت في ديو عام ١٥٠٩م ، وما أعقبها من معارك ضد قوات البوكيرك ، وكان معه موفد من الشريف بركات بن محمد الحسني شريف مكة وأمير الحجاز ، الذي شرح للسلطان أخبار الفعاليات

العسكرية البرتغالية في البحر الأحمر ومحاولتهم الوصول إلى الأماكن المقدسة والسويس وغيرها ، فساد القلق والهلع أوساط الناس وألقى قاضي القضاة الشافعي الإمام كمال الدين الطويل خطبة في جموع المصلين يوم الجمعة شرح لهم أبعاد نكبة وصول البرتغاليين بالقرب من الأراضي المقدسة واحتلالهم لبعض الأراضي العربية وحث الناس على الجهاد .

أما إجراءات السلطان الغوري فقد أصدر أوامره بإعداد الحملة ، ووضع الأمير حسين الكردي قائداً عاماً لها .

وفي الاجتماع الذي عقده السلطان مع أركان حربه تقرر ما يلي :

١ : أن يذهب الأمير حسين الكردي إلى جدة لتنظيم وترتيب أمور الدفاع هناك ومشاغلة القوات البرتغالية المهاجمة لحين الانتهاء من إعداد الحملة الثانية .

٢ : أن تُرافق الأمير حسين قوة بحرية بقيادة أمير البحر (خشقدم شاد النون) ، وتكون مهمة هذه القوة التوغل في البحر الأحمر والوصول إلى السواحل اليمانية لمراقبة تحركات البرتغاليين والإخبار عنهم .

٣ : تشكيل وفد برئاسة زين الدين المحتسب والطواشي بشير لمقابلة سلطان اليمن والتنسيق معه .

٤ : المباشرة بإعداد الحملة الثانية التي ستكون من أربع فرق عسكرية محمولة بحراً .

لكن الأقدار شاءت أن يحل الطاعون في مصر ذلك العام بحيث شل نشاط وقدرة السلطان لمدة سنة كاملة تقريباً وبسبب ذلك تأخر الإعداد للحملة[1] .

أما الأمير حسين الكردي فقد توجه إلى جدة وأمر ببناء سور ضخم محصن حولها ، وأصدر أوامره لكافة أبناء الشعب بالعمل ليلاً نهاراً في بناء السّور ، ولما احتاج إلى المال

---

(١) ابن إياس – المصدر نفسه – ص ٣٠٨ .

لإتمام البناء قام بحجز أموال الأغنياء وتصرف بها ، كما طلب المعونة من أُمراء الهند المسلمين فأرسلوا له ثلاث سفن محملة بالتوابل بقيادة قبطان عربي اسمه (خليفة) ، فلما وصل هذا إلى جدة أخبر حسين الكردي أن هذه الحمولة قد خرجت بموافقة البرتغاليين من كاليكوت لأنهم لم يعرفوا اتجاهها ، كما أخبره عن الموقف العام في الهند ، مما جعل الأمير يتوجس خيفة من الملاح ويعتقد أنه جاء للتجسس عليه لحساب البرتغاليين ، ولكي يقطع الشك باليقين حجزه وبحارته وأشركهم في بناء السور[٢] ، إلا أنه عندما أجبر الناس على العمل ليلاً نهاراً وقام بحجز أموال الأغنياء فإنه خلق موجة كراهية وبغض له بين أوساط الشعب هناك .

أما الموقف في مصر فلم يطرأ عليه تغيير بسبب الطاعون إذ أن الحملة الثانية ظلت مشلولة فيما كان السلطان قانصوه الغوري قد التقى بوفد من شاه ايران اسماعيل الصفوي يعرض عليه الدخول في حلف ضد الأتراك الذين أخذوا يهددون الممتلكات المصرية في الشام ، إلا أن الموقف الذي وقفه الشاه بالتعاون مع البرتغاليين جعل السلطان المصري يحجم عن عقد معاهدة كهذه .

وعلى كل حال فقد أصدر السلطان الغوري أوامره بأن يبقى الأمير حسين الكردي حاكماً في جدة ، أما الحملة الثانية فقد أوكلها إلى قائد جديد يعرف باسم (سلمان العثماني) و(سليمان الرومي) ، كما ورد اسمه (سلمان) أيضاً . وسليمان هذا ضابط تركي الأصل جاء مع المساعدات العسكرية التي أرسلها السلطان العثماني بايزيد إلى مصر عام ١٥١٠م ، وبقي في مصر طوال تلك المدة قام خلالها بتدريب البحرية والأسطول المصري . فلما أكمل هذا الضابط إعداد الحملة تم تعيينه قائداً للأسطول ونائباً للقائد العام الأمير حسين الكردي الموجود آنذاك في جدة ينتظر قدوم الحملة الثانية .

وفي شهر محرم ٩٢١هـ - ١٥١٥م قام السلطان الغوري بتفتيش الحملة ، وألقى

---

(٢) د . نعيم زكي فهمي - المصدر نفسه - ص ١٠٩ .

كلمة في جنودها حثهم على قتال البرتغاليين وقال لهم إن هدفهم هو تحطيم البرتغاليين في الهند، ووزع عليهم النقود والهدايا .

وفي شهر جمادى الأول قام السلطان بتثبيت أمراء الوحدات وهم كل من القائد (يشبك) والقائد (دمرداش الأقريطشي) الذي وصفه ابن إياس وصفاً عجيباً إذ قال عنه : « وكان أصله افرنجياً يبيع النبيذ الأقريطشي فاشتهر بذلك فأنعم عليه السلطان وجعله باش العسكر ، فكان ذلك من غلطات الزمان . »

وقد بلغ تعداد القوة قبل رحيلها ستة آلاف مقاتل يتألفون من قوميات وجنسيات مختلفة منها المماليك الشراكسة الأصليون ، وأتراك عثمانيون ومماليك قراصنة وهؤلاء يحتمل أن يكونوا أسرى الحروب المصرية - الأوربية وجنود من المغرب العربي ، وهناك وحدات عسكرية عرفت باسم (أولاد ناس) الذين يحتمل أن يكونوا من العرب المصريين ، كما كانت هناك وحدات باسم (عسكر الطبقة الخامسة) وهي وحدات عسكرية خاصة .

وفي يوم الاثنين العاشر من رجب ٩١٢هـ - ٢٠/ أغسطس ١٥١٥م صعد السلطان على منصة الاستعراض ووقفت أمامه القوة كلها بسلاحها الجديد (البندقية) التي ظهرت لأول مرة في ميدان الأسلحة المتطورة الحديثة ، وسلاح آخر اسمه (المكحله) وهي نوع من قاذفات اللهب والنار تشتغل بالزيت والمحروقات . وبعد مراسيم التفتيش المعتادة خلع السلطان على القائد سليمان العثماني بزة عسكرية من المخمل الأحمر ، ثم قرأ الكل سورة الفاتحة ، ثم عزفت الموسيقى ، فخرج العسكر من الميدان إلى شوارع القاهرة وسط حماس شعبي كبير ، ثم اتجه الموكب نحو البحر حيث كان في انتظارهم عشرون مركباً كبيراً لنقلهم إلى جدة ليلتحق بهم هناك القائد العام للحملة ، الأمير حسين الكردي[٣] .

* * *

(٣) ابن إياس - المصدر نفسه - الصفحات ٤٣٦ ، ٤٥٨ إلى ٤٦١ .

قبل أن نواصل الحديث عن مسار الحملة الثانية هذه لا بد من الحديث عن الأوضاع الأخرى التي سادت العالم العربي والاسلامي في تلك الفترة .

فبالنسبة إلى العلاقات الفارسية - العثمانية المتأزمة ، فإنها دفعت بشاه إيران إلى التنازل للبرتغاليين عما يريدون بل إلى عقد حلف معهم في سبيل دعمه في حربه ضد العثمانيين ، ودفعت به أيضاً إلى التوسل بسلطان مصر لعقد حلف بينهما ضد نفوذ الدولة العثمانية السنية المذهب الذي أخذ يتصاعد بشدة يومذاك ويهدد كل الزعامات المسلمة في العالم الاسلامي بأنها ستنطوي إن عاجلاً أو آجلاً تحت الزعامة العثمانية الجديدة .

ففي عام ١٥١١م حدث انقلاب في تركيا العثمانية أطاح بالسلطان بايزيد ، وهو الذي كان متحمساً لمساعدة الدولة المملوكية في مصر في حربها ضد البرتغاليين ، وقد قام بالانقلاب ابنه المسمى (سليم) والذي لَـقَّـبْ نفسه فيما بعد (ياووز سلطان) أي السلطان المهول ، وكان هذا الشاب ذا نزعة عسكرية وميول واضحة للتسلط وقد حاول أن يطيح بحكم والده عدة مرات سابقاً إلا أنه فشل ، ولكنه وفي أواخر ذلك العام ظهر فجأة مع جيش من أنصاره أمام أبواب استانبول ، فانحازت اليه حامية المدينة واستسلم الحرس الخاص لقصر والده فدخله وأكره أباه على التنازل .

لم يرق هذا الأمر للسلطان قانصوه الغوري الذي كان يتوقع إمدادات عسكرية مستعجلة من تركيا ، علاوة على قلقه من ميول السلطان العثماني الجديد التي تبدو وكأنه يريد أن يمد نفوذه على كافة الأقطار الإسلامية ومن ضمنها عرش قانصوه الغوري نفسه في مصر ، إلا أن السلطان سليم لم يكن مهتماً بمصر والممتلكات المملوكية في الشام ، بل كان جل اهتمامه منصباً على تحطيم الشاه اسماعيل الصفوي الذي يمثل عدواً سياسياً وعسكرياً ودينياً مذهبياً له . ففي الثاني من رجب ٩٢٠هـ - ٢٤/ أغسطس/ ١٥١٤م ، وفي شمال إيران وعلى سفوح سهل (جالدران) التقت خيالة الفرس بقيادة الشاه اسماعيل نفسه بالجيش العثماني الإنكشاري القادم من

تركيا ، فأنزلت المدفعية التركية المتفوقة هزيمة ساحقة بالجيش الفارسي ، ثم اجتاح جنود الإنكشارية العثمانيون شمال إيران كله ، ودخلوا العراق ووصلوا مدينة الموصل ، ثم لم يلبثوا أن دخلوا العاصمة الايرانية (تبريز) .

وقد أدى سقوط العاصمة الإيرانية بيد القوات العثمانية إلى هروب الشاه إلى داخل إيران ، وإلى تشتت شمل جيشه ووقوع الكثير من قادته أسرى بيد السلطان العثماني ، كما وقعت إحدى زوجات الشاه أسيرة بيده أيضاً ، وفتحت مدينة (تبريز) أبوابها ودخلها السلطان العثماني منتصراً يوم ٤/ ٩/ ١٥١٤م ، واستولى على خزائن الشاه وأرسلها إلى القسطنطينية[٤] .

وبعد ذلك اندفعت الجحافل التركية لتستولي على ماردين وأورفه وهي مدن تقع قرب الحدود السورية ، ثم استولت على الرقة وهي بلدة سورية وبذلك فقد وصلت إلى حدود السلطان قانصوه الغوري سلطان مصر ، فقرر هذا أن يعيد النظر في أمر علاقاته مع شاه إيران الذي فقد عاصمته ، ودخل الاثنان في مفاوضات انتهت إلى نوع من التحالف لم تكتب بنوده ، وفي الوقت نفسه كان الشاه اسماعيل قد أرسل موفداً لمقابلة البوكيرك في الهند ، كما بينا ذلك في الفصل السابق وأرسل سفراء إلى لشبونه لمقابلة الملك مانويل ملك البرتغال ، وقد أثمرت فعالياته بعقد الحلف الذي مر ذكره في الفصل السابق ، لكن موقف الشاه بقي متأزماً في بلاده بسبب ثورة قام بها (البلوش) في منطقة (مكران) الجنوبية فكانت الاستعانة بالبرتغاليين لإخمادها أحد شروط المعاهدة ، كما أن ثورة أخرى نشبت ضده في البحرين وساحل القطيف ، لم يترك لنا المؤرخون تفاصيلها ، وهذا ما دفعه لوضع مادة في المعاهدة الإيرانية - البرتغالية تنص على أن يساعده البرتغاليون هناك أيضاً .

* * *

نعود الآن إلى الحملة البحرية المصرية الثانية بقيادة الأمير حسين الكردي ، فقد

محمد فريد وجدي - تاريخ الدولة العلية العثمانية - ص ١٥٠ .

غادرت هذه الحملة مدينة جدة متجهة نحو اليمن للقيام بالتنسيق هناك مع اليمانيين وتعزيز مواقفهم وحمايتهم من هجمات البرتغاليين واتخاذ عدن وبقية الموانيء اليمانية قواعد حربية يستفيد منها الأسطول المصري لمقاتلة السفن البرتغالية الموجودة في سقطرة وشرقي أفريقيا والتي تعيث فساداً في البحار العربية وتمنع السفن العربية من الإبحار فيها .

وقد تم أول اتصال بين الحملة المملوكية المصرية وبين سلطان اليمن عامر بن عبدالوهاب الطاهري بعد وصول الحملة إلى (جيزان) أول الموانيء اليمنية الشمالية ، فقد أرسل حسين الكردي رسولاً إلى سلطان اليمن يخبره بوصول الحملة لمحاربة البرتغاليين ويطلب منه مساعدته ومده بالمعونة من المال والطعام ، لكن السلطان لم يلب طلباته فوراً ولم يرسل له جواباً على رسالته .

وكرر حسين الكردي الاتصال بالسلطان عندما وصل إلى جزيرة (كَمَران) في ١٧/ من ذي القعدة/ ٩٢١هـ أي ٢٣/ ١٢/ ١٥١٥م فأرسل الرُسُلَ والهدايا إليه كما أرسل هدايا إلى ابنه الأمير عبدالوهاب وهو ولي العهد المقيم بمدينة (زبيد) ، ثم طلب الكردي ثانية من السلطان مساعدته ومده بما تحتاجه الحملة مُدللاً عليه بما سبق له من المكاتبات إلى السلطان الغوري في طلب النجدة ، إلا أن سلطان اليمن عامر بن عبدالوهاب الطاهري غير رأيه فجأة وامتنع عن التعاون مع الحملة المصرية فَجَرَّ الكارثة والنكبة لنفسه وبلاده .

فماذا حصل . .؟ ولماذا غير السلطان سياسته وتراجع عن الوفاء بالتزاماته في مساعدة الحملة فانقلب ضدها وقاتلها فيما بعد بحيث نسيت الحملة هدفها الرئيسي وهو قتال البرتغاليين وانصرفت لقتال اليمنيين والدخول والتورط بمشاكلهم الداخلية وانتهى الأمر بالقضاء على الدولة الطاهرية هناك ، فكان عام ١٥١٦م بداية الكوارث والنكبات على اليمن .

يقول المؤرخون اليمانيون أمثال بامخرمة وابن الديبع والكبسي (صاحب مخطوطة

الألطاف السنية) إن أساس المشكلة كان بسبب انتهازية بعض العناصر اليمنية الساخطة أو الطامعة الطموحة لتحقيق مصالحها الخاصة ، وكان على رأس تلك العناصر اليمنية الإمام شرف الدين يحيى الزيدي زعيم الطائفة الدينية السياسية اليمنية المنشقة ، ويفسرون الأمر بأنه لما وصل الجهاز المصري (أي الحملة) إلى كمران ، لم يعلم بهم السلطان عامر إلا وهم بجيزان ، أي أن السلطان بوغت بدخول قوات مصرية إلى بلاده ، وأنهم كتبوا إليه وأرسلوا الهدايا له ولولده ولي العهد يشرحون غرضهم وهو الجهاد ضد الأفرنج ويريدون المساعدة منه ، فأراد السلطان مساعدتهم بالمال والزاد ، فاستشار أحد مستشاريه وهو الأمير محمد علي البعداني فيما يجب عمله مع الحملة التي بوغت بوصولها المفاجيء ، فأشار عليه البعداني أن يعطيهم من الزاد ما يكفيهم فقط وأن لا يتعاون معهم أكثر من ذلك وأن يكتفي شرهم وأن لا يظهر لهم القبول وأنهم لا يسوون شيئاً وأن يتركهم في البحر لا يتجاوزونه . فتبع السلطان المشورة وأعرض عن القاصد المصري ، وكتب إلى ولده ولي العهد الأمير عبدالوهاب حاكم مدينة زبيد يأمره بعدم مساعدة المصريين وأن يأخذ جانب الحذر منهم وأن لا يترك مدينته[٥] .

أما المؤرخ اليماني الكبسي صاحب مخطوطة (اللطائف السنيَّه) فيشرح لنا سر معارضة المستشار البعداني للتعاون مع الحملة المصرية ويعزو ذلك إلى العلاقة التي ارتبط بها قائد الحملة حسين الكردي والإمام المنشق شرف الدين يحيى الزيدي فيقول ما مفاده :

« ولما علم الإمام الأعظم شرف الدين يحيى بن شمس الدين الزيدي بخروج عساكر الغورية تيقن أن مُلكَ السلطان عامر بن عبدالوهاب قد أشرف على النهاية والخراب ، فبث دعاته في البلاد ورجح رأيه السديد أن يكتب إلى رئيس الأجناد المصرية الأمير حسين يستصرخه على السلطان عامر ويحثه على النهوض عليه ويذكره بما فعله مع

(٥) بامخرمة – مخطوطة قلادة النحر – حسبما وردت في كتاب البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه – ص ١٣٣ .

الأئمة الزيديين قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من تفريقهم في البلاد وقتلهم بالسموم ، وقد استهل كتابه بقصيدة جاء فيها :

أتتنا غارة من أهل مصر رعت لنا نسباً وصهرا
بتمكين أهل البيت ممن نكبهُم جهرةً قتلاً وأسرا
وتطريداً وتشريداً وهوناً كأنهم أتوا فحشاً ونكرا
وأعظم ذاك شيبة آل طه وأكثر نسلهم نسباً وقدرا
تمكن عامر منه فأضحى يحاول قتله سراً وجهرا

وأرسل الكتاب بيد الفقيه صلاح بن سراج إلى زعيم العساكر المصرية ، فاطّلع زعيم العساكر على الكتاب وعرضه على أركان حربه ومستشاريه واستمدهم الرأي فيما يكون الجواب على كتاب الامام ، فأشار عليه أحد مستشاريه قائلاً :

« أخِّر جواب الإمام ، وأكرم رسوله ما أقام ، ووجِّه رسولاً إلى هذا السلطان الذي نُسب إليه الظلم والطغيان ، واستمد منه الإعانة على الإفرنج الغادرين ، فإن أجاب لهذا المطلب فهو عادل وناصح ، وعلمنا أن هذا الإمام منافس له في دنياه ومعارض له في حكمه ، أما إذا تلكأ عن هذا المقصد فإنه من الفجار وما نسبه إليه الإمام حقٌ لا ريب فيه . »

فأخذ الأمير حسين برأي المستشار واختار رجلين من عقلاء عسكره وكتب كتاباً إلى السلطان عامر أرسله بيدهما ، فلما وصل الرجلان إلى بلاط السلطان عامر أكرمهما ، ثم اجتمع مع أركان دولته وشرح لهم ما في كتاب القائد المصري من طلب المعونة العسكرية لقتال البرتغاليين ، فأشار عليه الفقيه محمد علي النطاري قائلاً : « الرأي السديد إسعافهما بهذا المطلوب ، فهو عمل مرغوب ، وأنت في سعة من سلطانك ، وكثرة من أعوانك ، وما دعوا إلا للخير وفي ذلك استبعاد لشرهم وقطع عذرهم . »

أما المستشار الآخر هو الأمير محمد علي البعداني فقد طلب منه السلطان المشورة

فأشار بغير الصواب قائلاً : « أنا القائم بالخطاب ، والنائب في رد الجواب . » ثم طلب الرسولين وقال لهما : « أميركما ممن يجهل حق السلطان الملك الظافر صلاح الدين (يقصد عامر) حتى يرسلكما بهذه الرسالة ، كأنه بعض عماله ، والله لولا أنَّ قتلَ الرسول حرام لأعرضتكما على الحسام . »

فخرجا من حضرته مرعوبين ما لهما غير النجاة بأنفسهما من السيف ، ورجعا إلى الأمير حسين وأخبراه بما جرى ، لذلك فقد استجاب أمير العساكر المصريه إلى مطاليب الإمام الزيدي المنشق بما يشفي العليل ويفي الغليل[٦] .

أما الدكتور محمد عبدالعال أحمد فيحلل ما حصل في حاشية كتابه (البحر الأحمر والمحاولات البرتغاليه للسيطرة عليه) بما يلي :

لقد فوجئت الحملة المملوكية الثانية بتغير سياسة الطاهريين منها نتيجة لاقتناع السلطان عامر بن عبدالوهاب بنصيحة غير المخلصين من مستشاريه الذين خوفوه من المطامع المملوكية فأخذ برأيهم بوقف ما التزم به من مساعدات وتسهيلات للاسطول حتى لا تكون عادة يتمسك بها المماليك إلى ما بعد زوال الأسباب التي دعت اليها مما يترتب عليه أن يصبح السلطان الطاهري تابعاً للمماليك ، لذلك أصدر أوامره بعدم السماح للحملة المملوكية باستخدام الموانيء اليمنية ، كما أبدى استعداده للتصدي لها إذا ما حاولت ذلك ، لذلك فإن الزيدية بإمامة الإمام شرف الدين قد اهتموا بأمر حملة حسين الكردي الثانية ، واستغلوا موقف السلطان المعادي للجراكسه المماليك ، فعملوا على كسب ود قائدهم .

أما الدكتور السيد مصطفى سالم فيقول في كتابه (الفتح العثماني الأول لليمن ١٥٣٨-١٦٣٥) ما يلي :

« إن حجة المستشار اليماني للسلطان في عدم مساعدة الحملة ، هي الخوف من أن

(٦) المؤرخ اليماني الكبسي - مخطوطة اللطائف السنية - كما وردت في كتاب البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية للسيطرة عليه - ص ١٤٢ - ١٤٣ .

تكون مطالب المماليك نوعاً من فرض السيادة السياسية أو السيطرة العسكرية على اليمن ، أو أن يتحول طلب المماليك إلى جزية سنوية يُطالَبُ بها اليمن باسم محاربة البرتغاليين ، ومما لا شك فيه أن شخصية القائد حسين الكردي وسوء تصرفاته في جدة أثناء إقامته فيها وسوقه الناس جبراً للعمل والسخرة علاوة على قيامه بوضع يده على أموال الناس هناك والدكتاتورية التي أشاد عليها نظام حكمه قد وصلت إلى مسامع أهل اليمن ، فوجدوا أنه من المحتمل أن يقوم في اليمن بمثل ما قام به في جدة لذلك فقد اضطر السلطان اليماني إلى التعامل معه بحذر شديد .»

وعلى كل حال فقد عاد الوفد المملوكي خائباً ، وشرح للأمير حسين الكردي الموقف المعادي الذي اتخذه السلطان من الحملة ، فقام الأمير حسين ببناء سور يحيط ببعض أجزاء جزيرة كمران وقرر البقاء فيها إلى أن ينجلي الموقف أكثر ، بينما كان الإمام الزيدي شرف الدين يحث القائد المصري على نزول قواته إلى الشاطيء وأرسل اليه ضابط ارتباط لينسق معه وهو السيد عزالدين بن أحمد بن دريب ، كما قام بعض سكان منطقة تهامة التي تعارض حكم السلطان عامر بن عبدالوهاب باعلان ترحيبهم بالحملة واستعدادهم للتعاون معها في سبيل إسقاط نظام الحكم في اليمن .

وقد انفجر الموقف المتأزم مرة واحدة واختلطت الأوراق وضاعت الحسابات عندما قام الأمير حسين الكردي بإرسال ثلاث من سفنه للتَسَوّق وشراء الطعام من أسواق مدينة الحُدَيدة ، وفي خبر آخر أن ثلاث سفن محملة بالمؤن والطعام الخاصة بالقوة المصرية خرجت من ميناء (زيلع) في الصومال وتوقفت في ميناء الحديدة في طريقها إلى المعسكر المصري في كمران ، وهناك قام الحاكم محمد بن نوح بحجزها ومنعها من مغادرة الميناء ، ثم إنه كتب إلى ولي العهد الأمير عبدالوهاب بن عامر بن عبدالوهاب في مدينة تعز يخبره بما حدث فوافق ولي العهد على ذلك وأرسل قوة عسكرية لحماية ميناء الحديدة . فلما وصلت أنباء حجز السفن الثلاث إلى مسامع الأمير حسين الكردي استشاط غضباً وأرسل ثلاث سفن حربية إلى الحُديدة أنذرت

الحاكم بالإفراج عن السفن ، فلما امتنع الحاكم ، فتحت السفن المصرية النار على المدينة ، ثم دخلها الجنود ونهبوا كل ما كان موجوداً على رصيف الميناء من بضاعة ، بينما هرب الحاكم إلى بلدة تسمى (المحيا) تقع على قمة جبل هناك ، وقام الجنود بتخريب الميناء وقفلوا راجعين إلى قواعدهم في كمران . وهكذا انطلقت شرارة الحرب بين الحملة المصرية المملوكية وبين الدولة الطاهرية في اليمن(٧) .

استغل تلك الحادثة أعداء السلطان عامر بن عبدالوهاب ، وعلى رأسهم الإمام الزيدي الذي اتخذ من صنعاء عاصمة له وأيده جملة من حكام وأشراف منطقة تهامة وهي منطقة السهل الساحلي الواقع شمال وشمال شرقي اليمن الشمالية في يومنا هذا وفيها مدن جيزان واللّحية وتشكلان مراكز مهمة للجبهة السياسيه المعارضة للسلطان عامر ، وكما بينا سابقاً فإن الشريف عزالدين بن أحمد دريب شقيق حاكم جيزان قد اشتغل ضابط ارتباط بين القوات الموالية للإمام الزيدي وبين الأمير حسين الكردي ، كما أن الفقيه أبو بكر المقبول الزيلعي حاكم مدينة اللحيّة الموالية للإمام الزيدي ، كان متحمساً جداً للإنضمام إلى الحملة المصرية لإسقاط نظام الحكم في اليمن .

أما سلطان اليمن فقد كان في عاصمته (المقرانة) عندما بلغه نبأ اجتياح جنود الحملة المصرية لمدينة الحديدة ونهبها وتخريبها ، فقام بعقد اجتماع مع أركان دولته ، اتخذ فيه قراراً باعلان الحرب على الحملة وطردها من أرض اليمن ، فسلم قيادة الجيش إلى أخيه الأمير عبدالملك بن عبدالوهاب وأوعز إلى القائد عبدالحق محمد النظاري أحد حكام مناطق اليمن الجبلية بتجهيز قوة من المقاتلين الأشداء والانضمام إلى قوات ولي العهد الأمير عبدالوهاب بن عامر المرابطة في مدينة زبيد الاستراتيجية المهمة ، وبعد أن كملت التحضيرات اندفع الجيش اليماني بقيادة الأمير عبدالملك بن عبدالوهاب واحتل مدينة المرجف واتخذها قاعدة لمهاجمة القوة المصرية الموجودة في جزيرة كمران .

(٧) بامخرمة - المصدر نفسه - ص ١٣٦ ، وكذلك ابن الديبع - المصدر نفسه - ص ٣٥٩ .

أما الموقف على الجبهة الزيدية المعارضة ، فإنها حينما رأت استعدادات الحكومة للقتال ، سارع زعماؤها الى الإنضمام إلى الحملة المصرية . ففي مدينة (اللحيّة) قام حاكمها (الفقيه الزيلعي) بتقديم الولاء والطاعة للقائد المصري ، فطلب منه ذلك القائد أن يخطب في المنابر لسلطان مصر ، ففعل ذلك ، وجهز جيشاً توجه به إلى حيث انضم الى قوات الأمير الكردي التي نزلت على سواحل اليمن الشمالية ، فيما تقدمت قوات جيزان بقيادة الشريف عزالدين بن أحمد والتحقت أيضاً بقوات الأمير الكردي ، وسار الجمع كله باتجاه معسكر القوات السلطانية في (المرجف) لقتالها هناك .

قرر القائد العام الأمير حسين الكردي أن يهاجم على محورين ، محور بقيادته ومعه قوات حاكم اللحيّة ، ومحور ثان لقوات جيزان ومعها بعض الكتائب المملوكية وعندما وصلت قوات المحور الأول إلى مدينة (مور) خرج حاكمها الأمير محمد بن سلمان للدفاع عنها ، إلا أن مشاة المماليك استخدموا السلاح الفتاك الجديد (البندقية) وفتحوا نيران بنادقهم فحصدوا الجيش السلطاني حصداً ، ثم اجتاحت القوة مدينة (الضحى) أيضاً ، وبعدها تم احتلال منطقة تهامة كلها ، وهناك توقف الأمير حسين الكردي حيث التحق به قائد البحرية المملوكية الضابط سليمان العثماني أو (سلمان الرومي) ومعه ألف من جنود البحرية .

أما قوات جيزان ، أي قوات المحور الثاني بقيادة الشريف عزالدين ، فقد شنت هجوماً على معسكر الأمير عبدالملك بن عبدالوهاب في (المرجف) فحدثت معركة عظيمة بين الطرفين ، استخدمت القوات المملوكية فيها سلاح البندقية الذي زرع الموت والرعب في صفوف القوات السلطانية فانهزمت مما أجبر الأمير عبدالملك على أن ينسحب بقواته إلى بلدة (جبيل) وهناك انضم إلى قوات مدينة (زبيد) التي يقودها ابن اخيه ولي العهد الأمير عبدالوهاب بن عامر .

أما الأمير حسين الكردي ، فقد ارتفع صيته بين القبائل الزيدية التي راحت تنضم اليه

أكثر فأكثر ، وإزاء ذلك قام بتقسيم القوة إلى ثلاثة جحافل :

١ : القوة المملوكية المصرية بقيادته .

٢ : القوة الزيدية اليمانية بقيادة الشريف عزالدين بن أحمد .

٣ : القوة البحرية بقيادة سليمان العثماني .

وكانت خطة الحركات أن تتحرك القوتان المملوكية والزيدية فتطبقان على مدينة زبيد ، على أن يتقدم الأسطول بحراً ، ثم يترجل جنود البحرية وينضمون إلى القوة المهاجمة . وهكذا تقدمت تلك الجحافل واحتلت مدن بيت الفقيه والمره والقرشيه وتحيتا ، وفي منطقة وادي نخل زبيد التحق جنود البحرية بالقوة ، وفي يوم ١٩/ جمادى الأول/ ٩٢٢هـ - ٢١/ حزيران/ ١٥١٦م وقف الحشد أمام مدينة زبيد التي أغلقت أبواب أسوارها .

أصدر الأمير حسين الكردي أوامره بأن يقوم الجحفل الزيدي بالهجوم على أحد أبواب المدينة المسمى (باب النخل) ويسمى (باب الغلافة) أيضاً ، على أن يقوم الجحفل المملوكي بالهجوم على (باب الشبارق) . أما في داخل مدينة زبيد فقد كان الأميران عبدالملك وعبدالوهاب يضعان خطط مواجهة العدو ، فقررا أن يقوما بأخذ المبادرة بأيديهما وذلك بالهجوم على الفيلق الزيدي ، ففتحا باب الغلافة واندفعا على رأس قواتهما واشتبكا بالعدو ، وبعد معركة عنيفة اضطر الأميران إلى الانسحاب بعد أن فتكت بنادق مشاة المماليك وأسلحتهم النارية بجنودهم ، وأثناء الانسحاب أصيب ولي العهد الأمير عبدالوهاب بطلق ناري فسقط أرضاً فقام عمه بنقله جريحاً إلى داخل المدينة وأغلق أبواب سورها ، ثم لما اشتدت وطأة الهجوم في الخارج قرر الأمير عبدالملك أن يهرب من المدينة ، فأخذ معه ولي العهد الجريح وأركبه على فرسه ، ثم أمر سرية من فرسانه الشجعان أن يستعدوا للخروج من باب الشبارق ، فلما فُتِح الباب شاهد عبدالملك أمامه صفوف الجنود المماليك تقف بطوابير متناسقة ، فأصدَر أوامره

إلى الفرسان اليمانيين بالقيام باختراق الصفوف وكسر الحاجز ، وبمهارة عسكرية فائقة استطاع الأمير عبدالملك أن ينجو بنفسه ومعه ابن أخيه ولي العهد فوصلا إلى مدينة تعز لكن ولي العهد أسلم الروح هناك متأثراً بجراحه[٨] .

أما المماليك فقد قاموا باستباحة مدينة زبيد لمدة ثلاثة أيام وقام الأمير حسين الكردي باعتقال تجار المدينة ومصادرة أموالهم وربطهم بالسلاسل الحديدية ، ثم قام بتعيين القائد (برسباي) أحد أمراء الكتائب المملوكية حاكماً على المدينة على أن يعاونه الشريف عزالدين أحمد قائد الجحفل الزيدي .

وفي مقر قيادة الأسطول المصري المملوكي اجتمع القائد العام للحملة بقائد الاسطول وقررا مهاجمة مدينة عدن المدينة الساحلية المهمة للدولة الطاهرية ، وقبل الهجوم ذهبا إلى أفريقيا وأخذا حاجتهما من طعام ومؤونة من بلدة (زيلع) ، ومن هناك أقلعا بواحد وعشرين مركباً متجهين نحو عدن حيث وصلاها في ١٢/ أغسطس/ ١٥١٦م .

ومن مكانه في وسط البحر ، أوقف الأسطول المملوكي مجموعة سفن يمانية بقيادة سفينة السلطان واسمها (الهاشمي) كانت في طريقها إلى الهند ، حيث أرسل الأمير حسين الكردي خطاباً بيدهم موجهاً إلى حكام الهند المسلمين يخبرهم فيه أن اليمن قد سقطت بيد المماليك وأن الدولة الطاهرية في اليمن قد انهارت وحل محلها الجيش المملوكي المصري الذي سيتقدم فيما بعد لمحاربة البرتغاليين في الهند وسحقهم .

ثم قرر الهجوم على عدن فترجل المشاة بقيادته إلى زوارق الإنزال ، ولما وصلوا الساحل حيث كان حاكم عدن الأمير مرجان الظافري في انتظارهم دارت معركة ضارية تقهقر فيها الكردي عائداً إلى الأسطول ثانية ، ثم شن قائد الأسطول الضابط سليمان العثماني هجوماً تمكن فيه من احتلال قلعة (الصيرة) الاستراتيجية المهمة المسيطرة على الميناء والمدينة ، ومن هناك راح يقصف بمدافعه وسط مدينة عدن فتهدم

(٨) بامخرمة - المصدر نفسه - ص ١٥٤ . وكذلك ابن الديبع - المصدر نفسه - ص ٣٦٣ .

قسم من سورها ، إلا أن أهالي عدن سارعواالى ترميم الجزء المتهدم ، ثم قام جنود البحرية بشن هجوم على الأسوار وتمكنوا من الصعود إلى أعلاها وحدثت معركة شديدة انكسر فيها جنود البحرية وعادوا إلى أسطولهم متقهقرين ، وفي اليوم التالي وصلت نجدة إلى عدن بقيادة الأمير عبدالملك بن عبدالوهاب الذي أحكم السيطرة على مصادر المياه في المدينة وقتل كل الجنود المماليك ، وإزاء الفشل الذي أصاب الأمير الكردي باقتحام عدن فقد قرر صرف النظر عن الأمر أصدر أوامره بحركة الاسطول شمالاً نحو (زبيد) فغادر الأسطول المدينة يوم ٢١/ رجب/ ٩٢٢هـ أي ١٩/ أغسطس/ ١٥١٦م ، ووصل إلى هناك واجتمع الكردي بالقائد (برسباي) ، وبينما هُما كذلك إذ وصلت اليهما أنباء مفجعة من مصر مفادها أن السلطان قانصوه الغوري قد قتل في معركة ضد الجيش العثماني في (مرج دابق) في سوريا ، وأن الوضع خطير جداً في مصر والأحوال مضطربة والجيش العثماني يهدد باكتساح مصر كلها[٩] .

* * *

فماذا حدث في مصر ، وأية كارثة حلت بها ، وهل ستؤثر في الحملة المصرية الموجودة في اليمن والتي من المفروض أن يكون واجبها مقاتلة البرتغاليين . .؟

في ربيع عام ١٥١٦ بلغت الأزمة السياسية أشدها بين السلطان العثماني (ياووز سليم) الذي حشد قواته في شمال العراق وسوريا ، وبين الشاه اسماعيل الصفوي شاه ايران المتحالف مع السلطان قانصوه الغوري سلطان مصر ، لذلك فقد قرر سلطان مصر أن ينجد حليفه اسماعيل الصفوي ، لشعوره بالخطر من اقتراب قوات السلطان سليم من حدود مُلكه واحتمال قيامه باحتلال مصر إن عاجلاً أو آجلاً ، فجهز جيشاً قاده بنفسه وسار به إلى سوريا وأخذ معه محمد المتوكل على الله آخر ذرية بني العباس الذين لجأوا إلى مصر بعد سقوط بغداد بيد هولاكو ، وعندما وصل إلى حلب ، أرسل

(٩) بامخرمة – المصدر نفسه – ص ١٦٠ ، وابن الديبع – المصدر نفسه – ص ٣٦٥ .

وفداً لمقابلة السلطان العثماني يعرض عليه التوسط بينه وبين العجم لعقد صلح بينهم ، إلا أن السلطان العثماني كان يشعر بأن وجود سلطان مصر في سوريا معناه رغبته في مساعدة شاه العجم ، وأن رغبتهُ التوسط للصلح ما هي إلا خدعة ، فقام بإلقاء القبض على أفراد الوفد المصري ، وأمسك برئيسهم وحلق له شاربه ولحيته وأركبه على بغل وأرسل معه كتاباً إلى الغوري يعلن عليه الحرب ، ثم قام بإعدام بقية أعضاء الوفد .

وفي يوم الأحد ٢٥/ رجب/ ٩٢٢هـ - ٢٤/ أغسطس/ ١٥١٦م التقى الجيش العثماني بالجيش المصري المملوكي في واد قرب حلب يقال له (مرج دابق) ودارت معركة شديدة بين الطرفين تشتت فيها شمل الجيش المصري بسبب خيانة حاكم مدينة حلب المملوكي واسمه (خير بك) أو (خاير بك) الذي كان يحمي ميسرة الجيش المصري ، وكان (خير بك) هذا قد اتفق مسبقاً مع السلطان العثماني على عدم القتال والتسليم له ، وعندما اشتد وطيس المعركة كان السلطان الغوري البالغ من العمر خمسة وسبعين عاماً يصول ويجول على فرسه ويحث جنوده على الصمود عندما سقط من على ظهر جواده فجأة ثم تبين أنه مات بالسكتة القلبية ، وتراجعت بعد ذلك فلول الجيش المصري منهزمة نحو القاهرة ، فقام المماليك بانتخاب سلطان جديد هو السلطان (طوماي بك) ويسمى (الأشرف طومان باي) أيضاً ، فيما كان السلطان العثماني سليم ياووز يستثمر الفوز باحتلال مدن سوريا الرئيسية مثل دمشق وحمص وحماة ويتهيأ للتقدم لغزو مصر واحتلالها[١٠] .

وهكذا مات سلطان مصر السلطان الأشرف أبو النصر سيف الدين قانصوه الغوري الطاهري الأشرفي ، فاختلطت الأوراق ثانية وراحت مصر تتخبط في متاهات سياسية لا قرار لها ونسي حاكمها الجديد (طوماي بك) ومعه أركان حكومته والشعب المصري قصة حملة الهند الكبرى والقتال ضد البرتغاليين وإنقاذ المقدسات وغيرها من

---

(١٠) محمد فريد وجدي - تاريخ الدولة العلية العثمانية - ص ١٩٢ - ١٩٣ .

الشعارات السابقة ، لأنهم كانوا مهتمين بأمر الزحف العثماني نحو مصر لإسقاط نظام الحكم فيها .

* * *

لا ندري ماذا كانت تداعيات الموقف عندما وصل نبأ وفاة السلطان قانصوه الغوري إلى مسامع القائد العام للحملة المصرية في اليمن . ذلك أن الشهور الأخيرة من عام ١٥١٦م قضاها الأمير حسين متجولاً بين مدينة زبيد ومدينة المخا وكانت خطته تأجيل الذهاب إلى الهند دون ضمان حماية البحر الأحمر لذلك فقد قرر اتخاذ سواحل تهامة اليمن خط الدفاع الأول عن البحر الأحمر على أن تكون جدة خط الدفاع الثاني ، ثم أوكل قيادة القوات البرية إلى القائد برسباي ، أما القوة البحرية فقد أبقى على قيادتها سليمان العثماني أو (سلمان الرومي) ، وقد أثارت أفعاله تلك قلقاً في الهند التي كانت تنتظر قدومه على أحر من الجمر مما دفع بالمؤرخين الهنود إلى اعتبار أن الأمير حسين اهتم بحرب اليمن ونهب بلدانها فقط[(١١)] .

أما هو فقد غادر اليمن وذهب إلى مقره في جدة ليكون على مقربة من الأحداث المفجعة التي كانت تحدث آنذاك في مصر . وإلى نهاية عام ١٥١٦م فإن المشاكل لم تهدأ في اليمن إذ قام القائد برسباي بهجمات متعددة على مدن (حيس) و(موزع) علاوة على تخطيطه لاحتلال عدن ، كما أن السلطان اليماني عامر بن عبدالوهاب قام بعدة محاولات لاسترجاع مدينة زبيد ، فدارت معارك طاحنة بين الطرفين استمرت إلى نهاية العام بدون أن يحقق أحد من الطرفين نصراً حاسماً على الآخر .

* * *

وهكذا مر عام ١٥١٦م وكله حرب وقتال بين المسلمين ، طمعاً في العرش أو الجاه بينما تقف الدولة الاستعمارية الطامعة الكبرى يومذاك وهي البرتغال

(١١) الفقيه الشيخ زين الدين – تحفة المجاهدين – ص ٤٦ .

متفرجـــة ضاحكـــة علـــى مـــا يفعلـه أعداؤهـــا . لكـــن أخطــر أحـــداث ذلك العـــام كانت معاهدة الصلح التي عقدها حاكـــم عـــدن الأمـــير مرجان الظافري مع نائـــب الملـــك البرتغالـــي فـــي الهنـــد (لوبـــو سوريز دي الباركارياLOPO SOARES DE ALBERGARIA) .وتفاصيل الحادث أنه عندما استلم (لوبو سوريز) منصب نائب الملك في الهند ، كانت الأوامر المعطاة إليه من قبل الملك مانويل هي أنه يوجد أسطول مصري كبير في عدن والبحر الأحمر ، وأنه يجب تدمير ذلك الأسطول ، وأن على (البوكيرك) عدم العودة إلى لشبونة بل عليه قيادة العمليات العسكرية في عدن والبحر الأحمر من جديد ، لكن وفاة البوكيرك تركت مهمة تدمير الحملة المصرية الثانية على عاتق لوبو سوريز نفسه ، لذلك فقد أقلع من (گوا) يوم ٨/ ٢/ ١٥١٦م ، بسبع وعشرين سفينة حربية من مختلف الأصناف والأحجام عليها (١٢٠٠) جندي برتغالي و(٨٠٠) جندي هندي ملباري و(٨٠٠) بحار ملباري أيضاً ، وأخذ معه المدعو ماثيوس سفير الحبشة هناك وعامله معاملة قاسية في الطريق ، يكشف عنها في رسالته التي سنُطلعُ القارىء عليها في الفصل القادم .

وصلت هذه الحملة إلى عدن عندما كانت اليمن غارقة بمشاكل الحرب مع المصريين ، مما أجبر حاكم المدينة الأمير مرجان الظافري على أن يفتح أبواب أسوار المدينة أمام الأسطول بعد مشاورة مستشارية لعلاج المآسي والدماء التي تغطي أرض اليمن ، أو على حد قول المؤرخين اليمانيين : « وعلى الجملة فإن شرح الحال يطول ويذهل العقول في وصف ما جرى من هذه الفرقة الغورية والعصابة المصرية» . وقد قام الأمير بتقديم مفاتيح المدينة إلى (لوبو سوريز) ، إلا أن سوريز لم يدخل المدينة أو يقوم باحتلالها بل كان همه الدخول إلى البحر الأحمر لتحطيم الاسطول المصري واحتلال جدة ، خاصة بعد مقتل سلطان مصر ، والتهديد الذي تواجهه مصر أمام قوات السلطنة العثمانية .

أمر لوبو سوريز اسطوله بترك عدن والتوجه نحو البحر الأحمر ، وكانت قوات

المقدمة بقيادة القائد (الفارو دي كاسترو) ، إلا أن هذه القوة فوجئت بقطع حربية مصرية يقودها (سليمان العثماني) تخرج اليها وتدمرها وتغرقها مع قائدها البرتغالي ، غير أن هذا لم يفت من عزيمة (لوبو سوريز) إذ اندفع ببقية الأسطول نحو جدة ، وما إن وصلها حتى فتحت مدفعية الساحل نيرانها الحامية على الأسطول البرتغالي الذي كان على بعد فرسخ واحد من أسوار المدينة ورغم ذلك فقد أوقعت إصابات جسيمة فيه . ثم وصلت إلى لوبو سوريز رسالة من سليمان العثماني يدعوه للخروج وحده إلى عرض البحر واللقاء به في مبارزة ومعركة بينهما ، إلا أن سوريز لم يفعل ذلك . وبعد يومين من بقائه في البحر وإزاء عجزه عن مقاتلة الأسطول المصري انسحب نحو كمران ثم هاجم من هناك مدينة (زيلع) الصومالية وأحرقها ثم وصل إلى عدن ، إلا أنه لاحظ أن المدينة قد أغلقت أبواب أسوارها وعلم أن الأمير مرجان لا يرغب في الكلام معه . ولخوفه من حدوث خسائر لا مبرر لها أمام محاولته الهجوم على عدن قرر صرف النظر عن الموضوع والذهاب إلى (زيلع) الصومالية التي أحرقها ليتخذها مقراً له ليسد به باب المندب ، إلا أن يد الله كانت له بالمرصاد أيضاً إذ هبت عليه عواصف هائلة حطمت عدداً من سفنه وأوقعت الأمراض والأسقام في جنوده ففقد ثمانمائة جندي وضابط ، ولم يبق أمامه إزاء فشله إلا أن يعود خائباً إلى الهند فوصل إلى (گوا) في شهر سبتمبر / من عام ١٥١٦م[١٢] .

(١٢) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .

22

الفصل الثاني والعشرون

* السلطان العثماني سليم ياووز يدخل القاهرة فاتحاً وينفذ حكم الاعدام بسلطانها طوماي باي
* قيام الحكم العثماني في مصر ١٥١٧/٤/١٤ .
* ثورة في الحجاز ضد المماليك، وإعدام الأمير حسين الكردي في جدة .
* مصرع سلطان اليمن عامر بن عبدالوهاب الطاهري بيد جنود الحملة المصرية .
* نظرة إلى أحوال المغرب العربي وانقسامه إلى أربع ممالك .

لم يكن عام ٩٢٣هـ الموافق لعام ١٥١٧م أحسن حالاً من العام الذي سبقه وذلك بالنسبة للجبهة العربية الإسلامية التي تقف في وجه البرتغاليين ومطامعهم في الشرق ، إذ إن الصراعات الداخلية بين الدول الإسلامية أدت في كثير من الأحيان إلى نسيان صراعهم مع البرتغاليين ، بل وحتى التنازل لهم بعقد معاهدات صلح معهم ، كما كانت الحال عند الشاه اسماعيل الصفوي الذي خسر نصف مملكته يومذاك ، ومشاكل مصر المهددة بالاجتياح العثماني والفوضى القائمة في اليمن الممزقة ، هذا علاوة على تردي الأحوال في المغرب العربي .

ففي مصر وقعت الطامة الكبرى على دولة المماليك الحاكمة هناك إذ سرعان ما وصل السلطان العثماني سليم ياووز بجيشه إلى مشارف القاهرة ، بعد أن حطم الدفاعات المملوكية في غزة ، فخرج اليه حاكمها الجديد طومان باي بأربعين ألف مقاتل ، إلا أن المدفعية العثمانية أنزلت به هزيمة فادحة فانكسر وهربت فلوله ودخل

السلطان سليم القاهرة فاتحاً ونفذ حكم الإعدام بطومان باي يوم ١٤/ ٤/ ١٥١٧م . وبذلك فقد سقطت دولة المماليك البرجية في مصر ، وقامت الدولة العثمانية محلها ، وخطب خطباء الجوامع في مصر باسم السلطان العثماني قائلين : «انصر اللهم السلطان ابن السلطان مالك البرين والبحرين وكاسر الجيشين وسلطان العراقين وخادم الحرمين الشريفين الملك المظفر سليم شاه » . كما قام السلطان بوضع يده على كل شعارات الخلافة العباسية بما فيها بردة الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث تنازل له آخر مدعٍ عباسي للخلافة عما يدعيه .

فماذا كانت انعكاسات ذلك الحادث على الحملة المملوكية - المصرية المتواجدة يومذاك في اليمن والبحر الأحمر والحجاز . . ؟

في الحجاز قامت ثورة ضد السلطة المملوكية التي يمثلها الأمير حسين الكردي ، فقد قام أشراف مكة بالدخول فوراً تحت راية السلطنة العثمانية وأعلنوا الولاء والطاعة لهم . وفي جدة قام الأهالي بثورة اقتحموا فيها قصر الأمير حسين الكردي وألقوا القبض عليه وأخذوه إلى رصيف الميناء ، وهناك وأمام حشد كبير من الناس ربطوه بحجر ضخم ثم ألقوه في اليم فابتلعته الأمواج ومات غرقاً[1] .

ويعزو المؤرخون سبب نقمة سكان جدة على الأمير حسين الكردي وقيامهم بإعدامه بتلك الصورة المؤلمة ، أنها كانت انتقاماً من أعماله القاسية أثناء ولايته لجدة ، وقد قام أمير مكة الشريف بركات بن محمد الحسني باستلام زمام الأمور هناك لفترة من الزمن يساعده الضابط البحري سليمان العثماني الذي أبقى الأهالي على حياته لأنه تركي عثماني الأصل ولدفاعه المجيد عن جدة في العام الماضي .

وفي اليمن فإن القائد العام للقوات المملوكية (برسباي) أُصيب بالذهول عما حدث في مصر وجدة ، فوجد أن أحسن طريقة له هي أن يحتل اليمن ويتخذها مقراً ومستقراً له بعد أن يئس من إمكانية العودة إلى مصر في ظل النظام الجديد ، لذلك فقد قام

---

(١) الدكتور السيد مصطفى سالم - المصدر نفسه - ص ٨٨ .

بالهجوم على مدينة تعز وأجلى عنها قوات السلطان وعَيَّن القائد (اقباي) حاكماً للمدينة ، ثم اتجه نحو العاصمة (المقرانه) التي كان السلطان فيها ، فانسحب السلطان وقواته منها ودخلتها الكتائب المملوكية فنهبتها ، ثم دخلها برسباي فاتحاً ، إلا أن القدر كان له بالمرصاد هناك إذ دبر له جماعة من قبيلة آل عمار مؤامرة محبوكة ، فوفدوا اليه بجمع كبير وبايعوه وطلبوا منه أن يدخل إلى أراضيهم فاتحاً ، وبعد أن اطمأن إليهم ، ركب معهم وبمعيته كوكبة من حرسه الخاص ، وفي منتصف الطريق وعند وصول الركب إلى منطقة منعزلة ، انقض أبناء آل عمار ومقاتلوهم عليه وعلى حرسه الخاص وقتلوهم عن بكرة أبيهم . فلما وصل خبر مصرعه إلى مقر قيادة الجيش المملوكي اجتمع القادة واختاروا رجلاً منهم اسمه (اسكندر) ويعرف أيضاً باسم (أسكندر المخضرم) قائداً جديداً .

علم القائد الجديد أن سلطان اليمن موجود في مدينة (آب) ، وأنه سيتوجه إلى مدينة صنعاء التي يحكمها الأمير محمد علي البعداني ، المعروف بعدائه الشديد للمماليك ، فتوجه نحو (آب) لمقاتلة جيش السلطان والتقى به في موقعة (غفر) وهناك أوشك الجيش المملوكي على أن يخسر المعركة لولا خيانة أحد قادة جيش السلطان ، ثم قرر السلطان التوجه نحو صنعاء ، إلا أن أخاه الأمير عبدالملك نصحه بعدم الذهاب إلى هناك ، لأن صنعاء تقع في مناطق نفوذ أعدائه الزيدية ، لكن السلطان لم يستمع إلى النصيحة بل توجه بجيشه إلى هناك ، وكان القائد أسكندر أسرع منه في التوجه إلى صنعاء ، لأنه حالما وصلها جيش السلطان كان الجيش المملوكي قد كمن له وهاجمه ، فجرت معركة تراجعت فيها قوات السلطان إلى حصن يسمى (حصن ذمرمر) إلا أن القوات المملوكية اقتحمت الحصن واشتبكت بمعركة هناك وقع السلطان عامر بن عبدالوهاب الطاهري فيها أسيراً بيد القوات المملوكية كما وقع ولده أبو بكر بن عامر وأخوه الأمير عبدالملك بن عبدالوهاب وابنه عامر بن عبدالملك في الأسر أيضاًفقام القائد أسكندر بقطع رأس السلطان وأخيه ، واستسلم الأمير البعداني حاكم صنعاء

وفتح لهم أبواب المدينة ، وكان مقتل السلطان عامر بن عبدالوهاب الطاهري وأخيه يوم الجمعة ٢٣/ ربيع الأول/ ٩٢٣هـ الموافق ١٥/ مايو/ ١٥١٧م[٢] .

وقد رثاه ابن الديبع قائلاً :

أخلاي ضاع الدين من بعد عامر	وبعد أخيه أعدل الناس في الناسِ
فمنذ فُقدا فوالله والله إننا	في الأمر والسلوان في غاية اليأسِ

وهكذا اختلطت الأوراق من جديد وسادت الفوضى أرجاء اليمن ، وتمزقت الدولة وضاع الناس والمقياس وشهدت اليمن طولاً وعرضاً صدامات ومعارك على جميع الجبهات . فلما بلغت الأحوال تلك الدرجة من السوء وانقلبت الحملة المصرية المملوكية إلى مجموعة عصابات وقطاع طرق ، فإن الإمام الزيدي المنشق المتوكل على الله شرف الدين الزيدي قرر أن يُعيد النظر بتحالفه مع المماليك وأن يتحرك لإنقاذ صنعاء التي استباحوها وهي تحت حكمهم ، فطلب إجراء مفاوضات مع أسكندر ، وعلى الرغم من عدم وضوح طبيعة المفاوضات إلا أن إسكندر أعلن للناس أن الدولة المملوكية في مصر قد سقطت وقامت مكانها الدولة العثمانية ، وخطب للسلطان سليم وأعلن أنه دخل في طاعته ، وأنه من الآن فصاعداً أصبح يمثل الدولة العثمانية في اليمن ، فأطلق عليه الناس لقب (أسكندر المخضرم) لأنه عاصر الدولة المملوكية ثم العثمانية في مصر .

وعلى كل يمكن أن نلخص الموقف العام في الجبهة العربية الإسلامية التي تصارع البرتغاليين يومذاك كما يلي :

في مصر : قامت الدولة العلية العثمانية وتم تعيين خير الدين بك والياً عثمانياً تركياً على مصر .

في الحجاز : أوفدت الحكومة العثمانية الأمير حسين بك الرومي حاكماً على

(٢) بامخرمه – المصدر نفسه = ص٢٠٣ ، وكذلك ابن الديبع – المصدر نفسه – ص ٣٧٠ .

المنطقة على أن يكون مقره جدة ، فيما استمر سليمان العثماني بمنصبه قائداً للأسطول هناك ، يعاون الكل الشريف بركات أمير مكة .

في اليمن : كانت هناك ثلاث قوى تتصارع على السيادة والحكم :

أ) بقايا الدولة الطاهرية في اليمن الجنوبية حيث قام الشعب هناك بإعلان سلطنة الأمير أحمد بن عامر بن عبدالوهاب ، لكن هذا الأمير توفي بعد فترة وجيزة ، فأُعلنت سلطنة الأمير عامر بن عبدالملك بن عبدالوهاب الطاهري .

ب) في اليمن الشمالية كان النفوذ والسلطة العليا بيد الإمام الزيدي المتوكل على الله شرف الدين الذي استقل عن اليمن الجنوبية استقلالاً شبه تام تقريباً .

جـ) القوة المملوكية المصرية بقيادة ألإسكندر المخضرم ومقر قيادته في مدينة زبيد .

أما الموقف في ميناء عدن الاستراتيجي المهم الذي يشكل مفتاح السيطرة على البحر الأحمر بل مفتاح السيطرة على الحجاز ومصر والذي أخفق البرتغاليون والأتراك في اقتحامه ، فقد قام الحاكم شبه المستقل هناك الأمير مرجان الظافري بطل الدفاع وكاسر جيش البوكيرك ، والذي دفعته ظروف المحنة التي مرت بها اليمن إلى مهادنة البرتغاليين ، قام بكتابة رسالة على لسان السلطان القتيل عامر بن عبدالوهاب الطاهري أرسلها إلى السلطان العثماني ياووز سليم شرح له فيها الأوضاع المتردية في اليمن وما فعله قادة الحملة المملوكية ، وكيف أنهم انقلبوا إلى غزاة خربوا اليمن وكيف انقسمت اليمن على نفسها واعتذر عن مصالحته مع البرتغاليين ومساعدتهم ، وأرسل الخطاب مع رسولين ، كما أرسل معهما كتاباً إلى أمير مكة الشريف بركات حول الموضوع نفسه ، وتمكن الرسولان من الوصول إلى استانبول حيث علما بأن السلطان سليم ياووز قد انتقل إلى رحمة الله وأن ابنه السلطان سليمان القانوني قد تسنم الحكم(٣) .

أما موقف الصفويين في إيران ، فمن الواضح أن الشاه اسماعيل وجد في تقدم

(٣) بامخرمه – المصدر نفسه – ص ٢٠٤ .

العثمانيين قرب حدود دولته الشمالية واستيلائهم على مصر والشام والسمعة الممتازة التي يتمتعون بها في قتالهم ضد الأوربيين في شمال أفريقيا وداخل أوربا ، ما أصابه بالاحباط علماً بأنه لم يكن يملك قوة بحرية كافية مثل العثمانيين ، كما أن البرتغاليين قلبوا له ظهر المجن في هرمز فاستولوا عليها استيلاءً كاملاً واكتفوا بالوعود بأن يساعدوه ضد العثمانيين ، كل ذلك دفع به إلى محاولة الإبقاء على نفوذه في بعض أقطار الخليج العربي مثل البحرين والأحساء ومحاولة انتزاع السلطة من الحكام (الجبور) هناك[٤] .

وفي عُمان المبتلية بالقواعد العسكرية البرتغالية ، فإلى ذلك التاريخ لم نجد خبراً في صفحات تاريخها يشفي الغليل عما كان يدور هناك من أحداثٍ في عالمٍ غامضٍ مملوءٍ بالفتنِ والحروبِ الأهلية .

أما تأثير الفتح العثماني لمصر في دولة البندقية التي كانت لا تزال تحلم باحتمال عودة مصر إلى مركز القوة ثانية وتحطيمها للنفوذ البرتغالي في الهند واحتمال ازدهار تجارتها مرة أخرى ، فإنها وجدت في دخول السلطان العثماني إلى القاهرة احتمالاً لتنفيذ هذا الحلم ، أي حلم القضاء على الاحتكار البرتغالي لتجارة الهند ، لذلك فقد أوفدت قنصليها في الشام ومصر لمقابلة السلطان في الإسكندرية حيث قدما له طلباً لاقرار الامتيازات التي كانت للبنادقة في عهد المماليك ، وفي خلال المقابلة أثار السلطان موضوع مساعدة البنادقة للمماليك ضده ووصول سفنهم خلال الحرب إلى الإسكندرية حاملة الفضة والذهب ، فأجاب القنصلان بأن دولة البندقية تعمل دائماً على توسيع نطاق تجارتها من السلع الشرقية للوقوف أمام فيض السلع الواردة عن طريق البرتغاليين . ويبدو أن السلطان العثماني اقتنع بهذا الاعتذار فلم يعارض طلباتهم وأقر معاهداتهم السابقة وضمَّن ذلك كله في معاهدة جديدة بتاريخ ٨/ سبتمبر أيلول/ ١٥١٧م ، كما استقبل قنصل الفرنسيين والقطالنة في الإسكندرية

---

(٤) العناني – المصدر نفسه – ص ٩٦ .

وطلب تجديد اتفاقياتهم التي كانت أيام المماليك ومنحهم حمايته وأصدر أوامره بمراعاتهم في مصر والشام .

وهكذا فإن سيطرة العثمانيين على مصر والشام والحجاز أدت بهم إلى أن يرثوا من المماليك واجب قتال البرتغاليين واستعادة السيطرة على التجارة الشرقية ، ولكنهم لم يتحركوا جدياً ، إلا بعد أن تم لهم الاستيلاء على عدن وبغداد وبعض سواحل الأحساء في تاريخ لاحق فأرسلوا أساطيلهم لقتال البرتغاليين ، وهم وإن كانوا في تلك المعارك قد حققوا أحياناً نصراً حاسماً على البرتغاليين إلا أنه لم يكن نصراً دائماً .

* * *

تلك كانت الصورة السياسية للقوى العربية والإسلامية التي تصارع البرتغاليين في المشرق العربي ، فكيف كانت الصورة والوضعية السياسية في المغرب العربي . .؟ وماذا حل في تلك البلاد منذ أن توقفنا عن أخبارها في عام ١٥١٠م ؟ وما هي طبيعة العلاقات بين البرتغال التي تستعمر شواطيء المغرب الغربية وبين المغرب المنقسم على نفسه هناك أيضاً . .؟

قلنا في الفصل الثامن عشر من هذا الكتاب إن المغرب انقسم سياسياً عام ١٥١٠م إلى الممالك التالية :

١ : مملكة (فاس) في الشمال يحكمها السلطان محمد بن محمد الشيخ الوطاسي ويلقب بمحمد البرتغالي ، وهي المملكة التي كانت تمثل السيادة في البلاد .

٢ : مملكة (السوس) في الجنوب ويحكمها القائم بالله إلا أن الإدارة الفعلية لولده أحمد الأعرج وتعرف هذه المملكة باسم الإمارة السعدية أيضاً لذلك يلقب حاكمها باسم احمد الأعرج السعدي .

٣ : مملكة صغيرة جداً هي مملكة (مراكش) لا تتعدى حدودها مدينة مراكش نفسها يحكمها ملك مراكش مولاي الناصر أبو علي الهناتي ، وهو من قبيلة المصامدة

٤ : إمارة صغيرة أخرى تقع في شرقي المغرب تعرف باسم (إمارة دبدوب) يحكمها أمير من بقايا دولة بني مرين وهو الأمير محمد بن أحمد .

وقد اتسم العهد الأول من حكم أحمد الأعرج السعدي ملك السوس بظاهرتين ، الأولى التهيؤ لأعمال الجهاد ضد القوتين الأوربيتين اللتين كانتا تحتلان سواحل المغرب ، أي اسبانيا والبرتغال ، والثانية الطموح للسيطرة على البلاد وإنهاء حكم الوطاسيين وتوحيد المغرب .

وقد قام في عام ١٥١١م بتشكيل نواة جيشه من خمسمائة مقاتل كما قام باحتكار تجارة السكر التي كان السكان يتاجرون بها مع اسبانيا وذلك لغرض وضع ميزانية لدولته وتمويل جيشه . وفي ١٨/ ٨/ ١٥١١م ، قام باستطلاع أعقبه هجوم سريع لغرض اختبار قوة الحامية البرتغالية في (سانتا كروز) . ويعتبر هذا التاريخ بداية للحركة السعدية المنطلقة من السوس لتحرير المغرب خاصة بعد أن نجح البرتغاليون في بسط نفوذهم السياسي بين بعض القبائل في منطقة السوس ، ودانت لهم قبيلة (أولاد مطاع) التي كانت تقطن قرب (مراكش) بعد أن فقد هؤلاء الأمل في إمكانية قيام ملوك مراكش بحمايتهم ، علاوة على أن البرتغاليين لم يكونوا يعيرون أهمية لملوك مدينة مراكش .

إلا أن الصورة تغيرت في عام ١٥١٢م عندما تحرك ملك فاس الوطاسي ليقوم بأعمال عسكرية ترد له بعض اعتباره أمام الدعاية الكاسحة والتأييد الشعبي لملك السوس السعدي ، لذلك قام بحملة عسكرية ضد مدينة أصيلا ، وكان بمعيته حكام مدن شقشاون والقصر الكبير وتطوان ، وساعده ملك مراكش بحرب ضد قبائل عبده ودكاله اللتين كانتا تتعاونان مع البرتغاليين ، إلا أن تلك الحملات فشلت في تحقيق هدفها ، اللهم إلا في رفع الروح المعنوية عند الشعب .

لكن عام ١٥١٣م شهد أول عملية غادرة صدرت عن حاكم وطاسي ، اعتبرها الشعب آنذاك خيانة عظمى . وهي عندما قام المدعو (مولاي زيان الوطاسي) حاكم

مدينة (أزمور) بالتعاون مع البرتغاليين مما ساعدهم على احتلال المدينة . والواقع أن مدينة أزمور نفسها لم تكن قد سقطت بيد البرتغاليين إلى ذلك التاريخ إنما كانت الحكومه الوطاسية قد وافقت في عام ١٥١٠م على أن يقوم البرتغاليون ببناء حصن ومعسكر لهم خارج المدينة ، إلا أن اختلاف مولاي زيان مع السلطان محمد البرتغالي الوطاسي جعله لا يهتم بأمر الدفاع عنها ، لذلك فقد قام يهود المدينة بالاتصال بالحامية البرتغالية لمدينة أسفي واتفقوا معهم وفتحوا لهم أبواب المدينة على حين غرة ، ومن أزمور توصل البرتغاليون للسيطرة على مدينة (مازكان) وإحكام قبضتهم عليها .

وقد أدى سقوط أزمور إلى استبشار عظيم عند الملك البرتغالي فأرسل رسالة إلى البابا يبشره بالفتح الجديد ، فيما أدى ذلك بين أوساط الشعب المغربي إلى النظر بعين الشك إلى الحكم الوطاسي في شمالي البلاد(٥) .

كما دفع ذلك الفوز إلى أن يقوم الملك البرتغالي بالتفكير في احتلال المغرب كله مرة واحدة ، لذلك فقد حاول التقرب من ملك مراكش مولاي الناصر أبو علي الهناتي . ففي عام ١٥١٤م أرسل مندوباً عنه هو (فيرنو دياز FERNAO DIAS) ليعرض على الملك عقد معاهدة يدخل فيها الملك تابعاً للبرتغال والسماح للبرتغاليين بإقامة معسكرين لهم في مراكش ، إلا أن ملك مراكش رفض ذلك ، لذلك فقد أصدر الملك البرتغالي أوامره إلى حاميتي (أسفي) و(أزمور) لتقوما باحتلال مدينة مراكش ، فقام القائد (دييجو لوباز DIEGO LOPES) قائد منطقة أسفي بالهجوم على المدينة وتشكلت القوة المهاجمة من خمسمائة جندي برتغالي من الفرسان تساندها قوة تقدر بألفين وأربعمائة من قبائل عبده ودكاله الموالية للبرتغاليين ، فيما تقدمت قوات برتغالية أخرى من منطقة أسفي والتقت بقوة أزمور ثم قامتا بحصار مدينة مراكش .

أثار حصار مراكش همة الملكين المغربيين المتنازعين وهما الوطاسي والسعدي للدفاع

---

(٥) عبدالكريم كريم - المصدر نفسه - ص ٤٠ .

عنها وكان رد الفعل عند السلطان محمد الوطاسي أكبر خاصة وأن ملك مراكش حليفه ، فجهز حملة بقيادة أخيه هاجمت أولاً القبائل المتعاونة مع البرتغاليين والتي كان يقودها يحيى بن تعففت بن عافوت أحد زعماء عبده ، وأنزلت بهم خسائر فادحة ، كما قامت القوات الوطاسية التي يقودها مولاي الناصر شقيق السلطان الوطاسي بصد حملة عسكرية برتغالية محمولة بحراً نزلت في منطقة المعمورة وحاولت التقدم رأساً نحو فاس لاحتلالها والقضاء على المقاومة الوطاسية ، إلا أن مولاي الناصر الوطاسي صدها وأجبرها على الانسحاب ، ولقد كان لنجاح الوطاسيين في دفع البرتغاليين عن مراكش وفاس أن أعاد لهم اعتبارهم وشجعهم على الاستمرار بغزو المراكز البرتغالية .

أما السلطان أحمد الأعرج السعدي ملك السوس فقد هاجم حامية منطقة (تافنتا) البرتغالية وهزمها واحتل المنطقة التي كانت تشرف على طريق المواصلات البري مع حصن سانتا كروز مما دفع قائد الحصن الى أن يكتب للملك البرتغالي قائلاً إن نفوذ أحمد السعدي في تعاظم وإنه يجد صعوبة في التعاون مع الأهالي الذين صاروا يخافون بطشه إن هُم تعاونوا مع البرتغاليين ، وإنه لم يبق ممن كانوا يتعاونون معهم إلا الشيخ مالك بن داود زعيم قبائل أزرارا[٦] . لذلك فقد قام الملك البرتغالي بانتهاج سياسة التقرب والتودد من بعض زعماء القبائل ومحاولة رشوتهم بالمال والمناصب لكي يخرجوا عن طاعة الملكين المغربيين ، فأصدر مرسوماً بتعيين (يحيى أو تعففت) حاكماً على (دكالة) على أن يستلم أوامره من الحكام العسكريين البرتغاليين لأسفي وأزمور ، وفي رواية أن يحيى هذا أصبح نصرانياً فصار يسافر إلى لشبونه للاتصال بالملك البرتغالي وحاشيته ، كما صار يقدم لهم التقارير الدورية عن الواقع المغربي والصراعات الموجودة فيه ليساعدهم على ترسيخ حكمهم في المناطق التي يحتلونها وإخضاع القبائل الثائرة عليهم ، كما ظهرت طبقة أخرى من الخونة من مشايخ قبائل

---

(٦) عبدالكريم كريم – المصدر نفسه – ص ٤٣ . وكذلك ابراهيم شحاته حسن – المصدر نفسه – ص ١٠٩ .

الشرقية مثل حمو أمر كاس ويحيى بلصباغ وعبدالرحمن بن حدو والشيخ سعيد(٧) .

إلا أن تلك السياسة لم تفت في عضد السلطان أحمد السعدي لأنه لم يلبث أن هاجم واستولى على بلدة (تاركوكو) و(تارودانت) و(ماسا) وقام بحرق بيوت المتعاونين مع البرتغاليين ، مما دفع الشيخ سعيد الى أن يبعث رسالة إلى الملك مانويل مؤرخة في شهر مايو ١٥١٧م يقول له فيها إنه منذ ثلاث سنوات ومعه قبيلته يقومون بخدمة البرتغاليين في سانتا كروز إلا أن المولى أحمد السعدي جاء بقوات جرارة وانتصر على قبيلته ففر بعضهم وخضع له الباقي ، وأن حصن سانتا كروز يعتبر مطوقاً الآن لأن قوات المولى أحمد تحرس كل الطرق المؤدية إليه(٨) .

وقد حاول قائد حصن سانتا كروز أن يفك الحصار البري عن نفسه فقام في يوم ١٥/ ٥/ ١٥١٨م بهجوم على قوات السلطان السعدي ، لكنها فشلت واندحرت فراح يطلب النجدة من لشبونة ، كما شهد عام ١٥١٨م عملية أخرى رفعت من معنويات الناس عندما قامت عناصر موالية للسعديين باغتيال العميل يحيى أو تعفقت .

أما موقف السلطان محمد الوطاسي ملك فاس وشمالي المغرب فقد استمر على مقاتلة القبائل الموالية للبرتغاليين ، إلا أنه وبصورة عامة فإن التعاون بين الملكين الوطاسي والسعدي أخذ في الإضمحلال والضمور حيث يفهم من بعض الرسائل البرتغالية أن التعاون قد انعدم بين الملكين خوفاً من أن يؤدي تزعم أحدهم لحركة الجهاد ضد البرتغاليين إلى زيادة نفوذه بصورة عامة على البلاد . لذلك فإن الخلاف اشتد بين الوطاسيين والسعديين ، وحسب رسالة استلمها حاكم أسفي البرتغالي من ملك البرتغال مؤرخة في يونيو ١٥٢٣م يفهم منها أن الملك طلب معلومات مفصلة عن النزاع القائم بين الملكين المغربيين ، لذلك فقد حاولت السلطات البرتغالية التقرب إلى الفريقين المتنازعين ليعرضوا عليهما هدنة وسلماً أو تعاوناً ضد الفريق الآخر . فقد

(٧) تاريخ العصر الحديث – وزارة التربية الوطنية – المملكة المغربية – ص٩٩ .

(٨) عبدالكريم كريم – المصدر نفسه – ص ٤٧ .

توجه وفد مفاوض في عام ١٥٢٣م إلى السلطان أحمد السعدي يعرض عليه هدنة وتبادلاً للأسرى ، فوافق السلطان على هدنة أمدها ثلاثة شهور ، وفي الوقت نفسه كانت هناك مفاوضات بين البرتغاليين والسلطان محمد الوطاسي . لكن إتجاه الرأي العام المغربي عاد فاتجه نحو فقد الثقة بالوطاسيين بسبب الضرائب الثقيلة التي فرضوها على الناس ، بالإضافة إلى أن الكوارث الطبيعية ساهمت في المزيد من الفقر والجوع والفتك بالناس فقد عم الجفاف البوادي المغربية وانتشرت المجاعة وارتفعت أسعار المواد الغذائية ، ورافقت المجاعة عدة أمراض كان أوسعها انتشاراً مرض الطاعون الذي خلف (١٢٠٠) ضحية في مدينة أصيلا عام ١٥٢٢م . وفي خضم تلك الأحداث ثارت إشاعات مفادها أن الوطاسيين مستعدون للتحالف مع البرتغاليين ضد السعديين . وقد عبَّر عبدالرحمن المجذوب وهو أحد أبناء منطقة دكالة عن الوضعية الحرجة لمن التجأ من الدكاليين إلى الوطاسيين فراراً من المحتل البرتغالي في قصيدة شعبية قال فيها :

هربت من دولة الرومي ... وجيت إلى خويا المسلم
ضربني وحقرني ... وزوّر علي بلاما نظلم

كل ذلك دفع بملك السوس أحمد الأعرج السعدي إلى أن يتقدم بقوات ضخمة على حين غرة ويفاجىء مدينة مراكش في شهر يناير من عام ١٥٢٥م ويحتلها ويلقي القبض على ملكها محمد الهناتي الملقب (بوشنتوف) ويقضي عليه بالسم ويعلن أن مراكش هي حاضرةُ وعاصمةُ الإمارة الشريفية السعدية ، فنقل مقره إليها بينما أبقى أخاه محمد حاكماً على السوس . ومن البديهي أن يثير هذا العمل حفيظة الملك الوطاسي الذي وجد أن السعديين أصبحوا قريبين من حدود مملكته . لكن السلطان السعدي كان أكثر حذقاً وذكاءً من أن يدخل في معركة مع الوطاسيين ، فكتب إلى السلطان محمد الوطاسي عارضاً عليه المحبة والصداقة كما عرض عليه أن يدفع له ما كان يدفعهُ له ملك مراكش مضاعفاً ، كما كتب إلى ملك البرتغال (دون جوان

الثالث) ، رسالة في شهر ديسمبر من عام ١٥٢٥م يطلب فيها تجديد وتمديد الهدنة التي عقدها معه ويخبره عن كسر جنوده لشروط الهدنة ، وقد فعل كل ذلك لكي يوطد أقدامه في مراكش وجنوب البلاد أولاً .

إلا أن عام ١٥٢٦م شهد تحولاً جديداً في العلاقات بين الوطاسيين والسعديين وكذلك في تحديد معالم المستقبل في المغرب وذلك عندما انتقل إلى رحمة الله الملك محمد بن محمد الشيخ الوطاسي ملك فاس وشمالي المغرب وترك الحكم لأخيه المعروف باسم (أبو حسون علي) الذي لم يحكم إلا خمسة أشهر إذ عزله ابن اخيه المولى أحمد وتولى السلطة في شهر سبتمبر من عام ١٥٢٥م ، فصار اسمه السلطان المولى أحمد بن محمد الوطاسي ويعرف أيضاً باسم أبو العباس أحمد[٩] .

---

(٩) عبدالكريم – المصدر نفسه – ص ٥١ .

23

الفصل الثالث والعشرون

ستتفرغ في هذا الفصل لنشر ما يتوفر لدينا من رسائل تبادلها الحكام الذين وقعوا بقبضة البرتغاليين مع ملوك البرتغال والحكام العسكريين في المناطق التي احتلوها ، وهذه الرسائل تعتبر وثائق مهمة في تثبيت وقائع الغزو البرتغالي لسواحل المغرب العربي والبحر الأحمر والخليج العربي ، وهي رسائل مأخوذة من الأرشيفات البرتغالية والأوربية ، إذ إنه مما يؤسف له أن الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كان يعيشها العالم العربي والإسلامي آنذاك لم تكن تساعد على كتابة التاريخ بشكل دقيق ، ومعظم ما كتب في وقتها عن تلك الفترة كان منصباً على المشاكل الداخلية التي تعاني منها تلك البلدان التي وقعت بقبضة البرتغاليين ، لذلك فإنهم مروا مروراً سريعاً على وقائع الغزو البرتغالي فصارت تلك المصادر تفتقر إلى العمق المطلوب . وبهذا يصبح الالتجاء إلى الوثائق والمصادر الأوربية ضرورياً لكونها تمكننا من دراسة المد البرتغالي واكتساحه للأراضي الإسلامية .

وقد قام الباحث الدكتور أحمد بوشرب ، الأستاذ المساعد بقسم كلية الآداب في فاس بنشر مقال في مجلة الوثيقة البحرينية بعنوان (مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب العربي والبحر الأحمر والخليج العربي)عرض فيه عناوين تلك الرسائل وتاريخها ، وهي رسائل تتعامل في فترة الغزو البرتغالي

للوطن العربي[1] .

وقد تمكنا من جانبنا وخلال إحدى سفراتنا إلى البرتغال من الحصول على كتاب مهم اسمه: DOCUMENTOS ARABICOS PARA A HISTORYIA PORTUCUEZA:

(وثائق عربية تساهم في كتابة التاريخ البرتغالي) تأليف الأب جوادي سوزا ومطبوع عام ١٧٩٠م في لشبونة ، وهو كتاب يحتوي على مجموعة جيدة من الرسائل مكتوبة باللغة العربية بعثها الحكام الهنود والفرس والأفارقة والعرب إلى ملوك وحكام البرتغال .

ومن الملاحظ عند دراسة صيغ تلك الرسائل أن الحكام كانوا في حالة متدهورة من سائر النواحي الاجتماعية والنفسية ، وحسب المرء أن يقرأ في الرسائل الموجهة من حكام هرمز أو أفريقيا أو الهند وفيها من التعظيم والتفخيم لملك البرتغال ما تشمئز منه النفس وتعافه[2] .

لكن الرسائل القليلة التي وصلت إلينا ، والتي تبادلها بعض حكام المغرب العربي لم تكن على تلك الشاكلة أبداً ، بل كانوا يكلمون ملوك البرتغال بشكل الند للند .

وعلى كل حال ولغرض التوثيق العلمي فإننا نعرض في هذا الفصل بعضاً من تلك الرسائل التي حصلنا عليها وهي تغطي الحقبة التاريخية التي وصلنا إليها في فصول هذا الكتاب ، وقد أبقيناها على الشكل الذي وردت فيه بالكتاب البرتغالي آنف الذكر بالصيغ اللغوية الركيكة البعيدة عن قواعد الفصحى .

والرسائل كما يلي :

أولاً : رسالة السلطان أحمد السعدي الأعرج سلطان السوس إلى ملك البرتغال جان الثالث مؤرخة في ديسمبر ١٥٢٥ يقول فيها :

« من عبدالله المعتمد على الله الشريف لطف الله به إلى عظيم الروم سلطان برتغال

(١) د . أحمد بوشرب - مجلة الوثيقة - العدد العاشر - السنة الخامسة - ص ١٤٤ .

(٢) أحمد العناني - المصدر نفسه - ص ٨٥ .

أما بعد فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو وأصلي على رسول الله عليه وسلم فالذي وجب به إعلامنا لكم أننا عملنا (العافية)[3] مع خدامكم قبطن أسفي وقبطن أزمور بأمركم في العام الماضي على يد النصراني خديمكم مشاط واليهودي ابراهيم الحزان وفي تلك العافية أخذوا أهل أزمور زوج مسلمين من خدامنا وطلعوهم لذلك البر متعكم ، وكل يوم نطلبهم ولا رأينا خبر ، وأهل أسفي أيضاً بعثوا سراقهم سرقوا البقر من بلادنا وباعوهم في أزمور وظهروا فيها عيانا ، وفي هذه العافية الأخيرة التي كانت بيننا على يد اليهودي ابراهيم بن زمير أخذوا أهل أزمور قافلة عليها الشمع وردوا الناس وأكلوا الشمع والبهائم ولا ردوا إلا الناس برؤوسهم خاصة ، وأيضاً رسل قبطان أسفي الحناشة والتقوا مع قافلة من خدامنا وأخذوها وقتلوهم كلهم كي يأكلوا القافلة وقتلوا جميع أهلها لكي لا تظهر عليهم وظهرت عليهم وأيضاً أخذوا زوج مسلمين وطلعوا لذلك البر متعكم والقافلة الذين ماتوا أهلتها ردوا من بهائمها والذي عليها نحو من ثلثين وبقي الثلث وحاصل الأمر فإن كانت هذه العافية بأمركم ترسلوا لنا من ينصف لنا في جميع مالنا عند خدامكم فلا نرضى لكم يعملون خدامكم هذا في عافيتكم تبعثوا من يقف حتى يرجع جميع ما ذكرت لكم ويأخذ الحق من الذين عملوا هذا الفعل القبيح لاننا لا نصبر على ذلك أبداً إلا واجب علينا نعرفكم بذلك فالله الله ثم الله في الجواب في القرب دخول الكتاب خروج الجواب وإنا ما ننتظر إلا ما عندكم فإن أنصفتم لنا في حقنا وعملتم عمل الحق والشريعة للذين عملوا هذا الفعل القبيح فالحمد لله والعافية تبقى على حالها وإلا فنحن ما نصبر على ما جرا فينا ومن يوم عملنا مع خدامكم العافية ما انصدر منا عيب قط وإذا رسلتم شرعكم فظهر له جميع ذلك ونحن نحب منكم تبعثوا قاضياً يكون قاعداً في أسفي أبدا جميع ما كان يظهر له ولكن بعد أن تأخذ جميع حقنا وتكون العافية والفعل والسلام على من اتبع الهدى ، رابع وعشرين من صفر عام ٩٣٢ .

ثانياً : هذه رسالة أخرى لأحمد الأعرج إلى حاكم (أسفي) في سنة ١٥٢٦ بشأن

---

(٣) لفظة (العافية) تعني المعاهدة ، ومصدر هذه الرسالة د . ابراهيم شحاته - المصدر نفسه - ص١١٣ .

تجديد الهدنة معه : « من عبدالله المعتمد على الله الشريف الحسني لطف الله به إلى قبطان أسفي غرسي . أما بعد فقد كنا عملنا العافية مع القبطان الذي كان هناك قبلك بمشورة ضيفه وضيفك وشرطنا فيها شروط يخبرك بهم ابراهيم بن زمير اليهودي . فإن أنت باق على ما كان عليه الكلام فيه ونعم وإلا فاعمل ما ظهر لك والذي عندك أعلمنا به في القرب والسلام على من اتبع الهدى . ثالث ذي حجة عام ٩٣٢ عرفنا الله خيره »

ثالثاً : رسالة ملكة الحبشة التي بعثتها بيد (ماثيوس) إلى ملك البرتغال :

« بسم الله . . غفران الله وتوفيقه لعمانويل . . مالك البحر وقاهر المسلمين القساة الكافرين . جاء الينا رسولان احدهما اسمه يوحنا ويدعى الآخر يوحنا مثله ويلقب باسم جومز COMEZ وطلبا منا سفنا وجندا ولذلك أرسلت رسولي الراهب ماثيو بعد أن منحه البطريرك ماركوس أجازة ، وماركوس هو الذي يمنحنا البركات فأصغى باهتمام الى ما يقوله قائدكم العظيم الذي يحارب في الهند ، ونحن على أتم استعداد لمده بما هو في حاجة اليه ، ولا يفوتنا أن نلفت نظركم الى أن حاكم القاهرة قد جهز جيشاً ضخماً للهجوم عليكم وليثأر من المصير السيء الذي سببه له قوادك في الهند ، ولذلك فنحن على أتم استعداد لامدادكم بقوات تسيطر على مداخل البحر لقطع الطريق الى مكة بأن تعسكر في باب المندوب أو في الطور . ان كل ما يقوله لكم ماثيو كأنه قيل على لساننا تماما لأنه احدى الشخصيات الهامة في بلادنا ، ومعه أرسلنا اليكم صليبا ، ومن جهة أخرى فاننا نرجو ان نزداد صلة بكم عن طريق زواج ابنائي من بناتكم أو أبنائكم من بناتي ، ولا شك أن هذا شيء مفيد للطرفين ، فاذا تم لنا أن نتحد فسوف تتوفر لنا القوة الكافية لتحطيم أعداء عقيدتنا المقدسة ، وحيث أن مملكتنا بعيدة عن ساحل البحر إلى الداخل فقد أصبح تحالفنا شيئا محتما حتى نتمكن من القيام بحرب بحرية ، وفي استطاعتنا نحن أن نمدكم بكل التموينات اللازمة »[٤] .

---

(٤) دكتور محمد عبداللطيف بحراوي - فتح العثمانيين لعدن نقلاً عن مؤلف اسمه : (R. M.A. DAMMERE) في كتابه LA MER ROUGE .

رابعاً : رسالة من الملك مانويل ملك البرتغال إلى أهالي أزمور المغربية مؤرخة في ١٥٠٤/١/٢٢م .

الي شياخ الفضلاء والروساء
الامنـاء والجمـاعـة
والعـامة وجميع من هو من
اهل ازمور نحن دون
منويل بفضـل الله
ورحـمته سلطـان
البرتكال والغربي وصاحب
كنـاوة ومستفتح اقاليم
الغربية وامصـار وجـزر
وبحر والاقاليم الهندية
والـفارسية سلام براجع
سلامكم وبعد فان وصلنا
كتـابكم وفهمنا جميع
مـا تضمنه من كتـابكم
وخطابكم وقد ذكرتم لنا
انكم ندمتم على ما صدر
في مرستكم في النازلت
التي حدثت عندكم وان
قلوبكم مولفة ونجدتكم
وكلـمتكم واحده
وطلبتوا منا العفو والتجاء
مما صـار منكم واصفح
عـليه وان تتموا على
صلحنـا وعهدنا معكم
واعترفتوا بذلك كله
وطلبتوا مني الـقبول
وانكـم تكونوا على
الحمد والصدق وقلتم
انكم تودون كلهـا
اتخذ لنا هنـاك والي
رجـالنـا في مرستكم
وبلادكم في قواربنـا التي
انفدت عندكم ورجـالنا
وتجارنا واشرتم بكتابكم
بكل المحبة والنصيحة الينا
ومهما انكم مـا حمدتم
الله وشكرتـموه على ما
منح لكم واعطاكم من
صلحنا معكـم بـان
كنتم تحت رعيتنـا
وحكمنا وحملكم نظركم
الفـاسد علي هتك العهد
والميثـاق الـذي كان
بيننـا وبينكم ومددتم
ايايديكم في من ليس
بواجـب عليكم بل
كان مني الامر الواجب
اني اذيكم لرعي مسايلنا
وخدمتنا والي استحفاظها
ونازلتكم واقعتكم اولا
للتاديب وبعده للتعزيز
الي العفو والصفـح لان
عـادة الملوك امثـالنا
دي العفو كمـا قلتم
وتتبتم قبل هذا وما

وفاتكم جواب فسبب
ذالك هو كان الحزن الذي
لحقنا من جهتكم ومن
فعالكم الذي ادركنا من
نحوكم وكنا عاملين
علي ادبكم وتعزيزكم لا
شك فيه وان نجازيكم
عليه ونتركم مثلا
وموضعا لمن ينقص عهده
ولمن ياتي بعدكم ولا نعلكم
بخبر ابدا فهذا كان
مقصودنا ولاكن كيف
كتبتوا الي من هو اقرب
واحب الينا السلطانة
وتوسلتم بها واعترفتم
بذنبكم وطلبتم منا
العفو بشانها العزيز علينا
فنحن عفونا عنكم
وسمحنا لكم بما مضي
وما وقع منكم وذالك
اذا وفيتم بما قلتم في
كتابكم برد جميع ما
اخذتم الينا وارجالنا
فاذا وفيتم بما قلتم فلكم
الامان التام وقبول
العام وتكونوا تحت
حفظنا ورعيتنا كما

كنتم في زمان الماضي
وواجب عليكم الشكر
الينا وتجديد الحمد لله
الذي سمحنا لكم
ورضينا بقبولكم وهذا
الامر فات ولاكن
ما يكون فايت اذا
من اليوم لقابل
علتم شيء لعدم الصدق
والوفا لخدمتنا ولو
عرفتم الخير الشامل
والامن الذي يحصل لكم
لحمدتم الله واذا عملتم علي
تاكيد المرادات واجلاب
المحبات تنالوا
المسرات وعلي ما قلتم
ان كانت عندكم
هدية تصرفونها الينا
مع رجال من
اخياركم وياتون
بها لعندنا فاعلموا بذالك
ما يسركم ويعجبكم
لان الذي يعجبكم ويسركم
يسرنا ويعجبنا بلا شك
ان جميع من ياتينا
من عندكم نفرحوا به
فاعلموا ذلك وما بقي من
وطننا وجزيرة التي خلت
في هذه السنين قموا عليه

ليعلموا الجماعة انكم لنا
اصدقاء ونريد منكم ان
تجتهدون وتسعدون في
خروج الغين كغين قمح
لباتون به كما كان
لينظروا اعدايكم
وينكبتوا بذلك وتتعلوا
على جيرانكم وتكون اعيننا
اليكم دايما ناظرة
واسماعنا واعية وحوايجكم
كلها منقضية بنفوس رضية
وتادر اليكم امينا ونارس
دارنا ويشنسيو تابارس
بجوابنا هذا لجميع ما
يقول لكم عنا فصدقوه به
تصديقا شافيا وعاملوه
بجميل في قضاء حوايجه
واعملوا حسب يقول لكم
وان وقفتم على ما يقول
لكم واتي من عندكم مع
من تتكلوا نفرحوا بذلك
وان اوفيتم بما قلتم
وكتبتم نصرف لهناك وكيلنا
وتاجرنا وفيطورنا بجميع ما
تحتاجون ويصلكم كما
طلبتم وان نظرتم هذا
بنظر صحيح وسالم يكن
لكم فيه منفعة عظيمة

وواجب عليكم خدمتنا
كما هو مضمون منكم
حسب ما ذكرتم والتزمتم

كتبه خديمكم عبد
الله الرحيني في حضرة
اجموه في 22 من ينير
عام 1504.

خامساً : رسالة جوابية من سكان مدينة (أسفي) المغربية مؤرخة في ١٥٠٩/٧/٢م .

الحمد لله وحده
واليه يرجع الامر كله ولا بد
من لقايه ولا ينج منه احد
واذا ضاقت منه كان
الفرج الي مولانا وسيدنا
السلطان دون منويل
حفظه الله من خدامك
وعبيدك سكان اسفي
الذين تحت علامك
وطاعة الله وطاعتك يقبلون

اياديك والارض تحت
قدميك ونعليك يامولانا
ن ولو كنا تحت حماية
الله وحمايتك جازت علينا
شدايد وجوع وخوف وغباين
من المسلمين ومن
النصاري وكل هذا احتملناه
حتي كتبنا لك به
واعلمناك بما جري لنا وكتبنا
لك جملة من المكاتيب
واخبرناك بالحال الشقي
الذي نحن به ولا اتانا
جواب من عندك ولا نعرف
انكان وصلوك امر لا لهذا
كتبنا لك هذا الكتاب
وشرحنا به جميع ما
ذكرنا لك في الاولين

ومستنظرين من الله ومنك
الفرج والعدل على شكوتنا
فاول ما نعرض علي
جلكم الشريف بان ما
كرهنا عبد الرحمان الا
في حق الذي عصاك ولم
يدخل تحت طاعتك
وامرك ولا رجعنا الا حتي
قتلناه وحمدنا الله تعالي
وقلنا قد خرجنا من
العذاب ودخلنا الي الجنة في
طاعتنا لك وعهدنا معك
فبعد هذا بعثنا الي عاملك
ديوكو دازمبوجه وادخلناه
المدينه وخرجوا لالتقاءيه كل

سكان اسفي وقبلوه
باحسن القبول وفرح
عظيم ولما دخل المدينة
كانت قصبه بيده وغصن
من الحبق بفمه وادخلناه
الي دارك ونحن يامولانا
كنا قادرين نسلم حكم
هذه البلاد الي سلطان
مراكش او الي مولاي زيان
حاكم ازمور وكان باسفي
رجالا اهلا للشياخه
دون هولاي وقبلنا

مصحبتك علي مصحبتهم
وظهر لنا عاملك في اول
الايام انه رجل عاقل
وعادل وظلبنا منه
يعين رجلا من اكابر
مسلمين المدينة ليكون
قنطرة بين المسلمين
والنصاري وتكون بينهم
المحبه والاتفاق
وياخدون الجميع منفعه
واحده وتكون المصلحه
واحده لان الغنم من غير
راعي يهلك فتكلمت معه
اكابر اسفي علي هذا
وكان الاتفاق بينهم
بان يكون الحاكم
يحيي بن تعفوفه لانه
مستحق هذه الوكالة
بسبب انه رجل عاقل
وكامل وما فيه عيب
ولا طمع وهو لا قبل
هذه الوكاله ولاكن بعد
ما غلبت عليه العامة
قبلها ويوم الثاني اعطاه
علامك ومشا به في المدينة
وفرحت الناس به ولما
عرفت العربان اتوا من

كل مكان بحوايجهم وجري
البيع والشراء في هذه المدينة
وكل من كان هارب رجع
اليها بعد موت عبد
الرحمان وجابون
اعيالهم ومالهم
واستامنوا وخصوصا لما
راءوا اعلامك منشورا في
المدينة ورقد كل واحد
منا رقاده بلا خوف
وبقينا علي هذا الحال
مدة قليلة مع عاملك
يوكو دازمبوجه لاكن
بعد مدة ايام اراد يفتح
باب البر فقال له
يحيي بن تعفوفه ما يصلح
ولاكن عاملك ما
قبل كلامه فعاد له
يحيي لازم ان نعلم السلطان
بهذا فان امر بفتحه
فنفتحه لان البلاد ما
هي عامره فاتفقوا علي ذلك
وكتبوا لك مع عبد الله
بحياني ويحيي وزنزع وبعد

مـــا سافروا امر عاملك
بفتح الباب من غير علم
احد وما استنظر جوابك
ولاكن تكلم مع علي بن
وشان ومع قبيلة سراقب
وبن ماجر وادخلهم الي
المدينه فلمـا دخلوا بدوا
يسرقوا بيوتنا وحوايجنا
ويفسدوا مع نسايتـــا
وبناتنـا ولا سمحوا لكبير
وصغير ويتيم وغني وفقير
وشيخ وعجوز وعملوا معنا
الذي الله وحده يــعرفه
ونحن يامولانـــا نري
متاعنـا بيدهم وحوايجنا
لابسينهـــا ونحن ننظر
اليها ومـا نقدر علي شيء
وعاملك ديـــــوكو
دازمبوجه يري كل هذا
ويسمع به من غير ان
يعاقب احد من فاعلين
هذه القبايح لانه بعشرة
من رجاله يقدر يمنع هذا
كله وسمح ايضا بــنهب
القيساريه التي كانوا نازلين
بها التجار بحوايجهم وهذه
كانت كثيرة وهذه اول
غدره التي فعلها معنـا

ديوكو دازمبوجه وبعد
ذلك كانوا زوج نصـاري
ساكنين في صومعه في
الخلاء بناحية اســـفي
ويخزنون بــها الذي
يسرقوه ويخبون النســاء
مع من كانوا يفسدون
فوقعوا عليهم رجالن من
اهل دوكالت وقتلوهم
فلمـا عرف عاملك بذالك
من غير فحص علي ذلك الامر
امر إلي نـاسه ليدخلوا
علينـا كمثــــل السباع
وقتلوا منـا سبعة انفس
وبهذا الحــــال اخلعوا
النساء واســقطوا البنين
الذين كانوا حـــاملين
يــارحامهن فلمـا كانت
عشية ذلك اليوم اتـــاه
الخبر بـــان اهل
دكالت هم الذين قتلوا
النصاري وما منع ولا عاقب
احد علي فعل الشرور التي
فعلوها وغدره اخره فعل
ديوكو دازمبوجه مع التجار
الساكنين في هذه المدينه
وجرا الامر بان خرجت
من هذه البلده جملت من

الناس مسلمين ويهود
وحملو عليهم في الطريق
بعض فرسان من
الغربين وسرقوهم وضربوهم
ولما عرف عاملك بذالك
قبض على الذين كانوا
يتسببوا في المدينه واتوا
يبيعوا ويشتروا ودخلوا

. . . .

تحت كلمته وامانه لنفع
المدينة وربط البعض منهم
باع منهم سته انفس الي
قبطان جزيرة الخشب
والقايد المذكور طلب منه
براءة وشهادة انه اشتراهم
وهو امر الي كاتبه روكي
دالميده باعطايها وهذا
بنفسه يخبرك بصحة الكلام
وعن الامر الذي امره
لفرسانك ورجالك بان كل
من وجد منهم وقبضه
يقدر يبيعه ويشتريه وبهذا
الامر يامولانا بدوا البرتقيز
يسرقوا اولاد العرب واناس
الكبار والذين ياتون
لبيع حوايجهم وحتي الذين
ساكنين في المدينة
ولهذا قامت ناس سراقين

مسلمين ويهود واتفقوا مع
رجالك وقهروا هذه البلاد
والبر وكل واحد كان
يقبض من اصابه وكثير من
الذين قبضوهم فباعوهم
الي جزيرة الخشب من
غير ان ديوكو دازميوجه
يمنع هذه الافعال ولم
يقاصر ناعلين هذه الضرورة
الا واحد مسلم رجع نصراني
وصابوا عنده بعض اولاد
كان يفعل بهم الحرام نامر
بصلبه والعرب والمصامده

. .

لما راءوا ذلك هربوا بالخفاء
وتركوا البلده خاويه ومن
غير قوت من خوفهم علي
نسهم واولادهم ان
ياخذوهم بسراء واعلم
يامولانا ان كل الذين
هربوا لا يريدون يرجعوا
بعد ما تحقق عندهم
ان زمبوجه امر بهدم
ديارهم وحرق خشبها
وبهذا الامر بدوا رجالك
يهدموا جوامعنا ويسرقوا
حصورهم ودفوفهم فهدموا
الجامع حدا القبور قريب

قبة حجر على حجر
وكذلك زاوية يقال لها
زاوية سيدي بو على وجامع
الكبير وسرقوا حصورة
ودفانة وكانوا ايضا
حشاك يغيظوا ويبولوا به
وزاوية جامع الكبير المسمية
زاوية الشعب اخدها
عاملك ديوكو دازمبوجه
مع جنانها وزوج ابيار
كانت حداها التي كانت
للعامة ويتوضون بماءها
وتشرب منها وضرب عليها
حيط من داير ليمنع الناس
عن الدخول اليها وكذلك
جامع اخر بباب اوريو
سرقوا حصورة ودفانة وبعض

جنان وحوانيت كانت
تخدمه ومن غير هذه
الانفعال عملوا ضرر ماله
وصف وبعد كل هذا
ياسولانا زادوا رجالك
ظلمهم وقهرهم ومدوا
ايديهم الي نساءنا
وبناتنا وفضحوهم غصبا
وعاملك ديوكو
دازمبوجه لا منع ولا

عاقب احد على هذه
الانفعال القبيحة حين
كان يقدر علي امتناعه
وهذه الانفعال وغيرها
سببت ان تهرب الناس
من هذه المدينة وان كان
عاملهم بالخير ورفع عنهم
الظلم ما كانت هربت
ونحن يامولانا احتملنا
وصبرنا على هذه الاحوال
حتى ياتينا جوابك
ويحقق عندنا انك
تكره هذه الانفعال
وانك ما امرت ولا
تامر بها لاننا
متاملين نعيش
بالامان وقلة الظلم
والغدر ولما سمعنا انك
تريد ترسل على بن
تعفونه ليحكم فينا
فرحنا غاية الفرح
وشكرنا الله الخالق

كان الرحمة نزلت من
السماء على هذا
الشعب وكل الذين كانوا
هربوا لماشاع هذا
الخبر بدوا يرجعوا الي

منازلهم واعلم ان
ديوكو دازمبوجه كره
مجي عبد الله اليحيـاني
من مدينتك ولا سيما
لما تحقق عنده انه
فهمك باحوال هذه
المدينة وقال لك الحق
والصدق على مـا
احتملناه وبعد ذلك من
غير سبب ولا جريمة
نفاه من المدينة
ونسب لنا افعالا
لم نفعلها وزاد عليها
قتال زوج النصاري
الذين قتلوهم اهل
دكالت اما ان ما
مات الا واحد شلدات
قتله صاحبه مني كان
سكران في دار مسلمه
وان كنا فعلنا
ذنب يبينه لنا ولاكن
ما عنده ما يقول
علينا ولا يلومنا به
نحن هم المغدورين
والمشتكين منه ومن بن
وشان وقبيلة بن
نجار الذي ادخلهم
علينا وغدرونا وسرقونا
وفضحوا نساءينا
وبناتنا وقتلوا بعض
انفار من ناسنا وهذا
بن وشان بنفسه هو
الذي غدر عبد الرحمان
بعد ما كان ضيفه
واكل خبزه وما هلك
ناسك ورجالك بسبب
انه ما قدر على ذلك
لان لما راي اننا
متفقين مع رجالك
ونحن لكم اصدقاء مضي
تكلم مع سلطان
مراكش ومع زيان
صاحب ازمور ومشايخ
قبايل العرب ونفقته
ماله على هذا الامر وبعد
ب قطع رجاء من تلك
الناحية اتفق مع
عاملك ديوكو دازمبوجه
وغره بكلامه لانه زمبوجه
كان عارف بما

سلف منه واعماله مشهورة
وكل اهل المدينه خايفه
بعد ما راءت انه قامه
حاكم في هذه المدينة
واكثر الناس عملت على
الهروب منها لاجل ظلمه

وقهره وكل يوم يزيد غدره
علي يوم واهل عبده
يريدوا يهربوا لان
بسلامتنا ما يمكن
ان نعيش بسلام مع
الناس في مكان واحد
وهكذا ما نقدر
نسكن مع اعداينا
والدين اكلوا حوايجنا
وفضحونا وانت ياسولانا
تقدر تختار رجل
يكون علينا شيخ من
القبايل التي تحت طاعتك
من قبيله جرانة وونانه
ومساز وعبده ودكالت لانهم
يجمعوا عشرة الف فارس
كلهم جيدين وعلى حال
وراي واحد عدوهم واحد
وصديقهم واحد وكما ان
قبيلة بن ماجر هي
عدوتهم فهكذا كلهم
اعداءها واعلم ان ديوكو
دازمبوجه يغشك وكتب
لك انه قبض هذه المدينه
بدراعه ونحن ياسولانا
الذي سلمناها له وادخلناه
اليها كما ذكرنا
لك في اول هدا الكتاب
وانه ما اتفق مع قبيلة
بن ماجر الا حتي يهلكنا
وكل هدا جرا لنا قبل ما
وصل الينا قايدك وكل
البلاد فرحت بمجيه
وقبلناه وعرضنا عليه
شكوتنا واحوالنا وكل ما
سرقوه لنا وظلمونا وهدموا
لجوامعنا وصوامعنا ولاكن
ياسولانا رد لنا جواب بانه
ما جاب امر ليعاقب احد
ولاكن امرنا ان نكتب لك
وانه يرسل كتابنا الي عالي
مقامك ونحن هكدا فعلنا
واعلم ياسولانا بان قبطان
مثل هذا يصلح الي اسفي
لانه مليح وعاقل ويعرف
طبع البلاد واخبرا ياسولانا
ان كان تريد عهدنا ونكون
لك خدام واصدقاء فامر
بخروج قبيلة بن ماجر
وسراق وبن وشان لان
ما يصلحوا الا الي خراب
البلاد وتصغير شانك وامر
ايضا بطلوق المسلمين
المحبوسين في هده المدينه
وارسل رجلا ليحكم علينا
ويكون قنطره بين المسلمين
والنصاري ويكون البيع
والشراء والحرث كما كان

في زمان القديم وتكون لك المنفعة وتستفيد منها على الخاطر وهذه باسيدي فلا تحصل الا بالامان الذي هو راس كل شي وتحقيقه كل ما دكرنالك يخبرونك به خدامك روكي دالميده ودن غراسيا وانطوني دازبيده وغيرهم من عدا انريكي جوزه لان ديوكو دازميوجه ارشاه واعطاه

حصان جيد ويسير من الذين سرقوهم لنا والسلام كتب في اسفي في ثاني يوليو عام 1509 من خدامك
حسن بن برحيل
محمد .. هسيس
منصور بن برحيل
علي بن سعد .. الله
عبد الله بن حط

سادساً : رسالة من عملاء وجواسيس البرتغال إلى ملك البرتغال في عام ١٥١٠م .

الحمد لله وحده لا رب غيره ولا معبود سواه الي امير قومه وسلطان بلاده دون منويل سلطان البرتكال والغربس مولاء غناوه والذهبيان وغيرهما اما بعد يقبلون ايديك اجواد الشرقيه ومنهم سالم بن عمر وتالي بن عيسي واولاد داويد ويعلمونك بان ورد

اليهم كتابك وفهموا كل ما فيه ويريدوا من فضلك ان تعمل لهم

غرضهم وغرضك بما يعلمونك فيه ويكونوا لك مطيعين واما الرجل الذي بعثته لهم ما جاء على خاطرهم ونحر عليك كثيرا ما لا تقدر تصلحه وانه ما هو بخير مع النصاري

ولا مع المسلمين ولا مع
اليهود وما يعمل الا
برايه ولا يسمع لمن ينهيه
وينصحه ونحن اهل
البلاد نقول له اعمال
الذي يصلح للسلطان
وللناس وابا ان
ياخذ بكلامنا واشتغل
يشتري المسلمين ونحن
نخاف عليه من المسلمين
ان يقتلوه ويجي عارك
علينا اما هو ما
علينا منه وانت هو

السلطان فان اردت
ان حوايجك تنقضي من
بلادنا وتكون خدامك
ابعث لنا رجل اخر
يكون بحال انطوني

مرتين لانه عاقل
وعارف او مثل ردريكو
او جوان بشكو وهذا
الرجل لا يعجبنا ابدا
وفي اول مركب الذي
ياتي ارسل واحد من
الرجال المطلوبين
وارسل لنا الجواب في
الوقت وكل حاجه تكون
لك في بلادنا نحن
خدامك فيها هذا ما
عندنا والسلام عليكم
وعلى من هو متعلق بكم
كتب في رابع عشر جمادي
عام 916 للهجره
من خدامك
سالم بن عمر شيخ الشرقيه
وباقيهم

سابعاً : رسالة أهل مدينة (ماسة) المغربية لملك البرتغال مؤرخة في ٢٨/ربيع أول/٩١٦هـ أي عام ١٥١٠م .

الحـــمد لله وحـــده
بسم الله الرحمن الرحيم
من اهل ماسه كافة
وعامة شيوخ وكهول
وصبيان الي مولاهم

. . . .

السلطان دن منويل
ملك البرين والبحرين
وما فتح الله علي يده من
الاقاليم والبلدان فالحمد
لله علي ما من عليه به
ادام الله في العز تكريمه
اما بعد يكون في
شريف علمكم بان
ورد علينا كتابكم
مع شيخنا خديمكم
وفهمنا ما فيه وتام
عندنا مقامكم
العالي وغاية ما
سرنا فيه من جهة
الخمسين فارس الذي
ذكرتم انهم يكونوا
عندنا في داركم

وتكون لنا بهم هيبه
وحضوه ونفتخر بهم بين
قبايلنا فذلك هو
غايت مرادنا لان
البلاد علي دمت الله
ودمتك معروفه وبهذا
وقعت المعرفه بيننا
وجرت الاقلام
بالرسومة وحلفنا
لخدمتك ورفعنا روسنا
وكل من اتانا من
رجالك نكرمه ونعزه
وما له عندنا الا الخير
والمحبه الشامله فبعد
هذه المهادنه سبقت

لدينا هزيمه عظيمه
رحات فيها من
اكبارنا وشيوخنا
نحو خمسة وعشرين من
اخيارنا وفي غير وقت
اكثر من هولاي واتخذ
بعضهم اساري وما عز
عندنا الحال وتركنا

ابجيع في حقك وهذا شي
قليل على خدمتك
لاننا امننا بكتابك
وعلامك الذي عندنا
وامنا من شرك وشر
قبايلك ومشينا في
البلاد ونزعنا الخوف
من روسنا واما جاءوا
بعضنا من اسفي في هذا
الوقت بالبحر في قارب
دمبان دموطه مع
سلعتهم فوقعوا عليهم
النصاري واخدوهم
بحوايجهم ومروا بهم الي
اسفي وكان معهم علامك
لاجل امانتهم فبعد
هذا اشتكوا الي عبد
الرحمن لانه كان في
تلك الوقت في اسفي فتوكل
في امرهم ليرد لهم
متاعهم ولاكن
بسبب محبته مع
النيسباليه متاع اسفي
تسم الغنيمه على ثلاثة
تسهمات واحدة له
وواحدة الي موطه والاخرة
الي مولاة المتاع فرجعوا

الناس واشتروا سلعة اخرة
مع التي ردوا لهم وركبوا
ايضا في قارب موطه
المذكور وفي سفرهم
التقوا مع اخرين واخدوهم
وكتبنا لك على ذلك
بعض براوات وما وصلنا
جواب ولاكن سمعنا
ان قلت بان عبد
الرحمن ودمبان
دموطه ماتوا فاعلم
ياسيدنا بان صرنا

فضحكة بين جيراننا
وبين المسلمين وبقولوا هولاء
ضنوا انهم يعيشوا بامان
تحت حمايت النصارى
ولاكن الحمد لله فرجعوا
كما رايتم من غير
امان ولا جاه ولا
متاع وبهذه المصيبه بقوا
اعداينا شامتين
وفرحانين بشقاينا
وبالحق ان ناسنا
ما نوب قلبهم على
سفرهم في البحر الا
بامان عبدك

وعلامك الذي عندنا
فان وفيت بالمعهود
والموثوق بيننا وامنتنا

على نفوسنا واموالنا
فنكون لك دايم
خدامين كالاول ناظر في
رسومك وقرطاسك الذي
رسلته لنا وخذ حقنا
كما انه كان لك لان
اخذناك لنا وكيلا
وسلمنا امورنا بين يدي
الله ويديك فانظر ياسيدنا
فان اذا ما اخذت
حقتنا ما احد يخلصك
في هذه الدنيا ولا في
الاخره من يدي القدير
على كل شيء ولا لك ما
تلومنا لان ناسنا
ما سافروا الي اسفي الا
بامر خديمك نونو
دفريتاس الذي كان
عندنا في تلك الوقت
وانت حاشاك ياسيدنا
ان تخالف قواعد
ووعد السلاطين العادلين
واعلم ياسيدنا ان
بسبب خديمك انفسو

ديوكو صار بيننا وبين
اهل دار جدار معركة
عظيمة وبها مات من
ناسنا في تلك المعركة
ما اوفي اجله واخرين
اتخذون يسري الي اليوم
واخترنا محبتك وخدمتك
حتي جانا جوان لوبس

دسكيره بكتابك واكرمناه
واتفقنا معه على ما
يكون لخدمتك فلهذا
السبب قامت علينا
المسلمين على جهة البناء
وما رادوا يبنوا في ذلك
الموضع فدخلنا معهم
بالمعاطفه والرشا حتي
ابوا بالبناء في كل
موضع وصارت لنا عداوة
بين اهل هكسيمه
وبين العرب الذي في
الخلاء وهولاء يعيرونا
ويحملون علينا وياخذون
اولادنا ويبيعوهم الي
حوان لوبس فرسلنا
لسبب ذلك شيخنا مع
بعض فرسان وطلبنا
منه ان لا يشتري اهل

مـــاسه نابا عن ذلك
وبخدمتك صرنـا محكه
بين جيراننــــا وبين
المــسلمين وهذه هي
الفـايده التي حصلنـاها
من خدمتك ومـا راءينـا
مــنك قط شيء ينفعنـا
ونفتخر به وكتبنـا لك
مرة ثانيه على دعوتنـا
ولمـا اتي الرسول قال
لنـــا انك صرفت الي
جــوان لوبس ووصيته
فينـــا لنكون عنده
بعــز مقدر وينظر في
امورنا ففرحنـــا بهذه
الخـبـار غاية ثم بعد
هذا الامــان سرقوا لنا
عبدا في الخلاء والعبد
بعد كام يوم ظهر في
دار جوان لوبس فكتبنا
له كتابا بخط النصــاري
من واحــد من خدامكم
اسمه جوان ردريكو فرد
لنا جواب قايلا ما ارده
ولو اعطيتـم به الف
مثقـــال وارسله الي
ماديــرا فرسلنا له ثانيا

كتابك ليقراه وينظر ما
فيه ولاكن ما اخـــذ
بكلامك ولا في كتابك
وفي وقت اخر مضي واحد
يــهودي من متقدمين
ماسة مع رجل مسلم الي
بني تامـــر فقبضوهم
خـدامك وقتلوا المسلم
واخدوا اليهودي الي دار
جوان لوبس فرسلنا لكي
يطلقه لانه تحت امان
ســلطان البرتكال
وجاهد ثابا ان يسرحه
وبعد ذلك ركب منا عشر
فرسان من اعيان البلاد
واخدوا مـعهم علامك
ودخلوا به دار جوان لوبس
ودفعوا له كتابك فبعد
ما قراه وراء فيه خط يدك
الشريفة خرج من الدار
وترك النـاس مع اليهودي
لعنه الله الذي اسمه بن
زمره فقام وحلف بدينه
ان مـا يروج معهم ولا
تقضاء لهم حاجه ولو اجاء
السلطان بنفسه وقال
انـه هو موضع جوان

لوبس ونامنا بغوا ثلاثة
ايـــام في دار جوان
بعلامكم يستنظروا
الجواب حتى ايسوا ورجعوا
بلا شي ولا كان في اسفي
من يحضرهم ولا من يتكلم
معهم فان كانت هذه
افعال ناسك اتجاهنا معنا
فكيف يكون حالنا
مع الغرباء ولا سيما بعد
ما فاش الخبر بين
المسلمين والنصاري ان دار
لوبس ما لها مقدار
للسلطان ولا كلمته مقبوله
بل هي ملجاء لمخالفين
السلطان فنحن
نادمين وحاشمين بعد
خدمتنا لك ونعلمك بان
بلامك ومفاتيح دارك التي
هي في بلادنا تدلك مع
اخرنا بو عزو فافعل بهم
ما تريد لان العار جاء
علينا من كل جانب حتى

ان اليهود يبهدلونا لان
اليهودي بن زمرو حلف
بانه يقبض بو عزو او حمو
بن براد او واحد من
اولاده لـــيرا ان كان
سلطانهم يفكهم وان
كان قال هذا واحد من
اخيار فرسانك كنا اخذنا
الصبر عليه ولاكن واحد
كلب يحلف فينا
ويحكم علينا ويقول في
خدامك ما هو اهله فما
له احتمال فان اردت
خدمتنا فانظر بما شكونا
به وكيف يصلح علينا
فاجعل علينا نظرك
وان تركتنا وسديت
علينا باب حلمك فنحمد
الله علي اننا افترقنا بلا
عيب ولدار التي لك عندنا
فادفعها لمن تحب او
بيعها لانها مالك وملكك
فاخيرا اصفح لنا بهذا
القول واعذرنا لان الذي
جرا لنا حرق افوادنا ولا
سيما بعد ما كنا تحت
نظرك وبخدمتك
ودخلنا تحت مملكتك
بخاطرنا والي طاعتك
والكلام طويل ولاكن
بو عزو قادم اليكم
وهو حامل هذه وكل ما
قاله لك وفعلته معه من
الخير هو جايز وعلينا من
اليهودي الملعون الذي
دغرنا والسلام

ثامناً : رسالة من وزير هرمز راشد ركن مؤرخة في عام ٩٢٧هـ ١٥٢١م .

السلطان الاعظم دون
منويل سلطان
برتكال اعطر خدمات
تعطار من نسايمها
مشام الروحانين
وتلتفت بلغايف الصدق
وتحفظ في حزب الخلاص
وتهدي الي من خصه الله
تعالي بالسعادة الكاملة
السلطان الاعظم
والخاقان الافخر مالك
البر والبحر حامي
العرب والعجم اعدا ملوك
الاكناف واشجع ولات
الاطراف مسخر الاقاليم
الاطوال خلد الله
سبحانه في بسيط الارض
ملكه وسلطانه وبه
يظال كافت البرايا
وبعد تقبيل الاقدام
الشريفة الخادم يعرض
للولي ما هو لازم اولا
من اخبار الشام وهو
ان جاءنا رجال من

حدين من الشام ومن
يوم خروجهم الي تاريخ
هذا له ثلاثة اشهر وخبرونا
عن سلطان الروم انه
مضي لمحاربة الفرنج
بعسكره الي نواحي
رودس وكان عدده خمسة
وعشرين الف رجلا
بستين غراب وبعد ما
طلع لمحاربت الفرنج
حصل عليه قصور في
المحاربة واخدوا الموضع
ورجع فبعد ذلك عين
سليمان باشا امير مصر
يكون باش علي العسكر
يسير به الي نواحي الهند
بالغرابات وامير سليمان
قبل علي نفسه هذه
الخدمة وهذا خبر محقق
ممن هو معتمد عليه
وايضا عام الاول سار
عسكر الشاه علي ديار
بكر وكسروا عسكر الروم
وهزموهم حتي انهم
تركوا خيامهم

واسلحتهم واموالهم
وركبوا الخيل بغير سروج
وكان ملك الروم غايب
في حرب الفرنج فبعد
ما وعل قبض باشين
واحد حاكم حلب والاخر
حاكم حميد وقتلهم
وعين ابراهيم باشا
يقبض ديار بكر ويقابل
الشاه وانا رسلت رجالا
من طريق البحر ليفحصوا
عن الخبار ويصلوا الي
سويس والذين ارسلتهم
ما قدروا يدلوا وردهم زود
الطوفان من بندر قسن
وكانوا طالبين جدة
وايضا ارسلت الجواسيس
الي كل ناحيه ليفحصوا امور
العدو وانا ليس متغافل
عن فحص الاخبار
المفيده لخدمة سيدي
واما اخبار امور البحر
فهي كما كانت ومن جهت
امير الارمن من مدة
ثلاث سنين كل سنة يرسل
شردمة من عسكره الي
نواحي هرموز وهذه السنه
ارسل عسكر الي لستان
وخربوا سواحلها وحرقوا
بعض امكان ويوم
تاريخ هذه جانا
خبر ان الامير راشد اتي
بالفين قواس ومر بهم
علي قلعة تزرج ويريد
ياخذ البلاد وهذا غير
مخفي عن سيدي فان
قبض حوالي هرموز
ومستغان وباقي
حوايلها يمتنع دخول
التمر والسمن واللحم
والفواكي للذين هم
عمدة معاشهم وتضيق
الرعية ويقل محصول
هرموز وان من مدة سنين
ما لها محصول لسبب
قلة بضاعة جوزرات لان
مدخل هرموز هو من
جوزرات والقفايل
الذين ياتون بالحرير
والفوه والقماش وغيره
وهذه السنين امتنعوا عن
مجيئة الجهازات الي
هرموز والرعيه في ضيقه
شديده لسبب ذلك ومن

قلة محصول البندر
السلطان ايضا مستغنية
وانا خادمك من قلة
المدخول كذالك
فالمامول من مولانا
ان لا يغفل عن مملكة
هرموز لان خرجنا كثير
ولا يقوم الملك الا بالخرج
فان لم يكن له
مدخل ويكفي الخرج
يقع خلال في الملك وانا
ياسيدي لي اربع سنين في
خدمتك بامر القبطان
مور وجابني وحطني في وكالت
الوزارة وقمت بها بالجهد
والخلاص كما شاهدوا
خدام حضرتك من غير
طمع لان الوزر المتقدمه
كانت لهم محاصيل كثيرة علي
قدر طمعهم وانا خرجي اكثر
من مدخلي وهذا ما
يخفي عن حضرتك وقبل
مني كان ريس شراف
يخزن مدخل البحرين
وجلفار ومستغان وبيرونات
وكان يحصل له ستين الف
اشرفي ولا يعطي الا اربعين
الف او خمسة واربعين والباقي
يدخلها في كيسه ولا تخرج
بقعده من الديوان الا ياخذ
عليها خمسة الاف طرنبات
والغرايم ياخذها من التجار
والرعيه وانا ياسيدي يدي
قصيرة عن هذه الافعال ولا
اريد شيء الا الذي يرضي
الله ومولاي وفي زمان
حكمي رفعت هذا البدع
والظلم والعوايد القديمه
والجديده ولهذا ياسيدي
دخلي ما يسد خرجي
فاتفكر بخديمك لانه
محسوب علي مولاه وان
قبطان هرموز انطونيو
دسيروبرا وقبطان لويس
وباقي الرعيه يشهدون
بصحة عريضتي لان جميعهم
يعرفون حال سيرتي
والسلام ۞

في ٢٤ من جمادي سنة
٩٢١ للهجرة

من خديمكم

راشد ركن وزير هرموز ۞

تاسعاً : رسالتان من سلطان (فاس) السلطان محمد الوطاسي إلى ملك البرتغال .

الحمد لله وحده
السلطان كبير الحكم
والعظيم في قومه ودولته
والعالم في زمانه المكرم
الانجد سلطان البرتكال
وما انضاف اليه من
البلاد والاوطان هداه الله
ووفقه بما يحبه
ويرضاه • السلام علي من
اتبع الهدي ورحمة الله ۞
اما بعد فنحن علي ما
تعلمونه من الصفا وحسن
الاعتقاد وغرضنا
بان تكون
الكتابة بيننا مترددة
والحوايج متاكدة
وان سالتم عنا فما
عندنا الا ما يسركم
ويرضيكم كما
يعرفكم خديمكم
سبستيان ومما نعرفكم
به ان عزمنا علي
ارسال جفن من
اجفاننا بان يسافر
الي الجزاير ومن هناك
لتونس فنريد منكم
تامروا ان خدامكم
لا يتعدوا عليه برا وبحرا
حيث ظهر من بلاد
المشرقية هذا غرضنا
واكد حوايجنا عندكم
تاتونا بالجواب مع
خديمكم وخديمنا
الواصل اليكم * السلام
علي من اتبع الهدي

كتب في 23 من
جمادي عام 920
للهجرة ۞

من شريف محمد
سلطان فاس

الحمد لله وحده
الي السلطان الكبير في
قومه ودولته والعالم في
زمانه واهل امثاله
المكرم الانجد دون
منويل سلطان
برتكال وما انضاف
اليها من البلاد
والاوطان هداه الله لما
يحبه ووفقه لما يرضاه
سلام علي من اتبع الهدي

نثني علي ما تعلمونه من
الثناء وحسن
الاعتقاد ومرادنا ان
تكون المكاتبة بيننا
مترددة وقضاء الحوايج
متاكدة وان سالتم
عنا فما عندنا الا
ما يسركم ويرضيكم
كما يعرفكم خديمكم
سبستيان رودريكو
ومما نعرفكم به بان
مرادنا نرسل مركب
من مراكبنا الي
الجزاير ومن هناك لتونس
فمرادنا ان توصون
خدامكم ان لا
يتعدون عليه برا وبحرا
متي التقوا به او ظهر من
بلاد المشرقية هذا هو غرضنا
واكد حوايجنا عندكم
فارسلوا لنا الجواب مع
خديمنا الواصل اليكم
السلام على من اتبع الهدي

كتب في 28 من ذالقعدة
عام 920 للهجرة ۞

من الشريف مولاي محمد
سلطان فاس

عاشراً : رسالة أرسلها المدعو (ماثيوس) وهو سفير الحبشة

بسم الله الحي الازلي
من عبدكم مـــاتيوس
بشدور برست جوان الي
مولانـــا السلطـــان دون
متويلــ نصره الله واعطاه

الفخر سلطـــان الدنيـــا
وانصر كل السلاطين فاعلمك
يـــاسيدي بمـــا عمـــلــ
بي قبطان المور الذي
جيت معه لان من
يوم الذي فارقتك انـــا
في عذاب شديد من
القبطـــان لوبو سوارس لانه
يريد قتـــلي ولاكن الله
مـــا سمح ومنع عني
الكومانيه والاكل والشرب
لاجـــلــ ذلك بعت
حوايجي حتي اكل واشرب
ومـــا بقي عندي شيء
واخذني الي جده الي بحر
القلمز ومـــا اعطـــاني شيء
من الماكل وبعد هذا
عملني في مركب ســـان
بدرو الذي ريسه دون
جوان دســـلوبره وكان

مربوط معنـــا في بندر
جده مركب اسمه زنكي
وعلي بـــاب جده ضعنـــا
من باقي المراكـــب
وغرقــ الزنكي ومـــاتوا
النـــاس من الجوع والعطش
والبيلوط ما عرف لين
يروح واراد يرمي بـــالمراكب
علي البر فلاكن انـــا
يامولانـــا اخدتهم الي
دشلك واريتهم الطريق اي
بر الحبشة وقلـــت الي
دون جوان قـــبطان
المركب انه يمضي الي بندر
ملك الحبشة وهو مشي
نصف نهـــار فقـــالــ مـــا
اريد اخدم سلطـــان
البر نكالــ انـــا خديم
قبطان مور لوبس سوارس
وبعد مـــا بقينـــا اربعة
وعشرين يومـــا دخلنـــا
دهلك وللوقـــت بعث
القبطان ناسه للبر ونهبوا
بقرهـــا وغنمهـــا وقتلوا
واحد من اهلهـــا فقلت
له لمـــاذا تفعلــ هذا لان

سلطان دهلك يعرفني اني
اخو البطراك ويلومني علي
هذا الفعل ولاكن ما
سمع كلامي وما اخذ
بما قلت له وفي مدة
الاربعة وعشرين يوما
الذي كنا هناك ما
اخذنا خبار باقي
المراكب وبعد ما فاتت
تلك الايام وصلوا
لعندنا تاريين مرسولين
من قبطان مور في واحد
منهم اني لورنسو دكارمو
صبي السلطان فساءلتهم
لماذا جيتوا فقالوا
نحن مرسولين من
قبطان مور الي دهلك
وجاء مع صبي السلطان

واحد كلريكو وواحد يسير
ويهودي وقالوا لي اجي
معنا لتورينا الطريق
فانا ما كان لي خاطر
امضي معهم لاجل الفعال
الذي دون جوان امر
بها والسرقه التي جرت
منهم في دهلك وانا
نصحتهم بان صاحب
دهلك حرامي وكل يوم
يسرق الحبشين ويبيعهم
وما يصلح ان ينزلوا
في تلك البلاد واخبرتهم
ان يمضون الي خرتقون
بندر من بنادر الحبشة
وفيه نصاري وقسوس
ورهبان وناس يعرفوني
فقالوا لي قل هذا الي
دون جوان وقلت له
هذا ولاكن ما قبل
كلامي ولا صدقني وامرني
ان امضي معهم وحلف
لي انه يستنظرني؛ ولاكن
ايب له اخبار البلاد
وبعد ما رحنا سافر
بمركبه الي كمران وبقوا
حوايجي في المركب
ويسيري ولما وصلنا الي
دهلك اتكلموا مع صاحب
البلاد وقال لهم ما تريدوا
واني صاحبكم فقالوا له
نريد ندخل الي بلاد
الحبشة ولو كان هذا
الرجل معنا ويقول
انه بشدور برست جوان
ولا لنا به حاجه فعرض
لهم مركب وناس من
عنده ليوصلوهم الي عند
ننجي نكاش واحد من

سلاطين الحبشة وحلف
لهم بالامان فانا نهيتهم
بان لا ياءمنوا فيه ولا
يصدقوه بما حلف ولا
يقبلوا منه المركب الذي
عرضه لهم وما قبلوا
مشورتي واعطاه تمساش
بسوي مايه اشرفي دهب
وبعد ذلك رجعوا الى
الغوارب وتاني يوم بعث
يقول لهم انه يريد يلتقي
معهم في الساحل ولاكن
مني يصلون لا يجيبون
معهم سيف ولا حربه
وانا قلت لهم لا تفعلون
هذا لانه يريد يقتلكم
فردوا علي اسكت لانه
صاحبنا وحلف لنا انه
يوصلنا الي بلاد الحبش
ونزلوا الي البر من غير سلاح
قايلين انهم ما يفعلوا
الا الذي امرهم به
قبطان مور فقتلوهم
وانا مع الذين بقوا
هربنا ومضينا الي
كمران فين كان قبطان
مور من غير ثلاثة انفس التي
قتلوهم في دهلك فبعد
ما وصلنا قلت
للقبطان ان يروح
بالمركب الي بندر سلطان
الحبشة لانه كان قريب
قال لي امضي انت الي
اين تريد قلت له اني
ما اروح الا للمكان الذي
رسلني السلطان دون
منويل لخدمته وابعث
له جواب من عند سلطان
الحبشة وما سمع مني
وظهر له ان كلامي
كدب وما راد يمضي الي
ذاك البندر الذي دليته
عليه بحسبه في افنسو
دالبوكرك وفرنساندو بيرس
وفرنسيسكو دتاورا
وكدب التوابيج التي
جابوني لحضرتك لاجل
ذلك ياسيدي انت صانطو
وتعرف كل شيء فلا تسمع
كلام لوبو سوارس لانه يريد
قتلي ولاكن الله ما
سمح وكلما بعث يقول
لك هو كذب والمجنون
ما عليه حراج الله يديم
لنا بقاك ويحفظك في *
٢٧ من شباط سنة ١٥١٧ *

24

الفصل الرابع والعشرون

* ديكو لوبيزدي سكويرا يتسنم منصب حاكم الهند في ١٥١٨/١٢/٢٠ .
* حملة دي سكويرا على البحرين والأحساء وعدن .
* القائد انطونيو كوريا يهاجم البحرين بجيش من هرمز .
* مصرع الأمير مقرن بن أجود .
* وفاة ملك البرتغال مانويل وولاية ابنه دون جوان الثالث. ثورات في هُرمز وعُمان والبحرين .
* اضطرابات جديدة في اليمن وحملة برتغالية تهاجم مدينة الشحر .
* القائد البرتغالي هايتور دي سلفيرا يعقد مصالحه مع حاكم عدن ويدمر ظفار .

على صعيد الأوضاع البرتغالية في الهند فإن ثمة تغييرات حصلت في المناصب القيادية فقد غيَّر الملك البرتغالي نائبه هناك وهو (لوبو سوريز) ووضع بدله المدعو (دييكو لوبيز دي سكويرا DIOGO LOPES DE SEQUEIRA) وذلك بعد أن وصلت إلى الملك أخبار عن تلاعبات مالية قام بها الحاكم السابق (لوبو سوريز) ، وقد استلم (دي سكويرا) المنصب الجديد بتاريخ ٢٠/ ١٢/ ١٥١٨م ، فقام بإجراء تعديلات في المناصب القيادية الحاكمة في المستعمرات البرتغالية في الهند والملايو وغيرها من مناطق الشرق الأقصى الممتدة إلى سواحل الصين ، ثُم أوكل مهمة الاشراف والسيطرة على السواحل العربية إلى القائد (أنطونيو دي سالدانا ANTONIO DE SALDANHA)[1]

---

(١) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٣٤٣ .

وكان أول ما فعله دي سكويرا أنه أرسل خطاباً كان مُرسلاً إليه من القائد العسكري لمنطقة كوشن ومؤرخاً في ٢٢/ ١٢/ ١٥١٨م ، إلى الملك مانويل يخبره عن أنباء التحركات المصرية في البحر الأحمر ، ويقول له إنه علم بوصول إحدى وعشرين سفينة من السواحل العربية إلى السواحل الهندية ، وإن هذه السفن قد اختفت في موانيء الهند ، وستقوم بمساعدة الأسطول المصري الذي سيأتي لمحاربة البرتغاليين ، وإنه علم أيضاً أن الأسطول المصري الموجود في جدة قد انسحب إلى منطقة الطور (يقصد سيناء والسويس) لغرض الصيانة وإعادة التنظيم . وهذه المعلومات قد تم الحصول عليها بواسطة الضابط (الفارو باريتو) الذي تمكن من أسر سفينة عربية في باب المندب .

لم ينتظر دي سكويرا جواب الملك على رسالته بل قام بتجهيز حملة عسكرية قادها بنفسه لتذهب إلى هرمز والسواحل العربية وباب المندب والسواحل الأفريقية . وفي يوم ١٣/ ٢/ ١٥٢٠م أقلع من ميناء (كوا) بأربع وعشرين سفينة حربية وقيل بست وعشرين أيضاً ، عليها ألف وثمانمائة جندي برتغالي ومثل هذا العدد من الجنود الهنود ، وتوجه أولاً إلى هرمز ، حيث التقى هناك بملكها ، الذي كان قد تأخر عن دفع مستحقاته من الضريبة المفروضة عليه ، فلما طلب دي سكويرا إيضاحاً منه عن سبب التأخير في دفع الضريبة أجابه ملك هرمز بأن السبب يعود إلى رفض حاكم الأحساء والبحرين (الأمير مقرن) دفع ما عليه من ضريبة إلى هرمز . لذلك فقد اتفق دي سكويرا مع حاكم هرمز على تجهيز حملة عسكرية لمحاربة الأمير مقرن واحتلال البحرين .

فتم إعداد مائتي سفينة هرمزية عليها ثلاثة آلاف جندي من جنود هرمز بقيادة (ريس زرافو) أو الريس شرف الدين رافقتها حملة أخرى من اربعمائة جندي برتغالي ، وقد عهدت قيادة الحملة بكاملها إلى القائد البرتغالي (أنطونيو كوريا ANTONIO CORREA)[٢] .

* * *

(٢) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٣٥٠ ، أما (ريس زارافو) هذا فقد ذكر المؤرخون المعاصرون أن اسمه شرف الدين .

قبل أن ندخل في تفاصيل تلك الحملة على البحرين والأحساء ، والتي لم ترد إلا في المصادر البرتغالية ، وهو أمر يؤسف له حقاً ، فقد رأينا أن نقف برهة لنطلع على الأوضاع السياسية التي كانت عليها منطقة الأحساء والبحرين في تلك الحقبة التاريخية ، ومن هو الأمير مقرن هذا الذي سيقاتله البرتغاليون وقد أوردوا اسمه عندهم على (MOCRIM) ، وأي المناطق كان يحكمها . .؟

هو الأمير مقرن بن أجود بن زامل الجبري ، المنسوب إلى الحكام من قبيلة (الجبور) (أو آل جُبر) الذين شيدوا دولة في الأحساء والبحرين قامت على أنقاض دولة بني عصفور التي انتهى حكمها للأحساء والبحرين في حوالي منتصف القرن الثالث عشر الميلادي . فشهدت دولة الجبور مجموعة من الحكام الذين قامت على أكتافهم عملية تأسيس الدولة والتي دامت قرناً ونصف قرن على وجه التقريب ، وقيل إن مؤسسها هو الأمير جبر بن حسين بن ناصر بن عقيل ، وإن زامل بن جبر هو أول حاكم قاتل الدواسر في واديهم عام ٨٥٢هـ - ١٤٤٨م ثم خلفه ابنه سيف بن زامل ، وهو الذي أخذ عُمان بالسيف من سليمان بن نبهان ، وذلك حسب رواية ظهرت في مخطوطات أحمد بن ماجد وإن المتتبع لأخبار أجود يخرج بنتيجة هي أنه يعتبر أعظم حكام الجبور . وفي حوالي عام ٩١٢هـ - ١٥٠٧م تنازل أجود عن الحكم لولده محمد ، فأطلق المؤرخون اسم سلطان البحرين على محمد بن أجود الجبري ، ولعل محمداً هذا هو الذي كان يسيطر على سواحل عُمان ولعله أيضاً هو الذي قاتل البوكيرك في مسقط عام ١٥٠٩م وهو الحاكم الذي قال عنه البوكيرك إنه من (بني جابر) ، وهو أيضاً الذي أنجد شريف مكة ضد بعض العصاة في عام ١٥٠٧م . وفي عام ١٥١١م أي عندما استولى البرتغاليون على هرمز كانت هناك اتفاقية أن تدفع البحرين أتاوة إلى هرمز وهي اتفاقية قديمة جرت لقاء تفاهم بين حاكم هرمز والأمير أجود ، لكن ظروفاً معينة أجبرت محمداً على نقض الاتفاقية فنشبت الحرب بينه وبين الخوجا عطار حاكم هرمز وقاد الأمير مقرن ، شقيق الأمير محمد جيوش الأحساء

وكاد أن ينزل هزيمة بجيوش خوجا عطار لولا مساعدة البرتغاليين له ، وهكـ
إلى السلطة الأمير مقرن بن أجود بن زامل الجبري ، الذي وصفه ابن اياس قائلا

«كان أميراً جليلاً معظماً مبجلاً في سعة من المال مالكي المذهب سيد عربا على الإطلاق »[٣] .

وفي رواية أن الشريف بركات حاكم مكة قد زوج ابنته للأمير مقرن ، كمـ
مقرن تزوجت من شيخ قبيلة بني خالد[٤] .

* * *

وبالنسبة لحملة أنطونيو كوريا والقائد الهرمزي شرف الدين ، فقد تحرك ا
١٥/ ٦/ ١٥٢١م متجهاً نحو البحرين لقتال الأمير مقرن ، وقد تبين أن
العرب قد أحكموا استعداداتهم وبنوا سدوداً عميقة حسبما يتطلب الحال ع
الساحل ، وكان من بين المدافعين ثلاثمائة فارس وحوالي أربعمائة من ر
وجيش من المشاة مجهزين بأنواع الأسلحة ، وكان سور المدينة مصنوعاً
وجذوع النخيل وفيه فتحتان أو ثلاث تؤدي إلى البحر ، وقد قسم الحائط
أقسام ووضع كُل قسمٍ تحت إمْرَة قائد ومعه وحدة مدافع .

وفي يوم ٢٧/ ٦ بدأ البرتغاليون الهجوم وكان على رأس القوة المتقدم
كوريا نفسه ومعه مائة وسبعون من رجاله ومن خلفه أخوه على رأس خمسي
أما القائد الهرمزي فكان متنحياً جانباً كاحتياطي للقوة البرتغالية ، ثم تمَ
التشكيلات البرتغالية من تسلق الحائط تحت صيحات (كوريا) الذي كان يـ
البرتغالي بيده مشجعاً جنوده على القتال ، فانسحبت قوات الأمير مقرن ذ
لذا ظن البرتغاليون أنهم انتصروا فأسرعوا بالدخول إلى المدينة لمطاردة العـ
يكن انسحاب الأمير مقرن إلا خدعة إذ قامت قواته بهجوم مضاد و
البرتغاليين بين المدينة والسور الخارجي ودار قتال عنيف بين القوتين فمـ

(٣) الدكتور علي أبا حسين - الجبور عرب البحرين أو عربان الشرق - مجلة الوثيقة العدد الثالث - السنة الثانية .
(٤) صفحات من تاريخ النفوذ البرتغالي في البحرين - مجلة الوثيقة - العدد الأول - السنة الأولى .

البرتغاليين حرجاً إذ بدا وكأنهم وقعوا في كماشة ، إلى أن أجبر الحر الشديد والتعب الجانبين على وقف القتال .

انتهز الجيشان هذه الفرصة لإعادة تنظيمهما من جديد فرتب جنود هرمز جماعة من ٢٠٠ قناص من رماة السهام مهمتهم رمي القادة العرب فقط فقتلوا عدداً منهم ، ثم قام الفرسان العرب بقيادة الأمير مقرن بهجوم راكب إلا أن حَمَلة السهام صدوهم أيضاً وأصيب الأمير مقرن بطلق ناري في ساقه مما أدى إلى سحبه إلى الخلف ، فانهارت معنويات الجيش البحريني الأمر الذي أحبط عزيمة رجاله بحيث بدأوا يهربون ويستسلمون بعد أن قُتل منهم جمعٌ غفير ، ثم لم يلبث أن لفظ الأمير مقرن أنفاسه وانتقل إلى رحمة الله بعد ثلاثة أيام من إصابته .

وبوفاة هذا القائد انهارت المعنويات تماماً ، خاصة عندما استغل القائد الهرمزي هذه الفرصة فهاجم الجسد المسجى واحتز رأسه وأخذه معه إلى هرمز ليريه إلى الحاكم هناك ، ثم أن انطونيو كوريا اعتبر نصره هذا نصراً عظيماً فصار اسمه (انطونيو كوريا البحرين) ، أي أنه أضاف اسم البحرين إلى اسمه ، كما قام برسم صورة رأس الأمير مقرن مقطوعاً وممسوكاً بيد مدرعة بالحديد باعتبارها يده وجعل هذا الرسم شعاراً للدرع الذي يتدرع به(٥) .

ولما وصل إلى هرمز رفع تقريراً عن فعالياته في البحرين إلى (دي سكويرا) وقام الأخير بتثبيت موظفي جمارك جدد في البحرين وعُمان بحيث تُهيمن هذه المراكز على السياسات التجارية في الخليج وتسيطر سيطرة تامة على الشؤون الاقتصادية التي كانت موضع اهتمامه الأول وقد أدى فعله هذا إلى سخط عام عليه من قبل العرب في تلك المناطق .

وبعد أن تم لدي سكويرا كل ذلك أمر سفنه بالإقلاع نحو عدن ومضيق باب

---

(٥) DANVERS – المصدر نفسه – ص ٣٥١ ، وكذلك أحمد العناني – المصدر نفسه – وهو مقال مترجم عن مقال الجمعية الملكية لآسيا الوسطى ، وكذلك مقال (نونو بي سلفا) المنشور في مجلة الوثيقة – العدد الثامن – السنة الرابعة – وصورة هذا الدرع موجودة الآن في متحف البحرين .

المندب ، وعندما وصل إلى قرب ساحل عدن اصطدمت إحدى سفنه بالصخور وغرقت لذلك فقد توقف في منطقة اسمها (العارة) ثم أقلع من هناك متجهاً نحو (مصوّع) في ارتيريا حيث أمر بانزال (ماثيوس) السفير الحبشي الذي كان في الهند ، وأنزل معه (رودريكو دي ليما) ليقابلا ملك الحبشة بشأن التعاون بين البلدين ، ثم اتجه نحو (دهلك) وهي جزيرة تقع أمام الساحل الارتيري وأمر بحرق مدينتها ثم أقفل عائداً نحو الهند ، وتوقف لفترة في ميناء قلهات العُماني والتقى هناك بقوة برتغالية كانت قد وصلت حديثاً من البرتغال بقيادة (جورجي دي البوكيرك) ، فذهب الإثنان إلى مسقط حيث أمر دي سكويرا جورجي البوكيرك أن يبقى هناك فيما قفل هو راجعاً إلى الهند[٦] . وينفرد مصدر يماني في ذكر أخبار هذه الحملة ، فيقول إن الحملة البرتغالية بقيادة (دي سكويرا) لم تستطع الوصول إلى عدن بسبب دفع الرياح ، كما أنها لم تجرؤ على مهاجمة جدة رغم دخولها البحر الأحمر ، إذ إن نبأ وصولها قد بلغ علم القائد العثماني حسين بك ومعاونه الضابط البحري سليمان العثماني ، فخرجا للقاء البرتغاليين الذين ما إن سمعوا بهذا النباء حتى تراجعوا نحو (مصوّع) و(دهلك) . وقيل أيضاً إن ريحاً عاتية هبت بوجه الإسطول البرتغالي أبعدته عن جدة ودفعته إلى سواحل الحبشة والصومال ثم عاد خائباً إلى الهند[٧] .

وهناك وبالقرب من سواحل الهند ، تصدى لاسطول الأمير مالك عزير الهندي ، وتمكن من إغراق إحدى سفنه ، لكن دي سكويرا تمكن من أسر إحدى السفن الهندية وأمر بنقل بحارتها إلى السفينة التي كان يقودها (انطونيو كوريا) فصعد البحارة الهنود الأسرى إلى تلك السفينة وأقلعت بهم متجهة نحو الشاطىء ، لكن الله تعالى كان لهؤلاء البرتغاليين بالمرصاد ، إذ قام الأسرى باشعال النار في السفينة البرتغالية ، وسرعان ما وصلت النيران إلى مخزن البارود والعتاد الموجود فيها ، فانفجر وانفجرت معه السفينة فهلك انطونيو كوريا وهلك معه جميع من كانوا في السفينة[٨] .

* * *

(٦) DANVERS – المصدر نفسه – ص ٣٥١ .

(٧) THE PORTUGUES OF THE SOUTH ARABI - R.B.SARJENT (وهو كتب مترجم عن تاريخ الشحري – احداث عام ٩٢٦هـ)

(٨) DANVERS – المصدر نفسه – ص ٣٥١ .

وفـي يـوم ٢٢/ ١/ ١٥٢٢م وصـل قادمـاً مـن لشبونـة حاكم برتغالي جديد على الهند وهو المدعو (دون دورات دي منزيس DOM DUARTE DE MENEZES) الذي استلم من سلفه دي سكويرا ، ويعترف المؤرخون بأنه خلال مدة حكم دي سكويرا فإن البرتغاليين قد اكتسبو سمعةً سيئةً جداً في أوساط السكان المواطنين ، بسبب سيطرتهم التامة على الأمور المعيشية والتجارية للسكان والقيام بالسلب عن طريق فرض الضرائب وجباية الأموال غصباً من الناس ، مما دفع الهنود إلى إرسال شكاوى إلى ملك البرتغال فقام هذا باستبداله بحاكم جديد . وعلى كل حال فعندما وصل الحاكم الجديد إلى الهند كانت أول مشكلة صادفته هي مشكلة الثورة ضد السلطات البرتغالية التي كانت قائمة آنذاك في كلٍ من هرمز والبحرين ومسقط وقريات وصحار .

كان ملك البرتغال دون مانويل قد توفي في شهر ديسمبر من عام ١٥٢١م فخلفه في الحكم ابنه (دون جوان الثالث) ويلفظ الاسم (دون خوان) وكذلك (دوم جواو DOM JOAO III) ، الذي كان كأبيه متلهفاً وطامعاً في أموال الشعوب وإخضاعها ، لذلك فقد كان على حاكم الهند الجديد (دورات دي منزيس) الإسراع في إخضاع المناطق الثائرة ضد سلطة سلفه ، لذلك فقد أمر بتجهيز حملة بحرية تذهب إلى هرمز والساحل العربي للقضاء على الثورة هناك ووضع على رأسها أخاه المدعو (لويس دي منزيس) على أن يتجه أولاً إلى هرمز حيث وصلت إليه معلومات تفيد أن الثورة تم إعلانها ، إذ اتفق العرب والهرمزيون على الحركة في يوم واحد ، وهاجموا في ليلة واحدة مراكز الجمارك البرتغالية والحاميات التي كانت تحميها وقتلوا عدداً من أفرادها ، كما أن القائد البرتغالي لقلعة هرمز وهو (غارسيا كوتينهو) كان محاصراً في قلعته إلا أنه تمكن من فك الحصار عن نفسه بمساعدة قوة عسكرية برتغالية محملة على سفينتين وصلت إليه من القاعدة العسكرية في مسقط مما دفع الملك الثائر في هرمز إلى أن يهرب إلى جزيرة القسم حيث اغتيل هناك ، وتم اختيار ابنه الصبي البالغ من العمر

ثلاثة عشر عاماً والمسمى محمد شاه ملكاً على هرمز .

وصل أسطول (لويس دي منزيس) أولاً إلى مدينة صحار العُمانية ، وفتح نيران مدافعه عليها ودمرها تدميراً كاملاً ، واختار عميلاً من عملائه اسمه (الشيخ حسين SHEIKH HOZEM) حسبما ورد أسمه في المصادر البرتغالية ليكون حاكماً للمدينة[٩] .

ثم توجه نحو جزيرة القسم حيث التقى بالملك الصبي محمد شاه وأخضعه إلى معاهدة جديدة فيها عبودية لملك البرتغال ، وكان من أهم نصوصها هو عدم التعاون مع السفن العربية المتجهة الى البحر الأحمر ، كما زاد عليه الضريبة السنوية فجعلها (٦٠٫٠٠٠) أشرفي فضة ، كما نصت المعاهدة على منع المسلمين من حمل السلاح في الجزيرة وأنه إذا ما تعاون أي مسيحي من هرمز مع المسلمين ، فيجب تسليمه إلى الحاكم العسكري البرتغالي كما يجب تسليم مستودعات السلاح الهرمزية إلى الحاكم البرتغالي ، وأن يتم تسريح الجيش الهرمزي . ثم قام (لويس دي منزيس) بزيارة لهرمز وأمر بإجراء تحقيق لمعرفة أسباب وبواعث الثورة .

وعلى العكس مما حصل في هرمز وصحار ، فقد نجحت الثورة في البحرين ، وقد قادها الشيخ حسين بن سعيد فكانت مفاجأة تامة للبرتغاليين ، إذ تم القبض على حاكم الجزيرة البرتغالي وشنق على نخلة ، ولكن وبعد فترة هدأت فيها الأحوال تم ترتيب اتفاق مع البرتغاليين أقروا بموجبه صفة الشيخ حسين كحاكم عربي على البحرين مع وجود مستشار برتغالي له ، أي أن البرتغاليين استردوا سيادتهم على البحرين ولكن باسلوب سلمي .

وعلى كل حال فإن حاكم الهند (دي منزيس) لم يكن أحسن حالاً من سلفه (دي سكويرا) من الناحيتين الأخلاقية والإدارية . وهذا نص منقول حرفياً عن مصدر برتغالي يقول فيه :

---

(٩) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٣٥٤ .

« إن أساليب دي منزيس وطريقة حكمه كانت غير مرضية أبداً ، إذ لقد بدا أن غرضه الرئيسي من وجوده على رأس السلطة هناك كان لجمع الأموال لنفسه فقط ، وقد نجح في هذا المسلك مما أدى إلى انحلال الضبط في المعسكرات والقلاع العسكرية كما أن نظام المحاكم والعدالة أصيبا بالفساد والخراب ، وقد وصفه فاسكو دي غاما قائلاً : إن دي منزيس أضحى فضيحة البرتغال »[١٠] .

لذلك فقد قام ملك البرتغال باختيار حاكم جديد للهند فوقع اختياره على (فاسكو دي غاما DOM VASCO DE CAMA) حيث وصلها في ٢٤/ ٩/ ١٥٢٤م ومعه ولداه (استفانو دي غاما) و(باولو دي غاما) أما دي منزيس ، فلم يرجع إلى لشبونه بل استقر مؤقتاً في هرمز وراح يتعامل بالتجارة هناك ، وفي إحدى المرات ذهب إلى الهند فاعتقل هناك ، ثم أرسل مخفوراً إلى لشبونه حيث تم تقديمه للمحاكمة وصدر الحكم عليه بالسجن[١١] .

* * *

وإذا عدنا بالحديث عن الأوضاع في اليمن في تلك الأعوام ، فقد عاد إليها عدم الاستقرار ثانية ، إذ إن الرسالة التي بعثها حاكم عدن الأمير مرجان الظافري إلى السلطان سليم ياووز والتي أشرنا اليها في الفصل الثاني والعشرين يطلب فيها مساعدته لإنقاذ اليمن من الورطة التي وقع فيها ، لم يكن لها صدىً مسموع عند ولده السلطان سليمان القانوني الذي تولى الحكم بعده ، فقد كان هذا السلطان منهمكاً في قتال الدول الأوربية وتمكن في عام ١٥٢٤م من دخول بلغراد ، كما راحت أساطيله العاملة في شمال أفريقيا تطارد فلول فرسان رودس ، لذلك لم يعر اليمن الاهتمام الكافي .

وازدادت المشاكل الداخلية في اليمن عندما قام أحد أمراء الكتائب التابعين للحملة

---

(١٠) أحمد العناني – المصدر نفسه ، وقد أشار نوتو بي سلفا في نفس مصدره إلى أن البرتغاليين لم يتمكنوا من السيطرة على البحرين إلا في عام ١٥٢٣م .

(١١) DANVERS – المصدر نفسه – ص ٣٥٩ .

المملوكية المصرية واسمه كمال علي بك بإلقاء القبض على قائد القوة أسكندر المخضرم وأعدمه بحجة عدم التعاون مع القوة العثمانية الموجودة في جدة ، ويعتقد بعض المؤرخين أن اغتيال أسكندر المخضرم قد تم بدافع من حاكم جدة العثماني الأمير حسين الرومي الذي تآمر مع كمال علي بك وهو ضابط من أصل عثماني على قتل أسكندر المخضرم الذي هو من أصل شركسي ، وعلى كل حال فإن نتائج هذه الفعلة كانت خطيرةً إذ انقسمت القوة المملوكية المصرية الموجودة في اليمن إلى قسمين ، قسمٌ موال للأتراك وقسم موال للشراكسة ، مما دفع الشراكسة أعوان المخضرم إلى اغتيال كمالَ علي بك .

وقد أدى ذلك الفعل إلى تفرق السرايا في طول البلاد وعرضها ، فظهرت لنا أسماء عدد من الضباط المتنازعين على السلطة والسيادة يقتتلون فيما بينهم . ومع اختلاط الأسماء وكثرة الأحداث وتشابك الروايات ، يبدو من سير الأحداث أن حاكم جدة الأمير حسين بك كان في مصر عندما علم بتدهور الأوضاع في اليمن ، فرجع مُسرعاً إلى جدة وجهز حملة بحرية قادها ومعه سليمان العثماني ودخل إلى اليمن وقتل فيها من قتل إلا أنه لم يستطع أن يكبح جماح الوحدات المنقسمة على نفسها ، فعاد إلى جدة ومن هناك أرسل القائد سليمان العثماني إلى القاهرة ، حيث واجه رئيس وزراء تركيا الذي كان موجوداً هناك وهو الصدر الأعظم إبراهيم باشا وشرح له الأوضاع المتردية في اليمن والخطر البرتغالي الذي يهدد البلاد وطلب نجدة عسكرية لاحتلالها وإقرار النظام فيها ، فوافق الصدر الأعظم على أن يقوم ببحث الموضوع مع السلطان سليمان القانوني .

وقد ازداد الطين بَلّةً في اليمن عندما انتقل إلى رحمة الله حاكم عدن الأمير مرجان الظافري ، فتولى الأمر بعده الأمير عبدالملك بن محمد بن عبدالملك بن داود الظافري ، وتفاقم الأمر أكثر حينما ظهر زعيم زيدي شاب هو الإمام مطهر بن الإمام شرف الدين الذي انتزع السلطة من والده واتخذ من مدينة (عمران) قاعدة لتحركاته

النشطة والفعالة في سبيل تحقيق نشر المذهب الزيدي في اليمن الشمالي وتحقيق الانفصال التام عن اليمن الجنوبي الشافعي المذهب[١٢] .

وكان مما وقع في اليمن آنذاك من الفواجع والجرائم التي ارتكبها البرتغاليون ولم يذكروها في مصنفاتهم التاريخية هو ما أوقعوه في مدينة الشحر ، وهي سلطنة شبه مستقلة ولكنها مرتبطة سياسياً باليمن الجنوبية يحكمها السلطان بدر بوطويرق الذي تولى أمرها عام ٩٢٧هـ - ١٥٢٠م عندما تنازل له أخوه محمد عبدالله الكثيري عن الحكم وتولى الأخ أمر منطقة ظفار التي كانت جزءاً من السلطنة الكثيرية آنذاك ، وقد عُرف عن السلطان بدر بوطويرق أنه كان مصاباً بجنون العظمة كثير النزوات والقلق ، وعلى عهده هاجمت سفن إحدى الحملات البرتغالية المدنية وكان ذلك في يوم الخميس ٩/ ربيع الثاني/ ٩٢٩هـ الموافق ٢٧/ فبراير/ ١٥٢٣م أي أثناء مرور حملة (دي سكويرا) إلى البحر الأحمر فبعد أن أنهت مهمتها في البحرين مرت بمنطقة اسمها (ظهار الحامي) وهناك أحرقت خمس سفن يمانية ، ثم توقفت في ميناء الشحر ، ولم يكن السلطان بدر يومذاك موجوداً إنما كان هناك نائبه مطران بن منصور وبعد ساعتين من وصول الأسطول البرتغالي ، نزل منه ثلاثة برتغاليين توجهوا نحو المدينة حيث مقر النائب وسلموه رسالةً فحواها أن تاجراً برتغالياً اسمه (الفونس دي فيجا) مات في الشحر منذ خمسة أشهر ، وأن السلطان بدر قد استولى على أمواله ، وأن قائد الأسطول يطلب تسليم تلك الأموال إليه دون تأخير ، فأبلغهم مطران أنه لا يعرف شيئاً عن الموضوع وأن السلطان بدر موجود خارج المدينة وعودته متوقعة خلال أيام قلائل ، ثم أرسل معهم هدايا إلى قائد الأسطول ، وفي اليوم نفسه أمر برحيل النساء والأطفال والشيوخ من المدينة ثم أرسل له القائد البرتغالي رسالة ثانية طالب فيها إعادة أموال المتوفى كما أعاد الهدايا التي أرسلها له ، فقام مطران بعقد اجتماع مع أعيان المدينة ووضعوا خطة للدفاع عنها في حالة الهجوم كما أرسلوا وفداً لمفاوضة القائد البرتغالي . إلا أن البرتغاليين قاموا بالهجوم في صبيحة اليوم التالي فأحرقوا

(١٢) محمد عبدالقادر بامطرف - الشهداء السبعة - ص ٧٧ .

سفناً كانت في الميناء ثم اشتبكوا مع الأهالي وتوغلوا في مناطق تقع في قلب المدينة في أحياء (باذيب) و(حافة بالحاج) و(حافة المحضار) ، ودارت معركة دامية في ساحة (القبان) قتل فيها سبعة وثلاثون برتغالياً وهندياً وما يقارب من ثمانين رجلاً من أهالي الشحر بينهم سبعة من أبناء الجالية الهندوكية الذين اشتركوا في المعركة إلى جانب الأهالي ، وقتل من أعيان المدينة الفقيه يعقوب الحريضي والشيخ حسين العيدروس والشيخ فضل بن رضوان با أفضل والشيخ أحمد بن عبدالله بالحاج ، وانسحب البرتغاليون عند منتصف الليل بعد أن قطعوا الماء عن المدينة ، وفي فجر يوم السبت عاودوا الهجوم حيث ركزوا على حارة (الحور) وأضرموا النار فيها وقتلوا الفقيه أحمد بن رضوان با أفضل ومثلوا بجثته ، وقاموا بعد ذلك بصب الزيت على المناطق المجاورة لمسجد المدينة واحرقوها ثم اتجهوا نحو ميدان المدينة لحرقه فتصدى لهم الأمير مطران لكن رصاصة طائشة أصابته في جبينه فخر شهيداً ثم قام البرتغاليون وكالعادة بنهب المدينة الجريحة وانسحبوا إلى سفنهم .

قام الأهالي بدفن جثث الشهداء ، أما جثث القادة فإن ستاً منها من ضمنها جثة الأمير مطران دفنوها في قبر واحد ، وهو القبر الذي أُطلق عليه اسم (قبر السبعة) ، إذ إن جثة الشهيد السابع وهو الشيخ أحمد بن عبدالله بلحاج با أفضل دُفنت قريباً منهم ، ثم قام أهل المدينة بإحصاء القتلى فوجدوهم سبعمائة وأحد عشر قتيلاً بينهم ثمانية وخمسون من الصومال والهندوكيين ، وكان عدد المنازل التي تخربت ثلاثمائة وعشرين داراً وكوخاً ، وسبعمائة وأربعين دكاناً واثنتين وثلاثين معصرة زيت[١٣] .

لذلك وأمام كل تلك المصائب التي حلت باليمن لم يبق خيار عند حاكم عدن الجديد ، إلا أن يوقع على معاهدة سلام مع البرتغاليين ، وقد وقع هذا الحادث عندما أوفد حاكم الهند الجديد (فاسكو دي غاما) القائد البرتغالي (هايتور دي سلفيرا HEYTOR DE SILEVEIRA) على رأس حملة لمقاتلة السفن العربية في البحر الأحمر

(١٣) محمد عبدالقادر بامطرف – الشهداء السبعة – ص ٩٣ إلى ١٠٤ . وكذلك SERJENT – المصدر نفسه – نقلاً عن تاريخ الشحري – ص ٥٢

واليمن ، فغادرها ومعه سبعمائة جندي برتغالي في الشهر الأول من عام ١٥٢٤م ووصل إلى عدن ، وهناك التقى بحاكم المدينة الجريحة بل اليمن الجريح كله من سوء تصرفات المدافعين عنه أو دعاة الدفاع عن عروبته وإسلامه ، والذين جروه إلى كل تلك المذابح والقتول ، بحيث لم يبق أمام حاكم عدن الأمير عبدالملك بن محمد الطاهري من خيار وهو يراقب الأسطول البرتغالي وقد وجه مدافعه نحو المدينة إلا أن يفتح أبوابها ويعقد معاهدة صلح مع (دي سلفيرا)[١٤] .

وكان من جملة شروط المعاهدة أن يقوم حاكم عدن بدفع ضريبة للتاج البرتغالي مقدارها ألفا أشرفي ذهب ، وأن يفتح ميناء المدينة للسفن البرتغالية ، وأن يقيم في البلدة ممثل برتغالي بصورة دائمة .

وبعد أن تم توقيع المعاهدة بين الطرفين غادر (دي سلفيرا) المدينة متجهاً نحو مصوع فوصلها في شهر آذار ثم عاد إلى عدن فوصلها في شهر إبريل ثم رجع إلى الهند وقابل فاسكو دي غاما وسلمه نسخة من المعاهدة التي عقدها مع حاكم عدن ، إلا أن دي غاما لم يكن راضياً عن تلك المعاهدة إذ قال عنها إنه يعتقد أن حاكم عدن قد خدعه بتلك المعاهدة حيث إنه وقعها لغرض عدم قيام البرتغاليين بحرق سفنه في الميناء وأن حاكم عدن سوف لن يكف عن التحرش بالسفن البرتغالية أو توابعها متى ما سنحت له الفرصة .

وبالفعل فقد وصلت اليهم أخبار فيما بعد أن سفينة هندية من سيلان على ظهرها بحارة يعملون لحساب البرتغاليين قد تم حجزها في ميناء عدن . وبقيت الأمور علي تلك الشاكلة إلى أن مات فاسكو دي غاما يوم ٢٤/ ١٢/ ١٥٢٤م فخلفه مؤقتاً المدعو (لوبو فاز دي سامبايو LOPO VAZ DE SAMPAYO) وقد سببت وفاة دي غاما نشاطاً عند الحكام الهنود المسلمين الذي تحركوا لضرب البرتغاليين إلا أن لوبوفاز كان أسرع منهم حيث جهز حملة لقتالهم . وفي تلك الأثناء أصدر ملك البرتغال أمره بإعادة

(١٤) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٣٦٩ .

تعيين (دوم هنريك دي منزيس DOM HENRIQUE DE MENEZES) حاكماً على الهند ، فأصدر هذا أوامره إلى القائد (هايتور سلفيرا) الذي وقع معاهدة الصلح مع حاكم عدن ، أن يتجه إلى هرمز ومنها إلى منطقة (ظفار) ليقوم بتدميرها ، لأن ثورة قامت فيها ، فقام سلفيرا بالواجب ودمر المدينة .

علماً بأن مؤرخي عُمان لم يتطرقوا إلى هذا الحادث . أما مؤرخو اليمن فقد ذكروا في حوادث جمادى الأولى ٩٣١هـ - ١٥٢٤م أن (الفرنج) أي البرتغاليين هاجموا مدينة قصيعر وأحرقوا عدداً من سفن الأهالي الراسية هناك وأسروا بعض بحارتها ، ثم ذهب (سلفيرا) إلى مصوع ودهلك ، واستلم ضريبة أهلها ، ثم التقى بالمدعو (دي ليما) وهو البرتغالي الذي كان يفاوض ملك الحبشة وعاد به إلى الهند ، وفي الهند مات نائب الملك (دوم هنريك دي منزيس) بتاريخ ٢١/ ٢/ ١٥٢٦م ، فتم تعيين (لوبو فاز دي سامبايو) حاكماً هناك(١٥) .

* * *

أما عن الأحوال في العلاقات الحبشية - البرتغالية آنذاك فقد كانت هناك محادثات (دي ليما) الذي رافق ماثيوس السفير الحبشي إلى الحبشة في حملة (لوبو سوريز) عام ١٥١٦م . ففي الاجتماع الذي تم عقده عام ١٥٢٠ بين (دي ليما) البرتغالي والملك الحبشي (LEBNA DON GEL) ويسمى أيضاً (داود الثاني DAVID II) ، وكان ملك الحبشة يلبس تاجاً من الذهب وبيده صليب من الفضة ، فحمد الله لأنه استطاع أن يحقق ما عجز عنه أسلافه ، وألح في أن يسارع ملك البرتغال في بناء قلاع في (مصوّع) و(سواكن) و(زيلع) ، وأبدى تخوفه من نشاط العثمانيين في البحر الأحمر خاصة بعد سقوط مصر بيدهم ، وأكد بإلحاح على أن يقوم ملك البرتغال باحتلال مدينة (زيلع) الصومالية قائلاً إنها أفضل مكان لتموين الأساطيل البرتغالية وإنها تمون الساحل الشرقي للبحر الأحمر من عدن حتى جدة ثم مكة وإن بناء هذه القلاع سوف يهدد مراكز العثمانيين في البحر وكذلك يهدد المراكز الإسلامية

(١٥) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٣٧٦ - ٣٧٨ .

المقدسة ، كما اقترح أن تقوم فرنسا أو اسبانيا باحتلال مدينة (سواكن) السودانية ، وكأن الملك الحبشي يريد جعل المسألة مشكلة دولية أو إثارة حرب صليبية في البحر الأحمر ، لذلك فقد بادر بالكتابة إلى البابا يحثه على أن يبارك هذا التحالف المسيحي ضد الدول الإسلامية(١٦) .

أما على صعيد الوضع السياسي في إيران فقد توفى الشاه إسماعيل الصفوي مؤسس الدولة الصفوية عام ١٥٢٤م فخلفه ابنه الشاه طهماسب الأول ، وكان صبياً في العاشرة من عمره ، فلم يتمكن وهو في هذه السن من السيطرة على البلاد ، فوقعت إيران في سلسلة من المنازعات السياسية على الحكم ، مما أضعفها جداً ، فصار التواجد البرتغالي في هرمز وجنوب إيران أمراً راسخاً ، بحيث عزز سيطرتهم على الأجزاء العربية من الخليج خاصة عُمان ، لذلك لم يبق في الميدان إلا العثمانيون الذين استولوا على مصر والشام وشمالي العراق وصاروا يتمتعون بسيادة عسكرية بحرية لا منافس لها داخل البحر الأحمر ، إلا أنه ولحد ذلك التاريخ فإنهم كانوا ضعفاء تجاه القدرات والإمكانيات البحرية المتوفرة للبرتغاليين في الخليج العربي ، لكن المواجهة بين الطرفين كانت الحل الوحيد الذي يعقد عليه أهل اليمن وأهل الخليج العربي آمالهم في انقاذهم من قبضة البرتغاليين التي تفاقمت جداً آنذاك .

(١٦) د . محمد عبداللطيف البحراوي – فتح العثمانيين لعدن – ص ٦٩ .

25

الفصل الخامس والعشرون

* حاكم الهند (لوبو فازدي سامبايو) يدمر مدينتي مسقط وقلهات العُمانيتين .
* ثورة جديدة في البحرين عام ١٥٢٩ ومصرع قائد الحملة البرتغالية .
* (نانو دي كونها) يصبح حاكماً عاماً على الهند .
* معاهدة جديدة بين حاكم عدن والبرتغاليين .
* السلطان العثماني سليمان القانوني يصدر أوامره إلى والي مصر سليمان باشا الخادم بتهيئة حملة لاحتلال اليمن ثم الذهاب إلى الهند لقتال البرتغاليين .

تَسَنَّمَ (لوبو فاز دي سامبايو LOPO VAZ DE SAMPAYO) منصب حاكم الهند في ٢١/ ٢/ ١٥٢٦م كما بينا ذلك في الفصل السابق ، فقام بإجراء تغييرات في المناصب القيادية في المدن والقواعد العسكرية البرتغالية الموجودة في الهند ، ولما اطمأن إلى استقرار الأوضاع هناك وفي بقية المستعمرات البرتغالية الموجودة في الملايو وسومطرة والصين جهز حملة قادها بنفسه للقضاء على ثورة عربية قامت ضد البرتغاليين في عُمان .

وكالعادة فإن مصادر التاريخ العُماني لا تذكر شيئاً بالمرة عن حدوث ثورة كهذه ؛ لذلك فلا مصدر لدينا عنها إلا المصادر البرتغالية التي نستقي منها هذه الأخبار .

أبحر (لوبو فاز) بخمس سفن عليها ثلاثمائة جندي متوجهاً نحو هرمز ، وقبل أن يصل إلى هناك ، توقف أمام مدينتي قلهات ومسقط العُمانيتين وقام بتدميرهما جزءاً

لأهلها الذين قاموا بثورة ضد سلطة الحاكم البرتغالي في هرمز وهو (دييكو دي ميلو DIOGO DE MELLO) الذي فرض ضرائب باهضة على أهل عُمان فثاروا ضده .

ولما تم له تدمير المدينتين توجه نحو هرمز ، وهناك علم بأن سبب ثورة أهل عُمان كان سوء تصرف المدعو (ريس شرفو أو رضا شرفو RAEZ XARAF) والذي يبدو من اسمه أنه هرمزي يمثل سلطة الحاكم البرتغالي في عُمان . فقام بجمع الإثنين ، البرتغالي والإيراني وسوّى الخلاف الذي نشب بينهما بشأن تحديد المسؤولية في سبب ثورة أهل عُمان . وفي هرمز أيضاً التقى بالمدعو دي ليما وهو السفير البرتغالي الذي كان يفاوض ملك الحبشة ، فأخبره هذا بموضوع النشاطات العسكرية العثمانية في البحر الأحمر واليمن ، وقرر الإثنان أن يبحثا هذا الموضوع عند عودتهما إلى الهند .

وفي الهند عقد لوبو فاز اجتماعات مكثفة مع دي ليما وحصل منه على معلومات أدق عن الأسطول التركي داخل البحر الأحمر ، كما أن دي ليما أخبره أن ملك الحبشة يرغب في التعاون لأقصى الحدود وأنه بعث بيده رسالة إلى الملك دون جوان ورسالة ثانية إلى البابا كليمنت الذي بارك تلك الجهود ، كما أعلمه أن القاعدة البحرية للأسطول التركي في البحر الأحمر تقع في جزيرة كَمَرانْ اليمانية . فقرر لوبو فاز تجهيز حملة عسكرية تذهب إلى هناك لتدمير الأسطول والقاعدة العثمانية . كما قرر أن يكون عام ١٥٢٨م ، عاماً يدمر فيه كل القوى الإسلامية التي تقف بوجهه سواء في بلاد الهند أو في بلاد العرب[1] .

وعلى هذا الأساس فقد قام في شهر يناير (كانون الثاني) ١٥٢٨م بتجهيز حملة أودع قيادتها إلى (أنطونيو دي ميراندا دي أزيفيدو ANTONIO DE MIRANDA DE AZEVEDO) لتذهب لقتال الأسطول العثماني في جزيرة كمران في البحر الأحمر . وتكونت الحملة من عشرين سفينة حربية على متنها ألف جندي ، إلا أنها فشلت في الوصول إلى كمران بسبب هبوب الريح

(١) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٣٨٠ - ٣٨١ .

المعاكسة عليها ، لذلك فقد راح قائدها يتصيد السفن العربية خارج المضيق ويقضي عليها هناك .

هنا يجب أن نتوقف قليلاً أمام هذه النقطة وهي نقطة الادعاءات البرتغالية عن قصة الرياح التي تمنعهم من التوغل إلى داخل البحر الأحمر ، وهو ادعاء قد يكون حقيقياً إلا أنه لا يمكن أن يحدث كل مرة ، فيكون على الأغلب هو أن هؤلاء القادة الذين يحاولون الدخول إلى البحر يصيبهم الرعب والخوف من الولوج في متاهاته وأن اقترابهم من المقدسات الإسلامية قد يثير عليهم العالم الإسلامي كله ، فيتخذون من قصة العواصف البحرية ذريعة يتذرعون بها لتغطية فشلهم .

لذلك فإنهم يقومون بصب نقمتهم على السفن المدنيَّة المسالمة خاصة سفن أهل اليمن ، فيوقفونها ويسلبونها ويقتلون أهلها ثم يحرقونها . إذ يذكر لنا المؤرخون اليمانيون أنه في عام ٩٣٢هـ - ١٥٢٥م ، اعترض البرتغاليون خمس سفن وأحرقوها ، وفي العام التالي هاجموا السفن الموجودة في (المكلا) وأحرقوها وفي عام ١٥٢٧م أحرقوا أربع عشرة سفينة لأهل (الحامي) وفي عام ١٥٢٨م هاجموا سفن الشحر ثانية[٢] .

وعندما كانت تلك الأحداث تدور فقد حدث تغيير في القيادة السياسية في الهند . ففي شهر نوفمبر من عام ١٥٢٩م وصلها نائبٌ جديد لملك البرتغال وهو (نانو دي كونها NUNO DA CUNHA) فكان أول ما فعله هو أنه قام باعتقال الحاكم السابق (لوبو فاز) ووجه اليه تهمة التلاعب بأموال الدولة واستخدامها لمصلحته الخاصة ثم أرسله مخفوراً إلى لشبونة .

لكن قصة هذا الحاكم الجديد ووصوله المفاجىء إلى الهند واعتقاله سلفه لم تحدث هكذا صدفةً ، بل إن أولياتها بدأت في هرمز ، ذلك أنه غادر لشبونة في ابريل في عام ١٥٢٨م وتوقف في السواحل الأفريقية واشتبك مع حاكم ممباسه الذي رفض أن

---

(٢) بامطرف - المصدر نفسه - ص ١٠١ وكذلك SERJENT - المصدر نفسه - ص ٥٥ .

يستقبله ، ثم وصل في شهر مايو من عام ١٥٢٩م إلى هرمز ودخل المدينة وأعلن للناس أنه موجود للاستماع إلى الشكاوي التي لديهم ضد السلطات البرتغالية ، وقام باعتقال (رضا شرفو) أو (ريس شرفو) ووجه إليه تهمة سلب أموال الناس وقتلهم وأرسله مخفوراً إلى لشبونة . وفي خلال وجوده علم أن ثورة قد قامت في البحرين ، وفي تلك الآونة أيضاً وصلت إلى هرمز قوة برتغالية بقيادة (تافاريز دي سوزا BELCHIOR TAVAREZ DE SOUSA) وكانت قد عادت من البصرة حيث قامت بمعاونة حاكم البصرة ضد خصمه حاكم الجزيرة ، فطلب (دي كونها) الاجتماع بالقائد (دي سوزا) لمعرفة الأوضاع في كلٍ من البحرين والبصرة فقام (دي سوزا) بشرح الموقف هناك[٣] .

ومن المفيد أن نقوم بإيضاح الموقف في البحرين والبصرة ببعض الإسهاب لفائدة القارىء عما كان يحدث يومذاك من أمورٍ خطيرة هناك .

ففي البحرين وبعد مصرع الأمير مقرن بن أجود بن زامل عام ١٥٢١م ، فإن أمر ساحل القطيف آل إلى الأمير ناصر بن محمد بن أجود بن زامل الجبري ، فَمَلكَ هذا نحو ثلاث سنين ، وتنازل بعدها للأمير قطن بن علي بن هلال بن زامل ، وحكم هذا نحو سنة ثم مات ليخلفه ابنه الذي تنازل عن الحكم لقضيب بن زامل بن هلال فحكم هذا نحو سبعة أشهر ، حين اندلعت الحرب بينه وبين الأمير راشد بن مغامس أمير البصرة ، فانتصر راشد وزال حكم الجبور من البحرين والقطيف والأحساء[٤] .

أما البصرة ، فتقول عنها المصادر القليلة والشحيحة التي لدينا إن أمرها آل إلى الأمير راشد بن مغامس المسمى سلطان الشرق ، وقيل إن اسمه الكامل راشد بن مغامس بن صقر بن سلطان ، وهو أمير من أمراء آل عليان في المنتفق في العراق ، وكان هذا على نزاعٍ مع إمارة صغيرة تقع إلى شرق البصرة هي إمارة آل مشعشع التي يمتدُ ملكها إلى الأحواز وعربستان فِي إيران ، وفي شمالي البصرة تقع إمارة آل عليان التي منها الأمير

(٣) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٣٩٧ .

(٤) الدكتور علي أبا حسين - الجبور عرب البحرين - المصدر نفسه - ص ٩٨ . وكذلك محمد سعيد المسلم - ساحل الذهب الأسود - ص ١٧٠

راشد بن مغامس . ومن الطبيعي أن تكون البصرة قد شهدت انحساراً في تجارتها بعد أن سيطر البرتغاليون على مدخل الخليج العربي وجنوب فارس ، واشتد الأمر عندما تقدم النفوذ العثماني في العراق ، لذا اقتضت مصلحة الصفويين في فارس أن يتحالفوا مع البرتغاليين لمجابهة العثمانيين ، فقام العثمانيون بملاحقة التجار الذين يتعاملون مع العراق الصفوي ، فانعدمت التجارة بين العراق وفارس ،وصارت البصرة مدينة مقفرة(٥) ، وعلى كل حال فإن المطّلِع على الوضعية السياسية التي كانت تحيط بالبصرة لا بد وأن يصل إلى نتيجة وهي أنَ الأمير راشد بن مغامس كان محاطاً بثلاث قوى دولية ، وكان عليه أن يختار التحالف مع أحداها ، فالعثمانيون الذين دوخوا أوربا بانتصاراتهم موجودون في شمالي العراق وهم قادرون على دخول بغداد متى شاؤوا ، إلا أنهم ولحد التاريخ الذي نحن بصدده لم يدخلوها ، وإلى جواره تقع مملكة الصفويين الفارسية المتعاونة مع البرتغاليين . أما البرتغاليون الذين أصبحوا كما وصفوا أنفسهم « قد زرعوا البحار بغابات من سفنهم » فإنهم صاروا سادة يتحكمون في الخليج العربي ، لذلك فإن راشد بن مغامس هادنهم ، بل تعاون معهم في سبيل القضاء على خصومه المجاورين(٦) .

وبالتأكيد فإن سلطة ابن مغامس هذا ، لم تكن واردة على جزيرة البحرين أو حتى على سواحل القطيف والأحساء ، لأن هذه المناطق كانت تحت سيطرة حكومة هرمز التي كانت بدورها تحت سيطرة البرتغاليين ، لذلك فإن وجود الضابط البرتغالي (تافاريز دي سوزا) وقوته البحرية في البصرة كان لمساعدة ملكها أي راشد بن مغامس ضد حاكم الجزيرة ، وذلك حسبما ذكرته المصادر البرتغالية ، وقد زامن وجود القوة البرتغالية في البصرة ، حدوث ثورة في البحرين ، ونحن لا نرى إن كانت هناك علاقة بين ما كان يجري في البصرة وما كان يجري في البحرين ، فثورة البحرين وكما يبدو من ملامحها ، ثورة عربية ضد السلطات الهرمزية المتعاونة مع البرتغاليين .

---

(٥) عماد أحمد الجواهري – الدور التاريخي للبصرة على الخليج العربي – مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية – العدد ١٣ .

(٦) جعفر خياط – صور من تاريخ العراق في العصور المظلمة – ص ٣٣ .

واستمراراً للقصة البرتغالية بمساعدة (ملك البصرة) ضد خصومه ، فإن تقرير القائد البرتغالي قال إنه شاهد عدداً من السفن التركية هناك وقام بحرق اثنتين منها .

وفي رواية أخرى عن التدخل البرتغالي في أمور البصرة تقول إن الأمير راشد بن مغامس كان حاكماً على المدينة وتابعاً تبعية اسمية إلى شاه إيران ، وقد وقف ضده زعيم قبلي عراقي آخر ذكرته المصادر البرتغالية باسم (رئيس الجزائر) ، والجزائر منطقة تقع حوالي مدينة القرنه حيث يلتقي دجلة بالفرات ، فطلب راشد النجدة من حاكم هرمز البرتغالي فأرسل له هذا سفينتين وأربعين جندياً يقودهم (تافاريز دي سوزا) ، فقام دي سوزا هذا بإنهاء الخصومة بين راشد وحاكم الجزائر ، وطلب من راشد أن يسلمه ست سفن من نوع (فستا) مسلحة تسليحاً جيداً ومعها خمسون جندياً (رومياً) ، وعندما رفض راشد تلبية الطلب أحرق الضابط البرتغالي المستوطنات الواقعة على الساحل وانسحب إلى هرمز[٧] .

أما ماذا حدث في البحرين ولماذا كانت الثورة ومن هو قائدها . .؟ فهذا ما لم تحدثنا عنه المصادر العربية ، كما أن المصادر البرتغالية مرت عليه مروراً سريعاً ، فقد قالوا إن سبب الثورة هو أن حاكم البحرين الذي تسميه الوثائق البرتغالية (ريس بربياردين) ولعل الاسم الصحيح هو (بدر الدين) قد امتنع عن دفع الضريبة ذلك العام ، حيث إن (شرف الدين) حاكم هرمز قد رفعها من عشرة آلاف أشرفي إلى ستين ألفاً . وبناءً على تلك الأوضاع ، فقد أمر (دي كونها) بتجهيز حملة مكونة من خمس سفن حربية عليها أربعمائة جندي ووضع على قيادتها أخاه المدعو (سيمو دي كونها SIMAO DE CONHA) ، لتذهب لقتال أهل البحرين أما قوة أهل البحرين فقد قيل إنها كانت ثمانمائة مقاتل[٨] .

وعندما وصل دي كونها أمام الجزيرة ، فتح نيران مدافعه على القلعة التي كان يعتصم بها الثوار ، وظل يرميها بالمدافع إلى أن استهلك نصف مخزونه من البارود ،

---

(٧) صالح أوزبران – الأتراك العثمانيون في الخليج العربي – ص ٢٤ .

(٨) نونو بي سلفا – صفحات من الغزو البرتغالي للبحرين – المصدر نفسه – ص ١٢٨ .

ثم أمر جنوده بالنزول إلى الشاطىء وأنزل معه مدافعه وراح يُصلي القلعة بنيرانه الحامية حتى أوشك البارود أن ينفذ عنده وحينذاك اجتمع مع قادته ليقرروا ما إذا كانوا سيهجمون ويقتحمون القلعة بتسلق جدرانها أم يرسلون في طلب النجدة من هرمز ، واتفقوا على عدم الهجوم بل إرسال سفينة إلى هرمز لتأتي لهم بمدد من هناك ، لكن المدد لم يصلهم إلا بعد ستة عشر يوماً ، أنزل الله وباء وحمى بالقوة المهاجمة قتلت كل جنودها ما عدا خمسين جندياً ، إلى أن وصلت سفينة النجدة والإمداد . وبناءً على ذلك فقد قرر سيمو دي كونها العودة بما كان يتيسر له من قوة إلى هرمز فرفع أشرعة سفنه متجهاً نحو هرمز ، إلا أن الأقدار كانت له بالمرصاد أيضاً إذ سرعان ما هبت عواصف عليه دفعت بسفنه إلى عرض الخليج وانقلبت سفينته وابتلعته الأمواج ، ولم ينجُ من سفن الحملة إلا سفينة واحدة وصلت إلى هرمز لتنقل لهم نبأ الفاجعة التي حلت بالقوة البرتغالية المهاجمة(٩) .

وبعدها غادر نانو دي كونها هرمز ووصل إلى الهند لاستلام منصبه كحاكم عام للهند ، وكان ذلك في شهر نوفمبر ١٥٢٩م ، وبعد أن استقر به المقام ، وعلى عادة كل الحكام البرتغاليين ، فقد أمر بتجهيز ثلاثة أساطيل تخرج إلى ثلاثة أماكن مختلفة لغرض فرض السيطرة البرتغالية وجباية الضرائب فكانت عدن من نصيب (هايتور دي سلفيرا HEYTOR DE SILVERA ، الذي وصل بسفنه أمامها في شهر شباط ١٥٣٠م ، وعندما شعر حاكم عدن وقد كان يومذاك السلطان عامر بن داوود الطاهري ، بأن هناك سفناً برتغالية في الميناء ، فإنه أرسل وفداً يحمل علماً أبيض للترحيب بهم ، ولما قابل الوفد دي سلفيرا ، أخبرهم هذا بأنه لا يقبل صداقة الحاكم لأن الحاكم السابق قد نقض المعاهدة التي وقعها معه .

ولما اجتمع السلطان عامر بدي سلفيرا أجبره هذا على التوقيع على معاهدة جديدة كرر فيها السلطان خضوعه لملك البرتغال ، كما وافق على دفع مبلغ عشرة آلاف

---

(٩) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٣٩٧ . وكذلك أحمد العناني - المصدر نفسه - ص ٩٩ .

أشرفي ذهب كضريبة سنوية ، على أن يقوم بدفع ألف وخمسمائة منها نقداً وفوراً لغرض صنع التاج الذهبي المزمع تقديمه لملك البرتغال بمناسبة عيد جلوسه ، كما وافق (دي سلفيرا) للسفن اليمانية أن تتجول في البحر بشرط ألاّ تدخل إلى البحر الأحمر ومنعها من الذهاب إلى مكة كما قام هذا بتوقيع معاهدة مماثلة مع حاكم الشحر(١٠) .

* * *

ولكي نعرف الدوافع التي دفعت بحاكم عدن الجديد للتوقيع على المعاهدة مع البرتغاليين لا بد أن نعود قليلاً إلى الوراء أيضاً لنرى ماذا كان يجري في الساحة السياسية الداخلية في اليمن المضطرب آنذاك .

ذكرنا في الفصل السابق أن حاكم جدة الأمير حسين بك قد جهز حملة بحرية قادها بنفسه ومعه (سليمان العثماني) أو (سلمان ريس) وهو اسم قائد الأسطول العثماني في جدة وذهبا ليقرا النظام في اليمن ولكن بدون جدوى ، مما حدا بحسين بك أن يرسل سليمان العثماني إلى القاهرة يطلب النجدة من رئيس وزراء تركيا الذي كان موجوداً هناك آنذاك ، ثم إنه عاد فأرسل سليمان العثماني إلى اليمن ثانية ليقر النظام فيها وكان ذلك في عام ١٥٢٧ .

ويبدو أن سليمان العثماني أو سلمان ريس كما يُذكَرُ اسمه أحياناً عندما وصل إلى اليمن ثانية اصطدم بأحد أمراء الكتائب المنشقين واسمه مصطفى الرومي ، فانصرم عام ١٥٢٧م كله في قتال بين الكتائب المؤيدة لسليمان العثماني والكتائب المؤيدة لمصطفى الرومي ، وقد تمّكن سليمان من القضاء على مصطفى الرومي فانفرد بالسلطة في اليمن ، وصادف أثناء ذلك أن وافق الصدر الأعظم التركي على أن يوفد حملة عسكرية جديدة إلى اليمن لإقرار النظام هناك ولمقاتلة البرتغاليين ، فأمر بتجهيز حملة مكونة من عشرين سفينة حربية على ظهرها أربعة آلاف جندي بقيادة القائد التركي الأمير خير الدين حمزة بك ، ولما وصلت هذه الحملة إلى اليمن فإن قائدها

---

(١٠) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٤٠٠ .

الأمير خير الدين حمزة اصطدم بسليمان الذي كان يتمتع آنذاك بسلطة مطلقة في اليمن ، وأدى عدم التفاهم بين الرجلين لأن يقوم خير الدين حمزه بك بالتآمر على سليمان فاغتاله في أواخر عام ١٥٢٨م - ٩٣٤هـ . إلا أن مقتل سليمان لم يُنه التسيب والفوضى في اليمن ، ذلك أن أحد قواد الكتائب واسمه (مصطفى بيرام) الذي كان يمت بصلة القرابة إلى القائد سلمان ريس قرر أن يثأر له ، ففي أواسط عام ١٥٢٩م أعلن مصطفى بيرام العصيان ضد سلطة خير الدين بك ، وانضم إلى صفوف الثائر قائد الاسطول المسمى (خواجه صفر) ، وفي الصدام المسلح الذي وقع بين الطرفين تمكن مصطفى بيرام من قتل خير الدين بك ، فلما تم له ذلك قرر أن يهرب من اليمن خوفاً من انتقام السلطان العثماني ، فَسَلَّم قيادة القوة إلى أحد الضباط واسمه (علي الرومي) ، أما هو فقد أخذ معه الخواجة صفر وبعض خاصة سليمان وحرسه الخاص ، وتوجه إلى جزيرة كمران وادعى بأنه ينوي الإقامة هناك ، إلا أنه شحن سفنه هناك بما يكفيه من مؤونه وزاد وهرب ومعه الخواجة صفر إلى الهند ، حيث لجأ عند السلطان (بهادر شاه) حاكم منطقة (كجرات) الذي استقبله وأكرم وفادته . لكن مسلسل الانقلابات العسكرية والاغتيالات الشخصية التي عمت القوات المملوكية أو العثمانية القادمة من مصر ، لم تنته ، ذلك أن قيادة علي الرومي للوحدات العسكرية لم تطل كثيراً إذ قام أحد ضباط جيشه واسمه (اسكندر موز) بانقلاب أطاح به وألقى القبض عليه ، وأعدمه وتولى قيادة القوة الممزقة هناك[١١] .

تلك كانت الحالة داخل اليمن المضطرب ، فلا غرابة إذن أن يضطر حاكم عدن إلى تجديد المعاهدة مع البرتغاليين .

* * *

ولم تكن الأحوال في الهند آنذاك أحسن منها في البلاد العربية ، إذ قام بعض ملوك المقاطعات الإسلامية بمصالحة ومهادنة البرتغاليين وبدا وكأن الوحدة الإسلامية هناك قد أصيبت بضربة ، ولم يبقَ من حكام الهند من كان متحمساً لقتال البرتغاليين إلا

---

(١١) قطب الدين النهر والي - البرق اليماني في الفتح العُماني - ص ٥٥ . وكذلك الدكتور سيد مصطفى سالم - المصدر نفسه - ص ١٣٣ .

السلطان (بهادر شاه) حاكم منطقة (كجرات) . لكن هذا الحاكم كان يواجه خطرين وهما الخطر البرتغالي من البحر والخطر المغولي من البر ، لذا بدا أمام (بهادر شاه) أن الإنقاذ لا يتحقق إلا بمساعدة من الدولة الإسلامية العظمى وهي السلطنة العثمانية التي كان على رأسها السلطان سليمان القانوني .

لذلك فقد أرسل مبعوثاً من عنده قابل السلطان العثماني في أدرنه وشرح له الأوضاع العامة في الهند وبحر العرب والبلاد العربية التي وقعت تحت سيطرة البرتغاليين ، فوعده السلطان خيراً . وعندما كان الموفد الهندي يقابل السلطان العثماني ، حدثت أحداث غامضة في الهند ، إذ إن الضابطين مصطفى بيرم وخواجه صفر انحازا إلى البرتغاليين وقيل أيضاً إنهما انحازا إلى المغول الذين كانوا يهاجمون مملكة الكجرات ، وانتهى الأمر بأن اكتشف البرتغاليون أسرار الاتصالات التي أجراها بهادر شاه مع السلطان العثماني فتمكنوا من قتله غدراً في أوائل رمضان ٩٤٣هـ - ١٥٣٧م .

كان السلطان العثماني سليمان القانوني رجلاً قوياً وفاتحاً عظيماً ، شديد الحماسة للإسلام ، وشديد الرغبة في نشر لواء المذهب السني وشديد الحرص على سيادة العثمانيين على أوربا وكانت روحه العالية تجعله في حالة إقدام مستمر ، سار إلى المجر وفتح بلغراد عام ١٥٢١ وفي اكتوبر ١٥٣٠ حاول الدخول إلى فينا ، واستأنف القتال ضد فارس فاحتل بغداد عام ١٥٣٤ ، وكانت جيوشه تقاتل في ميادين مختلفة في أوربا وفارس وشمال أفريقيا علاوة على ميدان البحر الأحمر واليمن ، ولا شك أن فتح العثمانيين لبغداد عام ١٥٣٤ أدى إلى ازدياد اهتمام السلطان بالمعركة الدائرة مع البرتغاليين ، لأن فتح بغداد يعني أنه سيمتد بنفوذه حتماً إلى البصرة وسواحل الخليج العربي الشمالية ، فيصبح بذلك وجهاً لوجه أمام البرتغاليين هناك ، كما أنه سيواجه الحكام الفرس المتعاونين مع البرتغاليين في تلك المنطقة أيضاً .

وفي رواية أن راشد بن مغامس حاكم البصرة أرسل ابنه مانع ومعه مفتاح البصرة إلى

السلطان وكان بمعية الابن وفد مكونٌ من مشايخ الأحواز والقطيف والبحرين ليرحبوا بالفاتح العثماني عندما دخل بغداد .

هذا إلى جانب أن الاستحواذ على زعامة العالم الإسلامي كان شيئاً مقرراً في سياسة العثمانيين ، وكانت هذه الزعامة قد آلت إليهم في الشام والعراق ومصر والحجاز وشمال أفريقيا ، لذلك فقد أصبح فتح اليمن شيئاً ضرورياً لتحقيق الهيمنة الإسلامية التامة كما أصبح احتلال عدن يعتبر حجر الأساس للسياسة العثمانية في ذلك الجزء من الجزيرة العربية ، وقد هال العثمانيين وأقض مضجعهم ازدياد التحالف بين الأحباش والبرتغاليين ، وتدخلات البابوات لإثارة حرب صليبية هناك بغية الاستيلاء بالكامل على تجارة الشرق وتهديد الأماكن المقدسة الإسلامية وبالتالي إحداث انهيار في التوازن الدولي ، هذا إلى جانب أن تجارة مصر التي صارت بيد العثمانيين يومذاك كانت تقف على حافة الفقر المدقع ، لذلك ومع صيحات المسلمين في الهند وفي غيرها من الأماكن ، فقد رأى العثمانيون أن مساعدة تلك الدول يحقق غرضين مزدوجين ، فإلى جانب تحقيق زعامتهم على العالم الإسلامي فإنه سيساعدهم على القضاء على نفوذ البرتغاليين وانقاذ تجارة الشرق الغنية .

وعلى هذا الأساس أصدر السلطان سليمان القانوني أوامره إلى والي مصر سليمان باشا الخادم بتهئية حملة عسكرية تذهب إلى عدن لاحتلالها وتسيطر على اليمن سيطرة تامة تُنهي التمزق السائد فيه ، ثم تخرج بعدها إلى الهند لقتال البرتغاليين هناك .

26

الفصل السادس والعشرون

* إعداد وتنظيم الحملة العثمانية – المصرية إلى الهند بقيادة سليمان باشا الخادم.
* الحملة يقوم باحتلال عدن وإعدام السلطان عامر بن داوود الطاهري . وبداية الاحتلال العثماني لليمن عام ٩٤٥هـ – ١٥٣٨م.
* الحملة العثمانية – المصرية تهاجم مدينة (ديو) الهندية وتحاصرها .
* وصول نائب الملك البرتغالي الجديد (دون غارسيا دي نورونها) .
* القلعة البرتغالية في (ديو) توشك على السقوط، إلا أن سليمان باشا الخادم ينسحب فجأة من الهند .

في محرم سنة ٩٤٥هـ – يونية ١٥٣٨م تم تشكيل الحملة العثمانية – المصرية وأصبحت جاهزة للحركة ، وكان قوامها سبعين سفينة كبيرة وثلاثين سفينة أصغر حجماً وقيل أكثر أيضاً ، وكان عدد مقاتليها نحواً من عشرين ألف جندي من عرب مصر والشام بينهم سبعة آلاف جندي انكشاري ، وقد ذكرت المصادر البرتغالية تعداد سفن الحملة بالضبط كما جاء في المصادر العربية أما عدد جنودها فقدروه بسبعة آلاف مقاتل[(١)] .

وكانت السفن الكبيرة مجهزة بالمدفعية الثقيلة التي اشتهر بها الجيش التركي كما كانت السفن الأخرى مجهزة بالمكاحل أي قاذفات اللهب ، كما ضمت الحملة نخبة

(١) قطب الدين النهروالي – المصدر نفسه – ص ٧١ . وكذلك الدكتور السيد مصطفى سالم – المصدر نفسه – ص ١٤١ . وكذلك الدكتور محمد عبداللطيف البحراوي – المصدر نفسه – ص ١٥١ . وكذلك DANVERS – المصدر نفسه – ص ٤٢٦ .

جيدة من ضباط الأسطول والبحارة الذين اشتغلوا لفترة مع أمير البحر التركي الشهير خير الدين بارباروس في شمالي أفريقيا والبحر الأبيض المتوسط . وكان قائد الحملة هو والي مصر نفسه المعروف باسم سليمان باشا الخادم ويعرف أيضاً باسم (سليمان الخصي) وكان طاعناً في السن وقيل إنه قارب الثمانين بديناً إلى درجة أنه يحتاج إلى مساعدة أربعة رجال ليتمكن من النهوض ، وكان فتاكاً يميلُ إلى معالجة الأمور بالعنف حتى اتهمه البعض بقلة العقل ، وقد قام بقتل أحد الأمراء الذين خالفوه في الرأي وهو الأمير جانم الحمزاوي وولده يوسف ومثَّل بهما شر تمثيل ، وتذكر المصادر البرتغالية أنه أعدم مئتي عسكري ممن كانوا لا يطيعون الأوامر أو يقصرون في تنفيذها وذلك أثناء فترة التدريب والإعداد للحملة .

وفي أثناء الإعداد للحملة أرسل موفداً منه هو (الصوباشي فرحات) إلى حكام اليمن ليخبرهم بأمر الحملة التي ستأتي إليهم ويطلب منهم الدخول في طاعة السلطنة العثمانية ، وعندما وصل الصوباشي فرحات إلى عدن استقبله السلطان عامر بن داوود الطاهري ، إلا أن نتائج الاجتماع بين الرجلين لم تكن مشجعة إذ إن السلطان الذي اكتوى سابقاً بنار الحملات المصرية كان يريد ضمانات وإيضاحات أكثر عن طبيعة العلاقات المستقبلية بين اليمن والسلطة العثمانية ، فغادر الصوباشي عدن وهو غير راض عن السلطان . ثم ذهب إلى منطقة الشحر وقابل الأمير بدر الطويرق فأحسن هذا استقباله وأمر بعقد اجتماعٍ كبير في المسجد ، ثم أمر الفقهاء بقراءة رسالة سليمان باشا الخادم ، ووقف الجميع إجلالاً وإكباراً عندما كانت الرسالة تُتلى ، ثم قام الصوباشي بإلباس الأمير بدر البزة العسكرية التي أهداها له سليمان باشا ، وبعدها أمر بدر أن يُخطبَ في المساجد للسلطان سليمان القانوني .

ثم عاد الصوباشي إلى القاهرة ليبلغ سليمان باشا عن نتائج رحلته .

ومن الجدير بالذكر أن استسلام أمير الشحر بدر الطويرق للعثمانيين بسرعة ، كان نتيجة لمهادنته البرتغاليين بشكلٍ مطلق إذ كان واقعاً تحت عقدة الشعور بالعجز

أمامهم ، فكان يجاملهم ويسكت على تصرفاتهم ويتفادى شرهم ، كان البرتغاليون يترددون كثيراً إلى ميناء الشحر لغرض المتاجرة ، وكانوا أيضاً وفي مرات عديدة يقومون بقتل من يعترضهم من الأهالي هناك ، لذلك فقد ارتفعت أصوات النقد لمواقفه المخزية وصار الشعراء يهجونه لتخاذله أمام البرتغاليين بقصائد شعبية نقتطف منها ما يلي :

وين بتسودي الوجه والحربية　　　　حولك صفف وخزائنك مليانه

إلا أن الحالة تغيرت بعد وصول الصوباشي إلى الشحر ، فإن بدر الطويرق قام بإغلاق المتاجر البرتغالية وألقى بعمالها في السجن وجمع سفنهم وباعها في السوق ووزع أثمانها على المتضررين من الناس[٢] .

غادرت الحملة العثمانية – المصرية ميناء السويس ومرت بميناء جدة ثم توقفت في جزيرة كمران للتزود بالماء ، وفي خلال توقفها قام كل من السلطان عامر بن داوود الطاهري والإمام المنافس له مطهر بن شرف الدين الزيدي بالاتصال بسليمان باشا الخادم يطلب معاونته ضد الآخر ، فقد قيل إن الطاهري أرسل إلى سليمان باشا يستنصره على الإمام الزيدي ، كما قيل إن الزيدي اتصل بسليمان باشا لإثارته ضد الطاهري للتخلص منه بحجة أنه يساعد البرتغاليين .

ثم واصلت الحملة سيرها إلى عدن فوصلتها في ٧/ ربيع الأول/ ٩٤٥هـ أغسطس/ ١٥٣٨م ، وقام الحاكم السلطان عامر بإقامة الزينات ابتهاجاً بقدومها وهو يمنّي نفسه بلقاء قائدها والدخول معه في مفاوضات واتفاقيات تحدد للطرفين مجال العمل سوية ، وأمر بفتح أبواب المدينة وذلك عندما ألقت السفن مراسيها في الميناء ، كما كان السلطان ومعه ستة من كبار أتباعه يقفون في الميناء ثم تقدموا نحو سفينة القيادة وطلبوا الصعود إليها للترحيب بالباشا فسمح لهم بذلك ، وبينما كانوا يصعدون إلى السفينة لاحظوا أن أعداداً من الجنود المدججين بالسلاح بقيادة

---

(٢) محمد عبدالقادر بامطرف – المصدر نفسه – ص ١٢٠ .

الصوباشي فرحات قد دخلوا إلى المدينة ، وعندما التقى السلطان عامر بسليمان باشا قام هذا الأخير بالترحيب به ، وبينما كان الحديث دائراً بين الاثنين سمع السلطان أصوات طلقات نارية تأتي من جانب المدينة ، ثم لم تلبث أن تعالت أصوات الصراخ والهرج والمرج ، فعلم بأن سليمان باشا قد أوعز إلى الصوباشي أن يقوم باحتلال عدن ، وقبل أن يفيق السلطان عامر ومرافقوه الستة من دهشتهم كانوا قد رُبطوا بالحبال ، ثم وضعت الحبال في أعناقهم وأمر سليمان باشا بشنقهم على سارية سفينته ، وتم تنفيذ حكم الإعدام فيهم بهذه الصورة وبقيت جثثهم معلقة على سارية سفينة سليمان باشا الخادم لمدة ثلاثة أيام[٣] .

ثم قام سليمان باشا بإعلان سقوط الدولة الطاهرية في اليمن وقيام عهد جديد هو عهد الحكم العثماني هناك ، وأصدر أمراً أيضاً بتعيين القائد (بهرام بك) حاكماً عاماً على اليمن وترك معه كتيبة مكونة من خمسمائة جندي . وعلى إثر ذلك قام حاكم الشحر بإرسال أخيه إلى الباشا يعرض عليه الخضوع لحكمه ، أما مصير بقايا القوة المملوكية المصرية التي كان مقرها بلدة زبيد في اليمن الشمالية فقد انتهت إلى التمزق ولم يبق منها إلا ضابط واحد اسمه أحمد الناخوذة . ولما تم لسليمان باشا كل ذلك أمر سفنه بترك المياه اليمنية والتوجه إلى الهند لقتال البرتغاليين ، فأبحرت سفنه وسط موجة عارمة من الغضب والكراهية التي عمت أهل اليمن فقد كان لغدر سليمان باشا بعامر بن داوود أثر كبير في موقف مسلمي الهند من هذه الحملة كما سنرى ذلك فيما بعد .

وفي الهند وصلت أنباء تحرك الحملة العثمانية - المصرية إلى مسامع الخوجا صفر ، وهو الضابط المملوكي المصري الذي هرب من اليمن عام ١٥٢٩م إثر الاضطرابات التي سادت القطر آنذاك ولجأ عند بهادور شاه في الهند ، وعندما قُتل بهادور شاه هرب الخوجا إلى جهة مجهولة ، ثم لم يلبث أن قام باتصالات مع حاكم الهند العام

---

(٣) قطب الدين النهروالي - المصدر نفسه - ص ٨٠ . وكذلك الدكتور السيد مصطفى سالم - المصدر نفسه - ص=١٤٥ . وكذلك الدكتور محمد عبداللطيف البحراوي - المصدر نفسه - ص ١٥٤ . كما أن المصادر البرتغالية تشير إلى هذه الحادثة أيضاً .

(نونا دي كونها) وأظهر رغبة في التعاون مع البرتغاليين فوافق دي كونها على ذلك ، إلا أنه عاد فانقلب على البرتغاليين عندما علم بقرب وصول سليمان باشا ، وذهب إلى ملك منطقة كامباي الهندية وعرض عليه خدماته وأقنعه بضرورة العمل سوية للتعاون مع الحملة القادمة والتي ستتمكن من طرد البرتغاليين من الهند فوافق ملك كامباي على عرض الخوجا صفر وأمر بتجهيز وإعداد جيش قَدَّرتهُ المصادر البرتغالية بخمسة آلاف فارس وعشرة آلاف راجل .

كان حاكم ميناء (ديو) القائد البرتغالي (أنطونيو دي سلفيرا) قد وصلته معلومات عن قرب وصول الحملة العثمانية وكذلك عن النشاط الذي يقوم به الخوجا صفر وملك كامباي وكذلك السلطان محمود شاه حاكم منطقة الكجرات ، لذلك فقد أمر جنوده الموجودين في المدينة بالانسحاب والاعتصام بقلعة ديو ، أما هو فقد ذهب إلى (كوا) وقابل الحاكم العام وشرح له الأوضاع وطلب مساعدة عاجلة لمعالجة الموقف . وخلال وجوده هناك فإن الخوجا صفر ومحمود شاه داهما المدينة واحتلاها وحاصرا القوة البرتغالية الموجودة في الحصن .

وصل سليمان باشا إلى ميناء (ديو) وهناك أرسى سفنه لغرض الاستطلاع ودراسة الموقف فقام الخوجا صفر ومحمود شاه بإرسال الهدايا له وأخبراه بأنهما مستعدان لمعاونته في الهجوم على الحصن البرتغالي ، وقد حاول الخوجا صفر أن يذهب بنفسه لمقابلة الباشا إلا أن خاصته نصحوه بعدم الذهاب خوفاً من أن يقوم الباشا بإعدامه كما فعل بحاكم اليمن بتهمة التعاون مع البرتغاليين ، لذلك فقد قام محمود شاه بإرسال رئيس أركان جيشه المسمى (شودار) أي (حافظ شقي المملكة) لمقابلة سليمان باشا وابلاغه تحياته واستعداده للتعاون معه ، ولما قابل سليمان باشا هذا القائد احتقره ولم يأذن له بالجلوس فخرج القائد غاضباً وعاد إلى محمود شاه وأخبره بما جرى له مع الباشا(٤) .

---

(٤) النهر والي – المصدر نفسه – ص ١٤ .

وبعد ذلك أمر الباشا كتيبة مكونة من ستمائة جندي انكشاري بالنزول إلى الشاطىء ومهاجمة القلعة البرتغالية ، فقامت الكتيبة بالهجوم إلا أنها جوبهت بمقاومة عنيفة من المدافعين البرتغاليين وفقدت خمسين جندياً من جنودها مما أجبرها على العودة إلى السفن ، وعندما كان سليمان باشا يضع خطة جديدة لمهاجمة القلعة فإن رياحاً شديدة هبت على سفنه وأبعدت قسماً منها خارج الميناء كما أنها جعلت أمر الإنزال أو استعمال مدفعية السفن صعباً لذلك فقد أصدر أوامره إلى أسطوله بالحركة إلى ميناء يسمى (ماهاو) وهو قريب من (ديو) للتحشد هناك لحين سكون العاصفة .

استغل القائد البرتغالي (أنطونيو دي سلفيرا) تلك الظروف وتمكن من الوصول ومعه نجدة عسكرية إلى المدينة حيث شق طريقه إلى داخل الحصن المحاصر كما قام بإجراء تعزيزات دفاعية جديدة حول القلعة ، وعندما هدأت العاصفة شن الباشا هجوماً بمدفعية السفن على القلعة في ٢٨/ ٩/ ١٥٣٨م ، وأحدثت قذائفه أضراراً في القسم الذي كان يدافع عنه الضابط (فرانسسكو باجيكو) بينما غرقت له سفينة واحدة نتيجة القصف المقابل البرتغالي وعندما شدد الباشا هجومه على ذلك الجزء أرسل المدافعون طلباً إليه بأنهم سيخلون هذا الجزء ويتركون أسلحتهم فيه ويخرجون رافعي الأيدي بشرط أن يسمح لهم باللجوء إلى مبنى القلعة الرئيسية ، إلا أن سليمان باشا لم يوافق على ذلك بل أمرهم بالخروج ولما خرجوا اعتقلهم وسجنهم في سفنه ، ثم أرسل رسالة إلى دي سلفيرا ينصحه بالاستسلام ، إلا أن دي سلفيرا لم يوافق على ذلك فقام الباشا بصب نيران أكثف على القلعة وأوقع خسائر فادحة بالمدافعين البرتغاليين ، وإلى يوم ٦/ ١٠/ ١٥٣٨م كان القصف العثماني مستمراً على القلعة ، فيما راحت السفن تقترب أكثر من جدرانها . إلا أن الموقف تغير لصالح البرتغاليين عندما وصلت في اليوم الثاني سفينتان برتغاليتان حربيتان استطاعتا أن تبعدا بنيرانهم الأسطول التركي قليلاً ، غير أن الباشا عاود الهجوم بمدافعه بكثافة أشد من السابق مستخدماً قنابل زنة الواحدة ٩٠ باوند ، وكان عدد المدافع التي تقوم بالقصف (١٣٠) مدفعاً ، واستمر القصف لمدة عشرين يوماً متتالية بينما راح المشاة العثمانيون يهاجمون

القلعة ويوقعون خسائر فادحة بالمدافعين ، وانتشرت الأمراض بين البرتغاليين ، كما أن محاولات حاكم الهند لإرسال نجدات لهم كانت تفشل بسبب مقاومة العثمانيين لها ، ولما فشلت طلقات مدفعية الأتراك في إحداث ثغرات في جدران القلعة ، أمر الباشا قواته بحفر خنادق تحت حيطان القلعة ووضع البارود تحتها وتهديمها ، وخلال ذلك حاولت قوة بحرية برتغالية بقيادة (كاسبار دي سوزا) مهاجمة الاسطول العثماني إلا أنها فشلت وقتل قائدها .

أما موقف حاكم الهند (نونا دي كونها) من تلك الأحداث فقد هاله ما سمع من أنباء حصار (ديو) فأمر بحشد أسطول كبير للإبحار إلى (ديو) ومقاتلة العثمانيين هناك ، إلا أن الأمر تأخر بسبب وصول حاكم جديد للهند هو (دون غارسيا دي نورونها DOM GARCIA DE NORONHA) وتسنمه منصب نائب الملك هناك ، لكن هذا النائب الجديد لم ينفذ إجراءات (دي كونها) لانقاذ الحامية المحصورة في (ديو) والتي تناقص عدد جنودها إلى (٢٥٠) مقاتلا فقط ، لأنه علم أن جدران القلعة وحيطانها صمدت أمام مدفعية الباشا كما أن الباشا نفسه أصبح يدرك أن اقتحام القلعة أمر صعب لذلك فقد أمر بإنزال (١٥٠٠) مقاتلاً سراً إلى البر للصعود إلى جدران القلعة بدون إسناد مدفعي منه بل إنه استخدم الخدعة فأمر سفنه بالإنسحاب نحو البحر ليوحي للمدافعين بأنه غير عازم على محاربتهم ، لكن الخطة فشلت أيضاً ولم يتمكن المشاة العثمانيون من اقتحام القلعة ، إلا أنهم فتكوا بعدد كبير من البرتغاليين إذ تناقص عددهم إلى أربعين برتغالياً فقط وأوشك البارود على النفاذ وصار أمر الدفاع عنها مستحيلاً وبات سقوطها متوقعاً بين لحظة وأخرى .

لكن أمراً لم يكن في الحسبان قد حدث ، ذلك أن الباشا أمر قواته بالكف عن إطلاق النار والعودة إلى السفن ، ثم لم يلبث أن أصدر أوامره بالانسحاب والعودة إلى مصر ، فأقلعت السفن عائدة بتاريخ ٥/ ١١/١٥٣٨م .

فماذا حدث . .؟ ولماذا اتخذ الباشا هذا القرار . . ؟

اتفقت آراء المؤرخين البرتغاليين والعرب على أن الخوجا صفر الذي كان هو والأمراء الهنود يراقبون تلك المعارك ، قد قدروا بأن انتصار العثمانيين ودخولهم إلى الهند بقيادة سليمان باشا سيكون كارثة عليهم أشد وألعن من كارثة البرتغاليين ، لذلك فقد قام خوجا صفر بتزوير رسالة وكأنها مُرسلة من نائب الملك البرتغالي إلى قائد القلعة البرتغالية في ديو يخبره فيها بأنه قادم لنجدته بأسطول عظيم وجيش أعظم ، ثم قام بارسالها إلى سليمان باشا مدعياً بأن رسول نائب الملك البرتغالي وقع أسيراً بيده وأنه يرسل هذا الكتاب له للمعلومية ، لذلك فقد قرر الباشا أنه لا قبل له بمقاتلة هذا الحشد البرتغالي الجديد فانسحب عائداً إلى اليمن(٥) .

وهكذا انتهت الحملة التركية – المصرية وعاد الباشا إلى عدن وهناك أعلن أن اليمن جزءٌ لا يتجزأ من السلطة العثمانية وقام بتعيين مصطفى النشار باشا حاكماً عسكرياً عاماً على اليمن ، وقيل إنه سُمِّي بالنشار لأنه كان ينشر اللصوص وقطاع الطرق بالمنشار إلى نصفين عقاباً لهم . كما قام بتثبيت سُلطة الأمير بدر الطويرق لتشمل منطقة الشحر ومنطقة ظفار ، وألقى القبض على الضابط أحمد الناخوذة وهو آخر ضباط الحملة المملوكية وأعدمه ، ثم غادر اليمن ووصل إلى جدة وهناك أخرج الأسرى البرتغاليين وغيرهم وأمر باعدامهم ، ثم أخذ معه الرؤوس وتوجه إلى استانبول لمقابلة السلطان سليمان القانوني حتى يؤكد له أنه أدى واجبه في الهند .

وهكذا ورغم الاتهامات التي وجهت إلى سليمان باشا الخادم بأنه فشل في تحقيق الهدف الرئيسي من الحملة وهو تحطيم الجهاز العسكري البرتغالي في الهند بصورة نهائية ، إلا أن احتلاله لعدن أصبح سبباً للمحافظة على البحر الأحمر من احتمال اقتحام البرتغاليين له ، لكن هذا الاحتلال لم يؤثر في التواجد البرتغالي في عُمان والبحرين وبقية أجزاء الخليج العربي ، كما أن احتلال العثمانيين لبغداد واقترابهم من

(٥) DANVERS - المصدر نفسه – ص ٤٢٩ . ويقول النهروالي بهذا الصدد « لقد زود (خداوند خان) كتاباً بخط الأفرنجي من عند كبيرهم (ورندور) إلى كبير الأفرنج في (ديو) أنه قادم اليه بثلاثمائة سفينة غراب وخمسين سفينة برشه وأرسله إلى سليمان باشا وكان هذا خوّاراً خوافاً لم يعهد منه شجاعة واقدام وإنما كان يفتك بمن يقع بيده مأسوراً ، فركبه من ذلك خوف عظيم وتفرقت عساكره وترك المدافع الكبار وركب اشرعته وعاد إلى اليمن .

البصرة كان يجب أن يضع المراكز البرتغالية بين فكي كماشة تقضي عليهم ، لكن هذا الأمر لم يحدث أيضاً إذ إن كل ما فعله الأتراك في الأعوام التي تلت احتلال اليمن والعراق هو أنهم أرسلوا حملتين عسكريتين إلى الخليج لم تستطيعا إنقاذ مسقط أوالبحرين من يد البرتغاليين ، هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن تواجد قواتهم بكثافة في البحر الأبيض المتوسط واحتلالهم الجزائر لم يؤديا أيضاً إلى تحرير المغرب من البرتغاليين ، إلا أنه وعلى العموم فإن وجود قوة إسلامية كبرى كالقوة العثمانية كان رادعاً كبيراً لكل من تسوّل له نفسه من الدول الأوربية التمادي في غيها وغرورها .

وقبل أن نستمر بالحديث عن مجريات الأمور بين العرب والمسلمين وبين البرتغاليين في المحيط الهندي والخليج العربي ، لا بد أن نعود إلى الوضع بين العرب والبرتغاليين في المغرب العربي لنرى ماذا كان يحدث هناك .

27

الفصل السابع والعشرون

* تولى السلطان أحمد بن محمد الوطاسي الحكم في مملكة فاس عام ١٥٢٦.
* ظهور المنافسة بينه وبين السلطان أحمد الأعرج السعدي ملك السوس.
* معاهدة صلح بين البرتغاليين والوطاسيين لمدة أحد عشر عاماً.
* معاهدة صلح بين البرتغاليين والسعديين لمدة ثلاث سنوات.
* السلطان أحمد السعدي يعلن الحرب على البرتغاليين إثر انتهاء مدة المعاهدة.
* الأمير المولى محمد ينتزع السلطة من أخيه السلطان أحمد السعدي في يونيو ١٥٤٤ ويتلقب بالسلطان محمد الشيخ السعدي المهدي.
* السلطان محمد الشيخ السعدي يحتل مدينة فاس في يناير ١٥٤٩.
* مقتل السلطان أحمد الوطاسي وسقوط الدولة الوطاسية وقيام المغرب الموحد بقيادة الدولة السعدية.

ذكرنا في الفصل الثاني والعشرين من هذا الكتاب، أن عام ١٥٢٦م شهد تحولاً جديداً في العلاقات بين الوطاسيين والسعديين، وهما المملكتان اللتان كانتا تتنازعان على السلطة في المغرب العربي، يوم كانت سواحل المغرب الغربية ومعظم موانئه المطلة على المحيط بيد البرتغاليين. فعندما توفي الملك محمد (البرتغالي) الوطاسي ملك فاس وشمال المغرب، ترك الحكم لأخيه المعروف باسم أبو حسن علي، الذي لم يحكم إلا خمسة أشهر إذ عزله ابن أخيه المولى أحمد وتولى زمام السلطة في سبتمبر من عام ١٥٢٦م وصار اسمه السلطان المولى أحمد الوطاسي، ويعرف على

قلة باسم أبو العباس أحمد أيضاً .

إلا أن صعود السلطان أحمد الوطاسي إلى سدة الحكم في فاس مملكة الشمال ، لم يُنه الخلاف بينه وبين السلطان أحمد السعدي ملك السوس في الجنوب ، بل راح الاثنان ولغرض الحصول على مكاسب على حساب الآخر يتقربان من السلطات البرتغالية التي كانت تحتل أراضيهما ، فقد عرض السلطان أحمد الوطاسي على حاكم (أسفي) البرتغالي بأنه إذا تلقى مساعدات من طرف البرتغال قصد الاستيلاء على مراكش فإنه يتخلى لهم عن كل مناطق عبده وشياظمه[1] ، أما غريمه أحمد السعدي فراح يقوي جانبه أيضاً في تعزيز مركزه مع البرتغاليين ، لذلك أصبح على البرتغاليين أن يختاروا إما التعاون مع الوطاسيين في الشمال أو السعديين في الجنوب .

ويبدو من دراسة الرسائل التي تبادلها السلطان أحمد السعدي مع السلطات البرتغالية أن البرتغاليين كانوا أميل إلى مساعدة الوطاسيين ، بدليل أن الحكام البرتغاليين لمناطق (سانتا كروز) و(أسفي) و(أزمور) أظهروا عداءً للعرب هناك ، وحدثت مناوشات بين الطرفين مما دفع الملك السعدي إلى أن يوجه رسائل إلى ملك البرتغال وإلى حاكم أسفي يذكرهم بمعاهدة الصلح المعقودة بينه وبينهم .

استغل السلطان أحمد الوطاسي الجفوة التي حدثت بين البرتغاليين وخصمه السلطان أحمد السعدي فقرر في عام ١٥٢٨م أن يهاجم مراكش وينتزعها من يد السعديين ، ومع أن المؤرخين لم يعطونا دليلاً على مساعدة البرتغاليين للسلطان الوطاسي في هذا الهجوم ، إلا أنه يُفهم من رسالة وجهها حاكم مدينة أسفي البرتغالي إلى حكومته يفيد فيها أن الوطاسيين يقومون بحصار مراكش حصاراً شديداً وأن خسائر فادحة قد وقعت في صفوف السعديين ، لذلك فإن قوات برتغالية توجهت من أزمور وأسفي لمقاتلة قبائل بني عمير الموالية للسعديين والتي دأبت على عدم إطاعة البرتغاليين .

---

(١) تاريخ العصر الحديد – المملكة المغربية – وزارة التربية الوطنية – ص ٩٦ . كذلك الدكتور عبدالكريم كريم – المصدر نفسه – ص ٥٣ .

لكن حصار الوطاسيين لمراكش لم يدم طويلاً ، إذ إن محاولة انقلاب ضد السلطان أحمد الوطاسي حدثت في مكناس عندما أعلن ابن عمه واسمه مسعود عبدالناصر نفسه ملكاً هناك ، مما أجبر الوطاسي على فك الحصار عن مراكش والعودة بسرعة إلى مكناس للقضاء على الثورة هناك .

أما السعديون فقد تجلى رد الفعل عندهم بالهجمات المتواصلة ضد المراكز البرتغالية في السواحل الجنوبية ، إذ حوصرت (سانتا كروز) وتمكن أحد المغاربة من اغتيال حاكمها ، كما ألحقوا أضراراً بالعرب المتعاونين مع البرتغاليين وقام السلطان أحمد السعدي بمنع التجار البرتغاليين واليهود من الدخول إلى أراضيه ومعاقبة من يخالف ذلك بمصادرة بضائعه وإعدامه ، كما أنهم قامو بالانتقام من الوطاسيين الذين هاجموهم في مراكش ، إذ شهد عام ١٥٢٩م قتالاً شديداً بين المملكتين المغربيتين إلى أن تدخل الفقهاء والعلماء للصلح بين السعدي والوطاسي وإنها القتال والتهالك على السلطة .

ويبدو أن فترة المصالحة بين الملكين المغربيين أدت مفعولها في جعل السلطان أحمد الوطاسي يتفرغ إلى تقوية مركزه خارجياً وأن يوجد علاقات جديدة بينه وبين السلطنة العثمانية . ففي عام ١٥٣١م كان القائد التركي خير الدين باربا روس في الجزائر ، فاتفق الوطاسي معه وهاجم الاثنان مدينتي غصاصه ومليله ، بل تمكنوا من انتزاع غصاصة من يد الاسبان وبذلك اقترب الأتراك أكثر من المواقع البرتغالية في المغرب ، كما قام الوطاسي بتوطيد علاقاته مع الملك (فرانسو الأول) ملك فرنسا المعروف بعداوته للامبراطور الاسباني (شارلكان) وتبادل معه الرسائل الودية ، كما وافق على أن يكون هناك تبادل تجاري بين فاس وفرنسا ، وقد أدت تلك التصرفات إلى حنق البرتغاليين عليه ، لذلك فإنهم راحوا يساعدون عناصر المعارضة التي كان يتزعها عم السلطان المعروف باسم أبو حسون ضد ابن أخيه .

كما ساعدت فترة الصلح هذه السلطان أحمد السعدي فراح يشدد الخناق ضد

المراكز البرتغالية ، وفي شهر سبتمبر من عام ١٥٣٤م تأكد للملك البرتغالي أن هناك تعاوناً حقيقياً بين الأتراك والسعديين والوطاسيين ، مما دفعه لأن يرسل منشوراً إلى النبلاء والأساقفة يستشيرهم في موضوع الجلاء عن بعض مراكز الاحتلال البرتغالي مثل مدن أسفي وأزمور ، ويخبرهم أنه لن يستطيع إدامة إمداد هذه المراكز بالرجال والسلاح لأن جل عنايته موجه نحو الهند والبرازيل ، كما أنه اقترح أن تقوم البرتغال باحتلال المغرب احتلالاً كاملاً . وقد اختلفت الأجوبة التي تلقاها الملك بالنسبة للشطر الثاني من الاقتراح أي موضوع الاحتلال الكامل للمغرب بين مؤيد ومتريث ، أما قضية الجلاء عن المراكز البرتغالية فلم يوافقه على هذا الرأي أحد[٢] .

إلا أن هذه الصورة تغيرت في عام ١٥٣٥م عندما تمكن الأسبان من احتلال تونس فقضوا بذلك على المملكة الحفصيه هناك واستباحوا المدينة لمدة ثلاثة أيام وقتلوا أكثر من سبعين ألف نسمة فيها ، مما دفع القيادة البحرية العثمانية الموجودة في شمال أفريقيا إلى أن تسحب قواتها المتمركزة في حوض البحر الأبيض المتوسط وتوجهها لقتال الأسبان ، وبذلك ضعف العقد الإسلامي الذي تحالف ضد البرتغاليين . والأدهى أن عام ١٥٣٦م شهد تجدد المعارك بين الوطاسيين والسعديين ، ففي يوم ٢٤/ ٧/ ١٥٣٦م وقعت معركة (بوعقبه) قرب وادي العبيد انتهت بهزيمة الملك الوطاسي ، ثم قام الفقهاء بالتدخل واجراء مصالحة انتهت باعادة تقسيم مناطق النفوذ بين الطرفين نال فيها السعديون نصيباً أكبر من الأراضي مما دفع بالملك الوطاسي إلى أن يتقرب ثانية من البرتغاليين فكلّف وزيره مولاي ابراهيم بالسعي لدى هؤلاء لعقد معاهدة سلم على أساس العمل المشترك ضد السعديين ، وقد استجاب البرتغاليون الذين أفزعتهم انتصارات أحمد السعدي فوافقوا على ذلك .

ويبدو من دراسة فحوى رسالة بعثها ملك البرتغال إلى ملك الاسبان ، أن البرتغاليين كانوا يعتبرون الحركة السعدية في الجنوب مصدر خطر عليهم أكثر من الوطاسيين في

(٢) عبدالكريم كريم - المصدر نفسه - ص ٥٨ .

الشمال . فبعد أن تطرق الملك البرتغالي في رسالته إلى المصروفات الباهضة التي تتحملها خزينته للدفاع عن الهند ضد الأتراك ، أشار إلى سياسة البرتغال تجاه السعديين والوطاسيين في المغرب وذكر أنه يبذل جهوداً متواصلة من أجل عدم احتلال فاس عاصمة الوطاسيين من قبل السعديين لأن ذلك سيكون خطراً على الأمتين المسيحيتين ، ولم يخف ملك البرتغال شعوره عندما قارن بين أحداث الهند والمغرب فهو يرى أن أعماله في المغرب اكثر أهمية وأن على الأمبراطور الأسباني مساعدته هناك لدرء الخطر العثماني ، وأخيراً أكد أن أحمد السعدي حاكم ذكي وغني وله اتصالات مع الأتراك وأن الخطر كل الخطر إذا ما احتل فاس أو المراكز البرتغالية في المغرب .

إذن فالخطر الذي أصبحت البرتغال تشعر به في المغرب يومذاك هو قيام تعاون حقيقي بين الأتراك والمغاربة ، وصار عليها أن تتبع سياسة التقرب من الوطاسيين والسعديين في آن واحد تحقيقاً لمنع التعاون العربي - التركي ، لذلك فقد تم توقيع هدنه بين البرتغاليين والسعديين يوم ٢٥/ ٤/ ١٥٣٧م لمدة ثلاث سنوات ، كما وقعت معاهدة بين البرتغاليين والوطاسيين يوم ٢٤/ ٦/ ١٥٣٨م لمدة أحد عشر عاماً .[٣]

وإذا كان الوطاسيون قد فرحوا لمعاهدة السلم التي عقدوها لمدة أحد عشر عاماً إلا أن السلطان السعدي فاجأ البرتغاليين بإعلان الحرب عليهم حال انتهاء المعاهدة . ففي ١٢/ ٣/ ١٥٤١م شنت القوات السعدية بقيادة الأمير مولاي محمد أخي السلطان أحمد هجوماً كاسحاً على قاعدة (سانتا كروز) البرتغالية في جنوب البلاد واقتحموها وأسقطوها . وما إن سمع ملك البرتغال بسقوط سانتا كروز حتى أمر حاميات مدن أسفي وأزمور بالجلاء فوراً عن هاتين القاعدتين للالتحاق بقاعدة مازكان وتحصينها .

وفي رسالة أرسلها ملك البرتغال إلى ملك اسبانيا في ٢٢/ ١٢/ ١٥٤١م ذكر فيها

---

(٣) عبدالكريم كريم - المصدر نفسه - ص ٦٢ .

أن السبب الذي دفعه للجلاء عن قاعدتي أسفي وأزمور هو حرج موقفه هناك وتزايد قوة السعديين بفضل مساعدة العثمانيين لهم ، مما جعل الاحتفاظ بهذين المركزين أمراً شاقاً وصعباً فقرر إخلاءهما ، وأكد له أن الجلاء عن أسفي وأزمور ليس معناه التخلي عن المغرب بالمرة ، حيث إن قاعدة مازكان العسكرية يمكنها القيام بالمحافظة على الاستقرار العسكري هناك .

لقد أظهرت تلك التطورات السعديين في المغرب كقادة وأبطال محررين للسواحل المغربية من الاحتلال البرتغالي ، وأنهم هم القادرون على تحرير كل البلاد ، فازدادت شعبيتهم وأصبح الجميع يتطلع اليهم لإنقاذ البلاد من الأوضاع الفاسدة في الداخل والخارج ، وقامت الثورات ضد الوطاسيين المتهادنين مع البرتغاليين ، فثارت مدينة (دبدو) بقيادة المولى عمر ، وثارت (شفشاون) بقيادة المولى محمد بن علي وثارت (تطوان) أيضاً ، مما شجع السعديين على مواصلة كفاحهم لتوحيد البلاد وللوقوف بالمغاربة صفاً واحداً ضد الأعداء المحتلين[٤] .

إلا أن فرحة ذلك النصر السعدي لم تدم طويلاً ، إذ سرعان ما دب الخلاف بين السلطان أحمد السعدي وأخيه الأمير محمد حاكم (تارودانت) وبطل معركة تحرير سانتا كروز . وعند البحث عن أسباب الخلاف بين الأخوين نجد أن الأمير محمد بدا وكأنه أكثر شعبية من أخيه أحمد وأجدر منه بحمل لقب (المحرر) ، لا سيما وأن السلطان أحمد انتقل إلى مراكش في الشمال واستقر بها وابتعد عن مناطق الاحتلال الأجنبي وساحات المعارك وأصبح بذلك أكثر اعتدالاً في معاملاته مع البرتغاليين المحتلين وكذلك مع الوطاسيين ، كما اختلف الأخوان حول قضية توزيع غنائم سانتا كروز وكذلك على موضوع ولاية العهد التي كان السلطان أحمد قد عهد بها إلى ولده بينما كان محمدٌ يرى أنه أحق منه بها ، هذا إلى جانب أن الأمير محمد سيطر سيطرة تامة على حركة التجارة والأموال في الجنوب . ولما اشتد الخلاف بين الأخوين حاول

---

(٤) عبدالكريم كريم – المصدر نفسه – ص ٦٤ .

الفقهاء والعلماء إجراء الصلح بينهما ، لكن هذا الصلح لم يدم طويلاً إذ سرعان ما قام الاثنان بتجهيز جيوشهما واشتبكا في معركة (وادي الكاهرا) في شهر يونيو من عام ١٥٤٤م حيث دارت الدوائر على جيش السلطان أحمد ، فانكسر وفر وتمزق جيشه ، ودخل الأمير محمد مدينة مراكش ظافراً وجعلها عاصمة لدولته ، وصار اسمه محمد الشيخ واتخذ لقباً هو (المهدي) ونادى بالجهاد وتحرير الوطن وإنقاذ البلاد من الفوضى الداخلية والعودة بالناس إلى مبادىء الدين الصحيح .(٥)

أثّر فوز السلطان السعدي الجديد محمد الشيخ المهدي السعدي ، واستقراره بمراكش في موقف السلطان أحمد الوطاسي ملك فاس وشمال المغرب ، فأصبح في موقف متهرىء تماماً وأصبح أشد حرصاً من أي وقت مضى على المحافظة على السلم مع البرتغال والاسبان ، وكادت جهوده تنجح بقيام معاهدة بينه وبين البرتغاليين والاسبان لمقاتلة السعدي إلا أن السلطان محمد الشيخ السعدي كان أسرع منه ، إذ جهز حملة عسكرية توجه بها نحو مناطق السلطان الوطاسي والتقى به في سبتمبر من عام ١٥٤٥م في منطقة (درنه) بمعركة انتهت بهزيمة الجيش الوطاسي ، وسقوط السلطان الوطاسي أسيراً بيد السلطان السعدي .

إلا أن السعدي لم يستثمر الفوز بالإسراع في الانقضاض على مدينة (فاس) عاصمة الوطاسيين وإنهاء مملكتهم بل اكتفى بأسر ملكهم ، ولعله لم يكن بوضع عسكري يمكنه من ذلك ، لذلك فقد قام الوطاسيون باختيار حاكم جديد لهم ، فكان محمد القصري بن أحمد الوطاسي ، كما أصبح أبو حسون عم والده وزيراً له وراحوا يجمعون الأنصار والأعوان ، فكان ممن اتصلوا به السلطان السعدي السابق أحمد الأعرج الذي أظهر ميلاً للتعاون معهم ضد أخيه .

بقيت الأوضاع متأزمة بين الطرفين لمدة سنتين تقريباً ، إلى أن كسر طوق الجمود السلطان محمد الشيخ السعدي عندما أمر بإطلاق سراح أسيره السلطان الوطاسي ،

---

(٤) عبدالكريم كريم – المصدر نفسه – ص ٦٧ .

بل إنه ارتبط معه بمعاهدة عندما قام بتزويج ابنه عبدالقادر من ابنة السلطان الوطاسي ، إلا أن هذا الأمر لم يرق لزعماء الوطاسيين فراحوا يعملون على عجل بجمع جيش كبير كي يهزموا به السعدي ، وتمكنوا من ذلك عندما استطاع جيش يقوده الأمير زيدان بن أحمد السعدي من مشاركة الوطاسيين في القتال ضد عمه فالتقى الطرفان في (وادي سيو) قرب فاس بتاريخ ١٥/ ٥/ ١٥٤٨م ودارت معركة بين الطرفين انتهت بانكسار محمد الشيخ السعدي وتراجع قواته متقهقرة .

إلا أنه وفي مطلع العام التالي أعاد السلطان محمد الشيخ السعدي تنظيم قواته وقرر إنهاء الوجود الوطاسي بصورة نهائية في البلاد فهاجم العاصمة فاس وحاصرها ، فسقطت ضاحية فاس البالي بيده يوم ١٨/ ١/ ١٥٤٩م ، وبعد أقل من شهر سقطت المدينة كلها بيده ، واستطاع الوزير أبو حسون الهرب ، أما السلطان أحمد الوطاسي فقد وقع أسيراً للمرة الثانية بيد السلطان محمد الشيخ السعدي ، فأرسله ومعه أربعون من رجاله وحاشيته إلى مراكش حيث أعدموا جميعاً بالسم .

وما إن تم له ذلك حتى أرسل شيوخ القبائل وحكام المدن البيعة له ، فدانت له البلاد حتى إن مسلمي غرناطة بعثوا له يطلبون مساعدته في الثورة ضد الاسبان ، أما البرتغاليون والاسبان فقد أرسلوا النجدات المستعجلة إلى مراكز الاحتلال بالمغرب وأخذوا يترقبون تعاون السعديين والأتراك ضد مراكزهم في شمالي أفريقيا .

لذلك فقد قام الاسبان والبرتغاليون باصدار مرسوم مؤرخ في ٢٩/ ٣/ ١٥٤٩م بتحريم التجارة مع الموانىء التي يسيطر عليها السعديون ، إلا أن ذلك لم يفت في عضد السعديين إذ إنهم عززوا قواتهم في مدن المعمورة وسلا وأسفي مما أجبر الملك البرتغالي على التخلي عن مركزين تجاريين مغربيين مهمين هما أصيلا والقصر الصغير وأن يركز قواته في سبته وطنجه ومازكان .

وعلى الرغم من سقوط الدولة الوطاسية بشكل رسمي عام ١٥٤٩م إلا أن بعض

المنافسين لحكم محمد الشيخ السعدي كانوا لا يزالون يشكلون انتقاصاً من سيادته فأخوه السلطان السابق أحمد الأعرج استقر بالصحراء الجنوبية أما أبو حسون الوطاسي والمولى عمر حاكم دبدو فقد ذهبا إلى الإسبان والبرتغاليين .

وهكذا دخل المغرب في عهد جديد هو المغرب الموحد في ظل الدولة السعدية وهي الدولة التي سيقدر لها أن تحطم أسطورة الاستعمار البرتغالي وتقضي على دولة البرتغال .

28

الفصل الثامن والعشرون

* دون كارسيا دي نورونها يصبح نائباً للملك، ودون استفانو دي غاما يصبح حاكماً عاماً على الهند
* اختلاف الاخوة الأئمة الزيدية في اليمن.
* ثورة اسلامية في الحبشة بقيادة أحمد كران.
* استافو دي غاما يجهز حملة للدخول إلى البحر الأحمر.
* مصرع كريستوفر دي غاما شقيق حاكم الهند بيد الثائر أحمد كران.
* مقترحات برتغالية لعقد سلام مع السلطنة العثمانية.
* ماريتم أفونسو دي سوزا يصبح حاكماً عاماً للهند عام ١٥٤٢.
* دون جوان دي كاسترو يتسلم السلطة من دي سوزا في العام نفسه.
* اضطراب الأمن في البصرة وجنوب العراق، والسلطنة العثمانية تخضع المنطقة لسلطتها.

قلنا في الفصل السادس والعشرين، إن نائباً جديداً لملك البرتغال قد وصل إلى الهند وهو (دون كارسيا دي نورونها DOM GARCIA DE NORONHA) وذلك عندما كان سليمان باشا الخادم يطوق (ديو)، وقد قام هذا الحاكم بتجهيز حملة عسكرية قوية لفك الحصار عن المدينة، إلا أن نبأ انسحاب الباشا المفاجيء جعله يصرف النظر عن تلك الحملة. وقام بعد ذلك باجراء تحقيق مع سلفه (نونا دي كونها) الذي شغل منصب حاكم الهند لمدة عشر سنوات، فوجد أن هناك تلاعبات في الأمور المالية قام بها ذلك الحاكم، فأمر بحجزه ثم أجبره على العودة إلى لشبونة على ظهر سفينة نقل عادية وبصفة راكب برتغالي عادي، ويبدو أن الإهانة التي لحقت

بدي كونها وخوفه من مواجهـة المحاكـم البرتغالية قد قضت عليه إذ هلك وهو في طريق العودة ومات في منطقـة رأس الرجاء الصالح . وفي شهر ابريـل من عـام ١٥٤٠م قامـت الحكومة البرتغاليـة بتعـيين (استافـو دي غاما DOM ESTEVAO DA GAMA) وهو ابن دي غاما مكتشف الهند ، بمنصب حاكم الهند ، وهو منصب يعادل منصب رئيس الوزراء ، لذا فقد صار التنظيم الجديد للحكومة البرتغالية في الهند يومذاك هو أن يكون هناك نائب للملك يمثل ملك البرتغال ، يعاونه حاكم للهند يمثل رئيس الوزراء ، وقام (ستافو دي غاما) بتعيين أخيه (كريستوفر دي غاما) بمنصب قائد الأسطول البرتغالي في الهند . وكان أول ما فعله (دي غاما) بعد أن استقر في الهند ، هو أنه باشر الإعداد لحملة عسكرية تدخل إلى البحر الأحمر لمقاتلة العثمانيين هناك انتقاماً لحملة الباشا حاكم مصر ، وكذلك لمساعدة ملك الحبشة ضد ثورة إسلامية قامت في بلاده بقيادة الإمام أحمد قران ويعرف أيضاً باسم أحمد كران .

* * *

قبل أن نخوض في تفاصيل الحملة البرتغالية الجديدة إلى البحر الأحمر نقف قليلاً لنبحث موضوع ثورة أحمد كران والأوضاع في اليمن .

ففي اليمن الشمالي حيث تقوم الإمارة الزيدية الشبه مُستقلة ، كان الإمام الزيدي الطاعن في السن شرف الدين يحيى بن شمس الدين قد زاحمه ولده المطهّر على القيادة ، لذا فقد قرر في عام ١٥٤٠م التنازل عن الزعامة والإمامة . وكان لشرف الدين ثلاثة أولاد ، الأكبر هو المطهّر والثاني علي والثالث شمس الدين ، ولم يكن الوالد يرغب بالتنازل للمطهر الذي طالما أقلقه لذلك اختار التنازل لعلي ، لكن المطهّر لم يقبل بذلك فتكتل مع زمرة كبيرة من معاونيه ومريديه وشهر السلاح بوجه علي فيما قام الأخ شمس الدين بإعلان الولاء لعلي ، وهكذا ظهر نزاع جديد في اليمن هو نزاع وصراع الإخوة الأئمة الزيدية على السلطة هناك .

لكن أنباء ذلك الخلاف لم تثر اهتمام الوالي العثماني في عدن مصطفى باشا

النشار ، فلقد شد اهتمامه نبأ قيام ثورة إسلامية في الحبشة يقودها الإمام أحمد بن ابراهيم المعروف باسم أحمد بن قران كما يسمى أحمد كران المجاهد أيضاً .

فلقد تمكن أحمد كران وخلال فترة قصيرة من الاستيلاء على أجزاء كبيرة من البلاد وطرد القوات الحبشية من إقليم الهرر ، كما استطاع أن يأسر ابن النجاشي ملك الحبشة ، وكان هذا الثائر على اتصال دائم بالحاكم العثماني في عَدن ، وتقول بعض المصادر إن ملك الحبشة أرسل في طلب النجدة من رئيس أساقفة الكنائس في الهند ، وإن القس المذكور طلب التعجيل في ذهاب الحملة البرتغالية الجديدة إلى البحر الأحمر . لذلك ففي الشهر الأول من عام ٩٤٨هـ - ١٥٤١م أقلع حاكم الهند (استافو دي غاما) يساعده أخوه (كريستوفر دي غاما) على رأس حملة بحرية عسكرية كبيرة متجهاً نحو السواحل العربية[١] .

وصل الإنذار الأول لعدن بتحرك القوة تجاهها عندما وصلت ثلاث سفن عربية كانت موجودة في ميناء (سورات) وأخبرتهم بحركة الأسطول ، ولما وصل الاسطول البرتغالي أمام عدن فتحت بعض سفنه نيرانها على المدينة ثم حاولوا الاستيلاء على سفينة عربية ، إلا أن قبطانها تمكن من الهرب بها ، ولم يستطع مصطفى باشا النشار الخروج لمقاتلتهم حيث لم تتيسر له إلا تسع سفن فقط[٢] . ثم وصلت السفن البرتغالية إلى جزيرة سقطرة حيث التقت هناك بقوة برتغالية يقودها (فاسكو نيكولو VASCO NCELLOS) ومعه عدد من الأدلاء لقيادة السفن البرتغالية إلى داخل البحر الأحمر .

قام دي غاما بتقسيم قوته إلى قسمين . القسم الأول بقيادته وهو القسم الأكبر من الحملة ويكون واجبه التوغل في البحر الأحمر إلى أقصى حد ومقاتلة الأسطول العثماني - المصري هناك ، أما القسم الثاني فيقوده أخوه كريستوفر ومعه قوة مكونة من خمسمائة جندي وعشر سفن ويكون واجبه مساعدة ملك الحبشة ضد أحمد كران .

(١) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٤٤٧ .
(٢) SARJENT - المصدر نفسه - ص ٩٨ و١٠١ .

غادر القسم الأول من القوة بحوالي سبعين سفينة حربية وسار متجهاً نحو باب المندب فدخلها وهو قريب من ساحلها الغربي الحبشي أي بعيداً عن السواحل اليمنية الشمالية ، ووصل إلى ميناء مصوّع (في أريتريا اليوم) فوجد أن أهله قد هجروه ، وفي يوم ٢٢/ شباط/ ١٥٤١م وصل إلى مدينة (سواكن) السودانية ، فوجدها مدينة عامرة وعلم بأن حاكمها يدفع ضريبة إلى السلطات العثمانية في مصر وقدرها ثلاثة آلاف أشرفي سنوياً ، فقام بانزال وفد بقيادة الضابط (أنطونيو بيريرا) قابل حاكم المدينة ، وطلب منه تزويدهم بأدلاء بحريين لأخذهم إلى حيث يوجد الاسطول العثماني - المصري . لكن الحاكم السوداني رفض ذلك ، وفي رواية أن الحاكم السوداني بعث بإنذار إلى مصر عن حركة الاسطول البرتغالي . فلما شعر دي غاما بذلك ، قام في يوم ٨/ ٣/ ١٥٤١م بإنزال عسكري في المدينة احتلها لمدة يومين ونهبها نهباً كاملاً ، ثم أمر بحرقها وغادرها يوم ١٠/ ٣/ ١٥٤١م .

وفي يوم ١٤/ ٤/ ١٥٤١م وصل إلى (TORO) أي طور سيناء ولم يجرؤ على الدخول إلى الخليج حيث مقر الأسطول العثماني - المصري هناك ، رغم أنه كان يتظاهر بأنه كان يفتش عن الأسطول لكنه بقي في سيناء حيث شاهد هناك مزارع للحنطة والشعير فقام بنهب مخازن الغلال وتمكن من الاستيلاء على سفينة كبيرة وحاول حسب ادعائه الولوج إلى إلا أنه عاد إلى (الطور) ويقي هناك إلى ٢٢/ ٤/ ١٥٤١م .

وهنا شعرت به الحكومة في مصر فأوفدت قوة لمقاتلته . والملاحظ أن سبب تأخر السلطة عن إرسال القوة هو أن استافو عندما دخل باب المندب كان يسير بجوار الساحل الاريتيري الحبشي ، وابتعد عن القيام بعملية عسكرية في الحجاز ، كما أنه لم يغامر بالدخول إلى خليج سيناء بل اكتفى بالوقوف خارجه ، لذلك فإن جزءاً من الأسطول المصري لم يستطع اللحاق به إلا يوم ٢٨/ ٤ ، حيث اشتبك معه ، لكن استافو استطاع أن يهرب بعد معركة معه وتمكن بعد جهد من الحصول على ما يحتاجه

من ماء ثم أقلع عائداً إلى باب المندب ، وتوقف برهة في ميناء مدينة سواكن السودانية والتقى بالضابط (تريستو دي آتيدا) الذي أخبره بأن المعلومات التي لديه تفيد أن حكومة مصر أوفدت أسطولاً كبيراً لمقاتلته ، لذلك فقد أسرع استافو باسطوله واتجه نحو (مصوّع) الأثيوبية واستفسر عن مصير القوة التي يقودها أخوه (كريستوفر) فعلم بأنهم لا يعرفون عنها سوى أن أخاه مشتبكٌ بقوات المسلمين التي يقودها أحمد كران في مكان ما من الحبشة ، ولم يقم استافو بالبحث عن أخيه أو محاولة مساعدته بل اتجه نحو عدن فمر بها يوم ٢٥/ ٥ ، ولم يتوقف هناك خوفاً من تدميره بل اتجه نحو عاصمته (كَوا) في الهند حيث وصلها ليقدم تقريراً عن حملته العسكرية الفاشلة وليضع خطة لإنقاذ قوات أخيه الموجودة في أفريقيا[٣] .

أما بالنسبة لقوات القسم الثاني التي كانت بقيادة (كريستوفر دي غاما) فإنها علمت بأن قوات أحمد كران موجودة قرب جزيرة دهلك الاثيوبية فاتجهت نحوها وهناك خرج لها أحمد كران واشتبك معها بمعركة ، لكن تفوق المدفعية البرتغالية أجبرته على الإنسحاب إلى داخل البر الأثيوبي فاتخذ دفاعاته في الحافة الشرقية للهضبة الحبشية وراح من هناك يرسل في طلب النجدة من مصطفى باشا النشار الحاكم التركي في اليمن ، ولما علم النشار أن البرتغاليين يحاصرون أحمد كران أرسل قوة تركية نزلت في منطقة (ولفا) في الحبشة وتمكنت من إجراء تماس مع قوات أحمد كران وشن الإثنان هجوماً مشتركاً على القوة البرتغالية فحاصروها ودارت معركة فاصلة بين الاثنين انتهت بهزيمة البرتغاليين ووقوع كريستوفر أسيراً بيد أحمد كران فقام بإعدامه[٤] .

وعندما لم يسمع حاكم الهند استافو دي غاما خبراً من أخيه كريستوفر ، فقد أمر بتجهيز حملة من خمس سفن بقيادة (هنريكو منديس دي فاسكو نسيللو) لتذهب إلى أفريقيا ثانية لنجدة أخيه ، وعندما وصلت الحملة إلى سقطرة أخبرها الحاكم العسكري البرتغالي هناك بعدم التورط بالدخول إلى البحر الأحمر وأنه لا يعلم شيئاً

(٣) DANVERS – المصدر نفسه – ص ٤٤٧ إلى ٤٥٠ .
(٤) SARJENT – المصدر نفسه – ص ٩٩ . وكذلك كتاب السيد رجب حراز – اريتيريا الحديثه – ص ٢٩ .

عن مصير كريستوفر ، إلا أن هنريكو تورط بالدخول إلى البحر الأحمر وادعى بأنه وصل إلى (جدة) وأنه عندما كان هناك علم بأن اسطولاً عثمانياً قد خرج اليه ، فهرب عائداً إلى (كوا) حيث أخبر الحاكم أن أخاه كريستوفر قد قُتلَ .

وعندما كانت تلك الأحداث تدور ، فإن حكومة البرتغال فكرت في عقد تسوية مع الأتراك لحل الخلافات القائمة بينهما وعقد معاهدة صلح أمدها عشر سنوات ، لذلك فقد قامت بتكليف المدعو (ديورات كاتانهو DUARTE CATANHO) وهو برتغالي كان يشتغل بالتجسس والمخابرات بأن يذهب إلى الأتراك ويقدم لهم مقترحات السلام التالية :

١ : توافق الحكومة البرتغالية على تزويد السلطنة العثمانية بـ(٢٥٠٠) حمل من البهار والتوابل الهندية كل سنة وإيصالها إلى البصرة ، مقابل أن تقوم السلطات التركية في البصرة بتزويد القوات البرتغالية بما يعادل عشرين ألف حملٍ من الحنطة ولمدة عشر سنوات .

٢ : لا يمكن تصديق الاتفاق آنف الذكر ما لم يتعهد السلطان العثماني بعدم القيام باستيراد أية كمية من التوابل من أي مصدر آخر عدا ما يقدمه إليه البرتغاليون كما يمتنع عن إعادة التصدير أو المتاجرة بالتوابل التي يجهزها له البرتغاليون

٣ : كما يجب عليه السماح للسفن البرتغالية بالإبحار والدخول إلى مضيق مكة (يقصدون باب المندب والبحر الأحمر) وعدم التعرض لها ، كما يجب عدم السماح للأسطول العثماني بالتجول في البحر الأحمر ، وعلى الأتراك أن يخففوا أو يسحبوا قواتهم الموجودة في عدن ، كما يجب السماح للسفن البرتغالية بالرسو في عدن وزبيد وجدة وغيرها من الموانيء العربية وقيام التجار البرتغاليين ببيع بضائعهم هناك خاصة في جدة والبصرة .

٤ : أنه وفي خلال فترة السلم هذه يجب على الأتراك التوقف عن صناعة الأسلحة

وصناعة السفن الحربية وكل ما يهدد الحكومة البرتغالية في الهند .

٥ : كما يجب على السلطات التركية غلق موانئها أمام السفن التي لا تحمل رخصة تجارية مصدقة من السلطات البرتغالية وعدم التعامل معها وحتى حجزها ووضع اليد على البضائع الموجودة فيها .

٦ : وأخيراً فإن على الحكومة التركية أن تقوم ومتى ما طلبت الحكومة البرتغالية منها بتزويد الجهات البرتغالية بعشرة آلاف حمل من الحنطة بسعر يعادل سعر اليوم الذي تطلب فيه الحكومة البرتغالية الحنطة .

وقد قام الموفد البرتغالي بنقلها يوم ١٠/ ٢/ ١٥٤١م ، لكن ومن البديهي أن تقوم الحكومة التركية برفض تلك المقترحات بل إن السلطان سليمان القانوني قام بتمزيق رسالة الموفد البرتغالي وطرده من البلاط(٥) .

أما بالنسبة لموقف حكومة لشبونة من فشل حملة حاكم الهند استافو دي غاما في البحر الأحمر والمشاكل الأخرى في الهند ، فقد قررت استبداله بحاكم جديد في عام ١٥٤٢م فعينت المدعو (مارتيم أفونسو دي سوزا MARTIM AFFONSO DE SOUSA) بمنصب الحاكم العام ، كما عينت (القس فرانسيس كازفير) بمنصب رئيس اساقفة الكنائس في الهند ، أما استفاو دي غاما فقد عاد إلى لشبونة ومات هناك وطلب أن يكتب على قبره (هنا يرقد فارس جبل سيناء)(٦) .

كان أول ما فعله الحاكم الجديد هو أنه جهز حملة عسكرية طاف بها على حكام الإمارات الهندية الخاضعة له وأجبرهم على دفع الضرائب التي لم تدفع ، ثم ذهب إلى هرمز إذ إن حاكمها قد بلغت عليه دفعات متراكمة قيمتها مئة ألف دوكات ، ولما تيقن لدى سوزا عدم قدرة الحاكم على دفع المبلغ المذكور تنازل له عن ذلك مقابل

---

(٥) DANVERS – المصدر نفسه ، حيث يعترف المؤلف أن مطالب كهذه لا يمكن أن تقبلها إلا دولة خاسرة في الحرب ولم تكن تركيا كذلك يومذاك – ص ٤٥١ .
(٦) DANVERS – المصدر نفسه – ص ٤٥٩ .

السيطرة الكاملة على كل إيرادات جمارك الجزيرة كما جعل الضريبة المفروضة عليه مبلغ ١٨٠٠ أشرفي ذهب وعدد آخر من العملات الذهبية ، وقد وافق حاكم هرمز على ذلك خاصة وأن أمل الحصول على مساعدة من شاه ايران الضعيف طهماسب بن اسماعيل الصفوي (١٥٢٤ - ١٥٧٦م) أصبح مستحيلاً بسبب فتور همة هذا الشاه المنصرف إلى اللهو واللعب والحروب الداخلية والمشاكل السياسية والعسكرية مع السلطنة العثمانية .

لكن الحاكم البرتغالي الجديد لم يبق في الحكم طويلاً إذ قامت الحكومة البرتغالية باستبداله بحاكم آخر هو (دون جوان دي كاسترو DOM JOAO DE CASTRO) وكان ذلك بتاريخ ١/ ٩/ ١٥٤٥م .

* * *

أما المشكلات التي واجهت الحكم العثماني في كل من العراق واليمن وهما الدولتان الاستراتيجيتان المهمتان جداً في قصة النزاع البرتغالي ، العثماني فقد كانت كثيرة .

ففي العراق ، بدا أن السنوات العشر التي تلت سقوط بغداد بيد العثمانيين كانت مليئة بأحداث الساحة الأوربية وهي التي شغلتهم وجعلتهم غير مكترثين بولايات العراق النائية ومنها ولاية البصرة ، التي كانت كما أشرنا سابقاً حكومة محلية بزعامة الشيخ راشد بن مغامس آل عليان ، الذي أعلن الولاء للسلطان العثماني . إلا أن العثمانيين ورغم أهمية البصرة بالنسبة لعدويهم المتحالفين وهما الدولة الفارسية الصفوية والدولة البرتغالية وما أدى ذلك التحالف إلى أن يقع مدخل الخليج بقبضة البرتغاليين ، لكن الدولة العثمانية لم تضع الثقل الواجب عليها وضعه في البصرة ، بل اكتفت بالاعتراف بسلطة راشد بن مغامس كحاكم هناك بشرط أن يقوم بسك النقود التركية وأن يخطب في الجوامع للسلطان العثماني ، لذا لم يكن ارتباطه الإداري أو المالي بوالي بغداد إلا شكلياً .

وعليه فإن شيوخ العشائر المتنفذة في منطقة البصرة استخفوا بحكومة السلطان العثماني في بغداد ، وعمدوا إلى قطع العلاقة معها واتباع وسائلهم القبلية في معالجة ظروفهم ، بأسلوب السيطرة على مصادر الثروة في المنطقة ، لذا فإن البصرة أصبحت مركزاً للشيوخ العُصاة ومأوى للخارجين على القانون . وفي رواية أخرى ، أن سوء الأوضاع في البصرة وجنوب العراق كان سببه أن الشيخ مانع بن راشد بن مغامس الذي استلم السلطة بعد وفاة والده ، اضطر إلى التنازل عن الحكم ، فسادت الفوضى في المنطقة وبرز اسم لزعامة جديدة هناك هي زعامة آل قشعم الذي كان شيخهم يسمى (شيخ العراقيين) أي شيخ الكوفة والبصرة والذي تحالف مع عدد من الشيوخ ضد السلطة العثمانية في بغداد(٧) .

فلما بلغت الدولة العثمانية أنباء اضطراب الأمن في البصرة ، قرر أياس باشا والي بغداد تجريد حملة لإقرار النظام هناك . فخرجت الحملة عام ١٥٤٦م وأخضعت القبائل المنتشرة بين بغداد والبصرة ونجحت في إلحاق هزيمة بشيخ العراقيين في منطقة الجزائر ودخل إياس باشا البصرة . وفي عام ١٥٤٩م حاول علي آل عليان كبير مشايخ منطقة الجزائر الثورة إلا أن والي بغداد (تمرد علي باشا) ، أرسل جيشاً انكشارياً بقيادة محمد باشا البلطجي تمكن من القضاء عليها .

وكان من نتيجة تلك الأحداث أن السلطات التركية ، اكتشفت أهمية الدور الذي يمكن أن تلعبه البصرة وجنوب العراق من الناحيتين الحربية والتجارية وأن إحكام سيطرتهم وسلطتهم هناك تمكنهم من ضرب مصالح الحليفين البرتغالي والصفوي المتمركزين عند مداخل الخليج العربي(٨) .

أما الموقف العثماني في اليمن ، فإنه لم يكن أحسن حالاً من العراق بل لعله أسوء بكثير منه ، فالصراع بين أولاد الإمام الزيدي شرف الدين كان على أشده في عام ٩٢٥هـ - ١٥٤٦م ، وقد قامت الحكومة التركية باستبدال الوالي مصطفى باشا النشار

(٧) عماد أحمد الجوهري - المصدر نفسه - ص ٨٧ .
(٨) العراق في التاريخ - منشورات وزارة الاعلام العراقية - الفصل الأول - ص ٥٧٦ .

بوال جديد هو أويس باشا الذي أظهر رغبة في التعاون مع الإمام مطهر بن شرف الدين ضد إخوته ، إلا أن ذلك التعاون لم يستمر طويلاً إذ أغتيل أويس باشا بيد عناصر موالية للإمام مطهر فأوفدت الحكومة التركية والياً جديداً على اليمن هو أوزدمير باشا الذي قام بالاستيلاء على صنعاء مما دفع بالمطهر لأن يتصل بقائد مملوكي سابق من بقايا الحملة المملوكية المصرية الأولى اسمه حسن بهلوان ويتفق معه على مقاتلة أوزدمير باشا ، لكن الباشا التقى بالمطهر في أبواب صنعاء وأنزل به هزيمة فهرب المطهر إلى الجبال .

وعندما كان أوزدمير باشا منشغلاً بمقاتلة المطهر ، فإن ثورة قامت في حضرموت قادها الأمير علي بن حسين الطوالقي وولده محمد ، وتمكن الطوالقي من دخول عدن وطرد الأتراك منها وكان ذلك بتاريخ ٩٥٣هـ - ١٥٤٧م ، كما أرسل كتاباً إلى حاكم هرمز البرتغالي يطلب منه معاونته ضد الأتراك(٩) .

تلك كانت الأوضاع الداخلية في كل من العراق واليمن إلى حوالي عام ١٥٥٠م تقريباً ، وهي أوضاع لم تكن خافية على السلطات البرتغالية ، ويمكن لنا معرفة دقة معلومات المخابرات البرتغالية التي كانت تقوم برصد الخلافات الداخلية والمشاكل التي تواجهها الدولة العثمانية ، من خلال الرسالة التالية التي أرسلها (دون مانويل دي ليما) حاكم هرمز إلى (دون جوان كاسترو) حاكم الهند ، مؤرخة في ٢٣ حزيران ١٥٤٧م ، وهي رسالة دقيقة تكشف عن الكثير من الأوضاع التي كانت سائدة في البصرة واليمن وموقف البرتغاليين من تلك الأحداث(١٠) :

سيدي

لقد وصلت إلى هذا الحصن في هرمز يوم ١٨ مايس لكنني لم أتسلم المسؤولية لمدة شهر ، ذلك لأن (لويس فالكاو) رغب أن يستكمل فترة حكمه كحاكم ، لذا فقد

---

(٩) الدكتور السيد مصطفى سالم - المصدر نفسه - ص ١٨٠ . وكذلك الدكتور محمد عيسى صالحيه - التدخل العثماني في اليمن - مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية - العدد ٢٤ ص ٩١ .
(١٠) الدكتور صالح أوزبران - الأتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي (١٥٣٤-١٥٨١) ص ٦١ .

تسلمت المسؤولية في الحصن بتاريخ ١٩/ حزيران ، فوجدت أن المكان غير مريح جداً ولا يوجد أثر لتجارة التوابل أو أية تجارة أخرى والصناعة معدومة وأن كل من جاء للعمل في هرمز يُدهشُ لمثل هذه الحالة ، وفوق كل هذا فإن قائداً لحاكم جزيرة (لارا) موجود ومعه عسكر كثير وقد سيطر على آبار المياه التي تعتمد عليها هرمز ، وأن أهالي (موغستان) يخافونهم ، لذلك التجأوا إلى هذه المدينة ، ومن هنا تمر القوافل فيوقفها أهالي (لارا) الأمر الذي أدى بهم إلى أن يمتنعوا عن دفع الضرائب إلى الملك .

أما فيما يتعلق بالبصرة فانكم أعلم بأمرها ، فضلاً عن أنني سوف أخبركم عن اوضاعها بشكل اكثر . كان لويس فالكاو قد سمح لسفن معينة بالذهاب بتجارتها إلى البصرة ، ومنذ وصولي إلى هرمز فإنه أيضاً سمح لبعض الأهالي أن يذهبوا بتسع سفن ، وقد علمت أن (بيلربي البصره) واسمه محمد باشا مزمع على ارسال رسول لي ، وقد وصل ذلك الرسول في ٩/ تموز حاملاً رسالة ، وهو تاجر عربي اسمه حاج فياض ، وهو رجل محترم كثيراً ومعروف بين البرتغاليين وأنني سوف ارسل لكم ترجمة للرسالة التي كتبها (بيلربي) البصرة فيما بعد .

ومن جانبي فلقد تحدثت مع الحاج فياض في عدة مناسبات قال لي خلالها بأنني يجب أن أثق بأقواله وكان يقسم بالمصطفى بأن ما يقوله هو الصحيح ، ثم طلبت بواسطة (كريشنا دي ينها) مترجم الحصن أن يقسم يميناً عظيماً أمامي فأدى اليمين وقال بعد ذلك إن السبب الرئيسي لمجيئه إلى هنا هو ليكون صديقاً مخلصاً للبرتغاليين ثم حكى عن جميع الأمور التي يعرفها عن إياس باشا قائلاً إنه هو الرئيس الذي احتل البصرة ، وتحدث أيضاً عن محمد باشا الذي كان (بيلربي) البصرة كما أدلى بمعلومات مفيدة عن كافة المناطق ، وقال إن إياس باشا حاكم العراق يريد أن يجعل من البصرة بلداً تجارياً مزدهراً لأنها ستدر ريعاً عظيماً للسلطان العثماني ، إلا أن رستم باشا الصدر الأعظم لم يكن يرى ذلك لأنه يعتبر أن البصرة لا أهمية لها وأنها خربة ، لذلك فقد وقع الاختلاف بين إياس باشا ورستم باشا وأن إياس باشا يعمل جاهداً الآن كي

يثبت صدق قوله إن البصرة يمكن أن تكون مركزاً تجارياً مهماً للسلطنة العثمانية .

ولقد استفسرت من الحاج فياض عن حصن البصرة العسكري ، فقال لي إنه لم يحدث عليه تغيير وإن عدد جنود الحصن خمسمائة جندي مسلحون بالبنادق وهم في حالة استنفار دائم ولا يغادرون الحصن وفي خارج الحصن ، يوجد ألف جندي فارس وسبعمائة من المشاة وكلهم مسلحون بالبنادق ، كما يتوفر لديهم عشرة مدافع صغار أما في داخل الحصن فيوجد عدد من المدافع التي استولى عليها الأتراك عندما فتحوا الحصن وكان فيه أصلاً (٢٩٠) مدفعاً ، ستون منها برونزية وهناك حوالي (٢٥٠) باون بارود . وقد ترك إياس باشا بعد استيلائه على الحصن مائة مدفع صغير وثلاثة مدافع حصار كبيرة كان قد جلبها معه وأخذ البقية وعاد بها إلى بغداد .

وعندما استفسرتُ منه عن وضعية الاسطول التركي في السويس ، قال لي إن هناك (٤٤) سفينة من نوع (GALLEY) بعضها قد أتي من (ديو) عندما كان سليمان باشا الخادم هناك وهي جميعاً بحالة جيدة ، ثم سألته عن نوع السفن الموجودة في (مخا) ولماذا ذهبت إلى هناك ؟ . . فقال لي إنها (١٤) سفينة بقيادة أويس باشا الذي ذهب إلى هناك لمقاتلة الإمام الزيدي ، غير أنه (أي الحاج فياض) لا يعرف أبداً ، كما أن أحداً في البصرة لا يعرف إذا كانت هذه السفن سوف تقلع إلى الهند .

ثم سألته عن نوايا إياس باشا ومحمد باشا وفيما إذا كانا ينويان عمل شيء ضد هرمز . فأجاب بأنه لا يعلم شيئاً عن مقاصدهما ، غير أن الأتراك يرغبون بإنعاش تجارة البصرة ، وأن الأتراك استدعوه كثيراً لمناقشته في هذا الصدد ، ولكنه لم يسمع منهم أنهم عازمون على مهاجمة هرمز وأنهم إذا أرادوا الهجوم على هرمز فإنهم فبإمكانهم بناء سفنهم في نهر الفرات وذلك لوجود غابات عظيمة بالقرب من مدينة (بيره جيك) التي تبعد سبعة أيام عن البصرة ، ومن هذه الغابات يجلب الكثير من الخشب الجيد وهي تبعد يومين عن حلب أيضاً ، وقال إن هناك طريقين من مدينة (بيره جيك) إلى البصرة ، أحدهما يسير عبر مدينة اسمها (الحله) ، والآخر يسير عبر بغداد

والطريق الآخير يعتبر طريقاً مباشراً أحسن من الأول ، إلا أنه يتعرض إلى صعوبة عند جفاف مياه النهر ، عندئذٍ يصبح من الأفضل استخدام السفن الشراعية التي تسير عبر الحلة .

وقال لي الحاج فياض أيضاً إنه خلال هذه المدة قدم إلى البصرة رسول من السلطان العثماني حاملاً رسالة إلى محمد باشا وقد استغرق وصوله (٤٢) يوماً ، وقد اقسم لي الحاج فياض بأنه سيرسل لي من البصرة كل الأخبار التي يحصل عليها ، كما طلب مني أن أعطيه إشارات ورموزاً يمكن عن طريقها معرفة أخبار الأتراك في البصرة ، وأنه سيرسل لي المعلومات بيد أحد أولاده ، علماً بأن الحاج فياض هذا وابنه يزوران كل سنة حلب والاسكندرية ومناطق أخرى كثيرة ، لذلك فانهما يعرفان بالتأكيد معلومات عن السلطان العثماني ، وقد قال لي بأنني يجب أن أثق بالمعلومات التي يزودني بها لأنه نفسه ينتسب إلى طائفة من الأتراك ولكنه من اتباع عقيدة مختلفة وانه تاجر وقد أكد لي بأن محمد باشا يرغب بنوع من الصداقة معي وأن الأتراك ينظرون بلهفة إلى يوم وصولي إلى هرمز ، ثم أخبرني أن محمد باشا قام خلال فترة (لويس فاكاو) بالاستيلاء على منطقة الحسا وهو موضع على ساحل الجزيرة العربية ليس بعيداً عن البصرة ووضع عليه حاكماً عربياً .

وقد استفسرت من الحاج فياض فيما إذا كان ينصح أن أرسل موفداً أو ممثلاً عني إلى البصرة ، فقال لي أن هذا هو مطلب محمد باشا الرئيسي وقد أوفدني إليك لأجل هذا الغرض ، كما أن وجود ممثل عني في البصرة سيجعل أمر حركة القوافل التجارية ميسوراً ، لذلك فقد قُمتُ باستشارة عدد من وجهاء هرمز فجمعت ثلاثين رجلاً منهم وطلبت اليهم أن يقسموا بالكتاب المقدس أولاً ثم استشرتهم فيما إذا كان من مصلحة جلالة الملك أن يذهب ممثل برتغالي إلى البصرة ، أو أن نوفد أسطولاً إلى هناك ، وقد أشار لي هؤلاء بضرورة إرسال ممثل برتغالي ومعه عدد من السفن المحاربة إلى البصرة ، ليكون هذا الموفد على تماسٍ مع الأحداث ويمكنه أن يبلغني عن الأوضاع هناك أولاً

بأول . هذا علاوة على أنه يمكنه أن يزودني بالمعلومات عما يحدث في جبهة السويس أيضاً . ذلك أن البصرة مقصد التجار من القاهرة ودمشق وبيره جيك وحلب ، وعليه فإنه لا يوجد مكان أحسن منها لمعرفة نوايا الأتراك وما يقومون به ، هذا إضافة إلى أن عرب البصرة سيزودونني بالأخبار لأنهم أعداء للأتراك .

لذلك فقد قررت أن أبعث (دومنكوس باربودا) ومعه رسالة إلى الباشا رداً على رسالته . إن رسالتي ستكون منمقة الكلام ولا ألزم نفسي فيها بأية اتفاقيات أو التزامات وإنني سأقف ويدي على قبضة سيفي في انتظار ما يكتبه الباشا رداً على رسالتي ، إن (دومنكوس باربودا) هذا من هرمز وذو سمعة جيدة وله مركز اجتماعي معروف بين التجار العرب وأهالي البصرة وله خبرة كبيرة في أحوال تلك البلاد ، إنني سأوفده على أن يبقى هناك مدة لا تزيد على ثلاثة أشهر ، رغم أن الأشخاص الذين استشرتهم يرغبون ببقائه مدة أطول هناك ، وفي خلال الأشهر الثلاثة هذه سوف يتسقط الأخبار من التجار القادمين من الاسكندرية والمناطق الأخرى ، لذلك فإنني اعتقد أنه الشخص الملائم لخدمتكم في البصرة .

لقد أخبرني شيوخ هذه البلاد أنه يأتي اليهم من البصرة سنوياً من ٦٠٠ - ٨٠٠ رأس خيل وهذه تذهب إلى (كوا) ، أما عن التوابل التي وردت هذه السنة من الهند ، فكانت قليلة جداً ، وأعتقد أنه يمكن تحريك تجارة التوابل ببيعها إلى تجار البصرة حيث إنهم يرغبون بالمتاجرة بها .

لقد طلب مني الحاج فياض أن أبلغكم بأن ثلاثة من أولاد أخيه هم جابر وشاكر وعباس كانوا قد سافروا إلى الهند ووقعوا بأسر (أنطونيو مويز) ، وهو يطلب مرحمة جلالة الملك باطلاق سراحهم وهو مستعد لقاء ذلك الاستمرار بتزويدنا بكل المعلومات التي يحصل عليها عن نشاط حكومة السلطان العثماني .

هذا وقد وردتني معلومات من مدينة قلهات العُمانية وبعض المصادر الأخرى ، بأن رجلاً اسمه عبدالله وصل من عدن وأخبرهم بأن قائداً تركياً ومَعه اسطول مكوّن من

عشرين سفينة عليها ثلاثمائة جندي قد وصلوا إلى (مخا) ومعهم أوامر بالاستيلاء على اليمن والقضاء على الإمام الزيدي ، وكان ابن الإمام الزيدي قد قاد جميع جنود والده قبل مجيء الأتراك ، وكان هذا الإبن على خلاف مع والده ، فعندما وصل الأتراك هاجموا قلعة مدينة تعز ، كما أنهم تمكنوا من السيطرة على خمسة موانيء أخرى ، إلا أن الابن عاد فاتفق مع والده وهاجم الأتراك فقتل أربعمائة من فرسانهم ، وقد أخبرهم عبدالله أيضاً أن عدداً من السفن التركية من نوع (FUSTAS) قد تمكنت من الوصول إلى قلهات ومسقط ، وأنه يوجد في عدن ثلاث سفن تركية ضخمة مسلحة تسليحاً جيداً ، لقد استطاع حاكم قلهات في مناسبات سابقة أن يمنع السفن التركية من الوصول إلى المدينة إلا أنه وفي حالة قيام الأتراك بهجوم بإثني عشر سفينة فإنه يجب إرسال النجدة لمساعدة حاكم قلهات ، كما يجب التعاون مع المسلمين المتحالفين معنا هناك ، إن الأخبار تقول إن الأتراك قادمون بعد مدة لا تزيد عن شهرين ونصف ولقد وصلتني معلومات أخرى عن (مخا) في اليمن نقلها إلي أحد تجار هرمز ، فقال إنه عندما كان هناك شاهد سبع أو ثماني سفن حربية تركية رست هناك لمدة ثلاثة أيام ، ولعلها هي السفن التي قدمت إلى قلهات ومسقط في السنة الماضية .

إنني اعتقد بأن هذه المعلومات قد تكون صحيحة لذلك فقد أمرت باعداد تسع سفن حربية موجودة في هرمز للتهيؤ للحركة إلى مسقط في نهاية هذا الشهر تموز لترسو هناك في انتظار وصول السفن التركية ، ولقد قمت بالكتابة إلى قادة المناطق هناك بتهيئة ما لديهم من سفن خفيفة التي بامكانها أن تسع لـ(١٠) أو (١٢) برتغالياً ، كما يمكن وضع عدد من حملة الأقواس والنشاب فيها ، ولقد علمت أيضاً أن هناك (٤٠) أو (٥٠) جندياً برتغالياً في مسقط وصلوا اليها مؤخراً ، ويعد هذا أمراً جيداً إذ إن بامكان هؤلاء الجنود أن يحاربوا بعون الرب السفن التركية إذا ما قدمت إلى مسقط وإن الله سيمنحنا النصر التام على السفن التركية .

ويبدو لي أنه من صالح خدمة جلالة الملك أن تبقى تلك السفن في مسقط وذلك

لحماية السفن التي تبحر من هرمز إلى الهند والتي يكون على ظهرها تاجران برتغاليان أو ثلاثة تجار وهم يحملون نقوداً كثيرة ، ولعل الأتراك يختطفونها إلى مخا إذا ما اكتشفوا النقود التي تحملها هذه السفن ، فإن هذا سيغريهم بالإغارة على مسقط كل سنة .

لقد أوكلتُ قيادة أسطول هرمز إلى (دوم بايو) ، ولسوف أرسل إلى منطقة رأس الحد في عُمان سفينتين حربيتين لرصد تحركات الأسطول العثماني ، فإذا علموا بقدومه من جهة اليمن ، أسرعوا بابلاغ الأمر إلى الأسطول البرتغالي في مسقط . هذا من جهة ومن جهة أخرى فحتى لو لم يصل الأتراك فإن واجب السفينتين في رأس الحد هو مكافحة ما يقوم به (النواخذة)[11] ضد السفن البرتغالية ، فلقد تحطمت سفينة برتغالية محملة بالبضائع التجارية الفاخرة عندما كانت في طريقها من جزيرة مصيره إلى هرمز فهاجمها النواخذه وقتلوا البرتغاليين الذين كانوا على ظهرها ولم يتركوا أحداً ما عدا (اندريه كورتس) وزوجته وإحدى بناته إذ أفلحوا بالهرب رغم أن أندريه كان مصاباً بثمان سهام كما أن النواخذه هاجموا طراداً مسلماً حاول نجدة البرتغاليين ، ولهذا السبب يجب أن يقوم الأسطول البرتغالي بغزو ونهب ساحل النواخذة وحرق أكبر عدد من سفنهم . إن الأسطول الذي سأرسله سيقوم بواجبين في آن واحد ، الأول مقاتلة الأتراك والثاني الإبحار إلى أي مكان يحدث فيه خطر .

سوف أكتب لجلالتكم عما يستجد من أحداث في هذه البلاد ، أقبل أيادي جلالتكم متمنياً الرخاء لحياة مولانا الملك وازدهار أحواله .

من هرمز : في ٢٣ – حزيران – ١٥٤٧ . دون مانويل دي ليما . »

(١١) النواخذه . . جمع (نوخذه) أي القبطان ، وهي لفظة فارسية مستعملة عند عرب الخليج وجنوب الجزيرة العربية بنفس معناها الفارسي . . ويقصد الكاتب بهم عرب اليمن من أهالي الشحر الذين دأبوا على مهاجمة السفن البرتغالية .

29

الفصل التاسع والعشرون

* مصادمات بين الدولة السعدية والسلطات العثمانية في الجزائر عام ١٥٥٠ .
* العثمانيون يساعدون أبا حسون الوطاسي على احتلال فاس ثم ينقلبون عليه .
* السلطان محمد الشيخ السعدي يهزم أبا حسون ويدخل فاس ثانية .
* السلطان السعدي يعقد حلفاً مع اسبانيا والبرتغال لقتال العثمانيين .
* مصرع السلطان السعدي عام ١٥٥٧ ومبايعة ابنه عبدالله الغالب بالله سلطاناً على الدولة السعدية .
* ولادة الأمير دون سيباستيان ولي عهد البرتغال في ١٥٥٤/٧/٢٠ .
* وفاة ملك البرتغال دون جوان الثالث في ١٥٥٧/٦/١١ .
* السلطان عبدالله الغالب بالله ينزل هزيمة بالعثمانيين ويعقد معاهدة صداقة مع فرنسا .
* ثورة مسلمي غرناطة عام ١٥٦٨ .
* وفاة السلطان عبدالله الغالب بالله عام ١٥٧٤ وولاية ابنه محمد المتوكل .
* الملك دون سيباستيان يضع الخطط العسكرية لمهاجمة معاقل الاسلام وتدمير الدولة السعدية المغربية .

ذكرنا في الفصل السابع والعشرين من هذا الكتاب أن الأمر في المغرب العربي استقر للدولة السعدية بقيادة السلطان محمد الشيخ السعدي ، وكان ذلك في عام ١٥٤٩م تقريباً .

وقد تمكن السلطان السعدي من السيطرة على معظم بلاد الريف والمغرب الشرقي المجاور للجزائر والتي كان الأتراك العثمانيون قد بسطو سيطرتهم على منطقة (تلمسان) الحدودية المجاورة لمناطق السعديين هناك ، مما أدخل الرعب في قلوب الأسبان والبرتغال وجعلهم يترقبون قيام تعاون بين القوتين الإسلاميتين ضد مراكز الاحتلال في كل من الجزائر والمغرب . ويبدو ذلك واضحاً من الكتب التي بعثها السلطان السعدي إلى باشا الجزائر يقترح عليه القيام بعمليات عسكرية مشتركة لفتح وهران والمرسى الكبير . لكن الأتراك العثمانيين كانوا يرون أن ضم المغرب إلى ممتلكاتهم هو هدف مهمٌ بدعوى توحيد القوى الإسلامية في شمالي أفريقيا ضد الأخطار الاسبانية والبرتغالية ، لذلك فإنهم دفعوا بقواتهم داخل المغرب ووصلوا إلى مدن (دبدو) و(وجده) .

لم ترق تلك الأوضاع للسلطان محمد الشيخ السعدي الذي كان حريصاً على تقوية المنطقة الشرقية للمغرب لاستراتيجيتها ، ولم يستطع أهل المغرب التسليم بالوجود العثماني بذلك الشكل ، لذلك فإن السلطان السعدي لم يتوانَ عن نجدة الأمير أحمد بن عبدالله الزياني حاكم مدينة (تلمسان) الجزائرية التي أخرجه منها الأتراك ، فاستقبل وفداً من المدينة يحثه على انتزاعها من يد العثمانيين . لذلك قام بتجهيز حملة عسكرية من ثلاثين ألف مقاتل أودع قيادتها إلى ولديه محمد الحران وعبدالرحمن . وفي شهر ابريل من عام ١٥٤٩م انطلقت القوات المغربية نحو شرقي البلاد ، ولم تلق مقاومة تذكر لذلك فقد تمكنت من احتلال تلمسان في ٩/ ٦/ ١٥٥٠م ، إلا أن رد الفعل التركي على سقوط المدينة كان قوياً ، إذ سرعان ما بعث والي الجزائر العثماني حسن باشا حملة عسكرية كبيرة بقيادة القائد حسن كورسو التقت في معركة مع السعديين في شهر شباط من عام ١٥٥١م في تلمسان ذاتها وأنزلت هزيمة بالجيش المغربي انتهت بمقتل الأمير عبدالرحمن وقطع يد أخيه بعد أسره[١] .

---

(١) الدكتور عبدالكريم كريم – المصدر نفسه – ص ٧٧ . وكذلك الدكتور ابراهيم شحاته حسن – المصدر نفسه – ص ١٠١ .

وهكذا وبدلاً من أن يجري تنسيق واتحاد بين القوى الإسلامية الممثلة بالدولة العثمانية في الجزائر والدولة السعدية الناشئة في المغرب ، فإن حرباً وقعت بين الطرفين . وقد استغل أعداء الدولة السعدية ذلك العداء فقد ثار السلطان السعدي السابق أحمد الأعرج ضد أخيه محمد الشيخ . كما أن أبا حسون وهو الزعيم الوطاسي السابق الذي كان قابعاً في جزيرة اسمها باديس ، وهي جزيرة صغيرة تقع أمام شاطيء المغرب الشمالي وتقع قرب مدينة باديس ، راح يكتب إلى ملوك الاسبان والبرتغال في طلب النجدة لقاء التعاون معهم . لكن السلطان السعدي لم يفت في عضده انهزام قواته أمام العثمانيين وسرعان ما جرد حملة ضد أخيه السلطان السابق هزمه فيها ، ثم جرد حملة ضد (دبدو) التي حاول المولى عمر الاستقلال فيها . وشهد عام ١٥٥٢م أحداثاً جديدة في المنطقة عندما وافق الملك البرتغالي (دون جوان الثالث) أن ينجد الثائر أبو حسون ، فأرسل في أوائل شهر سبتمبر من ذلك العام قوات بحرية نزلت في (جسيمة) غير أن الأسطول العثماني سرعان ما أسر السفن البرتغالية بعد معركة جرت بين الطرفين وسيق الجميع أسرى إلى الجزائر .

فتحت تلك الحادثة أعين السلطنة العثمانية في استانبول وقررت إجراء مصالحة مع السلطان السعدي ، فبعث السلطان سليمان القانوني برسالة إلى السلطان السعدي مؤرخة في أول رجب ٩٥٩هـ أي كانون الثاني ١٥٥٢م يخبره فيها بعزل حسن باشا عن ولاية الجزائر وتعيين صالح ريس باشا حاكماً هناك ، وقد جاء في تلك الرسالة ما يلي : « بلغ إلى سمعنا الشريف أن أمير الأمراء بولاية الجزائر سابقاً حسن باشا لم يحسن المجاورة مع جيرانه ومال إلى جانب العنف والاعتساف ونبذ وراء ظهره طرق الوفاق والائتلاف وسد باب الإئتلاف مع المجاهدين حماة الدين ، لذلك بدلناه بغيره ، فأنعمنا بولاية الجزائر على مملوك حضرتنا العلية صالح باشا ، وأمرناه أن ينظر إلى أحوال المسلمين بكمال العدالة وحسن المكارم ، وأن يكون مع أهالي الإسلام على أكمل اتحاد وأجمل اتفاق لقمع الكفره الفجره المتمردين »[٢] .

(٢) المصدران السابقان نفسهما – ص ٧٩ و ١٠٤ .

لكن الأمور لم تجر حسبما ذكرها السلطان العثماني برسالته إذ ما إن وصل صالح باشا إلى الجزائر في ابريل ١٥٥٢م حتى دخل في مفاوضات سرية مع أبي حسون الوطاسي والمولى عمر والي (دبدو) السابق ، وقبل أن ينتهي عام ١٥٥٣م احتلت القوات التركية مدينة (تازه) المغربية واشتبكت مع السعديين بمعارك مستمرة حتى احتلت العاصمة (فاس) يوم ٨/ ١/ ١٥٥٤م ، فهرب السلطان محمد الشيخ ، بينما دخلها أبو حسون الوطاسي وأعلن عن عودة الحكم الوطاسي إلى البلاد . وباستقرار أبو حسون بفاس والمولى عمر بدبدو ، ساد النفوذ التركي في شرقي المغرب ومناطقة الوسطى ، فازداد فزع الاسبان والبرتغاليين من ذلك وأرسل ملك البرتغال رسالة إلى الأمبراطور الاسباني (شارلكان) يحثه على التدخل في المغرب للحيلوة دون توطيد الأتراك لأقدامهم في تلك البلاد .

إلا أن الأتراك لم يكونوا مهتمين آنذاك بقتال الوحدات البرتغالية والاسبانية المعشعشة في المغرب ، بل فعلوا مثلما فعلوا باليمن فلم يوفوا بالعهد مع أبي حسون الوطاسي واغتنموا الفرصة للإطاحة به وإعلان البيعة للسلطان سليمان القانوني ، فهاجموا مدينة فاس بغية قتل أبا حسون ، لكن أبو حسون استطاع أن يصمد أمام الهجوم بل إنه أنزل بهم هزيمة وراح يطارد فلولهم وتعقبهم إلى الحدود حيث عادوا إلى قواعدهم في الجزائر . وهكذا انتهت فتنة التدخل العثماني في المغرب .

وبجلاء القوات التركية من فاس ورجوعها إلى الجزائر أصبح أبو حسون يواجه خصمه السلطان محمد الشيخ السعدي الذي جمع قوات هائلة لاستعادة فاس فالتقى الجمعان في ٢٣/ سبتمبر/ ١٥٥٤م ودارت الدوائر على أبي حسون الوطاسي ، فقُتل في المعركة وانهزم جيشه ، وبعد ذلك التفت السلطان السعدي إلى أخيه الثائر أحمد الأعرج وأنزل به هزيمة أخرى واعتقله ، وبمقتل أبي حسون الوطاسي وأسر السلطان السابق أحمد الأعرج ، استقرت الأوضاع الداخلية نسبياً للسلطان محمد الشيخ السعدي[٣] .

(٣) الدكتور عبدالكريم كريم – المصدر نفسه – ص ٨٢ .

شكّلت حادثة عودة السلطان السعدي إلى فاس نقطة تحول في تاريخ الدولة السعدية الناشئه ، فلقد ظهر كخصم عنيد للأتراك ولسياستهم التوسعية ، بل الأكثر من ذلك أنه أعلن إثر دخوله فاس منتصراً بأنه عازم على الذهاب إلى الجزائر لمنازلة الأتراك هناك ، وتمادى في عدائه للعثمانيين إلى الحد الذي جعله يكتب إلى قائد حامية بلدة (مازكان) البرتغالي (الفارو دي كارفالهو ALVARO DE CARVALHO) يطلب منه مساعدة ملك البرتغال لقتال الأتراك .

وقد أرسل ملك البرتغال رسالة جوابية إلى السلطان السعدي يوافق فيها على مساعدته مقابل تسليم بعض المراكز المغربية مثل بادس وبنيون والعرائش ، وتموين القوات التي سيرسلها لمساعدته ، ويؤكد على ضرورة إخبار الأمبراطور الاسباني بذلك . ونتيجة لهذا التقارب فقد عقدت هدنة بين السعديين والبرتغال لمدة ستة أشهر وكان ذلك في مطلع سنة ١٥٥٥م ، كما قام موفد من السلطان اسمه المزوار المنصور أبو غانم بمقابلة حاكم (وهران) الاسباني في الجزائر ، ووافقت اسبانيا على مساعدة السعدي فأرسلت وفداً إلى فاس اجتمع بالسلطان وبوفد برتغالي لوضع خطه لتهيئة حملة مشتركة ضد الأتراك[٤] .

وصلت أنباء التقارب السعدي - البرتغالي - الاسباني إلى مسامع الأتراك فقرر هؤلاء استعمال الحكمة في معالجة الأمر وأرسلو للسعدي وفداً يفاوضه على الصلح ويعده بمساعدة السلطان سليمان القانوني لمحاربة الاوربيين بشرط أن يعترف بالسلطة العثمانية وأن يضع اسم السلطان العثماني في سكته . إلا أن السعدي لم يوافق على ذلك بل صرف الموفد قائلاً له : «اذهب وسلّم على أمير القوارب سلطانك ، وقل له إن سلطان المغرب لا بُدّ أن ينازعك على محمل مصر ، ويكون قتاله معك عليه إن شاء الله ويأتيك إلى مصر ، والسلام » .

وقد أكد هذا الجواب للسلطان العثماني صحة تواطؤ السعديين مع الاسبان والبرتغاليين ، الأمر الذي جعله يعزز قواته في الجزائر من جهه ومن جهة ثانية راح

(٤) الدكتور عبدالكريم كريم - المصدر نفسه - ص ٨٨ .ود . براهيم حسن شحاته - المصدر نفسه ص ١٢٥ .

يضع خطة لاغتيال السلطان السعدي ، وقد نجحت خطة السلطان العثماني في اغتياله وذلك بسبب وجود حرس خاص من الأتراك عند السلطان السعدي ، وكان هؤلاء الاتراك موجودين في فاس عندما اقتحمها السلطان السعدي ، فأظهر هؤلاء الولاء والطاعة له ، فجمعهم وضمهم إلى عسكره وكانوا نحو الأربعمائة وقائدهم (صالح آغا) وأنعم عليهم وجعلهم الحرس السلطاني الخاص به ، إلا أن السلطان العثماني استطاع التأثير على مجموعة من هؤلاء الحرس فدبروا مؤامرة لاغتيال السلطان محمد الشيخ السعدي ، ونجحوا في قتله وكان ذلك في يوم الأربعاد ٢٧/ ذي الحجة/ ٩٦٤هـ - أي ٢٣/ اكتوبر/ ١٥٥٧م . وبويع من بعده ولده المولى عبدالله ، فصار اسمه السلطان عبدالله الغالب بالله ، كما يعرف أيضاً باسم الشريف السعدي وهي التسمية التي صارت تُطلق على ملوك الدولة السعدية بصورة عامة(٥) .

* * *

ومن المفيد أن نتوقف هنا برهة عن ذكر أخبار المغرب العربي لنلتفت التفاتة سريعة إلى أخبار البرتغال في تلك الاعوام ففي ٢٠/ يوليو/ ١٥٥٤م ، ولد في القصر الملكي البرتغالي (دون سيباستيان) ابن الأمير جان ابن الملك جوان الثالث ملك البرتغال ، وكان والد سيباستيان قد توفى وأمه حاملاً به ، أما أمه فهي الأميرة دونا جوانا أخت الملك فيليب ابن الملك شارلكان ملك اسبانيا . إذن فوليد البرتغال الجديد هو ابن أخت ملك اسبانيا فيليب وهو أيضاً وريث عرش سلالة أفيز البرتغالية الحاكمة ، وعند إعلان نبأ المولود الجديد احتفل البلاطان البرتغالي والاسباني بهذا الحدث . وعندما توفى ملك البرتغال دون جوان الثالث في يوم ١١/ ٦/ ١٥٥٧م ، كان الحفيد الأمير سيباستيان لم يتجاوز الثالثة من عمره ، فقد آل العرش البرتغالي إلى أمه الاسبانية الأميرة جوانا ، لكن هذه كانت ضعيفة القوى وتعيش على ذكرى زوجها ، فقررت أن تتنازل عن العرش لمصلحة أرملة الملك دون جوان الثالث وهي الملكة دونا كاترينا وهذه أيضاً من أصل اسباني ، فهي أخت الملك شارلكان ملك اسبانيا السابق .

(٥) المصدران السابقان والصفحاتان نفسهما .

وهكذا قررت العاهلة الجديدة للبرتغال أن تقوم أولاً بإدارة شؤون المملكة والأمبراطورية البرتغالية على أحسن وجه ، وثانياً وهو الأهم ، السهر على تنشئة وتربية ولي العهد لكي يصبح الملك الجديد الذي يحمل لقب أجداده أُسرة أفيز . فكتبت لأخيها شارلكان ملك اسبانيا السابق وابنه الملك فيليب وهو خال سيباستيان ألا يبخلا عليها بالمساعدة والنصائح ، ومن جهة أخرى كتبت إلى البابا تطلب منه إرسال مربين أكفاء إلى لشبونة من أجل السهر على تربية الوريث الفتى (دون سيباستيان) .

لكن هذا الوريث الجديد كان يحمل نبوءة قديمة قيلت للملك ألفونس مؤسس مملكة البرتغال وقد تناقلتها الأجيال البرتغالية على كل شفة ولسان وتقول هذه النبوءة : « إن الله كان قد وعده بضمان نسله ، بحيث لا يُفقد قط على الأرض ، غير أن محناً وشدائد سوف تحل بمجيء نسله السادس عشر » أي الوليد الجديد دوم سيباستيان .

وهي النبوءة سوف تتحقق عام ١٥٧٨م كما سنرى في تفاصيل الأحداث في الفصول القادمة[٦] .



أما بالنسبة لأحداث المغرب العربي فإن السلطان عبدالله بن محمد الشيخ (الغالب بالله) قد بويع بفاس عندما بلغه خبر مقتل والده وكان عليه ولكي تستقر الأحوال الداخلية أن يأخذ بثأر أبيه من قتلته الأتراك ، فقصد مراكش وانتقم من الأتراك الذين دبروا المؤامرة . إلا أن حكمه سجل بداية لأزمات سياسية طويلة أدت إلى تضارب عنيف بين أفراد الأسرة السعدية المالكة ، في الوقت الذي استمرت الأخطار الخارجية تأتي من دول البرتغال واسبانيا والسلطنة العثمانية .

ابتدأ الغالب بالله حكمه بمذبحة راح ضحيتها عدد كبير من خصومه السياسيين واعوانهم ، وقد قام بها عامل مراكش علي بن أبي بكر أزناك ، وأعقب تلك المذبحة ثورات انفصالية قام بها إخوته وبعض حكام الإمارات المؤيدة لهم ، وبدا أن سبب

(٦) يونس نكروف – معركة وادي المخازن – ترجمة د . وفاء فارس وحسين حيدر – ص ٨ .

ثورات الإخوة كانت بسبب ولاية العهد ، إذ يبدو أن نظام تسلسل الخلافة المقرر عند السلالة السعدية ، هو أن يؤول حق وراثة العرش للفرد الأكبر سناً في العائلة ، إلا أن السلطان عبدالله الغالب خالف هذه القاعدة المتفق عليها ، وأعلن إبنه الصغير المولى محمد وريثاً للعرش ، فكان هذا القرار مجحفاً بحق أعمام الوريث الجديد واخوته الأكبر منه أيضاً .

فشهد عام ١٥٥٨م ثلاث ثورات في آن واحد إثنتان قام بها إخوته وهم المولى عثمان الذي ثار في منطقة السوس ، والمولى عبدالمؤمن الذي ثار في مراكش ، إلا أن الغالب بالله تمكن من إحباط تلك الثورات وأنزل هزائم بأخوته ، مما دفع باثنين من أعمامه وهما عبدالمالك وأحمد أن يهربا إلى الجزائر وهناك التحق بهم الأخ عبدالمؤمن أيضاً وطلبوا اللجوء السياسي عند السلطات العثمانية في مدينة (تلمسان) في الجزائر .

أما حاكم منطقة (دبدو) السابق وهو المولى عمر فقد هرب إلى الجزائر وتمكن من اقناع الوالي التركي بمساعدته ، فقام الوالي بتجهيز جيش تقدم به نحو المغرب ، فتصدى له الغالب والتقى الطرفان في يوم السبت ٢/ ٤/ ١٥٥٨م في مكان قرب (وادي اللبن) حيث دارت الدوائر على القوات العثمانية فانهزمت وتراجع والي الجزائر التركي وحاكم دبدو نحو مدينة بادس . ويذكر المؤرخون أن النصر المغربي تم بالتعاون والتنسيق ما بين قوات الغالب المغربية والقوات الاسبانية الموجودة في الجزائر ، ويؤيدون قولهم هذا بأنه وبعد هزيمة الأتراك فإن حاكم مدينة وهران الاسباني حاول اغتنام الفرصة لكسب نصر عسكري في الجزائر ، فقام بهجوم مفاجيء ، إلا أنه مني بهزيمة أمام العثمانيين .

وعلى كل حال فقد خرجت صورة عبدالله الغالب بملامح تتصف بالعنف والميل إلى سفك الدماء ضد أفراد عائلته وضد معارضيه ، كما تبين أن سياسته الخارجية كانت ترمي إلى مقاومة التوسع العثماني في المغرب بالاستعانة بأعدائهم الاسبان والبرتغال وذلك عن طريق مهادنتهم والمحافظة على السلم معهم والاستجابة إلى

مطالب الدول الأوربية ، ومنها عقدهُ معاهدة مع فرنسا في شهر يوليو ١٥٥٩م تقتضي بتنازله عن ميناء (المرسى الصغير) للفرنسيين مقابل مده بالأسلحة والعتاد الحربي وإرسال وحدة عسكرية فرنسية تكون بمثابة الحرس الخاص له ، كما تنظم المعاهدة التجارة بين البلدين وتقر حالة السلم بينهما[٧] .

إلا أن الأحوال تغيرت عام ١٥٦٢م إذ شهد صداماً مسلحاً بين القوات المغربية التي كان يقودها الأمير محمد بن الغالب بالله والقوات البرتغالية الموجودة في مدينة (مازكان) وتمكن الأمير من إحكام الحصار حولها لمدة شهرين وأوشك المجلس الملكي البرتغالي أن يصدر أمراً بإخلاء المدينة ، لولا أن السلطان الغالب بالله أصدر أمراً بفك الحصار عنها ، بل وافق على أن تبقى بيد البرتغاليين كما أطلق يد الاسبان في احتلال جزيرة بادس خوفاً من أن يتخذها الأتراك قاعدة لعملياتهم العسكرية ضد المغرب لذا فقد قام الاسبان بمساعدة البرتغاليين باحتلال بادس عام ١٥٦٤م .

ويجب التأكيد هنا على أن أقوال المؤرخين الذين أرخوا لأيام الغالب كانت غير منسّقة وغير واضحة إلا أنه يغلب عليها القول إن الغالب هادن الدول الأوربية بدافع الخوف من الخطر العثماني ، لأن المعارضين لحكمه ذهبوا إلى العثمانيين الموجودين في الجزائر ، خاصة عبدالملك الذي تلقب بلقب (المعتصم بالله) وراح يدعو إلى اسقاط حكم أخيه متهماً إياه بالتعاون مع الدول المسيحية ، وتبذيره أموال الدولة في بناء المباني والقصور الفخمة وانغماسه في الترف والملذات . ويوجه المؤرخون إتهاماً آخر إلى الغالب بالله وهو تقاعسه عن نجدة الأندلسيين في ثورتهم بغرناطة عام ١٥٦٨م ، فقد ثار المسلمون هناك عندما أصدر الملك فليب ملك اسبانيا قوانين جائرة بحقهم ، فهدم حماماتهم وجوامعهم وأتلف ثيابهم وأمر برفع الحجاب عن وجوه النساء وعدم التحدث بالعربية وترك أبواب منازلهم مشرعة ليلاً نهاراً لمدة ثلاثة أيام . فقام المسلمون بثورة بقيادة (دون فرناندو دوفالور) الذي استرجع اسمه العربي الأصلي محمد بن أميه ، وأطلق على ثورته اسم (البشارات AL-PUCHARRAS) ،

(٧) د . عبدالكريم – ص ٥٧ . ود . ابراهيم شحاته – ص ١٤٣ .

وسجل رجال الثورة نجاحات باهرة إلا أن فيليب الثاني تمكن منهم وسحق ثورتهم .

وقد ثبت فيما بعد أن هؤلاء المسلمين حاولوا نيل المساعدة من الغالب بالله ومن الأتراك فلم يقم أحدٌ من هؤلاء بنجدتهم ، لذلك فلقد كانت النكبة التي حلت بهم عظيمة إذ إن من نجا منهم من عقاب الملك فيليب فقد انتهى هائماً علي وجهه في المناطق الجبلية الوعرة والوديان السحيقة إلى أن مات(٨) .

لكن أهم ما حدث بالنسبة لتلك الثورة الإسلامية في اسبانيا هو أنها قامت في السنة التي بلغ فيها (دون سيباستيان) سن الرشد وتم تتويجه ملكاً على عرش البرتغال الملك (دون سيباستيان الأول ملك الأمبراطورية البرتغالية) ، وكان في الرابعة عشرة من عمره ، ولم يكن بعيداً عن أخبار ثورة المسلمين في غرناطه فقد تتبع سير العصيان المسلح وتحركه بحذافيره ولاحق الأعمال العسكرية التي مارستها القوات الاسبانية للتخلص من المسلمين ، وعلى الرغم من ثبوت عدم تورط السلطان المغربي الغالب بالله بمساعدة مسلمي غرناطة ، لكن الملك سيباستيان كتب إلى خاله ملك اسبانيا يعلمه فيه بأن لديه معلومات تفيد بأن الغالب بالله وابنه محمد كانا يرغبان في الاستفادة من عصيان غرناطه وقال له إنه يعد الآن ثمانية آلاف فارس لمهاجمة مدينتي سبته وطنجه ، وإنه مع رأي الكنيسة الاسبانية بأن الحل الوحيد للتخلص من هؤلاء الكفار ، أعداء المسيح هو قتلهم وإفناءهم بشكلٍ نهائي . وعندما قام بزيارة لأرجاء مملكته بعد تتويجه التقي بمجموعة من الرهبانٍ وجنود هيكل الرب وأمضى عدة خلوات عندهم ، وأجرى معهم الأحاديث والمناقشات حول الانقسامات والضعف الذي أصاب المسيحية والهجمات التي يقوم بها المسلمون من كل حدب وصوب ، وفي ختام الحديث سألهم سيباستيان مستفسراً : « هل أنتم مستعدون للموت في حب يسوع . .؟» .

(٨) عادل سعيد بشتاوي - الأندلسيون المواركه - ص ١٥٠ .

فأجابه المجتمعون : «قسماً بالله إننا مستعدون دائماً أيها الملك ، في سبيل الانقضاض على الحيوان الكافر وإبادته » .

وفي أثناء طريق العودة إلى لشبونه ، كان يتمتم بشيء أثار فضول أحد الرهبان فسأله : « يا صاحب الجلالة أية صلاة تتلو . . ؟ » .

فأجابه : « لا ، هذه ليست صلاة ، إنها أقوال المسيح الواردة في انجيل القديس حنا ، هذه الأقوال هي بالنسبة لي بمثابة القرار والأمر ! » .

ثم أخذ يستظهر بصوت خافت : « أنا الدالية وأنتم عودها ، ومن لا يكون في داخلي سيرمى به خارجاً كمثل عيدان الكرمة ويجف ثم تجمع هذه العيدان ويرمى بها في النار فتحرق . »

وتابع يهمس : « أجل بالنار والحديد ، بنار المدافع والبنادق وبحد السيف .»[٩]

وهكذا قرر هذا الملك الصغير أن يكون القائد الذي يدفع بجيوشه ضد معاقل الإسلام لتهديمها ، كما قرر أن يكون عام ١٥٧٠م بداية لتشكيل حملة كبرى يكون هدفها الأول هو سحق وتحطيم أول ممالك المسلمين ، وهي المملكة المغربية . وعندما كان يقوم بالإعداد لتلك الحملة التي ستقلب وجه التاريخ البرتغالي فإن السلطان عبدالله الغالب بالله انتقل إلى رحمة الله في شهر يناير من عام ١٥٧٤م ، فآل العرش إلى ابنه مولاي محمد حاكم فاس فصار سلطاناً على المغرب ، وتلقب بلقب محمد المتوكل[١٠] .

(٩) يونس نكروف – المصدر نفسه – ص ٤٠ إلى ٤٧ .

(١٠) الدكتور عبدالكريم – المصدر نفسه – ص ٩٥ .

30

الفصل الثلاثون

* فشل ثورة الطوالقي في اليمن ضد الأتراك .
* تعيين دون افونسو دي نورونها نائباً لملك البرتغال في الهند عام ١٥٥٠م .
* أهالي (ظفار) ينزلون هزيمة بقوة برتغالية ويقتلون قائدها .
* حملة دي نورونها إلى الخليج العربي تهزم الاتراك وتصل إلى البصرة .
* حملة بيري بيك ريس إلى الخليج عام ١٥٥٢ .
* بيري بيك يطوق هرمز ثم ينسحب إلى البصرة ومنها إلى مصر حيث تم اعدامه هناك بتهمة الخيانة العظمى .
* سيدي علي ريس يخفق في انقاذ الاسطول العثماني المحاصر في البصرة .
* دون بيرو دي ماسكرينهاس يصبح نائباً للملك في عام ١٥٥٤ .
* دون قسطنطين دي بارغانزا يصبح نائباً للملك في عام ١٥٥٨ ومصرع القائد دون جوان دي نورونها .
* الإمام المطهر شرف الدين الزيدي يحتل عدن عام ١٥٦٧ ويوحد اليمن ويتعاون مع البرتغاليين .
* وقفه سريعة على الأحوال السياسية داخل عُمان .

قلنا في صفحات الفصل الثامن والعشرين إن أوضاع الأتراك لم تكن مستقرة في البلدين اللذين يمكن أن يتخذاهما كأحسن فكي كماشه لتطويق البرتغاليين والقضاء على نشاطهم في الخليج العربي وبحر العرب . وهما العراق وحضرموت ، أو بصورة

أدق البصرة في العراق وعدن في حضرموت .

لكن سوء الإدارة التركية في البلدين دفعت بزعيمين من زعمائها كل إلى الثورة في بلده ضدهم والتعاون وطلب النجدة من البرتغاليين . ففي عام ١٥٤٧م قام أحد زعماء قبيلة الطوالق في اليمن وهو الأمير علي بن حسين الطوالقي بثورة ضد الأتراك ، وتمكن من احتلال عدن وطردهم منها ، ومن هناك أرسل إلى السلطات البرتغالية كتاباً يطلب منهم مساعدته .

وفي البصرة قام شيخ متنفذ آخر ، لم تذكر لنا صفحات التاريخ اسمه ، بالثورة ضد الأتراك أيضاً وأرسل إلى البرتغاليين كتاباً يطلب النجدة ويعدهم بالتحالف والموافقة على إقامة قاعدة حربية برتغالية في البصرة وتجنيد عدة آلاف من أنصاره لمساعدتهم عسكرياً إن هم ناصروه .

وقد وافقت الحكومة البرتغالية على نجدة الطوالقي أولاً ، فأوعزت إلى حاكم هرمز أن يقوم بذلك ، فأرسلت سلطات هرمز قوة بحرية بقيادة القائد (دون بايو دي نورونها DOM PAYO DE NORONHA) ، بلغ تعدادها ثلاث سفن حربية ، ولما وصلت تلك القوة إلى مشارف عدن ، علم (دي نورونها) بأن ثورة الطوالقي قد فشلت ، وأن فرهاد باشا حاكم اليمن العثماني الجديد ، تمكن من اقتحام عدن وإلقاء القبض على الطوالقي وإعدامه ، وحاول (دي نورونها) أن يقوم بإيجاد موطيء قدم له على أرض اليمن فأنزل قوة صغيرة لتكون رأس جسر له لقتال الأتراك ، إلا أن الأتراك كانوا أسرع منه ، فهاجموا تلك القوة وأنزلوا بها هزيمة دفعت بالقائد البرتغالي إلى الهرب عائداً إلى هرمز[1] .

وفي عام ١٥٥٠م تم تعيين نائب جديد لملك البرتغال هو (دون أفونسو دي نورونها DOM AFFONSO DE NORANHA) الذي ما إن استقر في (كوا) حتى أمر بتشكيل حملتين ، واحدة تذهب إلى البحر الأحمر لقتال الأتراك الذين هزموا قوة (دون بايو) ،

(١) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٤١٢ . وكذلك SARJENT - المصدر نفسه ص ١٠١ .

والثانية إلى الخليج العربي لمعالجة الأوضاع هناك ونصرة شيخ البصرة .

تشكلت قوة البحر الأحمر بقيادة القائد (لويس فيغارو LUIZ FIGUIRA) الذي غادر الهند ووصل إلى هرمز ومنها توجه الى الساحل العُماني ، وما إن وصل إلى سواحل (ظفار) حتى خرجت له قوة لم تذكر المصادر البرتغاليه جنسيتها فيما إذا كانت تركية أم عربية ، والأغلب أنها لأهل (ظفار) تصدت له واشتبكت معه في معركة قُتل على أثرها (لويس فيغارو) وتشتت شمل أسطوله حتى أن نائبه (كاسبار نونا) خاف من مغبة تلك الهزيمة فقرر أن يهرب من الخدمة العسكرية وفر بسفينته إلى الحبشة واختفي هناك . أما بقية القوة فقد عادت أدراجها مكسورة إلى الهند[٢] .

أما حملة الخليج العربي فقد أودعت قيادتها إلى (دون أنطونيو دي نورونها DOM ANTONIO DE NORONHA) وهو ابن أخ حاكم الهند ، وتشكلت الحملة من (١٩) سفينة مقاتلة على ظهرها (١٢٠٠) جندي برتغالي وكانت أهدافها مقاتلة القوات التركية التي تحتل بعض أجزاء ساحل القطيف ثم التقدم نحو البصرة لمساعدة (الشيخ الثائر) ضد السلطات التركية العثمانية هناك . ولما وصلت الحملة إلى هرمز تم إضافة (٣٠٠٠) مقاتل هرمزي إليها .

كانت الحامية التركية الموجودة في القطيف لا تتجاوز الـ (٤٠٠) مقاتل عندما وصلها البرتغاليون ، وقد قاتل الأتراك ببسالة وتمكنوا من قتل اربعين برتغالياً ، إلا أنهم استسلموا في اليوم التالي ، وتقول بعض المصادر إنهم استسلموا بعد ثمانية أيام ، فدخل البرتغاليون والهرمزيون إلى الحصن ودكوه دكاً وأهلكوا كل من كان فيه ، ما عدا قائد الحامية (مراد بك) الذي تمكن من الهرب إلى العراق ، ثم أصدر القائد البرتغالي أوامره لأسطوله بالتوجه نحو البصرة ، ولما وصلها وجد أن (باشا البصرة) لم يتخذ استعدادات عسكرية لمقاتلته ، بل بالعكس فقد طلب الاجتماع به ومفاوضته سلمياً ، وقد انتهت المباحثات بين القائدين بموافقة (نورونها) على عدم القتال والانسحاب من البصرة .

(٢) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٤٩٢ .

أما ماذا دار بين القائدين من حديث ؟ وما هو سبب انسحاب البرتغاليين ؟ . فتقول المصادر البرتغالية إن باشا البصرة الماكر خدع نورونها بأن أبلغه أنه موجود في البصرة لغرض الاتفاق مع الشيخ الثائر على مساعدته في الحصول على السلطة هناك ، وأن القوات التركية تفاوضه على هذا الموضوع وأنه سينسحب وقواته من البصرة بعد ذلك ، ولهذا عاد (نورونها) إلى هرمز ، ولم يكتشف خدعة القائد التركي إلا عندما وصل إلى هناك .

أما المصادر التركية فتقول ، إن (بيلربي البصرة) قد طبق خطة ذكية لتفادي هجوم البرتغاليين بحيث جعل القائد يعتقد أن الأتراك والعرب قد شكلوا حلفاً ضد البرتغاليين ، الأمر الذي جعل (نورونها) يقرر الانسحاب إلى هرمز[٣] .

وبعد تلك الاحداث فإن قيادتي القوات البرتغالية والعثمانية راحتا تعملان لترسيخ أقدامهما أكثر في الخليج العربي ، فقد قامت السلطات البرتغالية بتقوية دفاعات مدينة مسقط ، فجددت بناء قلعتي (أدميرال) و(سانت جوا)[٤] وحصنت جلفار (رأس الخيمة) وغيرها من الأماكن . أما رد الفعل العثماني فقد أصدر الباب العالي أوامره إلى (قبودان مصر) أي قبطان مصر وهو قائد القوات التركية البحرية العاملة هناك (بيري بك) ويعرف أيضاً باسم (بيري بك ريس) بالتوجه نحو الخليج العربي ومقاتلة البرتغاليين . وفي أوائل عام ١٥٥٢م أقلع (بيري بك ريس) من مصر ومعه خمس وعشرون سفينة مدمرة كبيرة وأربع سفن من نوع (غالون) وسفينة نقل ضخمة ، أما عدد أفراد القوة المقاتلة فقد كان ألفاً وستمائة مقاتل . وفي ٦/ تشرين الثاني/ ١٥٥٢م ، أرسلت القيادة التركية خبراً إلى (بيلربي البصرة) واسمه (قباد باشا) مفاده أن بيري بك سيقوم باحتلال هرمز ثم البحرين مما يؤمن حماية البصرة مستقبلاً . وصلت أنباء حركة الأسطول العثماني إلى مسامع (الفارو دي نورونها) الحاكم العسكري البرتغالي في هرمز ، فقرر أن يتصدى له في عرض البحر قبل وصوله إلى

---

(٣) DANVERS – المصدر نفسه – ص ٤٩٢ . وكذلك الدكتور صالح أوزبران – المصدر نفسه – ص ٣٨ .

(٤) صار اسمهما (الميراني) و(الجلالي) بعد تحرير مسقط من البرتغاليين .

هرمز ، فأوعز إلى القائد (سايمو دي كوستا SIMAO DA COSTA) أن يخرج بأسطوله للتفتيش عن الأسطول التركي وصد تقدمه ، ولما التقى الاسطولان تمكن بيري بك من تحطيم الأسطول البرتغالي واغراقه ، فأصبح الطريق مفتوحاً أمامه إلى مسقط ، وعندما وصل إلى هناك وقفت سفنه أمام المدينة وأمر بتوجيه مدافعها نحو قلعتي المدينة وحصونها ، واستمر القصف لمدة ثمانية عشر يوماً إلى أن استسلم قائد موقع مسقط وهو (جوا دي لزبوا JOAO DE LIZBOA) فأخذه بيري بك ومعه ستون أسيراً برتغالياً ، ثم غادر مسقط بدون أن يترك فيها حامية تركية ، أو أن يستثمر الفوز بتلسيمها إلى أمراء عُمان العرب ، بل اكتفى بأخذ مدافع القلعتين وعتادهما ثم توجه نحو هرمز لمقاتلة البرتغاليين هناك .

كان القائد البرتغالي لهرمز يمتلك حامية برتغالية يبلغ تعدادها (٩٠٠) رجل وقد تحصنوا تحصيناً جيداً في قاعدتهم العسكرية ، فلما وصل بيري بك إلى الجزيرة أمر جنوده بالنزول إلى البر في منطقة بعيدة عن القاعدة البرتغالية ، ثم أمر بإنزال مدافع السفن وسحبها قريباً من القاعدة والحصن ثم قامت قواته بتطويق المنطقة وأحكمت حصار القاعدة ، واندلعت نيران المعارك بين المهاجمين الأتراك والمدافعين البرتغال ، واستمر الحصار مدة شهر بدون أن يتمكن بيري بك من اقتحام القاعدة ، لذلك فقد قرر أن يفك الحصار عنها وينسحب إلى جزيرة القسم حيث راح يتصل من هناك بتجار هرمز ليجمع منهم النقود والأثاوات ثم أبحر إلى البصرة .

وعندما كانت تلك الأحداث دائرة فإن حاكم الهند (أفونسو دي نورونها) قرر الإسراع لنجدة حامية هرمز ، وعندما وصل إلى مدينة (ديو) الهندية في شهر سبتمبر من عام ١٥٥٢م وردت إليه معلومات تفيد بأن بيري بك قد فك الحصار عن هرمز وأنه ارتحل إلى البصرة ، فقرر عدم الذهاب بنفسه بل أوكل المهمة إلى (أنطونيو دي نورونها) الذي أسرع إلى هرمز باثنتي عشرة سفينة ضخمة وثمان وعشرين مدمرة خفيفة .

وفي البصرة التقى بيري بك ريس بالوالي التركي (قباد باشا) ووقع خلاف بين الرجلين بسبب ما أُشيع عن استيلاء الأول على أموال تجار هرمز ومقايضته الأسرى البرتغاليين بمبالغ كبيرة من المال ، لذلك فقد ترك بيري بك البصرة عائداً بثلاث سفن إلى مصر غرقت احداهما قرب البحرين ، وعندما وصل إلى مقر قيادته هناك وجد ثلة من الجنود في انتظاره ، وتم اعتقاله ووجهت اليه تهمة التلاعب بأموال الدولة وعدم تنفيذ الواجبات العسكرية التي عهدت اليه بصورة جيدة ، وتم اعدامه في استانبول عام ١٥٥٣م(٥) .

لم تكن تلك الحادثة نهاية لمحاولة العثمانيين السيطرة على الخليج العربي ، إلا أن جهودهم حتى تلك الفترة لم تتجاوز سيطرتهم على الساحل الممتد من البصرة إلى القطيف تقريباً ، لذلك فقد صدرت أوامر الباب العالي إلى القائد مراد بك الموجود في مصر وهو القائد التركي الذي خسر معركة القطيف عام ١٥٥٠م ضد أنطونيو دي نورونها ، بالتوجه إلى البصرة ومحاولة الخروج بسفن (بيري بك) التي تركها هناك والعودة بها إلى مصر ، وعندما وصل مراد بك إلى البصرة براً كان متلهفاً لمقاتلة البرتغاليين ثانية انتقاماً لفشله في عام ١٥٥٠م ، وكان الاسطول العثماني الموجود في البصرة مكوناً من خمس عشرة سفينة خرج بهم من البصرة إلى مياه الخليج ، إلا أن السلطات البرتغالية شعرت به فأرسلت القائد (دون دييكو دي نورونها) لمقاتلته ، فالتقي الاسطولان قرب السواحل الفارسية واشتبكا بمعركة عنيفة ، وخلال قتالهما هبت عاصفة بحرية شتّتت شمل الأسطول البرتغالي ، وأوشكت إحدي سفنه أن تقع فريسة للقوات العثمانية ، لذلك فقد قرر القائدان العثماني والبرتغالي العودة إلى قواعدهما .

وصلت إلى مسامع الباب العالي أنباء إخفاق مراد بك بانزال هزيمة بالبرتغاليين والخروج بالاسطول التركي المحاصر في البصرة ، لذلك فقد قرر اسناد المهمة إلى

(٥) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٤٩٩ . وكذلك الدكتورة سعاد ماهر - البحرية المصرية - ص ١٤٠ . وكذلك الدكتور عبدالعزيز سالم - المصدر نفسه - ص ٤٠٩ .

(سيدي علي ريس) ويسمى أيضاً (سيدي علي شلبي) واسمه الأصلي هو علي بن حسين وهو أحد أبطال البحرية التركية من ضباط القائد الشهير (باربروس خير الدين) ، وقد اشتهر عندما ألحق هزائم بفرسان القديس يوحنا الذين كانوا قد اتخذوا من جزيرة (رودس) قواعد لمقاتلة الأسطول التركي في المتوسط .

كانت أوامر الباب العالي تنص على أن يذهب سيدي علي إلى البصرة عن طريق البر وأن يقوم بقيادة الأسطول الـمُحاصر هناك والخروج به من الخليج العربي وإعادته إلى مصر . ويبدو من سير المعارك التي حدثت فيما بعد أن أوامر الباب العالي كانت تنص على عدم التعرض للقواعد العسكرية البرتغالية في الخليج أو مهاجمة هرمز ، أو الاصطدام بالاسطول البرتغالي ، بل انقاذ الاسطول فقط .

وصل القائد الجديد إلي البصرة في شهر شباط عام ١٥٥٣م وكان والي البصرة مصطفى باشا يعاني من مشاكل وثورات داخلية يقودها شيوخ آل مشعشع وآل عليان ، فساعده على استتباب الأمن ، ثم أجرى صيانة عامة للأسطول ، وفي حوالي شهر تموز من العام نفسه تمكن من الخروج من البصرة إلى مياه الخليج العربي متفادياً الاصطدام بالبرتغاليين ، ثم تمكن من التسلل من فم الخليج[٦] . إلا أن السلطات البرتغالية شعرت به عندما كان اسطول هرمز بقيادة (دون فرناندو دي نورونها) في منطقة (ظفار) العُمانية للقضاء على ثورة كانت قائمة هناك ، فترك مواقعه واتجه نحو الخليج . وفي يوم ٢٥/ ٨/ ١٥٥٣م التقى الاسطولان قرب مسقط ، ودارت معركة شديدة بين الطرفين ، حيث هاجم أسطول هرمز المكون من (٣٢) سفينة السفن التركية واستطاع تحطيم ست منها مما أجبر سيدي علي الهرب بسفنه نحو السواحل اليمانية ، إلا أن جبهة جديدة انفتحت أمامه ، فقد بدأت معركته مع الطبيعة القاسية ، فقد هبت عليه ريح صرصر عاتية راحت تدفع بسفنه بعيداً عن الشاطيء إلى البحر الهائج ، وفقد الربابنة والبحارة سيطرتهم على سفنهم وتمزقت الأشرعة وانكسرت

(٦) جعفر الخياط – تاريخ العراق في العصور المظلمة – ص ٣٥ .

القلوع ، ووجد الأسطول نفسه يقاتل طبيعة قاسية لمدة عشرة أيام ، وبعدها بان البر فوجد سيدي علي نفسه أمام ساحل (سورات) الفارسي وهناك كان يكمن له أسطول برتغالي أجهز على البقية الباقية من الاسطول العثماني ، ولم ينجُ إلا سيدي علي وخمسون مقاتلاً هرب بهم بسفينة واحدة إلى الهند ، وهناك طلب حماية حاكم ساحل (الكجرات) الهندي ، ثم غادر البلاد على ظهور الخيل ومر بمعظم بلاد الهند ثم فارس ثم بغداد ولم يصل إلى استانبول إلا في عام ١٥٥٧م[٧] . ومن الجدير بالذكر أن علي شلبي هذا أو علي بن حسين هو الذي ترجم اراجيز أحمد بن ماجد في كتابه المسمى (المحيط) ، ولعله هو نفسه علي شلبي الذي وقع أسيراً بيد البرتغاليين عام ١٥٨٨م عندما كان يقاتلهم في ممباسه وهو ما سنذكره في وقته .

أما بالنسبة للقيادة السياسية البرتغالية في الهند فإن نائباً جديداً للملك قد تم تعيينه وهو (دون بيرو دي ماسكرينهاس DOM PERO DE MASCARENHAS) واستلم منصبه هناك في ٢٣/ سبتمبر/ ١٥٥٤م ، وكان أول ما فعله هو أنه أصدر أوامره إلى القائد (مانويل دي فاسكو نيكولوس MANOEL DE VASCONCELLOS) أن يتهيأ للذهاب إلى (ظفار) للقضاء على الثورة هناك ، ثم الذهاب إلي البحر الأحمر . ولا تفاصيل لدينا عن هذه الحملة سوى ادعاء نيكولوس بأنه تمكن من الوصول إلى جبل سيناء ، ثم عاد إلى الهند بدون أن يحقق فائدة تذكر .

وقد شهد عام ١٥٥٧م تطوراً سياسياً جديداً في البرتغال بوفاة ملكها (دون جوان الثالث) فخلفه حفيده الطفل (سيباستيان) ، ثم قامت جدته الملكة (دونا كاترينا) بالوصاية على عرشه ، كما بينا ذلك في الفصل السابق . كما أن نائباً جديداً للملك البرتغال تم تعيينه في الهند هو (دون قسطنطين دي بارغانزا DOM CUSTANTINO DE BRAGANZA) فراح هذا يحاول أن يقوي علاقاته بالحبشة بمحاولة ربط الكنيسة الحبشية بالكنيسة البرتغالية ، إلا أن تلك المحاولات لم تنجح بل بالعكس

(٧) الدكتور اوزيران – المصدر نفسه – ص ٥١ . DANVERS – المصدر نفسه – ص ٥٠٣ . الدكتور مصطفى سالم – المصدر نفسه – ص ٤١٢

فإنها أوجدت بعض الحساسيات المذهبية بين الأحباش والبرتغاليين إلى الحد الذي اتهمت فيه الكنيسة البرتغالية أتباع الكنيسة الحبشية بالكفر وجرت محاولات قام بها السفير البرتغالي هناك للإطاحة بالحكم في الحبشة(٨) .

كما قام دي بارغانزا بإجراء تغييرات إدارية في المناصب القيادية العسكرية والإدارية في الهند ، وكانت من جملة خططه تقوية وحداته العاملة في الخليج وبحر العرب .

ويبدو أن ثورة (ظفار) العُمانية كانت لا زالت قائمة إلى حوالي عام ١٥٥٩م وهي الثورة التي لا تفصيل يشفي الغليل لدينا عنها ، اللهم إلا في المصادر البرتغالية التي ذكرت أن القيادة الجديدة في الهند ، أصدرت تعليماتها إلى القائد (دون الفارو دي سلفيرا DOM ALVARO DE SILVEIRA) بتجهيز حملة ضد منطقة ظفار واخماد الثورة هناك ثم الذهاب إلي مدخل البحر الأحمر لمساعدة سفن القواعد البحرية البرتغالية المتواجدة على الساحل الأفريقي ضد السفن التركية العاملة هناك . وقد تكونت الحملة من عشرين سفينة مقاتلة إلا أنها واجهت عواصف شديده في المحيط الهندي أجبرتها على العودة إلى موانيء الهند بشكلٍ مبعثر ، ففشلت(٩) .

كما أن عام ١٥٥٩م شهد تحركاً عثمانياً عسكرياً جديداً في الخليج ، إذ قام كلٌ من حاكم الأحساء و(بكلربي البصرة) مصطفى باشا بإعداد حملة عسكرية هاجما حاكم البحرين المدعو (ريس مراد) ، ويسود الغموض تفسير الدافع الرئيسي لهذه الحملة بين قائل إنها كانت رغبة شخصية من مصطفى باشا لتوسيع نفوذه إلي البحرين ، وبين قائل آخر إنها قامت لنجدة أهالي البحرين من تعسف ريس مراد أو مراد ريس ، كما تختلط التعريفات في شخصية (مراد ريس) ، أهو ممثل حكومة هرمز البرتغالية ، أم هو فارسي ، أم والٍ تركي . . ؟ .

إن المصادر البرتغالية تقول إنه فارسي ويمثل حكومة هرمز في البحرين ، بينما تقول

---

(٨) د . رجب حزار - المصدر نفسه - ص ٢٨ .

(٩) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٥١٢ .

المصادر التركية إنه والي الأتراك على البحرين واسمه (الأمير جلال الدين مراد خان) ويسمى أيضاً (مراد شاه) ، وإن سبب الحملة العثمانية ضده كانت بدافع شخصي من مصطفى باشا وبدون موافقة الباب العالي .

وعلى كل حال فقد تشكلت الحملة من سفينتين مدمرتين كبيرتين وعدد آخر من سفن نقل الجنود والمدمرات الخفيفة عليها (١٢٠٠) جندي ، وتقول المصادر التركية إن الحملة وصلت أمام قلعة البحرين في ١٣/ رمضان/ ٩٦٦هـ وحاصرتها ، كما تقول المصادر البرتغالية إن (الريس مراد) أرسل نداءً مستعجلاً إلى (أنطونيو دي نورونها) الحاكم العسكري البرتغالي في هرمز يخبره بأمر محاصرته من قبل قوات مصطفى باشا ، فقام دي نورونها بتجهيز حملة بقيادة أخيه (جوا دي نورونها) مكونة من عشر سفن هرع بها إلى البحرين ، إلا أن البحرية التركية تصدت له في مشارف الجزيرة وقاتلته وأجبرته على الانسحاب إلي الشاطيء المقابل والاختفاء في الأخوار المائية هناك ، ثم لم يلبث حاكم هرمز أن أوفد حملة أخرى بقيادة (الفارو دي سلفيرا) ومعه عدد من السفن بحيث بلغ تعداد الحملتين (٢٢) سفينة ، وتمكن الاثنان من دحر المقاومة التركية وتوجها نحو سواحل البحرين التي كانت مطوقة ببقية الأسطول التركي .

اشتبك الطرفان بالحرب وقام محمد بك وهو قائد سنجق الأحساء بقيادة عدد من الفرسان الانكشارية جيء بهم من بغداد ، فهاجم بشده من حاول النزول براً من البرتغاليين ، أما مصطفى باشا فقد كان يدير المعركة من منطقة المنامة ، وبعد سلسلة من المعارك شارك فيها مراد ريس بثلاثمائة جندي إيراني لنجدة البرتغاليين يعاونه قائد محلي عرف باسم (ابن رحال) فإن البرتغاليين أوشكوا على الانكسار ، وقد قتل في أحدى المعارك جوا دي نورونها وهو الأمر الذي لم يشعر به العثمانيون لأنه غير موجود في تقاريرهم ، لذلك فقد قام حاكم هرمز بإيفاد القائد (بيرو بيتشو) ليحل محله ، ثم لم يلبث أن تبعه بنفسه ، وبذلك فقد تم تطويق القوة العثمانية بين دفاعات

البحرين الأرضية والأسطول البرتغالي ، كما أن مصطفى باشا قتل أثناء المعارك فانهارت معنويات الجيش العثماني ودبت المجاعة بين صفوفه ، لذلك فقد قرر قادة الجيش إجراء مفاوضات مع البرتغاليين للانسحاب إلى البصرة . وعليه فقد جرت المفاوضات التي اشترك فيها محمد بك وسلطان علي بك قائد موقع القطيف ، وانتهت بأن أعاد الأتراك الأسرى البرتغاليين ومعهم غنائم الحرب التي كسبوها ، كما دفعوا مبلغ مائة ألف (دوكات) أو (أُقجة) وانسحبوا إلى البصرة . وبلغ عدد قتلى البرتغاليين حسب ادعائهم أكثر من سبعين قتيلاً ، أما الأتراك الذين عادوا إلى البصرة فكانوا (٢٠٠) من أصل (١٢٠٠) ، وقد استمرت تلك المعارك مدة ستة أشهر تقريباً[١٠] .

وعلى كل حال فإن ما حدث بعد ذلك من أمور بين العثمانيين والبرتغاليين في الخليج العربي يسودها الغموض الشديد ، لأن أخبار الفعاليات التركية في الخليج تعوزها المصادر الموثّقة الجيدة ، إلا أنه وكما بدا واضحاً فإن روح الارتجال وعدم وجود تكتيك عسكري وسياسي جيد كان يسود التحركات العثمانية منذ بداية أمرها في الخليج العربي ، وعموماً يمكن القول إنه منذ الاحتلال العثماني للبصرة عام ١٥٤٦م إلى تاريخ المعركة التي كنا بصددها فإن الخليج العربي انقسم بين النفوذ العثماني الممتد من البصرة إلى سواحل القطيف ، ونفوذ البرتغاليين الذين سيطروا على هرمز وعُمان ، وكانت البحرين تشكل الحدود التي تفصل بين مناطق نفوذ البلدين .

كما بدا أيضاً أن كلا الطرفين أدرك استحالة تحقيق نصر حاسم على الطرف الآخر وأن نتائج الصدام تكون في غير صالح أحدهما ، لذلك وانطلاقاً من الفوائد الكثيرة في تشجيع التجارة بين الهند وتركيا عبر الخليج والعراق فقد قام والي البصرة بمفاتحة حاكم هرمز البرتغالي على وضع أسس لصلحٍ دائمٍ وعلاقات تجارية بين البلدين ،

---

(١٠) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٥١٤-٥١٥ . وكذلك تقرير حول الحملة العثمانية على البحرين عام ١٥٥٩م - البروفسور أورهنلو - منشور في مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية - العدد ٢٤ . وكذلك مقال (صفحات من تاريخ النفوذ البرتغالي في البحرين) منشور في مجلة الوثيقة العدد الأول السنة الأولى .

وفي عام ١٥٦٦ قام حاكم هرمز بارسال موفد هو (أنطونيو تاكسيرا) الذي قابل الباب العالي عارضاً عليه مقترحات هرمز ، إلا أن الباب العالي رفض الحديث معه باعتباره ممثلاً لهرمز فقط ، وطلب مقابلة شخصية تمثل البلاط الملكي البرتغالي .

لذلك يمكن القول إن اهتمام الأتراك بالخليج العربي لم يكن بالدرجة الكافية أي ليس بقدر اهتمامهم بمناطق العالم الأخرى التي كانوا فيها ، ولم تكن لديهم خطة لجمع قوى موارد الثغور الإسلامية البحرية وتنسيق جهودها في عمل عسكري فعال لضرب البرتغاليين ضربة قاضية ، خاصة وأنهم كانوا يسيطرون على فكي الكماشة اللتين تشكلان قواعد عسكرية مثالية للإطباق على البرتغاليين ، وهما البصرة في العراق وعدن في اليمن .

لكن أمور العثمانيين في اليمن لم تكن مستقرة أيضاً ، ذلك أن الثورة الزيدية في اليمن الشمالية كانت على أشدها خاصة عندما تمكن الإمام الزيدي المطهر بن شرف الدين من إنزال ضربة قاصمة بالقوات العثمانية عام ١٥٦٧م وأعلن أن اليمن الشمالية دولة مستقلة لا نفوذ ولا سيادة للعثمانيين عليها وأن عاصمتها هي صنعاء . ولم يكتف المطهر بما حققه من نصر في اليمن الشمالية ، بل أراد أن يمد نفوذه إلى اليمن الجنوبية لتخليصها من الفوضى والفقر والاضطراب الذي سبَّبهُ سوء إدارة الولاة الأتراك هناك ، فأوفد حملة بقيادة القائد علي بن الشويع لاحتلال عدن ، وكانت في عدن حامية عسكرية تركية قليلة ، لكن أهالي اليمن الجنوبية لم يكونوا يميلون إلى حكم الزيدية ، فاليمن الشمالية شيعية زيدية واليمن الجنوبية شافعية ، ولما تقدم جيش اليمن الشمالي وقام بتطويق عدن ، هال ذلك الفعل أحد زعماء منطقة الشحر وهو السلطان بدر فاتصل بالاتراك المحاصرين واعداً إياهم بالمساعدة ، لكن الشويع تمكن من فتح المدينة وقام بتنصيب أخيه قاسم بن الشويع حاكماً عليها وباشر باقامة الشعائر الدينية الزيدية في الجوامع ، وبذلك خضعت اليمن كلها للزيدية ما عدا مدينة زبيد[11] .

---

(١١) النهروالي – المصدر نفسه – ص ٢٤٩ . وكذلك الدكتور محمد عبداللطيف البحراوي – المصدر نفسه – ص ١٧١ .

وصل نبأ سقوط اليمن بيد الإمام المطهر الزيدي إلى تركيا فأصدر الباب العالي أمراً سلطانياً عام ١٥٦٨م بتعيين (سنان باشا) حاكماً على اليمن ، كما أوعز إلى أعظم قواده العسكريين البحريين وهو الأمير (بارباروس خير الدين) بالذهاب إلى اليمن والقضاء على المطهر .

كانت القوة الزيدية في عدن مكونة من كتيبة من ألف مقاتل ، منهم أربعمائة من حملة الحراب وستمائة من حملة البنادق ، وما إن علم والي المدينة قاسم بن الشويع أن جيشاً عثمانياً برياً بقيادة (الأمير ممي) يتوجه نحوه وأن أسطولاً بحرياً بقيادة خير الدين باربروس يتوجه نحوه أيضاً ، فقد أرسل إلى الإمام المطهر يقترح طلب النجدة من البرتغاليين . فوافق المطهر على ذلك ، وتذكر المصادر اليمانية أن البرتغاليين أرسلوا سفينة واحدة فيها عشرون ضابطاً تمكنوا من الدخول إلى عدن واجتمعوا بقاسم الذي اطلعهم على قلعة المدينة ووسائل الدفاع المتيسرة لديه ، وتم الاتفاق على أن تقوم البحرية البرتغالية بقتال العثمانيين بحراً ، بينما يقوم قاسم بالدفاع عن المدينة ومقاتلة الأتراك براً ، ثم عاد الوفد البرتغالي إلى مسقط وفي تقديره أنه بحاجة إلى عشرين سفينة حربية لمقاتلة الأتراك في عدن ومن هناك أرسلوا في طلب النجدة من الهند ، إلا أن العثمانيين كانوا أسرع من البرتغاليين إذ استطاعوا الوصول إلى عدن وأطبقوا عليها ، وتمكنوا من اقتحامها من ناحية قلعة شمسان فاستسلم قاسم بن شويع ، وتم فتح المدينة في ذي القعدة ٩٧٦هـ - ١٥٦٨م .[١٢]

* * *

وقبل أن نختتم صفحات هذا الفصل ، لا بد من وقفة قصيرة في أخبار دولة عُمان . فيذكر المؤرخون العُمانيون أن عام ٩٦٧هـ الموافق لعام ١٥٦٠م شهد نهاية الإمام بركات بن محمد بن اسماعيل ، وهو ابن الإمام محمد بن اسماعيل الذي وقع على زمانه الغزو البرتغالي لعُمان كما بينا ذلك في الفصول السابقة ، إلا أن أيام بركات هذا

(١٢) المصدران السابقان نفسهما .

لم تخلُ من منافسين سياسيين له فكثُرت الحروب والمنازعات الداخلية بينهم ، بحيث لم يذكر أحد من مؤرخي عُمان أن هناك برتغاليين يعشعشون في موانيهم . ولما مات بركات تنازع على الحكم من ذكرهم المؤرخون العُمانيون باسم (ملوك بني نبهان المتأخرون) فكان أولهم سلطان بن محسن بن سليمان بن نبهان ، ثم ابنه مظفر ، ومَلَكَ من بعده سليمان بن مظفر ، ثم تعود الاسماء فتختلط وتكثر الفتن والقلاقل ويظهر اسم (بني هناة) وكأنهم القبيلة المعارضة الأولى لسليمان بن مظفر ، ثم يموت سليمان بن مظفر عام ١٠١٩هـ - ١٦١٠م ، وتقوم الفتن وتقعد ، ولا يظهر اسم البرتغاليين أو (النصارى) على صفحات التاريخ العُماني إلا بعد عام ١٦١٠م ، أي بعد سقوط الدولة البرتغالية ، وهو الموضوع الذي سنحاول أن نفصِّله في فصولنا القادمة إن شاء الله(١٣) .

(١٣) السالمي - تحفة الأعيان بسيرة أهل عُمان - ص ٢٧٦ .

31

الفصل الحادي والثلاثون

في هذا الفصل ننشر جملة من الرسائل المتبادلة بين مختلف الأطراف التي ظهرت اسماؤها في الحقبة التي أعقبت الرسائل التي وردت في الفصل الثالث والعشرين ، وهي مأخوذة من عدة مصادر أهمها كتاب :

(DOCUMENTOS ARAB ICOS PARA AHISTORIY PORTUCUEZA)

أولاً : رسالة من الرئيس ركن الدين ، وزير هرمز إلى الرئيس شرف وزير هرمز المعزول ، حول محاولات ملك الإحساء السيطرة على البحرين والقطيف والبصرة .

بعد ديباجة قصيرة ،

« . . لقد فهمت يا سيدي كل ما كتبتم لي ، وكلنا نرفع أيدينا متوسلين إلى الله أن ينعم عليكم بالصحة وأن يحقق أمانيكم لان رعاية الله وخوارقه كبيرة ، وأتمنى أن يجمعنا كما كنا من قبل وكما نتمنى جميعا ، كما نرجو منه أن يطيل عمرنا حتى ننعم بتلك الفرحة التي نتمناها جميعا ، لقد علمت من رسالتكم التي بعثتموها لي انكم تتمنون المجيء في اول اسطول ياتي ، اتمنى أن يتم ذلك . .

وبعد هذا اخبركم أن كل المناطق هادئة ، وأن اخبار واحوال هرمز لا تستدعي الكتابة اما ما أمرتموني به من خدمة ملك هرمز ، فإن الله يعلم كيف خدمته ونصحته ، وذلك بحب كبير ، إلا أن طبعه يحول دون إعتبار نصائحي ونصائح غيري إذ لا يعمل إلا برأيه الخاص . ويبدو لي أنه لن يتفاهم ابدا مع أي احد . ومع ذلك ، فانتم تعلمون أنه يتحمل مسؤولية ذلك ، وارجو من الله أن يتم قدومكم كما ذكرتم في رسالتكم ، وأن

تقفوا (بكوا) على أخباره وأموره وأحواله .

إنني منذ سنتين ونصف في خدمة ابنه الذي ينوب عنه اليوم ، وأحمد الله على إنني لحد الساعة لم اختلف معه .

إعلموا بعد هذا أن الملك محمد ، حاكم البحرين ، في صحة جيدة ، وأن ملك الاحساء الشيخ (مانيج بن رشيد MANING BEN RASHID)[1] مقبل على القطيف وعازم على الاستيلاء على البحرين وأنه تم تبادل عدة رسائل بينهما حتى أن سعيد بن عبدالله ، وهو من سكان الأحساء توسط بينهما فأمضيا هدنة ، إلا أن ملك الاحساء جمع عددا كبيراً من المحاربين وعاد للاستقرار بالقطيف داخل قلعة جديدة أمر ببنائها بعد أن أمر بهدم القلعة القديمة ، وما إن علم رجاله وباقي مرافقيه من سكان المنطقة بنواياه الرامية إلى محاربة مسلمي البحرين حتى فر عنه أغلبهم بصحبة أبنائهم وزوجاتهم ، وكان أول هؤلاء الفارين محمد بن رحال CAIN BEN RAAL وذوية الذين رحلوا جميعا مع اخرين لوضع انفسهم تحت حماية والي البحرين ، كما أن احد اعيان المسلمين المسمى الشيخ محمد بن مسلم MAHAMED BEN MACALAM قدم بدوره إلى البحرين صحبة قومه ، وذلك رغم أنه من الأحساء .

ولما رأى الملك ذلك انتقل إلى البصرة ، وبينما كان مخيما بجوانبها ، انقض عليه سكانها في أعداد كثيرة وهزموه وقتلوا له عدداً كبيراً من المحاربين بينما تمكن هو من الفرار على ظهر فرسه ، وذلك بعد أن تعرض لجروح بليغة ، وفي الاحساء التي عاد اليها استطاع جمع عدد كبير من الرجال من ضمنهم أعراب كثيرون ، وحينذاك وصله خبر موت ملك البصرة الذي كان أحد اقاربه ، والذي كان يدين للأتراك بالولاء ، وقد خلفه صبي بايعه سكان البصرة ملكا على مدينتهم ، وما إن علم ملك الاحساء بذلك حتى توجه مع رجاله نحو البصرة ، واستغل حاكم البحرين ، الرئيس محمد ، ذلك وجمع عدداً كبيراً من الفرس والعرب وهاجم القطيف حيث أحرق له مائة وخمسين

---

(١) لعله مانع بن راشد بن مغامس .

مركبا ما بين كبير وصغير كانت من قبل في ملكية عاهل هرمز قبل أن تخونه وتصبح في حوزة ملك الاحساء .

ولما وصل ملك الاحساء إلى البصرة فتح له أعيان المدينة الابواب وبايعوه ملكاً . وفور تلك البيعة بالبصرة علم باحراق حاكم البحرين لمراكبه ، فأمر بمصادرة كل مراكب تجار البحرين الموجودة بالبصرة والاستيلاء على سلعهم ، غير أن أعيان المدينة استاءوا من ذلك وطردوه من مدينتهم وبايعوا عوضا عنه أحد اقاربه المسمى الشيخ يحيى ، وأعادوا السفن والسلع لمسلمي البحرين ، وعوضوا لهم كل ما فقدوه .

والشيخ يحيى هذا رجل فاضل يرغب كثيراً في الحصول على صداقة البرتغاليين ، أما ملك البصرة المذكور الذي طرده السكان منها ، فانه عاد إلى الاحساء ، وهو لا يزال يحلم بالاستيلاء على البحرين ، ويعد بالقيام بذلك في اقرب الآجال ، ولن يصعب عليه ذلك لشدة قوته وكثرة جنوده .

ولما علمت بهذه الأحداث التحقت بالقبطان (مرتين افونصو دو ميلو) لاشعاره بها ، وكذا الكاتب وأعيان البرتغاليين وقلت لهم إن عليهم إرسال أسطول لحماية البحرين أو بناء قلعة بالقطيف لضمان أمن البحرين ، إلا أن القبطان أجابني منذ ثلاثة ايام أن مولانا الملك يتحمل مصاريف ضخمة بالهند وبهرمز الأمر الذي يحول دون ارسال اسطول إلى البحرين ، واقترح أن يجمع حاكم البحرين كل محاربيه وأقاربه وأن يستولي لمدة سنة على الجبايات التي قد تكون هناك للفرس وذلك قصد تجهيز اسطول يمكنه من الاستيلاء على القطيف . لذا بعث اليه القبطان برسالة موقعه من طرفه وكذلك من لدن الكاتب يخبرانه فيها أن العمل باقتراحهما يمثل خدمة لملك البرتغال ، وأنه في حالة استيلائه على القطيف ، فانه سيحتفظ بها لنفسه دون أن ينازعه في ملكيتها احد ، واكد له أن ملك هرمز موافق بدوره على ذلك . وبعث له ملك هرمز بدوره خطابا آخر ، إلا أن الحاكم لم ينفذ الاقتراح بعد .

ولقد تطوع محمد بن رحال ومحمد بن مسلمة بالمساهمة في نفقات تجهيز ذلك

الاسطـول ، أخبركم أن الشيخ أحمـد ، ابن الشيـخ اسماعيـل ، ذهـب إلى (GULI LAO) لمحاربـة بعـض السكان الثائرين ، كما أذكركم بخدمتي الصادقة التي لا تختلف عن خدمتي لملك البرتغال ، وأن أول دليل على ذلك هو إنني أبعث على نفقتي ، وعلى رأس كل سنة ، اشخاصاً إلى القاهرة والى عدن ولاماكن أخرى للاطلاع على أحوال وأخبار السلطان التركي وضباطه ، ولحد الساعة لم اتوصل إلى أي خبر يرتبط بما كاتبتموني في شأنه ، وسأسرع بإبلاغ قبطان الحصن بكل ما سيصلني من أخبار . أرجوكم أن تثقوا بي إذا ما قلت لكم إنني مسرور لخدمة ربي وخدمة ملك البرتغالي واظن أن سعادتكم تعلم ذلك . . أتمنى أن يطيل الله عمركم وأن يضمن لكم الرفاهية كما نرجو ذلك جميعا »[٢] .

ثانياً : رسالة كريستوف دي مندوسا عام ١٥٢٩ عن حملة برتغالية ضد البحرين وبعض البلدان العربية :

« مولاي :

لقد أخبرت جلالتكم بواسطة (منويل دو مسيدو MANUEL DE MACEDO) عن بعض أحوال مملكة هرمز هذه ، وبما أنه بعد ذهاب الوالي من هنا ، التحق (سيماو كونيا SIMAO CUNHA) بالبحرين ، فاني سأخبر جلالتكم بما حدث هناك .

لقد سبق لملك هرمز أن عين الرئيس بدر الدين - احد اقارب الوزير شرف - عاملاً على البحرين ، ولما أمرت جلالتكم باعتقال الرئيس شرف ، أراد الوالي عزل الرئيس بدر الدين ، وإبعاده عن البحرين لما كان يلحقه بالبلاد من أضرار ، وهكذا أوفد (بلشيور دو سوزا BELCHIOR DE SOUSA) قبطان البحر إلى ذلك الساحل على رأس ثلاثة أو أربعة مراكب مرفوقا بوزير مسلم ومعه رسائل وظهائر ملكية موجهة إلى الرئيس بدر الدين تأمره بتسليم الحصن إلى الوزير الذي أوفده إلى هناك ، كما أمر

(٢) هذا النص هو ترجمة برتغالية لرسالة حررت على مايبدو بالفارسية وأرسلت ترجمتها إلى الملك البرتغالي ليطلع عليها ، من مقال الاستاذ أحمد العناني في مجلة (الوثيقة) .

الوالي (بلشيور دو سوزا) بإلقاء القبض عليه والإتيان به أسيراً ، وبما أن (بلشيور دو سوزا) علم باكتشاف امره من لدن بدر الدين فانه ما إن وصل حتى سلمه الرسائل غير أنه رفض تسليم الحصن واحتاط منه كثيراً ، فأخبر (دو سوزا) الوالي بذلك . فقرر الوالي قبل ذهابه بخمسة عشر يوما إرسال (سيماو كونها) لاحتلال الحصن وأسر بدر الدين إن امكنه ذلك ، فاصطحب معه ٤٥٠ محاربا كان ضمنهم كل الفرسان الذين نجوا في ممباسه واخرن وجدوا آنذاك هنا بهرمز .

ولما نزل (سيماو كونها) إلى الأرض لاحظ أن الحصن منيع جداً ، وذلك بخلاف ما بلغه عنه إذ ذكر له أنه عبارة عن ركام ، ولما نزل المحاربون ، نصبوا مدفعيتهم التي سرعان ما شرعت في اطلاق النار وذلك إلى أن نفذ البارود ، فأرسل إليّ يطلب المزيد منه ، ولما وصله كان جل مرافقيه مرضى ، وما إن طلع اليوم التالي حتى تفاحش المرض وانعدم من يقوى على حمل المدفعية إلى المراكب واكثر من هذا لم يعودوا قادرين حتى على المشي لركوبها الأمر الذي حتم إرسال مراكب كثيرة ومحاربين من هنا لإرجاع المراكب لأنه من مجموع ٤٥٠ أو ٤٥٥ شخصاً ذهبوا إلى هناك ، لم يبق على قيد الحياة شخص لم يصبه الوباء . لقد توفي منهم ما يقرب المائتين ، وما يقرب هذا العدد في طريق الموت . لقد مات من الحمى (سيماو كونها) وكذا (منويل دو مندونسا) وكثير من الفرسان واعتباراً لعدد من عادوا مرضى يبدو لي أنه إذا ما فلتت منهم مائة ، فإن ذلك سيمثل بدون شك معجزة .

أما ما يتعلق بهذا الحصن وهذه المدينة فاعتقد أن جلالتكم قد اطلع على أحوالها بواسطة (منويل دو مسيدو) فبعد ذهابه تم إعتقال (خوجا ابراهيم COJA BRAHEM) كما كتبت لكم ذلك ، إن بهذه المدينة عددا من الرجال قدم ملك هرمز بشأنهم طلبا إلى الوالي لاعتقالهم ، ويقول الملك إن الوالي امر أن تقدم في شأن ذلك عرائض . من الأكيد يا سيدي ، أن الهدف من إعتقال هؤلاء الاشخاص هو قطع رؤوسهم وليس الإستيلاء على أموالهم كما يعتقدون لان ذلك هو ما كان يفعل من

قبل .

لقد ذهب (ديو غو دو ميلو) من هنا رفقة الوالي دون أن يدفع أي شيء مما يدين به للملك ، وكذلك فعل باقي الأشخاص كما سبق لي أن كتبت لجلالتكم ولقد قمت في هذا الأمر بما ادين به لربي ولجلالتكم قصد نشر العدالة والأمن ، ولقد سبق لي أن اخبرت جلالتكم بواسطة اشخاص ذهبوا من هنا بالأضرار التي ألحقها بمصالح جلالتكم ونقلوا لجلالتكم نسخة من حكم أصدرته في حقه لصالح ملك هرمز ، ولا أدري ما إذا كانت ستصلكم دون أن تزور وأتمنى أن أحملها إلى جلالتكم حينما التحق بكم ، وإن ذلك سيتطلب مجهودا كبيراً وربما كان الاداء من قبيل المستحيل ، لان البحرين التي تعد أهم منطقة بالمملكة توجد الآن في حالة عصيان ، وبما أنها لا تؤدي له لحد الساعة أي شيء ، فإن احتلالها ودفعها إلى الأداء كما هي ملزمة بذلك سيخفف من ثقل أداءاته .

إن الشيخ رشيد (KEQUE PAXAT) يقوم بمهمة الوزير كما هو في علم جلالتكم ، وهو رجل طيب ، وفي نظري شديد الاخلاص ، إلا أنه ضعيف الشخصية بالنسبة لمسألة في مثل خطورة هرمز ، لانه يا سيدي إذا ما استثنينا كون إخلاص الرئيس شرف الدين (REX XARAFO) لكم ، هو دون اخلاص الشيخ رشيد ، فإن مثل هذا المسلم لم يولد بهذه الربوع ليحكم المملكة ، ذلك أنه شديد الخجل والخوف وليس بهذا الضعف ستؤدى الضرائب كما يجب .

وفور مغادرة الوالي لهذه المدينة ، وصلتني أخبار عن الروم ، فلقد أخبرني مسلم كان هناك وقت قتل الملك سليمان عن اندلاع خلاف حاد بينهم بسبب ذلك ، انتهى بمعركة عنيفة ، غير أنهم عادوا إلى التصالح وانتخبوا (مير حسين) الذي كان واليا على جزر القمر رئيسا أكبر لهم ، وانطلقوا بعد ذلك لمحاصرة عدن التي استولوا لها على خزان الماء اعتمادا على عدد كبير من المحاربين وعلى هجمات شاركت فيها (الغليوطات) والمشاة ، ويقال إن عدد المحاربين بلغ ألفا وخمسمائة . وعدد السفن

ثلاث عشرة ما بين كبيرة وصغيرة ، غير أن جل محاربيهم قد تفرقوا وذلك بعد معارك حادة مع المدافعين عن عدن الذين بعد فقدانهم لخزان الماء وللميناء ، شنوا عدة هجمات استطاع العرب خلالها قتل البعض منهم والحاق اضرار بليغة بهم ، الامر الذي ارغمهم على الانسحاب والالتجاء إلى مكان قريب من عدن تتوفر فيه مياه عذبة وكثيرة يسمى (AGUFF) وهم إلى الآن هناك دون أن يعملوا على اعادة جمع المتفرقين منهم ، وقبل أن يصلني هذا الخبر ، وصلني خبر آخر مفاده أن رئيس الروم (مير حسين) استولى على عدن وأنه استولى على كل المراكب وحال دون مغادرتها الميناء لكي لا تشعرنا بذلك ، وأن اربعة غليطوات وصلت إلى ظفار قصد حراستها ، إن عددا كبيراً من سكان هذه الجهات يعتبرون عدن في ايدي الروم ، إلا أن ما اقوله لجلالتكم هو الواقع لان هذا المسلم اكد لي أن غيره كاذب لانه كان بعين المكان وعاين كل ما حدث بعدن . انني ابعث على رأس كل سنة من يطلع على احوال الروم ، وأرجو من الله أن يبقوا على ما هم عليه . . وللحصول على تلك الاخبار بعثت إلى المكان الذي يوجدون به مركبا ليطلع على أحوالهم ، ويعرف حقيقة الأمر وسأكاتب والي الهند فور عودته .

أما عن البصرة فإنني لحد الساعة في حرب معها لرفض سكانها تسليمي المراكب التي يحوزون عليها ، ولو كان الولاة السابقون لهذا الحصن فعلوا معهم مثلما افعله لالزمهم ذلك بتسليمها منذ مدة ، ولكننا الآن في حالة سلم ، ولن أسالمهم أبدا طالما بقيتُ بهذه البلاد وذلك إلى أن يسلموني المراكب التي تضر كثيراً بمصالح جلالتكم .

أما عن الشيخ اسماعيل ، فإنه لم يتوفر لحد الساعة أي خبر عنه عدا كونه في حالة سلم .

أما عن هذه القلعة ، فقد أصلحها الولاة السابقون إصلاحا سيئاً حسب ما سبق أن كتبت لجلالتكم ، إنني الآن لا أملك إلا أربعة أو خمسة براميل من البارود ومدفعية قليلة جدا وذلك رغم أنه من اللازم أن تتوفر لهذه القلعة أكثر مما تتوفر عليه (رودس)

لان جلالتكم تعلم أن أقواما مختلفة تفد عليه من كل بقاع العالم ، جنويون وبنادقة وأتراك ويهود وأرمينيون ومن شعوب أخرى ، وأن أول ما يقومون به فور وصولهم هو التعبير عن رغبتهم في زيارة القلعة ، وطبعا لا يمكن لأحد السماح لهم بذلك لأن داخلها لا يختلف عن مخزن التبن .

إن أهم ما يجب علي أن أقوله لجلالتكم هو أنه إذا كان للروم أن يستولوا في هذه السنة على منطقة ما ، فستكون لا قدر الله هذه هي الاولى لكونها شديدة القرب من المضيق ، ولكونها كذلك أهم ما بيد جلالتكم بهذه الربوع ، والتي تستفيدون منها إستفادة عظمى ، لذا يجب عليكم تزويدها بما هي في حاجة إليه وليس ذلك إلا بأمر الولاة بصراحة بما يجب عليهم القيام به .

لقد أتممت نصف (CHAPA) إلا أن الوالي لامني كثيراً على عدم إتمامها ، إنه يريد توسيع القلعة دون أن يخصص لها أكثر من اربعمائة محارب ، واعتقد أنه لا داعي إلى ذلك ما دام يرفض زيادة حاميتها لأن قلعة كبيرة وحامية قليلة تمثل ضعفا أكبر .

لقد سبق لي إشعار جلالتكم بالضرر الذي ينتج عن مجيء الولاة إلى هنا ، فمنعتم ذلك عليهم ، ولم تسمحوا بمجيئهم لهرمز إلا في حالة الضرورة ، لذا فهم يأتون اليها جميعاً . أعود مرة أخرى لتذكير جلالتكم أنه لا يوجد أي شيء أخطر على مصالح جلالتكم من ذلك لأن مجيئهم هذا يؤدي إلى إفراغ هرمز من جل سكانها لأنهم يستولون على الدور التي ما أن يدخلوها حتى يحرقوا أبوابها ويخربوها وكلما تحطم شيء ما لا يهتمون قط بإصلاحه ، هذا فضلا عما يلحقونه بالمسلمين من اضرار وأذى الأمر الذي ينبذه كل الأجانب ، إلا أن أي أحد لا يقدر على معاقبتهم لكثرتهم . أرجو من جلالتكم التأكد من أنني بصفتي قبطان هذه القلعة ، يؤلمني مجيء الوالي اليها ، لقد انهيت المدة التي أنعمت بها علي جلالتكم ، ولا يضرني في شيء مجيئه مستقبلاً ، واعتقد أن الوالي (نونو كونها) الذي جاء إلى هنا مؤخراً قد عرف مدى خدمتي لكم . وذلك رغم أنه يؤلمه كثيراً إخباركم بذلك لكونه يمجد أكثر أعمال (ديوغو دوميلو) ،

وستعرف جلالتكم كل هذا بتفصيل فور وصولي ، أقول هذا لاعتقادي أن فيه خدمة جلالتكم .

إن من الواجب أن يكون مترجمو هذه القلعة رجالاً أكفاء وعقلاء وذلك نظراً لخطورة هذا المنصب ، فحين مجيء (نونو كونها) كان يقوم بمهمة الترجمان (انطونيو دو لورونيا) الذي التحق بجلالتكم وحل بدله شاب لا يعرف لا الفارسية ولا أية لغة أخرى ، هذا فضلا عن كونه لصاً كبيراً .

لقد اشتكى مني هنا إلى الوالي (ديوغو دو ميلو) الذي ادعى إني أتوخى من إصدار أحكام في حقه إلحاق الضرر به وقدم لذلك طعوناً في أحكامي عارضتها بما أتوفر عليه من براهين ، لقد أمر الوالي بالقيام بتحقيق سري وبتسجيل الشهادات وإرسالها إلى جلالتكم وبما أنني أعتقد أن الوالي نفسه غير محايد في هذه القضية لكون الكاتب لا يغادر قط بيت (ديو غو دو ميلو) خلال الليل كله ، وبما أن الوالي قال إن (لوبو فاز LOPO VAZ) أخطأ بتكليفي بالقضايا عوضا عنه ، فإني أرجو من جلالتكم أن تتحقق من هذه الامور وأن تعلم أنني لا أملك أي مبرر لظلم (ديوغو دو ميلو) لانه كما هو معروف قريبي وأن ما الزمني بالقيام بذلك هي الرسالة الشديدة اللهجة التي بعثتها جلالتكم للولاة حول المظالم والأضرار التي تلحق بسكان هرمز والتي ما تزال في حوزتي والتي اطبقها حرفياً في كل الامور ، وكذا تأكدي من أن خدمة الإله وخدمة جلالتكم تلزمني بالقيام بالعدل دون إعتبار أي عامل اخر ، إن ما قمت به لم تُمله عليّ غير رغبتي في خدمة جلالتكم التي أعتبرها فوق كل الاعتبارات الاخرى ، لذا أرجو من جلالتكم أن تفهم هذا جيدا .

وحرر في هرمز في ١٨ نونبر ١٥٢٩ ،

أقبل الأيدي الملكية لجلالتكم .

كريستوفر دي مندوسا[٣]

(٣) الأستاذ أحمد العناني – المصدر نفسه .

ثالثاً : رسالة من برنالدو دوسوزا إلى الملك البرتغالي حول هجوم برتغالي على الخليج عام ١٥٤٥م :

« سبق لي أن أطلعتُ جلالتكم عدة مرات على خدماتي التي قدمتها لكم هنا ، وطلبت منكم في كل رسائلي أن تقوموا بتحريات لمعرفة مدى صدق ما أدعيه إذ بالرغم من أن خدمات الذين يعملون هنا تبدو مخالفة لبعضها البعض عبر الرسائل والطلبات ، فإنني أعلم أننا جميعا سواء ، ولكني حينما ألح في هذا الطلب فإن ذلك يعود إلي تأكدي من أن جلالتكم لا تسعى إلا إلى إعطاء كل واحد منا ما يستحقه من رعاية وكرم .

ورغم أني علمت بواسطة أخي (ديوغو لويس DIOGO LOPES) انكم لم تمنحوني أي عطاء كما فعلتم مع غيري خلال هذه السنة ، وأن ما منعك من ذلك هو أن مصلحتكم اقتضت أن لا تنعموا علي باية قلعة من القلاع التي طلبتها منكم ، فإني لم أيأس من أن أرى جلالتكم تنعم علي بذلك لكوني متاكداً منذ عدة سنوات من أن أي أحد لم يقدم ما قدمته هنا من خدمات ، وبالتالي لا يستحق ذلك مثل استحقاقي له .

علم الوالي (مرتايم افونسو MARTIM AFONSO)[٤] بعد عودة المراكب خلال السنة الفارطة بقرب قدوم الأتراك إلي هرمز وذلك بواسطة بندقي وصل من القاهرة خصيصا لاشعارنا بذلك ، مع العلم أنه لم يات إلى هنا إلا من أجل اقتراض الأموال وأداء رواتب الجدافين الموجهين إلى مصر ، ونظراً لكون الوالي كان بدوره على علم بذلك بواسطة ثلاثة أسرى فروا من مصر ، فإنه صدّق الخبر ، خصوصاً وأن (لويس فلكاو LUIS FALCAO)[٥] كتب اليه يشعره أنه علم بذلك بطرق أخرى ، وطلب منه ارسال امدادات للقلعة لقلة من كان بها من المحاربين .

ولما تبين للوالي شدة احتياج (فلكاو) لاولئك المحاربين ، استدعاني وقال لي إن

(٤) هو دون أفونسو دي نورونها .

(٥) هو لويس فيغارو .

خدمة جلالتكم تقتضي الذهاب رفقة أخي (جورج دو سوزا) لكون وصول الأتراك يحول دون إمدادها بالأقوات والرجال الذين هي في أمس الحاجة إليهم ، وذلك قبل شهر نوفمبر الذي يأتي بعد ثمانية أشهر من ذهابي ، وبما أنه بعثني في مهمة في مثل هذه الخطورة تعود عليكم بالمنفعة ،فإني انطلقت مغتبطاً واعتبرت ذلك شرفاً لي ، وذلك رغم أن العملية تكلفني مصاريف باهظة نظراً لكثرة الذين رافقوني ، ولكون الأثمان بالبلاد أغلى من أي مكان آخر هنا ، ورغم أني لم أكن يا سيدي قادراً على تحمل تلك المصاريف فإن الرغبة في خدمة جلالتكم الزمتني بالالتجاء إلى أصدقائي قصد تسديد بعض ما أدين لكم به من فضل ، لاعتقادي أنه بدون ذلك فلن اتمكن من خدمة جلالتكم خدمة جيدة . وبعد الوصول إلى هرمز ، بسبعة أو ثمانية أيام وصلنا خبر يؤكد أن الأتراك لن يأتوا خلال هذا الشتاء وأن البحارة الذين اطلعونا على هذا الخبر أكدوا لنا أن الاستعدادات تمت فعلاً وانه تم تجهيز ٢٥ أو ٣٠ غليوطة ابحرت من مصر إلى AXEBIBI لانقاذها بعد أن حاصرها ملك المنطقة . وبعد مغادرتنا لهرمز وصلنا بعد ايام قليلة إلى البحرين حيث مكثت اياماً قليلة لانهي جمع قطع الاسطول ولتوفير بعض الاشياء اللازمة للحصار لكوننا لم نكن إلا على بعد تسعة لغوات (LE-GUOAS) من القطيف .

وفور جمع كل ما كان ضرورياً ، انطلقت من جديد ، وفي اليوم التالي اقتحمنا الميناء الذي دخلناه خلال الليل ، ووطئت اقدامنا الارض قبل الفجر ، فكان في انتظارنا ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف محارب كانوا بالمدينة قتلوا لنا حوالي ثلاثين أو اربعين فارسياً من فرقتي وبرتغاليين اثنين ، وقتلنا لهم بدورنا عدداً اكبر مما ارغمهم على الابتعاد عن المدينة التي كان باقي سكانها قد فروا عنها ، وبما أن اليابسة اضحت آمنة ، فإننا أنزلنا المدفعية التي شرعت فور ذلك في قصف الأسوار في قسم لم يكن يتوفر على خندق ، وهكذا قصفنا خلال اربعة أيام ، أكثر ما يمكن للمدفعية أن تتحمله ، وبما أننا لم نتمكن إلا من إسقاط قسماً منه على علو يسمح باستعمال

السلالم ، فإنني قررت اقتحام المدينة قبل إسقاط قسم أكبر لمناعة تلك الاسوار ، ولكون ذلك يتطلب أياماً أخرى ، خصوصاً بعد أن علمت أن الملك نفسه قادم للدفاع عنها لكونه كان بالاحساء التي تبعد عن القطيف مسيرة ثلاثة أيام ، وأنه كان على رأس ١٤٠٠٠ أو ١٥٠٠٠ محارب وعدد كبير من الفرسان وضاربي البنادق ، هذا فضلا عما سببته لنا مدفعية وبنادق القلعة من متاعب ، وكذا حالات الاستنفار التي كانت تعلن باستمرار بسبب هجمات اولئك المدافعين الذين اصطدمنا معهم وقت إنزال جنودنا ، الأمر الذي اتعب كثيراً محاربينا وخصوصاً الفرس الذين لم يكونوا متعودين على مثل هذا المجهود .

ورغم ما يمثله دخول المدينة اعتماداً على السلالم من خطورة ، فإني فضلته كثيراً على البقاء في انتظار هجمات أخرى ، إلا أنهم ما إن علموا باستعدادنا لنصب تلك السلالم حتي شرعوا ابتداء من منتصف الليل في اخلائها ، واعترف لجلالتكم إن ذلك أحدث فرحاً كبيراً عند رجال الحملة . . ولكي يحول البرتغاليون دون فرار أكثرهم ، تسلقوا الأسوار خلال الليل وقتلوا بعضهم وأسروا اعداداً أكبر ، الأمر الذي أدهش المسلمين المرافقين لنا أكثر مما أدهش الاعداء الخائفين لكونهم لم يكونوا متعودين على اقتحام القلاع في مثل ذلك الظلام .

وفور ذلك علمت خلال اليوم التالي أن الشيخ مانع وصل إلى محل يبعد عن القلعة ٢ (لغوات) على رأس الجيش الذي جهزه للدفاع عن المدينة ، وإنه ، حسب ما قيل لي ما إن علم بسقوطها حتى عاد من حيث أتى ولم يصلنا منه أي أذى ، وبعد تحطيم ما استعطت تحطيمه من القلعة سلمتها للرئيس نور الدين على الشكل الذي سلمتُ لهم باقي قلاع مملكة هرمز ، وتوجهت نحو هرمز لقرب الوقت الذي يجب علي فيه الالتحاق بالهند .

وبما أن كل الذين رافقوني عادوا سالمين عدا إثنين قتلا وآخر توفي بسبب المرض ، فإن عناية الاله احاطتنا لأن أرض البحرين غير صحية كما سبق لجلالتكم معرفة ذلك

من خلال موت الجنود الذين رافقوا (سيماو كونها) ، ولأن البحرين لا توفر للقطيف في هذا الباب أي إمتياز ولو شدة الخضرة وكثافة الغطاء النباتي لأنه لا يمكن رسم مكان أحسن من هذا في العالم كله .

ساهم إلى جانبي في هذه الاعمال (جورج دو سوزا) وقدّم لجلالتكم فيها خدماته ، وكونه أخي لا يمنعني من القول إنه صالح جداً لخدمة جلالتكم في كل الأعمال والمخاطر ، وعلى جلالتكم أن تصدقني في هذا لأنه أخي ولو كان بالنسبة لي أكثر من أخ ، فإني ، وفي حالة ما إذا لم أكن متاكداً من كونه كذلك فلن أقول عنه هذا لإن المرء غير ملزم به أزاء أبيه أو أمه .

وبعد ١٢ يوماً من وصولي إلى هرمز ، توجهت إلى الهند حيث وجدت (دون جوان دو كاسترو DON JOAO DE CASTRO) والياً عليها فبقيت في رفقته .(. .)

أتمنى أن يطيل الله عمر جلالتكم كما نتمنى جميعاً . وحرر في (كو) في ٢٠ نوفمبر ١٥٤٥» .

برنالدو دو سوزا

رابعاً : ترجمة الصفحة الأولى من الرسالة العثمانية إلى مراد شاه :

استنبول - بازبكانيليل أرشيفي (الأرشيف الرسمي)

دفاتر الشؤون العامة ، المجلد ٣ - ص ١٣٩

أمر سلطاني إلى مراد شاه حاكم البحرين :

إنك أرسلت اشخاصاً مرات عديدة إلى بلاطنا السامي وعرضت علينا طاعتك لنا

ومنحنا لك شهادة اثباتاً بأننا اعطيناك البحرين كولاية وأخطرنا بذلك جميع المحافظين المجاورين وسمعنا الآن بأن مصطفى باشا محافظ الاحساء قام بغزو البحرين دون إذن منا وإنك اتخذت بعض الاجراءات ضده وكذلك حجز البرتغاليون بعض السفن العثمانية وقد طردنا مصطفى باشا من منصبه بسبب هذه الاعتداءات وعينا محافظاً جديداً يحل محله . وعليك أن ترد الجنود إلى المحافظ في الأراضي العثمانية وتعاقبهم بما يستحقونه وهكذا يكون محافظونا وموظفونا في الأحساء والاقاليم الأخرى مجمعين على تنفيذ ارادتنا حتى لا يتمكن العدو (البرتغاليون) من الحاق أضرار بتلك الأقاليم .

(٢٨ ذي الحجة ٩٦٦هـ)[٦] .

---

(٦) عن مجلة الوثيقة - العدد الأول - السنة الأولى .

خامساً : رسالة من رجل اسمه (بابا عبدالله) من أهالي هرمز مؤرخة في ٧/صفر/٩٢٢هـ - ٩/١٢/١٥١٨م .

الحمد لله وحده حديث
من بابا عبد الله واحد
من مساكين هرموز
وخديمك فاعلم ياسيدي
ان بعد ما وصلت من
الديبه الي كوشين
التقيت مع قبطان
المور المسمى افنصو
دالبوكرك متي رجع من

ملاقات والباشادور
قبض بيدي وقدمني الي
قبطان مور وقال له
ان كان تريد تسمع
اخبار بندر الديبه
لهذا بابا عبد الله وهو
يخبرك عن جميع
ظروفها وخبرها وبعد
هذا ياسيدي تواضعت
مع القبطان مور وخبرته
علي كل امور الديبه
ومدخلها وكل اخبار
التي اراد يعرفها وبعد
ما تحقق له كل شيء
قال لي انت يابابا
عبد الله تكون مواسطة
في الصلح وترجمان بيني

وبين سلطان الديبه
وبعد تمام الصلح تكون
وزير وعلي هذا اتفقنا
واعطاني كلمته وسالني شروط
صلح الديبه وحط عليهم
خط يده وقالت له ان
اهل البلاد هم ناس
ضعفاء وما يحتاجون
محاربه ولا مخاصمه
ويقدر يلزمهم باعطاء
نصف محصول البلاد
وتكون الفايدة الي
سلطان البرتكال لان
هذا المقدار كانوا يعطوه
الي مام علي مليباري وان

قبطان المور لازمه ان
يمنع مام علي عن قبض
المال ويقول له ان
من اليوم لقابل يخص
الي سلطان البرتكال
وبعد هذا خرجنا من
كوشين الي كوه ومن هناك
الي كننور وفي وصوله نذهب
لمام علي وهو حضر
الحال الي مجلس
قبطان مور وقال له
ان من ذلك اليوم
لقابل لا يقبض شيء

من تحدول الدبيه لانه
يخص سلطان البر تكال
ومسام علي قبل
كلامه واعطا كلمته الي
قبطان مور وجرت الكتبة
علي هذا الاتفاق
وحطوا عليها خط يدهم
وخط الذين كانوا
حاضرين في مجلس
قبطان مور وهم ذكر
حسين ماباري وكوجي
بغي والوزير متاع كنفور
ودون غراسيا مع باقي
قواضر برتكال بان
نتف مال الدبيه الذي
كان يقبضه مام على كل
سنة فهو الان الي
سلطان البرتكال
وبعد ما تمموا هذا الاتفاق

سافر قبطان المور الي
كوه واخذني معه الي
بنستري وقال لي بعد
ما اخذ بنستري اعطيك
غراب وعسكر وارسلك الي
الديبه وبعد ما قبض
بنستري طلبت منه الغراب
والعسكر الذي وعدني به
حتي أسافر إلي الديبه

فقال لي ان انتوه
اوراق من برتكال وامر
ليخرج الي بندر عدن
ولهذا يحتاج الغراب
والعسكر ولاكن بعد ما
يرجع من عدن يعطيني
الغراب والعسكر وزاد
قايلا انت الان
تروح الي عادل خان
وتوصله مكتوبي ومني ترجع
من هناك تمضي معي الي
الديبه وانا ياسيدي عملت
ما امرني به وسافرت الي
بلاد عادل خان وسلمته
مكتوب قبطان مور
واخبرته بكل ما
قال لي قبطان مور
وبعد ما رجعت من
هناك طلبت منه الموعود
فقال لي ان وصل
باشدور من برتكال
وجاب له امر حتي يبني
حصن في هرموز وانه

مسافر لتلك البندر ليحضر
علي بناء الحصن وانا
بقيت وحدي وبعد كام
يوم سافرت الي الديبة في
مركب مسام علي

واخذت معي مكاتيب
قبطان مور الي
سلطان الديبه والي
وزره في جهت المال
الذي كان يعطيه لمامر
علي وذكر له ان لا يعطيه
له ويحفظه عنده لانه
يخص الي سلطان
البرتكال وقال
لي ان اجلس في الديبه
حتي يرجع من هرموز وبعد
ما قبلت كلامه
سافرت كما
ذكرت ومعي وحدي
فعلت ما امرني وسلمت
المكاتيب لكل واحد الذي
يخصه وبقيت حتي يرجع

وفي تلك الوقت جاءوا
انفارا من عند مامر
علي يطلبون من
السلطان محصول
البلاد فقال لهم انه
قبض اوراق من قبطان
مور وامره ان لا يسلم
الي مامر علي شيء من
المال لانه يخص الي
سلطان البرتكال

وان كان يريدوا يقبضوه
ياتونه بامر من قبطان
مور فقالوا له ان
قبطان مور البوكرك قد
مات في الطريق حين
رجع من هرموز
والقبطان الثاني
المسمي لوبس سوارس
ومامر علي اتفقوا بينهم
بان المحصول
المتاخر من السنين
الماضيه يعطي الي مامر
علي وبعد هذا قبضوا
المال المتاخر يعني
نصف محصول الديبه
وعملوا اتفاق تاني
مع سلطان الديبه
بدخول دون جوان
قبطان مور سيلان
الذي كان اتي الي الديبه
وقال للسلطان
ارسل اثنان من وزرك
الي بندر كوشين ليتفقوا
مع قبطان مور تلك
البلاد علي المحصول الذي
له يعطي كل سنة الي
سلطان البرتكال وبعد
ذلك ارسل سلطان الديبه
اثنين من وزره وانا مضيت

معهم وبعد مـــا وصلنا
الي كوشين تلاقينـــا مع
قبطـــان مور واتفقنـــا

سافرت معهم من كوشين
الي الديبه واعلم ياسيدي
ان مام علي قابض نصف
بلاد الديبه وهو يخرج
محصوله ولازم ان تكتب الي
قبطان موراته يخرج مام
علي من تلك البلاد لكي
تكون اهلها مستريحة
وخالية من التشويش ويكون
كل محصول البلاد الي برتكال
من غير هذا مام علي قابض
يابس ولا يفتش الا علي خراب
البلاد لسبب انه ما هو
تحت حكمه وان امرت
[illegible]
[illegible] تكون مستريحة
وخالصة من شره ويكون
معلومـــك يامولاي ان
سلطان البلاد ووزره والرعية
كلهم راضين بـــحكمك
وطالبين منك اربعة غرابات
لتكون دايماً في بندرهم
لحفظهم وحفظ بلادهم لانه
بلاد متجر كبير وتاتي اليه

المراكب من كل البنادر كما
هم ملاقات وبنجـــالة
ورطبان وبيكو وفهور والهند
وهرموز والمليبار ومن البيع
والشرا تحصل فايدة كثيرة
ولاكن اهل البلاد تحتاج
امر ولازم ان تجتهد به
وهو ان تامر لناسك ان لا

يظلمون ولا يغصبون اهله
لان ولو كـــانوا ضعفـــاء
وعاجزين اذا صـــار ايهم ظلم
فيتركون البلاد ويرحلون
منه والمراكب يمتنعوا عن
المجي اليه والغربـــاء
الساكنين به يفعلوا هكذا
وهم نـــاس كثيرين
وبخلاف ذلك اذا وجدوا به
امان وطمان يـــعطون
فـــايدة للبلاد في بيعهم
واشتراهم واعلم يـــاسيدي
ان البضاعة التي يحصل
منها مدخل البندر اولها
القنبر وهي للحبـــال
والكودة تصبغ ويجوهر
والقماش وكذلك الصيد وهو
متجر كبير في هـــذا
البندر الي بندر شـــطرة

واليها يوسقون المراكب على
قدر كبرهم لان ولو كانت
الناس ضعفاء هم يصلحوا
للـــتجارة ومن يبيعهم
وشراهم يـــعطون فايدة
اسيدي ولاكن يحتاجون
الامان وان لا احد يظلمهم
وكذلك الغرباء والتجار اهل
البلاد واخبراً ياسيدي ان
مملوكك لي سبعة ستين في
خدمتـــك وتركت بلادي
واهلي وعيالي وكل منفعة
واخترت خدمتك فلاجل

ذلك احلم على بشي معلوم
للمعاش وقوة العيال واذا
اجاء قـــبطان مور اعطيه
اسمي يعني بابا عبد الله
حتى اقبض منه نفقاتك وهو
يكون على والسلام *

في ٧ من سفر سنت ٩٢٤

7 de Safar de 924. Correfpon-
os 9 de Dezembro de 1518.

ســــادســاً : رســــالة من (شــمس الدين) في هــرمــز
٢٨/جمادي/٩٢٥هـ - ١٥١٩/١١/٣٠م

الي حضرة دون منويل
سلطـــان بـــرتكال
المخصوص بـــــالمراتب
العـــالية ربي العـــالم
الذي مـــلكه الله بساط
الارض شرقاً وغرباً اوجاً
وافقاً ثم يعـــرض على
حضرتكم العـــالية المحب
القديم والاخ الصديق على

احوال وامور البلاد الذي
هم بعـــون الله على
الخـــاطر والرعية ببركة
الري الكريم حـــاصلين
علي كل خير ولا صـــاير لهم
الا فضـــل واحسان
وقبل هذه الايـــام
وصلنـــا كتابكم الشريف
على يد انغـــاركم وفهمنـــا

معناه وما فعلنا
الا الواجب كما امركم
الشريف فلهذا السبب
وقعت بيننا وبين اهل
كلكوت بعض مخاصمات
وكان سببها الظلم

الذي فعلوه مع انفاركم
ويكون معلومكم بان
باقي السلاطين وناس
بنادر العرب والعجم
والروم كلهم صاروا
اعداي لاجل محبتكم وانا
ما على بالي منهم ولا اخد
بعداوتهم وانا ما
افتش ولا اريد الا
محبتكم واتفاقكم
وهذا شيء مشهور في كل
الدنيا وبين السلاطين
والكبار والصغار ان
الري دون منويل
وكولتري شيء واحد وهذا
ما فيه شك ولا يظهر مني
تغييرا ابدا ولا اريد الا محبتك
لان لا اريد غير محبتك
ولو كانوا كلهم لي اعداء
وعمري ما رايت من
ناسك وعساكرك الا

الخير ولاكن عن
قريب خرجوا من بندر
هرموز مراكب تخص
لرعيتي وساكنين في
ابندركم هذا وكانوا

مسافرين الي بندر اخر
في الساحل ولاجل
الامان واطمان من
ناس مراكبكم
اعطيتهم خط يدي لكي
يعرفوا انهم رعيتي وبعد

ما خرجو من ابندر
المذكور التقوا مع مراكبك
اخدوهم واتوا بهم الي
كوه واخد المال
جاءوا يشتكون لي ولاموني
بذالك قايلين انهم ما
خرجوا من البندر الا
تحت اماني الذي
اعطيتهم وبسبب الوقعة
التي صارت لهم وشكاوتهم
عرضت عليكم هذه
العريضة وانا ياسيدي ما
اريد الا عمار البلاد وزيادة
المتجر فيه وان كانت
هذه محبتك لي وعهدك

مـــعي فاعلمني بخاطرك
لان بعد هـــذه المصيبة
تركوا التجار بندري ولا
يقلب اليه احد وانـــا كل
جـــهدي في عمارة البلاد
وقبول الناس فيه ورفع
الظلم والجور عن الرعية ولو
مـــا كان هذا اعتبـــاري
لكـــانت خربت البلاد
فلاجل ذلك والحصرة التي
اخذتها نفسي كتبت لك
هذا الكتـــاب لتعلم الظلم
الذي تعلوه نـــاسك مع
انفاري وخدامـــك وهذا
البلاد بلادك فان سمعت
ان تفعلـــ به افعال
قبيحة مثل هذه لا بد
ان يخرب ويتغير خاطر
الجميع لان هـــذا شيء
يجلب العيب علينـــا
وانـــت عالم ولا تخفي
عليك افعال المكروهة التي
فعلوها نـــاسك قبـــل
هذه وانـــا ساكت في
حالي حتي ياتيني جوابك
لان اعداءي يضحكون علي
وـــــايلين هذه سوالف
محية الري دون منويـــل
لكولتري وانـــا مستحي
منهم ومنكم اكثر لاني
خديمك ومـــا اريد الا
بيـــاض وجهك ورفع جاهك
وان كان نـــاسك
يستطيعون في بندري في
افعال مثل هذه فقد
تمت محبتنا واخيرا لا
استريح ولا اكل ولا اشرب
الا متي ياتيني جوابـــك
واعرف بخاطرك والسلام *

في ٢٨ من جمادي سنة
٩٢٥ للهجرة ☆

الخديم المقر لك بالعبادة
شمس الدين كتبها
باسم واهر كولتري

A 28 de Jumadi de 925. Corresponde aos 30 de Novembro de 1519.

Do Servidor, que vos rende summa escravidão, Xamseedin Secretario de Cotelery, com cuja ordem, e nome escreveo esta.

سابعاً : رسالة من السلطان علي ملك بلدة (ملندي)

بسم الله الرحمن الرحيم
الي السيد. دون منوبل
سلطان البرتكال والغربين
صاحب غناوه والمعدنين
مالك جزر بحر العربية
والعجمية واقاليم وامصار
ومدن صاحب مدينة
مباركة مامونة محفوظة
ومحروسة السلطان المعروف
بعلو مقامه والمشهور في
وقاره والممدوح بافضاله.

المجتهد بعمود دين
النصاري الذي اطاعه
البعيد والقريب سلطان
لا عيب فيه وجهه ازهر
من البدر اذا نمي الذي
يخرج منه حسن الجواب
ويدرك من كلامه كل
الصواب من طلب منه
نال مقاصده ومن
اجتنب عنه ابتلي
بالمعايب ادام الله عزه
وبعده ياسيدي فانا
مادحكم علي سلطان
ملبنده بن علي سلطان
تلك البلد اسلم عليك
جزيل السلام واقبل

بشاش وجهك واترجي فضلك
وطامع باحسانك وانهي
لعلمك بان منويل
ورنند وقبطان مور ملبنده
قبل كل الناس للتي جاءت
من الديه وطلبت منه
ما ذكرت لك عنه من قبل
فاعطاني ببركتك الحمد
لله كثير وكل اهل ملبنده
يعزونك اكثر من كل العباد
لان خيرك علي وعليهم
ما له حد فالله يطول
بقاءك امين * وعبيد بن
قاسم كاتب هذه
يبلغكم جزيل
السلام .۞

ثامناً : رسالة من (زين الدين) إلى الكابتن دييكولوباز DIOGOLPES ٥/شعبان/٩٢٦هـ - ٧/٦/١٥٢٠م، وهي توضح المظالم التي كان يرتكبها الولاة والقادة البرتغاليون في الهند .

من زين الدين القايم
بامور رب العالمين الي
كفتان مور ديوجو لوبس
الذي في حصن
سلطان البرتكال الذي
متعلق فيه حكم البلاد
يهدي لك زود المحبه
والسلام ويعلمك بان
الورقة المبعوته لي من
جنابك مع جوان
وصلتني وفرح بها قلبي
لتجديد المحبة التي
بيننا ومتي اجاء احد
من ناس البرتكال الي
بلادنا نكرمه ونقدم
له ما كان في بلادنا
لحفض المحبة والمودة وبعد

هذا جاء الينا منويل
فلكون وهو اشر الناس
بانعاله واول فعل الذي
صدر منه كان مع طراد
جاء من تديا الي

شمطره واخذ من كل واحد
من ناسه ثلاثين دينار
ذهب بالغصب وقتل
بعضهم وباع بعضهم
وثاني فعل كان مع
طراد جاء من بنجالا
واخذ منه اثنان
وعشرين طرنبات فضه
وامة وبعث الطراد الي شبورة
ومن هناك الي ملاقات
وكان فيه مال كثير
الي اهل شمطره والثالث
مع متخلف شمورة اسمه
برانكو فيتك حرمته
وقتل له اربعة من ناسه
واثنان من اهل مرقس
والرابع الظالم الذي فعله
معي وراد ان اعطيه ماية
وعشرين طرنبات وعشرين
اساحبه والخامس
طالب خمسين عبداً او
امتي من شمطره واخذهم
بالغصب وبعثهم الي ملاقات
والسادس يريد مني

نافلــ وغير بهــار وبعد
هذا جاء البنــــا غسير
من الناس وهذا كانت أشر
وأقبح من الاخر فاول
فعل الذي فعله كان مع
طراد جاء من ديو واخذ
منه مـــايتان طرنبات
بـــالغصب والثـــاني كان
مع طراداتي من كمبـــايه
وصـــاحبه ملك تلك البلاد
اسمه علي ناخوزه واخذ
منه مـــــابة طرنبات
والثـــــــالث اخذ مابة
طرنبـــات من طراد اجـــاء
من علبكات وفيه اموال
اهل شمطره والرابع احد
من طراد اتي من بروس
مـــابة وعشرون طرنبـــات
وكان يبحص الي مـــلك
بنجـــلا والخامس الغصب
والقهر الذي فعلـــه مع
اهـــــل شمطرة ومع
القـــاضي والوزير لاجلــ
ذلك نشـــكي لك لترا،
احوالنـــا لان هذ اشيء
مـــاله احتمـــال ولا سيمـــا
بانه فعلهم من غير امر
السلطان ومن غير امرك

ولا الــــسلطان يعرف
افعالــ منويلــ فلغى
وغسبر مـــاغلبس لان
تحقــــق عندنا ان
السلطان ولا انتم ترضوا
ان تفعلــ هذه الافعالــ
مع الرعية ولاكـــــن
بتدرنـــا هو بتدركم
ويلزمكم حفظه والسلام
* في ٥ من شـــعبان
سنة ٩٢٦ للهجرة

ſo, e de vós depende a ſua conſervação.

A 5 de Xabau de 926. Correſponde aos 7 de Junho de 1520.

تاسعاً : كتاب من (الأمير أبو النصر شاه)، وهو أحد أولاد شرف الدين في هرمز إلى الملك (دون جوان) يعرض عليه مشاكله مع الحكام البرتغاليين وجورهم وطمعهم، كما يذكر فيه أخبار البحرين وجلفار والكتاب مؤرخ في ٢/شوال/٩٢٩هـ - ١٥٢٣/٨/٨م .

الي السلطان دون جوان
فاوجب ان نعرض كل
ما يستوي في بلادنا
علي سلطان الاعظم
والمامول من احسانه
ان يرد لي جواب
لاتشرف به فاول ما
اعرض علي جنابك
السامي بان لما جاني
اخبار الخصام الاخر
عملت برج علي باب
كلكوت لاجل حفظ
البلاد وخرجت علي عمارته
مبلغ كثير وفي زمان
ابي واخي تغمدهم الله
برحمته ارادوا اكابر الافرنج
ياخذوا بيت السلطنة
من عندهم ليهدموه وقالوا
للوارثين ان يعطوهم
بيت غيره لانه مضر علي
حصار السلطان فالوارثين
قالوا لهم لا نعطيه لكم
لان هذا بيت ابانا

طلبتها منه مع المال
الذي صرفته على عمارة
البرج وخرجته عليه مراة
كثيرة فطلبتها منه يوم
الذي اتي لعندي وحضرته
عليها قدام الحاضرين
وكانوا فرنندو وديوكو
دمسكيتة افلاكن خرج
من داري وما اخذ بكلامي
فبعد ما خرج اخبروني
بان السلطان قتل
وزيره فلما سمعوا الذين
كانوا حاظرين بعثوا
واخبروا مرتينو افنسو
ولما عرف جاء للوقت
الي بيتي مع اكابر الفرنج
وعمل معي اعمال
القبيحة وقلل وقاري
وهتك حرمتي كما
يشهدون جميع الفرنج
وبعد هذا سلم حكم
هرموز وباقي بنادره الي
اقرباه وحكم جلفار
اعطاه الي اخوه في ثلاثة
سفرين ضد عادة بلادنا

لان كل حاكم يحكم
سنة وحكم بحارين
اعطاه لريس محمد
واخوه نسيب ريس شراف
وكل هذا لمنفعته وفي هذا
الحال تراني قليل
للحرمة بين اكابر الفرنج
وبعد ما اعطا
حكم بحرين الي
ريس محمد اعداها غاية
العدة والان ما يقدر احد
ياخذها من يده لان
فيها برج عالي والوزير
الجديد في هذا الوقت
كل معاشه من الفوائد
التي تجي الي هرموز
ينتفع منها كثيراً ويبعث
بعض القماش الي بيته وبعض
الي البنكسال ومن هناك
يشتريه مع القبطان
والفيطور بالثمن الذي
يريده وهم كلهم متفقين
على ذلك وعوايد القديمة
في هذه البلاد ولا سيما علي
زمان سلطان المتوفي
كانت ان القبطان
ما له الا حصان وسيف
وبرطاق من ذهب

وخلعة، وفي هذا الوقت
ياخذ مني الف اشرفي
دراهم ولا يترك في طويلتي
من الخيل الجيد ولا راس
ومن حد هرموز الي قلهات
كلما راءوا حصان مليح
ياخذوه بالثمن الذي
يريدوه ولا ياخذون بصحاح
اصحابهم وبعد هذا هم
يقبضون الرشوة
والبرطيل وبهذا الفعل

يخالفون أمر دون بدرو
وقاصي الفرنج ... ،
دون بدرو اي هرموز في
القبطانية جاب لي
مكتوب من الكبرنادور
طالبني الي كوه وانا
لاجل طاعتي لامرك
العالي ما ابيت بذلك
وارتجي من الله منكم
الف مغفرة عن المذكور
والسلام *
في ٢ من شوال سنة ٩٢٩
للهجرة *
من ميرابانجبر شاه ؟

عاشراً : رسالة من (محمد شاه) حاكم هرمز إلى الملك دون جوان يخبره فيها بأن أعداءه استطاعوا التغلب عليه وأخرجوه من هرمز ونفوه إلى (كوا)، والرسالة مؤرخة في ٩/شعبان/٩٣٢هـ - ١١/٦/١٥٢٧م .

الى السلطان دون
جوان استوجب العرض
على عالي حضرتك الملوكية
والمامول من عظيم
الطافك بان تتفضل
وتقراء كل ما سطرناه
في هذا الكتاب وتمن
علينا برد الجواب لان
الواضح على جميع الدنيا
ان عمار البلاد وحفظ
الرعية تحت السلطان
وتعظيم السلاطين يجب
على الرعية لان البلدان
والرعية لا تستقيم الا
بقوة السلطان وحلمه
وعدله وسبب تحرير هذه
المقدمة هو اعلام حضرتك
العالية بان اباك كان

يعلم ان سلطنة هرموز
سلف بعد سلف وبطن
بعد بطن وسلاطينها
كلهم كانوا من هذا البيت
وسلاطين هرموزهم اهلها
واما تحقق هذا

عندكم امرتم برجوع
السلطنة الي هذا المخلص
وانا قمت دايما
بخدمتكم ولا بد ان
طاعتي لجانبكم بلغت
لحضرتكم العالية وفي تلك
المدة اقمت بواجب
شروط العدل والمراعات
كما يجب ورفعت
الظلم والتعدي عن الرعية
ومع ذلك تسلطوا علي
الاعداء غاية التسلط
واخرجوني من السلطنة
والبلاد وبعثوني الي كوه
واليوم جميع البلاد والممالك
في يدهم وكل الذين
عملت معهم الخير وراعيتهم
في زمان الاول فسعوا
في بعدي لاجل طمعهم
في الحكومة ولهذا ابعدوا
هذا المخلص من السلطنة
ومن الكبر والوقار وما رضوا
بالحكم فقط ولكن
اذوني في نفسي وسبوا
حرمتي ووقاري جهاراً
وانا ياسيدي اعرض علي

عدلك الشامل اثامهم
ومباساتهم وانه عسكر
بيدهم المبد الذي تنمهد
به الفرامين والمكاتيب فاذا
كتبوا مكتوب باسمي
على يد مسام علي ومهدوه
بمهدي فلا تامن به
لان يقدروا يكتبوه
كيف يبغونه وهذه
الناس ما فعلوا هذا
الا بمعونة مرتين انفنسو
دمبلو لانه من جانبهم
فالمطلوب من حضرتك
العلية ان مني وقفت
على المكتوب وقراءته
وتحققت لك ما ذكرنا
فيه تامر ان يخرجون
هذه الناس من هرموز
وامر ايضا الى قبطان
المور الذي يجي ان لا
يسمع كلام اعدائي ولا
يعمل افعال مثل
الذي فعلوها هولاء ولا
ترسل جواب مكتوبي
اليوم لان ما يريدون
لي خبرا والسلام *

في ٩ من شعبان سنة
٩٣٢ ه
من محمد شاه سلطان
هرموز

A 9 de Xabán de 932. Correfponde aos 11 de Junho de 1527.

حادي عشر : رسالة أخرى من (محمد شاه) حاكم هرمز،

الي اعظم السلاطين وافخر
الملوك دون جوان
سلطان البرتكال
ومستفتح اقاليم وبلدان
الشرقية والغربية قاهر
الملوك القوية خلد الله
ملكه ودام عزه اما بعد
يا مولاي كما لا تخفي
عليك طاعتي وخدمتي ما
كان له سبب ان
تجري لي المصايب التي
عرضتها عليك فاعلم ان
لما اتي الي هنا
القبطان ديوكو دميلو
طلبني بالمال المحصول
كيف ما قبضه
للحال حبسني وفي تلك
المدة ما حصل من
البلاد غير عشرة دنانير
والباقي صرفه كيف شاء
وشا عبدكم لي سنة في
الحبس والمحصول
محسوب علي وانا اعطي
عليه جواب وهذا ايشهد به

القبطور منويل فالمطلوب
منك ان تنظر الي احوالي
بنظر الحلم والرحمة

وتكتب الي قبطان المور
ان لا يهلك معي هذه
الافعال لان اذا كانت
البلاد في ذمتي وضبط
المال بيدي فامره ان
لا يتعدي علي ولا يتعارض
في حكمي وامور بلادي
وانا مستني الجواب
واظهار ارحامك معي
وان كل ما كتب
لك قبطان المور فهو
غير صدق وكله عداوة لي
كما يشهد بذلك القبطور
وغاما وبعد ما صدرت
هذه الاحوال سافر
القبطان المور الي كوه
لخدمة الامبرادور وزين
الدين محمد شاه وبعد
مدة جانا اخبار مع
الفرمان وبشارة
مراحمكم مع محمد شاه

بـــانكم خففتم عنــه
مبلغــاً من محصول بلاده
فالمرجو من فضلكـــم أن
تكتب علينـــــا بخط
يدكم الشريفة تخفيف
المحصول على لان عيــالي
كثيره ومدخلي قليـــل
وحــاصل الكلام ان

كل ملوك الهند بواسطة
عنــايك ومواشيك كلهم
ثنين ومطمئنين تحـــت
ظلال شرفك وامـــا
محمد شــاه احتــب من
سابر الملوك لعنــايك
وفضلك لان محـــسوب
بمقــابر اخـــاك وفي
زمـــان القديم كل
سلاطين العرب والعجم
كانوا محتـــاجين الي
انعــام سلاطين هرموز
والان محمـــد شـــاه
يحتــاج اليهم وليس هذا
من استهمالكم ولاكن من
ظلم ديوكو دميلو وهو
سبب هدم البلاد وقلة
متجرهـــا فــلهذا
محتــاجين ان تخفف

عنــا جزو من محصول
البلاد والامر به يــاتينــا
مع القبطــان الاتي وتوصيه
لحفظ مــالكم وعمــارة البلاد
وان مــا جعلت نظرك
الشريف علي فلما اقدر علي
الاقــامه في خدمتك لان
بعد مــا حبسني ديوكو
دميلو واخذ المـــال
المحصول نفـــاني الي
مليبـــار وابعدني عن
عيــالي واولادي الذين
كانوا في خدمة سلاطين

فاطلب من فضـــلك ان
ترســـل لي امر بخطك
الشريف بـــان من
اليـــوم لقــــابل لا
يتعارضون على القابطين
ولا الفيطورية ولا يغصبوني
بشيء ولا يتصرفون بمالي
ولا يــطلبون مني ومن
الرعية شيء حتي اقـــدر
اقوم بمقـــام خدمتك
بفراغة البـــال وبــاقي
الرعية كذلك

من خديم بـــابكم
العــالي محمد شـــاه
سلطــان هرموز

ثاني عشر : رسالة من رجل اسمه (راشد بن أحمد المسقطي)، إلى الملك دون جوان. ويقول النص البرتغالي في أسفل الرسالة إن راشد هذا هو إبن (ريس شرفو) حاكم هرمز، وإن الرسالة بعثت على أيام (انطونيو كوريا) الذي غزا البحرين .

الي السلطان الاعظم دون
جوان سلطان برتكال
يقبل التراب تحت
موطي اقدام حضرتك
اقل خدامك ويعرض الي
حضرت العالية والسادة
السامية السلطان بن
السلاطين فخر الملوك
ومولاء امارة العرب
والعجم موءيد قواعد
الحكم قامع بليات الجور
والظلم والقهر محل المجد
والتعظيم ومركز الفخر
وعظم مراتب السلطنة
اعظم سلاطين الفرنج في
الزمان الذي شرف الله
بلادنا بحكمه اذ سواه الله
سلطاننا مالك
البرتكال ومما يحواه
بفم الادب والفصاحة
وشفاة الاجل والتكريم
والفاظ العبودية ينهي
الي حضرتك بان
امورحكم هرموز باهتمامك

جارية علي نهج
الاستقامة المراد وان هذا
المملوك واقل الخدام قايم
علي ساق الطاعة والعبودية
ومتشمر الساعد في الخلادي
وقد اشتهر بين الانام
وظهر اسمه عند الخاص
والعوام بانه من جملة
خدامك الخلاص ويفوق
على الجميع بالمحبة والخلاص
الي تلك الحضرة العاليه عمرها
الله بدوام دولتك وان
بعد ما تفويض له حكم
هرموز زاده ينتج تلهات
وكل نواحيها كما يري
في تاريخ القديم وجباية
المال ودفعه وهذا المحصول
الان قد قل من البلاد
وخاب ظني ومامولي ولم

يكن للمملوك امل ولا
رجاء الا بعناية الشامله
والمراحمة الكامله من عليها
الحضرة العالية ومن
ملوكيتك التي شملت

ووصلت لكل النــاس لكي
تحخفقــ عني يتجزو من
المحصــولــ ونطلب ايضاً
العفو من اساة وقلت طاعة
ابي وما فعله ضد حضرتک
العاليه وباقي الاعلام عن
احوالنا فهم يــاتوك على
لسان قبطور هرموز وعلى

الباقي السابرين معه ومنهم
يتحققــ لحضرتک خدمة
هذا المملوک واخـــلاصه
الطالبــ منكم ان لا
تغفلــ عن مطلوبه ولا
ترفع عنه نظر الرحمه لان

اغصان شجرة السلطنه
ما زالت مخضرة بماء الخلود
الي يوم الموعود ولا يخفي
عليكم بان حكم
هرموز خصــوصاً ولايت
قلــهات قد وقع عليها
الخراب والوار ولهذا السبب
قلــ منها المحصولــ
وكيفــ البلاد في بلادكم
افتكرون بهــا كمــا
يــوجب عمـــارتهــا
وحفظهـــــا والسلام
معكم ۞

من اقلــ المـــاليک
وخديمک راشبن احمد
مسقطي

Do minimo eſcravo, e ſervidor voſſo,
Raxeban Ahmed Móſcate.

Nota.

Raxebán Ahmed Móſcate era o Guazil de Ormuz, filho de Raes Xarafo, e iſto meſmo ſe dá a conhecer no perdão, que na ſua Carta pede a ElRei da deſobediencia, e mal que ſeu pai tinha commettido. O Feitor de quem ſe falla neſta Carta era Antonio Corrêa. V. Chron. delRei D. João III. Part. IV. pag. 79.

ثالث عشر : رسالة من أحد حكام المقاطعات الهندية تبين الفضائع التي يرتكبها الحكام البرتغاليون .

بعد عرض العبوديات
الصافيات والخدمات
الوافيات الي حضرة السلطان
الاعظام قديم الافتخار
اكبر السلاطين والحكام
وافتخار الخواقين
السلطان دون جوان
خلد الله ملكه وبعده نعلم
جنابكم العالي بان بلادنا
كما لا يخفي عليكم
بلاد العجز والمسكنة
وانت سلطاننا اكرم
الملوك والسلاطين ونحن
بمقامة ولادكم وانما كل
الانبيا والحكما متفقون

في شرعاً وراي واحداً
ان بقاء الملك والسلطنة
هو بالعدل والانصاف
والعدل فضل الله عليك
به ولاكن عدلك ما وصل
الينا كما سلطاننا الحليم
ونحن في مقام الخدمة
والخلاص وصرفنا اكثر ما
لنا في خدمتكم كما

يشهدون توابيكم
وناسكم وانتم تعرفون كل
هذا وعسكركم كثير في هذه
البلاد ولا يسمع اوامر
امركم وناس عسكركم
يسلبون البلاد ويسفكون
دمائنا ويقطعون سبيلنا
وينزلون بيوتنا ويخرجون
اهلنا واولادنا حتي صارت
بيوتنا خاليت واهلها
هاربت ولا يخفي عليكم
ان مراكبكم متي جاءوا
ياخذون مال الناس برسم
الاشتراء وفي الغالب لا
يعطون ثمنها او يعطون
نصف الثمن وايضاً
رسم بلادنا من قديم
الزمان ان الناس من
اول الليل الي الفجر
يترددون في الطريق
و لاكن متي يجي
قبطان مور مع عسكره
لا يقدر احد يخرج

من داره لان ينهبون
له ثيابه وياخذون

الماء التي يجيبونها الي
ديارهم لان الماء
لاستقالنا ليس في
المدينة بل يجيبونها
من الخارج وفي تلك
الاوقات ناس العسكر
يمنعون اهل البلاد من
مشتراء الماء وهم يشترونها
بنصف الثمن وياخدونها
الي بيوتهم وسفنهم ولا
يعطون ما يوجب
ويضربون الناس
بالرصاص كنبايهم ونحن
على هذا الحال لا نستطيع
على الاقامة لاننا ناس
عجز ومن غير مقاومة ولهذا
وقعت علينا الدلة وانت
سلطاننا وحاكمنا وعدلك
بلغ الي جميع الناس
ولكن الينا ما
وصل ولا يليق على
عظمك وعلو شانك البتة
لكونك اعظم الملوك ان
رعيتك تكون بهذه
المشقة ونرجو من حلمك
العظيم بان تمنع كل
قبطان مور الدخول الي
بلادنا واذا جاءوا ماموريين

منك ان لا يجيبون
معهم عسكر كثير ولا

يغضبون ويخلون الرعية
ابدا لانك انت اتار
المراحة والعناية ونطلب
اخيرا ان تعطي حكم
هذه القبطانية الي جوان
رديكو لانه رجل عاقل
وعادل ويعرف احوالنا
واحوال البلاد وان ما
عمرت هذه البلاد الا
بعدله وانصافه ولهذا
اعطيه حكمه على مدة عشر
سنين حتى نستريح
بحكمه ونشتغل في
الدعاء الي الله بدوام
حكمكم ودولتكم وتخليد
سلطنتكم بحفظ الله
وسلامته ۞

رابع عشر : رسالة عبدالرحمن بن حدو المزطرادي إلي الملك (دوم مانويل) مؤرخه في ٤/رجب/٩٢٣هـ - ١٥١٧/٥/٦م، والمزطرادي هذا هو أحد حكام المقاطعات المغربية الموالية للبرتغاليين .

الحمد لله وحده الي
السلطان دون منويل
سلطان البرتكال
ودكالت والهند ادام الله
عزه ونصره من خديمك
المقر باحسانك الراغب
الي نظر وجهك والطالب
من الله دوام عافيتك
وطول عمرك الخديم عبد
الرحمن المعروف بابن
حدو المزطرادي يقبل
ايادي حضرتك وبعلمك
باني لما كنت في
بلادي كنت مضادد
المسلمين علي مدة ثلاثة
سنين وبعد هذا خرجت
منه بامرك ولخدمتك
وجيت تحت كلمتك
وعلامك اخذت ثلاثين دوار
بمالها وناسها
وجريتها لبين يديك
وطاعتك وفرحت بذالك
غاية الفرح وكتبت لك
لنعلمك بذالك ونبشرك
[illegible] هذا الوقت
ما جانا منك جواب
ولهذا السبب صارت لنا
غبضة وحصرة كبيرة ولا
سيما لما اتي اخونا
القارس من غير جواب لان
ما ظهر منا نقص
بخدمتك ابدا واعلم
ان مني خرجت من
بلادي لخدمتك ماتوا في
الطريق الاكثر من ناسي
من الجوع والعطش
ودخلت الي ازمور بالف
فارس بمالهم وخيامهم
وعيالهم واحتملنا هذا
كله لاجل خدمتك وتراني
في هذا الوقت في ضيقة
عظيمة وناسي كذالك
وما يمنعهم عن
الخروج من البلاد غير
كتابك الشريف متي
يصل ليدي وانا
ياسيدي ما جيت
لبلادتك وحكمك الا حتي
تعينني وتكبرني والان
تراني صرت شمتة لكل
المسلمين واعلم ايضا ان
ما استريح الا متي ياتيني
كتابك وما لي صبر
واحتمال علي الذي جرا
لنا وانت سلطان ذلك
البر وهذا ايضا وما
نحتاج لمن يفهمك علي
حقه والسلام ۞

خامس عشر : رسالة من بعض عملاء ملك البرتغال من المغاربة مؤرخة في ٨/رمضان/٩١٨هـ - ٨/٧/١٥١٢م .

الحمد لله وحده لا معبود
غيره ولا مرتجي سواه الي
مولانا دون منويــــل
سلطـــان الـــبرتكال
والغربيس من شيخ وكبار
الشرقية وهم سالم بن
عمر ودعيجو وغابــا ونصر
بن حلوا واحمد بن
عمر وسعيد بن يحلوقــا
وولاد يـــعقوب وولاد
ابراهيم وولاد سويطـــا
وبني مزهو ومربـــا وكل
بني الغريجي وطابـــان
وجو يقبلون ايادـــك
ويعلموك بان لمـا مستنــا
غزوة شباتـــا عبرنـــا على
ازمور وتلاقينــــا مـــع
قبطانهـــا واهلهـــا ومع
باقي سكانهـــا واعطونـــا
الامان وعـــاملونا بخير
واكرام وان كل القبابطين

الذين جـــاءوا الي هذه
البلاد كانوا مثله فمـــا
كانت البلاد تكون
حايلة ولاكن تكون
عامرة تدر مـــا في مرة
اخري ونطلب من فضل
سيدنـــا ان يكتب له
ويوصيه فينـــا لانه رجل
جيد ومليح ومرحبـــا
فينـــا واخيراً نطلب من
جلالتك ان ترد لنـــــا
الجـــواب والسلام *

في 8 رمضان عام 918
للهجرة ﴿

سادس عشر : رسالة من أهالي (أزمور) إلى ملك البرتغال .

الحمد لله وحده الي
السلطان دون جوان
عبيده الله من خدامك
مسلمين ازمور يقبلون
اقدامك وينهون لعزيز
حالك بان ما
دخلنا الي بلادك
وخدمناك الا بامان ابيك
وكانت نعمته علينا عايمة
وموافاته كثيرة ولا قط
لحقتنا في زمان حكمه
مضادده ولا غبن وكذلك
بعد جلوسك علي مرتبة
السلطانية ما راينا
في اول الزمان الا الخير
وبهذا الخبر اتوا الي
عندنا خمسة عشر عيلة
من جيراننا المسلمين
هاربين وسكنوا معنا

ولاكن بعد ما ارسلت
لنا جرجي دياس انتلفت
البلاد وكسر رايك وقلل
قدرك وجلالك الذي كان
مثل زمان ابيك

واكثر ولو كان حلمك
دام علينا كالاول لكانوا
جاءوا باني اهل تلك
البلاد ونكونوا كلنا عمارة
قوية في بلادك ولاكن
انعال جرجي دياس سببت
كل هذا وكيف ما كان
عندك اخبار انعاله احتملنا
كل شيء حتي عرفناك بهم
وبعثت لنا الكريجيدور
لياخذ حقنا وفي مجيه
فرحنا وقلنا ان قد زال
عنا العار والظلم

والمغاصبه ولما عرف
الكريجيدور امورنا
ودعوتنا قضي لنا شرعنا
ولاكن جرجي دياس
ما قبل شرعه فبعث
وحبس بعضا من ناسنا
ولما عرف الكريجيدور
بذلك قال لنا اكتبوا
للسلطان وانا ابعث
له كتابكم وهذا فعلناه
واخيرا رسلنا لك كتابنا
مع المسلمين الذين مضوا
به الي حضرتك وحسبنا
ان بعد ما تقري
كتابنا وتسمع كلامهم
تعمل لنا الحق

وبستريح قلبنا ولاكن
لما رجعوا ناسنا
بجواب ظهر لنا ان
الباطل والغش كله منك
الله ياخذ حقنا منك
ويجعل ذنوبنا في رقبتك
فاعلمنا ان كان
اساءنا بشيء في بلادك
فاعلم اننا ضعنا في
بلادك وخافنا الجوع
وقلة الامان فيه كانه بلاد
المسلمين زرعنا اكله الشريف
وتركنا ميتين بالجوع ولا
نقدر على شيء ومتاعنا
وولادنا اخذهم جوزتي
دياس ومع هذا ما تريد
تعمل لنا الحق فالله
يطلب منك حساب هذا
لان ولو كنت سلطان
واقدر منا فاعلم ان
السلطان الكبير اقدر
منك فاوفي لان ما
توفي الا عن نفسك اما
انت احسب باننا
ما اضيين من بلادك
والسلام

سابع عشر : رسالة (الشريف أحمد) السلطان أحمد في ٢٤/رجب/٩٣٠هـ - ٢٦/٣/١٥٢٤م .

الحمد لله وحده من عبد
الله الناصر لدين الله
المعتمد على الله امير المومنين
وناصر الدين المجاهد في
سبيل رب العالمين مولي
احمد الشريف ايده الله
ونصره الي السلطان الكبير
في قومه والمشهور في ملته
الرفيع في منزله سلطان
البر تكال المسمي دون
جوان ابن السلطان دون
منويل اكرمه الله بتقواه
وبعد نعلمكم بان بلغنا
كتاب ابن عمنا بابا احمد
حفظه الله وخبرنا بما
نعلتم معه ومع خدامه
من الخير والاحسان الله
يكثر خيركم ويزيد
احسانكم لان كل ما
نعلتموه معه نعلتوه معنا
وهذا هو المعروف منكم مع
كل الناس والمنعول ما يصدر
الا من الدم الشريف والملوك
آلكبار مثلكم ونريد منكم
ان يكن نظركم عليه

حتي ياتي البنا على
خير كما قبلتوه وكل من
حاجة تكن لكم في هذا
البلاد عرفونا بها لتصلكم
بعون الله علي المراد

والسلام عليكم وعلي من
اتبع الهدي *

في 24 من رجب عام 930
للهجرة *

ثامن عشر : رسالة من محمد بن حسون زنبق كاتب السلطان احمد مؤرخة في ١/محرم/٩٣٠هـ - ٣/١١/١٥٢٤م .

الحمد لله وحده الي
الفارس النجيد المعظم
الاصيل انطوني لبني
قبطان مدينة ازمور من
محبك ومقبل اياديك
محمد بن حسون زنبق
كاتب مولانا احمد نصره
الله فنعلمك بان وصلني
كتابك صحبة الشيخ
يحيي بن الديب
وفهمت معناه وما
ذكرت لي عن الصلح
الذي طلبته على ثلاثين
يوما فانا وقفت معه
وعقته حتي ناله
ويكن يعلمك بان
يجاء عليها من يوم وصول
يحيي المذكور وانت
اعلم على ذلك وما

ذكرت لي عن امور العربا
اهل الغربية وان
نوءمنك منهم فنحن

نعطيك كل امان وطمان
من عندهم كما تحب
والله يكون شهيدا على
ما اقول لك وما وعدتك
به وها رسلت لك بعض
كلام مع الشيخ يحيي
غير مكتوب في هذه
البراءة فيكون علمك
عليه واوكد عليك بان
تجتهد وتفتش علي يسي
هرب من محلة السلطان
وسرق لجامين واحد من
ذهب والاخر من الفضة
واريد منك ان متي
وصل لعندكم تقبضهم
منه وترسلهم لي لاني
اعطيت كلمتي للسلطان
بانهم ياتونه علي يدي
وارتجي من محبتك ان
ترفع راسي بهذا الامر
اكتب لي عليها لتاتيك
على الراس والعين وباقي
والسلام *
في اول محرم عام 930
للهجرة *

من كاتب الشريف نصره
الله محمد بن حسون
زنبق

تاسع عشر : رسالة (بابا أحمد) عم سلطان فاس وهو (أبو حسون) مـ
في ٢٤/ربيع الآخر/٩٣٠هـ – ٢٧/٥/١٥٢٤م .

الحمد لله وحده الي ملك
الملوك وا عظمهم مالك
البرين والبحر بينهم
السلطان دون جوان
ادام الله ايامه من عند
خديمك والمقر باحسانك
وبيوس ابـــاديك وينهي
لعلمك بـــاني يامولاي

وصلــــت الي تافلات
وتلاقيــــت مع حكامها
وكبارهـا وقبلوني بفرح
وعملوا معي كل خير واكرام
وهذا كله لجـاهك واكرام
لوجهك والخير الذي وجدته
في كل موضع هو صـادر
من جـــلال ذكرك
المرهوب واعلم ياسيدي
ان بعد مـا وصلت
الي تـــافلات حسبت
اني اجد قوارب سفـاينك
حـاضرين حتي اسافر بهم
ولاكن كيف الارمادة
سافرت مضوا معها وبقيت
محتار ولا عندي مـا اخرج
علي نفسي وخدامي وخيلي
لاني ملحوق ولي اربعة
وثلاثين يومـا في السفر
من يوم الذي فارقت
وجهك لاجل ذلك قصدت
فضلك في هذا الوقت كما
قصدتك اول مرة وعملت
معي الخير الذي مـا فعله

احد معي ولا ابي فعله
لهذا خديمك يـاسيدي
يطلـب من فضلك ان
تـسلفه خمسمـــاية
كروزاتوس حتي اقيـت
روحي وخــدامي الي ان
اصــل الي فاس ونهار
وصولي ارســـل لمولاي

دا[illegible] تي لسفي او
لطنجة لو [illegible] أي موضع
يامرني سيدي تدفعهـا
وصـا تصالم مع كاتبي
علي قبـايلي ورقة بعلامي
ليكتب سيدي فوقها وكل
مـا يامر به وبكيته
فانـا راضي به علي كل
حال واطلب من مولاي
لا يواخذني ويعذرني لان
لو كان لي مـا اصرف
في اخر سفري فمـا كنت
طلبته هذه المرسه ولا
نحسبها يامولاي الا انك
بعث هذه الدراهم الي
ثغر طنجه او الي غير
مدينة وان شـاء الله
مني وصلت الي فـــاس
ارسلهـا للحال الي اين
تامرني والسلام *

في 24 من ربيع الاخر
عام 930 للهجرة *
من بابـا احمد بن عم
الشريف سلطـان فاس ۞

عشرون : رسالة السلطان محمد الوطاسي (البرتغالي) إلى الملك دون جوان مؤرخه في ٢٠/رجب/٩٣١هـ - ٢٢/٥/١٥٢٥م .

بسم الله الرحمن الرحيم
من عبد الله الغالب بالله
المتوكل على الله الناصر
لدين الله امير المومنين
وناصر الدين
المجاهد في سبيل
رب العالمين محمد
الشريف ابده الله الى
السلطان العظيم المشهور
في دولته والكبير بين قومه
واهل بره دون جوان
سلطان البرتكال اكرمه
الله بتقواه ووفقه وهداه
سلام يراجع سلامكم
وبعده فيكون في علمكم
بان وصلنا كتابكم
صحبة ابن عمنا واقرب
الناس الينا بابا احمد
بو حسون وكان وصوله
الينا اعز واوفر القدوم
وقبلناه بمسره واكرام
وتعلمنا معه ما يليق
بجانبنا من المودة
والمراعاة وامرنا له بكل

مما يحتاج اكراما
لكم ولقدومه من عندكم
ومن بلادكم واوطانكم
وقص لنا جميع ما
فعلتموه معه من الخير
وشكوناك بذلك ولو ما
كانت في السعادة بين
كبراء النصاري والمسلمين
وما ذكرتم لنا ان
نقف معه على ما كتبنا
لكم ونوفي كلامنا فنحن
الحمد لله اهل الوفاء معه
ومع غيره ولا سيما مع
ابن عمنا ولحمنا ودمنا
وان شاء الله ما يصير له
الا ما يسركم ويرضيكم
وكونوا على علم ذلك
والسلام على من اتبع
الهدي *

في 20 من رجب عام
931 للهجرة

إحدى وعشرون : رسالة أبو حسون إلى ملك البرتغال مؤرخه في ٢٤/رجب/٩٣١هـ - ٢٤/١١/١٥٢٥م .

الحمد لله وحده الى
السلطان الكبير في قومه
والمشهور في اشك ماته
والمشكور بين رعيته
سلطان البرتكال المسمى
دن جوان اكرمه الله ومن
عليه بما يحبه ويرضاه
من المسلم عليك والمقر
باحسانك والشاكر فضلك
وكثرة خيرك ونعلمك
يامولاي باني قد وصلت
الى مدينة ناس حفظها
الله وتقدمت الى بين
ايادي ابن عمنا السلطان
نصره الله وقبلني بالتعظيم
والاحلام ونحن الحمد لله
اليوم تحت كنف الله
وكنفك ولا ازال شكر
باحسانك التي فعلتها معي
وقدري لا انساها وجميع ما
تكون لكم في هذه
البلاد من الحوايج والاشغال
نرضاها لكم على الراس
والعين وتعلم ياسيدي ان
خديمك فيلبس فرنندس قد
اتى معي الى مدينة ناس
وكان مراده يرجع من
تافلالت ولاكن انا
وكدت عليه وازمته
ان يرافقني وعمل معي
الخير الواجب عليه وفي
خدمتك وهو واجب
اليكم في هذا الوقت
ونريد منكم ان تفعلوا
معه الخير الذي هو معروف
منكم لان هذا هو
مرادنا والله يوفقكم على
الخير والسلام *

في 24 من رجب عام
931 *

من خديمكم وتحت
فضلكم بابا احمد بو
حسون بن عمر
الشريف ☆

اثنان وعشرون : رسالة ملك البرتغال إلى السلطان أحمد (لعله أحمد الوطاسي) مؤرخه في ٢٩/١/١٥٢٦م .

الى كثير الاكرام وكثير
الاعظام بين امة المسلمين
الشريف مولى احمد
سلطان فاس من دون
جوان بفضل الله تعالى
سلطان البرتكال والغربس
من هنا وهناك وبحر
بينهم مولاء غناوة وبلاد
المعدنين واثيوبيا مفتتح
اقاليم الهند واوطان من
جهة العرب والعجم
والباقي نعلمك بان
قبولنا الى ابن عمكم
بابا احمد والذين
جاءوا معه فعلناه
بالتامين انه ابن ذاك
الاب والدم الكبير
والنسل الشريف
ويستحق اكثر مما
فعلنا معه وكل من
قصد مقامنا وسلطنتنا
وجاء الينا نفعل معه
هكذا لان هذا هو فعل
الملوك مع ضيوفهم وابي
رحمه الله وباقي السلاطين
الذين سبقوني في هذه
السلطنة هكذا كانوا يفعلوا
وفرحنا كثيراً لما حدثت
لنا مقامات مثل هذه
الواجبة والمعونة مع من
هو اقرب اليكم ولا عندنا
شيء ان هذا الفعل يسر
ويفرح قلبكم وخاطركم
كما شرحت لنا في
كتابكم وعما كتبت
لنا على طيبة خاطركم
معنا نحن نكون
فاطنين به والله يكثر
خيركم ومن جهة الاشياء
الاخرى التي ذكرت عنها
بكتابك اعطينا جوابها
الى يعقوب رشاشي وهو
يعلمكم بها الى كم
ايها الحميد والعظيم
بين امة المسلمين مولاي
احمد الشريف سلطان
فاس الله يوريكم طريق
الحق .

كتبته فيلس فرنندو في
29 من ينير سنة 1526 م

ثلاثة وعشرون : رسالة السلطان أحمد إلى ملك البرتغال مؤرخه في ٢٧/شعبان/٩٣١هـ - ٢٩/٥/١٥٢٦م .

الحمد لله وحده من عبد
الله تعالي امير المومنين
وناصر الدين المجاهد في
سبيل رب العالمين مولاي
احمد سلطان فـــاس
ومراكش وسوس ودرعت
وتركوان وواد نون ومـا
قاربها ايده الله الي سلطان
البرتكال المسمـــي دون
جوان حفظه الله ومن عليه
باكرام هذه الدنيا والأخره
اما بعد حمد كلي التوحيد
يكون في علمكم بان
قد ورد علينـا كتابكم
الشريـــف وفهمنـــا ما
ذكـــرتم لنا فيه على امر
المسلم بن بشقا ابن من
فارس ونجدن علي شهادتكم
ان المسلم المذكـــور
دخل بخاطره في دين
النصاري فلا شك عندنا
بذلك ولا تهمنــــاكم
بانكم غصبتوه ليبدل
دينه ولاكن شرعنا يامر
ان لازمه يخرج من
بلادكم وتحت حكمكم
وياتي بامرنا ويبقي عشرة
او خمسة عشر يوما مع

والده واهله ليتفكر في
تلك المدة في الدين
الذي يختاره وبعد ذلك
يـقبض الدين الذي
يريده لان هذا هو المامور
في ديننا والابـــق ان
يفعله ومن جهة قبطان
اسفي فرنسيسكو لويس لو
ان مـــا كان صدر
الغادر قبل هذا الوقت
من نحو غرسيا دميلو
فمـا كان حرا بيننا وبينه
الا الخير والذي يصلح الي
الجميع ولاكن كيف ما
صدر منه عيب ولا شيء
ينقص قيمته عمل الخير هو
ملاح ومشكور وكل الخير
الذي تعملوه معه فهو محله
وقراره والله سبحانه يوفقنا
على مـا فيه صلاح الدنيا
والدين ونفع الرعية *

في 27 من شعبان عام
931 للهجرة ۞

أربعة وعشرون : رسالة السلطان أحمد إلى ملك البرتغال في ٢٠/صفر/٩٣١ - ٢٢/١٢/١٥٢٦م .

الحمد لله وحده من عبد
الله المعتمد على الله مولاي
احمد الشريف لاطفه الله
الي عظيم الروم دون
جوان سلطان البرتكال
حفظه الله اما بعد
فاني احمد الله الخالق
الذي لا الاه الا هو وعلى
على رسوله نعلمك بان
علمنا العافية بامرك مع
خدامك قبطان اسفي
وقبطان ازمور على يد
خديمكم النصراني
واليهودي ابراهيم خزان
وبعد هذا اخدوا اهل
ازمور زوج مسلمين وبعثوهم
الي بلادك وبعثنا نطلبهم
مرة بعض مرة وحتي هذا
الوقت ما رأينا لهم
خبر واهل اسفي بعثوا
سرافنهم وسرقوا بقر بلادنا
وباعوهم عيانا في ازمور
وفي هذه العافية الاخرة
التي كانت علي يد اليهودي
ابراهيم بن زميرا اخدوا
اهل ازمور قافلة غنم
وجمال وطلقوا الرعاة
والناس وبعد ذلك بعث
قبطان اسفي الجناشة

واتفقوا مع قافلة تخص
لخدامنا فاخدوها
وقتلوا ناسها لكي لا
يظهر نعليهم وقبضوا ايضا
زوج مسلمين وبعثوهم الي
بركم ومن القافلة التي
سرقوها ردوا ثلاثين راس
فقط واكلوا الباقي
والحاصل ان كان
هذه الفعال مفعولة
من غير امرك وتريد
محبتنا واتصالها ارسل
لنا من ينصف لنا ويرد
كل ما اخدوه خدامك
بالسلام والاخر لان
ما لنا احتمال على
ما فعلوه معنا ولا
نرضى ابدا بذلك ولا
نحتمله ونريد منك ان
ترسل من عندك احد
ينصف لنا ويقف حتي
يردوا لنا خدامك كل
ما هو لنا ويقاصر
الذين فعلوا هذا الغدر
وفي وصول هذا الكتاب
اليك نستنظر جوابه منك
والانصاف المطلوب به
وان عملت لنا الحق
بعد ما يتحقق لك

صحبة كلامنا تبقى عافيتنا
وصحبتنا على حالها والا
فنحن ما نصبر على هذه
الامور ولا نحتملها ابدا
لان من اول يوم الذي
ترتبت العافية بيننا ما
ظهر مننا نقص ولا عيب
وان كان المسلمين
يحفظون العهد والكلمة
لاي سبب النصارى لا
يحفظونه واخيرا ابعث

لنا قاضي عارفا وتابعا
باموركم ليفحص عن
امورنا باجتهاد وان
فحص يظهر له تحقيقا
شكوتنا وان علمت
لنا المطلوب منك فانشاء
الله تكون العافية على
حالها وتحفظ بالقول
والفعل والسلام *

في 20 من صفر عام
931 هـ

32

الفصل الثاني والثلاثون

* السلطان محمد المتوكل السعدي يعتلي عرش المغرب عام ١٥٧٤ وظهور معارضة أعمامه عبدالمالك المعتصم وأحمد المنصور .
* الملك سيباستيان يقوم بمناورة عسكرية في طنجة .
* سقوط محمد المتوكل واعلان سلطنة عبدالمالك المعتصم بالله عام ١٥٧٦ .
* عبدالمالك المعتصم واستراتيجية التعامل مع السلطات العثمانية ودولة اسبانيا والبرتغال .
* تفاصيل الاستعدادات للحملة البرتغالية الكبرى .
* الملك سيباستيان يبحر من لشبونه على رأس حملته الكبرى ويصل إلى طنجة في الساحل المغربي يوم ٩/ ٧/ ١٥٧٨م .

توقفنا في أخبار الفصل التاسع والعشرين من هذا الكتاب عندما انتقل إلى رحمة الله سلطان المغرب عبدالله الغالب في عام ١٥٧٤م ، وتولى ابنه محمد المتوكل مقاليد الحكم هناك .

إلا أن محمد المتوكل هذا لم يكن يحظى بمحبة أفراد الشعب ، لأنه كان مغروراً ولا يحترم أحداً ، وقد ذاع صيته منذ عهد أبيه بحياة اللهو والمجون ، هذا علاوة على أن اعتلاءه العرش ، لم يكن مما يقره أعمامه عبدالمالك وأحمد اللذان كانا لاجئين سياسيين عند الأتراك في الجزائر ، وكان العم عبدالمالك يقوم بإعداد الوسائل والسبل التي تمكنه من استرجاع حقوقه في وراثة عرش المغرب ، لذلك فإن السلطان السعدي

الجديد واجهته مشكلتان في آن واحد منذ أول أيامه .

الأولى : نشاط المعارضة السياسية لأعمامه عبدالمالك وأحمد . والثانية : قيام الملك البرتغالي سيباستيان بزيارة إلى مدينة (سبته) التي كانت بيد البرتغاليين آنذاك .

وعموماً ، فإن تولي محمد المتوكل الحكم في المغرب أثار الأتراك والأسبان والبرتغاليين ، فالاتراك لم يخفوا مطامعهم في المغرب ، وعليه فإن السلطان العثماني سليم الثاني استقبل العم الثائر عبدالمالك وزوجته التركية ابنة القائد التركي البحري (ريس مراد) وتمكن عبدالمالك من اقناع السلطان بحقه في عرش المغرب ، لذا فإن السلطان فاتح باشواته وقادة جيشه بموضوع الاستيلاء على شمال المغرب ، باعتباره الامتداد الطبيعي للاحتلال التركي للجزائر وكذلك الحصول على مرفأ (العرائش) وانتزاعه من يد أعدائه الاسبان ليسهل مهاجمتهم من هناك .

كما أن ملك اسبانيا فيليب الثاني الذي كان قد التقى بمناسبة سابقة مع عبدالمالك عندما كان هارباً من حكم أخيه السلطان عبدالله الغالب ، فإنه أي فيليب كان يرى ضرورة احتواء نشاط عبدالمالك لمصلحة اسبانيا ، وكان يرى أيضاً أن الانقضاض على الأتراك وأخذهم على عجلة من أمرهم هو أحسن الطرق لإبعادهم نهائياً عن المغرب العربي . وكان هذا الرأي مما أسال لعاب الملك البرتغالي الجديد المتلهف لقتال العرب والمسلمين لأن يقوم بمغامرة في المغرب ، خاصة بعد أن استلم تقارير وتعليقات من الحكام البرتغاليين لمدن (سبته) و(طنجه) ، الذين كانوا يضخمون له الأخبار ، ويكثرون من تفاصيل شروح الخلافات السياسية الموجودة في المغرب بين السلطان محمد المتوكل وأنصار عمه عبدالمالك ، ويوحون له أن (المملكة الشريفية السعدية) سوف تثور على حاكمها ، وهي على حافة الفوضى .

وبناءً على تلك الأخبار تهلل ذون سيباستيان فرحاً ، فقرر القيام بغارة ضد المغرب وسكانها (الكُفَّار) حسبما كان يسميهم ، انطلاقاً من سبته أو طنجه ، على أن تكون

هذه الغارة عبارة عن مناورة استطلاعية ومقدمة يختبر فيها قوته وقوة خصمه تمهيداً لحملته الكبرى التي يزمع القيام بها لاحتلال المغرب . وعليه فقد عبر على رأس قوة مكونة من ألف ومئتي جندي من المشاة في شهر آب من عام ١٥٧٤م ونزل في طنجه حيث استقبله قريبه (دون انطونيو) حاكم المدينة وأركان حربه بحفاوة .

وتصمت المصادر المغربية عن ذكر رد فعل السلطان محمد المتوكل على زيارة الملك البرتغالي لقواعده العسكرية الموجودة في المغرب ، لكن مصدراً برتغالياً يقول إن السلطان محمد المتوكل قرر الرد على المناورة البرتغالية ، فأوفد إلى طنجه جيشاً من فرسان قبيلة (الغومار) الريفية . إلا أن سيباستيان قاد هجوماً متهوراً ضد الفرسان المغاربة ففشل في تحقيق فوز عليهم مما دفع دون أنطونيو حاكم طنجة أن يتوسل إليه للتراجع إلى المدينة ، فعاد مغروراً بنفسه ومتهوراً أكثر من السابق . وفي مساء اليوم ذاته اجتمع بقادته على مائدة العشاء وأعلن لهم عن عزمه الثابت على القيام بجيشه الصغير الباسل بالاستيلاء التدريجي على المغرب ، حيث ستتحقق الانتصارات على يده ، وحيث سيتدفق المحاربون الفتيان المتحمسون بفارغ الصبر للمعركة من جميع الجهات للالتحاق به لحمل راية انتصار المسيح والبرتغال عاليه وإلى الأمام دائماً ، ثم عاد إلى لشبونه[1] .

أما المشكلة التي لم يستطع السلطان محمد المتوكل علاجها ، فقد كانت في المعارضة التي يمثلها أعمامه عبدالمالك المعتصم ، وأحمد المنصور الموجودان في الجزائر واللذان يقومان بمحاولة القضاء عليه بواسطة جيش تركي يساعدهم على ذلك .

كان عبدالمالك شخصاً مرغوباً شعبياً أكثر من ابن اخيه السلطان وكانت عبارات المديح تنهال عليه باستمرار كونه شاعراً بارعاً ، يجيد الاسبانية والإيطالية ويتحدث التركية بطلاقة ويتقن اللعب على عدة آلات موسيقية مختلفة ، وهو جندي مقدام وباسل ومواظب على متابعة أمور التسليح والجندية ، وكان على علمٍ تام بالعادات

---

(١) يونس نكروف – المصدر نفسه – ص ٧٥ .

والعلاقات العالمية والدبلوماسية والأحداث العالمية وطرق ادارة الدول ، تساعده أمه (لالا سحايه الرحمانية) ذات النصائح القيمة وزوجته التركية التي علمته العادات التركية وساعدته على نيل محبة وعطف الحكومة التركية ، كما كان يُساعده في كل هذا أخوه الأمير أحمد المنصور . إلا أن خطته في انتزاع السلطة من ابن اخيه كانت تقوم على ضرورة اعتماده على الأتراك الموجودين في الجزائر ، على الرغم من أنهم الذين قتلوا والده عندما حاولوا التدخل في شؤون المغرب ، وكان على يقين بأنهم يرغبون الحصول على مرفأ أو مرفأين مغربيين على المتوسط أو الأطلسي ، يخدمانهم كميناء أو مركز لتموين مراكبهم العاملة في تلك النواحي . لذلك فقد قرر أن يناور الأتراك ، فبعد أن يستغني كلياً عن خدماتهم يستطيع أن يردهم إلى بلادهم عن طريق إمدادهم بالمال الوافر ، فهو يتقن لغتهم ويعرف نفسيتهم .

وقد سنحت له الفرصة لبحث موضوع إمداده بالمعونة العسكرية التركية عندما أنزل السلطان العثماني مراد الثالث هزيمة بالاسبان في تونس وطردهم بشكل نهائي منها في أواخر عام ١٥٧٥م ، وأصبحت تونس تابعة للجزائر كولاية تركية خاضعة مباشرة للسلطان العثماني ، لذا فقد شهد عام ١٥٧٦م تحركاً سياسياً وعسكرياً كثيفاً لعبدالمالك إذ تمكن من إقناع السلطات التركية بمده بقوة مسلحة ، فأصدرت أوامرها إلى رمضان باشا حاكم الجزائر بمده بقوة قدرتها المصادر المغربية بأربعة آلاف مقاتل أو أقل ، وقدرتها المصادر الاسبانية بستة آلاف مع أربعة آلاف فارس عربي وعشرين مدفعاً وعشر سفن .

وقد التقى عبدالمالك بقوات ابن اخيه السلطان محمد المتوكل في معركة (خندق الريحان) التي وقعت في شهر يوليو ١٥٧٦م ، استمرت لمدة ثلاثة أيام ، ثم لم يلبث أن التقى الطرفان في معركة ثانية اسمها (الركن) وقيل أيضاً إن اسمها (الروكان) ، حيث واجه السلطان محمد المتوكل عمه عيدالمالك المعتصم بقوة قدرت بأكثر من ستين ألف فارس وخمسين ألف من المشاة مع أكثر من مائة وخمسين مدفعاً ، أما قوات العم

فكانت اثني عشر ألفا من المشاة وحوالي ثمانية وعشرين الفاً من الفرسان وأربعة وستين مدفعاً وعدداً من الكتائب العسكرية التركية ، وانتهت المعركة بهزيمة لقوات السلطان محمد المتوكل راح ضحيتها حوالي خمسة عشر ألف قتيل ، في مقدمتهم البارزون من قواده فضلاً عن فقده جميع مدافعه ومعداته الثقيلة .

وهكذا إنتصر عبدالمالك انتصاراً ساحقاً ودخل العاصمة فاس منتصراً وأعلن نفسه سلطاناً للمغرب باسم السلطان مولاي عبدالمالك المعتصم بالله ، وعين أخاه مولاي أحمد المنصور وريثاً ووليا للعهد بعده طبقاً لقانون وراثة العرش ، أما السلطان السابق محمد المتوكل فقد هرب من المعركة واختفى في مكان ما في جبال السوس في المغرب(٢) .

صعد السلطان عبدالمالك المعتصم إلى العرش السعدي المغربي وكان عليه أن يواجه عدة مشاكل وهي :

١ : مشكلة تحديد علاقته السياسية بالسلطة العثمانية التي ساعدته في الوصول إلى سدة الحكم .

٢ : مشكلة تحديد علاقته السياسية بالملك فيليب الثاني ملك اسبانيا الذي كان يرغب في قرارة نفسه أن يتحالف معه ليضمن جانبه وينتزعه من يد الأتراك ، ولكنه في الوقت نفسه قد هاله دخول الأتراك إلى المغرب ، خاصة بعد أن انهالت عليه الشكاوى من الملك سيباستيان ملك البرتغال الذي استغل هذا الحدث ليبرهن لخاله ملك اسبانيا بأن المغرب قد صار قاعدة تركية ولا بد من القيام بحمله عسكرية كبرى لمحوه من الوجود .

٣ : مشكلة تحديد علاقاته السياسية مع الدول الأوربية الأخرى مثل انجلتره وفرنسا .

---

(٢) د . ابراهيم شحاته حسن – المصدر نفسه – ص ١٦٧ . وكذلك د . عبدالكريم كريم – المصدر نفسه – ص ٩٩ . وكذلك يونس نكروف – المصدر نفسه – ص ٩٦ .

٤ : القضاء على تحركات ابن اخيه السلطان السابق محمد المتوكل الذي راح يحاول تجنيد بعض الفرق لصالحه .

٥ : مشكلة الحملة العسكرية البرتغالية الكبرى التي تستهدف إنهاء المغرب كلياً والتي يعدّها الملك سيباستيان .

بالنسبة للمشكلة الأولى وهي تحديد علاقته بالعثمانيين ، تقول المصادر المغربية : «بعد أن دخل المولى عبدالمالك فاس طالبهُ الترك أن يردهم إلى بلادهم وأن يعطيهم المال الذي اتفق معهم عليه وهم يسمونه بلغتهم البقشيش ، فبذل لكل واحد منهم أربعمائة أوقية ، واستلف المال من تجار فاس حتى يتسع حاله فكان جملة ما أعطى الترك خمسمائة ألف ، وأعطاهم عشرة من الأنقاض وركب لوداعهم بنفسه ، ثم رجع إلى فاس» .

أما من رغب منهم البقاء في المغرب ، فقد وافق السلطان على بقاء ألف (زواوي) وعدد من ضباط المدفعية لتدريب جيشه . وبديهي أن قصة (البقشيش) هذه يمكن تفسيرها بالرفض المغربي للدور العثماني في مستقبل علاقاته الدولية ، لذلك فإن حكمة هذا الحاكم المغربي الجديد ظهرت واضحة بالطريقة التي تعامل فيها لحل مشكلة وجود قوات عثمانية في بلاده ، فما إن خرج الجيش التركي عائداً إلى الجزائر حتى تنفس الصعداء وراح يكرس نفسه لمهماته الكبيرة الأخرى .

وبسبب معرفته بالوضع العالمي آنذاك وبلعبة موازين القوى فقد قام بمعالجة حكيمة لعلاقاته الدبلوماسية باسبانيا ، بأن كتب أربع رسائل باللغة الأسبانية إلى عدد من أصدقائه هناك ، ورسالة إلى ملك اسبانيا فيليب الثاني يعرض عليه نسيان فترات العداوة وسوء التفاهم الماضية بين اسبانيا والمغرب ، كما عرض عليه إرسال سفراء ومبعوثين من أجل توسيع الصداقة والتعاون بين الطرفين ، واقترح أن يقوم بهذه المهمة صديقاه (الأخوان أندريه وجاسبار كورسو) ، إلا أن فيليب الثاني كان يضع أمامه ثلاثة

مشاكل تقف عقبات أمام علاقته بملك المغرب ، الأولى خوفه من أن عبدالمالك سوف يبقى مديناً للعثمانيين الذين ساعدوه في نيل السلطة وأن الرابطة الإسلامية التي تربطه بالاتراك سوف تدفعه دوماً إلى أن يفضل التحالف معهم ضد أية قوة أوربية أخرى .

أما الثانية فهي عقدة ابن اخته ملك البرتغال الذي يعيش في حلم تحطيم دولة المغرب . فهو لا يريد أن يخذله ، لذلك فقد وافق مبدئياً على فكرة الحملة ، كما وافق على تجهيزه ببعض الوحدات الاسبانية المقاتلة والمعدات اللازمة ، إلا أنه خالف ابن اخته في الأسلوب والتوقيت والتعبئة .

وكانت المشكلة الثالثة هي التي جعلته يؤمن بوجوب إضعاف المغرب ، وتتعلق بقضية علاقة عبدالمالك بالملكة اليزابث ملكة بريطانيا وعدوة اسبانيا . وهي علاقة ابتدأت أصولها عندما اعتلت الملكة البريطانية الشابه (اليزابث) عرش المملكة بعد أن انتزعته من اختها (ماري) وهذه زوجة سابقة للملك فيليب ملك اسبانيا . فإنها أي الملكة الجديدة سرعان ما نهجت نهجين يخالفان اسبانيا والبرتغال . الأول هو النهج المذهبي ، إذ أعلنت أن بريطانيا (بروتستانتية) المذهب فهي لذلك ضد المذهب (الكاثوليكي) السائد في اسبانيا والبرتغال ، أما النهج الثاني ، فقد كان نهجاً اقتصادياً بحتاً ألا وهو تطلعها إلى مصادر الثروة في العالم ، ومنها ثروة الشرق التي تسيطر عليها البرتغال ، ومحاولة انتزاعها منهم وذلك بالتعاون مع اعداء البرتغال من العرب والمسلمين .

لذلك فقد شهد عهد عبدالمالك المعتصم علاقات مغربية - بريطانية جيدة ، إذ عمل البلدان على تشجيع التبادل التجاري بينهما ، ونجح التجار وأصحاب السفن الانجليزية بإقامة علاقات مربحة بين انجلتره والمغرب ، وكانت أهم بضاعة ومادة يخافها البرتغاليون هي سبائك القصدير والحديد التي كانت تنقل إلى بريطانيا وفرنسا لتُصنع هناك مدافع وقذائف للقوات المسلحة المغربية .

لذلك فإن لشبونة ولندن تبادلتا الاتهام والشتائم ، واعتمد البرتغاليون على مساندة

الفاتيكان لمنع هذا النوع من المواد ، مدعين الحق بايقاف الانجليز من ممارسة كل العمليات التجارية غير المشروعة مع المرافىء المغربية ، وبالتالي ادعوا بحقهم في مهاجمة ومصادرة كل السفن الانجليزية المضبوطة بجرم هذا (التهريب الإجرامي) ، ولكن هذا الالحاح لم يكن له إلا ردة فعل عكسية ، دفعت بالملكة البريطانية إلى الالتفاف على الغطرسة الاسبانية والبرتغالية بأن حافظت على التبادل التجاري المُربح مع المغرب ، الأمر الذي صار مصدر مباهاة لرجالها . ولهذا كان عليها تمتين أواصر الصداقة مع الحاكم المغربي الجديد(٣) .

بقيت المشكلة الرئيسية التي واجهها السلطان عبدالمالك المعتصم ، هي مشكلة ابن أخيه السلطان السابق محمد المتوكل ، فقد حاول المتوكل استعادة عرشه من عمه فراح يبذل الجهود المتواصلة في سبيل ذلك ، وقيل إن عشرين معركة وقعت بين الطرفين ، خسرها المتوكل كلها ، لذلك لم يبق أمامه إلا اللجوء إلى الاسبان أو البرتغال وطلب العون العسكري منهم لاعادته إلى عرشه . ففي الحادي والعشرين من تشرين الثاني ١٥٧٧م ، وصل محمد المتوكل إلى قاعدة عسكرية اسبانية قريبة من مدينة (بادس) ، وهي قاعدة (تاران دو فيليه) ومعه عائلته وجيشه المكون من ألف رجل ، وطلب اللجوء السياسي من ملك اسبانيا ، إلا أن الملك الاسباني ، لم يوافق على منحه وجنوده هذا الحق ، بل وافق على منحه وعائلته فقط ، واكتفى بأن وعده بالحماية اللازمة إن هو عاد إلى منطقة الجبال في المغرب . لذلك لم يبق أمام محمد المتوكل إلا أن يطلب العون من ملك البرتغال الذي كان يعد العدة لغزو المغرب ، فكتب إلى حاكم (سبته) البرتغالي (دون فيلا ريال) برغبته في ذلك ، وكتب الحاكم إلى لشبونه عارضاً طلب المتوكل ، فوافق ملك البرتغال على ذلك قائلاً أنه يجب معاملته معاملة ملك فقد عرشه ، وهكذا استقبل حاكم (طنجه) البرتغالي (دورات دي منزيس) ، محمدَ المتوكل بالأبّهة والأصول الملكية السعدية الشريفية ، وبالمقابل فقد قام المتوكل

(٣) المصادر الثلاثة السابقة نفسها .

بالايعاز إلى أحد أعوانه وهو صهره القائد سيدي عبدالكريم بن توده المؤيد له الذي كان لا يزال يحكم بلدة (أرزيلا) بالتنازل عن البلدة إلى السلطات البرتغالية ، ففعل ذلك . وبالتجاء محمد المتوكل إلى طنجه عند البرتغال ، فقد أعطى مبرراً قوياً لملك البرتغال لتحقيق هدفه من الحملة ، فكتب إليه الملك مرحباً به قائلاً له أن ينتظر وصول الجيش البرتغالي إلى المغرب لإعادته إلى عرشه .

كان (سيباستيان) فتىً في السادسة عشرة من عمره سنة تنفيذ الحملة البرتغالية على المغرب والتي كان يعد لها منذ عام ١٥٧٠م ، وكان قد تربى وسط أخلاقيات مثالية تهفو إلى نشر التعاليم الجزويتيه التي ترى في الجندية المثل الأعلى للحياة ، وأن نشر العقيدة الكاثوليكية في مقدمة الأهداف ، كما كان يرى بأن حل المشكلات الاقتصادية التي أصبحت تعاني منها البرتغال بسبب مزاحمة الانجليز وغيرهم من الدول الأوربية لا تنتهي إلا بالعبور إلى أفريقيا وخوض الحرب المقدسة بشخصه ضد (الكفار) المسلمين وسحق دولة المغرب العربي أولاً(٤) .

إلا أن فكرة مغامرته هذه لم تجد من يؤيدها أول الأمر ، فقد وصلت اليه رسائل من (الكردينال هنري) وهو عم والده ، ينصحه فيها بعدم القيام بهذه المغامرة ويقول له : «إن النتائج المتوخاة من هذا العمل لا تعادل المخاطر التي سوف نتعرض لها» . وأرسل له الأب (لويس دو غونزالس) كبير الأساقفة وعرافه الخاص قائلاً : «إذا كنتم يا سيدي تتكلمون معي بصفاء ذهن وليس بخفة ، أقول لكم إن هناك ثلاثة أشياء مهمة يجب أن توجد مجتمعة لكي يكون بإمكانكم التفكير بالقيام بالحرب في أفريقيا : أولاً أن يرى شعبكم أربعة أو خمسة أطفال ذكور على سلم العرش ، ثانياً أن لا يتعرض البرتغال في حال غيابكم لأي خطر أو لأي اضطراب ، ثالثاً : أن يكون لديك من أجل القيام بالحرب الاستعدادات الوافرة من الفرق والمال والمؤن على جميع أنواعها ، والتي للحصول عليها ، لا داع لتحقير واضطهاد شعبكم» .

---

(٤) ابراهيم شحاته حسن – المصدر نفسه – ص ٢٠١ .

لكن تلك الآراء زادت في ازعاج الملك الفتى فلم يتمعن في قراءتها ، بل سخر منها مع جلسائه والمداهنين له وبالتالي لم يكن لها إلا تأثير عكسي تماماً ، دفعت به أكثر وأكثر للذويان في أحلامه والتشبث بمشروعه في احتلال المغرب ، فمنذ مناورته في (طنجه) عام ١٥٧٤م ، أخذ علماً بنقص احتياطه من الرجال والأسلحة والمؤن والمال ، فلم يتوقف عن التفكير في وضع الخطط والبرامج لمعالجة ذلك ، ومنها استمالة خاله القوي فيليب الثاني ملك اسبانيا ، وإرسال طلبات القروض إلى ممولين أوربيين والشروع بحملات لكسب متطوعين من أوربا علاوة على القيام بإعداد جيش حديث قوي ومدرب للقيام بالمهمة المذكورة[٥] .

فبالنسبة لقيامه بالإعداد للجيش المدرب القوي للحملة ، فإنه أمر بتشكيل نخبة مكونة من أربعة ضباط برتبة عقيد ليقوموا بتجنيد وتدريب وتهيئة إثني عشر ألف جندي برتغالي هُم عماد الحملة ، أما حصوله على مساعدات ملوك أوربا والمتطوعين ، فقد قام بها أمين سره المدعو (نونو الفاز بيريرا) ، الذي تمكن من الحصول على موافقة أمير أورانج (غليوم دوناسو) بتجنيد أربعة آلاف عسكري لصالح البرتغال تحت قيادة (مارتن البورغوندي) ، كما قام (فرديناند الأول) دوق توسكانيا وهي إحدى المقاطعات الإيطالية بارسال حوالي أربعة آلاف جندي ، كما قام نبيل انجليزي يدعى (توماس ستوكلي) كان قد حصل على موافقة البابا لقيادة جيش من المتطوعين الكاثوليك لقتال قريبته ملكة بريطانيا ، وعندما وصل هذا النبيل إلى لشبونه فإنه توقف هناك وقابل الملك سيباستيان وتمكن هذا من اقناعه بعدم الذهاب لقتال اليزابث بل الالتحاق به في حملته ضد المغرب ، فوافق النبيل الانجليزي على ذلك . أما قضية مساعدة اسبانيا للبرتغال ، فيمكن القول إن الملك فيليب الثاني بقي متحفظاً لفترة طويلة ضد المشروع ، بحيث أن سيباستيان كان كثيراً ما يحنق على خاله ويتهمه بالكبر والخرف والجُبن ، ودفع حذر الملك فيليب إلى أن يقوم بارسال جواسيس لاستطلاع

---

(٥) يونس نكروف - المصدر نفسه - ص ٧٧ .

قوة المغرب العسكرية فكان رأي هؤلاء أن المغرب قوي ومستعد عسكرياً . إلا أنه وتحت ضغط والحاح ابن اخته وافق على أن يمده بخمسة عشر ألف مقاتل منهم خمسة آلاف اسبان والبقية مرتزقة بشرط أن تتحمل البرتغال ثلثي نفقات هؤلاء الجنود وتتحمل أسبانيا الثلث الباقي ، كما تساهم اسبانيا بـ(١٥٠٠) كنتال بارود وخمسين سفينة . أما المعدات العسكرية التي وصلت من أوربا إلى البرتغال فكانت (١٢٥) الف كنتال من البارود ، و(١٢) ألف قطعة مدفعية مختلفة وألفي قنبله مدفع من الحديد الصلب و(٣٠٠٠) بندقية و(٤٠٠٠) مسدس و(١٢) ألف فتيل مدفع وستة آلاف برميل طحين وثلاثة آلاف كنتال من الأجبان وأربعة آلاف وخمسمائة كنتال من اللحم المملح .

وعندما اعترض وزير المالية البرتغالي (دون بيدرو دي الكاسوفا) بأن الحالة المالية في المملكة لا تسمح بمواجهة نفقات الحملة ، قام الملك بفرض ضرائب على الشعب بمعدل ٢٠٪ من انتاجهم ، فحقق لـه هـذا (٢ر١٠٠ر٠٠٠) أوقيـة ذهـب ، ودفع له رجال الدين (١٢٥٠٠٠) أوقيـة ذهـب ثم صدر أمر بتعيين (لويس دي أتايديـه DOM LOIS DE ATAIDE) قائـداً للحملـة ، وتعيين (دييكـو دي سوزا DIEGO DE SOUSA) قائداً عاماً لأسطول سفن الحملة ، أمـا النبـلاء فقـد أصابهـم نوع من الحماس المحموم للاشتراك بالمعركة ، فكانوا يشترون الحبال ليقيدوا بها أسراهم ، ويبيعون أراضيهم ليشتروا بها عدة الحرب .

وفي أوائل شهر حزيران/ يونيو ١٥٧٨م كانت التدابير التحضيرية للحملة قد أشرفت على الانتهاء ، وفي يوم ١٤/ حزيران ذهب الملك سيباستيان إلى كاتدرائية لشبونة ، حيث ترأس هناك صلاة جماعية تم خلالها مباركة الحملة ، وفي يوم ١٧/ حزيران ركب سفينة القيادة ، ولكنه لم يقلع مباشرة بل بقي ثمانية أيام في الميناء للإشراف على عمليات الشحن ولانتظار حلول عيد القديس جون شفيع البرتغال تيمناً به لنجاح الحملة ، وفي يوم ٢٥/ حزيران تحرك الأسطول المقاتل باتجاه المغرب

وكان يحوي ضمن ما يحويه على خمس سفن حربية كبيرة و(١٢) سفينة متوسطة لنقل النبلاء و(٦٠) سفينة نقل للجنود و(٤٧٨) سفينة لنقل العتاد والطعام والمدفعية والدواب . . الخ . وفي يوم ٢/ تموز/ ١٥٧٨م وصلت الحملة إلى ميناء (قادس) الاسباني حيث تم التحاق كتيبتين اسبانيتين بها ، وفي يوم ٩/ تموز/ ١٥٧٨م وصل الملك سيباستيان وحملته الرهيبة إلى مرفأ مدينة (طنجه) المغربية التي كانت تحتلها البرتغال[٦] .

(٦) يونس نكروف - المصدر نفسه - ص ١٦١ . وكذلك مقال للدكتور احسان هندي بعنوان معركة وادي المخازن - منشور في مجلة (درع الوطن) التي تصدرها وزارة الدفاع في الإمارات العربية المتحدة .

33

الفصل الثالث والثلاثون

* تنظيم وتعداد الجيش المغربي.
* السلطان السابق محمد المتوكل يلتحق بقوات سيباستيان.
* في يوم ١٥٧٨/٨/٣ الملك سيباستيان يتخذ قراراً بعبور نهر المخازن لملاقاة السلطان عبدالملك.
* في يوم ١٥٧٨/٨/٤ وقوع معركة وادي المخازن وتسمى أيضاً معركة القصر الكبير وكذلك معركة الملوك الثلاثة.
* وفاة السلطان عبدالملك في أرض المعركة. مصرع السلطان السابق المتوكل غرقاً في وادي نهر المخازن. مصرع الملك سيباستيان بسيوف الجيش المغربي وتشتت شمل جيشه.
* عرش المغرب يؤول إلى السلطان أحمد المنصور السعدي.

لم يكن السلطان عبدالمالك المعتصم السعدي بغافلٍ عما يقوم به الملك سيباستيان، فإنه كان يعلم وبفضل براعته واستخباراته كل ما كان يجري في لشبونة منذ عدة أشهر ويطلع على وقائع وتحركات عدوه الملك المتهور، لذلك لم يكف عن بذل الجهود لجمع وتحشيد جيشٍ يقارع به الجيش البرتغالي - الأوربي القادم نحوه.

وقد اختلفت التقديرات في تعداد وتنظيم وتسليح الجيش المغربي، إلا أن أقرب الأرقام أنه تكوَّن من أربعة عشر ألف فارس وألفين وخمسمائة من المشاه المسلحين بالبنادق هذا بالإضافة إلى جيش أخيه المنصور حاكم مدينة فاس المكون من (٢٢) ألف فارس و(٥٠٠٠) جندي مشاه مسلح بالبنادق. وقد ذُكر أيضاً أن (٨٠) فارساً

و(٦٠٠٠) جندي مشاة تركي و(٢٠٠٠) محارب زواوي مع اثني عشر مدفعاً قد انضموا إلى قوات السلطان .

وكان هذا الجيش قد احتشد عندما نادى المعتصم في جميع أرجاء البلاد بالجهاد لمواجهة الخطر الخارجي . ويقول أحد المؤرخين : « ولما سمعت جنود الله وأنصاره وحماة دينه من العرب والعجم ، حملتهُم الغيرة الإسلامية والحمية الإيمانية وتجدد لهم نور الإيمان وأشرق عليهم شعاع لا يقاس ، فعُقدت الراية المنصورة بالله وسط جامع المنصور بعد أن ختم عليها حملة القرآن مائة ختمة وصحيح البخاري وضجوا عند ذلك بالتهليل والتكبير والصلاة والسلام على البشير النذير والدعاء له وللإسلام بالنصر والتمكين »[١] .

كان أول ما فعله عبدالمالك هو أنه خرج بقواته من مدينة مراكش يوم ٣/ ٧/ ١٥٧٨م متجهاً نحو الشمال ، أي حدود المملكة الشمالية التي يحتمل أن يتم الانزال فيها في أي مكان ، وفي يوم ٦/ ٧ وصل إلى مدينة اسمها (تامسينا) على مقربة من الساحل الأطلسي ، وفي يوم ١٤/ ٧ وصل إلى مدينة (سلا) ، وهناك عَلِمَ بأن الملك سيباستيان وجيشه قد وصلا إلى مدينة (أصيلا) ويسميها البرتغاليون (أَرزيلا ARZILA) الواقعة جنوب طنجه على ساحل الأطلسي .

وهناك حدث ما لم يكن في الحسبان ، إذ أُصيب عبدالمالك بقيء مستمر وإسهال وارتفاع شديد في درجة الحرارة ، ودارت إشاعة مفادها أن عبدالمالك قد أصيب بالتسمّم ، وأنّ سماً قد دُسَّ له بطعامه ، وأشارت أصابع الاتهام إلى أن الاتراك هم الذين دسوا له السم ، فيقول بعض المؤرخين : « إن قائد الأتراك الذي كان معه واسمه رضوان العلج بعث لبعض قواده أن يلقاهم بكعك مسموم هدية لعبدالمالك وقت جوازهم عليه ، وقصد بذلك قتله بعد أخذه به مدينة فاس ليثبت المُلك لهم فيها»[٢]

(١) عبدالكريم كريم – المصدر نفسه – ص ١٠٥ .
(٢) المصدر والصفحة نفسهما .

وفي مدينة (أصيلا) حيث توقفت الحملة البرتغالية الأوربية ، انضم اليها السلطان السابق محمد المتوكل قادماً من سبته ، وهناك أعلن المتوكل للمرة الثانية بأنه سيتنازل تنازلاً تاماً للبرتغاليين عن مواقعهم المتواجدين فيها على التراب المغربي وعن ثلاثة عشر ميلاً تحيط بكلٍ منها ، كما وافق على وضع ابنه الفتى الذي يبلغ الثانية عشرة رهينة عند البرتغاليينَ ضماناً لولائه ووفائه بالعهد .

وبقي سيباستيان في (أصيلا) لغرض اكمال التحشد ورسم الخطط ومراقبة مكان تجمع الجيش المغربي ، فيما اندفعت الجحافل المغربية بقيادة الأخوين السلطان عبدالمالك المعتصم وأخيه أحمد المنصور فالتقيا يوم ٢٤/ ٧ في منطقة سوق الخميس على بعد ستة أميال من مدينة القصر الكبير ، وكانت هذه المدينة محمية طبيعياً بثلاثة أنهار تمر بوديان تسمى باسمها وهي نهر وادي (اللوكوس) ويسمى (اللقس) أيضاً ، ونهر وادي (الوارور) ونهر وادي (المخازن) وهو الوادي الذي سُميت المعركة باسمه ، أي أن قوات الجيش المغربي كانت تحتمي وراء هذه الأنهار ، كما أن موقعها المتقدم كان على سفح هضبة في محل يدعى (برقين على كدي) بحيث تطل علي سهول مدينة القصر الكبير ، وسهول وادي المخازن ، وكان محل تجمع الجيش المغربي أقرب إلى مدينة العرائش منه إلى مدينة أصيلا حيث يتجمع جيش العدو ، إلا أن السلطان عبدالمالك المعتصم كان قد وصل بجيشه إلى ذلك المكان وقد اشتد به المرض ولم يعد يقوى على تمالك نفسه على ظهر جواده فكان يتقدم محمولاً في الفراش .

وعندما كان سيباستيان في أصيلا فإن مناوشة جرت مع القوات المغربية ، حيث هاجمت مجموعات مسلحة من الفرسان المغاربة ثلاث مرات المعسكر الذي يعسكر فيه جنود السلطان السابق وقتلوا عدداً منهم مما أثار حماس الملك البرتغالي فخرج لقتالهم وتمكن من صدهم فجن فرحاً ولم يذهب ذلك المساء إلى السرير إلا بعد أن كتب بنفسه رسالة إلي ولاته السبعة في المملكة يعلمهم فيها برد الهجوم المغربي كنصرٍ كبيرٍ للبرتغاليين .

ثم قام بإرسال جواسيسه ووكلائه لجمع المعلومات عن الجيش المغربي المعسكر خلف الأنهار وقرب مدينة القصر الكبير ، فكان أن وصله يهودي أخبره بأن جيش المغرب مكونٌ من (٧٠) ألف مقاتل ، وقيل أيضاً إنه كان يحمل رسالة تحذير من عبدالمالك إلى الملك سيباستيان ، وبعدها وصل جاسوس فرنسي أعلم الملك بأن الجيش المغربي يعسكر على بعد ٨ كيلو مترات من القصر الكبير بقوة تقدر بسبعة عشر ألف مقاتل وأربعة وثلاثين مدفعاً .

لقد اتفقت آراء المؤرخين على أنه وفي تلك الفترة أي عندما كان سيباستيان لا يزال في أصيلا فإن السلطان عبدالمالك المعتصم أرسل له رسالة يطلب فيها منه أن يكف عن الحرب وأن ينزع للسلام ، ويعرض عليه موافقته على بقاء مدن الساحل المغربية بيد البرتغال ، ويحذره من التعامل مع محمد المتوكل باعتباره شخصاً غير مرغوب فيه في المغرب ، ولم تغفل رسالته من التلميح بأن السلطان العثماني قد وافقه على مقاومة المغتصب . إلا أن سيباستيان لم يكترث بالرسالة ، وزاد من غروره وطيشه أن نجدةً إسبانيةً جديدةً وصلت اليه ، إذ بعث له خاله فيليب ملك اسبانيا جيشاً مكوناً من (٥٠٠) فارس قشتالي من النخبة الممتازة ، وأرسل له خوذة وسيف والده الملك (شارلكان) اللذين كان يرتديهما عندما دخل تونس منتصراً عام ١٥٣٥م ، وذلك لكي يرتديهما سيباستيان عندما يدخل ظافراً فاس ومراكش[٣]

وهكذا فإن كلا الطرفين أصبح على علمٍ بموقع ومكان تحشد الطرف الآخر ، وكان الجيش المغربي في وضع المُدافع ، أما الجيش البرتغالي - الأوربي فكان في وضع المهاجم ، ولغرض مناقشة خطة التقرب من مواضع الجيش المغربي ، وخطة مسير وحركة الجيش البرتغالي ، فإن الملك سيباستيان دعا أركان حربه لوضع تقدير موقف صائب للحركة وخطة المعركة ، وفي يوم ٧/٢٥ اجتمع المجلسُ حيث شارك فيه قادة الوحدات والأساقفة والخوارنه ومعهم السلطان السابق محمد المتوكل ، وكانت الخطة

(٣) يوسف نكروف . المصدر نفسه ص ١٦٩ .

التي ناقشوها كما يلي :

١ : هل تعود القطعات إلى السفن ثانية وتبحر إلى مدينة العرائش القريبة من المواقع المغربية ، ثم يترجل جنود الحملة ، هناك ويسيرون براً إلى أن يصلوا إلى المواقع المغربية بحيث لا يجتازون خلالها إلا نهر اللوكوس . . ؟

٢ : أم تتقدم الوحدات براً سالكةً أميالاً من الطرق الجبلية الوعرة تعبر خلالها نهري وادي المخازن ووادي الوارور لتصل إلى مواقع الجيش المغربي وتهاجمه هناك . .

إن المنطق العسكري السليم يفترض الأخذ بالرأي الأول والذي تحمس له مُعظم الضباط ، كما تحمس له محمد المتوكل أيضاً ، إلا أن الغرور والتكبر دفعا بالكونت البرتغالي (دون فوميسو) إلى أن يقول متفاخراً : «إن الجيش البرتغالي جيد التدريب ولا يخاف الموت ، وإن المغربي أقل قدراً من البرتغالي وإن الجيش البرتغالي إذا لم يظهر بمظهر القوي ، فإن جيش قشتاله الاسباني سيسخر منه»[٤] . وفجأة وضع الملك سيباستيان حداً للمناقشة وقرر أن يأخذ بالرأي والمسلك الأكثر خطراً ، وهو الرأي الثاني بالتقدم بجيشه براً نحو مواقع الجيش المغربي قرب القصر الكبير . وهكذا تحرك الجيش في صمت لا تُمزقه إلا صرخات سائقي العربات وهم يهيجون حيواناتهم لتسير وتصعد بصعوبه الهضاب الوعرة في موكب ثقيل وطويل وبطيء نظراً لعدم معرفة الأرض ولأن كل جندي كان يحمل ثقلاً كبيراً من التموين والذخائر فوق ظهره ، وكان الجيش يتقدم بغير انتظام ، ولم يبادر أحد من القادة بإرسال المستطلعين ، وكان الخوف من الهجوم المباغت يسيطر على أذهان الجميع في كل لحظة ، وفي يوم ٢٩/٧ وصل الجيش إلى (وادي الرحا) عند التقائه بنهر (وادي الحلو) حيث عسكر هناك .

وهنا وصلت إلى سيباستيان رسالة أخرى من عبدالمالك المعتصم يقول له فيها : «إن

---

(٤) يوسف تكروف المصدر والصفحة نفسهما .

سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك وجوازك البحر فإن ثبت إليَّ أن تقدم عليّ فأنت نصراني شجاع وإلا فأنت كلب بن كلب ، إني رحلت إليك ستة عشر مرحلة أما ترحل إلى واحدة»[٥] .

وقيل إن سيباستيان عندما استلم هذا الكتاب استشاط غضباً وأمر جيشه بالتوجه نحو وادي المخازن ، وهو المكان الذي كان المعتصم يتلهف أن يلاقيه فيه ليحصره بين الأنهار وبين قوة جيشه ، وهكذا وقع سيباستيان في الفخ . وفي يوم ٣٠/ ٧ ، تقدم سيباستيان بجيشه نحو الجنوب إلى أن وصل إلى موقع اسمه (المنارة) ، فخيم فيه وهناك تم دمج الكتيبة الاسبانية الخاصة التي أرسلها خاله له بالوحدات وأعطيت لها الواجبات ، وفي يوم ٣١/ ٧ تعرضت قوات الحملة إلى مناوشة مع طليعة مغربية مكونة من عدد من الفرسان ، حيث استطلع هؤلاء الفرسان قوة العدو وعادوا من حيث أتوا .

وفي يوم ١/ ٨/ ١٥٧٨م ، أصدر سيباستيان أوامره بحركة الجيش وكان هو نفسه في حالة توتر شديد وهيجان وعدم استقرار عصبي ثم سارت الحملة وهو في مقدمتها وقطعت جبلاً اسمه جبل (كابيسا) باتجاه موقع (ثلاثاء ريسانة) وباتت هناك .

وفي يوم ٢/ ٨ ، تابع تقدمه عبر الهضاب التي تشرف على الضفة اليمنى لنهر وادي المخازن ، وخيم في موقع يدعى (برقين علي كدي) ، ومن هناك قام يعاونه محمد المتوكل وأركان حربه باستطلاع المنطقة فوجدوا أن عرض النهر يبلغ خمسين متراً ، فأمر بنصب خيام المعسكر في غابة من شجر الفلين لا تبعد كثيراً من التقاء نهر المخازن بنهر اللوكوس ، ومن هناك استطاع وأركان حربه مشاهدة طلائع جيش المسلمين متجهة نحوهم وهي تغطي بسائط المنطقة المحيطة بمدينة القصر الكبير ، بين وادي اللوكس ووادي المخازن ووادي الوارور .

وهناك عقد سيباستيان اجتماعاً نهائياً مع أركان حربه الذين نصحوه بعدم عبور نهر

(٥) ابراهيم شحاته حسن - المصدر نفسه - ص ٢١٨ .

وادي المخازن بل التحصن خلفه وجر جيوش المسلمين اليه ، إلا أنه لم يكترث لنصائح قواد جيشه ، لأنه كان يعيش كل لحظات حياته وراء حلمه بأن يكون الراهب الفارس الذي يضرب أعداء المسيح وإبادة الإسلام[٦] .

وفي يوم الأحد ٣/ ٨ أصدر أوامره باجتياز نهر وادي المخازن ، وبذلك دق آخر مسمار في نعشه ونعش جيوشه ، فقامت جيوشه بعبور النهر ، ثم عبروا نهر الوارور أيضاً وبذلك أصبحوا وجهاً لوجه أمام الجيش المغربي ، ولما كان الوقت ليلاً فقد امتنع المغاربة من الهجوم ، فيما كان سيباستيان يصول ويجول بين جنوده حاثاً إياهم على التهيؤ للقتال غداً وأمرهم باتخاذ التشكيل الحربي الذي سيكون عليه شكل الوحدات عند القتال وذلك بوضع الأمتعة والخدم والعبيد ورجال الدين وقسم الخدمات والميرة في الوسط وكان عددهم أكثر من عشرة آلاف وفي مقدمتهم طليعة الجيش المكونة من ثلاثة كراديس ، كردوس الاسبان والايطاليين في الجناح الأيسر وكردوس الألمان في الجناح الأيمن وفي القلب الكتيبة الاسبانية الخاصة وجنود طنجه ومغاويرها أما الكتائب البرتغالية فقد أحاطت بالمجموعة كلها على شكل مربع تتقدمه وحدات المدفعية وعربات النقل وكانت وحدات الفرسان قد توزعت بين كافة القطعات ، أما وحدات السلطان السابق محمد المتوكل بجيشه المكون من خمسمائة فارس وستمائة جندي مشاة فقد كانت مع وحدات الفرسان ، وقد اتخذ سيباستيان مقره في شمالي القطعات وكان معه ألف فارس . وهكذا اتخذت الوحدات أماكنها القتالية ، ثم ألقى سيباستيان خطبة مطولة على جنوده حاثاً إياهم على القتال بشجاعة من أجل تمجيد الإيمان المقدس والدين المسيحي ، فيما كان المطارنة والأساقفة ومندوبو البابا يحملون الصليب ويتجولون بين الكتائب والسرايا يشجعونهم على الموت ويغدقون عليهم التبريكات والدعاء لطهارة نفوسهم .

أما على جبهة الجيش المغربي الذي كان يقف بمواجهة هذا الحشد فقد اشتد المرض

---

(٦) يوسف نكروف – المصدر نفسه – ص ١٧٩ .

بالسلطان عبدالمالك وتناوب الاستفراغ والزيادة في الحمى عليه في أزمات متقاربة تتركانه خائر القوى ، ومع ذلك ففي أشد لحظات الألم كان يبذل الجهد للسيطرة على مرضه ووضع الخطط المناسبة ومناقشة تنفيذها . وكانت خطته أن يتحشد الجيش على شكل هلال ، بحيث يكون حملة البنادق في الوسط ، والفرسان بقيادة أخيه أحمد المنصور ومحمد زاركو على الاجنحة ، أما المدفعية فقد كانت موجهة إلى قلب وحدات العدو . وفي الليل ، نهض عبدالمالك من فراشه وهو في حالة من الشحوب والهزال وارتدى بزة مهيبة ، وطلب جواداً أبيض وتوجه إلى وحدات جيشه ليزورها ويلقي كلماته التشجيعية هناك ، وعندما كانت الهتافات تتعالى بنداء الله أكبر والعزة للإسلام ، عاد إلى خيمته وهو في حالة إعياء شديد(٧) .

وفي صباح اليوم التالي ، يوم المعركة الفاصلة ، الاثنين ٣٠ جمادي الأول ٩٨٦هـ الموافق ٤/ ٨/ ١٥٧٨م ، استيقظ الكل مبكرين وسادت وقفة صمت طويلة ، فيما كان سيباستيان لا يستقر في مكان واحد ، وكان حليفه السلطان المخلوع قد نصحه بعدم الهجوم إلا بعد الظهر ، ولكن وإلى حوالي العاشرة صباحاً لم يعد سيباستيان قادراً على تحمل منظر الجيش المغربي وهو يقف على أهبة الاستعداد للقتال .

ففي الجناح الأيمن للجيش المغربي كان الأمير مولاي محمد بن المعتصم مع ألف فارس مسلحين بالبنادق وعشرة آلاف آخرين مسلحين بأسلحة أخرى ، وهو بمكانه هناك كان يواجه الوحدات التي يقودها القاده (دورات دي منزيس) و(دون آفيرو) ، أما القائد المغربي محمد زاركو فقد كان على رأس الفي فارس مسلحين بالبنادق وعشرة آلاف آخرين من المشاة ويقف في الجناح الأيمن حيث يقف بمواجهة القطعات التي كان الملك سيباستيان يقودها بنفسه ، أما الكتائب المغربية من حملة الرماح فقد كانت في الوسط ، كما كانت كتائب الفرسان المغربية تكمن في الجبال المحيطة ، حيث إن أوامر عبدالمالك اليها كانت عدم التورط بالقتال في مراحله الأولى بل جلب العدو

(٧) يوسف نكروف – المصدر نفسه – ص ١٨٥ .

إلى داخل الهلال ثم الإطباق عليه .

كانت الساعة قد قاربت الحادية عشر صباحاً ، وبجهد جهيد اضطر عبدالمالك الذي أوشك أن يتهاوى من الضعف الجسدي أن يلقي نظرة على التنظيم القتالي وأمر بنقل مقره إلى الوسط .

وفي تلك الساعة رفع سيباستيان سيفه ونادى : «هيا بنا يا أولادي . . هيا أيها الفرسان . . سانتياغو . . لنهاجمهُم فليس هناك إلا الرُعاع» . وهكذا بهذه الكلمات بدأت معركه وادي المخازن أو معركة القصر الكبير أو معركة الملوك الثلاثة عند ظهر نهار الاثنين ٤/ آب/ ١٥٧٨م[٨] .

هاجم سيباستيان على رأس فرسانه قوات الأمير محمد وعلى إثر ذلك قامت المدفعية المغربية بصب قذائفها على وحدات العدو فأحدثت ارتباكاً عندهم ، واثناء ذلك هاجم (دورات دي منزيس) و(دون أفيرو) ووحدات محمد المتوكل ، الوحدات المغربية التي يقودها محمد زاركو حيث أنزلوا بها خسائر فادحة أجبرتها على الانسحاب ، وفقد محمد زاركو اثنين من الأعلام الخمسة للجيش المغربي كما أظهر الإيطاليون والاسبان تقدماً ملموساً ، فيما لجأت بعض الوحدات المغربية إلى الفرار في الوقت الذي دفع سيباستيان بجنود آخرين إلى المقدمة . ولما لاحظ السلطان عبدالمالك الذي كان يتمايل من الإعياء ذلك الانكسار هرع إلى جواده ليقود هجوماً معاكساً وصعد إلى ظهر الحصان وقد أخذته رجفة متشنجة ، واندفع في حمية وسط الفارين ، إيماناً بأن وجوده بينهم سيوقف تقهقرهم ، وعندما عاد كان في الرمق والنزع الأخير ، خانته قدماه وذراعاه وهو يحاول النزول من الفرس ورفع رأسه وهو يعاني الغصة وتطلع إلى السماء رافعاً نحوها اصبعه السبابة وتمتم بشهادة الإيمان ، ثم نظر إلى من كان حوله نظرة الوداع ، وأشار اليهم إشارة يفهم منها أنه منتقل إلى رحمة الله ويشيرُ لهم بكتمان موته عن الجيش ، ثم تَشَاهَدَ ثانية ، وأغمض عينيه وانتقل إلى رحمة

(٨) يوسف نكروف - المصدر نفسه - ص ١٨٨ .

السماء .

«وهكذا مات عبدالمالك وهو وسط المعركة وذلك عندما اقتدح زناد الحرب فكان موته ساعتئذ وأحزاب الطاغوت فاغرة الأفواه لالتهام أنصار الملّه الاسلامية»[٩] .

لم يُصب قادة جيش عبدالمالك ومرافقوه بصدمة عند وفاته ، بل تصرفوا وكأنه لا زال على قيد الحياة ، إذ إن ظهوره قبل وفاته على ظهر فرسه رفع معنويات الكتائب المغربية ، فهاجم الفرسان الموجودون في الجبال مؤخرة القوات البرتغالية وأوقعوا بها هزيمة نكراء واستولوا على مدافعها ، ثم لم تلبث قوات محمد زاركو أن قامت بهجوم معاكس ، وفي الوقت نفسه اجتمعت هيئة أركان حرب الجيش المغربي بأخيه الأمير المولى أحمد المنصور فبايعوه سلطاناً على البلاد وقائداً للجيش المغربي المشتبك في معركة الحياة أو الموت ، واندفع الفرسان المغاربة يلاحقون البرتغاليين والألمان فحصروهم بين حاجز العربات ووادي اللوكوس فأنزلوا هزيمة بالألمان ، أما البرتغاليون فقد قاتل اللواء الملكي بشدة وحدثت مجزرة كبرى راح ضحيتها الفي مغربي ، لكن نتيجتها كانت في صالح المغاربة إذ قُتل (دون أفيرو) واستسلم (دورات دي منزيس) .

أما السلطان السابق محمد المتوكل فقد أُصيبت قواته بنكسة عظيمة عندما هاجمهم الجيش المغربي ، فهرب المتوكل على ظهر حصانه باتجاه أصيلا محاولاً النجاة وعندما وصل إلى نهر وادي المخازن الممتليء بالوحل سقط من ظهر حصانه وهو وسط الأوحال والمياه الشديدة الجريان ولم يكن يعرف السباحة فغرق في الوحل ومات[١٠] .

وفي قلب أرض المعركة كان المغاربة يتابعون تقدمهم فيما راح البرتغاليون ومن معهم يتراجعون ، بينما كان الملك سيباستيان يقاتل تجاه عشرة آلاف فارس مغربي بقيادة السلطان الجديد أحمد المنصور ، ثم لم يلبث الفرسان العرب الذين كانوا على

(٩) عبدالكريم كريم - المصدر نفسه - ص ١٠٦ . وكذلك ابراهيم شحاته حسن - المصدر نفسه - ص ٢١٩ .

(١٠) المصدران السابقان والصفحتان نفسهما .

المرتفعات أن هجموا على شكل حلقة طوقوا بها القطعات التي كان سيباستيان معها ، فتكدست الوحدات البرتغالية على بعضها بدون تنظيم وقد نالها الهلع والرعب ، وقتلت ثلاثة أحصنة تحت سيباستيان الذي ظل يقاتل وهو يحاول أن يجمع شتات جيشه الذي بدا واضحاً أنه يوشك أن يهرب من الميدان ، فقد ركض النبلاء الأسبان والفرسان البرتغاليون وتركوا خيولهم ولجأوا إلى العربات يحتمون بها ولما حاولوا الهرب لحقتهم الخيول العربية وأفنتهم سيوف الفرسان ، بينما استمر سيباستيان يقاتل وحيداً تقريباً . وأخيراً أحاط به الفرسان العرب وأوقعوه من حصانه وانهالوا عليه بسيوفهم وأهلكوه[11] .

كان مقتل سيباستيان بداية الكارثة التي حلت بالجيش البرتغالي وأحلافه ، فقد قُطعت أمامهم طرق الانسحاب بسبب المد الذي ظهر على نهري اللوكوس والمخازن وأصبحا غير قابلين للاجتياز فانحصروا من جميع الجهات مما أدى بهم إلى التشتت والهرب ، فوقعت حالات عديدة من الاختناق والدهس تحت الاقدام وتحت الأحصنة والعربات ، وأطبق الفرسان والمشاة المغاربة من كل الجهات على تلك الأكوام البشرية وأخذوا يصفون الجيوب الأخيرة للمقاومة ، وعند مغيب الشمس لم يكن قد بقي أحدٌ من جيش سيباستيان .

وهكذا انتهت معركة الملوك الثلاثة ، حيث مات فيها ثلاثة ملوك الأول ميتة طبيعية والثاني غرقاً بالماء والثالث بالسيف .

ويذكر المؤرخون أن خسائر البرتغاليين قُدرت بـ(١٤) الف قتيل و(٢٠) ألف أسير . وفي اليوم التالي أمر السلطان المغربي الجديد أحمد المنصور بارسال جثة أخيه المعتصم إلى فاس في موكب مهيب لتدفن هناك ، أما جثة الخائن محمد المتوكل فقد التقطت من الوحل والطين فأمر المنصور بسلخ جلده وحشوه تبناً وأرسله إلى مراكش ، فطيف به ليعاينه الناس ويعتبرون به فصار اسمه يعرف (بمحمد المسلوخ) ، ثم جمع المنصور

(١١) يوسف نكروف – المصدر نفسه – ص ١٩٢ .

نبلاء وقادة الجيش البرتغالي واستجوبهم حول مصير ملكهم فأجابوا أنهم لا يعرفون شيئاً عنه ، وبعد الظهر حضر نبيل شاب يدعى (سيباستيان دي ريزيند) وأكد أن سيده قُتل ، وقال إنه يعرف مكان الجثة ، فقدم له المنصور بغلاً وحراساً وذهبوا إلى مكان الجثة فوجدوا ملك البرتغال مسجى بدون حراك ، فجيء بها أمام خيمة السلطان ، وهناك وضعت على حصير مصنوع من القصب .

كان في رأسه خمسة جروح اثنان منها عميقان فوق العين اليمنى ، لكن جسمه لم يصب بأية جروح بسبب الدرع الذي كان يرتديه ، وطلب السلطان أحمد من قادة الجيش والنبلاء الإقرار بأن الجُثة لملكهم لكي يعمل على دفنها ، فشهد الجميع أنها فعلاً لسيباستيان ، وبعد ذلك حُنِّط الجسم ونُقل إلى مدينة القصر الكبير برفقة أحد النبلاء ليسهر على مراسيم الشرف التي أمر السلطان بإقامتها عند دفن الجثة ، وفي يوم ٤/ ١١/ ١٥٧٨م ، نُقل التابوت إلى مدينة (سبته) حيث حفظ في كنيسة الثالوث المقدس حتى عام ١٥٨٢م[١٢] .

ومن المفيد أن نستطرد قليلاً في قصة (الملك سيباستيان) ومصرعه الدرامي هذا والطريقة اللاهوتيه المسيحية التي أحاط بها حركته ونفسه والنهاية المذهلة التي أُبيد بها بسيوف الإسلام . فإن هذا الفتى رغم طيشه واندفاعه ، فقد كان في نظر الكثير من البرتغاليين والمتطرفين المسيحيين ، يمثل (الفارس الراهب) ، لذلك فإن مصرعه المثير في المغرب أثار هيجاناً كبيراً في البرتغال ، رغم أن قصة تدميره وجيشه كانت مبهمة والتفاصيل قليلة ، ولم يصدق الكثير من الناس أنه مات ، بل سرت إشاعات كثيرة أنه نجح في الإفلات ، وقد صارت قصة إفلاته من الموت ، وأنه حي يرزق في العالم ، أسطورة كانت لها نتائج مثيرة ومهيجة إلى يومنا هذا تقريباً . فقد تقمص شخصيته عدد من المغامرين الذين راحوا يتاجرون بها سياسياً ودينياً . إذ بعد ليلة من مصرعه وإبادة الجيش البرتغالي ، جاء ثلاثة ناجين يدقون أبواب أسوار مدينة أصيلا ، ويطلبون

(١٢) يوسف نكروف – المصدر نفسه – ١٩٣ . وكذلك DANVERS الجزء الثاني – ص ٢٢ .

الاستعجال لأن احدهم كان الملك . فأثار ذلك هياجاً وسط رجال الحامية هناك ، وكذلك وسط رجال الاسطول ، ثم اكتشف ضباط الحامية أن الرجل يكذب ، فأرسلوه مخفوراً إلى لشبونة ، وما كادوا ينزلونه في لشبونة حتى انتشر الخبر بأن الملك حي فعلاً ، وأنه مختف وخجول من الهزيمة والندم ، ولكنه سيأخذ مكانه على العرش بعد فترة قصيرة ، فشكل ذلك الحدث بدايات ما يمكن تسميته (السيباستيانية) .

وعندما خسرت البرتغال استقلالها باستيلاء اسبانيا عليها عام ١٥٨١م وبقيت تحت رحمتها إلى عام ١٦٤٠م تقريباً ، (كما سنرى تفاصيل ذلك في الفصل القادم) ، فإن الشعب البرتغالي حمل غيظاً كبيراً على الاسبان والتأسف على الاستقلال المفقود ، مما ساعد على نشر الاشاعات بوجود (سيباستيان) ، لذلك فقد ظهر أربعة أفراد منذ عام ١٥٨٣م وعلى امتداد ثلاثة عشر عاماً انتحل كل منهم اسم سيباستيان ، وأوصلت هذه المحاولات أكثر من أربعين شخصاً إلى المقصلة ، ودفعت إلى الموت عدداً من المؤيدين وهُدرت الدماء وأصبحت خرافة (السيباستيانيه) أكثر تزمتاً ، فقد ظهرت جماعات كثيرة انضمت تحت ألوية كهنوتيه سياسيه ، يعيشون في أحلام أن ملكهم لا بد أن يعود بحكم قوة التنبؤات والرؤى الصوفية ، وأدت هذه الرؤى والتنبؤات إلى نشوء كثير من التفسيرات والتعليقات والكتابات حتى تكوَّن أدب (سيباستياني) هام كانت تجمعه المكتبة الوطنية في (لشبونة) تحت اسم (البابوية السيباستيانية) . لذلك راحت هذه (السيباستيانية) تنفذ شيئاً فشيئاً في البرازيل في أمريكا الجنوبية وخاصة في الطبقات الفقيرة من الشعب ، وهناك تبنى بعض القادة هذه الأحلام وأعلنوا أنفسهم موفدين من قبل الملك (سيباستيان) ووجهوا مؤيديهم إلى مغامرات ومواجهات دموية مع قوات الحكومة .

ففي حوالي عام ١٨٣٦م ، وفي شمال شرقي البرازيل أدى انتظار عودة سيباستيان إلى جنون جماعي ومجزرة ، عندما قام كاهن من أصل هندي أحمر بجمع حشود من الفقراء والكهنة حول بحيرة (فيلاديكا) داعياً إلى الثورة ضد الأغنياء واعداً إياهم

بمستقبل سعيد على الأرض الخالية من الشر ، وذلك عندما يخرج الملك سيباستيان من مياه البَحيرة محاطاً بحاشيته من الأبطال ومتحرراً من السحر ، ليسير في الأرض الخالية من الشر على رأس مؤيديه .

وفي الليل كان الجميع يسكرون في شراب خمر قصب السكر ، فإذا انتشوا غنوا قائلين :

إن عالماً رائعاً سيظهر
ويستعيد المريض صحته
ويغتني الفقير
ويعود الشيخ إلى صباه
ويصبح الأسود أبيض البشرة
ويدخل الجميع في مرحلة الخلود
ويأتي هذا العالم الرائع عندما يظهر الملك سيباستيان
الأرض . . الدم . . الأرض عطشى للدماء
فلتشرب الأرض شرايين الدماء
ولتتحرر الأرض المشبعة بدم الملك سيباستيان
فالأرض ستفتح ليخرج منها الملك الطيب سيباستيان

وهكذا اجتمع الألوف من الفقراء والمشعوذين ، وساروا في انفعال واهتياج متجهين نحو صخرة عظيمة قيل إن سيباستيان موجود فيها ، ثم انقلبت المسيرة إلى فوضى فشغب ، مما دفع بالحكومة إلى أن ترسل قواتها إلى المنطقة ، فقامت القوة بإطلاق النار على الجموع الهائجة واوقعت فيهم مجزرة .

وحدث مثل هذا الشيء عام ١٨٩٣م ، عندما ظهر (نبي آخر) يدعي السيباستيانية في البرازيل قاد الجياع إلى ثورات متلاحقة ضد الاغنياء ، إلى أن أدى به الأمر إلى الالتحام بقوات الجيش التي أطلقت عليه النار وقتلته ، وردد المشيعون الذين حملوا

جنازته نشيدهم القائل :

ستتحول المياه دماء
وستمطر وتمطر
كثيراً من النجوم
وتكون نهاية العالم
ومن أمواج البحر
سيخرج دون سيباستيان
مع كامل جيشه
سيخرج دون سيباستيان

واستمرت الثورات الجائعة المقنعة بقناع السيباستيانية في البرازيل ، ففي شهر اكتوبر من عام ١٩٣٠م حدثت ثورة في قلب (ريو دي جانيرو) قادها الشيوعيون وهم يهيجون الجماهير لنهب مخازن الغلال والطعام الحكومية بقولهم : إن دون سيباستيان سيظهر ثانية ويحقق الرخاء . وفي عام ١٩٦٢م ظهرت حادثة جديدة في البرازيل ، في منطقة في شمالي شرقي البلاد ، وهي منطقة الجفاف والجوع ، فقد مر يوم من السلب والنهب والعنف المفرط وهتف المتظاهرون الذين كانوا يحملون الهروات والقضبان الحديدية والسكاكين :

الجوع . . دائماً الجوع . . كل سنة هي سنة الجوع . . إن الله وقديسه لم يريدوا ذلك . . إننا نُدفنُ أحياء . . دون سيباستيان سيعود . . سيخلّصنا دون سيباستيان . . ونخلّصه نحنُ .

ثم قامت السلطات البرازيلية بفتح نيرانها عليهم ، وانقلبت المظاهرة إلى مأساة كمأساة يوم الاثنين ٤/ ٨/ ١٥٧٨م ، في معركة وادي المخازن أو معركة القصر الكبير ، أو معركة الملوك الثلاثة[١٢] .

---

(١٢) يوسف نكروف - المصدر نفسه - ص ١٩٥ وما تليها .

34

الفصل الرابع والثلاثون

* السلطان المولى أحمد بن محمد الشيخ السعدي الملقب (المنصور) يعتلي عرش المغرب .
* وفاة ملك البرتغال الكاردينال هنري عام ١٥٨٠ واستفحال أزمة ولاية العهد .
* ملك اسبانيا فيليب الثاني يدخل لشبونة في ١٥٨١/٤/١٦ ويوحد العرشين الاسباني والبرتغالي تحت عرشه .
* هزيمة الاسطول الاسباني أمام الاسطول البريطاني في معركة (الارمادا) عام ١٥٨٨.
* علاقات بريطانية مغربية والمنصور يستغل فرصة قتال الاسبان والانجليز لصالحه.
* وفاة السلطان أحمد المنصور في ١٦٠٣/٨/٢٤ .

اعتلى عرش المغرب السلطان المولى أحمد بن محمد الشيخ السعدي الملقب (المنصور) وقُدِّرَ لهذا السلطان أن يكون أعظم ملوك المغرب ، فيبني امبراطورية تمتد إلى السودان وتدين بطاعته بلاد واسعة من شمالي غربي أفريقيا فتسيطر على سواحل تمتد مئات الكيلو مترات على ضفاف المحيط الأطلسي مما ساعد على تكوين اسطول مغربي جيد ، وعلى عهده شاع الغنى والتجارة في المغرب وفتحت مجالات العمل خاصة بعد احتلال السودان ، وقويت شوكة جيشه وارتفعت معنويات شعبه بعد انتصاره في معركة وادي المخازن .

كما أثبت المنصور بأنه سياسي من الطراز الأول ، إذ استطاع بعد أن أنهى أسطورة جيش البرتغال الذي لا يُقهر ، أن يلعب بموازين القوى الدولية بشكلٍ دبلوماسي

رائع ، خاصة في علاقته بالأتراك الذين شاركوا بمعركة النصر في وادي المخازن والإشاعة التي تقول بأنهم هم الذين دسوا السم لأخيه عبدالمالك وقتلوه في أرض المعركة ، وعلاقته باسبانيا العدوة التقليدية للعرب ومشاعر ملكها فيليب تجاه مصرع ابن اخته ملك البرتغال ، وكذلك علاقته بالنظام الجديد في البرتغال المهزوز على مقتل ملكه الشاب ، أما أحسن وتر سياسي لعب عليه فهو علاقته بالقوة الأوربية الناميه الجديدة التي كانت تريد أن تحل محل اسبانيا والبرتغال في مستعمراتهما في العالم ، وكانت تلك القوة بريطانيا التي تحكمها الملكة الطموحة اليزابث الأولى .

فبالنسبة لعلاقاته بالأتراك ، فإن أول أزمة حدثت بينه وبينهم كانت في أرض معركة وادي المخازن ، إذ تذكر المصادر المغربية أنه لما تمت البيعة لأحمد المنصور فإن القادة الأتراك ارتبكوا للمفاجأة ونادوا بأحقية المولى اسماعيل بن عبدالمالك في العرش المغربي مما اضطر أحمد المنصور إلى الحذر خوفاً من أن يقتلوه ، إلا أن المغاربة أصروا على بيعته والتمسك بها فلم يجد الأتراك بداً من القبول بالأمر الواقع . وقد سجلت هذه الحادثة الخطيرة بين أحمد المنصور والأتراك بداية لعلاقات مترجرجة بين الطرفين ، إلا أن المنصور عالجها بدهاء إذ بعث برسائل ودية إلى السلطان التركي في استانبول يخبره بانتصاره العظيم كما أرسل رسالة إلى والي الجزائر التركي حسن باشا البندقي يعرض عليه صداقته .

ولعل تلك البداية السيئة مع الأتراك ، وظهور منافس له على السلطة هو الأمير داوود بن عبدالمؤمن أضاعت على المنصور فرصة استغلال انهزام البرتغال لتحرير ما تبقى لهم من قواعد في الشواطيء المغربية . لذلك فعندما قامت اسبانيا باحتلال البرتغال عام ١٥٨٠م ، فإن السلطان مراد الثالث أرسل رسالة إلى المنصور يقول له فيها :

«لقد وصل إلى سمعنا الشريف خبر طاغية قشتاله وأنه احتوى على سلطنة البرتغال وأنه جعل أهلها في الأغلال والاصفاد وأنه لكم جار وعدو مضرٌ ، لذلك نوجه لكم

ثلاثمائة غراب (سفينه) سلطانية وجيش عزٍ ونصرٍ لكي نستفتح بها إن شاء الله بلاد الأندلس»[1] .

إلا أن المنصور تردد في الجواب لعدم ثقته بالأتراك من جهة ولأنه كان يسعى إلى تجنب كل ما من شأنه أن يثير النزاع مع احدى القوتين الرئيسيتين في المنطقة وهما الأتراك والاسبان ، وقد أدرك كل من السلطان التركي مراد الثالث والملك الاسباني فيليب الثاني هذا الجانب من سياسة المنصور ، وأرغما تحت وطأة المشاكل الداخلية والخارجية المتزايدة لكل منهما على قبول الأمر الواقع ، فأصبح المغرب بلداً محايداً بين الامبراطوريتين الكبيرتين العثمانية والاسبانية .

وعلى هذا الأساس الدقيق عالج المنصور علاقته باسبانيا ، بظروف اتسمت بصعوبة أكثر من تسوية علاقاته مع الأتراك ، إذ إن توليه العرش المغربي جاء على أشلاء الجيش البرتغالي - الأوربي ، وتمزيق الحملة التي كان فيليب الثاني متوجساً منها ولكنه شارك فيها بكتيبة من أحسن كتائبه إرضاءً لغرور ابن اخته ، إلا أن المنصور عالج ذلك الأمر بحكمة ودهاء ، فحينما كتب إليه الملك فيليب يطالب بجثة ابن أخته الملك سيباستيان ، فإنه قام بتسليمها له بحفاوة كبرى ، كما أنه قام بإطلاق سراح السفير الاسباني في لشبونة الذي تم أسره في معركة وادي المخازن وبذلك فتح صفحة جديدة في العلاقات المغربية الاسبانية البرتغالية اتسمت بالصداقة حتى أن المؤرخين المغاربة نقلوا لنا صوراً عن وفود اسبانية وبرتغالية زارت بلاط المنصور وقدمت له هدايا من الذهب والفضة . إلا أن تلك العلاقة لم يلبث أن شابها نوع من الفتور والجمود وذلك بسبب حادثين مهمين :

الأول : هو استيلاء اسبانيا على البرتغال ، وما أعقب ذلك من لجوء الأمير البرتغالي دون أنطونيو المطالب بعرش البرتغال إلى بلاط المنصور .

والثاني : هو العلاقات المغربية الانجليزية من جهة والنزاع الانجليزي الاسباني من

---

(١) عبدالكريم كريم - المصدر نفسه - ص ١١١ .

جهة أخرى .

فبالنسبة للحادث الأول ، فقد كان من نتائج معركة وادي المخازن ومصرع الملك البرتغالي أن كارثة قد حلت في البرتغال ، فأُوكلت الأمور إلى الكاردنيال دون هنريك وهو أخو جد سيباستيان وكان عجوزاً طاعناً في السن لم يجرؤ أن يصارح الشعب الذي لم يصدق أن سيباستيان قد مات ، لذلك فقد تم تعيينه وصياً على العرش أولاً ، ولم يتم تثبيته ملكاً إلا في ٢٩/ أغسطس/ ١٥٧٨م[٢] .

وقد شهدت أيام هذا الملك البرتغالي العجوز بوادر الانهيار العسكري والسياسي والاقتصادي للبرتغال ، وهو الضعف الذي كان قد بدأ يدب فيها منذ أيام سيباستيان ، خاصة بالنسبة إلى خطل السياسة البرتغالية في المستعمرات التابعة لها بسبب الممارسات الخاطئة والبيروقراطية الحاكمة التي عُرفت بغطرستها وتعاليها على الشعوب التي تحكمها وفسادها الاجتماعي ، وكثرة التلاعبات بأموال الدولة والدخول في صفقات مشبوهة والإثراء على حساب الخزينة البرتغالية وشدة التعصب الديني وعدم المرونة مع الأديان الأخرى الخ من مظاهر الفساد السياسي والاجتماعي مما أدى بالتالي إلى إخفاق التجارة البرتغالية التي كانت تحتكر المنتوجات الهندية ، فقد تناقصت كميات التوابل التي حملتها السفن البرتغالية ، وهي السلعة الرئيسية والمصدر الأساسي للدخل القومي في البرتغال حتى أن أعوام ما بعد ١٥٦٠م شهدت تفوقاً عربياً في تجارة التوابل الهندية ، إذ أن كميات التوابل التي وصلت إلى ميناء الاسكندرية محملة على ظهور السفن العربية ، كانت أكثر من تلك التي حملها البرتغاليون عبر رأس الرجاء الصالح .

لذلك فعندما مات الملك الكاردينال هنري في شهر شباط من عام ١٥٨٠م استفحلت بموته أزمة جديدة في البرتغال ألا وهي وراثة العرش البرتغالي ، ذلك أن الكاردينال هنري ترك وصية قبل وفاته أن يؤول عرش البرتغال بعد موته إلى الملك

(٢) DANVERS – المصدر نفسه – الجزء الثاني من الكتاب ص ٢٤ .

فيليب الثاني ملك اسبانيا ، وقد لاقى هذا الأمر اعتراضاً من أفراد الأسرة الحاكمة ، فظهر ثائر منشق هو الأمير (دون انطونيو) ، لذلك فإن ملك اسبانيا عاجل البرتغال بارسال جيش اسباني بقيادة (دوق الفا DUKE OF ALVA) ودخل إلى لشبونة فاتحاً يوم ١٦/ ٤/ ١٥٨١م ، وأعلن انضمام عرش البرتغال إلى عرش اسبانيا .(٣)

إلا أن فيليب وإن كان قد أعلن للشعب البرتغالي أنه لم يأت اليهم فاتحاً بل موحداً الدولتين ، وأن البرتغال ستبقى محافظة على شكلها المستقل ، إلا أن شعور الرأي العام البرتغالي هو أن البرتغال قد سقطت وصارت دولةً مُستَعْمَرةً بدلاً من كونها مُستَعْمِرَةً ، لذلك فقد قرر الأمير البرتغالي (دون أنطونيو) والقائد (دوق أوف باركانزا) القيام بمقاومة مسلحة لهذا الغزو ، خاصة بعد وصول اسطول اسباني بقيادة (ماركوس دي سانتا كروز) حاصر لشبونة من البحر كما احتل معظم الموانيء البرتغالية ، لذلك فقد قام أنطونيو بحشد جيشه في منطقة الغرب في جنوب البرتغال متخذاً من نهر التاج مانعاً يتحصن خلفه ، فيما أعلنت مدن (شنترين) و(كامبيرا) العصيان ضد الاحتلال الاسباني ، إلا أن مقاومة أنطونيو فشلت فهرب إلى خارج البلاد وذهب أولاً إلى بريطانيا وطلب اللجوء السياسي والعون من الملكة اليزابث ، ثم لم يلبث أن ذهب إلى المغرب وقابل السلطان المنصور وطلب منه أن يمنحه اللجوء والأمان ، فوعده المنصور خيراً وقبله لاجئاً في المغرب .

وهكذا صار سقوط البرتغال بيد أسبانيا الإسفين الثاني الذي دُق في نعش الامبراطورية البرتغالية ، بعد الاسفين الأول وهو معركة وادي المخازن .

أما الإسفين الثالث ، فكان ظهور انجلتره على مسرح الأحداث وما أبدته الملكة اليزابث من رغبة في أن تحل محل اسبانيا والبرتغال في الاحتواء على ممتلكاتهم ومستعمراتهم في العالم ومنها العالم العربي والاسلامي ، وهي السياسة التي قدر لها فيما بعد أن تنتهي بنجاح وأن تحل بريطانيا محل البرتغال في ممتلكاتها في الشرق

---

(٣) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٢٥ .

والغرب . فبالنسبة إلى المغرب فإن الملكة اليزابث وافقت على تسليح الجيش المغربي لكي يستطيع الوقوف أمام اسبانيا والبرتغال ، كما وافقت على عقد معاهدة تعاون اقتصادي ، بحيث تم تأسيس (الشركة البربرية) لتنظيم شؤون التجارة بين بريطانيا والمغرب كما قامت بالتدخل لدى المنصور للعمل لصالح الأمير البرتغالي دون أنطونيو .

وقد أدت سياسة الملكة اليزابث إلى حرب بين انجلتره واسبانيا ، انتهت بمعركة (الارمادا) عام ١٥٨٨م ، التي تشتت فيها شمل الاسطول الاسباني ، وكانت نتائجها أن ثورات عديدة ثارت ضد الاسبان ، ودخل المنصور في مفاوضات مع الانجليز لتنظيم تعاون عسكري ضدهم ، وقد هاجمت القوات المغربية القاعدة الاسبانية في (سبته) يوم ١١/ ديسمبر/ ١٥٨٨م إلا أنها اضطرت إلى الانسحاب لأسباب سياسية ، كما قامت قوات انجليزية بالهجوم على لشبونة عام ١٥٨٩م .

وعلى كل حال فيمكن أن نجمل سياسة السلطان المنصور على أنه كان يلعب بالأوتار السياسية لدفع تلك الدول للقتال مع بعضها البعض على أمل أن يحصل على مكاسب سياسية ويتمكن من تخليص ما تبقى من مدن وموانيء مغربية لا زالت واقعة تحت سيطرة الاسبان أو البرتغال . لذا فقد استطاع هذا الملك العظيم أن يَـمُـدَّ نفوذ دولته إلى وسط افريقيا وشرقها وأن يفتح السودان في عام ٩٩٨هـ ، وأن يؤسس الامبراطورية المغربية . غير أن الأيام لم تمهله طويلاً ، إذ داهمه المرض وشعر بدنو أجله كما يبدو من آخر رسالة وجهها إلى ابنه ونائبه في مراكش بتاريخ ٤/ ربيع الأول / ١٠١٢هـ قائلاً له :

«والله سبحانه وتعالى يرعاكم ويتولى حفظكم انتم وأولادكم وقد استودعناكم ونسأل الله الذي لا تضيع ودائعه والله سبحانه وتعالى أن يعافيكم ويعافي البلاد بمنّه وفضله» .

وقد دفن المنصور في فاس يوم الاثنين ١٦/ ربيع الأول/ ١٠١٢هـ الموافق

٢٤/ ٨/ ١٦٠٣م ، ثم نقل جثمانه إلى مراكش فيما بعد ودفن في مقبرة الشرفاء السعديين وقد كتبت الأبيات التالية على قبره :

هــــذا ضـريـح مــــن غـدت ... بـــــه المـعـالـي تـفـتـخـر
أحــمـد مـنـصـور الـلــــوا ... لـكـــــل مـجـد مـبـتـكـر
يــــا رحـمـة الـلــــه اسـرعـي ... بـكـــــل نـهـر تـسـتـمـر
وبــــاكـر الـرمـــــس بـهـا ... إن رضـــاه مـــنـــهـمـر
وطـــيـبـي ثــــــراه مــــن ... نَـــدّ كـذكـره الـعـطـــر
وافــــق تـاريــــخ الـوفـاة ... (دون تـــعـــســـر) ذكـــر
مـــقـــعـــد صـــدق داخـــلاً ... عـنـــد مـلـيــــك مـقـتـدر[٤]

وبوفاته فإن قصة النفوذ البرتغالي - الاسباني في المغرب قد أصبحت هزيلة ولا تكاد تثير الاهتمام وهي معرضة للنهاية في أية لحظة ، كما أن النفوذ البرتغالي أصبح معرضاً للزوال والانهيار في المشرق العربي ، وهو الأمر الذي سنبحثه في الفصول القادمة .

(٤) عبدالكريم كريم - المصدر نفسه - ص ٢٢٥ .

35

الفصل الخامس والثلاثون

* دون فرانسيسكو ماسكرينهاس يصبح نائباً لملك أسبانيا والبرتغال في الهند.
* حملة علي بك شلبي على مسقط عام ١٥٨١.
* دون دورات دي منزيس يصبح نائباً للملك عام ١٥٨٤.
* أهالي مدينة (نخيلو) الفارسية ينزلون هزيمة بقوة برتغالية.
* استسلام علي بك شلبي للبرتغاليين في ممباسة عام ١٥٨٨.
* وفاة الملك فيليب الثاني. وملكة بريطانيا توقع مرسوماً بتأسيس شركة الهند الشرقية في ١٦٠٠/١٢/٣١.
* اعتلاء الشاه عباس الصفوي عرش ايران عام ١٥٨٨.
* الشاه عباس ينزل هزيمة بالبرتغاليين في البحرين ويستردها منهم عام ١٦٠١.
* أحداث غامضة تقع في مدينة (صحار) العُمانية وورود أول خبر عن البرتغاليين على صفحات التاريخ العُماني.
* سقوط هرمز وتحريرها بشكل تام من يد البرتغاليين عام ١٦٢٢.

ذكرنا في الفصل السابق كيف سقطت البرتغال تحت حكم أسبانيا وكيف تم تتويج الملك فيليب الثاني ملك أسبانيا ليصبح ملكاً لاسبانيا والبرتغال يوم ١٦/ ٤/ ١٥٨١م وما إن تسنم الحكم حتى أقسم على أن يحافظ على المستعمرات البرتغالية في العالم وأن يحافظ على تجارة الهند والقواعد البرتغالية الموجودة فيها وفي هرمز والسواحل العربية في الخليج العربي.

لذلــك فقــد قـــام باجـراء تغييــرات فـــي المناصـــب القيـــاديـــة فـــي المستعمــرات فقد تم تعيين (دون فرانسيسكو ماسكر ينهاس كوندي دي فيللا DOM FRANCISCO MASCARENHAS CONDO DA VILLA) بمنصب نائــب الملك في الهند ، كما تم تعيين (دون كونزالا دي منزيس DOM GONZALA DE MENEZES) حاكماً على هرمز ومسؤولاً عن القاعدة العسكرية في مسقط وبقية القواعد المنتشرة في عُمان والخليج العربي . وعندما وصل نائب الملك إلى مدينة (كوا) قام بتجهيز حملة عسكرية هاجم بها مدن وقرى الهنود منزلاً بهم أنواعاً من القتل والحرق والتدمير[١] ، فكان هذا الاستهلال الدموي للعهد الأسباني - البرتغالي المشترك في حكم الهند وهرمز والسواحل العربية ، انعكاساً للخوف ولانهيار المعنويات الذي أصاب الوحدات والقواعد العسكرية هناك ، وهو خوف وانهيار كان قد سبقه علامات انحلال وأفول ظهرت على السياسة البرتغالية في الشرق بصورة عامة منذ عهد الملك سيباستيان ، كظهور الطبقة البرجوازية البرتغالية التي استغلت تجارة الشرق ، ولم تستطع أن تحافظ على طبقة الرواد الأوائل الذين كانوا يتلهفون على القيام بأي مغامرة للحصول على الربح ، كما أن تفشي الرشوة بين الحكام وظهور طبقة من السياسيين التجار الذين يهتمون بتجارتهم الخاصة مستغلين مناصبهم الحكومية أدت إلى تهالك أولئك القادة على الظفر بوظيفة حاكم هرمز ، لأن دخل الحاكم الخاص من جراء وظيفته كحاكم هناك كان مرتفعاً جداً ، حتى إن هذه الوظيفة صارت تباع وتشترى بعلم المسؤولين أنفسهم ، هذا علاوة على التعالي والغطرسة والقسوة التي اتسم بها هؤلاء السياسيون والقادة ضد الشعوب التي قهروها . وقد أدى التراخي العسكري البرتغالي إلى أن تهمل السفن البرتغالية في كثير من الأحيان قتال السفن الأخرى التي تحمل تجارة الهند ، لذلك فقد هبطت تجارة البرتغال بشكل ملحوظ[٢] .

ويبدو أن أنباء الوضع السياسي والعسكري في الخليج العربي قد وصلت إلى أسماع

---

(١) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٤١ .

(٢) مصطفى عقيل الخطيب - التنافس الدولي في الخليج العربي - ص ٥٥ .

السلطات التركية الموجودة في اليمن ، حيث كان قائد الأسطول التركي هناك القائد (علي بك شلبي) قد نشر سفنه في معظم الموانيء العربية في البحر الأحمر وسواحل اليمن خاصة في ميناء (مخا) اليماني الذي يقع على البحر الأحمر . علماً بأن علي بك شلبي قد يكون هو القائد نفسه الذي تحطمت سفنه في الخليج العربي عام ١٥٥٤م . وتذكر لنا المصادر البرتغالية أن علي بك شلبي هاجم مسقط واحتلها لفترة قصيرة في عام ١٥٨١م ، بينما لا نجد ذكراً لهذه الحملة في المراجع العربية ، فتذكر تلك المصادر قائلة إنه على الرغم من أن تحركات القائد علي بك شلبي على الساحل الأفريقي كانت معروفة للقيادة البرتغالية في الهند قبل سنة من هجومه على مسقط ، ولكنه عندما وصل إلى مسقط فإن البرتغاليين فوجئوا به ، فتركوا القلعة العسكرية منهزمين مذعورين إلى داخل البلاد ، ودخلوا مدينة (BRUXEL) التي من المحتمل أن تكون مدينة (بركا) العُمانية ، وإن حاكمها كان الشيخ (CATANI) ولعل هذا الاسم هو قطن أو (الشيخ قطن) وهو من الأسماء الشائعة في عُمان آنذاك وقد بقيت مدينة مسقط بيد قوات علي بك شلبي عدة أيام ثم جلا عنها بدون حرب . وتستطرد الرواية البرتغالية قائلة إنه عندما وصلت أنباء سقوط مسقط بيد الأتراك إلى حاكم هرمز (دون كونزالا دي منزيس) فإنه جهز حملة بقيادة الضابط (لويس دي الميادا) وعندما وصل هذا إلى مسقط وجدها خالية من الأتراك وقد نُهبت .

وهكذا أعطت هذه الحملة التركية التي كانت الأخيرة من نوعها إلى مسقط والخليج العربي ، إضافة جديدة في عدم جدية السلطنة العثمانية في مواجهة البرتغاليين بشكل حاسم هناك فما كانت حملة (علي بك شلبي) هذه بأحسن من مثيلتها حملة (بيري بك ريس) التي جرت عام ١٥٥٢م .

إلا أن منطقة الخليج العربي شهدت في عام ١٥٨٣م هزة سياسية أخرى عندما قرر حاكم مدينة (لارا) الفارسية التي كانت تخضع لحكم هرمز وبالتالي للبرتغاليين ، الثورة ضد التسلط الهرمزي على منطقته ، فثار وامتدت الثورة إلى جزيرة (القسم

XAMEL) ووصلت إلى مدينة (بستانة) على الساحل الفارسي ، ولم يتمكن حاكم هرمز من إخمادها أول الأمر إلا بعد أن جهز جيشاً مكوناً من (٣٨٠٠) مقاتل هرمزي يسانده جيش برتغالي من (٨٠٠) مقاتل ، ورغم ذلك فإن هذه القوة لم تتمكن من إخمادها إلا بعد وفاة حاكم (لارا) واختلاف ولديه على الحكم[٣] .

وعلى كل فإن فترة السنوات العشر الأولى منذ أن احتلت أسبانيا البرتغال ، شهدت ثلاثة أحداث مهمة وهي :

١ : اشتداد المعارك بين الأسطولين العثماني والبرتغالي على طول الساحل الأفريقي .

٢ : ظهور الانجليز والهولنديون على مسرح الأحداث في الخليج العربي .

٣ : ظهور الشاه عباس الصفوي ملكاً على إيران ، وما أعقب ذلك من تحرير هرمز والقضاء على البرتغاليين بشكل نهائي في السواحل الفارسية .

فبالنسبة للنشاطات العثمانية في السيطرة على ساحل أفريقيا الشرقي ، فإن أمير البحر (علي بك شلبي) الذي هاجم مسقط ، اتخذ من مدينة ممباسة قاعدة لتحركاته الحربية واستطاع جذب اهتمام القادة الأفارقة إليه ، بحيث أثار موجة من الكراهية ضد البرتغاليين ، مما دفع بالنائب الجديد للملك في الهند (دون دورات دي منزيس) أن يوفد القائد (روي كانكالفز) ومعه (٢٤) سفينة مقاتلة إلى منطقة البحر الأحمر ، وتمكنت هذه الحملة من الوصول إلى بلدة (مخا) اليمانية ، وتوقفت هناك وأمر قائدها جنوده بالنزول إلى الشاطيء ، لكن القوات التركية شعرت بوصول هذا الأسطول وراحت تترصد حركاته ، فلما نزلت القطعات البرتغالية من السفن ، فوجئوا بهجوم تركي شنته قوات من الفرسان والمشاه عليهم أجبرتهم على الهرب مسرعين إلى سفنهم كما أجبروا السفن البرتغالية أن تعود أدراجها إلى هرمز . وعندما وصلت السفن البرتغالية إلى هرمز ، علم قائدها أن بلدة (نخيلو) الفارسية ثائرة ضد حكم

(٣) DANVERS – المصدر نفسه – الجزء الثاني – ص ٤٥ .

هرمز ، فأصدر أوامره إلى الضابط (بدرو بيريرا) أن يجهز حملة من (٦٠٠) جندي وعشرين سفينة وأن يتوجه نحو المدينة لإخضاعها ، إلا أن أهالي (نخيلو) كانوا قد استعدوا لصد هذا الهجوم فأنزلوا هزيمة بالبرتغاليين وقتلوا (٢٥) منهم بينما فر الباقون عائدين إلى هرمز(٤) .

أما بالنسبة لنشاطات (علي بك شلبي) في شرقي أفريقيا ، فقد كانت أخباره تصل إلى السلطات البرتغالية بواسطة حاكم بلدة (ملندي) الموالي لهم ، لذلك فقد قام نائب الملك في الهند بتجهيز حملة جديدة مكونة من (١٨) سفينة بقيادة أمير البحر (أفونسو دي ميليو بومبيرو) ، تحركت من الهند عام ١٥٨٦م واشتبكت مع الأساطيل والقواعد الحربية التركية الموجودة في افريقيا ودمرت قسماً منها(٥) .

وشهد عام ١٥٨٨م معارك عثمانية برتغالية أكثر عنفاً ، حيث هاجم علي بك شلبي القاعدة البرتغالية في بلدة (ملندي) ، إلا أن أسطولاً برتغالياً عظيماً كان له بالمرصاد فهاجمه ودحره وحاصره في مدينة (ممباسه) . وبينما كان القتال محتدماً بين الطرفين من جهة البحر ، امتلأ البر خلف علي بك بالألوف من القبائل الزنجية المتوحشة من أكلة لحوم البشر ، فوقعت القوة التركية بين نارين ، فإما الوقوع فريسة بيد أكلة لحوم البشر أو الاستسلام للبرتغاليين ، وفضّل علي بك الحل الثاني فاستسلم للبرتغاليين . وتقول المصادر البرتغالية إنه أُرسل أسيراً إلى لشبونة وإنه اعتنق المسيحية هناك ومات فيها(٦) .

وكما ذكرنا سابقاً فلعل علي بك شلبي هذا ، هو نفسه علي شلبي أو علي بن حسين الذي ظهر اسمه عام ١٥٥٤م في قضية محاولته إنقاذ الأسطول التركي المحصور في البصرة ، أو هو شخص آخر يحمل الاسم نفسه .

وبعد ذلك عاد البرتغاليون لتثبيت مواقعهم في الخليج فقاموا في عام ١٥٨٦م ببناء

(٤) DANVERS – المصدر نفسه – ص ٦١ .

(٥) السير أرنولد ولسون – الخليج العربي – ص ٤٢٥ .

(٦) الدكتور سيد مصطفى سالم – المصدر نفسه – ص ٤٢٥ .

قلعة ثانية في مسقط انتهوا منها عام ١٥٨٨ وكتبوا عليها :

«على عهد صاحب الجلالة والعظمة فيليب صاحب الاسم الأول ملكنا المفدى ، وفي السنة الثامنة بعد اعتلائه العرش البرتغالي ، فلقد أمر (دون دورات دي منزيس) وبعد انتصاره في الهند أن يقوم ببناء هذه القلعة ، والتي كان قد سبقه في بنائها (الفارنر) الكابتن الأول المؤسس»[٧] .

وقد أطلق البرتغاليون اسم (الميرانتي ALMIRANTIE) أي الأدميرال أو أمير الحرب على القلعة الأولى و(سان جون SANT JOAO) على القلعة الثانية ، وعندما حرر العرب العُمانيون مسقط عام ١٦٤٠م وسقطت القلعتان بيدهم أطلقوا على الأولى اسم (الميراني) والثانية (الجلالي) ولا زالت القلعتان قائمتان إلى يومنا هذا .

أما الحدث الثاني الذي أثر على وضعية الاسبان والبرتغاليين في الخليج فهو ظهور الهولنديين والانجليز على مسرح الأحداث هناك ، ففي عام ١٨٥٣م أرسلت الملكة اليزابث ملكة بريطانيا وفداً مكوناً من أربعة أشخاص إلى الهند والصين للتعرف على وضعية الأسواق العالمية هناك ومصادر التجارة والربح ، فهذه الملكة التي كانت على علاقة طيبة مع السلطان المنصور المغربي قد حصلت منه ومن غيره على الكثير من المعلومات عن ثروة الشرق وعن سر الاحتكارات الأسبانية - البرتغالية لتلك الثروة ، مما فتح شهيتها لأن تنتزعها من أياديهم خاصة وهم اعداؤها التقليديون سياسياً ومذهبياً .

وكان الوفد قد مر أولاً بطرابلس في لبنان ، ثم البصرة في العراق ، ومنها إلى البحرين ، ثم مر بهرمز ، وقيل إنهم اعتقلوا هناك ، وفي نبأ أنهم التقوا بالشاه طهماسب شاه إيران الذي لم يهتم كثيراً بهم ، إلا أنهم عندما عادوا إلى انجلتره قدموا تقارير جيدة عن مكامن ثروة الشرق . وبعدها توافد المستكشفون والمغامرون والتجار الانجليز إلى الهند ، ثم لم يلبث أن قام الهولنديون بتحرك أيضاً فأوفدوا الجواسيس

(٧) SARJENT - المصدر نفسه - ص ١٦٤ .

والعيون تترصد تجارة الشرق في محاولة منهم لانتزاعها من أيدي الأسبان والبرتغاليين ، إلا أن ردود الفعل البرتغالية عن تلك التحركات كانت ضعيفة ، لأنهم كانوا مشغولين بقتال الهنود المسلمين الذين لم ينفكوا عن الثورة ضدهم منذ أول يوم لوصولهم إلى الهند .

وفي عام ١٥٨٨م انهارت معنويات الاسبان بصورة كبيرة بعد هزيمة الأسطول الاسباني أمام الأسطول الانجليزي في معركة (الارمادا) ، وتفاقم الأمر أكثر عندما مات الملك (فيليب) ملك أسبانيا والبرتغال عام ١٦٠٠م ، ثم لم تلبث الملكة اليزابث أن وقعت في يوم ٣١/ ١٢/ ١٦٠٠م على براءة ملكية بتشكيل شركة لها صفة حكومية هي (شركة الهند الشرقية) ، تكون مهمتها الرئيسية التجارة وتبادل البضائع بين انجلتره والهند علاوة على فتح مراكز تجارية في الهند وغيرها من الاماكن ، ومن الجدير بالذكر أن هذا العمل الذي ابتدأ تجارياً في مراحله الأولى ، لم يلبث أن غدا سياسياً وعسكرياً في مراحله النهائية ، إذ أصبح لشركة الهند الشرقية فيما بعد أسطول حربي يدافع عن مصالحها التجارية والسياسية في الهند والخليج مما كان له أثره في مساعدة شاه إيران الجديد عباس الصفوي على انتزاع هرمز من يد البرتغاليين وإنهاء وجودهم هناك .

ففي العاشر من ذي القعدة عام ٩٩٦هـ - ١٥٨٨م اعتلى الشاه عباس بن محمد خدا بند بن طهماسب بن اسماعيل الصفوي العرش في فارس منتزعاً إياه من والده الحاكم الضعيف ، وما إن تولى الحكم حتى وضع نصب عينيه ضرورة العودة بالبلاد إلى سابق مجدها واستقرارها إبان حكم جده اسماعيل الصفوي ، فقام بالتخلص من منافسيه على العرش فسجن والده وإخوته وبعض أسرته وسمل عيونهم كما تخلص من (قلي خان) وصيه ومساعده الذي ساعده في الحصول على العرش واستطاع أيضاً التخلص من نفوذ طوائف (القز لباش) الذين كانوا يشكلون طبقة إقطاعية في البلاد ويشرفون على الجيش والإدارة فتمكن من الإيقاع بهم ، وأعاد تنظيم جيشه فشكل جيشين نظاميين ، الأول من الأرمن والشركس والكرج التابعين لسلطانه ، والثاني

جيش خاص باسم (شاهسون) أي مُحبي الملك ، ثم أدخل الأسلحة الحديثة فأنشأ مصانع أسلحة مما مكنه أن يبني جيشاً برياً قوياً استطاع أن يحقق به انتصارات على الدولة العثمانية وأن ينتزع بغداد منهم عام ١٦٢٣م . أما قواته البحرية فقد كانت ضعيفة ، لذلك فقد بقيت هرمز وبعض موانيه البحرية المطلة على الخليج العربي بيد البرتغاليين[٨] .

وكان أهم ما يلفت النظر في عصر هذا الشاه هو الانفتاح السياسي الواسع على العديد من الدول الأوربية خاصة انجلتره وهولندا ، حيث أدرك أنه لن يستطيع مناهضة الدولة العثمانية إلا بالتعاون مع أعدائها الأوربيين ، وكان الملك فيليب قد أدرك هذه الحقيقة فأرسل له بعثة اسبانية يرأسها قسيسان برتغاليان أحدهما قسيس الكنيسة البرتغالية في هرمز وأبلغاه تهاني ملك أسبانيا على انتصاراته التي حققها ضد الأتراك وطلبا إليه حماية المسيحيين في إيران .

أما أهم البعثات التي استقبلها الشاه فهي بعثة الأخوين السير أنطوني والسير روبرت شيرلي ، وهما نبيلان بريطانيان من أسرة رفيعة ومن ذوي المكانة العسكرية ، زارا الشاه عام ١٠٠٧هـ - ١٥٩٩م وكان معهما خمسة وعشرون من أتباعهما من الفرسان والعسكريين ، وكانت الغاية من زيارتهما دعوته للاتحاد مع ملوك أوربا ضد الأتراك وكذلك الحصول على امتيازات وتسهيلات تجارية للتجار البريطانيين الراغبين في التعامل مع فارس أو مع تجارة الشرق . وعلى حد قول (إيرل أوف ايسكس) الذي كان وراء هذه الرحلة للإخوة شيرلي : «باسم مجد الإله ذي العقل اللامع ، لقد اختارني الله لتحقيق هذا الهدف العظيم وأن أستفيد من تجربة رؤية الأقطار التي يتحكم بها ملك أسبانيا ، والعناية بمصالح تجار جلالة الملكة في تركيا وموسكو وبعض الأجزاء المناسبة في الملاحة الهندية ، والتي ابتدأ فيها الآن الهولنديون ، والتي يتهامس بها الناس الآن في انجلتره»[٩] .

---

(٨) الدكتور بديع محمد جمعه - الشاه عباس الكبير - ص ٤٠ إلى ٨١ .

(٩) السير أرنولد ولسون - المصدر نفسه - ص ٢٢٨ . وكذلك مصطفى عقيل الخطيب - المصدر نفسه - ص ٢٤٩ .

وقد انتهى أمر الأخوين الانجليزيين ، بأن صار السير أنطوني شيرلي سفيراً متجولاً للشاه بين عواصم أوربا خاصة أسبانيا داعياً له ومتحدثاً باسمه ، أما السير روبرت شيرلي فقد صار مدرباً للجيش الفارسي ، فأعاد تنظيم وحداته وأحسن تدريبه فأصبح الجيش مكوناً من ستين ألف جندي مدرب ومسلح بالبنادق الحديثة علاوة على سلاح مدفعية مكون من خمسمائة مدفع .

وفي عام ١٦٠١م حدث أول صدام عسكري بين فارس والبرتغاليين عندما تمكن الشاه من فتح البحرين وطرد البرتغاليين منها ، ولا تفيدنا كل المصادر المتيسرة لدينا بأخبارعن أوضاع البحرين مذ تركناها بعد حملة والي البصرة مصطفى باشا عليها في عام ١٥٥٩م ، ولا عن كيفية وقوعها بيد البرتغاليين ثانية ، إلا أن المصادر الفارسية تقول إنه في عام ١٠١٠هـ توفى (فرخ شاه) حاكم جزيرة هرمز تولى مكانه ابنه فيروز شاه الذي استوزر شرف الدين لطف الله ، فقام هذا الوزير بتعيين أخيه ركن الدين مسعود حاكماً على البحرين ، وبعد أن تسلم الحاكم الجديد زمام الأمور شعر بأن القوات البرتغالية ، والتجار البرتغاليين هناك يتدخلون في كل الأمور ففكر في التخلص منهم والاستقلال بحكم البحرين ، فأوفد موفداً اسمه معين الدين ليجري اتصالاً مع حاكم منطقة فارس لهور دي خان ليساعده في قتاله ضد البرتغاليين . وقد وافق هذا الحاكم على مساعدته بعد استشارة الشاه ، الذي وافق بدوره بشرط أن تُضم الجزيرة بعد تحريرها إلى المملكة الصفوية . ثم تقدمت الجيوش الفارسية وباغتت الجزيرة وتمكنت من إيقاع هزيمة بالقوة البرتغالية هناك ، فدخلها (لهور دي خان) واستقبله الحاكم ركن الدين مسعود الذي كان يطمع أن يتوج ملكاً على الجزيرة ، إلا أن القائد الفارسي ألقى القبض عليه وقطع عنقه وأعلن أن البحرين أصبحت ملكاً للشاه . وعندما حاول قائد هرمز البرتغالي التقدم بسفنه لاستعادة البحرين قام الشاه بهجوم على القاعدة العسكرية البرتغالية الموجودة في ميناء (كمبرون) مما جعل البرتغاليين يهرعون إلى هناك ويتركون البحرين التي لم تعد إلى سلطتهم بعد هذا .

أما ميناء (كمبرون) فقد تم تطويقه ولم تستطع قوات الشاه انتزاعه من البرتغاليين إلا في عام ١٦١٣م حيث سقط بيدهم وتم تهديم القلعة البرتغالية هناك ، كما قام الشاه ببناء ميناء جديد عرف باسم (بندر عباس) تيمناً بطرد البرتغاليين من الميناء القديم فيما هربت حامية المدينة إلى القلعة البرتغالية في مسقط[١٠] .

وقد حاول ملك أسبانيا الجديد (فيليب الثالث) أن يسترجع البحرين بصورة سلمية من الشاه إلا أن الشاه رفض ذلك لأنه كان يخطط للقضاء على الأسبان والبرتغاليين معاً في هرمز ، وعلى كل حال ، فإن سقوط البحرين بيد الفرس عام ١٦٠١م أوجد انهياراً جديداً في معنويات الحاميات البرتغالية في الخليج ، خاصة في هرمز التي أصبحت تتوقع هجوماً فارسياً في أية لحظة ، كما أنه دفع بالقيادة البرتغالية لأن تفكر في جعل مسقط مقراً عاماً لها في الخليج فيما إذا سقطت هرمز .

ومما يجب أن لا يخفى عن البال أن شركة الهند الشرقية البريطانية ، كانت تراقب تلك الأوضاع في الخليج خاصة العلاقات الفارسية مع البرتغاليين والأسبان المتسمة بالتوتر وقرب الانفجار ، وكانت تأمل أن تكون الوريثة الوحيدة لممتلكات البرتغاليين الذين قربت نهايتهم ، فكانت فرصتها الذهبية عندما ساعدت الشاه على تحرير هرمز وانتزاعها من يد البرتغاليين عام ١٦٢٢م .

ويمكن تلخيص الأحداث والفعاليات التي قامت بها الشركة وذلك ، بالعودة إلى عام ١٦١٢م ففي تلك السنة وصل اسطول بريطاني يقوده الكابتن (السير هنري ميدلتون) إلى ميناء سورات وحاول الاقتراب من الساحل ، إلا أنه فوجيء بسفن برتغالية تقترب منه وتفتح النار عليه ، فاشتبك الطرفان في معركة أدت إلى أن يخرج الأسطول البريطاني من الخليج ، وقد صاحب تلك العملية انتشار الشائعات في البلاط الأسباني أن الانجليز والهولنديين يتعاونون لكي يحلّوا محلهم في الخليج ، مما دفع بالملك الأسباني لأن يرسل عدة بعثات إلى شاه إيران يطلب منه إعادة البحرين إلى

(١٠) مصطفى عقيل الخطيب – المصدر نفسه – ص ٢٣٠ .

سلطته ، إلا أن الشاه لم يعر تلك الرسائل اهتماماً يذكر مما حدا بالملك على أن يكتب إلى (دون لويس دي غاما) حاكم هرمز يطلب إليه مراقبة نشاطات الانجليز وتسقط أخبار الإخوين شيرلي الموجودين في إيران . ثم أن عام ١٦١٤م شهد تحركاً تجارياً وسياسياً جديداً لشركة الهند البريطانية وذلك عندما وصل التاجر البريطاني (ريتشارد ستيل) إلى ميناء سورات الفارسي للحصول على امتيازات تجارية ومعاينة الأماكن المناسبة لإقامة وكالات تجارية للشركة ، فوجد أن المكان يصلح أن يكون مركزاً تجارياً بريطانياً ينافس فيه هرمز ، فكتب إلى الملك (جيمس) ملك بريطانيا بذلك ووافق الملك على الفكرة ، فشهد عام ١٦١٦م فتح مركزين تجاريين بريطانيين لشركة الهند الشرقية على الساحل الفارسي واحد في (سورات) والثاني في (جاسك) ، ثم قام الشاه عباس بمنح تسهيلات أخرى لهم في ميناء (جمبرون) أو (بندر عباس) وهو الاسم الجديد للميناء الذي تم تحريره من البرتغاليين ثم أن الشاه بدأ يفكر جدياً في تحرير هرمز وإعادتها إلى السيادة الفارسية مستعيناً بالانجليز على تنفيذ ذلك الأمر .

وقد شهد عام ١٦١٨م أحداثاً غامضةً على الساحل العربي وقعت في مدينة (صُحار) العُمانية ، حيث ذُكرتْ روايتان لما حدث هناك ، الأولى في المصادر العُمانية ، والثانية في المصادر البرتَغالية .

ففي المصادر العُمانية المشوشة الصورة في ذكر الأحداث ، ورد إسم (النصارى) لأول مرة على صفحاتها . والمقصود بالنصارى البرتغاليون أو الأسبان حسبما كانوا في ذلك الزمن ، فتقول تلك المصادر إنه عندما مات الملك العُماني سليمان بن مظفر النبهاني عام ١٠١٩هـ الموافق لحوالي عام ١٦١٠م ، فإن عدداً من الملوك الضعاف تسنموا الحكم بعده ، وإن قسماً منهم لم يحتفظ بعرشه أكثر من شهرين لذلك فقد كثرت الفوضى والحروب الداخلية والقيادات . ويفهم من سير الأحداث أن نزاعاً وقع بين حاكم مدينة صحار وهو محمد بن مهنا بن محمد الهديفي وكانت تسانده مجموعة من السياسيين أمثال سيف بن محمد وعلي بن ذهل وسلطان بن حمير

وكهلان بن حمير ، وبين الأمير عمير بن حمير ومعه مجموعة أيضاً من أمثال الأمير سنان بن سلطان ، والأميران علي بن حمير وسعيد بن حمير ، وأن محمد الهديفي هاجم الأمير سنان وجماعته وأوقع بهم وقتلهم ، فقرر الأمير عمير بن حمير أن يهاجم (صحار) ويحتلها انتقاماً لمقتل هؤلاء .

لذلك فقد راح يكتب إلى زعماء القبائل المناصرة له ، وذهب إلى مسقط ليجمع الأعوان من هناك ، ثم طلب النجدة من ملك هرمز فأرسل له هذا عسكراً كثيراً ، وفي تلك الأثناء وصل إلى مسقط مركب (نصراني) ، يذكر المؤرخون أن الرياح دفعته إلى هناك ويقولون : «وكان قد وصل مركب من الهند بعسكر كثير وفيه آلة الحرب فردته الريح إلى (مسكد) وكان مراده أن يمضي إلى فارس فأخذه الأمير عمير بن حمير وسار هو ومن معه من النصارى » . أي أن الأمير عمير بن حمير اتفق مع البرتغاليين على مهاجمة صحار .

وتمضي الرواية العُمانية فتقول إن الأمير عمير سار بجيشه براً وعسكر لمدة سبعة أيام في (باطنة السيب) ، ثم هاجم مدينة صحار ، حيث يعتصم محمد بن مهنا الهديفي ومجموعته ، ثم لم تلبث بعد يوم أو يومين أن نزلت القوات البرتغالية من جانب البحر لتهاجم الهديفي .

« ثم بعد ذلك بيوم أو يومين هبطت النصارى من المراكب بما عندهم من آلة الحرب ، وكانوا يجرون قفع القطن (أي الدروع الخشبية) ليتقوا بها رصاص البنادق ، وكانت عندهم مدافع تسير على عجلات من الخشب وعليها سور من الخشب أيضاً . »

أما محمد بن مهنا فقد اعتصم بقلعة المدينة وراح يقاتل هناك ، فقامت مدفعية البرتغاليين بقصفه وهاجمه الجنود البرتغاليون فنشبت معركة بين قواته والقوات البرتغالية استمرت إلى المساء ، وحينئذ هاجم عمير بن حمير بشدة أكثر ، وانتهت المعركة بمصرع محمد بن مهنا الهديفي ومن معه ، «وأقام النصارى في حصن صحار ،

ورجع الأمير عمير إلى بلدة سمائل جذلاً مسروراً »[11] .

وهكذا تنتهي الرواية العُمانية عن الحادث وكأنها مبتورة بدون أصل وبدون نتائج ، ومن الجدير بالتأكيد هنا هو أن هذه الحادثة التي وقعت عام ١٦١٧م حسبما تذكرها المصادر البرتغالية ، كانت الحادثة الأولى التي يرد فيها ذكر للبرتغاليين أو (النصارى) عند المؤرخين العُمانيين .

أما المصادر البرتغالية ، فقد نقلت ما حدث في مدينة (صُحار) في عُمان ، بأن الأمير محمد حاكم المدينة قد استقل في مدينته وتمكن من القيام بعمليات تجارية جيدة جذبت السفن التي تحمل البضائع الهندية لتتوقف في صحار وتتم الصفقات التجارية هناك ، بحيث أثرت تلك العمليات التجارية على تجارة هرمز ومسقط فكان على السلطات البرتغالية أن تتخذ إجراءً لإيقاف الأمير محمد عند حده ، وعلى هذا الأساس قام نائب الملك في الهند وهو (جيرونيمو دي أزافيدو) بتجهيز حملة بحرية بقيادة (فرانسيسكو رويم) لتذهب إلى مسقط وتلتحق بقوة الحاكم البرتغالي (فاسكو دي غاما) والتي كانت مكونة من خمس سفن ، على أن يتم التعاون والتنسيق هناك مع أحد أمراء القبائل الذين يكنون العداء للأمير محمد ، كما أوصى نائب الملك أن تكون قوة المشاة المساندة من (١٢٠٠) جندي . وبعد أن تم هذا ، توجهت القوة البرتغالية البحرية المشتركة نحو صحار ، وتم إنزال الجنود على مسافة من البلدة ، واتخذت سرايا الإنزال الأولى من أحد المساجد القريبة من المكان محلاً للاختفاء إلى أن تم إنزال المدفعية من السفن ، ثم قام الجنود بالهجوم على قلعة الأمير محمد المقامة على أحد التلال ، وفي تلك المعركة أصيب الأمير محمد بطلقة بندقية أردته قتيلاً ، إلا أن مقاتليه استمروا بالقتال طيلة المساء والليل إلى الصباح إلى أن استطاع الجنود البرتغاليون الخروج من الخنادق والمخابيء وشنوا هجوماً كبيراً تمكنوا فيه من كسر شوكة المدافعين واندفعوا إلى داخل مدينة (صُحار) حيث أسروا عدداً كبيراً من النساء

(١١) حميد بن محمد بن رزيق – الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين – ص ٢٥٥–٢٥٦ . وكذلك السالمي – المصدر نفسه – ص ٢٧٨–٢٧٩ .

والأطفال ، علاوة على سلب ونهب الأموال والمتاع هناك . وإزاء ذلك فإن شقيق الأمير محمد الذي كان لا يزال يقاتل في أحد أقسام القلعة قد استسلم فجيء به أسيراً ونُفذ فيه حكم الإعدام ، ثم لم يلبث القائد البرتغالي أن أصدر أمراً باعدام كل المقاتلين العرب الذين كانوا موجودين في القلعة ، فتم قطع رؤوسهم جميعاً . ولم يترك البرتغاليون المدينة إلا بعد أن أخذوا معهم عدداً من فتياتها بحجة أنهم سيقدموهن إلى الكنيسة ليصبحن كاثوليكيات[١٢] .

وعلى كل حال ، فعلى الرغم مما حدث في صحار ، فإن الوجود البرتغالي في الخليج أصبح مهدداً بالزوال نتيجة للتواجد البريطاني هناك واحتمال تعاونهم مع الشاه القوي الذي لا بد وأن يقوم عاجلاً أو آجلاً بطرد البرتغاليين ، لذلك فقد قام ملك أسبانيا بتعيين ضابط برتغالي قدير هو (روي فيريرا دي أندرادا RUY FREIRE DE ANDRAD) ليكون مسؤولاً عن القيادة العسكرية في هرمز ، والتي يكن واجبها مراقبة التحركات في البحر الأحمر أيضاً ، وقد غادر (روي فيريرا) لشبونة عام ١٦١٩م ووصل إلى هرمز في ٢٠/٦/١٦٢٠م .

وكان أول ما فعله هو قيامه بدفع رواتب الجنود المتأخرة ومن ثم زيارة الكنيسة ، وبعدها زاره حاكم الجزيرة الهرمزي حيث أخبره عن مواقع الأسطول الانجليزي في ميناء (جاسك) كما علم فيريرا بأن التعليمات الواردة من (كوا) في الهند نصت على أن تبقى السفن البرتغالية في ميناء مسقط وأن لا تحاول الاشتباك بالسفن الانجليزية ، وذلك بسبب معركة وقعت بين الطرفين في أوائل العام انتهت بانكسار البرتغاليين ، كما عَلم بأن قيادة القوة الفارسية قد أُودعت إلى القائد (قلي خان) ، لذلك فقد قام باستطلاع جزيرة (القسم) التي تقع في مدخل الخليج العربي ، وهي قريبة من هرمز أيضاً وتمتاز عن هرمز بوجود آبار الماء العذب فيها ، وقد وافق حاكم هرمز على رأي (فيريرا) القيام ببناء قلعة وقاعدة بحرية برتغالية جديدة هناك . وعلى هذا فقد تم ارسال (٢٠٠٠) جندي برتغالي و(١٠٠٠) جندي هرمزي قاموا ببناء القلعة والقاعدة

(١٢) DANVERS – المصدر نفسه – ص ١٩٢ .

بتاريخ ٧/ ٥/ ١٦٢١م ، وعندما وصلت هذه الأخبار إلى الفرس قام القائد (قلي خان) بايفاد قوة بقيادة عبدالله خان لاستطلاع الوضع هناك ، وقام عبدالله بالنزول في الطرف الآخر من الجزيرة والتحصن في مواضع دفاعية بعيدة عن القاعدة البرتغالية ، فيما أُشيع بين البرتغاليين والهرمزيين أن(قُلي خان) يحشد جيشاً تعداده ٢٥ ألف مقاتل لمهاجمتهم هناك .

لذلك فقد قام روي فيريرا بإرسال سفن بحرية لتقوم بواجب الدورية لمراقبة احتمال تقدم القوات الفارسية ، كما قام بالتعاون مع رجل ظهر اسمه على صفحات التقارير البرتغالية بأنه (علي كمال) وهو من أصل عربي كان يحكم بلدة (نخيلو) على الساحل الفارسي واختلف مع الشاه عباس فهرب إلى الساحل العربي وسكن في منطقة ما قرب جلفار .

كما قام باستطلاع منطقة الساحل الجبلي الصخري في رأس مسندم وما يعرف بمنطقة رؤوس الجبال في عُمان ، وهي منطقة صخرية وعرة تكثر بها الخلجان والرؤوس الصخرية والجزر الحصينة .

وهناك هاجم مدينة (خصب) فوجد سفينتين محملتين بالخيول كما وجد شيخين من شيوخ مدينة (رمس) المجاورة وعلم أن الخيول مشحونة لتباع للجيش الفارسي ، فقام بقطع أعناق بحارة السفن من أبناء المنطقة ، وأمر بوضع الشيخين بالسجن وإرسالهما مخفورين إلى هرمز حيث قابلهما (غلام الدين) وهو المسؤول عن الجنود العرب الموجودين في جيش هرمز ، وحصل منهما على معلومات عن الفرس الموجودين في مدينة الصير (أحد الأسماء المرادفة لمدينة جلفار أو مدينة رأس الخيمة) ، ولم يطلق سراحهما إلا بكفالة مالية ضخمة .

لقد كان من نتائج المذبحة التي ارتكبها (فيريرا) بحق البحارة العرب في مدينة (خصب) أن جعلت المنطقة كلها تخضع له ما عدا مدينة (جلفار) التي كانت فيها

حامية فارسية بقيادة خوجا نديم ، لذلك فقد أصدر أوامره إلى الأسطول البرتغالي الموجود قرب مدينة (لافت) الفارسية ، أن يتعاون مع علي كمال لمهاجمة جلفار ، وقد تم الهجوم بنجاح واستسلم الخوجا نديم للمهاجمين ، وأصدر فيريرا تعليماته باحتلال المدينة وعيَّن علي كمال حاكماً عليها ، وفي المقابل قام الفرس بإرسال قطعات بحرية لمقاتلة الوحدة البرتغالية الموجودة في جزيرة القسم ، بينما قام روي فيريرا بهجمات متعددة على الموانيء الفارسية وتمكن من تدمير ميناء (جاسك) .

وفي تلك الأثناء وصلت إلى فيريرا رسالة من نائب الملك في (كوا) ، يرفض فيها الإجراء الذي اتخذه في جزيرة (القسم) ويطلب منه أن لا يدخل في معارك مع الفرس ويأمره بترك الجزيرة ، وعندما ناقش فيريرا هذا الأمر مع حاكم هرمز وافق الأخير على هذا الرأي واقترح إخلاء الجزيرة وحشد الجيوش في هرمز التي من المتوقع أن يهاجمها الانجليز أو الفرس في أية لحظة ، لكن فيريرا لم ينسحب من الجزيرة إلا بعد أن قام بالهجوم على ميناء (لافت) الفارسي وتدميره . إلا أنه وقبل أن يكمل انسحابه فوجيء بتسع سفن بريطانية تظهر أمامه فاشتبك معها بمعركة بالمدفعية ، ثم لم تلبث أن ظهرت السفن الفارسية المساندة للهجوم البريطاني ، وإزاء الضغط الشديد عليه فإنه أصدر أوامره لجنوده بالتوجه نحو السفن بسرعة كي يهربوا إلى هرمز بينما بقي على أرض الجزيرة الجنود الهرمزيون ، فنزل اليهم الجنود الفرس وأعملوا السيف برقابهم وأفنوهم عن بكرة أبيهم .

أما القائد روي فيريرا ، فلم يتمكن من الوصول إلى هرمز لأنه وقع أسيراً بيد الانجليز[١٣] .

وعلى كل حال فإن مصير البرتغاليين في هرمز بدا واضحاً وهو ، أن لا أمل لهم في

---

(13) B.B. SLOT : THE DISINTERCOATION OF PORTOGEUES POWER IN THE GULF .

وهو بحث قدمه البروفسور سلوت الذي يشغل منصب مدير مركز الوثائق التاريخية في هولندا إلى ندوة (الصلات التاريخية بين الخليج العربي والدولة العثمانية) رأس الخيمة ٢١/ نوفمبر١٩٨٨ والتقرير مستمد من ترجمة لكتاب برتغالي اسمه : DO CONSELHO DO ESTADO . كما أن هذه التفاصيل موجودة في كتاب (عرب الخليج) للمؤلف نفسه وقد طبعه ونشره المجمع الثقافي في أبوظبي .

الخلاص ، خاصة بعد أن أنهى الشاه عباس مفاوضاته مع ممثلي شركة الهند الشرقية لمساعدته على طردهم ، وتم الاتفاق على خمسة شروط وهي تخص كيفية تقسيم عوائد هرمز بعد النصر ومصير الأسرى . . الخ . وبعد أن تم كل شيء شنت القوات البريطانية الفارسية المشتركة هجوماً في بداية شهر يناير ١٦٢٢م على الجزيرة وتم تطويقها من جميع الجهات ، وجرت معارك متعددة استمرت إلى شهر فبراير تقريباً خسرها البرتغاليون فقرر بعدها القائدان المسؤولان عن دفاعات الجزيرة وهما (سيمون دي ميللو) و(لويس دي برتيو) أن يستسلما . وفي يوم ٢٢/ ٤/ ١٧٢٢م إستسلم البرتغاليون ومن كان معهم من أسبان أيضاً إلى الانجليز وقيل إن الأسرى كانوا ألفي أسير قام الانجليز بتسلمهم جميعاً حيث نقلوهم إلى مسقط ، أما الفرس فقد دخلوا المدينة وأعدموا كل الهرامزة المتعاونين مع البرتغاليين .

وهكذا انتهت قصة التواجد البرتغالي على أرض فارس ونُكّس العلم البرتغالي بعد أن ارتفع قرناً من الزمان على القلعة التي بناها (أفونسو دي البوكيرك) في جزيرة هرمز .

وعلى إثر ذلك فإن نتيجتين سياسيتين ظهرتا إلى الوجود :

الأولى : هي بداية قصة التواجد السياسي والعسكري للهولنديين لفترة مؤقته ، ثم للإنجليز بصورة دائمة في الخليج العربي وما أدى ذلك التواجد إلى أحداثٍ سياسية هي خارج موضوع كتابنا هذا .

الثانية : هي أن البرتغاليين ولكي يعوضوا عن خسارتهم في هرمز ، فقد كثفوا وجودهم السياسي والعسكري في الساحل العربي من الخليج خاصة في عُمان ، وسيبقون هناك إلى أن يقدر الله لعُمان حاكماً مقتدراً هو الإمام ناصر بن مرشد اليعربي مؤسس الدولة اليعربية التي ستنزل الضربة القاضية والنهائية بهم ، وتنهي بذلك قصة العرب والبرتغال في التاريخ ، كما سنرى ذلك في الفصول القادمة .

36

الفصل السادس والثلاثون

* قوات فارسية تحتل مواقع لها في عُمان، والبرتغاليون يتواجدون في مسقط.
* روي فيريرا يهرب من أسره ويعيد تنظيم قواته ويتخذ من مسقط قاعدة له .
* احتلال رأس مسندم ومنطقة رؤوس الجبال من قبل البرتغاليين .
* الشاه عباس يحتل بغداد عام ١٦٢٣، وعلاقات جيدة بين باشا البصرة العثماني والبرتغاليين .
* معاهدة صلح بين البرتغاليين والفرس .
* انتهاء الحروب بين البرتغاليين وخصومهم الانجليز والهولنديين في الخليج العربي .
* عام ١٦٢٤ يشهد قيام الدولة اليعربية في عُمان .

استغل الشاه عباس سقوط هرمز ، وهروب القوات البرتغالية المنكسرة إلى مسقط وهم لا يصدقون أنهم نجوا من القتل على يد الجيشين المتعاونين الفرس والإنجليز ، فأراد أن يأخذهم على ما هم فيه من اضطراب لذا أمر قواته بملاحقتهم إلى السواحل العُمانية واحتلال ما يمكن احتلاله من قواعد لهم هناك ، فهاجم الفرس بمساعدة حشود من العرب مدينة جُلفار واحتلوها . ولعل زعيم أولئك العرب كان الشيخ كايد بن عدوان ، وهو الزعيم العربي القاسمي الذي كان يقطن مدينة (لنجه) التي تقع على الساحل الفارسي كما أنه الجد الأكبر والزعيم المؤسس للإمارة القاسمية في الخليج العربي[1] ، واندفعت الجيوش لتحتل مواقع أخرى وتمكنت من أن تمركز نفسها

---

(١) عبدالله بن صالح المطوّع - مخطوطة الجواهر واللآلي في تاريخ عُمان الشمالي .

بالقرب من القلاع البرتغالية في مدن صُحار وخورفكان ودبا ، وانتشرت أيضاً في المناطق الوعرة من منطقة رأس مسندم ورؤوس الجبال في مدخل الخليج العربي ، في مدن ليما وخصب ورمس وغيرها .

أما على الجانب البرتغالي ، فإن القائد روي فيريرا الذي كان قد وقع أسيراً بيد الإنجليز وَوُضعَ تحت الحراسة في السفينة البريطانية (لاين) ، فقد تمكن من الهرب من أسره وذهب إلى مسقط ، حيث اجتمع بالحامية الموجودة هناك واطلع منهم على الموقف المنهار للبرتغاليين في عُمان ، وعن أماكن وجود القطعات الفارسية في المدن والسواحل العُمانية ، كما علم بأن نائب الملك في الهند أرسل نجدة مكونة من ثمان سفن غرقت كلها بسبب العواصف . وبعد أن أتم جمع المعلومات الكافية عن الموقفَ في عُمان ، أبحر إلى (كَوا) ليقابل المسؤولين هناك .

وفي (گوا) لم يكن الوضع جيداً إذ إن المدينة والأسطول البرتغالي تعرضا أكثر من مرة إلى هجمات من الأساطيل الإنجليزية والهولندية التي تريد أن تحل محلهم . كما أن ملك أسبانيا فيليب الثالث مات ، وأن الملك فيليب الرابع قد اعتلى العرشين الأسباني والبرتغالي ، ولم يكن هذا الملك بذي مقدرة أو كفاءة ، لذلك فإن العد التنازلي للامبراطورية الأسبانية قد ابتدأ بالتنازل .

وفي (كَوا) قام الحاكم البرتغالي (أفونسو نورونها) بتقديم روي فيريرا للمحاكمة بتهمة عدم الدفاع عن هرمز ، إلا أن المحكمة برأت ساحته وأُعيدَ له اعتباره ومُنِحَ منصب قائد القوات المسلحة العاملة في هرمز والبحر الأحمر ، ثم أبحر ثانية إلى مسقط ليتخذها قاعدة لعملياته المقبلة في المنطقة ووصلها في نهاية ابريل ١٦٢٣م .

وفي مسقط أعاد (فيريرا) تنظيم قواته ، ولما تم له ذلك قرر أن يهاجم القلعة الفارسية الموجودة في مدينة (صحار) ، فأبحر اليها وأنزل قواته على الشاطيء وتمكن من التوغل بمشاته ومدفعيته إلى داخل المدينة واحتل سوقها الذي يقع قبالة القلعة التي يعتصم بها الجنود الفرس ، وفتح نيران مدافعه على جدرانها فتهدمت بفعل القذائف

واستسلم من كان في داخلها ، ومن بينهم الأمير (محمد بن منفر) كما ورد اسمه في المصادر البرتغالية ، ولعل الاسم الصحيح هو محمد بن مظفر ، وهو الاسم الغالب على آخر ملوك دولة النباهنه في عمان آنذاك . ومن هناك أبحر إلى خورفكان حيث أنزل قواته فيها ، وعلم أن قائد الحصن الفارسي ، قريب لعلي كمال الذي كان يتعاون مع البرتغاليين فتم اقناعه بالاستسلام ، فاستسلم وتم له فتح المدينة بدون قتال . ثم توجه بعد ذلك إلى مدينة (دبا) حيث توجد فيها حامية فارسية قوية ، وعندما استقبله الشيخ العربي للمدينة وأخبره بأنه حالما علم بوجود البرتغاليين في خورفكان فإنه هاجم الحامية الفارسية وقتلها عن بكرة أبيها ، فوافق (فيريرا) أن ثبتهُ حاكماً على المدينة بشرط أن يقوم بجمع إيرادات الميناء وإرسالها له ، كما ترك معه حامية من خمسين جندي برتغالي .

وعندما تم له ذلك تطلع إلى الموقع الاستراتيجي المهم في مدخل الخليج العربي الذي يقع قبالة هرمز التي خسرها ، وهو موقع رأس مسندم في منطقة رؤوس الجبال المنيعة الحصينة الوعرة والمحمية بخلجان عميقة المياه ، فقرر أن يتخذ من مدنها قواعد لأسطوله لكي يختفي فيها ويهاجم منها .

فهاجم أولاً مدينة (ليما) حيث توجد قلعة فارسية هناك وأجبرها على الاستسلام ، واستقبله أهالي المنطقة وهم المعروفون باسم (الكمازره) نسبة إلى مدينة (كُمزار) الموجودة هناك ثم توجه بعدها إلى بلدة (خصب) ودمر القلعة الفارسية هناك وقصف المدينة وأجبر سكانها على الهرب ، ثم نزل فيها وقرر أن يتخذها قاعدة للأسطول البرتغالي العامل بمواجهة هرمز وأمر ببناء قلعة عسكرية فيها ، ثم استدعى سكان المدينة ، وأجبر الحاكم وهو (الشيخ مالك) حسبما أوردته المصادر البرتغالية وكما ورد اسمه في المصادر المحلية أيضاً على أن يعقد معاهدة للتعاون مع البرتغاليين ، ثم أتاه وفد من مدينة رمس وعقد معه معاهدة أيضاً . وتوجه بعد ذلك نحو مدينة (جلفار) ، لكن حاكم المدينة (غلام الدين) لم يدخل في معركة ضده بل استسلم له ، فقام ببناء قلعة

برتغالية هناك[٢] .

وهكذا تمكن هذا القائد من احتلال الساحل العُماني المواجه لبحر عُمان ، وأقام مواقع حصينة ممتدة من منطقة رؤوس الجبال ورأس مسندم في الخليج العربي ، إلى موقع جلفار الحصين الذي يمثل بداية المنطقة الساحلية الرملية ونهاية منطقة رؤوس الجبال ، أي أنه طوّق هرمز من جهة الساحل العربي[٣] .

وقد انتهز روي فيريرا فرصة سقوط بغداد بيد الشاه عباس الصفوي عام ١٦٢٣م ، وظهور موقف سياسي صعب في البصرة التي كان يحكمها رجل من عائلة افراسياب كان يعمل ضابطاً بالجيش العثماني ، وتمكن من شراء باشوية البصرة من حاكمها الباشا العثماني واستقل بها . لذلك ما إن سمع هذا الباشا بسقوط بغداد بيد الفرس حتى خشي على منصبه فقام بالاتصال بالبرتغاليين لحمايته منهم . كما استقبل بعثة من رجال الدين المسيحيين الذين تهدمت أديرتهم في هرمز ومنحهم مساعدات مالية سخية ، وطلب الرهبان منه السماح لهم ببناء الأديرة والكنائس في البصرة ، فوعدهم خيراً بشرط أن يتوسطوا عند حاكم (گوا) كي يرسل سفناً حربية إلى البصرة . ويبدو ذلك من رسالة بعثها وكيل شركة الهند الشرقية في سورات يقول فيها : « إن البرتغاليين حصلوا على امتيازات شخصية من الباشا حاكم البصرة ، وإنه سمح لهم ببناء كنائس وأديرة وقد شرعوا ببناء قلعة حصينة هناك » . وفي العام التالي أي في سنة ١٦٢٥م بعث نائب القنصل الهولندي في حلب رسالة إلى امستردام ورد فيها : « إن ميناء البصرة أصبح مركزاً هاماً بالنسبة للبرتغاليين ، وإن سفنهم التجارية تتوالى على هذا الميناء بصورة دائمة » . وعندما وصلت تلك الأخبار إلى الشاه ، حاول مهاجمة البصرة وقام جيشه بحصارها ، إلا أن وصول عدد من السفن البرتغالية إلى هناك جعله يفك الحصار وينسحب .

وفي شهر ابريل عام ١٦٢٥م أقام حاكم البصرة حفلاً كبيراً أطلقت فيه المدفعية

---

(٢) أنظر كتابنا - الشحوح وتاريخ منطقة رؤوس الجبال في الخليج العربي - الذي يظهر فيه اسم الشيخ مالك .
(٣) B. F. SLOT - المصدر نفسه - الفصل الرابع ص ٤ .

طلقاتها ترحيباً بوصول (١٢) سفينة برتغالية[٤] .

وفيما كان (فيريرا) يحقق تلك الانتصارات فإن الحكومة المركزية في مدريد قررت إرسال مدد إليه بقيادة (نونا الفاريز بوتيلو NANO AL-VAREZ BOTELLO) فوصل هذا إلى مسقط عام ١٦٢٥م وباشر من هناك بشن هجمات على الأسطول الإنجليزي في بندر عباس . إلا أن الإنجليز كانوا قد اتخذوا الحيطة لذلك بأن اتفقوا مع الهولنديين الذين أصبح لهم موطىء قدم فيها وعقدوا معاهدة مع الشاه كما أرسلوا سفناً حربية لترابط في الخليج ، وكذلك أرسلوا أسطولاً ليهاجم البرتغاليين في (كوا) ، وقد اشتبك الأسطول البرتغالي بالاسطولين الإنجليزي والهولندي عدة مرات في مياه الخليج فقد فيها الطرفان أعداداً كبيرة من جنودهم وسفنهم كما أن (بوتيلو) نفسه أصيب بجرحٍ ، وأخيراً انسحب كل واحد منهم إلى قواعده .

وعلى كل حال فيبدو أن القتال قد أنهك الطرفين ، إذ إننا لم نسمع عن اشتباكات برتغالية بريطانية لفترة من الزمن ، فيما راح البرتغاليون يوطدون أقدامهم في مسقط وجزيرة لارك والبصرة ، كما أنهم تعاونوا في إحدى المرات مع باشا البصرة ضد تحركات قام بها زعماء القبائل في ساحل القطيف والبحرين ، وأخيراً تهادنوا مع الفرس قبل وفاة الشاه عباس الصفوي . ففي حوالي عام ١٦٢٩م عقد روي فيريرا معاهدة مع فارس وافق فيها على عدم إرسال سفنه الحربية إلى البصرة والقطيف لمساعدة الأتراك هناك كما وافق على تقسيم عوائد بندر (كنك) بنسبة ٥٠٪ ، وبالمقابل وافق الفرس على عدم التعرض للمواقع البرتغالية الموجودة في رأس مسندم خاصة في مدينة (خصب) ، كما وافق الطرفان على أن يقوم كل منهما ببناء قلعة أو قلعتين في مدينة جلفار[٥] .

وعندما توفى الشاه عام (١٦٣٠م) فإن الموقف بالنسبة للقوات الأوربية المتصارعة

---

(٤) مصطفى عقيل الخطيب – المصدر نفسه – ص ١٠٠ إلى ص ١٠٤ . وكذلك DANVERS – المصدر نفسه – ص ٢٣ .

(٥) B. F. SLOT – المصدر نفسه – الفصل الرابع ص ٥ .

في مياه الخليج قد هدأ نسبياً ، إذ إن الهولنديين لم يلبثوا أن انسحبوا بعد فترة قليلة من الخليج وتركوا قواعدهم التجارية الموجودة في بندر (ريق) بعد أن طردهم من هناك الأمير مهنا بن ناصر الزعابي(٦) .

أما الإنجليز فقد كانوا يشعرون بدنو أجل البرتغاليين في الخليج ، ذلك أن دولة عربية ، عُمانية ظهرت إلى الوجود عام ١٦٢٤م يرأسها الإمام ناصر بن مرشد اليعربي ، وهي الدولة التي سيقدَّرُ لها أن تنهي قصة الوجود البرتغالي في عُمان والساحل العربي من الخليج العربي ، كما سنرى ذلك في الفصل القادم .

---

(٦) البروفسور ب .ج .سلوت - عرب الخليج - ص ٣٥٥ .

37

الفصل السابع والثلاثون

* نظرة على أحوال عُمان قبل عام ١٦٢٤ .
* انتخاب ناصر بن مرشد اليعربي إماماً على عُمان عام ١٦٢٤ وبداية قيام الدولة اليعربية هناك .
* الإمام يقضي على الزعامات المتفرقة في البلاد ويباشر بحرب التحرير ضد البرتغاليين .
* الإمام يفتح مدن جلفار ودبا ويحاصر صحار .
* ثورة في البرتغال عام ١٦٤٠ ضد اسبانيا والبرتغال تحصل على استقلالها تحت عرش الملك دون جوان الرابع .
* وفاة الإمام ناصر بن مرشد اليعربي عام ١٦٤٩ وولاية ابن عمه سلطان بن سيف اليعربي .
* الإمام سلطان بن سيف يحتل مسقط في شهر يناير ١٦٥٠ ويقضي نهائياً على الوجود البرتغالي في عُمان والخليج العربي .

عندما اتخذ روي فيريرا من مدينة مسقط ومدن الساحل العُماني قواعد عسكرية له كي ينطلق منها لقتال الفرس بغية استعادة هرمز ، فإن عُمان كانت تشهد حالة بائسة من التمزق والتشتت ، إذ لم يبقَ لسلطة بني نبهان الحاكمة هناك من أثر ، ولا معلومات لدينا مَنْ كان الحاكم أو الإمام وكل ما يمكن القول هو أن عُمان كانت مُقسمة سياسياً كما يلي :

١ : مُدن مسقط وصحار وصور وقريات ومطرح وخورفكان ودبا كانت تحت حكم

البرتغاليين .

٢ : مدينة جلفار ومنطقة الصير تحت النفوذ الفارسي والبرتغالي .

٣ : مدن وموانيء ساحل مسندم ومنطقة رؤوس الجبال مثل مُدن (خَصَبْ) و(قدا) وغيرها توجد فيها قواعد بحرية برتغالية .

٤ : مدينة بهلا كانت تحت حكم سيف بن محمد الهنائي .

٥ : مدينة سمائل تحت حكم مانع بن سنان العميري .

٦ : مدن منطقة الظاهرة تحت حكم قبائل الجبور .

٧ : مدينة سمد الشأن تحت حكم علي بن قطن الهلالي .

٨ : مناطق الغبي وعبري وضنك يتحكم فيها زعماء من بني هلال ومنهم قطن بن قطن الهلالي .

٩ : مدينة إبرا تحت حكم محمد بن جفير بن جبر الجبري .

١٠ : منطقة منح تحت حكم النباهنه .

١١ : بلدة أزكى يحكمها أناس يسمونهم أهل الفكر .

١٢ : مدينة النخل تحت حكم سلطان بن أبي العرب اليعربي .

١٣ : مدينة الرستاق تحت حكم مالك بن أبي العرب اليعربي .

١٤ : حصون وقلاع متفرقة هنا وهناك تحت قيادات مختلفة .

وإلى حوالي عام ١٠٣٤هـ - ١٦٢٤م كانت الأوضاع في عُمان وحسب وصف أحد المؤرخين العُمانيين كما يلي :

« وخربت عُمان بعد العدل والأمان ، وعاثت فيها الجبابرة وقل فيها العلم والخير ، وانضمت العلماء في بيوتها ولازمت سربها حتى قيل إن أميراً من الرستاق احتاج إلى قاض فلم يجد قاضياً ، وقيل إنهم استطولوا ليلة من الليالي فظنوا أن ذلك بدء الساعة وبقيتّ عُمان كذلك حتى أظهر الله الإمام الأرشد والهمام الأمجد إمام المسلمين ناصر بن مرشد رحمه الله »[1] .

---

(١) السالمي - المصدر نفسه - ج الاول - ص ٢٨١ .

فمن مدينة الرستاق في عُمان خرج الزعيم الذي سيوحد هذه الأمة الممزقة وهو شاب في الواحدة والعشرين من عمره اسمه ناصر بن مرشد اليعربي ينتسب إلى العائلة الحاكمة في المدينة . وكان هذا الشاب معروفاً بالتقوى والعلم والحزم يسكن في ضاحية اسمها (قصر) من ضواحي بلدة الرستاق ، ويُفهَمُ من أقوال المؤرخين العُمانيين أن ناصر هذا لم يكن زعيماً سياسياً بالمعنى المعروف وإنما توسَّم فيه زعماء البلد الخير ، خاصة الشيخ خميس بن ناصر الشقصي وهو من كبار دعاة الوحدة الوطنية في البلاد فاتفق مع العلماء ورجال السياسة والفكر وشكلوا وفداً لدراسة أوضاع الأمة واختيار القائد المناسب واتفق رأيهم على ناصر بن مرشد ، وفي بيت الزعيم الشاب في ضاحية قصر في بلدة الرستاق قابلوه وطلبوا اليه قيادة الأمة وتوحيدها وانقاذها من التمزق والضلال .

ويقول المؤرخون : « فأجابهم بعد عذرٍ طويل » .

فلما خلصت له البيعة اتخذ راية جديدة ، وشكل وحدات عسكرية قبلية عيّن عليها قادة ممن بايعوه من القضاة والولاة والزعماء وأركان الأمة ، ويعتبر اعتلاء ناصر بن مرشد اليعربي ، السلطة في عُمان عام ١٦٢٤م بداية ظهور الدولة اليعربية هناك[٢] .

لم تكن مهمة هذا الزعيم سهلة يسيرة ، فهو وإن كان قد تلقب بلقب (الإمام) وهو لقب يقابل الملك أو السلطان ، فقد كان عليه حسب المذهب الأباضي القائم في عُمان أن يقوم بتنفيذ واجبين قبل أن تتحقق له شروط الإمامة ، الأول يقضي بتوحيد البلاد وتخليصها من فوضى الزعامات والدويلات ، الثاني تحرير البلاد من (النصارى) أي المستعمرين البرتغاليين والاسبان الذين كانوا يعشعشون في مسقط وسواحل البلاد .

ولكن وعلى الرغم من إجماع مفكري القوم وفقهائهم على إمامة ناصر بن مرشد ، إلا أن الزعامات التي كانت تتحكم في المدن والمناطق المختلفة سرعان ما أعلنت الثورة ضده ، لذلك فقد راح هذا الإمام يكثف جهوده ليتغلب على مشكلة تعدد الزعامات

(٢) عبدالله بن خلفان بن قيصر – سيرة الإمام ناصر بن مرشد – تحقيق عبدالمجيد القيسي – ص ١٤ .

فمن عاصمته الرستاق راح يعمل على جمع الكلمة وإخماد الفتن وتأديب خصومه السياسيين وإخضاعهم لسلطته ، ومنذ عام ١٠٣٤هـ إلى عام ١٠٤٠هـ والرجل يقاتل الزعامات المستقلة المنفردة ويسقطها الواحدة تلو الأخرى ، وظهر له الكثير ممن والاه في أول الأمر ، ثم لم يلبث أن قلب له ظهر المجن وأعلن الثورة ضده ، فكانت السنوات الست الأولى من حكمه سنوات بناء الجبهة الداخلية[٣] .

ولعل أخطر معركة خاضها هذا الإمام ضد خصومه ، هي المعركة التي وقعت ضد مانع بن سنان حاكم مدينة سمائل الذي شق عصا الطاعة واتصل بزعيم آخر هو سيف بن محمد الهنائي حاكم مدينة (بهلا) ، إلا أن الإمام تصدى لهما وهزمهما ، فهرب مانع بن سنان إلى مسقط وطلب اللجوء والمساعدة من البرتغاليين كما لجأ أخوه سيف بن محمد إلى البرتغاليين في مدينة صُحار ، إلا أن الإمام لم يُمهل المتآمرين اللاجئين عند البرتغاليين فهاجم صحار ، وكان المتآمرون قد اعتصموا في (منفل مقرن) إلا أن قوات الإمام هزمتهم هناك ، ولما كان مانع بن سنان العميري لا زال في مسقط في حماية البرتغاليين ، فإن الإمام قرر أن يضربه في عقر داره ، فتقول المصادر العُمانية ، إن الإمام جهز جيشاً بقيادة مسعود بن رمضان وأمره أن يهاجم المدينة ، فتحشد الجيش العُماني في (طوى الرولة) قرب مدينة (مطرح) ، وهناك خرجت لهم وحدة عسكرية برتغالية إلا أن الجيش العُماني هزمها وأجبرها على التقهقر إلى داخل القلعة في المدينة ، كما أن مدفعية العُمانيين راحت تصب نيرانها على أبراج القلعة فهدمت بعض أجزائها ، ثم أن البرتغاليين طلبوا الصلح فوافق الإمام على ذلك ، فما كان من مانع بن سنان إلا أن هرب إلى مدينة (دبا) ومنها إلى (صُحار) ، إلا أن قوات الإمام كانت له بالمرصاد حيث أطبقت عليه هناك وأهلكته[٤] .

كانت الخطوة الثانية للإمام ناصر بن مرشد اليعربي هي أن يقوم بتحرير عُمان من

---

(٣) السالمي – المصدر نفسه – ج ٢ – ص ٧ . وكذلك ابن رزيق – الشعاع الشائع باللمعان – ص ٨٩ . وكذلك ابن رزيق – الفتح المبين – ص ٢٦٢ . وكذلك سرحان بن سعيد الأزكوي – كشف الغمه – ص ٩٥ .

(٤) السالمي – المصدر نفسه – ص ١٣ . وكذلك قيصر – المصدر نفسه – ص ٤٣ .

الوجود البرتغالي والفارسي الموجود على أراضيها ، ولم تكن الظروف التي كانت سائدة في عُمان آنذاك مساعدة له كما ساعدت في السابق الشاه اسماعيل في حربه ضد البرتغاليين ، أي أن العرب لم يتحالفوا مع أية قوة خارجية أجنبية لمساعدتهم في حربهم ، كما أن حركة التحرير العُمانية هذه تمت أثناء مصالحة البرتغاليين والفرس ، لكن عزيمة الإمام وحُسن قيادته دفعتا به إلى المباشرة بالتعرض للوحدات والقلاع والحصون البرتغالية ، وذلك بعد أن انتهى من توحيد عُمان تحت راية واحدة . ويجب أن نذكر هنا بأن سلسلة المعارك الباسلة التي خاضها هذا الإمام ضد البرتغاليين اعتباراً من معركة تحرير جلفار إلى بقية المعارك في بقية المدن خاصة دبا وخورفكان وصحار والتي تم تحرير معظمها ، فإن اخبارها موجودة في كتب المؤرخين والرواة العُمانيين فقط ، ولا توجد إلا إشارات عابرة لها في المصادر البرتغالية ، ما عدا معركة تحرير مسقط ، لذلك فإن تفاصيل سلسلة المعارك العُمانية ضد البرتغاليين والتي سنسردها في هذا الفصل ، إنما تعتمد على المصادر العُمانية مع بعض التأكيد في مصادر هولندية كانت قريبة من أماكن وقوع المعارك .

ويشرح البروفسور (أنطونيو دياس فارينها ANTONIO DIAS FARINHA) من جامعة لشبونة والخبير المعاصر في التاريخ البرتغالي سبب اخفاق المؤرخين البرتغاليين وتقصيرهم ، في الحديث عن تلك الفترة بقوله : « إن سبب إخفاق البرتغاليين في الاهتمام بتدوين احداث أيامهم الأخيرة في عُمان ووضع تاريخ مفصل لها هو أن المشاكل كانت قد انهالت على البرتغاليين من كل جانب ، فإن الأساطيل الإنجليزية والهولندية راحت تدك عاصمتهم (كَوا) في الهند ، فقطعت عليهم سُبُل التجارة والمواصلات مع الوطن ، كما أن المشاكل الداخلية في البرتغال قد ظهرت على السطح وتفاقمت ، إذ إن حركة سياسية قوية وبوادر عصيان مسلح وحرب أهليه كانت قائمة هناك ضد التسلط الاسباني على البرتغال ، كما انّ وفاة قائد القوات البرتغالية في الخليج (روي فيريرا) عام ١٦٣٢م ، وهو القائد الذي اشتهر بمقدرته العسكرية

المتفوقة ، قد أفقد القوات البرتغالية الكثير من معنوياتها وقوتها السابقة »(٥) .

وقد وجدنا ذكراً للإمام العُماني عند المؤرخ البرتغالي أنطونيو بوكارو في مؤلفه (DECADO XIII DE HISTORIS DA INDIA) الصادر في مجلدين في لشبونة عام ١٨٧٦م وقد وصف صعود نجم الإمام بهذه السطور : « لقد جعل هذا الإمام من نفسه منذ سبع سنوات أقوى حاكم في جميع أنحاء الجزيرة العربية ، بمناصرته للشريعة المحمدية الذي كان نفسه من أشد المتمسكين بها ، وكان مقر حكمه في نزوى وهي أكبر مدن الجزيرة العربية بأسرها ، وتقع على مسافة أربعة أيام إلى الساحل من مسقط باتجاه الغرب ، وتحت أمرة هذا الإمام حوالي ١٤ر٠٠٠ أو ١٥ر٠٠٠ من المقاتلين ذوي المهارة العالية ، وليس هناك شك في أن بمقدوره أن يزيد هذه الاعداد بأعداد أكثر إذا ما أراد أن يدعو الناس إلى الجهاد إذ أنهم ملزمون ديناً وعرفاً بطاعته ، وكل هؤلاء المقاتلون يحملون سيوفاً عريضة النصال كما أن فرسانهم مزودون بالرماح والسهام ، ومقاتلوهم يركبون الجمال التي لا تقل عن الجياد استعداداً للقتال نظراً لسرعتها وقوة تحملها حيث يمكنها البقاء يومين أو ثلاثة أيام دون أن تشرب المياه ، كما أنها تستهلك من الطعام أقل بكثير مما تستهلكه الجياد ، وعلى كل حال فإن هؤلاء الفرسان سواء كانوا على ظهور الجمال أو الجياد لا يشكلون أي تهديد على مسقط ، بسبب منحدراتها الحادة التي لا يمكن اجتيازها ، لكن الخطر يأتي من الجنود الراجلين فهم يتميزون بخفة الحركة تماماً لاعتيادهم على تسلق الجبال والصخور ، وهو ما يفعلونه بسهولة ، وبالنسبة لشيوخ القبائل الذين يمتلكون الجياد أو الجمال ، فإن من يملك أكثر يكون موضع احترام وطاعة أكثر ممن يملك أقل منها ، ولكن ليس هناك من بين زعمائهم من يمكن مقارنته بالإمام إذ ليس هناك في كل الجزيرة من يمكن أن يساويه أو يطاوله في مكانته ، كما أن الجياد في هذا الاقليم من الجزيرة العربية (عُمان) تعتبر أفضل وأقوى الجياد في الشرق كله ، إن حالة الصداقة والسلام التي تربط هذا الإمام بالبرتغاليين هي حالة محفوفة بالمخاطر للغاية وتتصف بالتدهور السريع ، نظراً لأنه يعلن على الملأ أنه هو الذي سيرفع

(٥) مقابلة خاصة جرت في أبوظبي مع البرفسور فارينها في شهر كانون ثاني ١٩٨٩ .

راية الشريعة المحمدية ، فهو يقول إنه بناءً على معتقدات دينه فإنه ملزم بحرب المسيحيين حرباً دائمة ، ورغم أنه يعقد في بعض الأحيان سلاماً مع حكومة الهند ، إلا أنه لا يحفظ هذا السلام لفترة طويلة على الإطلاق ، بل يُبقي عليه بقدر ما يكون ملائماً له ، وبقدر ما يعتقد أننا أقوياء بالدرجة التي تجعلنا ننجح في الوقوف في وجهه»[٦] .

إن المصادر العُمانية تذكر أن مدينة (جلفار) كانت أول المدن العُمانية التي تم تحريرها وانتزاعها من يد الأجانب ، حيث كان فيها حصنان واحد برتغالي والثاني فارسي ، فقد أمر الإمام بتشكيل جيشين لهذا الغرض عهد بقيادة الأول إلى القائد علي بن أحمد بن عثمان النزوي والثاني إلى ابن عمه أبي العرب سلطان بن سيف ، وتحرك الجيشان متجهين نحو أهدافهما ، ويؤرخ لها أهل عُمان للمعركة بأنها جرت عام ١٠٤٠هـ وهو ما يوافق عام ١٦٣١م تقريباً .

كان هدف الهجوم الأول هو الحصن الفارسي الذي كان فيه الأمير ناصر الدين العجمي ، وعندما باشر الطرفان القتال ، استمرت المعركة مدة يومين أوشك العجمي على الاستسلام ولكن وفجأة بوغت العُمانيون بنيران مدفعية كثيفة تنطلق نحوهم من الحصن البرتغالي المجاور للحصن الفارسي ، إلا أن هذا الهجوم المباغت والغادر من قبل البرتغاليين لم يؤثر على عزيمة العُمانيين الذين سرعان ما اقتحموا الحصن الفارسي وأسقطوه ، وعندما وصل خبر سقوط الحصن الفارسي بيد العرب ، أصدر الإمام أوامره إلى القائد علي بن أحمد بالبقاء في جلفار ، ثم أمر بتشكيل جيش من قبيلة (الدهامشه) بقيادة الشيخ خميس بن مخزوم ليذهب إلى جلفار ويقاتل البرتغاليين وقد تمكن هذا الجيش من احتلال الحصن البرتغالي هنـــاك .

ويؤكد هذا الهجوم العُماني مصدر هولندي أيضاً منقول عن سفينة هولندية تجارية كانت راسية في جلفار يوم هجوم العرب عليها ، إذ أرسل قائدها رسالة مؤرخة في

---

(٦) بروفسور : س . بوكسر C. BOXER – مقال بعنوان ملاحظات جديدة عن الصلات بين العُمانيين والبرتغاليين ١٦١٣ – ١٦٣٣م – منشور في كتاب حصاد ندوة الدراسات العُمانية – نوفمبر ١٩٨٠م .

عام ١٦٣٣م قال فيها : « إن جلفار التي كانت تحت حكم ملك اسبانيا قد هاجمها العرب وإنهم احتلوا القلعة البرتغالية فيها ، وإن خسائر البرتغاليين بلغت ما بين ثلاثين إلى أربعين قتيلاً وإن بقية جنود القلعة قد هربوا إلى مسقط[٧] .

وفي هذا النصر قال عبدالله بن خلفان بن قيصر الذي أرخ سيرة الإمام ناصر بن مرشد :

إمام زكي إذا ما أتى ... تخر الملوك له سُجَّدا
جرى الآن بالصير ما قد جرى ... من القتل بين الملا سرمدا
وزلزلت الأرض واشتد حرب ... بضرب المدافع لما اعتدى
وظن النصارى وأشياعهم ... بلوغ المُنى من إمام الهدى
فخيب ذو العرش آمالهم ... بدنياهم هذه بل غدا

وهكذا فما إن تم تحرير جلفار حتى أصدر الإمام تعليماته إلى جيش الدهامشة بقيادة الشيخ خميس أن يتوجه إلى مدينة دبا وأن يحتل الحصن البرتغالي الموجود فيها ، وتمكن القائد المذكور من طرد البرتغاليين الموجودين في المدينة وأجبرهم على الهرب واللجوء إلى قلعتهم ، ثم قام بمحاصرة القلعة التي استسلمت بعد حين أيضاً .

وفي هذا النصر قال ابن قيصر :

بأرض دبا لقد وقعت حروب ... تكاد الصياخد أن تلينا
لقد قدت بها هامات قوم ... وأودوا في الضريح ملحدينا
وكان النصر للإسلام فيها ... على قوم النصارى المعتدينا
فأصبحت البلاد ومن عليها ... لناصر بن مرشد خاضعينا
كذلك من حباه اللهُ نصراً ... تصير له الخلائق طائعينا

ثم قرر الإمام اليعربي أن يقترب بقواته من مدينة (صحار) التي يعتبرها البرتغاليون إحدى قواعدهم القوية هناك وكانت خطته ضرب المتعاونين من العرب مع

---

(٧) المصادر العُمانية السابقة نفسها وكذلك تقرير (B.J. SLOT) الفصل الرابع .

البرتغاليين ، ثم بناء قاعدة وقلعة هناك لتقف بوجه القلعة البرتغالية ، ثم القيام بمناوشات وهجوم على الثكنة البرتغالية ، فأصدر أوامره إلى القائد حافظ بن سيف بالتوجه إلى صحار على رأس جيش من قبائل بني لام وبني خالد والعمور ، وما إن شعرت القوات البرتغالية باقتراب الجيش العُماني حتى تهيأت للقتال ، فاشتبك الطرفان في معركة أجبرت البرتغاليين على الإنسحاب داخل الحصن فيما قامت القوات العُمانية بفرض الحصار ، وجرت معارك بالمدفعية بين الطرفين وشدد العرب هجماتهم ، وفي إحدى معاركهم فقدوا القائد راشد بن عباد ، ولما أنهى القائد العُماني بناء القلعة أمر جنوده بالإنسحاب إليها ومن هناك راح يراقب الحصن البرتغالي الذي كان محاصراً من البر ، وبقيت المدينة محاصرة من قبل العرب لمدة عام تقريباً .

ثم قامت قوات الإمام بمهاجمة الحامية البرتغالية في مدينة قريات وأنزلت بها هزيمة وحررت المدينة إلا من قلعة واحدة بقيت بيد البرتغاليين .

ثم أمر الإمام بتشكيل جيش بقيادة الشيخ خميس بن سعيد الشقصي لمحاربة العدو في مسقط فتقدم الجيش نحو منطقة (بوشر) التي تبعد سبعة أميال عن مسقط وتوقف لغرض إعادة التنظيم ، كما أنه أرسل كتائب لتذهب إلى مدينة مطرح لمقاتلة البرتغاليين هناك .

وما إن شعر القائد البرتغالي العام في مسقط بحركة هذه الجيوش ، حتى أرسل وفداً ليفاوض القائد الشقصي الذي كان قد تقدم بقواته إلى مناطق أقرب إلى مسقط ، بحيث حاصرها من جانب البحر أيضاً ، وتذكر لنا المصادر العربية أن الشقصي وافق على عقد معاهدة صلح مع الحاكم البرتغالي في مسقط .

وبالنسبة إلى معاهدات الصلح هذه التي نَـوَّه عنها البرتغاليون أيضاً فلقد ذكر العُمانيون أن أول معاهدة عقدها الإمام كانت عند الهجوم الأول على حصون مسقط كان من شروطها :

١ : أن يتنازل البرتغاليون عن الأراضي والمباني العائدة لهم في مدينة صحار .

٢ : أن يحتفظ البرتغاليون بوجودهم في مدينتي مسقط ومطرح .
٣ : أن يقوم البرتغاليون بدفع الجزية للإمام مقابل ذلك .

أما بالنسبة للمعاهدة الجديدة مع الشقصي ، فقد وافق البرتغاليون على دفع الجزية للإمام وكذلك دفع المتأخرات التي توقفوا عن دفعها خلال الأعوام السابقة .

إلا أن الإمام لم يكتف بهذه المعاهدة بل قرر الاستمرار قدماً في تحرير البلاد ، ذلك لأن المناخ السياسي العام في داخل البرتغال أصبح خطيراً إذ شهد عام ١٦٤٠م ثورة كبرى حدثت في داخل العاصمة لشبونة للتخلص من حكم الاسبان ، قادها (دوق أوف براكانزا) من داخل مدينة (إيفورا) البرتغالية وراح يهاجم الوحدات الاسبانية الموجودة في البلاد وتمكن في الأول من ديسمبر من عام ١٦٤٠م من أن يصل إلى أبواب لشبونة العاصمة ، والتي ما إن شعرت به حتى خرج أهلها بما يملكونه من سلاح وهاجموا قلعة (سان جورج) وهي مقر الحاكم الاسباني ، ثم حدثت معركة عظيمة في شوارع المدينة بين الأهالي والجنود الاسبان انتهت باستسلام القوات الاسبانية يوم ٣/ ١٢/ ١٦٤٠م ، وسرعان ما دقت أجراس الكنائس وأعلنت البرتغال ميلادها الجديد كدولة مستقلة تحت قيادة الملك دون جوان الرابع (JOAO IV)[٨] .

وتذكر المصادر البرتغالية في أخبار ذلك العام أن الموظفين العرب الموجودين في دائرة جمارك مسقط كتبو إلى الإمام يشرحون له ما حدث في البرتغال ويؤكدون له أن الوحدة العسكرية الموجودة في مسقط في حالة ضعف شديد ، وانه آن الاوان لمهاجمتها وتخليص المدينة منها ، لذلك أمر الإمام بشن هجوم على مسقط ، إلا أن الحامية البرتغالية تمكنت من صد الهجوم ، وتعترف المصادر البرتغالية أن الإمام هاجم مدينة صحار المجاورة لمدينة مسقط في السابع من نوفمبر ١٦٤٣م وأنه تمكن من احتلال المدينة ، وقتل عدداً كبيراً من جنود حاميتها وأسر ٣٧ برتغالياً[٩] .

---

(٨) DANVERS – المصدر نفسه – ص ٢٧٢ .

(٩) المصدر نفسه أعلاه .

أما خبر المعاهدة التي عقدوها مع العرب فيقول البرتغاليون إنه في يوم ١٦/ ٨/ ١٦٤٨م قامت قوات عربية عُمانية بقيادة (سعيد بن خليفه) بحصار مسقط ، ودارت معارك بين الطرفين استمرت إلى يوم ١١/ ٩ تقريباً عندما أرسل قائد الحامية رسالة إلى حاكم المدينة ، بأنه أوشك أن يستنفذ كل العتاد الموجود لديه ، فوافق حاكم مسقط على الدخول في مفاوضات للصلح مع العُمانيين .

وقد تقدم العُمانيون بمطالبهم التي كانت تنص على أن تستسلم الحاميات البرتغالية الموجودة في بعض المدن العُمانية وأن تُهدَّمُ قلاع وحصون تلك الحاميات كما يجب على البرتغاليين عدم التعرض للقلعة العُمانية الموجودة في مدينة (مطرح) ، كما طالبوا بأن لا يدفع التجار العُمانيون أية رسوم جمركية للسلطات البرتغالية الموجودة في مسقط ، وكان آخر شرط عند العُمانيين هو أن يقوم البرتغاليون بتهديم سور مسقط وإزالته من الوجود ، فإذا نفذ البرتغاليون هذه الشروط فإن الإمام سيقوم بدفع مبلغ (٢٠،٠٠٠ باردوس PARDAOS) للبرتغاليين تعويضاً لهم عن أضرار الحرب .

فلما وصلت تلك الشروط إلى حاكم مسقط والمسؤول المالي فيها وكان اسمه (جوليا دي نورونها DOM JOLIAO DE NORONHA - CAPTIN GENERAL AND VEDOR OF FINANCE OF MUSCAT) .

لم يوافق عليها ، إلا أن الأنباء التي وصلت اليه أفادت أن كافة الجبال المحيطة بمسقط قد امتلأت بالمقاتلين العُمانيين ، وأزاء إحكام العرب الحصار على مسقط وانعدام قدرة الحامية البرتغالية على القتال ، فإنه وافق يوم ٣١/ ١٠/ ١٦٤٨م على الدخول في مفاوضات مع العرب ، فاجتمع الطرفان واتفقا على ما يلي :

١ : أن يقوم البرتغاليون بتهديم قلاعهم في مدن قريات ومطرح وصحار .

٢ : يقوم العُمانيون كذلك بتهديم قلاعهم الموجودة في مدينة مطرح .

٣ : تبقى مدينة مطرح مستقلة بذاتها لا تخضع لحكم الإمام أو لحكم البرتغاليين لذلك فإنه يمكن للطرفين المرور بها بجنودهم واسلحتهم أو

بضائعهم التجارية .

٤ : يمكن للسفن العُمانية الإبحار بحرية تامة إلى جميع الأماكن ، ما عدا المناطق التي تسيطر عليها قوات ملك البرتغال فلا يجوز الدخول اليها إلا بإذن مسبق .

٥ : أما بالنسبة لدفع الرسوم الجمركية في مسقط ، فقد وافق حاكم مسقط على إعفاء التجار العُمانيين الذين يستخدمون الميناء من دفع الرسوم الجمركية ، كما وافق على أن يقوم هؤلاء التجار بتصريف بضائعهم بحرية هناك .

٦ : يقوم العُمانيون بتهديم كافة الحصون والقلاع التي بنوها حوالي مسقط خلال فترة حصارهم لها ، على أن لا يقوم البرتغاليون باعادة بنائها واستخدامها لأغراضهم الخاصة .

وعندما وصلت تلك المعاهدة إلى لشبونة وقام الملك بالإطلاع عليها غضب غضباً شديداً وأمر باعتقال (جوليا دي نورونها) حاكم مسقط وتقديمه لمحكمة عسكرية ، ففي رسالته المؤرخة ١٦/ ١/ ١٦٤٩م أمر بتعزيز القوة العسكرية الموجودة في مسقط بأعداد من السفن والجنود ، على أن تقوم هذه القوة باعادة احتلال مدن صحار وقريات ومطرح ، كما أكد على ضرورة تقوية القاعدة العسكرية الموجودة في مدينة (خصب) في منطقة رؤوس الجبال في رأس مسندم عند مدخل الخليج العربي ، وشدَّد في رسالته أيضاً على ضرورة مراقبة كل العرب الذين يعيشون في مدينة مسقط ، حيث قال إنهم يعملون جواسيس للإمام[١٠] .

ولكن رغم ذلك فإنه لم يبق بيد البرتغالين في عام ١٦٤٩م من الأراضي العُمانية ، إلا مدينة مسقط والقاعدة البحرية في مدينة خصب .

وفي ذلك العام انتقل إلى رحمة الله الإمام ناصر بن مرشد اليعربي مؤسس الدولة

---

(١٠) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٢٩٦-٢٧٠ .

اليعربية في عُمان والبطل الذي صارع البرتغاليين وكسر حاجز الرهبة والخوف منهم ، إلا أنه مات ولم تسعد عيناه برؤية آخر جندي برتغالي يرحل عن بلاده ، وبوفاته يوم ٢٤/ نيسان/ ١٦٤٩م ، عقد أهل عُمان البيعة إلى ابن عمه وقائد جيوشه سلطان بن سيف بن مالك اليعربي .

فلما آل الأمر إلى الإمام الجديد واستلم مقاليد الحكم فإن أول ما فعله هو أنه باشر بوضع الخطط الحربية اللازمة لمهاجمة مسقط وانتزاعها من يد البرتغاليين وتحريرها . وتصف لنا المصادر العُمانية ذلك بأن الوحدات العسكرية البرتغالية الموجودة في عُمان كانت مكونة من كتائب من الجنود البرتغاليين وكتائب مرتزقة من الهنود من (هند جوه) أي (كَوا) وكانت تلك الوحدات قد اتخذت مواضع دفاعية لها خارج المدينة في التلال والجبال المحيطة بها ، أما قلعتا مسقط (كابيتان) و(سانت جوا) فقد كانتا بمثابة مقرات للقيادة العامة والتموين ومدفعية الساحل ، وقد كانتا محصنتين تحصيناً جيداً وقوياً ، وتوزع المشاة البرتغاليون والهنود على جبال السعالي والمكلا ، وكان أمنع حصونهم الجبلية حصناً يسمى (المربع) حيث كان يسيطر على طريق التقرب الرئيسي من المدينة ، وقد سده البرتغاليون بسلسلة حديدية .

كان الإمام الجديد قد بدأ يحشد جيشه في منطقة اسمها (طوى الرولة) وهي منطقة تمتد من بلدة مطرح إلى منطقة سد روى ، فلما أتم تحشده هناك اتخذ من منطقة طوى الروله قاعدة متأخرة له وتقدم بوحداته المحاربة إلى منطقة التجمع والوثوب في سيح الحرمل ، ومن هناك أصدر أوامره بالهجوم ، فتقدمت قواته واحتلت أول أهدافها وهي مجموعة تلال تسمى (بير الراويه) ، لكنهم جوبهوا بنيران شديدة من بنادق البرتغاليين اجبرتهم على التبعثر والإنسحاب ، وقد حدث الشيء نفسه للموجة الثانية من الهجوم العُماني ، حيث أجبرت القوات العُمانية على التوقف ثم الإنسحاب ، مما اضطر الإمام إلى اصدار أوامره بالكف عن الهجوم ، فاستغلت القوات البرتغالية تلك الفرصة وانسحبت بشكل سريع إلى داخل مدينة مسقط ولجأت إلى قلعتيها وسدت

أبوابها ، فسارع العُمانيون بالدخول إلى مدينة مسقط ومحاصرة القاعدتين البرتغاليتين ، وقاموا بالإقتراب من أسوار القلعتين وتحدي الموجودين فيها للنزول إلى الخارج للمبارزة ، لكن البرتغاليين لم يكونوا يجرؤون على ذلك . وتستمر الرواية العُمانية بسرد القصة ، فتقول إن الحصار انتهى بنصر حاسم للإمام عندما اتفق مع رجل هندي اسمه (ناريتم) كان يشغل منصب ضابط مستودعات القلعة ، وكان القائد البرتغالي قد طلب يد ابنته ، ولم يكن الهندي راضياً بهذا الزواج فاتصل سراً بالإمام الذي أوعز له بأن يفسد مخزون البارود في مستودعات القلعة على أن يكون ذلك مساء السبت أي ليلة الأحد ، وقد فعل ناريتم ما طلب منه الإمام مساء ذلك السبت الذي صادف عيداً للنصارى فاحتسى الجنود البرتغاليون الخمر ورقصوا طول الليل ، وفي الساعات المبكرة من صباح الأحد المصادف لليوم العاشر من رجب سنة ١٠٥٩هـ (ولعله كان يوم السنه الميلادية الجديدة ١٦٥٠م) قام الإمام بتأدية صلاة الفجر مع قادة جيشه وعندما أتمها أصدر أوامره بالهجوم ، فاندفعت حشود المقاتلين العُمانيين وعرب المنطقة تكتسح كالموج الهادر الحصون والمنعات والجدران التي تساقطت تحت ضرباتهم الساحقة وتسلقوا جدران القلعتين واقتحموها وأعملوا السيف برقاب البرتغاليين والهنود ، وكان من أصلب جيوب المقاومة البرتغالية هي الوحدة التي كان يقودها الضابط (كبريته) ولكنه اضطر أخيراً إلى الإنسحاب إلى داخل أسواق مدينة مسقط حيث أطبق عليه المقاتلون العُمانيون هناك وقتلوه وجميع من معه ، وكانت نتيجة المعركة أن القوات العُمانية أبادت المعسكر البرتغالي في مسقط عن بكرة أبيه إذ لم يتمكن من الإفلات منه إلا نفر قليل هرب قسم منه إلى الهند والآخر إلى حصن برتغالي آخر بالقرب من مطرح ، فدخل الإمام القلعتين فاتحاً وطهرهما وأسماهما (الميراني) و(الجلالي) ثم لم يلبث أن أتاه وفد من القلعة البرتغالية في مطرح وهم يرفعون الراية البيضاء علامة التسليم .

ويذكر لنا المؤرخون العمانيون أنه لم يبق من البرتغاليين إلا ستين أو سبعين برتغالياً

أعتنقوا الإسلام وذابوا في المجتمع الجديد[١١] .

أما المصادر البرتغالية فتصف لنا ما حدث في مسقط كما يلي :

في يوم ١٨/ ١/ ١٦٥٠م استلم نائب الملك البرتغالي في الهند رسالة من مدينة (ديو) تفيد بأن مركباً قد وصل إلى هناك من مدينة مسقط وعلى ظهره (٧٠٠) جندي برتغالي تمكنوا من الهروب من المدينة التي تمكن العرب من اقتحامها بعد أن حاصروها مدة من الزمن ، وأن القوات الفاتحة قد أبادت بشكل تام تقريباً الحامية الموجودة في القلاع هناك ، وأن حاكم مسقط كان قد نظم دفاعاته عن المدينة في الخارج إلا أنه اضطر إلى الإنسحاب إلى داخل المدينة بعد أن هاجمته القوات العُمانية وهو في مراكزه الجبلية خارج المدينة وأجبرته على الإنسحاب إلى داخل القلاع ، ولكنه فوجيء وهو في القلاع بأن العُمانيين الذين كانوا يعملون معه ، قد شهروا السلاح بوجهه في داخل القلعة ، كما علم بأن الأسطول البرتغالي الموجود في مسقط ليدافع عنها قد هرب إلى الهند ، وأن قائد الاسطول (براز كالديريا دي ماتوس BRAZ CALDEIRA DE MATTOS) موجود في مدينة (كوشن) الهندية ، وقد حاول قائد حامية مسقط أن يطلب العون من حاكم جزيرة هرمز الفارسي ، إلا أن الحاكم لم يسعفه لذلك فإنه اضطر إلى التسليم[١٢] .

وهكذا تم تحرير التراب العُماني من البرتغاليين منذ أن دخلوا البلاد عام ١٥٠٧م إلى عام ١٦٥٠م .

ويعترف البرتغاليون بأن سقوط مسقط أدى إلى انهيار تام للوجود البرتغالي في الخليج العربي ، ولم يبق لهم هناك إلا قاعدة صغيرة مختفية في المناطق الساحلية الجبلية الوعرة في مدينة خصب ومنطقة كمزار في ساحل مسندم وقد حاولوا بعد هذا استعادة مسقط إلا أنهم فشلوا . وعموماً يمكن القول بأنه وعملياً فإن قصة استعمار

(١١) المصادر العُمانية السابقة نفسها . السالمي – ص ٤١ – ٥٨ . ابن رزيق – ص ١٨٤ – ٢٩١ . الأزكوي – ص ١٠٨ .

(١٢) DANVERS – المصدر نفسه – ص ٢٩٨ .

البرتغال لآخر قطر عربي قد انتهت في عام ١٦٥٠م ، بل إن قصة النهاية للبرتغال كدولة عالمية مستعمرة قد انتهى أيضاً منذ ذلك العام .

وفي قصيدة للشيخ محمد بن مسعود الصارمي يذكر في بعض أبياتها تحرير مسقط فيقول :

فامتثلوا الأمر ولا قصروا — وجردوا أسيافهم والرماح
واقتحموا السور كأسد الفلا — واشتدت الحرب وضرب الصفاح
كأنما القتلى بأرجائها — من فئة الافرنج صرعى طراح
كأنهم أعجاز نخلٍ بها — مقعر من عاصفات الرياح
فانهزم الافرنج من بتة — بالذل والخزي والافتضاح
بعزم سلطان بن سيف الذي — أباد أهل الكفر يوم الكفاح

38

الفصل الثامن والثلاثون

* محاولة برتغالية لاسترداد مسقط عام ١٦٥٢ .
* وفاة الإمام سلطان بن سيف وخلافة ابنه بلعرب ثم ابنه الآخر سيف بن سلطان .
* يف بن سلطان يشتبك مع البرتغاليين في ممباسة وينتزع المدينة منهم في معركة قلعة يسوع عام ١٦٩٩ .
* هجمات البحرية العُمانية على القواعد البرتغالية في الهند .
* عُمان على أيام السلطان اليعربي الخامس سيف بن سلطان .
* نهاية قصة العرب والبرتغال في التاريخ .

قبل أن تصل أنباء تحرير مسقط وهزيمة القوات البرتغالية في عُمان إلى الهند ، كان نائب الملك هناك قد تبدل ثلاث مرات تقريباً وذلك بسبب سوء الإدارة وضعف القوات البرتغالية وكثرة المشاكل الداخلية .

وفي عام ١٦٥٢م استلم نائب الملك (فاسكو ماسكارانهاس DOM VASCO MASCA-RANHAS) أمراً بأن يسترجع مسقط مهما كلف الأمر . ولم تكن لشبونة تدرك عمق الثغرات السياسية والاجتماعية والعسكرية التي حدثت في الهند كما أنها لم تعلم بأن الدولة اليعربية الجديدة قد قامت في عُمان على أسس عسكرية فعالة ، وأنها ستصبح عما قريب دولة ذات قوة بحرية قوية تتجول سفنها من سواحل الهند إلى سواحل أفريقيا بحثاً عن القواعد والسفن البرتغالية لتحطيمهما . وعندما استلم (ماسكارانهاس) الأمر أرسل سبع سفن مقاتلة وصلت أولاً إلى ميناء (كنج) في

فارس ، حيث كانت هناك ممثلية تجارية برتغالية صغيرة ، وبعد أن تزودت بما تحتاج إليه ذهبت إلى ساحل القطيف ، ثم توقفت في منطقة (لارا) الفارسية .

وعندما كانت في (لارا) علم العُمانيون بأمرها فجهزوا أسطولاً قوياً توجهوا به نحو (كنج) حيث تقع الممثلية التجارية البرتغالية وقاموا بتدميرها وعندما سمعت السفن البرتغالية بذلك هربت إلى بلدة (خصب) في رأس مسندم واختفت في الأخوار بين السواحل الجبلية الوعرة هناك ، بينما راح نائب الملك في الهند يضع خططاً جديدة لاعادة احتلال مسقط ، وإرسال تقويات إلى السفن المختبئة في خصب . بحيث صارت خصب قاعدة بحرية برتغالية سرية[1] .

وكانت سفن العُمانيين تجوب السواحل الأفريقية في مناطق (باتا) و(ممباسة) و(زنجبار) وتصطدم بين الفينة والفينة بسفن برتغالية ، لكنها لم تكتشف القاعدة السرية الموجودة في خصب ، فيقول تقرير هولندي عن المنطقة عام ١٦٥٤م إن البرتغاليين كانوا يشاهدون في مناطق (كمزار) و(شابوص) و(خصب) و(قدا) في رؤوس الجبال ، وأن القائد البرتغالي هناك كان (أندريا ساردانا ANDRIES SARDANGH) . كما أن الهولنديين تركوا لنا وصفاً لمسقط بعد تحريرها ، وقاموا بزيارتها وقابلوا الإمام سلطان بن سيف وعرضوا عليه مساعدتهم ضد البرتغاليين وأن الإمام أرسل رساله جوابية إلى (هندريك فان مرك) في بوشهر يرحب بالتعاون التجاري مع هولندا[2] .

وعندما وصلت التعزيزات إلى الأسطول البرتغالي الموجود في خصب ، فإن القائد أعاد تنظيم نفسه وتحرك يوم ١٦/ مارس/ ١٦٥٢م متوجهاً إلى مسقط بغية احتلالها ، وتفيد المصادر البرتغالية أن الأسطول أوشك على النجاح في مهمته لولا أن تصدى له أسطول عُماني ضخم ، كما أن المدفعية العُمانية الموجودة في القلاع راحت تصب نيرانها عليه وأجبرته على الفرار . وعلى كل فإن المصادر الهولندية المتوفرة لدينا تعتقد

(١) DANVERS - المصدر نفسه - ص٢٩٩ .

(٢) B.J. SLOT - المصدر نفسه - الفصل الخامس - ص ٥ .

بأن القاعدة البرتغالية السرية الموجودة في (خصب) من منطقة رؤوس الجبال ورأس مسندم العُمانية في مدخل الخليج العربي قد انتهت بصورة تامة في حوالي عام ١٦٥٥م .

كانت القوة البحرية العُمانية قد أخذت بالصعود والتعاظم على عهد ملوك الدولة اليعربية وهُم الإمام سلطان بن سيف اليعربي ، الذي انتقل إلى رحمة الله عام ١٠٩١هـ - ١٦٨٠م وخَلَفهُ ابنه بلعرب بن سلطان بن سيف اليعربي الذي حكم إلى عام ١١٠٢هـ - ١٦٩٠م ، وبعدها اعتلى العرش الإمام اليعربي الرابع سيف بن سلطان بن سيف اليعربي الملقب (قيد الأرض) .

وفي خلال تلك الفترة نقل لنا المؤرخون العُمانيون أن هجوماً عُمانياً تم شنه على قاعدة (ديو) البرتغالية في الهند عام ١٦٥٦م ، إلا أننا نعتقد أن هذا التاريخ غير صحيح ، فإن الهجوم على (ديو) تم على عهد الإمام اليعربي الرابع ، إذ شهدت أيام هذا الإمام معارك بين السفن العُمانية والسفن البرتغالية . ففي عام ١٦٩٤م حدث صدام بين سفن عُمانية وبرتغالية قرب مدينة (باسين) على ساحل الهند وكذلك في جزيرة اسمها (سالت) ، وفي سنة ١٦٩٥م هاجم العُمانيون المركز البرتغالي في (كنج) على الساحل الفارسي .

وكانت أعظم معارك هذا الإمام ضد البرتغاليين قد جرت في ممباسة على الساحل الأفريقي فقد تمكن من انتزاع المدينة منهم في معركة (قلعة يسوع FORT JE-SES) . إذ أعد حملة مكونة من ثلاثة آلاف جندي عُماني غادرت أرض الوطن في شهر آذار من عام ١٦٩٦م على متن سبع سفن لتقوم بمهاجمة القلعة البرتغالية واحتلال ممباسة . إلا أن القلعة استطاعت الصمود أمام المهاجمين بعد أن تمكنت قيادة (گوا) من أن ترسل لها نجدة عسكرية ، لكنها لم تستطع أن تفك الحصار عنها إذ استمر إلى عام ١٦٩٧م . إلا أنَّ هجوماً كاسحاً قاده القائد ناصر بن عبدالله يوم ١٣/ ١٢/ ١٦٩٨م انتهى بالنجاح وتمكن من اقتحام القلعة وقتل قائدها وإبادة

الموجودين فيها[٣] .

وكان ذلك النصر بداية لتوسع عربي عُماني في شرقي أفريقيا ، إذ أصبحت ممباسة التي تقع في كينيا اليوم ، وجزيرة زنجبار من جملة الممتلكات العُمانية ، وامتدت عُمان من أراضيها في بلاد العرب إلى أراضيها في شرقي أفريقيا ، حيث استمر الحكم العربي هناك إلى عام ١٩٦٤م .

أما التحركات العسكرية العُمانية والهجمات على قواعد البرتغاليين في (سورات) و(ديو) و(باسين) فقد حصلت على أيام الإمام اليعربي الخامس سلطان بن سيف الثاني ، وليس على أيام جده سلطان بن سيف الأول كما ذكرته المصادر العُمانية التي اشتبهت عليها الأسماء . فتقول المصادر البرتغالية ، إن رسالة مؤرخة بتاريخ ١٢/ ١/ ١٧١٥م أرسلها نائب الملك في الهند إلى ملك البرتغال يخبره فيها أن ميناء (سورات) الفارسي الذي كان يعتبر ملكاً للبرتغال حسب اتفاق خاص مع الشاه ، قد سقط بيد العرب خلال العام الماضي ، وأنه عندما سمع بسقوطه أصدر أوامره إلى قيادة المنطقة الشمالية في الهند أن تقوم بهجوم على العرب ، قبل أن يتمكنوا من التوسع بعملياتهم العسكرية لأن العرب قد أسروا مركباً كبيراً من مراكب ملك البرتغال . وتستطرد الرسالة قائلة إن الهجوم جرى يوم ١٩/ ٢/ ١٧١٤م وقد استمرت المعركة منذ الصباح إلى الليل ، وإن العرب خسروا فيها (١٨٠٠) قتيل حسب المعلومات التي وصلت إليه ، بينما فقد البرتغاليون ثمانية وعشرين قتيلاً وأربعة وثلاثين جريحاً . وأن العرب بعد أن احتلوا (سورات) لفترة تركوها واتجهو نحو ميناء (كنك) الفارسي وأجبروا الحاكم الفارسي (الشاهبندر) على أن يسلمهم السفينة الملكية (فيتور) كما طلبوا منه تسليم الموظف البرتغالي المسؤول عن المصالح البرتغالية هناك ، فلما امتنع الشاهبندر عن ذلك هاجموا الوكالة وأحرقوها وانسحبوا ، وأن شاه ايران قد غضب غضباً شديداً وأوشك أن يشن الحرب على مسقط ، لذلك فقد تم ارسال نجدة برتغالية

(3) H. BRITIAN AND P. RIPLEY. ASIMPLE HISTORY OF EAST AFRICA. P. 82 .

إليه مكونة من أربع سفن بقيادة (الجنرال فرانسيسكو بيريرا)[٤] .

أما بالنسبة للهجوم العُماني على القاعدة البرتغالية في (ديو) فقد ذكرت المصادر البرتغالية أن ذلك قد حصل في أواسط عام ١٧١٧م حيث ورد تقرير من مقر القيادة الشمالية البرتغالية يفيد أن هجوماً شنته ثلاث عشرة سفينة مسقطيه ، وأن القائد (لوبو جوزيف دي الميادا) قد اشتبك معهم بمعركة ، وأن العرب تمكنوا من تدمير ميناء (ديو) وانهم توجهوا إلى (سورات) للاشتباك بالبرتغالين هناك .

وفي صيف عام ١٧١٨م قام الإمام العُماني بمهاجمة البحرين وتمكن من طرد القوة الفارسية الموجودة فيها وضمها إلى الدولة اليعربية مما دفع بالشاه حسين الصفوي إلى أن يكتب إلى نائب الملك البرتغالي في (كوا) يطلب منه مساعدته في استرجاع البحرين ، وقد وافق نائب الملك على طلب الشاه وأمر بتجهيز حملة بحرية لهذا الغرض ، وتم إرسالها ووصلت إلى ميناء (كنك) الفارسي في شهر شباط من عام ١٧١٩م ، إلا أن هذا الاسطول لم يستطع أن يشتبك بالاسطول العُماني إلا في شهر نيسان/ ابريل من ذلك العام بمعركة استمرت من الساعة التاسعة صباحاً إلى السابعة مساءً إلا أنها لم تكن في صالح الأسطول العُماني ، ثم استغل الطرفان حلول الظلام لإعادة التنظيم والمباشرة بالقتال في صباح اليوم التالي . وفي الساعة السادسة من صباح اليوم التالي اشتبك الطرفان ثانية واستمرت المعركة إلى الليل فيما بدا الانهاك والتعب على الاسطول العُماني ، فصدرت الأوامر اليه بالانسحاب إلى عُمان . وقام البرتغاليون بمطاردته لمدة ثمانية أيام إلى أن تمكن من الوصول إلى جلفار ، أما الأسطول البرتغالي فقد ذهب إلى ميناء (كنك) الفارسي ، وتقول المصادر البرتغالية إن خسائر العُمانيين بلغت (٥٠٠) قتيل بينما خسائرهم (١٠) فقط . وعندما كان الأسطول البرتغالي في (كنك) فإن القائد بقي خائفاً من احتمال مهاجمته من قبل سفن انجليزية أو هولندية لذلك قرر أن يضرب الأسطول العُماني في جلفار ويدمره

(٤) DANVERS – المصدر نفسه – ص ٣٨٠ . وكذلك ابن رزيق – المصدر نفسه – ص ٢٨٥ .

فتوجه اليه يوم ٢٩/ نيسان ، واستمرت المعركة بين الطرفين إلى اليوم الثاني ، إلا أن الاسطول العُماني تمكن من التملص من المعركة والوصول سالماً إلى مسقط(٥) .

وعلى كل حال ، فإن أخبار المعارك التي حدثت بين العُمانيين والبرتغاليين بعد تحرير مسقط ، ذكرها المؤرخون العُمانيون بشكل غير مفصل ، ويمكن استخلاص بعضها من المراسلات والمكاتبات التي أرسلها ملوك عُمان لملوك اليمن ، كما وجدنا بعض أخبارها في صفحات التقارير الهولندية . وهي على العموم معارك باسلة ، يبدو فيها بوضوح كيف تحولت عُمان من دولة يعشعش فيها البرتغاليون ويقومون بجدع أنوف وآذان أبنائها ، إلى دولة عسكرية تملك اساطيل بحرية قوية انتقمت من البرتغاليين وأرعبت أساطيلهم واستطاعت أن تهزمهم وتهزم حلفاءهم ومن يتعاون معهم ، فسبحان مغير الأحوال .

ومن المفيد أن نختتم هذا الفصل بالقول إن هذه الدولة العربية العُمانية اليعربية بدأت بالاضمحلال والضمور بعد وفاة الإمام سلطان بن سيف الثاني في جمادي الآخره سنة ١١٣١هـ المصادف لأواخر عام ١٧١٨م ، إذ بموته دخلت عُمان في مشاكل سياسية وحروب أهليه مدمرة ، وكان السبب في اختلاف أهلها هو أن ولي عهده المسمى سيف بن سلطان الثاني كان صبياً دون العاشرة من عمره ولم يكن له إخوة أكبر منه سناً ، فاختلف القضاة والولاة والعلماء في أمر من سيسوس الأمة ، وظهر له منافسون نافسوه على العرش ، فسقط من كرسي العرش خمس مرات ودفعه طموحه حينما بلغ مبلغ الرجال أن يغامر بالسياسة فجر النكبات إلى البلاد وعَرَّضها للمخاطر وسمح بدخول قوات أجنبية فارسية إلى عُمان لغرض المحافظة عليه من خطر الانقلابات المتتالية ومن تآمر كل الفئات ضده ، إلا أن القوات الفارسية التي أتت إلى عُمان لتثبت عرشه ما لبث أن قلبت له ظهر المجن وأعلنت أنها في عُمان لغرض ضمها إلى مملكة فارس .

(٥) DANVERS - المصدر نفسه - ص ٣٨٥ . وكذلك السالمي - المصدر نفسه - ص ٩٢ .

وتتحدث المصادر الهولندية عن حالة الضعف والتفكك التي آلت اليها عُمان آنذاك ، وتقول إنها فقدت معنوياتها وقابلياتها على القتال ، كما أن مسقط لم تعد مركزاً تجارياً .

أما المصادر البرتغالية فتذكر أن هذا الإمام طلب معاونتهم ضد الفرس فتقول :

« إن وفاة إمام عُمان ، أعقبتها ظهور حوادث عنف شديدة في مسقط ، حيث خلفه على العرش (ابن أخيه) الذي أرسل وفداً ليفاوض البرتغاليين بشأن عقد صلح معهم ، إلا أنه غيَّر رأيه عندما تأكد أن الفرس لا ينوون احتلال مسقط ، لكن هذه الحادثة كانت بداية لسلام مع العرب ، حيث إن الأسطول البرتغالي الحربي الموجود في فارس قد تم سحبه إلى (كوا) إذ لم يعد لوجوده فائدة هناك ، وكان ذلك في حوالي عام ١٧٢٠م لذلك فقد أصدر نائب الملك البرتغالي أمراً بوضع الخطط المناسبة لاستعادة (ممباسه) من يد العُمانيين ، كما أمر باعادة بناء كنيسة (سانت لوشيا) التي دمرها العُمانيون في (ديو) وكذلك الكنيسة التي دمروها في مدينة (باسين) ، وفي هذه السنه أيضاً ساد الهدوء والاطمئنان جميع أهالي (ديو) وازدهرت التجارة في المنطقة .»

وكانت نهاية هذا الإمام أنه تنازل عن العرش عام ١٧٤٤م ، وانتهت بتنازله الدولة اليعربية في عُمان لتقوم مقامها دولة البوسعيد القائمة إلى يومنا هذا ، كما انتهت أيضاً القصة السياسية للعرب والبرتغال في التاريخ .

39

الفصل التاسع والثلاثون

الخاتمة

تلك كانت قصة العرب والبرتغال في التاريخ ، وهي كما بيّناها ، قصة عمرها ألف عام ، ابتدأت في سنة ٧١١م وانتهت في سنة ١٧٢٠م ، وقد شهدت تلك الأعوام أحداثاً خطيرة في تاريخ الأمتين ، فكما بدا في صفحات هذا الكتاب أن دولة البرتغال تأسست رسمياً في عام ١١٤٨م ، عندما تمكن البرتغاليون بمساعدة الجيوش الأوربية الصليبية من إخراج العرب من لشبونة ، كما أن بداية سقوط البرتغال من عليائها في المسرح السياسي كأول دولة فتحت باب الاستعمار الحديث في العالم ، قد تم على يد العرب عام ١٥٧٨م .

وهي قصة عامرة بالدروس والعبر ، تبين بوضوح قصة الصراعات المختلفة ودوافعها بين البشر ، فهي صراعات دينية وسياسية واقتصادية وأخرى مختلفة ، وكيف تدفع تلك الصراعات والأطماع والطموحات بالبشر ، وتحركهم في طاقة هائلة . حسب سُنَّة الخالق بخلقه ، فتقوم أمم وتهلك أخرى ، وترتفع شعوب وتهبط غيرها ، وهكذا تتداول الأيام بين الناس .

ففي قصة أيام العرب في البرتغال والتي استمرت حوالي خمسمائة عام ، كانت بدايتها امتداداً واستمراراً لقصة تفوق العرب على الغرب ، والذي برز بالدفع الإسلامي الذي أوصل العرب إلى الأندلس الاسبانية والغرب البرتغالية ، فدخلوا تلك

الديار ومشعل العلم في أياديهم وآثارهم الموجودة إلى الآن هناك خير شاهد على أنهم قدموا للعالم الكثير من العلوم الإنسانية وساعدوا على نمو الحضارات هناك ، ولم يحاولوا إرغام أحد من الناس على اعتناق الإسلام أو التعرب ، بل إن طبيعة الظروف والأحداث أدت إلى تعريب تلك البلاد ، فلا يرجع انتصار العرب إلى التفوق العسكري المادي فحسب ، ولكن إلى نوع البناء العسكري للفرد المقاتل والذي كان يقوم على العقيدة الإسلامية الراسخة .

إلا أن تغيُّر الطابع العربي العام في الأندلس ، من طابع التقشف والإيمان إلى طابع الرخاء والرفاهية والانغماس في وسائل الترف ، أدى إلى فساد الأخلاق وتغيير المعايير الاجتماعية وارتباك الميزان الاقتصادي خاصة حين استفحل الأمر بسقوط الخلافة الأموية في قرطبة ، فامتدت نزعة الانفصال والاستقلال إلى الحكام العرب هناك ، فأسسوا دويلات صغيرة مبعثرة هنا وهناك ، وصار هَمُّهم أن يتلقبوا بألقاب التعظيم ، وصعد إلى دست الحكم بعض الرؤساء من غير ذوي الأهلية الذين لم يصلوا إلى عروشهم إلا بدفع من عصبية مؤيدة أو حظ مقتدر .

وكان من سوء تدبير العرب وانعدام الحنكة السياسية عندهم ، أن فترة التفرّق والتجزئة هذه ، عاصرت فترة تنبه وتوثب وحسن تدبير وتنظيم خصومهم ، فاهتزت الأندلس لسقوط (قرطبة) واهتز الغرب لسقوط (لشبونة) ، ثم ابتدأت مرحلة التهافت ولم تنجح المحاولات التي قامت بها الدول والحكومات المغربية المختلفة لإنقاذ ما يمكن انقاذه فضاعت الأندلس الاسبانية وضاع الغرب البرتغالي .

ثم وقعت فترة التحول الكبرى في العالم العربي والاسلامي بسقوط الخلافة العباسية ، ففقد العرب اسمهم ، وتحولوا من حاكمين إلى محكومين ومن سادة إلى رعايا ، ليس للمغول فقط ، ولكن حتى للشعوب المسلمة التي اتخذت من الإسلام طريقة لحكم العرب .

ثم جاءت الطامة الأخرى بالحروب الصليبية التي شنتها أوربا على العرب والمسلمين طيلة مائتي عام ، حيث لم تكن هذه الحروب دينية فقط حسب أهدافها المعلنة ، إنما كانت اقتصادية أيضاً في دوافعها لتحويل الريع الذي تنتجه البلاد العربية إلى رجال الاقطاع الأوربيين ، وهم أي الأوربيون حتى بعد هزيمتهم ، قد أدرك سياسيوهم واقتصاديوهم سر الثراء العربي من حيث اعتماد الدول العربية والإسلامية على تجارة الهند ، لذا فقد راحوا يضعون الخطط لانتزاعها منهم ، فكان الاستعمار البرتغالي الذي كان باكورة الاستعمار في العصر الحديث والذي قام نتيجة لتحضيرات واستعدادات طويلة وخطط متقنة باحتكار تجارة الشرق واحتكار السيطرة الاقتصادية في العالم ، ثم التبشير بالمسيحية .

إن الفترة التي واكبت الغزو البرتغالي للدول العربية والاسلامية ، كانت فترة انتقال بالغة الأهمية بالنسبة للقوى العربية والإسلامية التي تصدرت الزعامة فيه ، فقد تعاقبت دول مختلفة في المغرب العربي ، وسقطت دول أخرى في المشرق العربي إلى أن ظهرت الدولة العثمانية التي انتزعت الخلافة بصورة رسمية من يد العرب وأعلنت نفسها حامية لحمى المسلمين في العالم وظهرت معها الدولة الصفوية في إيران ، وكانت دولة المماليك تحكم مصر وسوريا والحجاز ، وقد أدى ظهور تلك القوى الإسلامية إلى انحسار تام تقريباً للأجهزة العربية الحاكمة .

صحيح أن قصة الصراع العربي - البرتغالي قد غلفها في جميع مظاهرها الطابع الديني ، أي عنصر الصدام بين المسلمين والأوربيين ، إلا أن انشغال القوى الإسلامية في صراعات مذهبية أو توسعية أضعف تماسكها ، فقد قامت الحروب بين الدول الإسلامية الثلاث المماليك والعثمانيين والفرس ، وكانت حروباً متعددة الأوجه بحيث يستحيل القول الفصل بخصوصيتها وأبعادها ، فهي صراعات شخصية وقومية ذات أبعاد اجتماعية أو اقتصادية أو مذهبية متداخله مع ابعادها السياسية ، فكان التفكك السياسي الذي عانت منه تلك القوى في المشرق عاملاً رئيسياً ساعد البرتغاليين على

توطيد أقدامهم هناك .

وقد برز ذلك الأمر جلياً في أوجه تعامل حكام فارس مع الغزو البرتغالي ، فلأكثر من مائة عام لم يتعامل هؤلاء الحكام بحسن نية مع العرب ، بل إنهم شكلوا حلفاً مع البرتغاليين ضد عرب الخليج والدولة العثمانية ، كما أن الدولة العثمانية لم تقدر على وضع أسس للتعاون الاقليمي في مواجهة البرتغاليين ، بل إن سياسة القسوة وشدة البطش التي عُرف بها الأتراك والاعتماد على لغة الدم كقاعدة بدلاً من الحوار السياسي ، دفعت ببعض القادة العرب إلى أن يكونوا في وضعٍ أُجبروا فيه على عقد صلحٍ مع البرتغاليين ، للوقوف أمام التهورات السياسية العثمانية .

وعلى العكس كانت قصة صراع القوى الإسلاميةُ الهندية ضد البرتغاليين ، فالحق يقال إن الملوك والأمراء الهنود المسلمين لم يهدأ لهم بال ولم يغمدوا سيوفهم لمدة المائة عام الأولى من حكم البرتغالين للهند ، فكانت أسرة عادل شاه قد تعاقبت حفيداً عن حفيد لقتال البرتغاليين إلى أن وهنت قواها .

لذلك فإن قصة العرب والبرتغال في التاريخ عامرة بالدروس والعبر ، وقد أوضحت أمراً مهماً ألا وهو الأهمية الاستراتيجية للأمة العربية وحقيقة الدور الذي لعبه القادة العرب في تلك الحقبة . إذ بدا جلياً أن السيوف العربية المغربية هي وحدها التي تمكنت من القضاء على البرتغاليين في المغرب ، كما أن السيوف العربية العُمانية تمكنت وحدها من القضاء على البرتغاليين في عُمان والخليج العربي .

لقد حقق البرتغاليون خلال العقدين الأولين من القرن السادس عشر إنجازات سياسية وعسكرية كبيرة ، فاحتفظوا بامبراطورية واسعة رغم صغر حجمهم الجغرافي وقلة عدد نفوسهم ومواردهم الاقتصادية ، إلا أن استراتيجيتهم العسكرية كانت صائبة وقد قامت على حسابات تكتيكية دقيقة بحسن اختيارهم للمواقع ذات التأثير الفعال في السيطرة على طرق المواصلات البحرية وتشييد القواعد البحرية والقلاع الضخمة

التي توفر لجنودهم الحماية الكافية ، بل توفر لهم نقاط انطلاق ووثوب قتالية ممتازة .

إلا أنه وقبل أن تتمكن السيوف العربية المغربية من تحطيم الجزء الأكبر من الهيكل الأمبراطوري البرتغالي ، فإن عوامل الضعف والانحلال بدأت تدب إلى جسم ذلك الهيكل .

فالبرتغاليون عانوا منذ البداية من قلة عددهم ، وبمرور الزمن ولكثرة التوسعات والفتوحات الاستعمارية وما تحتاجه امبراطوريتهم الممتدة من البرازيل في أمريكا إلى الصين في آسيا ، فإنه لم يعد معقولاً أن تستمر الدولة بتلبية كل الاحتياجات لتلك الامبراطورية الممتدة الأطراف ، فكان لذلك القصور نتائجه الخطيرة ، فهم علاوة على قلة عددهم ، فإنهم وبعد أن أكملوا فتوحاتهم ارتخوا واستراحوا في مستعمراتهم فظهر جيل منهم تنقصه الكثير من شجاعة الآباء الأوائل وإقدامهم .

وقد بدا واضحاً من خلال صفحات هذا الكتاب كيف كان الفساد مستشرياً عند طبقة الحكام الذين ترسلهم لشبونة إلى مستعمراتها في الشرق فقد كان جل همهم هو نهب ما يمكن نهبه وحشو جيوبهم بسرعة ، لذلك لم يتمكنوا من القضاء على التجارة العربية الإسلامية بصورة تامة رغم وسائل العنف والقهر التي اتبعوها ، فتعرضت الأمبراطورية إلى ضغوط مالية أفسدت الكثير من أجهزتها الإدارية ، وانعكس ذلك على ممارساتهم السياسية والعسكرية ، وتعصبهم الديني وفقدانهم المرونة ، فقد كانت محاربة المسلمين وتحطيم تجارتهم وتدنيس مقدساتهم هدفاً رئيسياً من أهدافهم ، لذلك فلا عجب أن أثار ذلك حقد المسلمين وخاصة العرب الذين لم يستطع البرتغاليون أن يتركوا أثراً حسناً لديهم ، وتمثل الغرور العسكري البرتغالي الممزوج بالتعصب الديني والمحاط بإطار الدافع الاقتصادي بحملة الملك سيباستيان التي انتهت بكارثة عام ١٥٧٨م .

لقد كانت تلك الكارثة التي حلت بالبرتغال ، ذات شقين ، الأول : أنها وضعت البرتغال تحت الحماية الاسبانية فتخلخلت بذلك قيّم الشعب البرتغالي المعنوية ،

والثاني : تنبيه القوى الأوربية الأخرى مثل الهولنديين والانجليز إلى أهمية المستعمرات البرتغالية ومناطق نفوذهم ومصادر ثروتهم . فلم تمنع الأخوة المسيحية ووحدة الدين من عدم الصدام بين تلك الدول في سبيل مصالحها الاقتصادية وأطماعها ، فراحت بريطانيا تضع الخطط لتحطيم اسبانيا والبرتغال عسكرياً وسياسياً ، ومن ثم إخضاع ممتلكاتهم لنفوذ التاج البريطاني ويأسلوب التدرج المبني على الحنكة السياسية وبعد النظر ، فحدث ما حدث من تحالف بين الشاه عباس الصفوي والملكة اليزابث ، وما أدى ذلك التحالف إلى توجيه ضربة قاصمة للبرتغاليين وإنهائهم في فارس .

إلا أنه إذا تمكن الشاه من القضاء على البرتغاليين في بلاده مستعيناً بالسيوف الإنجليزية فإن البرتغاليين كثفوا وجودهم في الجانب العربي من ساحل الخليج ، ولم ينتهوا هناك إلا بالسيوف العربية العُمانية للدولة اليعربية .

كما أن تخبط الشاه عباس الصفوي بمغامراته السياسية وكثرة طموحاته أدت به إلى أن يقع في فخ السياسة الإنجليزية ، فيفتح الباب على مصراعيه لاستعمار جديد في المنطقة جثم على صدور العرب أكثر من غيرهم ، وهو الاستعمار البريطاني في الخليج والذي لم ينته إلا في عهدنا هذا .

وأخيراً ، فإن ما بقي لدينا أن نقوله ، هو : ماذا آل الأمر بالبرتغاليين بعد أن انتهت قصتهم مع العرب . . ؟

لقد بقوا بشكل مترجرج في مستعمراتهم في الهند وشرقي أفريقيا ، وابتدأ نفوذهم بالانحسار في الهند منذ أن تنازلوا عن مدينة بومباي إلى الإنجليز ، وبقوا يجابهون هناك ثورات المسلمين الدائمة ضدهم ، فالحق يقال إن الملوك والحكام المسلمين الهنود لم يهدأ لهم أوار ولم يغمدوا سيوفهم أبداً في مجابهة البرتغاليين ، وإن تاريخ العلاقات الهندية - البرتغالية يعج بأخبار حروب الهنود المسلمين ضد البرتغاليين ، ولو وسعني المجال على صفحات هذا الكتاب لكتبتها مع الشرح الوافي لها .

وقد أعاد البرتغاليون تنظيم أنفسهم بعد أن زاحمهم الإنجليز والهولنديون

والفرنسيون وغيرهم من أمم الاستعمار الغربي لأفريقيا والشرق فشكلوا وزارة للمستعمرات لتدير أملاكهم ومستعمراتهم خاصة في الموزمبيق وأنجولا وغينيا بيساو ، وكان حكام تلك المقاطعات تابعين لنائب الملك في الهند ، وعليهم أن يرفعوا إليه التقارير السياسية ، وأطلقت وزارة المستعمرات اسم (البرتغال فيما وراء البحار) على تلك المستعمرات ، وراحت تشجع البرتغاليين على الهجرة إليها واستغلال خيراتها ، كما تم إنشاء معهد باسم (معهد دراسات ما وراء البحار) ، ثم صار اسم وزارة ما وراء البحار يطلق أيضاً على وزارة المستعمرات البرتغالية ، حيث أصدرت هذه الوزارة عام ١٩٣٣م قانوناً اعتبرت فيه جميع الأراضي الخاضعة للبرتغال جزءاً لا يتجزأ من أرض البرتغال .

إلا أن أعوام ما بعد عام ١٩٤٨م ، شهدت في المستعمرات البرتغالية في أفريقيا حركات تهدف إلى الاستقلال ، فنشطت في الموزمبيق حركة الاتحاد الوطني ، انضم اليها بعض البرتغاليين الذين شعروا بضرورة تغيير الأوضاع في المستعمرات حتى لا يؤدي الموقف إلى انفجار ، ثم تشكلت جبهة تحرير الموزمبيق التي أعلنت الكفاح المسلح عام ١٩٦٤م .

وعندما نالت الهند استقلالها التام من بريطانيا عام ١٩٤٧م دخلت في مفاوضات مع البرتغاليين للخروج من (كوا) وإعادتها إلى الوطن الأم ، إلا أن البرتغاليين ماطلوا في مفاوضاتهم فلم يبق أمام نهرو إلا طريق استخدام القوة المسلحة فتمكن في عملية عسكرية خاطفة عام ١٩٦١م من طردهم بصورة نهائية من (كوا) ومن أرض الهند .

أما المستعمرات الأفريقية فقد نالت كلها استقلالها عام ١٩٧٤م ، وبذلك انتهت قصة الاستعمار البرتغالي في العالم كله .

- انتهى الكتاب -

مراجع الكتاب

المصادر العربية

ابن بسام – مقتطفات من كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة – المختار من التراث العربي – منشورات وزارة الثقافة والإرشاد – دمشق ١٩٧٨ .

ابن سماك العاملي – الزهرات المنثورة في نكت الأخبار المأثورة – المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ١٩٨٤ .

ابن كردبوس – تاريخ الأندلس – تحقيق الدكتور أحمد مختار عبادي – معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٧١ .

ابن دراج القسطلي – ديوان شعر حققه د. محمود علي مكي .

ابن المجاور – صفة بلاد اليمن – مطبعة مدينة ليدن – هولندا ١٩٥١ .

ابن إياس ، أبو البركات محمد بن أحمد الحنفي – بدائع الزهور في وقائع الزهور – القاهرة ١٣١٢هـ .

ابن المُطَّهر عيسى بن لطف الله – مخطوطة روح الروح – كما وردت في كتاب البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية للسيطرة عليه للدكتور محمد عبدالعال أحمد .

أبو محمد عبدالله بن حميد بن سلوم السالمي – تحفة الاعيان بسيرة أهل عُمان – مطبعة الإمام – القاهرة .

د. ابراهيم علي الطرخان – امبراطورية البورنو الإسلامية – الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٥ .

د. ابراهيم علي الطرخان – امبراطورية غانا الإسلامية – الهيئة المصريه للكتاب ١٩٧٠ .

د. ابراهيم علي الطرخان – دولة مالي الإسلامية – الهيئة المصرية للكتاب ١٩٧٣ .

د. ابراهيم شحاته حسن – واقعة وادي المخازن في تاريخ المغرب – دار الثقافة – الدار البيضاء ١٩٧٩ .

أحمد بن ماجد – كتاب الفوائد في أصول البحر والقواعد – تحقيق إبراهيم خوري وعزة حسن .

أحمد فضل بن علي محسن العبدلي – هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن – دار العودة – بيروت ١٩٨٠ .

أحمد برخت ماح – وثائق عن الصومال – الحبشة – اريتيريا – القاهرة ١٩٨٣ .

د. أحمد أبو شرب – مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الأحمر والخليج العربي – مجلة الوثيقة – مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين – العدد العاشر – ١٩٨٧ .

أحمد العناني – البرتغاليون في البحرين وحولها – مجلة الوثيقة – العدد الثاني – ١٩٨٣ .

آدم عبدالله الآلوري – موجز تاريخ نيجريا – دار الحياة – بيروت .

آرنست باركر – الحروب الصليبية – دار النهضة العربية – بيروت ١٩٦٧ .

أرنولد ولسون – الخليج العربي – مكتبة الأمل – السالميه – الكويت

أمين توفيق الطيبي – دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والأندلس – الدار العربية للكتاب – ليبيا ١٩٨٤ .

أنور عبدالعليم – ابن ماجد الملاح – سلسلة اعلام العرب – العدد ٦٣ .

اورهنلو – بروفسور ي. أورهنلو – تقرير حول الحملة العثمانية على البحرين – مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية – العدد ٢٤ .

ب. ج. روجرز – تاريخ العلاقات الإنجليزية المغربية حتى عام ١٩٠٠ – ترجمة الدكتور يونان لبيب رزق – الدار البيضاء ١٩٨١ .

د. بديع محمد جمعه – الشاه عباس الكبير – دار النهضة العربية – بيروت ١٩٨٠ .

بشير حمود كاظم – حركة الكشوف البرتغالية وأهدافها – أبحاث ندوة رأس الخيمة – ١٩٨٧ .

بسام العسلي – القانوني القائد – سيرة سليمان القانوني – دار النفائس – بيروت ١٩٨٦ .

تاريخ العصر الحديث – وزارة التربية الوطنية – المملكة المغربية .

جمال زكريا قاسم – الأوضاع السياسية في الخليج العربي إبان الغزو البرتغالي – ابحاث ندوة رأس الخيمة – ١٩٨٧ .

جلال الدين أبو الفضل عبدالرحمن السيوطي – نظم العقيان في أعيان الأعيان – المطبعة السورية الامريكية في نيويورك ١٩٢٧ .

حامد ربيع – النظام الدولي الاقليمي في منطقة الخليج العربي خلال فترة الاستعمار البرتغالي – أبحاث ندوة رأس الخيمة – ١٩٨٧ .

د. حسين علي الداقوقي – تقرير حول الحملة العثمانية على البحرين سنة ١٥٥٩ وهو ترجمة مقال البروفسور أورهونلو – مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية – العدد ٢٤ .

د. حسن ابراهيم حسن – تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي – دار إحياء التراث العربي – بيروت ١٩٦٤ .

حمد بن محمد بن رزيق – الفتح المبين في سيرة السادة البو سعيديين – وزارة التراث القومي – سلطنة عُمان – ١٩٧٧ .

حمزه علي لقمان – معارك حاسمه من تاريخ اليمن – مركز الدراسات اليمانية – ١٩٧٨ .

د. رجب حراز – اريتريا الحديثة – معهد البحوث والدراسات العربية – جامعة الدول العربية – ١٩٧٤ .

روجي لوتورنو – حركة الموحدين في المغرب – ترجمة الدكتور أمين الطيبي – ليبيا ١٩٧٨ .

زين الدين ، الفقيه الشيخ زين الدين – تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتكاليين – وهو كتاب يقع ضمن صفحات كتاب برتغالي بعنوان :

HISTORIA DOS PORTUGUESE NO MALABAR

س. بكنجهام – بعض الملاحظات عن البرتغاليين في عُمان – حصاد ندوة الدراسات العُمانية – مسقط ١٩٨٠ . ١

س. بوكستر – ملاحظات جديدة عن الصلات بين العُمانيين والبرتغاليين من ١٦١٣ – ١٦٣٣ – حصاد ندوة الدراسات العُمانية – مسقط ١٩٨٠ .

سبنسر ترمنجهام – الإسلام في شرق أفريقيا – ترجمة محمد عاطف النواوي – مكتبة الانجلو مصرية ١٩٧٣ .

د. سعدون عباس نصر الله – دولة المرابطين في المغرب والاندلس – دار النهضة العربية – بيروت ١٩٨٥ .

د. سعاد ماهر – البحرية في مصر الإسلامية – دار الكاتب العربي للطباعة والنشر– القاهرة – ١٩٦٧.

سلوت بي. جي– عرب الخليج– المجمع الثقافي– أبوظبي.

د. سهيل زكار – مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية – دار الفكر – دمشق ١٩٧٢ .

الشاطر بصيلي عبدالجليل – تاريخ وحضارات السودان الشرقي والأوسط – الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة ١٩٧٢ .

شوقي عطاالله الجمل – الصراع العربي البرتغالي في المحيط الهندي – ابحاث ندوة رأس الخيمة – ١٩٨٧ .

د. صالح محمد العابد – الصراع العُماني البرتغالي خلال القرن الرابع عشر – مجلة الوثيقة – العدد ١٢ – ١٩٨٨ .

د. صالح أوزبران – الأتراك العثمانيون والبرتغاليون – منشورات مركز دراسات الخليج العربي – جامعة البصرة .

د. صادق ياسين الحلو – الغزو البرتغالي للخليج العربي من خلال المصادر الفرنسية – أبحاث ندوة رأس الخيمة ١٩٨٧ .

صلاح البكري – تاريخ حضرموت السياسي – القاهرة ١٩٥٦ .

د. صلاح العقاد – عُمان في مواجهة البرتغال – حصاد ندوة الدراسات العُمانية – مسقط ١٩٨٠.

صفحات من تاريخ النفوذ البرتغالي في البحرين – مجلة الوثيقة – مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين – العدد الأول – ١٩٨٢ .

د. طارق نافع الحمداني – الرحالة البرتغاليون في الخليج العربي – أبحاث ندوة رأس الخيمة – ١٩٨٧ .

د. طارق نافع الحمداني – دراسة في الوثائق والمصادر المنشوره عن الغزو البرتغالي .

عادل سعيد بشتاوي – الاندلسيون المواركه – القاهرة ١٩٨٣ .

عبدالرحمن علي الحجي – التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة – دار الاعتصام – بيروت ١٩٧٦ .

عبدالله بن خلفان بن قيصر – سيرة الإمام ناصر بن مرشد – تحقيق عبدالمجيد القيسي – وزارة

التراث القومي – سلطنة عُمان .

د. عبدالعزيز سالم – المغرب الكبير – القاهرة ١٩٦٦ .

د. عبدالعزيز سالم – تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس – دار النهضة العربية – بيروت ١٩٨١ .

عبدالرحمن علي الديبع – الفضل المزيد على بغية المستفيد في اخبار مدينة زبيد، تحقيق الدكتور يوسف شلحد – مركز الدراسات والبحوث اليمني – صنعاء ١٩٨٣ .

د. عبدالهادي التازي – ابن ماجد والبرتغال .

د. عبدالهادي التازي – الموجز في تاريخ العلاقات الدولية للمملكة المغربية .

د. عبدالكريم كريم – المغرب على عهد الدولة السعدية – الرباط ١٩٧٨ .

د. عبدالأمير أمين – نظرة جديدة للإنجازات السياسية والعسكرية والتجارية البرتغالية في آسيا – مجلة الوثيقة – العدد ١٣ – ١٩٨٨.

عبدالرزاق علي عثمان – البرتغاليون في شرق أفريقيا وطردهم منها – مجلة الوثيقة– العدد ١٤ – ١٩٨٩ .

د. عبدالوهاب القيسي – المجابهة البرتغالية العثمانية في المياه العربية – أبحاث ندوة رأس الخيمة – ١٩٨٧ .

العرب وأفريقيا – مركز دراسات الوحدة العربية –بيروت ١٩٨٤ .

د. عماد أحمد الجواهري – الدور التاريخي للبصرة على الخليج العربي – ١٥٠٠ – ١٦٠٠ – مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية – العدد ١٣ .

د. عماد أحمد الجواهري – العراق والتوسع الصفوي – ١٥٠٢ – ١٥٣٠ – مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية – العدد ٢٠ .

علي ابراهيم حسن – تاريخ المماليك – مكتبة النهضة المصرية – القاهرة .

د. علي أبا حسين – بنو جابر ينطلقون من نجد لتأسيس احدى الدول الكبيرة بالبحرين – مجلة الوثيقة – العدد الثالث – ١٩٨٣ .

علي أحمد الزبيدي – أصداء الغزو البرتغالي في أدب الخليج – مجلة الوثيقة – العدد ١٤ – ١٩٨٩.

د. عليه عبدالسميع الجنزوري – إمارة الرها الصليبية – القاهرة ١٩٧٥ .

غانم الرميض – معركة تحرير مسقط – أبحاث ندوة رأس الخيمة – ١٩٨٧ .

د. فاروق عثمان أباظة – الحكم العثماني في اليمن – دار العودة – بيروت ١٩٧٩ .

د. فوزية العطية – الأوضاع الاجتماعية في الخليج العربي ابان الغزو البرتغالي – أبحاث ندوة رأس الخيمة – ١٩٨٧ .

فيليب حتى وأدور جبور وجبرائيل جبور – تاريخ العرب – دار الكشاف ١٩٤٩ .

قطب الدين النهروالي – البرق اليماني في الفتح العثماني – دار اليمامة – الرياض.

كارل بروكلمان – تاريخ الشعوب الاسلامية – دار العلم للملايين .

لوريمر ، ج.ج. لوريمر – دليل الخليج – القسم التاريخي – مكتب صاحب السمو أمير قطر .

ليفي بروفنسال – حضارة العرب في الاندلس – ترجمة ذوقان قرقوط – دار الحياة – بيروت .

محمد بن أحمد المقدسي – أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم .

محمد عبدالعال أحمد – البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية للسيطرة عليه . وفي الكتاب تحقيق لمخطوطة (قلادة النحر) للمؤرخ اليماني بامخرمة ومقارنة بمخطوطة (النور السافر في أخبار القرن العاشر) للعيدروسي وغيرها من المخطوطات اليمانية المهمة – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٨٠ .

د. محمد مظفر الأدهمي – دراسات في التاريخ الأوربي الحديث – الرباط ١٩٨٤ .

محمد مرسي أبو الليل – الهند تاريخها وتقاليدها – القاهرة ١٩٦٤م .

محمد فريد وجدي المحامي – تاريخ الدولة العليه العثمانية – دار النفائس – بيروت ١٩٨١ .

محمد عبداللطيف البحراوي – فتح العثمانيين لعدن – مكتبة دار التراث – القاهرة .

د. مصطفى السيد سالم – الفتح العثماني الأول لليمن – معهد البحوث والدراسات العربية – جامعة الدول العربية .

محمد عيسى صالحية – التدخل العثماني في اليمن – مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية – العدد ٢٤ .

محمد عارف الكيالي – الأسس الاقتصادية للاستعمار البرتغالي في الخليج العربي – مجلة

الوثيقة – العدد ١٤ – ١٩٨٩ .

محمود ياسين أحمد التكريتي – الأيوبيون في شمال الشام والجزيرة – العراق ١٩٨١ .

مصطفى عقيل الخطيب – التنافس الدولي في الخليج العربي – بيروت ١٩٨١.

د. نعيم زكي فهمي – طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٧٣ .

نوال حمزة الصيرفي – النفوذ البرتغالي في الخليج العربي – دار الملك عبدالعزيز– الرياض ١٩٨٣.

نوار عبدالوهاب القيسي – الخليج العربي ، الأهمية الاستراتيجية وملامح السياسة البرتغالية – مجلة الوثيقة – العدد ١٤ .

نونو بي سلفا – صفحات عن الغزو البرتغالي للبحرين – مجلة الوثيقة – العدد ٨ – ١٩٨٦ .

ياقوت الحموي – معجم البلدان – دار الكتاب العربي – بيروت .

يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد علي – غاية الأماني في أخبار القطر اليماني– تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور – جامعة القاهرة .

يونس نكروف – معركة وادي المخازن – منشورات عويدات – باريس .

د. يوسف بن علي الثقفي – موقف المماليك ودول الخليج من الاستعمار البرتغالي – أبحاث ندوة رأس الخيمة ١٩٨٧ .

هيفاء عبدالعزيز كريم – التنافس والصراع بين البرتغاليين والتحالف الإنجليزي الهولندي في الخليج العربي – أبحاث ندوة رأس الخيمة ١٩٨٧ .

المصادر الانجليزية

1) THE PORTUGUESE IN INDIA - FREDERIC CHARLES DANVER.

وهو كتاب يقع في جزئين وتبلغ عدد صفحاته حوالي الألف ، وقد تم طبعه مرتين ، المرة الأولى في عام ١٨٩٤م والثانية في عام ١٩٦٦م ، وأهمية هذا الكتاب أنه اعتمد على أربعين مصدراً برتغالياً مهماً ، فكتب قصة البرتغال منذ البداية إلى حوالي عام ١٨٩٠م ، ولعل أهم مصادر هذا الكتاب هي الكتب البرتغالية التالية :

A) LENDAS DA INDIA - GASPAR CORREA .

B) HISTORIA DO DESCOBRIMENTO E CONQUEST DA INDIA - FERNAO LOPEZ DE CASTANHEDA .

C) DA ASIA POR JOAO BARROS E DIOGO DE COUTO .

D) DECADA XIII DAHISTORIA DA INDIA ANTONIO BOCARRO .

E) ASIA PORTUGUESE - M. DE FARIA - Y - SOUSA .

F) RECORDS OF PORTUGUESE GOVERN MENT .

2) THE HISTORY OF THE DISCOVERY AND CONQUEST OF INDIA BY THE PORTUGUES

ومؤلف الكتاب هو : MANUEL DE FARIA Y SOUSA

وقد ترجمه إلى الانجليزيه CAP JOHN STEVES

مطبوع في لندن عام ١٦٩٥م

3) THE PORTUGUESE PIONEERS - EDGAR PRESTAGE - LONDON - 1933 .

4) FOUNDATIONS OF THE PORTUGUESE EMPIRE 1415 - 1580 . BAILEY. W. DIFFIE AND GEORGE. D WINIUS - OXFORD UNIVERSITY PRESS 1977 .

5) PORTUGAL AND THE QUEST FOR THE INDIES - CHRISTOPHER BELL - CONSTABLE - LONDON .

6) THE DISINTEGR ATION OF PORTUGUESE POWER IN THE LUF - B. J. SLOT .

وهو جزء من كتاب أصدره البروفسور سلوت مدير الأرشيف التاريخي في هولندا بعنوان عرب الخليج وقد نشره المجمع الثقافي في أبوظبي .

7) IN THE LAND OF THE WHITE TOWER B. . SLOT .

وهو المؤلف نفسه، ويبحث باختصار عن الفترة الهولندية في الخليج العربي .

8) (a) TWO LETTERS FROM ALVARO DE NORONHA FROM HORMUZ .

(B) BHARAIN IN 1559 .

(C) SOME NOTES IN THE OTTOMAN EMPIRE AS ORGINISED IN ARABI.

المؤلفات الثلاثة اعلاه للبروفسور صالح أوزبران - جامعة استانبول .

9) THE PORTUGUES OFF THE SOUTH ARABIAN COAST - R. B. SERJEANT.

وهو كتاب باللغة الإنجليزية إلا أن المؤلف كتب مادته الأصلية معتمداً على ترجمة عدد من المخطوطات اليمانية التي بحثت في موضوع النشاطات البرتغالية في السواحل اليمانية مثل :

١) تاريخ بافقيه للشحري .

٢) تاريخ شنبال .

٣) كتاب قلادة النحر لبامخرمه .

٤) كتاب النور السافر .

٥) كتاب السناء الباهر .

٦) تاريخ الشحري .

وعدد آخر من المصادر ، وقد أضاف اليها المؤلف الكثير من الهوامش والتعليقات المهمة ، وقد كتب نسخته في صنعاء عام ١٩٧٢ .

10) GOA. YESTERDAY - TODAY - TOMORROW A. D. FURTADO - COA. 1981 .

11) GOA - J.M. RICHARDS - INDIA - 1982 .

12) EAST AFRICA . H. BRITTAN AND PRIPLEM - LONDO - 1970 .

13)FORT JESUS - JAMES KIRKMAN .

14) PORTUGAL AND THE SEA BY. R. RAS - QUILHO AND J. BARROS LIS - BON . 1983 ..

15) PORTUGUESE CONQUEST AND COMMERCE IN SOUTHERN ASIA 1500 - 1750 BY. C. R. BOXEOR - LONDON 1985 .

المصادر البرتغالية

1) CONENTARIOS DE GRAND

AFONSO DE ALBUQUERQUE - BY, ANTONIO BAIAO COIMBRA - 1922 .

2) DA ASIA - BY, JOAO DE BARROS LISBOA - 1973 .

3) DA ASIA - BY, DIOGO DE COUTO LISBOA - 1973 .

4) AFONSO DE ALBUQUERQUE BY DR. JOSE FRANEIXCO DOS SANTOS .

5) SEIS FORTALEZAS FEITORIAS DA INDIA BY, JULIO GONCALVES LISBOA - 1942 .

6) ASIA PORTUGUESA - BY, MANUEL DE FARIA E SOUSA .

7) HISTORIA DOS PORTUGUESES NO MALABAR BY, DAVID LOPES - LISBOA - 1898 .

8) ASSENTOS DO GENSELHO DO ESTADO (1644 - 1658)

وهو كتاب يبحث في أيام البرتغال الأخيرة في شبه الجزيرة العربية .

9) HSTORYA CONCISA DE PORTUFAL DM JOSE HERMANO SARAIVO - 1983 .

10) ADESCORERTA DE PORTUGAL - LISBOA - 1984 .

11) DOCU MENTOS ARABICO .

وهو كتاب يحتوي على مجموعة الرسائل التي تبادلها الحكام العرب والفرس والافارقة مع ملوك البرتغال مطبوع في لشبونة عام ١٧٩٠م .

12) VESTIGIOS DA LINCUA ARABICA EM PORTUGAL BY, JOAO DE SOUSA .

وهو معجم فيما دخل إلى اللغة البرتغالية من مفردات عربية .

الفهرس

الفهرس

الفهرس

الفهرس

الفهرس

الفهرس

الفهرس

الفهرس

الفهرس

الفهرس

الفهرس

الفهرس

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة

الفهرس

هذا الكتاب

عندما دخل الفاتحون العرب إلى إسبانيا، فانهم وفي السنة الثالثة من الفتح دخلوا (إشبونة) أي لشبونة عاصمة البرتغال في يومنا هذا، وكان ذلك في حوالي عام ٧١٤ م على يد عبد العزيز بن موسى بن نصير. غير انه لم يكن للبرتغال وجود سياسي أو كيان مستقل يومذاك. لذلك فقد اطلق العرب اسم (الغرب) أي غربي الاندلس على أرض البرتغال. وقد بقي العرب في لشبونة الى عام ١١٥٠ تقريبا عندما انتزعها منهم أول ملك برتغالي هو دون افونسو هنريك، وقام هذا باعلان استقلال دولة البرتغال، لكن العرب بقوا في جنوب البرتغال إلى عام ١٢٥٠م، وكانت تلك سنوات مقارعة باسلة، حاول فيها المغرب العربي إنقاذ ما يمكن إنقاذه هناك ولكن بدون جدوى. ثم دارت عقارب الساعة حينما باشر البرتغاليون عالم الفتوحات البحرية فاحتلوا سواحل المغرب وتمكنوا من الوصول إلى الهند وبذلك احتلوا بعض مناطق الخليج العربي إلا أن بداية النهاية للبرتغال كدولة عالمية كبرى تم على يد الدولة المغربية السعدية التي تمكنت من قهر جيش أوروبي يقوده ملك البرتغال سيباستيان، فأهلكوه وأهلكوا جيشه معه، وكان ذلك في عام ١٥٧٨، ثم تمكنت بعد ذلك الدولة اليعربية العمانية من طرد البرتغاليين بصورة نهائية من الخليج العربي في حوالي عام ١٧٢٠.



المجمع الثقافي

Cultural Foundation

ابوظبي ـ الإمارات العربية المتحدة ـ ص. ب ٢٣٨٠ ـ هاتف : ٢١٥٣٠٠

ABU DHABI - U. A. E. - P .O. BOX : 2380 - TEL. 215300 Cultural Foundation